

# هنا كُتبت

رواية



شريف عبد الهادي

تويلا  
من أجل النسخ والنشر

## إهداء

إلى أبينا آدم، وأولاده إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق،  
ويعقوب..

إلى موسى بن عمران، والمسيح ابن مريم، ومحمد بن  
عبد الله..

أغيثونا.. أدركونا

إلى جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وجميع الملائكة  
الكرام..

كم تمنيتُ رؤيتكم بعد أن سحرتني سيرتكم العطرة  
وقدراتكم المدهشة.. أحببتكم في الله، وتمنيتُ صُحبَتكم  
في الدنيا قبل الآخرة، فعسى أن يكونَ ذلك على كلِّ  
خير...

من الذي قال إن الصواب صواب، والخطأ خطأ، ما دام

لكل منا كتالوج مختلف؟!

شريف عبد الهادي

## أواخر السبعينيات

انطلقت سيارة زرقاء، موديل مرسيدس "خنزيرة" - من تلك النوعية التي لم يفتتها إلا أثرياء ذلك العصر - بسرعة متوسطة نسبياً على طريق مصر الإسكندرية الزراعي، حاملةً داخلها أسرة تتكوّن من 3 أفراد.

جلس على مقعد القيادة أب في الثلاثينيات من عمره، ذو شعر كثيف مكوي، وسوالف عريضة تجعلك تشعر أنه كان يرئى لحيته بالعرض! يرتدي قميصاً مشجراً، وينطلقاً موديل «شارلمستون» فضفاضاً، كان قمة الموضة في تلك الحقبة. أمسكت يده اليسرى بعجلة القيادة، بينما راحت قدمه اليمنى تضغط كمادة البنزين في بطء مشوب بالحذر، حتى لا لاحظ زوجته التي تجلس إلى جواره زيادة السرعة، ودارى على الموقف بنظرة تفيض بالحنان الجارف والحب الدفين وهو يتأملها في ذلك الفستان الأبيض الدانتيل، ذي الأكمام القصيرة التي تتجاوز عظمة المرفق بسنتمترات قليلة ليظهر باقي ذراعيها الحلبيين وقد أحاطت معصمها الأيمن أسورة من حبات اللؤلؤ البيضاء، في تناغم مع نفس الحبات المصنوع منها ذلك الكوليه الذي يحيط جبهها، فيما أحاط خصرها خزام أسود اللون من القطيفة، معقود في صورة فيونكة مطرزة بحبات الخرز الأبيض، ليقف الفستان على حدود الركبة التي تجلس عليها طفلتهما الوحيدة النائمة في سكرينة وطمانينة، لتتلق ملامحها الجميلة ببراءة العامين اللذين لم تتجاوزهما بعد، في حين يخرج صوت عبد الحليم حافظ من كاسيت السيارة وهو يردد بصوت العنديل: «افرح واملا الدنيا أغاني.. لا أنا ولا إنت هنعشق ثاني».

مع نغمات الأغنية وكلماتها التي تدعو للتفاؤل، بادلت الزوجة زوجها بظلمات العشق والوله، قبل أن يجذب نظرها عقرب عداد السرعة الذي وصل إلى الرقم ١٢٠.

ما أن يلمح الزوج نظرتها حتى يتراجع المؤشر إلى الرقم ٨٠ لتهدأ سرعة السيارة وسط الطريق السريع، ثم عاد ينظر لها مجدداً وهو يبتسم ابتسامة أعلن عن اعتذاره، فردت عليه بابتسامة مرحة شقية، تؤكد أنها قبلت الاعتذار، قبل أن تتراجع برأسها للخلف وكأنها تغوص في مقعدها وهي



سكاكين باردة لا تصلح كسلاح مناسب لمواجهة هذا الغريب!

وعلى نفس الطريق الزراعي، سارت سيارة «روميس» حمراء، يقودها رجل ملتجئ في نهاية الثلاثينيات من عمره وقد أكسبته تلك الشبهات البيضاء المتناثرة في لحيته عمراً أكبر من عمره الحقيقي، ليشتق أذنيه بصوت الشيخ (رفعت)، قيثارة السماء وأيقونة قارئ القرآن وهو يتلو آيات قرآنية من الذكر الحكيم، وإلى جواره جلس طفل صغير ساله ببراءة:

- متى سنصل يا أبا الحاج؟

"حين يأن الله يا ولدي.. كل ما علينا أن نضغط كمache البنزين فحسب" أجابه الأب بحكمة ونبرة إيمانية دون أن يلتفت إليه، ثم ارتجت السيارة فجأة وأطلق محركها زمجرة بائسة أجبرت الرجل على الإمساك بعجلة القيادة بكلتا يديه بقوة وهو يعقد حاجبيه وعلى ملامح وجهه الدهشة والحيرة وهو يردد في توتر:

- الله أكبر.. سترك يا رب

ومن جانبه، انكمش الصغير في مقعده وهو يغوص في الدواسة، وعلى ملامحه الزعب والهلع، قبل أن ينجح والده في السيطرة على السيارة، والوقوف بها على الجانب الأيمن من الطريق، ليغادر السيارة مسرعاً نحو سماء السيارة الأمامي الذي أزاله بتوتر وبدأ في فحص الموتور.

ما أن فتح الغطاء حتى غشى عينيه دخان كثيف، قبل أن يظهر على الجانب الآخر من الطريق ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين، ليتأمل المشهد بابتسامة ساخرة.

ومع تطلعها للمشهد من بعيد، رأى الرجلُ الغامضُ هالةً من اللون الأخضر المريح العين، تتألق بوهج حول الرجل الملتحي وطفله الصغير!

\*\*\*

في حنان ورفق مسحت الأم شعر طفلتها الجميلة النائمة داخل العربة المرسدة، قبل أن تنتظر لزوجها قائلة في حب:

تأمل تألق البدر ليلة تمامه ويزوغه وسط السماء في لوحة إلهية بدعية تُرسل خيوطها الفضية للناظرين، لتسرح في روعة المشهد وهي تقول بلهجة حاملة سعيدة:

- أعشقتك حين تفهمني من عيني.

ثم عادت لتلتفت نحوه في غنج بينما ما زالت خصلات شعرها تتلاعب على صفحة وجهها الملائكي، وقد أفاضت عينها بالهيام، وأطل من شفتيها العشق والعطش، وزحفت بدوا اليسرى نحو يده اليمنى لتمسكها بشدة أنثيت برعشة فككت أوصاله، حتى إنه تحكم في أعصابه بالكاد واستبدل رغبته المحمومة في عناق حار برفعة بسيطة ليدها الرقيقة الملكية ثم جذبها نحو فمه ليلثمها بقبلة حانية أمتزجت بأنفاسه الحارة التي نطقت بعشقه لها.

في تلك اللحظات، كان هناك شيخ رجل يرتدي بذلة رمادية اللون، ذات تفصيلة غريبة جداً لا تشبه أي شكل سائد أو موجود في هذا العصر، ورغم ذلك كانت لافتة للنظر وهو يسير في الزراعات المترامية الأطراف على جانبي الطريق مُعطيًا ظهره للحقول، متوجهاً نحو الطريق الأسفلتي وهو يسير بمفرده وسط الأغصان، وقد بدت عيناه الزرقاوان مضيقتين كعيني القط في الظلام، أما هيئته الضخمة فكانت أقرب إلى ضلفتي دولاب متجاوريتين منها إلى هيئة بشر!

بدأ شعره الأسود الفاحم شديد النعومة مع خصلاته التي تطايرت بفعل الهواء البارد، متناغماً مع وجهه الطويل شديد البياض، يتوسطه أنف دقيق، وينتهي بذقن حادة، فيما برزت عظمتا الوجنتين، لتجتمع ملامحه بين الوسامة والغموض، دون أن يطرف له رمش إزاء عواء الذئاب الذي أخذ يشق السكون حوله في الحقول.

ما أن لمحت الذئاب هذا الغريب الذي اقتحم مملكتها في جُنج الظلام، حتى ركضت جميعها نحوه ومخالبها تنهش الأرض نهشاً، قبل أن يلتفت لها ببطء ممزوج بالثقة ويصوب نحو القطيع نظرات قاسية يطل منها البريق والتحدى، فإذا بالذئاب تتجمد في أماكنها بشكل مفاجئ، وتحشو على قوانينها في خضوع ومذلة كتماثيل إغريقية مسخوطة، بعد أن استكانت ملامحها وتبددت منها الشراسة، وصارت أنيابها الحادة مجرد

- من قبل مجيئها وأنا أعرف شكلها.. كنت أعرف أيضًا أنها ستكون شبيهك.. وقد كان.

التفت لها الزوج ساخراً وتابع:

- مرة أخرى ستقولين لي جاءك هاتف من السماء؟

- مرة أخرى لا تريد أن تصدقني؟.. كنت إذا أخبرتك أن الشمس تشرق من مغربها تنق في صحة كلامي بلا ذرة شك، فلماذا ترفض تصديقي في هذه المسألة تحديداً؟

توترت ملامح الزوج وتنهَّد تنهيدة حارة قائلاً:

- ليس كل ما نسمعه في خيالنا هاتفاً من السماء بالضرورة.. طوال عمري وأنا أسمع صوتاً داخلي يُنبئني أن الله سيمنحني الثروة والزوجة الصالحة والبنات الجميلة.. لكن القدر لن يمهلني أن أفرح.. فهل أصدق ذلك الصوت بدوري وأجلس في بيتنا دون أن أغادر؟

اتسعت عيناها في قلق، ثم ما لبثت أن وضعت يدها على كتفه هامسةً بلهجة حنونة في محاولةٍ لطمأنته:

- لا يا حبيبتي.. افرح واملا الدنيا أغاني كما يقول عبدالحليم.. ثم إنك لا تكتفي بابتئنا الجميلة فحسب.. (تغمز بشقاوة وتتابع) أخبرني لماذا ناسفر للإسكندرية إذن؟ أو ليست رغبة منك في أن تمنحها أخاً؟

نجحت كلماتها في تخفيف شحنة التوتر داخله نسبياً، لتنتقل إلى ملامحه الراحة والطمأنينة وهو يلتفت لزوجته ويبتسم، رغم عينية اللامعتين بدموع متجمرة.

\*\*\*

داخل السيارة «الرمسيس» الحمراء تأمل الطفل الصغير من النافذة ابتسامة ذلك الرجل ذا العينين الزرقاوين والبنلة الرمادية والملامح المربية، وقد وقف على الجانب الآخر من الطريق، قبل أن يشار له الرجل بالمجيء إليه..

تأمل الطفل إشارات الرجل في دهشة، ثم اتسعت عيناها في ذهول وهو يراقب ذلك المشهد الذي بدا وكأنه فقرة الساحر!

أشار الرجل بيديه لأرض ترابية لم تتم زراعتها بعد، فنهضت وتحولت من وضعها الأفقي لوضع رأسي ليصبح ترابها واقفاً في وضع عمودي على الطريق الأمفلي، قبل أن يبدأ الرجل بالرسم على التراب صانعاً أشكالاً جميلة تشبه العرائس والشخصيات التي يحبها الطفل، ليفتح الصغير باب السيارة ويغادرها كالمشودة، دون أن يشعر بوالده الذي يُصلح السيارة بأدائها كشد..

\*\*\*

في السيارة المرسيديس، مسحت الأم شعر طفلتها التي استيقظت وقالت لها:

- لقد استيقظت مبكراً يا حبيبة ماما.. إننا لم نصل بعد.

فيما ألقى الأب نظرة على عداد السرعة الذي ظل على رقم ٨٠، ثم التفت لصغيرته قائلاً:

- عذراً يا ملاكي الصغير.. تعرفين والدتك التي لا تُحب سرعة بابا خوفاً علينا من أي مكروه.

ارتسم الضيق على ملامح الطفلة وكأنها تفهم كلامه، لتمط شفيتها للأمام بغضب طفولي مثير للضحك..

وفي تلك الأثناء كان القدر يُخرج مشهداً سينمائياً لأحداث حقيقية تحدث بالفعل على أرض الواقع، رابطاً فيه مصير أسرة السيارة المرسيديس بأسرة السيارة الرميسيس..

- هارج السيارة "الرمسيس" على طريق مصر إسكندرية الزراعي

تقدم الطفل نحو الرجل ذي العينين الزرقاوين كالمسحور، فيما ظل الرجل يرسم على التراب، ليلحظ الأب الملتحي حركة ابنه الذي يسير نحو المجهول، إذ لا يرى الأب ما يراه الابن الصغير، فصاح به:

- أيمن.. عد للسيارة ولا تبرح مكانك!

## - في السيارة المرسيدس

بين ضلوعها، فيما تطاير الشرر من احتكاك سقف السيارة بالأسفلت، قبل أن تتدحرج السيارة بشكلٍ عشوائي وتتجه نحو سيارة نقل ضخمة قادمة بسرعة..

ضغط والد الطفلة دواسة الوقود خلسة، ليتجه مؤشر عداد السرعة إلى الرقم 120، لكن زوجته لاحظت ذلك وهتفت بضيقٍ واستتكار:

- ما هذا.. هل عدت لجنون السرعة من جديد؟

## الزوج (محاولاً تغيير الموضوع):

- دعك من الطريق الذي أريد أن أقطعه سريعاً لأتفرد بمولاتي الجميلة وأتركيني أسألك سؤالاً مهماً.. ألم يخبرك الهاتف اسم المولود الجديد ومن أين سيأخذ الشبه هذه المرة؟

إلا أن الزوجة اكتفت بالنظر له بوجومٍ وسرحت دون أن تحرك ساكناً..

## - على طريق مصر إسكندرية الزراعي

في هذه اللحظة.. هبط من السماء طيفٌ نوراني هائل أخذ يتصاغر كلما اقترب من الأرض حتى تحول حين لامس الأسفلت إلى هيئة بشرية في صورة شاب، فاق جماله (يوسف الصديق) بأضعاف مضاعفة، حتى إن عينك لن تملكا - لو أسدك الحظ برويته - إلا الاتساع والتحديق بالنهار حيال هذه الصنعية الإلهية التي فاقت خيال البشر في الروعة والجمال، سواء في بشرته البيضاء وجهه المشرق، وعينيه الذهبيتين كسميكة من الذهب الخالص، وشعره البني الفاتح الطويل، شديد النعومة، وشفتيه الورديتين، وقد حفت وجهه لحية خفيفة ناعمة ذات لون بني فاتح اللزرد من جماله وتضفي عليه المهابة والإيمان، فيما أكدت أجنحته السنة السماء لعالم آخر غير عالمنا، قبل أن تتكشش هذه الأجنحة وتدخل في ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، لتختفي تماماً وهو يتجه بسرعة شديدة - تفوق سرعة البشر - نحو السيارة المرسيدس ليخترقها ويصبح داخلها في لمح البصر، ويظل يتدحرج داخلها مع من فيها، في نفس اللحظة التي لم يستطع فيها سائق السيارة النقل تفادي المرسيدس التي تتدحرج نحوه ليدهسها دهساً.

وداخل السيارة، أخذ الشاب النوراني الوسيم الطفلة الصغيرة من يد أمها وجعلها في الكنية الخلفية في اللحظة التي انسحقت فيها مقدمة السيارة وتحول زجاجها ومعدنها إلى أسلحة حادة مدببة، أعدت خصيصاً لاختراق اللحم وسحق العظام، وبك الرووس بلا أي فناء لأصحابها الذين لهم معها ذكريات لا تُنسى، ليتحول جسدا الأب والأم إلى عصير من اللحم المفري والعظام المقرمشة بصوص الدم، بينما حمى الشاب جسد الطفلة الصغيرة، وتلقى بدلاً منها شظايا الزجاج لينغرس حطام الحديد فيه دون أن يمسها أو يمسها بأدنى سوء، ثم أمسك بجسدها الصغير وطار بها خارج السيارة ليلقيها في حقل الطريق الزراعي على مسافة بعيدة عن الحادث، قبل أن يتحول جسده إلى طيفٍ نوراني بينما انفصل عن جسد المعلقة نوراً له نفس هيئتها وملامحها وكأنه نسخة منها، لكنها نسخة روحانية بلا لحم أو دم، وصعد كلاهما إلى السماء في اللحظة التي توقف فيها المشهد على الطريق الأسفلتي، ليسود الهدوء أخيراً بعد أن

- في السيارة المرسيدس  
فجأة لمح الزوج وزوجته، الطفل ووالده الملتيح وكأنهما برزا من العدم، في الوقت الذي كانت السيارة تتجه فيه نحوهما بسرعة شديدة تكفي لدهسهما، بعد أن جاوز مؤشر عداد السرعة رقم 120، لتقفز قدم سائق المرسيدس على كمامة الفرامل وهو ينحرف بعجلة القيادة في رد فعل سريع وغير حكيم، ترتب عنه انحراف سيارته الحاد لتعبر الخط الفاصل بين اتجاهي الطريق وتتقلب على ظهرها في الاتجاه المعاكس وسط صرخات زوجته المفزوعة التي احتضنت طفلتها بشدة محاولة أن تخفيها

سالت الدماء وعم الخراب..

- لك الله، ومثلما أرسلهما ليعتيا بشأنك في عمرك المنصرم،  
سيرسل لك حتماً من يرعاك في عمرك المقبل.. الرب يعلم  
مصلحتنا أكثر منا.. مفهوم؟

الطفلة (وقد بدأت تتفهم):

- مفهوم.

الشاب الوسيم:

- الآن تنتهي مهمتي.. لا بد أن تنسي كل ما شاهدت من أجل  
مصلحتك.

الطفلة (ببراءة شديدة):

- وكيف أنساه؟

- سألقي عليك النسيان، وبمجرد أن تفتحي عينيك لن يصبح لي  
في ذاكرتك أي أثر.

- هل تأذن لي بطلب؟

الشاب (وهو يتأمل ملامحها بحنان):

- تقصلي!

مدت يدها نحوه ببراءة، قائلة بصوت حزين:

- أريد مصافحتك.

ارتسمت ابتسامة طيبة على ملامحه المنحوتة من الجمال الأخاذ وهو  
يُصافحها برقة، ثم احتضنها بحنان شديد وهو يُقبل رأسها، لتسأله وهي  
بين ضلوعه وقد تسَلَّلت لنبراتهما الطمأنينة والسكينة:

- هل ستري أبي وأمي؟

- ربما!

وفي سماء طريق مصر إسكندرية الزراعي، تابع طيفا الشاب والطفلة  
الصغيرة المشهد المأساوي من أعلى، حيث بدت السيارة المرسييس من  
أسفلهما محطمة تماماً تحت عجلات السيارة النقل الضخمة، وقد سالت  
دماء الزوج وزوجته منها، في حين هبط سائق السيارة النقل ليتفحص  
الحطام، وانضم إليه الرجل الملتحي صاحب السيارة "المرسييس" وهو  
يردد في هول وهلع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون

ومن جانبه، وقف الطفل الصغير يبكي بارتجاف وهو بمسك طرف ثوب  
والده، متأملاً المشهد بارتجاف، لتمرّج دموعه بدموع علوية سالت من  
عيني الطفلة الباكية وهي تتأمل مصير والديها المؤسف بحرقه وحسرة  
فاقت سنوات عمرها الصغيرة، ثم لاحت منها التفاتة نحو الشاب الوسيم  
الذي أنقذها، وقد بدا عليه الجمود والهدوء دون أن يتأثر مثلها، لتسأله  
بعد أن صار بمقدورها أن تتكلم في هيئتها الجديدة:

- هل توفي الاثنان؟

التفت لها وقال بهدوء وحكمة:

- ولماذا لا تقولين إنهما ذهبا لعالم آخر أفضل بكثير..  
على الأقل سيعيشان مع أناس أفضل، ومخلوقات أجمل..  
وسيشاهدان الخالق.

الطفلة (باكية):

- لماذا لم تتركني أذهب معهما إذن؟

الشاب الوسيم:

- الخير لهما في الذهاب.. والخير لك في البقاء

- ليس لي في الدنيا أحد سواهما



- لو رأيتهما فلتقرئهما مني السلام.. (تفلفت دمعاً ساخنة على وجنتها وتستطرد) أخبرهما أنهما سيوحشانني كثيراً!

تأمل ملامحها بانبساطه الطيبة، ثم أوماً برأسه وهو يُغمض عينيه ثم يفتحهما سريعاً بما معناه (لك ما أردت) ثم نظر لها مشجعاً، وتابع:

- والآن استعدي!

ثم مد يده نحو وجهها ليمسحه برفق وهو يُردد بإيمان وخشوع:

- فلستُظف ذاكرتك تلك اللحظات من عمرك الفاني، وتنتبهي إلى ما هو أبَ بامر الله.

ومع مغادرة آخر حرف من شفثتي، تجمّد طيفُ الطفلة في السماء وقد ألقي عليها السبات، قبل أن يسبح جسدها النوراني في الهواء نحو جسدها المادي فأقذ الوعي في زراعات الطريق الزراعي على بعد مسافة طويلة من سيارة والدها المحطمة، فيما أخذ الشاب يتأمل ملامح وجهها التي غشيتها السكينة، والهدوء، قبل أن يلقي نظرة على الرجل الملتحى والسائق وهما يُحاولان إخراج جثتي الأب والأم، ويعاونهما في ذلك حشد من الناس التفت حول الحادث، قبل أن يخترق السحب ويغادر سماء الدنيا بسرعة فائقة ليختفي في لمح البصر.

\*\*\*

مع اختراق الحُجب ومغادرة الأرض، حيث سديم الكون الفسيح وأضواء النجوم المندثرة التي ما زال ضياؤها يصل إلى البرية رغم فائتها من آلاف السنين، تحوّل جسد الشاب إلى طيف نوراني هائل، ليتأمل من أعلى ذلك الكوكب الصغير، المليء بالأحقاد والحروب والمكائد.

أخذ يخر عباب السديم حتى وصل إلى "بوابة البرزخ"، ليتطلع إلى تدفق الأرواح المُزهقة التي تتطاير من الأرض زخاتٍ بأعدادٍ مهولة في كل لحظة، بعد أن حصدها الموات في موسم جني البشر المستمر على مدار الفصول الأربعة، متجهة إلى الدار المؤقتة بين الدنيا والآخرة، في صورة شلال من الأضواء الباهرة، لتصرخ الأرواح الصاعدة بنداءات واستغاثات بكل اللغات في أول لقاء بالحقيقة المطلقة، كل حسب عقيدته التي وقرت في قلبه، لتتضارب الاستغاثات بنبراتٍ متباينة، تحمل أصوات

رجال ونساء وأطفال وكهول.. هذا ينادي على رب محمد، وهذا يقول يا يسوع، وهذا يبحث عن نعيم النجاة الأبدية في النيران بعد أن امتثل لقانون الكارما، ونفر منهم يتساعل بدهشة عارمة: يا للهول.. أهنالك حياة بعد الموت؟! هل صدق الأنبياء والرسل الذين كنا نعتبر رسالتهم محض خيال من صنيع البشر؟!

وفي المقابل كان هناك تيّارٌ هائلٌ من الأرواح الهابطة من الملكوت العلوي في طريقها إلى الأرحام في شتى ربوع الأرض، حيث منابت بشر جديد ينتظر القلم أفعالهم ليخطها في صحائف أعمالهم التي ما زالت هابوة، متساوين في ذلك مع نقاء الملائكة قبل تدوين أول سينة.

وفي غمار ذلك المشهد المهيّب لتلاقي شلال أرواح الموتى الصاعد مع نهار أرواح البشر الجدد الهابط، عاد الملاك التوراتي ليسأل سؤاله الأبدية الذي طالما تردّد في قرارة نفسه، عن سر صراعات البشر اللا نهائية على التوافه والصغائر، بين سكان كوكب بكل من فيه لا يُساوي عند الرب جناح بعوضة في ملكوته الهائل وأكوانه الفسيحة الممتدة والممتدة بلا نهاية..

"لو رأوا دنياهم من أعلى مثلاً اعتدت رؤيتها لانفض السامر، وهجوا المضاجع، وهاموا في الساحات والطرقات خاشعين، عابدين، تجار السنهم وأفندتهم بالرحمة والتضرع: سبحانه ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

لو عاد إليهم الموتى ليخبروهم بما شاهدوه وهم يتجاوزون الأرض ويخترقون الحُجب ويصعدون للسموات العلاء، وكيف رأوا الحقيقة في عالم الشهادة، واكتشفوا ماهية الدنيا الزائلة، وحجمها الحقير، وكيف انملقت صرخاتهم في ساحات القضاء ندماً وألماً على ما بدر منهم حين كانوا أحياء، لاختلف كل شيء، لكن الأحياء أبداً لن يدركوا الحقيقة مهما حاولوا تخيلها إلا حين يصبحون في عالم الأمر والإطلاق، حيث الحقيقة المجردة التي لا تكفيها الكلمات، ولن تدركها الحواس القاصرة، وإنما تعبر إلى القلوب، وتمرق في الأنفس، فتستقر في الوجدان وتصبح يقيناً أبدياً لا رجعة فيه، لكن.. بعد فوات الأوان".

وفي غمرة فكره وتأملاته، افتتح باب الذكريات العميقة داخله، ليتذكر أحداثاً من العصور الغابرة.

\*\*\*

أصدرت السماء قعقةً مخيفةً اضطرب لها سكان ذلك العالم العلوي،  
ليترقب سكانه النورانيون أمرًا جلا في طريقه لأهل الأرض.

كانت القعقة هي كلمة السر كلما صدر أمر إلهي إلى (جبرائيل)\*  
الملاك المقرب من رب العزة، وإمام السماء الموكل بإرسال العذاب  
والهلاك على من وصل صراخ خطاياهم إلى عرش الرحمن، وناعت  
بذنوبهم الأرضين السبع.

مع اضطراب المشهد، وانطلاقي التسابيح والتكبيرات من أهل السماء هولا  
وخوفًا مما هو آت، وقف طيف نوراني يرقب باهتمام شديد تلك الأحداث  
الجسام القادمة، ولم يكن هذا الطيف سوى طيف صاحبنا الغارق في  
ذكرياته الآن.

لكن الفارق بينه وبين باقي المضطربين حوله من الذين نطقت أسننتهم  
بالاستغفار والتضرع، أن السعادة ارتسمت على ملامحه واحتلت كيانه  
وهو يترقب ذلك العقاب المقبل على فئة جديدة من تلك المخلوقات  
الصلصلالية التي جاء خلقها وبالأعلى على الأرض - من وجهة نظره -  
إذ استكملوا مسلسل القتل وسفك الدماء الذي بدأه من قبلهم الجان  
والشياطين.

\* جبرائيل: هو أحد الملائكة المقربين من الله، وبالقراب من عرشه الإلهي، يخدمونه،  
ويسجدون أمامه، ويعملون بكلمته عند سماع صوت جلاله، يأمرهم بتنفيذ إرادته  
ومقاصده، وتعني الكلمة في اللغة العبرانية: رجل الله، أو قوة الله، أو جبروت الله،  
الذي تظهر فيه قوة الله وقدرته التي يعلنها للعالمين، وتعني كلمة (إيل) في  
العبرية الله، لذا تتصل بها معظم أسماء كبار الملائكة مثل (جبرائيل)، و(إسرافيل)،  
(إيل) و(ميكا)، و(نيل)، وغيرهم.

وينطق بالقطبية غبرئيل ومنها جاءت كلمة غبريال التي سُمي بها أحيانًا في الكتاب  
المقدس، وفي العربية اسمه جبريل، وأشير له في القرآن الكريم بأنه الروح القدس لأنه  
خلق من طهارة وقدسية، ولقب أحيانًا بالروح الأمين لأنه كلف بأمانة إيصال الوحي  
الإلهي لمن اصطفاهم الرب من البشر.

وحسب العقيدتين المسيحية والإسلامية، فإن نزول جبريل أو جبرائيل إلى الأرض  
يكون لأمرين، إما لتبليغ رسالة عن طريق الوحي من الله لرسله وأنبيائه في الأرض،  
وأما لتدمير أهلها الفاسقين الضالين بأمر الله في مواعيد إلهية حددها المولى للانقسام  
والبلش بعد انتهاء المهلة الكافية للبشر.

فرا الشاب الوسيم في اللوح المحفوظ قصة بدء الخليقة منذ أن كان الله  
في غماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء، ولما  
أراد أن يخلق عالم التدوير والتسطير خلق أول ملك من ملائكته وسماه  
العالم، وأمره أن يكتب كل ما يكون في الكون إلى يوم القيامة، ثم خلق  
الملائكة والجان والجنة والنار والسموات والأرضين.

في البدء كانت الأرض خربة، وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح  
الله يرف على وجه المياه، في مشهد كوني بديع، لم يشاهده أحد من  
بني (آدم)، لكن الرب سطره في سفر تكوينه بالتوراة حين قال: «لتجتمع  
المياه في مكان واحد تحت السماء»، فإذا بالمياه تتحسر وتجتمع في  
أماكن محددة، ثم تظهر اليابسة، ليدعو الله اليابسة أرضًا، ومجتمع المياه  
بحارًا، ثم أخرجت الأرض عشبًا وبقلاً وشجراً، ثم قال الله ولكن أنوار في  
جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين،  
فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر  
لحكم الليل، وجعل الله النجوم في جلد السماء لتتبرق على الأرض، وتحكم  
على النهار والليل، وتفصل بين النور والظلمة.

فول خلق (آدم) كانت الأرض تفيض بالخيرات والنعم، حيث جميع  
المخلوقات لا تملك رفاهية الاختيار، وكل مخلوق يسير بقدر معلوم في  
مسار حدده له الإله سلفًا حين قال الله: «لتفيض المياه زحافات ذات نفس  
حية، وليطير طير فوق الأرض على وجه جلد السماء»، ثم خلق الله كل  
ذوات الأنفس الحية التي فاضت بها المياه أجناسًا مختلفة، وكذا جعل من  
الطيور ممالك وفصائل، وبارك الله أرضه قائلا: «أثمري واكثري وإملأي  
المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض»، ثم قال: «لتخرج الأرض  
ذوات أنفس حية»، وخلق الوحوش والبهائم والدواب في أيام الخلق  
السبعة، لتملأ جنبات الأرض خيرات الإله، قبل أن تطأ الأرض أقدام  
المخلوقات النارية العينة التي نشرت الخراب والدمار، وسفكت الدماء،  
في الوقت الذي امتلأت فيه السماء بتراتيل المحبة والنعمة التي تنشدها  
الملائكة والمخلوقات النورانية، وهي تحمد الخالق العظيم.

ومع اشتداد هزيم القمقة الغاضب، تذكر الطيف النوراني الأشبه بشاب لا مثال لجماله على وجه البسيطة عندما حانت لحظة الشروع في خلق مخلوق جديد ليكون بمثابة رمانة الميزان لهذا الكون، ما بين مخلوقات نارية تفيض بالشرور إلا قليلا، ومخلوقات نورانية تفيض بالخير لأنها لا تملك خيار المعصية والخروج عن نسق السماء، بعد أن جُبِلت على الطاعة وفطرت على الإيمان، ودواب وطيور ووحوش غير مؤهلة لنشر تعاليم الإله وإعمار الأرض، وقد امتلأت نفوسها بالشهوة حتى لم تجد مكانا للفكر والتأمل وحمل الأمانة، ليقول الله حينها ما ورد ذكره لاحقاً في سفر تكوينه: «نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»، ثم خاطب ملائكته بما ورد في قرآنه بعدها بالآلاف السنين: «إني جاعل في الأرض خليفة»، لتبدأ من يومها رحلة الترقب والتحدي، بين النور والنار والطين.. ملائكة كرام برة، وشياطين وجان ومردة، وبشر صلاحيين. كان ذلك حين سألت الملائكة ربه بدهشة:

«أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟»

وكانت إجابته:

«إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»

وأخذ الله الطين اللزب، ثم تركه حتى صار شديد السواد، تتطلق منه رائحة نفاذة، وجعله صلصالاً كالخار، ثم نفخ فيه من روحه، لتحين لحظة التحدي الكونية وبداية سيناريو أضخم عمل درامي واقعي في الوجود.

«اسْجُدُوا لِآدَمَ»

«فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ»

«مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟»

«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»

«اهْبِطْ مِنْهَا.. فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا.. فَأَخْرِجْ إِيَّكَ مِنَ السَّاعِرِينَ»

«أَنْزِلْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ»

«إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»

«فَمَا أَغْنَيْتَنِي لِأَقْعُدَ لِمَنْ صَرَفْتَكَ الْمُسْتَقِيمَ.. ثُمَّ لَا يَنْبَهُ مِنْ بَيْنِ أَسْهُمٍ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»

«أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُوباً مَذْجوراً.. لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَهْسِيعِينَ.. وَيَا آدَمُ.. اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.. فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»

هكذا جاء خلق (آدم) وبالأعلى إبليس وذريته التسعة..

بعد أن خلق الله خليفته الجديد كآخر مخلوقاته، خلق البشر في صلبه، ثم صورهم، وخلق الشفرة الوراثية التي فيها صور كل الصفات الوراثية للإنسان على مستوى البشرية كلها، وأمر ملائكته بالسجود ليكون سجودهم له، بمثابة سجد تكريم للروح التي دبت في جسده، ثم أخرج الرب من صلب (آدم) كل ذرية ذراها ونثرهم بين يديه كالذر، وأشهدهم على أنفسهم، سائلاً: «السُّبُّ بَرِيكٌ؟»

فقالوا: بلى.. شهيدنا

هانت لحظة التعارف بين (آدم) والملائكة، حين قال له الله:

أذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك ونعية ذريتك

فقال لهم (آدم): السلام عليكم

(ودورهم ردوا عليه: السلام عليك ورحمة الله

والسلاوة) وبعد جنة في عدن شرقاً، أسكن فيها (آدم)، وأُنبت من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وجعل فيها شجرة معرفة



الخير والشر، وأوصى الرب خليفته قائلاً:

- من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

وبعد أن أخذ الله الميثاق على (آدم)، استدعى له من الأرض كل البهائم والحيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إليه ليُعَلِّمها أسماءها، ويُعرِّفها بما يناديها، قبل أن يجمع الله الملائكة ويسألهم عن أسماء تلك المخلوقات، فأسقط في أيديهم وعجزوا عن الإجابة قائلين:

- «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»

فكانت الجولة الأولى التي ربحها (آدم) في معركة العلم والمعارف، كمخلوق أمدد الله بما لم تحط به باقي المخلوقات خبزاً، وقال له: «يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ»

فلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ اللهُ لَمَلَأْتُكَ:

- «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. وَأَعْلَمُ مَا تُبْذَرُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»

فدعا (آدم) جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية بأسمائها، وأما نفسه فلم يجد معيناً نظيره، فقال الرب: ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فاصنع له معيناً نظيره، وأوقع الرب سباتاً على (آدم) لينام، ثم أخذ واحدة من أضلاعه وملا مكانها لحماً، وبني الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى (آدم).

عندها قال (آدم) هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي.. هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت، ودعا (آدم) اسم امرأته (حواء) لأنها أم كل حي، وكانا كلاهما عريانين بلا خجل، حيث لا يدركان معنى الحياء بعد، قبل أن يبدأ إبليس التحدي في إغواء عدوه الذي كان سبباً في إفساد ما بينه وبين الرب، وتلبس جسد حية ودخل من خلخالها جنة (آدم) المحرم عليه دخولها.

وبعد دخوله، التقى بـ(حواء) وقال لها: أحقاً قال الله لا تأكلنا من كل شجر الجنة؟

فاجابته (حواء): من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلنا منه ولا تمسنا لئلا نموت.

قال لها بلهجة تفيض بالكراهية والحقد، مغلفة بنبرة الناصح الأمين:

لن نموتاً، «وما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ نَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ»

«وات (حواء) أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل.

عندئذ انفتحت أعينهما عن معان لم يُدركاها من قبل، وبدت لهما «وأنهما، وعرفا أن الغري يستدعي الخجل، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليداري كل منهما عورته، وسمعا صوت الرب الإله مشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاخبتا (آدم) وامرأته من وجه الرب في وسط شجر الجنة قبل أن ينادي الرب على (آدم): أين أنت؟

فاجابه (آدم): سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاخبتا.

من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟

ولم يجد (آدم) بداً من الاعتراف:

المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت

قال الرب للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟

ابحين دور (حواء) في الندم والأسف بعد فوات الأوان وهي تجيب:

- الحية غرَّتني فأكلت.

قال الرب للحية: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وترأبياً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه.

وعاقب الإله (حواء) بالآلام الولادة والمخاض، وأن يكون اشتياقها للرجل اشتياقاً أبدياً، وعليها يسود، وقال لـ(آدم): «لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، شوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، يعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود».\*

وهكذا أصبح (آدم) من العارفين، وما دام عرف، صار عليه أن يحمل أمانة التبليغ والإعمار التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان بكل مشاقها وآلامها، إنه كان ظولماً جهولاً..

وانتصر الشيطان في تلك الجولة.. جولة الحيلة والمكر والدهاء.. وحين لاحظ لحظة طرد (آدم) و(حواء)، ترقبت الملائكة حياة البشر وهم يغادرون جنتهم إلى الشقاء والتعاسة، وفي عقولهم سؤال طالما سألوه من قبل خلق (آدم): هل ينزلق البشر إلى مستنقع الجان، وتعرف أياديهم الطريق إلى القتل وسفك الدماء؟

نعم.. ذاقَت الأرض طعم الدم، وابتلعتَه حين سال من (هابيل) بعد أن قتله أخوه (قابيل)، ليفر الأخ القاتل بفعلته موصوماً بلعنة الله، لكن الإله استبقاه حياً وحَرَّم على الكائنات قتله، فتناسل (قابيل) مع زوجته وأنجب (حنوك) وشيّد مدينة سَمَّاها باسمه، قيل أن ينجب (حنوك) ابناً سَمَّاها (عيراد)، و(عيراد) ولد (محويائيل)، و(محويائيل) ولد (متوشائيل)، و(متوشائيل) ولد (لامك).

وبعد مقتل (هابيل) عَضَّ الله آدم وزوجته بـ(شيث)، وأنجب (شيث) (أنوش)، وأنجب (أنوش) (قينان)، وظلت الأُنسال تتابع وتتوالى كطوفانٍ بشري مدعوماً بدفعية قوية من إله أراد لصنيعته النكاثر والازدياد.

هكذا ظل (آدم) وبنوه في تكاثر، وأمتلات الأرض بشراً.. ومع تعددهم.. انتشر العصيان، وسفكت الدماء، وارتفع صراخ الخطايا ليجاوز غُمان السماء.

ويمضي الزمن ويعد نحو ٤٠٠ سنة نسي بنو (شيث) وسكان وادي النيل شريعة التوحيد، وعبدوا الأصنام وأشركوا بالله بينما حبست القلة المؤمنة

\* جميع ما تم ذكره في قصة الخلق في هذا الفصل مأخوذة من سفر التكوين في التوراة اليهودية والعهد القديم في الكتاب المقدس، والقرآن الكريم في الدين الإسلامي.

مُعَيَّنَتِها في صدورِها من شدة الخوف من الحكام، إلى أن أرسل الله إليهم نبيه (إدريس)\*، ليستكمل علم جَدِّيه (شيث) و(آدم)، ويكون أول من خط ورسماً بما يُشبه القلم حالياً، فذكر سَكَّان (مصر) بتعاليم الله الواحد الخالق لكل شيء، ووجههم إلى الأعمال الصالحة والزهّد في الدنيا، وحثَّهم عن الكواكب والنجوم وحركاتها، وعن الليل والنهار بعد أن علّمه الله أسرار الفلك وعدد السنين والحساب، كما علم (إدريس) أهل (مصر) بعض المصناعات الصغيرة وتطويعها مثل الغزل والنسج، وحياسة الملابس، وهرس في قلوبهم قدسية الموت حين علّمهم دفن الموتى والصلاة عليهم، وشعر بينهم السعادة حين جعل لهم أعياداً كروية الهلال وفيضان النيل، وجعل في أعناقهم أمانة الحساب والعدل في المعاملات حين علّمهم استخدام المكاييل والموازين، وجعلهم يشكرون الله الشافي حين علّمهم علوم الطب والعلاج بالأعشاب لبعض الأمراض، فأطلقوا عليه (هرمس الهرامسة) أي المُعلّم الأول للبشر.

وبدئة لتعاليمه اكتشف المصريون أول تقويم للسنة الشمسية التي دُسموها ٣٦٥ يوماً، وجعلوا من أيام السنة ١٢ شهراً، ومن الشهر ٣٠ يوماً، ومن اليوم ٢٤ ساعة ما بين نهار وليل، وأطلق المصريون على شهورهم أسماء (توبة وبابة وهاتور وكيهك وطوية وأمشير وبرمهات وسمودة وبشنس وبؤنة وأبيب ومسرر)، ثم طاف (إدريس) بالعديد من البلدان خارج وادي النيل، وألهمه الله متطق كل بلد زاره، فعلمهم بالسنتهم المميزين والإنشاء والمصناعات الصغيرة، ولما عاد إلى (مصر) سار مع الله مُصَدِّقاً لكل ما نزل عليه من الوحي، حتى رفعه الله إليه وهو حي في ظروف وملايسات اختلفت أقوال البشر فيها من بعد رحيله، بعد أن أدى رسالته وكان عمره نحو ٣٦٥ سنة، تاركاً أصحابه على الشريعة الإبريسية التي تحورت مع الوقت وباتت أسطورة جعلت من (إدريس) إلهاً اسمه (أوزوريس)، تختلط في الأسطورة الحقيقة بالخيال، والواقع

\* (إدريس) هو أحد الأنبياء الصديقين (إدريس وإبراهيم ويوسف) عليهم السلام، وهو ثالث من أعطوا النبوة بعد (آدم) و(شيث)، ويُعتبر ثاني نبي من الأنبياء العشرة الكرامين الذين استضافتهم مصر على التوالي وهم: (شيث وإدريس وإبراهيم ولوط ويوسف ويعقوب وموسى وهارون وشعيب والمسيح) عليهم السلام، حسب العقيدة الإسلامية.

بالخرافة، غير أن تعاليمه الأساسية تركت في نفوس الأكفمين الربية والقدسية تجاه حياة ما بعد الموت، والبحث والحساب، ليصبح للموت جلال وحكايات يرتجف من ذكرها السامعون.

ومع توالي السنين، تسلب الكفر إلى النفوس التي خربت، وتبدد العدل في طيات الظلام الذي حل على الأرض..

استحل الرجال نساء لا تحل لهن، وذاع القتل والنهب والاغتصاب.. عرفت الأرض من نسل (آدم) قوماً جبارين لا تعرف الرحمة لقلوبهم موضعاً، ثم تعالت صيحات الغضب لتعم أرجاء الكون الفسيح وتهز عرش الإله حين شيد بنو (آدم) تماثيل ضخمة لبشر صالحين يعرفون الإله حق المعرفة يدعون (ودا) و(سواعا) و(يغوث) و(يعوق) و(نسر)، وبعد رحيل هؤلاء الصالحين عبد أتباعهم وأولادهم هذه التماثيل بعد أن خدعهم إبليس وأعوانه في جولة جديدة وأهما إياهم أنها آلهة تسمع وترى، وقادرة على البطش والعقاب.

ارتفعت البشرية في أحضان آلهة من صنع أيديهم بنسخ مزيفة، لا ترقى حتى أن تكون مقلدة بجدرة عالية، ونسوا وناسوا أن الإله لا توجد منه في الكون كله سوى نسخة وحيدة أصلية يستحيل حتى الاقتراب من قدراتها وصفاتها اللامحدودة!

فسدت الأرض بمن عليها، وأصبحت كتلة من الشرور والقاذورات.

صار كل مولود جديد بمثابة حلقة جديدة في سلسلة الكفر والفساد والمعاصي، ورقم جديد يُضاف لقائمة المتجبرين.

وفي غمار ذلك، أخرجت الشياطين السننها للكون بحاله، وابتسم إبليس لجحيم في تشق قائلاً: لن أدخلك وحدي، بعد أن أشار للجنة في سخريته: لا تنتظري أحداً، قلن يأتي أحد.

حتى حين ظهرت بوادر الخير مع ذلك الرجل الصالح (نوح) ابن (لامك) وحفيد (متوشالغ)، سخر منه الطغاة والجبابرة، واستضعفه العوام، ولم يتبعه من القوم إلا قليلاً، بعد أعوام طويلة من الدعوة لعبادة رب الأرض والسماء، ونذب الشرور والخطايا التي صارت هي الأصل والخير هو

الاستثناء.

وبعد أن وصل (نوح) إلى لحظة اليأس والضعف والانكسار، ارتفعت يده إلى السماء:

«رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.. إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا»

«بينما جاءت لحظة الحسم، لتطهير الأرض من الخلائق، بعد أن أغلقت اللعبة، كدورة دومينو مستحيلة الاستمرار، وتم تهينة (نوح) ليكون (آدم) «يبدد لهذا الكوكب، وقرر الرب أن يردع غرور البشر بعينة من عذابه ابدركوا كيف تكون غضبية الإله وانتقامه، بعد أن صاروا كقطف لم يدرك بعد معنى العقاب، ولا يتخيل كيف يكون الهلاك ما دام لم ينقه أو يرى عينة منه.

ومن خلف السماوات جاء وحي الإله لنبيه (نوح):

«اصْنَع الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَفُونَ»

ولم يكن النبي (نوح) على علم أو دراية بصناعة السفن، فكيف بسفينة ضخمة تحمل آخر من سيتبقى من الخليقة والخلائق؟ لكن الإجابة جاءت من السماء التي هبطت منها ملائكة خفية أسهمت في صنع السفينة بيد (نوح)، الذي وجد يده تتحرك وتصنع وكأنها حاذقه ماهرة عاشت طوال العمر في مهنة صنع السفن!

ورغم دهشة القوم العارمة من السفينة الهائلة، لكنهم تجاهلوا الإعجاز في صنعها، وسخروا وتهكموا على مكانها الغريب في قلب الصحراء، وكيف سيجر في الرمال، بينما قهقه البعض منهم:

«نراك صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً

وبعد اكتمال الصنع، جاء النداء الأخير من الرب..

«ادْخُلْ أَنتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكَ لِأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًا لَدَيَّ فِي

الذين يرسلهم الرب على الهالكين في لحظات الحسم.

حاول مراراً أن يكره تلك المخلوقات البشرية الصلصالية الجهولة الظلومة، لأن تكوينه النوراني الطاهر لم يكن به ما يسمح بالكراهية والحقد، فاحتفظ لنفسه على الأقل بالحد الأقصى من الصرامة، والاستعداد التام لتنفيذ أوامر الله وعقابه، منتظراً لحظة لم تحب بعد يهبط فيها بين أبناء (آدم) ليدوز فيهم البطش والعقاب والتعذيب، جزاء ما اقترفت جوارحهم من الذنوب وخطايا لم يستحب أو يدرك يوماً كيف وانتهم الجراً على إتيانها.

لم يعرف يوماً معنى التبرير ولا حتى التفسير لأي ذنب مهما صغر .. فما قاله الإله واجب التنفيذ على أي حال، وتحت أي ظرف، وفي كل وقت.. هكذا يستحق الإله، ولا عذر لكل من خالف أو قصّر من المخلوقات.

كيف لم يصبح هؤلاء البشر ملائكة في عباداتهم وطاعتهم لإلههم الوحيد، متى وإن امتلكوا رفاة الاختيار؟ فالرب يستحق العبادة والتقديس دون حتى أن تكون هناك جنة ونار.

أدت عليه سنون طويلة أخذ يُردد فيها: «آه يا إلهي لو تأذن لي بالانتقام من هؤلاء الحمقى جزاء ما اقترفت أيديهم وأنفسهم الظالمة.. سأسحقهم جميعاً وأتعبد إليك بعدد كل نفس هالكة، وأهة عذاب يطلقها كافرون لا يحافون وعيدك».

مع انتشار دعوات أهل السماء بالرحمة والمغفرة حين لاحت لحظة الحسم تجاه قوم (لوط)، ظل الطيف الملائكي يدعو الله أن يأذن له يرسله مع المنتقمين..

ظل يردد دعاء بحرقه والحاح ورغبة أكيدة من أعماق أعماقه وهو يضرب الهواء بأجنحته الخفاقة بشدة أكثر وأكثر مع ازدياد صوت القعقة في لحظة حانت أخيراً لقطع دابر قوم فاسدين، قبل أن يتجمد في مكانه شاملاً نحتته يد الإله حين لاح أمام عينيه (جبرائيل) في حجمة المهيب وأجنحته السمائية التي يودي خفقانها بصوتٍ قادر على زحزحة كوكب بالأمم، وجعله يخرج عن مساره.

كان ذلك حين هبط إمام السماء من عليائه وملكوته العلوي في موكب ملائكي مهيب يشيعه إلى حدود السماء الدنيا انتظاراً للحظة الحسم.

هذا الجيل.. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى، ومن البهائم التي ليست بظاهرة اثنين ذكرًا وأنثى.. ومن طيور السماء أيضًا سبعة سبعة، ذكرًا وأنثى لاستيقاء النسل على وجه كل الأرض، لأنني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته

وفي سنة ست مئة من حياة (نوح)، في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، وتعاظمت المياه كثيرًا جدًا على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة تحت السماء، ومات كل ذي جسد كان يذب على الأرض من الطيور، والبهائم، والوحوش، وجميع البشر، وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يومًا.

لكن.. ما زال الأمر ميكزًا على الحساب، رغم أن النار صُنعت قبل خلق البشر وطل انتظارها، إلا أن اشتياق الجنة للصالحين يستحق أن تطول الأيام والسنين والقرون، بقدر منزلتها العظيمة وتجليات إبداع الإله فيها بما يليق بقدراته اللانهائية، وكرمه اللامحدود.

وبعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها، وعُمّت نعمة الله وسادت تعاليمه ومبادئه، عاد بنو (آدم) مجددًا إلى طبيعتهم البشرية الناقصة، وعاد إبليس وأعدائه إلى لعبة الإغواء والتلاعب بالنفوس المريضة وأطماع وأحقاد الصلصاليين، وقرر الرب الإله أنه لن يفرق الكوكب في كل مرة، بعد أن جعل من طوفان (نوح) نموذجًا مصغرًا للهلاك، وأدرك البشر كيف يكون عقابه، لكن في الوقت نفسه كان الرب يدرك أن تكرار العقاب الهائل لا يجعله هائلًا حق قدره، فيها الإله كوكبه وأيامه المقبلة لاستراتيجية مختلفة تتناسب طبيعة المرحلة، وما وصل إليه البشر من خطايا وذنوب، بأن أوكّل ملائكة -لا تتردد في تنفيذ أوامره طرفة عين- بالبطش والعقاب، ليكونوا على أهبة الاستعداد حين يصدر أوامره تجاه العصاة والمجرمين.

هكذا استرجع الملاك الشاب الجميل بالسماء الرابعة، أنباء مضت لتكون شهادة على جهل بني الإنسان، متمنياً أن يصبح ملكًا من ملائكة العذاب



الأنام الأخرى من قتل، وسرقه، وقطع الطرق والسطو على القوافل  
التي يلقبها عليها العاشر في طريقهم.

وكان صدر ذلك المرسوم الملكي في (سدوم): «يُعاقَبُ كُلُّ مَنْ يُغْذِي  
الغُرابَ بالخُرْقِ حَتَّى الْمَوْتِ» كان هذا بمثابة المسمار الأخير في  
الإنسانية التي ماتت واندرت في قلوب أهل هذه البلدان البائسة،  
فصلت آخر ورقة في شجرة خريف المفعرة التي اقتلعتها البشر، لتتأقص  
الغابرة ممالك الشياطين الشريرة التي ما صار فيها بادرة أمل في  
العدالة، وغدت (سدوم) بلدة (لوط) وما يجاورها عضواً فاسداً لا أمل في  
العدالة، ولا مفر من استئصاله بعملية بئر الحية.

أهل تلك البلدان وتناصروا ماضياً قريباً تكالبت فيه الملوك والممالك  
حين تشكل تحالف بين الحاكم (كدراومر) ملك (عيلام)،  
(امرال) ملك (شنعار)، و(أريوك) ملك (الأسار)، و(تدعال) ملك  
(سوم)، ليصنعوا حرباً مع (بارع) ملك (سدوم) و(برشاع) ملك (عمورة)  
(سباب) ملك (أدمة)، و(شمشير) ملك (صوبييم) وملك (بالع).

فصلت (سدوم) و(عمورة) و(أدمة) و(صوبييم) مع من سقط في النهاية  
إمرة (كدراومر) الذي استعدهم ١٢ سنة، وحين عصت الممالك  
المتعددة أوامره وخرجوا عن طوعه وطاعته في العام الثالث عشر، أتى  
(كدراومر) والملوك الذين معه لإعادة الثيران الهائجة إلى حظائرها  
السطوة من جديد على الممالك المتمردة، لتدق طبول الحرب بين  
الملك بقوده الملك (كدراومر)، وتحالف آخر بين ٥ ممالك متمردة  
على مملكة (سدوم) وقائدها الملك (بارع)، لتحشد الجيوش في عمق  
الصحراء، ويشدد وطش المعركة التي سالت فيها الدماء ساخنة تحت  
الخيول، قيل أن يفر ملكا (سدوم) و(عمورة) ويسقطان في النهاية،  
ويهرب الباقرن إلى الجبل.

مع سقوط ملكي (سدوم) و(عمورة) اقتحم جيش (كدراومر) البلدتين  
وأحرقا وبطشاً، ليأخذ هو وخطفاؤه جميع أملاك أهل البلدتين وجميع  
ممتلكاتهم ثم مضوا برووس يرفعها خيلاء النصر والكبر، لكنهم لم يدركوا  
أنهم ارتكبوا أكبر حماقاتهم على الإطلاق حين أسروا ذلك النبي الصالح  
(لوط) ونهبوا أملاكه مع ما نهبوا من غنائم وسبائا.

«كم أنت محظوظ سيدي جبرائيل.. كم أتمنى أن تشفع لي عند الإله،  
وتضمني لجنتك المجتدين لأحذو حذوك في الانتقام والبطش»

نظر إليه (جبرائيل) وكأنه سمع همسه إلى نفسه، فارتجبت أوصاله،  
واضطربت دواخله قيل أن يمضي (جبريل) مخترقاً السماوات متوجهاً  
إلى (سدوم) و(عمورة) و(أدمة)، و(صوبييم)، تلك البلاد الفانية التي  
ستصبح عبرة لمن يعتبر، بعد أن تمحى آثارها وسكانها للأبد.

ورغمًا عن إرادته، انطلق الطيف النوراني خلف (جبرائيل) ووقف على  
أبواب السماء الدنيا ليمسح ويرى ما هو أب، مسترجعاً في ذاكرته تاريخ  
نضال ذلك الرجل الصالح (لوط) مع قومه الذين أتوا بفعله ما سبقتهم بها  
من أحد من العالمين.

كانت (سدوم) و(عمورة) و(أدمة)، و(صوبييم) بلاداً مليئة بالخيرات  
والنعم، وكانت تمر عليها القوافل التجارية، ولما ضاق أهلها من تجاوزات  
بعض أفراد القوافل التجارية حين كانت أياديهم تمتد لالتقاط الثمار  
والخيرات من على الأشجار لمد جوعهم والنقوي على وعاء السفر، قرّر  
القوم الإقدام على فعلة شنيعة يطوف أثرها باقي القرى والبلدان ويردع  
كل من تسول له نفسه التعدي على خيرات البلاد..

كيف؟

«سنطأ الرجال الذين تمتد أيديهم على خيراتنا، ونفعل بهم ما يفعله الذكور  
بالأنثى!»

هكذا وقعت أول حادثة من نوعها في تاريخ البشر، لكن من ارتكب هذا  
الجرم وجد فيه حلاوة امتد طعمها ليتذوقه باقي رجال البلدة، ليتحول  
إتيان الذكور من عقاب إلى عادة شعبية يمارسها الهالكون على الملأ  
في نواديهم ونواصيهم.

ولم تكن تلك الفاحشة هي إثمهم الوحيد، وإنما أضيفت إلى قائمة الشرور

• يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن قرية قوم نبي الله (لوط) والقرى المجاورة  
لها كانت تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن حالياً.

ومن بلغه ما حدث مع ابن أخيه (لوط) كان (إبرام) هو البطل الذي أنقذ في آخر لحظة ممالك مهزومة لا تستحق سوى الذل والهلاك من أجل واحد طالما حاول أن يعيد الأوضاع المقلوبة إلى نصابها.

ملك (إبرام) بجنده وشقوا عباب السديم الغاسق، مع أئنة أنوف تشمخ أساقفة الظالمين، وكان في تحركه وتجهيزه للحرب مفاجأة للجميع، وهو الرجل الهادئ الحكيم الطيب، فإذا به فجأة بطلا أسطورياً يليق أن تتسج حوله الأساطير.

استرجع (إبرام) كل الأملاك، واستعاد (لوطا) والنساء وباقي الشعب الذي سلب عبيداً وجواري.

وعندما خرج ملك (سدوم) لاستقباله بعد انتصاره على (كدركومر) والملوك الذين معه، قال الملك لـ(إبرام): أعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك.

فأجابته (إبرام) بتواضع وترفع:

«لما كانت أنباء قوم (لوط) الذين لم تعرف الموعدة والرحمة إلى قلوبهم أو أرواحهم سبيلا، إذ عادوا لآثامهم وجرمهم البشع بعد أن أنقذهم الإله وفك قيودهم، دية الناشئة في أعناقهم، فردوا إليه الجميل بالمزيد من الدنس والتجس، إن (لوطاً) الذي سكن بيتاً يطل على الطريق لاستقبال المسافرين وعابري السبيل حتى يدعوهم إلى الله، ويساعدهم في غسل أرجلهم، والوقوف بالقوت والماء، والمبيت في الليالي المظلمة حتى يلوغ الصباح، سار محزناً عليه ذلك بفعل المرسوم الملكي الذي منع مساعدة الفقراء، فبات يتربص مرور المحتاجين في الخفاء ليساعدهم في السر.

وفي ليلة الحسم، أرسل الله (جبرائيل) ومعه ملكان آخران ليزورا (إبراهيم) أولاً في (بلوطات ممرا) بـ(حبرون) ليبشروه بميلاد ابنه (إسحق) ثم أن زوجته (سارة) صارت عاقراً وبلغ منها الكبر عتياً، وعلم (إبراهيم) أمر الله قد نفذ في قوم (لوط)، فتسأل عن مصير ابن أخيه، وبعد تأكد أن (لوطاً) من الناجين، طمع (إبراهيم) أن يشفع عند ربه في المقيمين في (سدوم)، عسى أن يكون من بينهم صالحون، وعند (بلوطات ممرا) دار الحوار بين الإله و (إبراهيم):

لم يدرِكوا أن الخبر سيصل إلى عمه نبي الله (إبرام) الذي سُمي (لوطاً) بهذا الاسم لأن حبه (لاط) بقلبه، أي تعلق به واصق، وسيكون هذا سبباً كافياً ليجهز (إبرام) جيشاً للذود عن ابن أخيه وفك أسرهِ.

صحيح أن الأرض من قبل لم تحتمل أن يسكن نبيان معاً خاصة أن أملاكهما كانت كثيرة، وحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي (إبرام) ورعاة مواشي (لوط)، لكن العم وابن أخيه اختلفا في رفق حين قال (إبرام) لـ(لوط): «لا تكن مخاصمة بيني وبينك، وبين رعائي ورعائك لأننا نحن إخوان.. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني.. إن ذهبت شمالاً فانا يميناً، وإن يميناً فانا شمالاً»، ومن يومها حدث الافتراق بشكس راق حرصاً على المصلحة.

اختار (لوط) أن يرتحل إلى (سدوم) و(عمورة) اللتين كانتا جنة الإله في أرضه، بما احتوته أرجائهما من خضرة، وثمار، وجمال، أما (إبرام) ففضل خيامه وأتى وأقام عند (بلوطات ممرا) التي في (حبرون)\*، وبني هناك مذبحاً للرب.

- رفعت يدي إلى الرب الإله العليّ مالك السماء والأرض، لا أخذن لا خيطاً، ولا شراك نعل، ولا من كل ما هو لك فلا تقول أنا أغنيت إبراهيم.

قبل أن يلقيه الرب منذ هذا اليوم بـ (إبراهيم) بدلاً من (إبرام)، ولقب زوجته (ساري) بـ(سارة)

\* مدينة (حبرون) هي ما تُعرف اليوم بمدينة (الخليل) في فلسطين، وكان يُطلق عليها قديماً اسم «قريّة أربع»، وقد تعود هذه التسمية إلى انقسامها في وقت ما إلى أربعة أحياء ويرجع الكتاب اليهود بهذه التسمية إلى الأبناء الأربعة الذين دفنوا فيها وهم: آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب. ولكن بناء على ما جاء في سفر يشوع (١٤ : ١٥، ١٥ : ١٣)، فإن هذه التسمية جاءت نسبة إلى رجل يُدعى «أربع أبي عناق».

وأتى (إبرام) وأقام عند (بلوطات ممرا) التي في (حبرون)، ومن هناك ذهب هو ورجلاه وأنقذ (لوطاً) وعاد به بعد أن هزم كدركومر، وهنا تغير اسمه إلى (إبراهيم)، وأتى الملائكة إلى (إبراهيم) في ذلك المكان وأعطوه الوعد بأن يكون له ابن، وفي (حبرون) مآسا (سارة) فاشتري (إبراهيم) مغارة المكفلة لدفنها هناك، كما أمضى (إسحاق) ويعقوب سنين عديدة من حياتهما في (حبرون) ومنها نزل يعقوب وأولاده الأسباط إلى (مصر).

- أفنهلك البار مع الأئيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة.  
أفنهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه؟

"إن وجدت في سدوم خمسين بارًا في المدينة فأني أصفح عن المكان كله من أجلهم"

ولما عجز (إبراهيم) عن حصر ٥٠ صالحًا يقيمون في (سدوم) واصل شفاعته:

- ربما نقص الخمسون بارًا خمسة، أهلك كل المدينة بالخمسة؟

"لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين"

- عسى أن يوجد هناك أربعون

"لا أفعل من أجل الأربعين"

وظل (إبراهيم) يناجي ربه ويتوسل إليه أن يمنع عذابه من أجل ٣٥ نفس صالحة في القرية، بل من أجل ٣٠، ٢٥، ٢٠، ١٥، وفي كل مرة يوافيه فيها الرب، يعجز خليل الرحمن أن يجد الرقم الذي توسل به واستشفع من أجله، حتى عاد (إبراهيم) وقد أدرك أنه لن يكون أرحم من إله الرحمة وأن قرية قد خلت من ١٥ صالحين يدرلون عنها العذاب لهي تستحق عقاب الإله بلا أدنى شك.

هكذا اتجهت الملائكة نحو (سدوم)، لتلمحهم ابنتا (لوط) عند مشارف البلدة وتسالهم إحدى الفتاتين في توتر ارتسم على ملامحها حين لاحظت روعة هيئة القريشان:

- ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟

فأجابها (جبرائيل):

- جئنا من حبرون، ولدينا رحلة طويلة نود أن نأخذ خلالها قسطاً من الراحة في بلدنكم.

- ولكن قريتنا ملأى بالفواحش أيها السادة، سيفتك بكم أهل السو

ألا يوجد بها أحدٌ من الصالحين؟

بلى، إنه أبونا الشيخ لوط الجالس هناك.

فوضعوه حيث يجلس (لوط) عند مدخل (سدوم) ليتحرى قدوم الغرباء والمحتاجين، وقبضه بصره على ابنتيه وهما تصطحبان ثلاثته تقترب، فنهض وتقدم إليهم فإذا بهم ثلاثة قريشان مُرد حسان، وجوههم كبدٍ وضياء في ليلة التمام، تفيض منهم رائحة زكية، سأل من أعينهم طريقاً أخذ يفتن من يقع عليه بالحب والهوى.

وبادرت به إحدى ابنتيه بالحديث قائلة:

يا أبتي، إن هؤلاء السادة يريدون النزول في قريتنا للراحة

(لوط) وجوه الرجال الفرد الحسان، فرأى خلف وضاحتها وحسنها تدبير شوم ووبالا سيدفعون ثمنه ما بقي لهم من العصر على يد أهل الجبارين الذين سيطأونهم بالإجبار ويدلون نواصيهم مثلما فعلوا مع هؤلاء من اليوساء، فعقد (لوط) حاجبيه قائلاً وهو يتطلع في وجوههم بمرض بالضيق، ويكلمات بطيئة تُوحى بخطرورة الأمر الجلل:

رياه، هذا يوم عصيب.

لمَ أيها الشيخ؟

(جبرائيل)، فأجابه (لوط):

إن تلك القرى تنقض على الغرياء، انقضاض السباع على فرائسها من الغزلان الأكيفة.

وماذا عنك؟

أنا رجل طاعن في السن... لا أملك لكم سوى دعوتكم لتبيتوا في بيت عبيدكم، وتغسلوا أرجلكم، ثم تتركوا وتذهبوا في طريقكم، لكن..

يكفيني هذا أيها الرجل الصالح، فلا نملك سوى هذا الخيار

أشار (لوط) إلى ابنتيه لتجهيز البيت، قال (جبرائيل):



- لا؛ بل في الساحة نبيت.

عليهم وعلى وجوههم فطمست أعينهم ومسحت موضعها تماماً ليُصبروا بالمسوخ البشرية المرعبة، وكأنهم خلقوا بلا أعين، قبل أن تتألق تلك بنور شديد سطع ببريق فاق احتمال أبصار الرجال ليصرخوا في بعد أن غشيتهم الأضواء الحارقة وفقدوا حاسة البصر وأصابهم العمى العمى، فيما اتسعت عينا (لوط) بذهول وقد انهزم قومه في لحظات، لوط به أنين الرجال وصرخاتهم التي انتشرت في كل مكان وهم يفرّون على الخطى والأجساد، قبل أن يتقدم نحوه (جبرائيل) بحزم وثبات لوط بصرامة:

لكن (لوط) ألح عليهم بالمبيت في منزله بالحاح الكرماء، فقالوا لهم ودخلوا بيته، فصنع لهم ضيافة، وخبزاً، وفطيراً، دون أن يدري أن أمران الغابرة قد شاهدت الموقف، وعلمت أنه استضاف الغرباء وساعدهم فذهبت إلى القوم وأنبأتهم بما فعل (لوط)، وأثناء وشايتها، أفرطت في وصف حسن الرجال، وأسهبّت في تعديد حلاوة ملامحهم وقسماتهم. ووصف روعة أجسادهم، وطيب رائحتهم، فسأل لعاب القوم وعزم موافقة ضيوف (لوط).

وأثناء جلوس (لوط) مع ضيوفه فوجيء بطرقابٍ عنيفة على باب داره:

- افتح يا لوط وسلمنا ضيوفك تتأى بنفسك عن الشر وتتجو مر الهلاك.

نظر (لوط) إلى ضيوفه وقال بارتياح:

- امكنوا في أماكنكم أيها السادة، ولا تبرحوا الدار مهما حدث عسى أن أصد شرور قومي وأبعد عنكم الأنظار.

واتجه (لوط) بخطوات ثقيلة حائرة نحو باب داره، قبل أن يفتح، ويغادر بيته ويغلق الباب خلفه بإحكام قائلاً للحشد الهائل من الرجال الملتفين حول الدار في توسل:

- أيها القوم، هؤلاء الرجال ضيوفي، وأنا الذي ألح في استضافتهم، فلا شأن لكم بهم.. إن كنتم تريدون المواقعة خذوا بناتي تزوجوهن بالحلل، عسى الله أن يرحمكم ويتوب عليكم!

هتف فيه أحدهم بغضب وتهكم:

- لا حاجة لنا ببناتك أيها الشيخ الخرف، فلتعطنا ضيوفك وتتجو بنفسك أو تهلك بخرقك للمرسوم الملكي الذي حرم منع استضافة الغرباء وجعل الحرق عقاباً لمن لم يمتثل.

ومع الحرف الأخير للرجال انفتح باب الدار وامتد يد (جبرائيل) لتجذب (لوط) إلى الداخل، فهم بعضهم بالانقضاض عليه، إلا أن يد (جبرائيل)

نعم يا لوط، نحن ملائكة من ربك جئنا لننجيك بعد أن حُفَّت كلمته وحنانت ساعة الوعيد.. خذ بنيك وبناتك وأصهارك، وكل من لك في المدينة وأخرج من هنا قبل هلاك المكان.. فقد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا بالعباد.

من قال إن حل أزمت البشر ورفع الضر عنهم يتأتى بالنصيحة؟

(لوط) بالفعل وكلّم أصهاره المترجحين من باقي بناته، وتوسّل إليهم: «موا أخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة الليلة لا محالة»..

كلماته تددت في الهواء كقيض ريح إزاء تعنتهم وسخرتهم من عسى رب لم يؤمنوا بوجوده، ولم يخشوا يوماً عقابه، فكان النبي المكذب قومه كمازح في أعين أصهاره.

سأله طلع الفجر، وجه (جبرائيل) تحذيره الأخير إلى (لوط):

قم خذ ابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بآثام المدينة.. «فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتك إنه مصيبها ما أصابهم»..

أمرأتى؟

نعم، لا تحذرها عن النظر خلفها ودعها تأخذ عقابها مثل باقي قومك، فقد خانك لأنها مثلهم.. هيا.. اهرب لحياتك وانزع إلى وأشار (جبرائيل) نحو مدينة (صوعر) كملجأ وملاذ.

في جنح الظلام، أخذ (لوط) يهرول نحو الجبل بصحبة ابنتيه وزوجته..

أن الكريم، سورة هود، الآية رقم ٨١

الجليل، ومهما سمعت خلفك من صرخات واستغاثات فإياك أن تنظر وراءك أنت وإبنائك فتهلكوا.. فما سيحدث من عذاب في قريبتكم مع مشرق الشمس سيفوق أي وصف، وسيخلده تاريخه الذي سترويه الأجيال لآلاف من السنين.

ومن مكانه في السماء الأولى سمع الطيف الملائكي النوراني تلك الصيحة العظيمة التي كانت بمثابة إشارة البدء لوقوع الهلاك بعد أن حانت ساعة الصفر، ثم شاهد سيده (جبرائيل) إمام السمانيين وهو ينقض انقضاضاً الأخيرة على الممالك الهالكة، ليهوى عليها من حالي بأجنحته السماوية قبل أن تخترق أجنحته أرض تلك البلاد لتصل إلى جذورها في الأرض السبع، ثم تتساقط من أصولها من العروة السفلى ليطير (جبرائيل) بالبال ومن عليها بسرعة رهيبية حتى وصل بها إلى السماء الأولى، ليسمع أم السماء أصوات الديوك وضغاء الكلاب وصرخات البشر الهالكين في لحظاتهم الأخيرة، ثم حان دور باقي جنود (جبرائيل) من الملائكة حامل أصوات الرعد وخطف البرق والصواعق العظيمة ليقوموا بدورهم، وأرسل السماء انتقامها في صورة أمطار من سجيل، معبأة بالكبريت والنار، علم كل حجر منها مكتوب اسم الشخص الموجه إليه ليهلكه، في الوقت الذي انطلقت فيه الأهات والصرخات، لتختلط بأصوت أخرى عالية جداً كأنه أن تصم أذان (لوط) وإبنتيه وقد دبّ الرعب في قلوبهم، إلى حد أن خشوا حتى من محاولة تخيل ما يحدث، وكان هذا كافياً لكي تهزم أمة (لوط) رأسها غير مصدقة أن عذاب الله قد وقع بالفعل.

كيف تُصدق وهي التي عاشت تسخر طوال عمرها من دعوات زوج في الوقت الذي كانت فيه قلباً وقلباً مع باقي القوم المفسدين؟ كيف تؤمن أن ثمة عقاباً سماوياً يقع خلفها بالفعل؟ وماذا عن باقي قومها؟ هل سيهلكون حقاً؟ وكيف يكون شكل هذا العقاب؟ وعندما لاحظت منها نظرة سريعة للخلف، لم تكن تدري أنها النظرة الأخيرة، حتى إنها لم تلحظ أن تستغفر أو تتوب وهي تتجمد في مكان كتمثال من الملح ثم تدرهوا الرياح!

ثم قلب (جبرائيل) البلاد ليهوى بها لأسفل عائداً إلى الأرض وقد

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

ثم قلب (جبرائيل) البلاد ليهوى بها لأسفل عائداً إلى الأرض وقد

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

الملك الذي كان يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتوسلون إلى الله باسمائه وصفاته الغلا ليجيب أمانى عزيزة فشل أمثالهم في تحقيقها، أو كان في إيمان الملوك والأكابر أن يلبوها لهم، فدخلوا عليهم في لحظات الأثانية، والجشع، واستخفاف الإنسان في الحزن والألم حين يستبطنون الإجابة مع كل لحظة تعلق فيها بالملك بين السماء والأرض.

## العصر الحالي

أحد الشوارع الرئيسية الفاخرة بمنطقة (مصر الجديدة)، شعر ملاك الوسيم أنه يسمع موسيقى ذات طابع روحاني ساحر، يخلب الأفتدة الأبواب بشكل يفوق روعة وجمال إبداعات فرق ERA و Enigma Gregorian الغنائية التي كانت إبداعاتها تشبه تلك الموسيقى إلى بعيد، ليسير الشاب النوراني مرتدياً نفس ملابسه الفضفاضة ناصعة البياض، ويعبر الشارع مهتماً بقراءة ورقة ذات لون ذهبي أنيق في يده، دون أن يبالى بالسيارات المسرعة التي تسير في الطريق وتكاد تصدمه، حتى إن السيارات كانت تمرق على بعد سنتيمترات محدودة إلى جانبه، دون أن يعترض قائدو هذه السيارات أو يُطلقو آلات التنبيه، لأنه سائلة كان غير مرئي لهم، قبل أن يصل الشاب إلى الرصيف الفاصل بين الاتجاهين المتضادين للطريق، ويتطلع من فوقه إلى بناية ضخمة ذات واجهة زجاجية أنيقة في دورها الأرضي مطعم شهير تابع لإحدى الشركات العالمية، وكل دور منها يقل شركة كبرى، ثم نظر الشاب النوراني لأعلى متابعاً سقالة هيدروليكية تقف في الدور العشرين من المبنى، ويقف عليها عامل يقوم بتنظيف الواجهة، مرتدياً الزي الرسمي لعمال نظافة المتروط بهم تنظيف المبنى.

وفي مكانه، نظر الشاب الوسيم للحبل الحديدي الممسك بالسقالة ثم راجع الورقة الذهبية التي في يده..

في تلك الأثناء في سطح البناية، حدث ماس كهربائي مفاجئ، وانزلت السقالة لتمسك بالآلة التي تتحكم في السقالة، لتأكل النيران الحبل الحديدي السقالة بينما ما زال العامل يقوم بتنظيف الواجهة الزجاجية دون أن يشعر أو أن أي إنسان آخر بما يحدث في السطح، إلا الشاب الوسيم الذي كان في النيران فابتسم ثم نزل من الرصيف ووقف في منتصف الطريق، ليسير فوقه السيارات المسرعة، ثم تحول من طيف غير مرئي إلى مرئي بشريّة ظاهرة تجلت فجأة أمام إحدى السيارات الملوكي القائمة في الشارع، لينتبه سائقها إلى الشاب الذي برز أمامه من العدم بغتة، فقام برعلة القيادة إلى اليمين بسرعة في رد فعل تلقائي غير محسوب على يقادى ذلك الغامض الذي برز من الفراغ، لكن انحرافته المفاجئة

(آدم) حين يصرخون من الفرحة لحظة الإجابة وتحقيق الأماني البعيدة فيتأفزون كطفل بريء أطلق لمشاعره العنان، ليشعر في هذه اللحظة بالتعاطف معهم في الوقت الذي صار فيه جندياً في ساحة الحرب عادية وتوقيع العقاب إزاء ما اقترفت أياديهم، وبألمها من مفارقة!

وهكذا أصبح الملاك النوراني جندياً مُخلصاً في زمرة جنود (جبرائيل) وأبدى غاية سعادته عندما بدأ تنفيذ مهامه الجديدة.

\*\*\*

ساختلغة ثلاث ديانات سماوية تجسد في معبد يهودي، وكنائس، وشاعت الأقدار أن تتجاور.. وقف الشاب النوراني الوسيم في النهار خفيًا عن عيون الزائرين المتوافدين على المكان، مستغرقًا حالة فريدة من الروحانية والقدسية النابعة من امتزاج صوت الأذان أجراس الكنائس وصوت بوق الشوفار اليهودي إيقاظًا بإقامة الساعات الثلاث..

روحه الطاهرة شديدة التعلق بترك البقعة المباركة، وكثيرًا ما تهفو روارتها والسبح في أوجائها ليضرب بأجنحته الهواء مطلقًا نسائم القداسة وروائح المحبة على زوار المكان، فيمضض الجميع ويأخذون نفسًا عميقًا محملاً بعقيق الملائكة التي لا تُدركها الأعين والأرواح والأنف تستشعر وجودها، غير أنه جاء في هذه المرة إلى حيدة من مهامه المقدسة.

حول ما تبقى من حصن بابلون الروماني، قيل أن نُصبت إلى ذلك السياحي الشاب الذي يصاحب مجموعة من الشباب المصريين حرصوا على زيارة تلك المنطقة المهمة في بلادهم لاستكشافها من الجهل بها مثل باقي المواطنين الذين لا يعرفونها حق المعرفة سوى السائحين إليها من كل أنحاء العالم.

الجمع، أشار المرشد السياحي الشاب لسور الحصن قائلاً:

نحن الآن في منطقة تاريخية نادرة الحدوث في العالم، تجمع بين آثار ودور عبادة إسلامية ومسيحية ويهودية، وتتجاور كل هذه الدور مع بعضها منذ قرون طويلة، لتكون شاهداً على طبيعة مصر النادرة، وخصوصيتها الفريدة التي جباها بها الله كدليل على إمكانية تأخي الأديان والعقائد، ومعيشة معتققيها جنباً إلى جنب في سلام..

يحيط بالمنطقة كما ترون حصن بابلون الروماني، وهو الحصن الذي يحيط بجميع الكنائس، بالإضافة إلى المتحف القبطي والمعبد اليهودي، وعلى بعد أمتار يقع مسجد عمرو بن العاص، أول مسجد بُني في مصر وإفريقيا، ورابع مسجد بُني في الإسلام بعد مساجد المدينة المنورة والبصرة والكوفة.

كادت أن تصدم سيارة نقل ضخمة ثقُل في صندوقها أطنائاً من الرمال فأنحرف سائق النقل بدوره بعيداً عن السيارة الملاكى التي كسرت عليه الطريق بشكل مفاجئ، ليتفادها ويفقد السيطرة على سيرته المرسعة التي اتجهت نحو مدخل البناية في نفس لحظة سقوط السقالة بعامل النظافة وهو يصرخ بقوة متمسكاً بالسقالة وعلى ملامح وجهه أعتى ملامح الهول والفرع.

وحين أخذ الزبائن الجالسون على الموائد المجاورة لواجهة المطعم الكائن في الدور الأرضي يتقافزون في هلع في نفس لحظة اختراق السيارة النقل لواجهة المكان الزجاجية وتدميرها تماماً، استقر صندوق السيارة أسفل المكشوف أسفل السقالة المخلقة في الهواء، قيل أن تسقط فوق الرمال ومعها عامل النظافة الذي اندفن جسده بفعل قوة السقطة، قيل أن يبرز بعدها بثوانٍ غارقاً في الرمال التي غطت هيئته ولامحه، ليضرب إصبعي الإبهام والسبابة ويحركهما على صدره صانعاً صليباً وهمياً وشفتاه تمجدان (يسوع) في صمت، في الوقت الذي غادر فيه الشاب الوسيم مبتعداً عن الأحداث وجموع البشر الذين التفوا حول الحادث، مكتفياً بالتطلع إلى الورقة التي في يده ليقراً مهمته الجديدة، بينما أم قائد السيارة الملاكى يتلفت حول نفسه باحثاً عن الشاب الذي ظهر فجأة أمام سيارته، فاحصاً وجهه كل المحيطين به دون جدوى!

ومن جانبه سار الشاب في شوارع وطرق متعددة في شتى بقا الأرض، (نيويورك)، (بومباي)، (شنگهاي)، (طوكيو)، (استوكهولم) (برلين)، (مارسيليا)، (بوخارست)، (مقدشيو)، وفي يده تلك الورقة الذهبية التي تحري التكليف السماوي بإقناذ البشر فقط مما لم يرد في صحائف أقدارهم، لتتعدد المواقف التي يظهر فيها الشاب في الحظائر الأخيرة ويكون أداة نجاه للهيبة لا تتركها الأبيصار، وإنما تستعر بها الأرواح، وتحار حولها العقول، ثم تسجلها الذكريات والحكاوي في النهاية تحت بند "صدق أو لا تُصدق"!

\*\*\*

في مجمع الأديان بمنطقة "مصر القديمة"، حيث تتعاقب اليهود والمسيحية والإسلام في تلك البقعة الروحانية التي تنوب على أعتاب جميع الاختلافات، وتحتضن - دون قصد من البشر - بين أروقة



## المعبد ويستطرد:

بتوسط المعبد أطلس سيدنا موسى عليه السلام، وهو يُسمى بصخرة المعجزة، وهو عبارة عن شاهدٍ رخامي يحمل كتاباتٍ مذهبة، تشير إلى أن سيدنا موسى زار هذا المكان، وتعبّد فيه، بينما زُدّت بعض الأقاويل بأنه مكان رسو الصندوق الذي كان به سيدنا موسى حين ألقته والدته في قاربٍ صغيرٍ لينجو من أمر فرعون بقتل الأطفال، كما نجد الييما وهو يُشبه المنبر المخصص لخطبة الإمام عند المسلمين لكنه مصنوع من الرخام، وكان يصعد عليه الحاخام لإلقاء الخطبة وقراءة أسفار التوراة، كما يوجد بالمعبد الجنيزة التي يُحفظ فيها التوراة، وكذلك المينورة، وهي الشمعدان ذو السبعة فروع، وترمز إلى أسباط اليهود وأيام الأسبوع السبعة، بخلاف الشمعدان السداسي الذي يرمز إلى الأيام التي خلق فيها الله السماء والأرض، والشمعدان ذو الفروع التسعة التي ترمز لعيد حانوقا أحد الأعياد اليهودية، وينبع جمال المعبد في الثراء المعماري الداخلي له، الذي يُحاكي ثلاثة طرز، منها الإسلامية والتي تتجسد في تصميمات نوافذه والرسومات الموجودة على الجدران، ثم الطراز الكلاسيكي المتمثل في الأعمدة الاثني عشر، والتي ترمز لتلاميذ السيد المسيح، إضافة إلى الأجواء اليهودية كنجمة داود والهيكل، والنقوش التي تحوي الوصايا العشر.

يوسف المعبد اليهودي انتظر المرشد دقائق قليلة مسح فيها بعض أرجاء المعبد وفي أعينهم الدهشة والانبهار، في الوقت الذي جاءه سياحي أجنبي من خارج المكان، ثم غادر الشباب ومرشدهم دون أن يشعروا بملك الرب وهو يسير معهم حين اتجهوا يميناً ليقع كنيسة القديسة (بربارة) ذات الطراز البازيلكي، وهو الطراز السائد في الكنائس القديمة، بسقفها المصمم على شكل سفينة نوح، وقد صُعد بذلك تيمناً بسيدة كانت من أسرة ثرية وثنية، وبعد أن اعتنقت المسيحية على يد العالم المصري (أوريجانس)، غضب عليها وعذبها حتى الموت، ليشرح المرشد تفاصيل الكنيسة ثم يُغادرها إلى وسط الحصن الروماني حيث كنيسة (أبي سرجة)، التي نزل

أنشئ حصن بابليون الأشبه بالحصون الرومانية التي كانت في أوروبا وشمال إفريقيا على يد الإمبراطور الروماني تراجان عام 98 ميلادياً على نهر النيل عندما كان يمر من هنا، وأخذ اسم من مدينةٍ مصريةٍ قديمةٍ مجاورة له وهي بابليون، واستعملت في بنائه أحجارٌ أخذت من معابد فرعونيةٍ وأكملت بالطوب الأحمر ويتميز هذا الموقع بأنه يتوسط مصر بين الوجه البحري والوجه القبلي، لذا تم بناء حصن بابليون به للحماية العسكرية الرومانية ليكون خط الدفاع الأول لبوابة مصر الشرقية، ومن خلاله يحكم الرومان السيطرة على أي ثورات تقوم ضد حكمهم في الشمال أو الجنوب.

ثم تابع الشاب النوراني ببصره المرشد السياحي وهو يشير للشباب المصاحبيين له فيتبعونه إلى حيث كنيس (بن عزرا) اليهودي، وعندما أصبحوا داخله، تأمل الشاب النوراني أرجاء المعبد شديدة الروعة والبهاء، واستشعر اللذة الروحانية التي حملها عبق المكان فيما أُرشد المرشد:

- يرجع تاريخ معبد بن عزرا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، حيث شيد لأول مرة، ثم تحول إلى كنيسة عُرفت باسم كنيسة الشماخين وظلت هكذا حتى القرن التاسع الميلادي، حين أخذتها طائفة من المسيحيين اسمها اليعقوبيون، وقاموا ببيعها بسبب ضائقة مالية تعرضت لها الكنيسة الأرثوذكسية نتيجة لزيادة الضرائب التي فرضت عليها وقتها، فكان المشتري هو الحاخام اليهودي إبراهيم بن عزرا، الذي قدم من القدس في فترة حكم أحمد بن طولون وحولها إلى معبد يهودي يحمل اسمه إلى الآن، وهو أحد أكبر المعابد اليهودية الباقية في مصر، ويحوي مكتبة ضخمة تضم كتباً ودوريات يهودية، تُوزع لوجود اليهود في مصر. وتعود أهمية المعبد إلى الاعتقاد السائد لدى اليهود بأن سيدنا موسى عليه السلام كان يعبد الله في هذا المكان، وأنه دعا ربّه بالآية بيتش كوارث أخرى على مصر، فهناك عدة عبارات علم الشاهد الرخامي باللغة العبرية بوسط المعبد توضح ذلك.

قالها وترك الشباب يمشون باعينهم على الكلمات العبرية، وهم يتشتمون التقاط صور لها بهواتفهم المحمولة غير أنه كان ممنوع التصوير للأسف، قبل أن يشير المرشد الشاب إلى منتصف

الميلاديين، منها صور لميلاد المسيح، والقديسين ديمتريوس ومار جرجس، وصورة العشاء الأخير.

سميت الدهشة والذهول على الوجوه، وشعر الشباب على اختلاف أعمارهم بحالة عجيبة من العشق والمحبة، حتى إن أذانهم استشعرت رنين الحواريين وأناشيد الملائكة وغناء شعب الكنيسة في الليالي المباركة، بينما واصل المرشد:

وترجع تسمية الكنيسة إلى اسم قديسين لهما شهرة في تاريخ الاستشهاد الديني المسيحي، وهما سرجيوس وواخيس، كما توجد بئر المياه المقدسة بين ملحقات الكنيسة، حيث شربت منه العائلة المقدسة، وما زالت مياهه المباركة تفيض حتى الآن.

على بعد أمتار قليلة من كنيسة (أبي سرجة)، سار المرشد متقدماً الفوج المرافق وهو يواصل الشرح مشيراً إلى الكنيسة المعلقة:

والآن، ها هي ذي الكنيسة المعلقة التي تُعرف باسم كنيسة العذراء، وهي من أعظم كنائس حصن بابليون، وسميت بالمعلقة لأنها شُيّدت على برجين من أبراج الحصن الروماني، حتى تكون رمزاً لانتصار المسيحية على الطغيان الروماني وجبروته، وما لا نستطيع أن نغفله، أنه في عام 1671 ميلادياً، أثبت العالم فانسليلب، الذي زار الكنيسة المعلقة في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا، أن على أحد جدران الكنيسة حمل كتابات يخط القائد العربي عمرو بن العاص، تتضمن وصية بعدم التعرض لهذه الكنيسة بأي أذى.

ثم سار الجمع ليصلوا إلى دير (مارجرجس) للراهبات، وقد تصدر مدخله عمال محفوز على الحجر ل(مار جرجس)، وهو يقتل التتین رمز الشر بهريته، قبل أن يقول المرشد:

وفي هذا الدير المقدس، يتردد الكثير من البشر، تبركاً منهم بالشهيد مارجرجس، خاصة المصابين بأمراض عصبية وعقلية، حيث يضعون حول أعناقهم السلسلة التي رُبط بها مارجرجس حول عنقه ولاقي عذاباً وأهوالاً شديدة لتحل بركته على السلسلة وتصبح طاردة للأرواح الشريرة.

إليها المرشد والفوج المصاحب له بواسطة درجات من السلالم الحديدية يتقدمها سياج حديدي قائلاً:

والآن أنتم في حضرة المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة هرباً من وجه هيرودوس ملك اليهود، الذي أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم وفقاً لإنجيل متى.. فيختماً ولداً يسوع في بيت لحم الواقعة في المنطقة اليهودية بعيداً عن الملك هيرودس، ثم إلى اورشليم بغرض المجوس القادمين من الشرق يسألون: "أين هو المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمة طالعا في الشرق، فقم معنا اورشليم كلها، فجمع إليه رؤساء كهنة اليهود وكُتبت جميعاً، واستفسر منهم أين يؤد المسيح. فأجابوه: "في بيت لحم باليهودية"، فاستدعى هيرودس المجوس سراً، وتحقق منهم زمن ظهور النجم. ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال: "اذهبوا وابعدوا جيداً عن الصبي. وعندما تجدونه أخبروني، لأذهب أنا أيضاً وأسجد له". فلما سمعوا ما قاله الملك، مضوا في سبيلهم. والنجمة، التي سبق أن رآه في الشرق، يتقدمهم حتى جاء وتوقف فوق المكان الذي كان الصبي فيه. فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً، ودخلوا البيت فوجدوا الصبي مع أمه مريم. فسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له ذهباً وبخوراً ومروراً. ثم أوجبه إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس، فانصرفوا إلى بلادهم في طريق أخرى، وبعثاً انصرف المجوس، فملك من الرب قد ظهر ليوسف في حلم، وقال له: "قم واهرب بالصبي وأمّه إلى مصر، وإبق فيها إلى أن أمرك بالرجوع، فإيرودس سيبحث عن الصبي ليقتله".

وهكذا فرّت السيدة مريم العذراء مع ابنها المسيح إلى مصر ورافقها هي ومسيحها في رحلتها القديس يوسف النجار ومنه من الملائكة، وحين جاءوا إلى مصر أقاموا في المغارة المقدسة الموجودة أسفل هذه الكنيسة، وكما تشهدون يحتوي المكان على عدة أيقونات ترجع للقرنين الخامس عشر والسادس عشر

ومع آخر حروف كلماته الأخيرة، تهافت الشباب على وضع المسلسلة حول أعناقهم وأخذ البعض يلتقطون الصور التذكارية على هواتفهم المحمولة وهم يريدونها ملوَّحين بعلامات النصر وعلى وجوههم البسمة.

بعدها بدقائق كان المرشد والشباب المرافق له في ساحة مسجد (عمرو بن العاص) الملقب بتاج الجوامع دون أن يلحوا طيف الشاب النوراني الذي سبقهم إلى المكان محلًا في السماء بأجنحته الضخمة قبل أن ينزل وسطهم، فيما استطرد المرشد:

وفي عام ٦٤١ ميلادياً، سقط حصن بابليون في يد القائد العربي عمرو بن العاص بعد حصار دام نحو سبعة أشهر، ليُخْلَص أهل مصر من ويلات الرومان الذين استعبدوا الشعب، وذُلوا ناصيته، ونهبوا خيراتهم وتعمعوا فيها وصَدَّروا الجزء الأكبر منها لخزينة الدولة الرومانية، وكان سقوط الحصن إيذاناً بدخول الإسلام في مصر، حيث اختار أهل العاص منطقة شمال حصن بابليون الصحراوية بعد أن وجدها من الناحية العسكرية موقفاً استراتيجياً ممتازاً، وأقام فيها مدينة القسطنطية فوق عدة تلال، لتكون مدينة للجند العرب، وبُنِيَ مسجد عمرو بن العاص عام ٢١ هجرياً، وشارك عدد من الصحابة في تصميمه وأهمهم أبوذر الغفاري، وكان المسجد في بداية الأمر يختلف كلياً عما هو عليه الآن، فكان سقفه من الجريد والطين ومحمولاً على أعمدة من جزوع النخل وارتفاعه كان منخفضاً، ولم تكن به مآذن ولا أي نوع من أنواع الزخارف سواء في الداخل أو الخارج، وكان محراب الصلاة مسطحاً ومرسوماً على الحائط دون تجويف، ثم أُدخِلت التعديلات والتوسعات على الجامع بعد ذلك على مرِّ العصور لتتوالى عملياتُ توسعة وتطوير المسجد، ومن أشهر من ألقى خطباً فيه كان الإمام الشافعي والشيخ محمد الغزالي، واشتهر الجامع بحلقات العلم، حيث كان مقصداً للطلاب من شتى أنحاء الدولة الإسلامية و....

بـــــــــــــوم

كان هذا صوت انفجار قنبلة شديدة الفتك وضعتها أحد الإرهابيين في ذلك الممر الذي يربط بين ساحة المسجد والكنائس القبطية بهدف

استهدف الوفد السياحي، في اللحظة التي احتضن فيها ملاك الرب القنبلة فور انفجارها ليحتوي شظاياها ولهبها الهائل بين أجنحته دون أن يسمح لها بالتقدم الأفقي والحاق الضرر بالحاضرين، فيما اتسعت أعين الجميع وانخفضت أياديهم التي ارتفعت أمام وجوههم بهيئة غير مستوعبين ما تشاهده أعينهم الجاحظة حين توجه عنف الانفجار في صورة لسان من اللهب امتد السماء، وكان حواجز من الزمان المصحف وضُيقت حول القنبلة، وسمحت للناظرين برؤيتها دون أن يمتد ضررها إلى أي مخلوق.

بعد أن أكمل الشاب النوراني مهمته، أخذ يتأمل ملامح البشر بحقن،  
 بعد أن يتذكروا نعمة الله عليهم ولو لنهاية اليوم، بعد أن اعتاد رؤية  
 ونقدهم من الهول والهلاك وهم يعودون إلى غيهم واستكبارهم عن  
 الله بعد نجاتهم بساعات!

“اسنت

والأمر من خلفه صوتٌ عميقٌ تملأ الثقة والرزنة نبراته، ليلفت الشاب  
الرائي إلى القائل الذي ميز هويته وفعلًا كان هو..

أ. يبدو وكأن النور يسع من وجهه وعينيّه. يرتدي ملابس بيضاء فاضحة واسعة، أكثر بريقاً من التي يرتديها الشاب النوراني، ليُضجح تحتها جسده الفارع الضخم الذي زاد من هيئته، وقد بدا في مكانة أعلى من مكانة الشاب الذي تأمل ملامحه في مهابة واحترام، قبل قول باحترام وتبجيل وهو يصوب عينيه إلى الأرض:

شکراً سیدی، ما فعلت إلا ما کُلفت به

أخرج الشاب النوراني من طياته تلك الورقة الذهبية التي انتهت من  
هذا تكليفاتها، لينالها إلى رئيسه الذي التقطها منه وهو يتأمله ثواني  
طال فيها النظر وهو يمسحها مسحا، قيل أن يسأله:

كيف حال أهل الأرض؟

أرسل الشاب النوراني نظره إلى حيث لسان النار الذي وصل إليه رجال الملقاء ويحاولون إخماده، فيما فرضت قوات الأمن كردوناً وهم يخلون



الكان من البشر، ثم أجاب بلهجة بدت ناقمةً رغمًا عنه:

وحملها الإنسان الظلوم الجهول.

- كما ترى يا سيدي.. يقول بنو آدم أحيانًا إن الصورة قد تُغنى عن ألف كلمة، وهم في ذلك محقون.. حتى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرب بالندس والرجز، وأخشى من ذلك اليوم الذي لن يعود في الأرض شجرٌ واحد يصلح لبقائنا فيه

ثم احتدت كلماته كسيفٍ صارم وهو يُردف:

- هؤلاء بني آدم من أعرب مخلوقات الله.. لديهم العقل القادر على التمييز بين الصواب والخطأ، لكنهم يعيشون السباحة ضد التيار.. يذهبون إلى البؤس والشقاء في طرقٍ وعرة مظلمة، يسرون فيها حفاةً على الأشواك بمحض إرادتهم وأمام أعينهم طرق أخرى مهيبة بنعومة الحرير، وفي نهاياتها يسطع الضياء.

لا تملأ الكنوز أعينهم ما دامت في أياديهم، ويعشقون السير في جنح الليل للبحث عن اللمم والصغائر ذات الروائح العفنة التي تزكم الأنوف، ورغم ذلك يبذلون من أجلها الغالي والرخيص.

عقولهم تستصعب السهل، ورغباتهم وشهواتهم مغناطيس لا يجذب إلا لما هو وضيع، وأينما حل الخطأ والخطيئة يحتشدون، وعلى الرغم من أن الله تبارك وتعالى قد جعل لهم كونه الفسيح آيات محكمات ليتدبروا ويتأملوا، إلا أنهم يُحجمون عن المعرفة والتأمل، وينغمسون في المجاهل والملذات الزائلة، صانعين من أنفسهم آيةً لقومنا تزيينا هدىً على هدى، وتجري على سنتنا المحامد والمشاكر على أننا لم نُخلق من نسل آدمهم.

لقد خلقوا للتعاسة والشقاء، وجعلوا من الألم صنمًا يعبدونه من

أجل الفوز بجنةٍ تجري من تحتها الدموع!

ابتسم رئيسه وهو يناوله ورقةً ذهبيةً جديدةً قائلاً:

- هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها، منذ أن عرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها

٥١ سورة الكريم، سورة البقرة، الآية رقم 30

الملك النوراني الورقة واستطرد:

مع كل مرة أودي فيها مهمةً جديدةً يزداد يقيني أنني كنتُ على صواب حين قلتُ مع من قالوا "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.. ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"\*

بسمه سبابته بحزمٍ وصرامةٍ مستطردًا:

"قال إني أعلم ما لا تعلمون".. لا تنس إجابة الرحمن حينها

٥٢ اسمع أقرب للتحدي قال الشاب النوراني:

لكن هذا لا يمنع أنه قد شرع لنا السؤال.. لذا أتساءل طوال الوقت: كيف يصبر الرب على كل خطاياهم وذنوبهم التي تفاقت وتخطت كباثر الأمم التي أهلكتها من قبل؟ إنه لا يصبر عليهم قصب؛ بل يسخر نفرٍ منا لحمايتهم وإنقاذهم رغم كل الجرائم والآثام والذنوب والحروب التي لا تتوقف بينهم.. لماذا أهلكتنا من كانوا هم أقل منهم في الخطايا إذن؟

الابتسامة لتملأ ملامح رئيسه وهو يُجيبه:

دعوت الله أن تكون من ملائكة العذاب وشفع لك جبرائيل فكننت، ودعيت أن يجعلك من الحفظة واستجاب.. وفي الحاليتين لا أراك إلا ناقماً.

٥٣ الشاب الوسيم في الكلام، وحاترت على شفثته الكلمات للحظات، ثم بطءٍ مزروح بالحزن:

ليتني ظلت أعذبهم ولم أتعاطف معهم.. مع كل واقعة عذاب كنت أظن أن الهول الذي أسوقه إليهم سيكون عبرةً وادعةً لكل من سُئِل له نفسه في الأزمان التالية، لكنهم كانوا يزدادون فسقاً وفجوراً عصرًا بعد عصر.

السلطنة الجنوبية (يهودا)\* وعاصمتها (أورشليم)، والمملكة الشمالية  
عاصمتها (إسرائيل) وكانت تتبع إمبراطورية (آشور) بعد أن اجتاحتها  
بجيشها الملك (سنحاريب) بجيوشه الجرارة، بخلاف (مصر)، و(بابل)..  
من حاصر جيش الملك (سنحاريب) الوثني مملكة (يهودا) وأراد

إسعاد أهلها له وأجبارهم على عبادة أوثانه، أرسل مع رسله رسالة  
فيها من الله قيوم السماوات، وقُدوس الجنود الذي يعيده أهل  
البلاد، فأخذ (حزقيا) ملك (يهودا) رسالة (سنحاريب) ثم صعد إلى الهيكل  
(سليمان)، وهناك مزق ثيابه، ولبس المسوح ليستشعر الذل والخضوع  
لربّه، وبعث رُسلاً إلى نبي الله (إشعياء)، أخبروه أن الملك يطلب منه  
مساعدة من أجله ومن أجل تمجيد اسم الرب في تلك اللحظات العصيبة  
التي تسبق مواجهة جيش لا قبل لهم به، ونشر الملك (حزقيا) رسالة  
(سنحاريب) الساخرة المستهزئة من الرب في الهيكل ثم صلى طلباً للمدد  
في اللحظات الأخيرة قبل قدوم الهلاك.

أخلص (حزقيا) في صلاته، وسقطت الحواجز المادية واختبأت  
روح الخائفة في روح الله، جاءت إجابة السماء سريعاً، وأوحى الله إلى  
(إشعياء):

أني سمعت دعاء حزقيا، فامض إليه وقل له: يقول لك الرب  
إله إسرائيل الليلة سينجيك من سنحاريب

في السماء، استقبل الملك النوراني الوسيم مهمته الجديدة تجاه جيش  
(سنحاريب)..  
بعد وفاة نبي الله (سليمان) انقسمت مملكة إسرائيل الموحدة التي أسسها (شاول)

إسسه (طالبوت) في العقيدة الإسلامية ومن بعده (داوود) وضمت أسباط اليهود إلى  
مملكتين.. مملكة (يهودا) بالجنوب وكان من ضمنها بلدة (أورشليم) التي ضمت  
هيكل (سليمان) وكانت المركز الديني لبني إسرائيل، ومملكة (إسرائيل) بالشمال،  
وتسار القتال بينهما لفترة طويلة رغم إحاطة الأعداء بهما من الآشوريين والبابليين،  
وحتى قاتل بني إسرائيل في المملكتين الجنوبية والشمالية، نسوا وقاسوا وصايا  
الأمم، وأعراف ومواقف السماء التي تحدد شكل عبادتهم وخضوعهم للرب، ففجروا  
الله، حتى اختار الله نبيه (إشعياء) بن (أموص) لتصحيح الأوضاع المغلوقة.

حضر ملك الرب واقعة غرق فرعون (موسى) وجنوده، حين شقت عصا  
(موسى) البحر وعبر كلهم الله وأتباعه بخير، قبل أن يقع فرعون وجنوده  
في الفخ الإلهي حين عاد البحر إلى طبيعته وغشت أمواجه فرعون  
وجنوده، ليتلقوا في لحظات الغرق والنزع الأخير انتقام ملائكة العذاب  
ويبطشهم.

(جبرائيل) تولى أمر فرعون، بينما انطلق الشاب الملائكي يبطش ويهدم  
الجند الهالكين في عرض البحر، بعد أن عبدوا فرعونهم من دون الله،  
واستبدلوا عبادة الخالق بعبادة المخلوق أملاً في ملك زائل، وخيرات لن  
تقوم.

حضر أعتى المواقف في تاريخ الجنس البشري، وكان في كثير من  
الأحيان عنصراً فعالاً وسلاحاً غليظاً من أدوات انتقام الرب.

وبعد أن حضر وقائع عديدة انتصر فيها مع أقرانه من الملائكة لكلمة  
الحق، وفتكرو بأعداء الرب وأعداء أنبيائه وأوليائه، لم يصدق الملاك  
النوراني الجميل نفسه وهو يتلقى أول مهمة يؤكل بها وحده.. وكانت تلك  
المهمة ضد جيش (سنحاريب)\*.

ميزان القوى في ذلك الوقت كانت تتصارع على كفتيه 4 ممالك..

\* سنحاريب: هو ابن الملك سرجون حاكم مملكة (آشور)، وقائد جيوشه، قبل أن يتولى  
الحكم بعد مقتل أبيه، ليصبح أحد أقوى ملوك (آشور) عبر التاريخ، وكان ملكاً وثنياً  
لا يؤمن بالله، وعُرف عنه قوته وجبروته الذي هدد الأمم والممالك المجاورة له، نظراً  
لجيوشه الجرارة، وقدرته على غزو البلاد ويسط سلطانته عليها وإخماد أي ثورات ضده.

«لقد تطاول صاحب الملك الزائل والقلب البائس على قيوم الوجود، وباعث الكون من العدم.. لا يستحق سوى إشارة خفية تتجلى فيها حقيقة جيشه الضعيف، على يد ضربة من أحد جنود الرب الأرقى من عقاب هذا الفاني بيده.. الليلة يُدرك الفارق بين إله إسرائيل وآلهة ظن أنه سحقها وتسد على أتباعها في حروبه السابقة ضد أمم وثنية مثله.. فليهلك جيشه، وينكسر عرشه، ويبقى في عين العبيد مثله وحيداً شريداً ما بقي له من العصر، بلا جنود أو سلطان»

لا يهم من القائل، فقد أُلقيت تلك الكلمات إلى الشاب النوراني في عالم المعاني، حيث يصل المراد إلى الذات بلا لغة أو وسيط، فيصبح يقيناً في القلب واجب التنفيذ..

وسهر جنود (سناحارب) في تلك الليلة الليلية يسكرون ويُعيدون في حصار قوي ومحكم حول المدينة المقدسة (أورشليم) في مملكة (يهودا) الحبيسة بين المطرقة والسندان، ليقهقوا على نكبات رخيصة، ويتفاحروا بما سيصنعونه في تلك المملكة المقدسة بعد اقتحامها، قبل أن تهب عليهم عاصفة رهيبة، ويدوي صوْت هائل اخترق آذانهم، ثم حدثت مفاجأة عظيمة ظنوا وهم يشاهدونها أنها حتماً مجرد خيال بعدما تلاعبت الخمر برؤوسهم!

فقد أنارت السماء بوجه ملاك الرب الذي ملأ صفحاتها الواسعة، لينظر الجنود إلى أعلى وقد وجلت قلوبهم وانتفضت أجسادهم المدعورة التي فقدت القدرة على الحركة ليبقوا في أماكنهم كمعجزه عديمي الحراك، ثم هبط عليهم الطيف النوراني في هيئته وحجمه الحقيقي ليخفق بأجنحته الستة، وتطير مع عاصفته الشديدة دروعهم وأسلحتهم والخوذ التي يرتدونها، ليعبث الهواء بشعر رؤوسهم ويرسم بقوة حركته تموجات على ملامح وجوههم البائسة التي كاد جلدها أن ينفصل عن الجماجم من شدة الرياح، فيما اختلط بصوت العاصفة أصوات صراخهم وهم يتطلعون إليه في هول وهلع يعيون متسعة، فيما ألقى ملاك الرب كلماته ببطء وصوت عميق اخترق الحواس، ووقر في القلوب، بينما ما زالت صفافير العاصفة تضرب مواضع السمع عند الجنود وتعمل كخلفية للحديث الدائر من طرف واحد:

- الآن تكشف عن أعينكم الحُجب بعد أن أُنِعَ الحصاد لأعماركم

الفانية، التي استخدمتموها في مبارزة الرب بحثاً عن مجد زائف، وخيرات لم تتلها يدُ الإنسان إلا بامرّه، فمن يدرك عنكم النهاية ويحول بينكم وبين مصيركم البائس وأنتم على مشارف اللحاق بمن سبقكم إلى الجحيم؟

فالها وهو يلقي حفنة من التراب أخذتها العاصفة ونثرتها في الهواء لتلتقطها أنفاسهم المتسارعة، دون أن يدركوا أن تلك الحفنة لا تحوي إلا وياً فتاكاً قرر الرب إرساله مع جندي واحد فقط من جنوده، أدرك الأمم الفارق بين جنود الطغاة وجندي واحد من أهل السماء.

وفي لحظات معدودة نُقِشت الحمى في أجساد الجنود، لتنتشر فيها السخونة الشديدة، في الوقت الذي أخذوا يخرجون فيه ما في أجوافهم مع القيء الشديد الذي اعتصر أمعائهم وأخرج كل ما فيها دون أن يبقى حتى على العصاراة الهضمية الصفراء، لتخيم على المكان الروائح القذرة، وتخور الأجساد العتية وتتهار كثر مذبوح ترتعد أرائصه في لحظات الاحتضار.

ومع حلول الصباح اقتحم قائد حرس الملك خيمة (سناحارب) ليصبح منه مدعوراً:

النجدة يا سيدي!

(سناحارب) حاجبيه وتساعل في توتر سرى في جسده مع ملامح حال ونبرته المرتعدة:

ماذا هناك؟

لقد... لقد صرع ملاك الرب ١٨٥ ألف جندي من جنودنا وصرنا كشعلة في مهب الريح على أبواب أورشليم.. حتى قائد الجيوش نفسه هلك مع من هلكوا.

هل أصابك مسّ من الجنون يا رجل.. عن أي ملاك نتحدث؟

إنها الكلمات الأخيرة التي استخلصتها من آخر جندي فارق الحياة.. فلتصحبني إلى الخارج وتُعاين المشهد بنفسك سيدي.. رجالنا يفتشون الأرض وكأنه حقل من العطايا.. لم يعد هناك

جيش نثير به العرب في قلوب الأمم، وسرعان ما سينتشر الخبر لتصبح فريسة الممالك المحدقة بنا وتناهب للانتقام مما فعل بهم في الأمس.

وحين ذهب (سنحاريب) مع قائد حرسه إلى حيث لقي الجيش حذره أدرك متأخراً أن لـ (أورشليم) رباً يحميها بحق، ليلقي سؤالاً يائساً في لحظة الانكسار: إلى أين هرب وقد بارزت إليها ظننته أكثرية من صدام الملوك فإذا به حقيقي ويقف في صف أعدائي؟

لكن (سنحاريب) لم يثقل الإجابة وقتها، حتى رحل مع من بقي لديه من رجال، يجرون خلفهم أذيال الخيبة والعار، ليمضي ما بقي من عمره في مكسوزاء، ثم أدرك الإجابة فقط وهو يقتل على يد ابنه (ندين) الذي تحالاه مع أعداء أبيه، مقابل أن يجلس على العرش!

وفي (أورشليم) احتفل (حزقيا) مع (إشعيا) النبي وباقي الجموع بتمجده الرب لكلمته، وتنفيذ وعده، وأعطى الله لـ (حزقيا) علامة مجيدة لينزع عن العرب من المصاعب التي حلت عليه بسبب غزو (سنحاريب)، فكان العدو قد استولى على الحصان حتى لم يبق بذوراً للزرع، الأمر الذي يقود إلى حدوث مجاعة أو على الأقل عجز في الطعام، فإذا بالزور يخرج في تلك السنة دون حاجة إلى بذور، وهكذا في السنة التالية، وفي السنة الثالثة استرد الشعب طاقته، وعادت الأرض إلى ناموس الرب الذي عطله عامين خرق فيها الطبيعة من أجل من آمنوا به واختبأوا في ذاته، وكأن الله يعمل معهم عجا ما داموا عاجزين وامكانياتهم معدومة، حتى متى صاروا في وضعهم الطبيعي عاد لكل شيء نصابه الصحيح.

لكن الأمور ما كانت لتسير في الأرض على نسق واحد مهما طال الزمن، ليموت (حزقيا) ويخلفه ابنه (منسي) وهو ابن 12 عاماً، دون أن يشتد ساعده، أو يمهله القدر لينهل من حكمة أبيه، وقوته، وتعليمه، وإرشاده، فتزعزعت عقيدته وثلوث بهيمان الملك حيث لم يشرب السلطان بشكل صحيح، فسار (منسي) في الاتجاه المضاد لأبيه على طول الخط، فما بناه الأب هدمه الابن، وما هدمه الأب بناه الابن، وما رآه الأب حكمة رآه الابن الجهالة بعينها، حتى ارتدى في أحضان الأوثان مجدداً، وفجر ونكس على عقبيه في عكس اتجاه تعاليم ووصايا الإله.

فما جاء دور (إشعيا) الذي صار في الثمانين من عمره، ووهنت قوته واشتعل الرأس منه شيباً، لكن الكهولة وخوار قوة الجسد ما كانت لتول نبياً عن التراجع عما كلف به من الرب، فجاءت لحظة الصدام (إشعيا) و (منسي) لتنتهي بأغرب وأسرع مما توقعه البشر، في مشهد استشهد (إشعيا) حين أمر (منسي) بنشر جسده العجوز البالي في حذر شجرة، لتودع (أورشليم) أعظم أنبياء العهد القديم قاطبة، أهلها أعظم من نفعه لسانه بكلمات ليست كالكلمات، ومفردات لم تكن كانت تنفذ إلى العقول والقلوب عبر تعاليم الإله التي صاغها في عذبة راقية معجزة، ليكون نبياً بدرجة أديب، ومستشار سياسي، وعضو اجتماعي، اجتمعت فيه الحكمة، والبالغة، والحكمة السياسية، والشفعة الغيبية بامر ربه، فتنبأ في سفر نبوءاته بوقائع وأحداث ذكرها كفيلاً بتحقيقها حرفياً مهما طاللت الأيام ومضت السفون، حتى حقت كلمة الله على شعب (أورشليم) حين قست قلوبهم وكفروا بنعمه وخالفوا تعاليمه ووصاياه، فاجتاح (نيبوخذ نصر) ملك (بابل) بجيشه أهل أرض المدينة، وساق الشعب والأسرة الحاكمة عبيداً وجوارى إلى (بابل)، لتتحقق نبوءة (إشعيا) حين حذر (حزقيا) مما سيفعله البابليون مع (أورشليم) ذات يوم، وتبقت في الأفق نبوءة انتظرتها البشرية بأكملها، حول ميلاد السيد المسيح المنتظر.

ومع استشهاد (إشعيا) بكى الملاك النوراني كما لم يبك من قبل. بلغ عنه أفاق الكون دون أن يملك التفتيش عن الجحيم المستعر في أصابعه.. تمنى لو فعل ما فعله (جبرائيل) يقوم (لوط) حين انتسف القرى أصابعها وقلبها رأساً على عقب، لكن وحي الله هذا من روعه وتبنت حاله حين ألقبت المعاني في قلبه أن تكريم الصالحين ليس شرطاً أن يكون دائماً بنصرهم وسحق الأعداء، وأن ظلم بعضهم وقته يكون سبباً أرقى من الانتصار، ليبقوا في الأسفار والمزامير والصحف آيات حسنة للبشر في مسار الزمن الحالك، حتى يعلّموا المؤمنين الصبر والبات، ويحل بظلمهم وقتلهم على الأمم ما تستحق، فتصل لأسلافهم رؤساً تحتاج البشرية إلى أن تتعلمها من الظلم، كنفس حاجتهم للدروس المستفادة من العذل وانتصار الحق!

وبعداً عن وقائع لم تذكرها التوراة ولا الأسفار ولا المصاحف ولا الأنجيل، خط الطيف النوراني في وقائع ومواقف كثيرة للانتقام والردع بكل حزم



أمر ثوبك على الحدث، من موت، أو ميلاد، أو رزق، أو معارك، تلك الأسرار إلى السحرة والكهان ليفشوها بلهجة العارفين بالغيب، يجمعون الحشود من البشر، ليكتسبوا القداسة الزائفة في نفوسهم، والعوام لا سيما حين تتحقق نبوءاتهم وتصير واقعا.

تلك الأرواح النجسة سئمت التفتت لحساب شياطين الإنس، وقرروا لحسابهم في خطة أطلقوا عليها (يوم القيامة)!

ما سبستغلون ما تصل إليه مسامعهم في الملأ الأعلى، وينتحلون أنبياء في شتى روع الأرض ليبهروا البشر بأسرار وخفايا يكشفونها للجموع في النوادي والأسواق والمجالس، ثم يضيفون إليها قدراتهم وتصورها على أنها معجزات وتأييد سماوي من الخالق حتى يبدوا البشرية خلفهم، وحين يصير لهم اتباع سيطقون التحذير من سينتحلون صفة الأنبياء والمرسلين ليلضلهم عن سبيل الله، حتى يبدوا الأسماع ويصرفوا العقول عن الإيمان بالربم والأنبياء الحقيقيين سيكونون في أنظار الناس مجرد كاذبين محتالين بعد أن يتم تدمير عقولهم قبل بعثتهم، حتى يتم نشر الكفر ومبارزة الخالق ويُقضى على الإيمان في قلوب العالمين، فتحل اللعنة على الكوكب بمن فيه يوم قيامته بعد أن يصير إصلاحه أمرا مستحيلا!

هذه المعلومات تلقاها ملاك الرب النوراني مع جنود السماء في سبلات الاستعداد لملاقاة الأرواح النجسة والهجوم عليها أثناء صعودها إلى السماوات لإفساد مخططاتها..

سعدت الأرواح النارية النجسة بالفعل في حشود هائلة لاستراق السمع من الملأ الأعلى ليجدوا الملائكة في انتظارهم عند السماء الأولى، ولم يكن هناك بد من المواجهة..

كونية جبارة دارت رحاها في السماوات العلا، لا يستطيع وصفها من أبلغ أهل الأرض فصاحة مهما تفتقت قريحته عن إبداع الوصف والتصوير، لتنعقها فقط أصوات الهمهمات وأوتار الكمان، ولا يسحر الساكس والفلوت وبقات الطبول لتكون ملحمة أسطورية مدونة بالتدوين في موسوعة الأساطير الخالدة والملاحم الكونية التي لم يسلم لأسماع البشر.

وصرامه.. بعضها كان انتقاما لأنبياء ورسد قتلهم بنو إسرائيل وكُفُّوا عنهم قصصهم في قبر التاريخ الخفي الذي لم تصل إليه علوم بني (آدم) ولا أسماعهم، والبعض الثاني في مواقف إنسانية لبشر عاديين تعرضوا للظلم وارتفعت أيديهم للسماء في لحظة يأس، فإذا بالملأ يأتي بأسر مما يتوقعون، قبل أن ينسوا ويتناسوا ما رأيت أعينهم، ويحتولوا مع مرور الوقت من مظلومين إلى ظلمة وظالمين!

ومن واقعة إلى واقعة، ومن عصر إلى عصر، راح الملاك الوسيم وجندي الرب يزاور أهل الأرض ويُحقق غايته في الانتقام والبطش من المجرمين المتجبرين بأوامر إلهية، دون أن يعرف الملأ أو الروتين إلى حواسه وقلبه سبيلا مهما طاللت السنين وتوالت الأعوام وتكررت الأفعال.

وقبل ميلاد السيد (المسيح) هبط الملاك الوسيم مع زمرة (جبرائيل) ليبشر رعاة الأغنام بمولد كلمة الله وروحه القدس لتتشد جنبات الكون أنشودة الترحاب، وبحين موعد تحقيق نبوءة (إشعيا) بمولد ابن العذراء التي لم يمسهما بشر بعد مرور ثمانين قرون على نبوءاته التي لا تخيب، وفي تلك الأثناء، كانت السماء على موعد مع أمر جلال احتشد له الجناء السماوي في واحدة من أضخم ملاحم الكون التي لم يشهدها بشر..

وقف ملاك الرب النوراني ضمن الجموع يتلقون تعليمات عملية (الزوا المنشور)، التي سيشنونها على "الأرواح النجسة"..

فقيل خلق (آدم) لم تكن المكانة العلية حكرا على الملائكة النورانيين فقط، بل نال شرف التقديس والقرب من ذات الله بعض الأرواح النارية ذات القوة المفرطة التي عبدت الله حق عبادته، فارتقت وسمت، قيل أن تغار من عظمة قيوام السماوات ومجده العالي فوق الكواكب والأكران، فقال أحدها في قلبه: أصعد إلى السماوات أرفع كرسي فوق كواكب الله فأصير مثل العلي، فأنحدر إلى الهاوية وتنجست مقادسه، وأخذ معه طغمة من تلك الأرواح التي صارت على نهجه واتباعته، لحدث صراعا بين تلك الأرواح النارية التي صارت نجسة وملائكة الله النورانيين، حتى انتهى الأمر بطرح عدد هائل من هذه الأرواح في سلاسل الظلام الأبدي وتسليمها للقضاء تمهيدا لمحاسبتها يوم الدينونة، فيما دأبت الأرواح الناجية على مزاورة السماء من حين لآخر والتجسس على الملأ الأعلى والاستماع إلى ما يملئه الرب على ملائكته لمعرفة أسرار الكون والإنسان

لم تكن تلك الأرواح النارية بالمهولة حتى وإن كانت في مواجهة ملائكة أولي بأس شديد.. لذا اندلعت النيران عند المواجهة وأثارت السماوات بلهب هائل وشر يطاير في كل مكان..

المخلوقات النارية أخذت تقذف حممها وتخلق حول نفسها جحيمًا مستعرا يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السماء أرسلوا موجات من البرق والعواصف، وخفقت أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح النارية، قبل أن تهبط من السماء السابعة ملائكة تحمل قذائف من جهنم انطلقت معها صيحات وصرخات المخلوقات النارية، ليبدأوا في التقهقر والتراجع ناكسين على أعقابهم باحثين عن خروج آمن من المعركة، لتتصق الملائكة على فلول الهارين وتقبض عليهم في الوقت الذي قرّ فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنجوم..

ووسط كل ذلك انطلق صاحبنا ملاك الرب النوراني نحو أحد الأرواح الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أعدّه والده لانتحال دور الإله حين تتجح الخطة!

وبسرعة فاقت سرعة الضوء قرّ ابن القائد مارقًا بين الكواكب والنجوم، وخلفه ملاك الرب النوراني الوسيم، الذي فرد أجنحته وهم أن يطبقها عليه، لكن ابن القائد فلت في اللحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي الرب لتتقارب المسافة بينهما، وحين شارفت أن تذوب فوجيء ملاك الرب النوراني بصوت فحيح يأتيه من خلفه ليلتفت بسرعة البرق فإذا بالقائد نفسه ينفض عليه لإنقاذ ولده، فاستقبله جندي السماء وأحاطه بأجنحته ثم توجه جسده بنور ساطع، أجبر قائد الأرواح النارية على إطلاق أعتى موجات الألم ليستسلم ويقع في الأسر، وحين عاد الملاك النوراني الوسيم ينظر حيث ترك ابن القائد كان قد اختفى تمامًا تاركًا خلفه رسالة مكتوبة على الأرض بالنيران، وبلغه لا تمت إلى اللغات البشرية بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- في يوم مثل هذا، سنلتقي مجددًا يا ابن النور.. لكنك ستكون الطرف المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النار لا يمكن هزيمتها أبدًا.

وانطوت صفحة الصراع مؤقتًا بعد نجاح عملية (الرّق المنشور)، وإيداع

القبض عليهم من الأرواح النارية في سلاسل الظلام في ليلة السيد (المسيح)، فيما تم تشفير الملائكة الأعلى بإغلاق آخر ٣ من عدم وصول المخلوقات النارية إليها والتتصت على حديث الرب ملائكته مجددًا..

ولاد ابن العذراء، وجد جندي الرب نفسه أمام نموذج نادر فاقه في أخلاقهم وقدراتهم اللا محدودة..

ولاده المعجز لم يكف عن إدهاش البشر بأعاجيبه وقدراته الفائقة..

في المهد وحاجج بني إسرائيل فأظهر عجزهم وكسر أنوفهم..

في الموتى، وأبرأ الأعمى والأبرص، وحلت بركاته على المحاصيل..

إسماءات البشر بالإحسان، وأمر أتباعه بتنفيذ تعاليم لم تعهدها من قبل:

ملك على خدك الأيمن فحول له الأيسر..

إعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل مبغضين إليكم ويطردونكم..

عن تكاليت عليه اليهود، واتهموه بالسحر، ورموا أمه العذراء بالزنا، وكادوا له المكائد، ظل شغله الشاغل فقط هو تخلصه من الذنوب والخطايا ليطهر الأرواح من النجس، والقلوب من النجس، ويعمل عقل بني الإنسان في محل عمله بعد أن صار عبداً للشر وسواس الشيطان..

ملك الرب تكليفاً بتوقيع العذاب على أحد، وقد قاضت السماحة (المسيح) فطغت على المشهد، وعمت أرجاء البسيطة حيث لا الانتقام والبطش وتدخل الملائكة..

تلم ملاك الرب النوراني كيف يمكن أن تحقق مخلوقات الله الرحمة ما لم يحققه العنف والبطش والانتقام..

فانتصر الضعف والصبر على الجبروت والطغيان..

الملكوت الحفظه الذين يرمقون من السماوات العلا لإنقاذ أبناء (آدم) الهلاك.

أخذ يقتحم أقفاص الأسود الذين يتم إلقاء المسيحيين فيها من أفواه السباع الجائعة، ويحرم مخالبيهم المفترسة وأنيابهم الضارية أجساد المؤمنين الذي انبهروا حين ركعت أمامهم الأسود وتحولت حمران أليفة منزوعة الشراسة والاقتراس، وأخذوا يرددون الابتهالات المجد وهم يشعرون بعيق الملائكة حولهم حتى وإن لم تتبين بهم الأعين، وحالت دون رؤيتهم حُجب الغيب.

في الآبار التي تم إلقاء العبيد فيها وأنقذهم، وتدخل في اللحظات ليخرج أنصار ابن العذراء من الحُفر المليئة بالحيات والأفاعي التي ألقى عليها الجمود والسيات، ومنعها من إطلاق السموم وغرس في أجساد القديسين والأتباع الصالحين.

هشة الملائكة لم تقف عند صمود أتباع (المسيح)، وامتدت لتتفاحم إزاء جهل الكثيرين من بني إسرائيل الذين أنكروا عظمته وقداسته معجزاته الهائلة، ليظلوا على صلفهم وعنادهم، فقط لأن تعاليمه لم تلي هواهم، فرماه البعض بأبشع الصفات، واتهموه - حاشا لله - بأنه زاح، وأنكروا ما جاء به من البينات، وذهب تأويلهم لمعجزاته بأنها لا تكونها سحرا، فرفضوا الإقرار والتصديق بأنه المسيح الذي بشرت به الأنبياء، وانتظروا مسيحا ومخلصا آخر ستكون علامته أنه سيحني الموتى!

في غمار هذا كله، كان ملاك الرب النوراني على موعد مع مفاجأة

هذا حين هبط من السماء بسرعة تفوق إدراك البشر ولم تخلق بعد

وحين لاحظ لحظة الصلب التاريخية، فوجيء ملاك الرب بابن الداء واقفا إلى جوار الصلب ليطلق أقوى وأعلى ضحكاته التي تردد صداها في أرجاء الكوكب، لينشر بعدها بخبثه ودهائه حالة من البلبلة في البشر ما بين مؤيد ومعارض لواقعة الصلب، وحين هم جندي الرب يتحرك لردع صاحب الروح النارية النعسة وطرحه في سلاسل الظلم الأبدى ليخلق بأسلافه، جاءه الأمر من السماء بالكف عنه، وتركه إلى يوم معلوم...

وصعد (المسيح) إلى السماء تاركاً خلفه أسطورة حية فاقت الخيال ليرويها من بعده تلامذته الذين لاقوا الولايات وثابروا من أجل استمرار الرسالة المقدسة، ثم اضطلع بالتبشير بها ونشرها قديسون وآباء ساروا على النهج، ووهبوا أنفسهم للعباد والهالك أملا في الخلاص، لتتدار البشرية تعاليم ومعجزات قلما جاد الزمان بمثلها.

وحين تم إلقاء محبي (المسيح) وأتباعه إلى الأسود الجائعة من الملام الظالمين، لم يجد الملك الوسيم من يطلب من الرب المعونة، فقدموا أجسادهم الفانية قربانا وطواعية إلى نور الحق، لتخلد أرواحهم في السماوات الغلا أمام عرش السر الخفي، فحانت لحظة الدم والانبهار من ملائكة الرب نحو مثابرة وقوة بعض أهل الأرض، بعد كان الجبل والحماقة والغرور هي الصفات الغالبة التي تصدر عن نحو السماء.

حينها أخذ الملك النوراني، يصلي إلى الله، ويمجد اسمه، ويتوسل أن يعفيه من مهامه في الانتقام من البشر والبطش بهم، ليندهش نفسه حين وجد ذاته تتضرع إلى الله ويطلب لسانه - بلا وعي - من أن يجعله من الملائكة الحفظه، ليزود عن أنصار (المسيح) وأتباعه

توقف ملاك الرب عن عذاب البشر والبطش بهم، بعد أن تأثر بـ(المسيح) وتعلم من أخلاقه في سنوات قليلة من عمر البشر ما لم يتعلمه طوله عمره على مدار ملايين السنين في حياة الملائكة، ليدرك كيف يعذب ويصير، ويمهل، لتأتيه الإجابة والبشرى من الملائكة الأعلى حين أحد أكابر السماء أنه انتقل فعليا من طائفة ملائكة العذاب إلى



القديسين في عصر الشهداء بعهد الإمبراطور الروماني الشهير

(دقلديانوس)\* الذي أمر بهدم الكنائس وإزالتها من الوجود، ومن الأناجيل، وقتل المسيحيين..

تجمعت الجنود على باب ذلك الدير السري الذي أسسه ذلك القديس، أن ترهبين في عبادته للرب، ودعا الأقباط إلى عبادة الله في الصحار وصومعته التي لا يعرفها سوى ثلثة من المؤمنين للحفاظ على الدين من الزوال..

وحين هم ملاك الرب النوراني بالتعامل مع جنود الإمبراطور الباطل لإنقاذ ذلك القديس العابد، فوجيء بكراة من النار تهوي على الجسد لتبيدهم في ثوان معدودة، لينجو واحد فقط منهم قيل أن يتجسد كرهلاميا من النار أمامه ويصيح فيه بصوت أجش عميق:

- أخبر امبراطورك أن لهؤلاء المستضعفين مخلوقات وهبت نفس للذود عنهم بعد أن أمنت بما يؤمنون، وسخرت من أوثان الضلالة.

صرخ الجندي الناجي وركض في الصحراء كالممسوس مطلقا صيحوا لم تتوقف حتى اختفى، قيل أن يظهر ملاك الرب النوراني لصاحب الكيان الهلامي الناري ويسأله:

- من كلفك بما فعلت؟

\* ولد الإمبراطور دقلديانوس عام ٢٤٥ م في مدينة سالونا بولاية دالماسيا في كرواتيا، وكان أبواه فقيرين، وكان يعمل في إسبيلات الإمبراطورية الرومانية كسائق للأحصنة، ثم انضم إلى طبقة الفريسان ووصل إلى رتبة دوق (أي قائد القوارب) في ولاية ميسيا، ثم أصبح قائد قوات الحرس الإمبراطوري الخاص، وتجلت كفاة العسكرية في حرب فارس، وبعد موت الإمبراطور ثوريانوس، كان دقلديانوس أحد شخص بعرض الإمبراطورية. حرص دقلديانوس طوال معظم سنوات حكمه على اتزان سياسة التسامح الديني مع المسيحيين، ثم تحولت سياسته ضد المسيحيين في أواخر حكمه، فأصدر دقلديانوس أربعة مراسيم فيما بين سنتي ٣٠٢-٣٠٥ م تحت طائلة اضطهاد المسيحيين.

الكيان الهلامي الناري بنيرة وإتقة لم يتردد أو يفكر قبل أن ينطقها، من ملاك السماء في دهشة متسائلا:

كيف.. هل تَمَجَّد اسمك بالحديث معه؟

كلام الرب غير مرتين بالحديث المباشر مع مخلوقاته يا ابن النور، فصوته يتردد في أعماق كل نفس مؤمنة لينبع من إيمانها أوامر تلمي على صاحبها ما يجب القيام به.

وماذا عن قومك.. هل سمحوا لك بالإيمان بالمسيح ومناصرة أتباعه؟

اسم الكيان الهلامي وأردف:

ربما حان الوقت ليجرب أمثالي معنى العذاب والاستشهاد في سبيل ما آمن به.

ملاك الرب النوراني حاجبته وهو يتأمل صاحب الكيان الناري، ثم قال له:

ربما جاء الوقت ليقدم بني جنسي خدماته لمخلوقات أخرى غير البشر.. لقد نذرت نفسي لحمايتك من بطش بني جنسك الكفار.

صاحب الكيان الناري:

يشون تكليف إلهي؟

الملك النوراني مجيبا:

كلام الرب غير مرتين بالحديث المباشر مع مخلوقاته.

\*\*\*

من الزمان لم تمض الأهور كسابقتها، وحان موعد تغيير النفوس لتتوزع الحقيقة الكاملة إلى أنصاف حقائق متضاربة ومتصارعة

بين حملة الصليب، ليزعم كل فريق أنه الأحق والأصوب، ما كاثوليك، وأرثوذكس..

فسد الكثير من الآباء والقساوسة، وطوّعوا الكهنوت لخدمة مآربهم، المغفرة والعفو الإلهي في صكوك الغفران، وجعلوا التوبة مستحيلة بالشرائها، لينال بنو الإنسان في العصور الوسطى باحثين عن رحمة الله لتنتشلهم من جشع القياصرة وظلم رجال الكنيسة.

وبعد قرون لم تعرف الأرض فيها نبياً ولا رسولاً، حانت لحظة إتمام النبوة بأخر لينة في الصرح الإلهي، ببعثة (محمد بن عبد الله) في الجزيرة العربية، حيث الكفر والنفوس الخربة، ما بين أتباع آلهة الأرض والعزى، وهبل، وغيرها من أصنام صنعت من أيادي البشر، فلا تقدم ولا ضراً، ومع ذلك عبدوها!

التعصب للقبيلة هو الانتماء الحقيقي، والتباهي بعدد العبيد والجواري يدين الأكابر وعلية القوم..

حروب وغارات تشتعل لأفقه الأسباب.. دماء تسيل بلا ثمن، وتثار بسنوات طويلة ثم ينتهي بصلح وكأن شيئاً لم يكن..

الرجل يتزوج من أمه، ويعاشر أخته، ونساء تحرم من الميراث يذهب للرجال فقط..

الخمر هو المشروب الرسمي، وكهنة الآلهة مستعدون لتقديم المع واللعو لمن يُعقد عليهم من عطاياهم..

حتى الكعبة وبيت الله الحرام الذي بناه (إبراهيم) وابنه (إسماعيل) سكتها الأصنام والآلهة الزائفة، وأحاطتها الأنصاب والألزام..

وبوسط كل هذه الجاهلية الدينية وانعدام الروحانيات في أجساد غرام في وحل المادة حتى أذنيها، ظهرت بلاغة الشعراء اللغوية وقصائد المذهلة، لتنفذ الأمم حائرة أمام بلاغة قريش وروعها الأدبية والفنية.

كانت هناك تجارة رائجة، وأسواق تعج بكل صنوف السلع التي تُباع، ساحات ينطلق فيها الفن والشعر، وكذلك السكر والعردة والقتل والدماء والحروب القبلية الطاحنة..

هل بين الجمال والقيح، الرقي والانحدار، وكيف لا وقد فقدوا ما الذي تصوب العقول والقلوب نحو السماء، فضاء من الميزان، واختلت المكيال، وانتظر يهود قريش بعثة آخر رسول كما إلى قدومه ومولده كتبهم ونبوءاتهم..

عام مولد آخر الأنبياء والمرسلين، عرفت (قريش) معنى النذل، وأسقط في أيدي جبابرتها وسادتها حين لاقوا من هم أشد بأساً..

الملك المسيحي (شميع أشوع) يتولى حكم مملكة (اليمن) بعد من اليهود وزعيمهم (يوسف أسار) بسبب المجازر التي ارتكبوها نصارى (نجران) و(المخا) و(ظفار يريم) ليعيد إعمار كل التي هدمها يهود (اليمن) وحلفاؤهم، ويأمر ببناء كنائس جديدة، بقتله (أبرهة الأشرم) ويستولي على الحكم بحثاً عن المجد، فاستمال القلوب إليه بتشييد كنيسة عظيمة مزخرفة لم بين مثلاً، وسماها العرب كنيسة (القليس)، لأن الناظر إليها تكاد لا يلمسه على رأسه من ارتفاع بناها، دون أن يتبين أحد في بداية (أبرهة) الخفية من وراء هذا الصرح العظيم، الذي أراد من اجتذاب الحجاج، فتحج القوافل التجارية والقبائل إليها، ويصنع (اليمن) سوقاً تجارياً ضخماً يجذب البساط من أسفل سوق (قريش)، بذلك في مملكته.

جاء الظلام بإحدى الليالي، تسال بعض شباب (قريش) وأشعلوا الكنيسة وقروا هارين، فلما رأى السدنة ذلك أخبروا (أبرهة) وقالوا، فاقسم ليسيرن إلى بيت (مكة) بجيشه العرمم ويهدم كعبتها التي يقصدها العرب.

طريقه من (اليمن) إلى (قريش) خرجت القبائل والممالك تقدم فروض أسك (اليمن) الغاضب الذي يقود جيشه بنفسه ومعه فيل خصمه بيت الله الحرام.. انحنت له الملوك وركعوا وأجزلوا العطاء والهدايا وواصل مسيرته، حتى وصل على مشارف (قريش) وأغار جيشه سر من الإبل تملكه قبيلة (بني هاشم)، وطلب (أبرهة) أن ياتوه

بشريف مكة وسيدھا (عبد المطلب بن هاشم)، فلما رآه (أبرهة) له بعين الإعجاب، إذ كان رجلاً جميلاً حسن المنظر، وأبرهة) عن سريره وجلس معه على البساط وقال لترجمانه:

- قل له ما حاجتك؟

فقال (عبد المطلب) للترجمان:

- إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أخذها جيشه بحق.

غضب (أبرهة) وقال للترجمان:

- قل له لقد أعجبتني حين رأيته، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أنكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك وأياك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟

فقال له (عبد المطلب):

- أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يحميه.

فقال (أبرهة):

- ما كان ليمتع مني.

فقال (عبد المطلب):

- والله لا نريد حريك وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله (إبراهيم)، فإن يمنعك منه فهو بيته وحرمة، ويحل بينك وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنك.

ورجع (عبد المطلب) وأمر قومه أن يصعدوا الجبل هاجرين (مكة) يفضي الله بينه وبين (أبرهة)، فلما دخل الجيش (قريش) يتقدمه (اليمن) منتظياً فيلاً ضخماً، برك الفيل أمام الكعبة ولم يتحرك من قيد أنملة. ضربوا الفيل ليقوم فأبى، طرّقوا رأسه بالحديد حتى أدموه، يستجيب. وجهوه نحو (اليمن) فقام يهرول. وجهوه إلى (الشام) ففعل

والله ومتعاقبة لا أول لها ولا آخر من الطيور غطت السماء في آثار الرهبة والذعر في قلب الجنود الذين تطلّعوا نحو الأعالي دون أن مع كل طائر ثلاثة حجارة مشتعلة بنيران جهنم وسجّلها، كل طائر حجراً في منقاره، وحجرين في رجليه، حجمها أمثال العسل والعسل، ولا يصيب الحجر أحداً إلا هلك، ومع سقوط الأحجار الجيش خرجت من الحناجر صيحات الرعب وصرخات الهلع، البقية الباقية من فلول الجيش في الصحراء بعد أن تحوّل (أبرهة) بعد ذكرى غابرة يرونها التاريخ، وعبرة لمن يعتبر.

العام نفسه الذي سمّاه العرب بعام الفيل، حل ميلاد (محمد بن عبد الله) في ليلة سارت فيها اليهود في الطرقات يبشرون بمولد رسول بني عبد المطلب، ويرددون بعلو الصوت: "لقد ولد فيكم نبي"، ليخرج من بطن أمه في موضع السجود، بعد أن دهشت فترة حملها النساء اللاتي فوجئن من ورور (أمّة بنت وهب) بأي آلام، أو وهن على مدار فترة الحمل، لا تحمل في أحشائها جنيناً، بخلاف ذلك الآتي الذي أتاهها قائلاً:

إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضع في الأرض قليل لسانك وقلبك أعيدّه بالواحد من شر كل حاسد، وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فسّمّيه محمداً، فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض.

ولد (محمد) في البرية ثم تشفير الأربع سموات المتبقيات، لتصير سموات السبع بأكملها محرمة على الشياطين والمردة وذوي الأرواح الشريرة الذين تبدّل بهم الحال ولم يجدوا مقاعد لهم مثلما كان الحال من قبل، ومن يحاول الصعود إلى الملأ الأعلى يجد السماوات «مُلبَّثَةً» شديداً وشهياً»..

حاول التمرّد وتقدم لاستراق السمع، فوجد النيازك تنفصل عن الأرض وتتحول إلى شهب حارقة كشطايها من الجحيم الذكي الذي لا يملك صاحبه، لتظل تطارده حتى تهلكه حتى وإن هبط إلى الأرض

وإلى على وجهه، فلم يستق إلا وهو بقرن الثعالب، حين أطلته سحابة  
بها (جبريل) قائلاً:

إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث  
إليك ملك الجبال لتأمرهم بما شئت فيهم.

سأنى ملاك الرب الوسيم أن ينتصر لهذا النبي الذي أحبه، لكنه  
احتراماً وتقديراً لسيده (جبريل) ووقف يتابع حديث (محمد) مع  
الرجال الذي ناداه:

يا محمد... بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت  
أطقت عليهم الأخشيين.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك  
به شيئاً.

شعر السنوات حتى أتى الله بنصره، وحقت كلمته التي وعد بها  
مؤمنين، ليعود الرسول وصحابته إلى (مكة) التي خرجوا منها مهاجرين  
أدلاء، ليفتحوا أعظم بلاد الله ويحرروها من الشرك والكفر، ويعفو  
عن ظلمه وقتل أحب الناس إليه، فيعم السلام أرجاء (قرش)  
بمساعدة المصالحة العظمية بين المسلمين ومن ظلمهم وعذبهم ووطأ  
أسوأهم وممتلكاتهم، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، ليكني ملاك  
الوسيم مُدركاً أنه ما زال في البشر أمل، وأن هناك بديلاً للبشر  
مستجاب، لتستحق بعض الأرقام والأمم منهجاً آخر في التعامل، متخذاً  
النبي الأمي قوة ونبراساً يحتذى به، ليأتيه الدرس هذه المرة من

عصر الرسالة بغروب شمس النبوة وصعود روح (محمد) إلى  
المرتبة الأعلى حيث الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، تاركاً خلفه  
أمة عجايباً يتلى إلى يوم الدين، فيه منهج حياة، وكتالوج يهدي إلى سبيل  
عسى ألا يشرك بالله أحد.

فقال ملاك الرب أن الأرض ستعيش في خير وسلام دائم بعد أن اكتملت

وغادر السماوات، وهكذا صار الملائكة حكرًا على الملائكة فقد  
أن حاوطوا السماء بأجنحتهم الخفاقة، وجعلوها حصناً حصيناً، وصل  
النجوم التي تنيرها كالصباح سلاح ردع وأجهزة دفاع تعمل بشان  
تلقائي تجاه المتطفلين والغرباء غير المرغوب فيهم إذا ما تجاوزوا الحد  
المسموح بها في الاقتراب.

ثم كانت اللحظة الفارقة حين جاء تكليف الله تعالى لـ(جبرائيل) بالهدى  
على (محمد) في غار (حراء) الذي كان يتأمل فيه السماء ويفكر في  
الخلق، كطير يغرد خارج سرب الكفر الذي حل في أرجاء (قرش)  
رافضاً أن يحنو حنو أقرانه من الرجال في عبادة الأصنام، والزنا بالنساء  
وشرب الخمر رغم امتلاكه المال الذي كان يديره لزوجته (خديجة) إحدى  
سليكات الحسب والنسب في (مكة)، وإيقاً أن خلف تلك السماء أم  
عظيمة، وأن وراء هذا الكون إليها حقيقة، أشرف وأرقى من خيال  
البشر الذين جسّدوه في تماثيل مصمتة من صنع أيديهم، ليعبث في أم  
الأشعار والبلاغة بمعجزة لغوية قرآنية شان كل نبي يبعث بجنس  
اشتهر به قومه ويرعوا فيه، وتحداهم أن يأتوا بمثل كلام الله المرسل،  
بمثل سورة واحدة، بل بمثل آية واحدة فعجزوا جميعاً، وهم أهل البلا  
والفصاحة.

انشرح قلب ملاك الرب لـ (محمد) وعاد لينبهر بأخلاقه ومواقفه بعد  
ظن أن الزمان لن يوجد بمثل أخلاق المسيح..

شعر أن كليهما إخوة وإن اختلف الرحمان اللذان حملهما..

كلاهما معلّم عظيم، تتعلم منه الملائكة قبل البشر..

كل منهما دُعي لقوم يغطون في جهالة رغم العذاب الذي يلاقيه، والامام  
التي تسيل منه..

من جديد دخل اليهود دائرة التحدي، وبعد أن تنبأوا بمولد (محمد)  
ورسالته، رفضوا واستكبروا أن يؤمنوا به، فقط لأنه لم يبعث من نسل  
(إسرائيل).. وكيف يتبعون رجلاً من نسل (إسماعيل) أبو العرب وتخرج  
عن عبايتهم النبوة والشرف المنتظر؟!!

ها هم جبابرة (مكة) وساداتها يبالبغون في أدنيته وضرره يوم العقبة، فيسب



سلسلة الأدیان، وصارت قيم الحق والخير والجمال واضحة للعيان  
أزهى صورها..

سلسلة الأدیان، وصارت قيم الحق والخير والجمال واضحة للعيان  
أزهى صورها..

لم يكن يدري حينها أن الأرض ستعود إلى شرورها، وأن دماء البر  
ستظل هي ثمن المعرفة والوصول إلى الغايات، لتسيل من الصبر  
والخفاء الراشدين، ومن تاجر بدين الله من أجل مطامع دنيوية ذلك  
ليتفرق المسلمون إلى فرق متناحرة، كل فرقة تزعم أنها على الصواب  
والباقيين في النار، وانقسم الدين بينهم إلى سنة وشيعة، وداخل كل من  
مذاهب وجماعات، ما بين خوارج، ومعتزلة، وزيدية، وأثنى عشر  
وغيرهم كثير.

بخلاف أولئك الذين ارتدوا عن دينهم الذي أعلنوا إيمانهم به ظاهراً  
ونفاقاً، وأولئك الذين ادعوا النبوة، وأولئك الذين أنكروا رسالة (محمد) لم  
منطقيتها، رغم أن المنطق والعقل يؤكدانها.. فقد بعث كل نبي على  
ضالين ظالمين.. فهل ظلم وضلال مكة لم يكن بحاجة إلى نبي؟

لو لم تكن نبوة (محمد) صادقة حقاً، فكيف نزل قرآن في عمه الكا  
(أبو لهب) مؤكداً أنه سيموت كافراً ملعوناً رغم وجود (أبو لهب) على  
الحياة، وكان في إمكانه أن يعلن إيمانه ولو بالكذب ليثبت خطأ القرآن  
ويهدم مصداقيته لكنه لم يفعل!

كيف يكون (محمد) مدعيًا للنبوة، ثم ينتزل عليه قرآن لحظة هز  
الرومان من الفرس، وشماتة (قریش) في انتصار عبدة النار على  
الرب، ليسبق كلام الله حاجز الزمن ويذكر موعد هزيمة الفرس وانتصار  
الرومان عليهم مرة أخرى في بضع سنين، وبالفعل تتحقق آيات  
البيئات؟

كيف يكون (محمد) كاذباً، ولا يموت إلا بعد أن يكتمل الإسلام بكنة  
الخالق: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ  
الْإِسْلَامَ دِينًا}، دون أن يموت في أي غزوة من الغزوات الكثيرة التي  
خاضها شأن من زعموا النبوة من بعده، ليحج الرسول في آخر عام من  
عمره، ويلقي في قومه خطبة الوداع وآخر وصاياه كنبي ينهي عهد  
ورسالته التامة بمدد من السماء، وتنتزل آخر آيات القرآن عليه قبل وفاته

كيف يكون (محمد) كاذباً، ولا يموت إلا بعد أن يكتمل الإسلام بكنة  
الخالق: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ  
الْإِسْلَامَ دِينًا}، دون أن يموت في أي غزوة من الغزوات الكثيرة التي  
خاضها شأن من زعموا النبوة من بعده، ليحج الرسول في آخر عام من  
عمره، ويلقي في قومه خطبة الوداع وآخر وصاياه كنبي ينهي عهد  
ورسالته التامة بمدد من السماء، وتنتزل آخر آيات القرآن عليه قبل وفاته

\*\*\*

فه فتح بعدها عينيه بتخاذل، ثم استند بذراعيه على الأرض مصعوبة وضعف، غارقاً في التراب الذي يُغطي ملامحه، وأحال صرخه الكستنائي إلى الأبيض بفعل الغبار، وأخذ ينظر حوله بحيرة لا يتذكر من أين جاء ولا يعرف إلى أين يذهب، ثم أمسك جيبته حتى يُقاوم دواراً وصداً عنيماً يسيطر على رأسه قبل أن ينزل ليبدأ في السير إلى اللاجئة، لا يدري إلى أين تأخذه قدامه..

بدره المتخبط، أخذ الشاب الوسيم ينظر حوله متأملاً مقابر الكاثوليك، والإنجليز، واليونانيين، واليهود، حيث يمتزج الموت بروعة التصميم الهندسي النابض بالحياة، وكأنه في متحف اجتماعي فني يناقش جبانة (جنوا) في إيطاليا ذات الجمال الساحر، دون أن يدري أن هذه الجبانات تضم بين رفاتها من الشخصيات العالمية الأدبية والفنية، من أمثال المخرج العالمي (شاهين)، والشاعر اليوناني الشهير (كفافيس)، ورجل الأعمال (كونسيكا) الذي أسس مستشفى التأمين الصحي الذي تحول اسمه بعد إلى مستشفى (جمال عبد الناصر)، و(أسعد باسيلي)، أكبر الخشب في المحافظة، والذي أصبح أحد قصوره فيما بعد المتحف المصري والمركز الأمريكي الثقافي، وغيرهم من الشخصيات

الشباب في رهبة إلى شواهد القبور التي تحتسي بالصلبان الرخامية راحة أصحابها الأخيرة إلى الأمجاد السماوية، وقد أحاطتها أكاليل الزهور، وحملت لوحاتها عبارات الوداع الحزينة من أهل الموتى الذين دعا على أنه "مع المسيح ذاك أفضل جداً"، وفي الخلفية ما زال نباح الكلب يتردد بشدة وقد بدأوا في التجمع على مسافة من ذلك الزائر الذي قال بهم وقد حمل رأسه مخاوف بحيرة أكبر بكثير من عوائهم.

رهبة من السير وبينما هو يتأمل هذا العالم، إذا بصوت فتاة باكية قال إلى أذنيه كاسراً حالة صمت البشر المصدق به وقد غرقوا جميعاً

سلطان الموت:

سامحني!

ونسي ملاك الرب كل هذه الذكريات الهائلة حين بدأت مهمته الجدية

التمتع في السماء هالة ضوئية بيضاء أخذت تقترب بسرعة من الأرض، وما أن صارت قاب قوسين أو أدنى، حتى تحولت الهالة إلى شاب وسيم يرتدي بذلة سوداء مميزة ذات تفصيلة غريبة لكنها مثيرة للأنهار، تحتها قميص أبيض ورابطة عنق رفيعة جداً أشبه بنجم سينمائي في حفل تسلم جوائز الأوسكار، قبل أن يصعد جسده بالأرض في عنف شديد، ويظل يتدرج درجات متتالية من جبلية طبيعية خفت قليلاً من شدة الارتطام، ليكتشف أثناء تدرجه أنه سقط في مقابر مسيحية ميز هويتها من صليانها المتراصة، وإن يدرك أنها مقابر "الثغر" بمنطقة (الشاطبي) في محافظة الإسكندرية ليتدرج بين شواهد القبور بسرعة وألم شديد، وترتفع أمام عينيه صليان وتتخفض حسب موقع رأسه الذي يتقلب مع درجاته العنيفة، قبل أن يرتطم بشاهد قبر رخامي فيكسره بعنفه، ويسقط صليبه، وتخد حركته مطلقاً عاصفة من الغبار، وسط نباح الكلاب وزمجرتها الشديدة بعد أن أرعجها ما حدث..

بعد دقائق هذأت العاصفة وانقشع الغبار وما زال الشاب الوسيم راكعاً على بطنه، سائداً نصف وجهه الأيسر على الأرض ليتجلى نصف وجهه الأيمن وهو مغمض العينين، فارداً ذراعيه إلى جوار رأسه..

\* منح (محمد علي) باشا حاكم مصر منذ أكثر من 150 عاماً، جميع الطوائف من غير المسلمين في الإسكندرية أرضاً شاسعة تقع في المنطقة من أول شارع

السويس إلى شارع (أغسطس) الذي صار اسمه فيما بعد (سليم حسن)، لتصبح مقابر لهم نظراً لأن المدينة ازدهرت في عهده وأخذت تزدهر في عهد أولاده وأحفادهم حتى أصبحت في عهد الخديو (إسماعيل) مدينة عالمية، تضم جميع الجنسيات والملا وأصحاب الديانات، وتجاورت في تلك المنطقة مقابر المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك واليهود، وضمت في جنباتها أشهر الشخصيات المصرية والإيطالية واليونانية وغيرها من الجنسيات الأجنبية المختلفة.

لفت الصوت حواسه كلها، قبل أن ينتبه إلى أنه يصدر من قبر قريب اقترب الشاب من مصدر الصوت حتى لمح فتاة تجلس على الأرض أمام شاهد قبر وقد غطى ملامحها الظلام، وإن تبين أنها ترتدي ثوباً قصيراً جداً، وأسفل منها جورب شيفون أسود، في حين اكتسى نصا الأعلى بملبس أسود شفاف يلتصق بالجسد ويجسده تماماً، ويظهر مما يبطن، بارزاً مفاتيها الصارخة، وقد صبغت شعرها ذا التسريـ "الكيرلي" بلون أحمر ناري مثير، وواصلت الكلام بمزيد من النحر والانهيار:

- لم يكن أمامي بديل آخر .. لا شك أنك تعلم ذلك جيداً بعد انكشفت لك الحقيقة أمام عرش النعمة وقابلت رب المجد يسوع تعبت كثيراً ودقت طعم المرار والذل من بعدك .. كل الأبرار غُفِّت في وجهي، ولم أجد من يحنو علي في زمن خلاص القديسين، ولم تعد الملائكة تزار في الضعفاء والمحتاجين ماذا كنت تريد مني أن أفعل وقد خلِق الإنسان ضعيفاً؟!

ومع آخر حروف كلماتها، لمحت الفتاة الشاب الذي أصبح على يد مقربة منها فصرخت وهي تهبط واقفة بذعر وفرع واضعة يديها على صدرها:

- باسم الصليب .. من أنت؟

نظر لها بتوتر، متطلعاً إلى وجهها الخمرى المستدير، ذي العيون السالنتين الأقرب في درجة لونهما الفاتح إلى الخضرة، وتحتهما بقع بيضاء بسيطة تثبت أن الشمس قد يكون أحياناً سراً من أسرار الجاذبية والجمال، ثم تذكر أنها قد سأله فاجاب بحيرة:

- لست أدري.

مسحته بناظرها في شك، فهاها التراب الذي يُعطيه وكأنه كان مدفوناً بالحياة فُرّ للتو من قبره، لكن كل شيء تغير حين تعمقت في ملامح وجهه ذي البشرة البيضاء الحليبية التي تثيرها شمسا عينيه الذهبيتان ويتوسطها أنفه الدقيق المرفوع، وشفتاه الورديتان، وكأن وجهه مملكة تحنها لحيته الخفيفة الناعمة، ويظللها شعره البني الكستنائي الحريري.

سأها عنقه الشامخ القائم على منكبين عريضين وقوام مشقوق كجبل على قمين، لتجد نفسها أمام صورة أسطورية لجمال خفاق نادر، من أسطوريته ضي القمر المنعكس عليه من السماء، بشكل يث في السكينة والفتنة بهذا الحُسن الذي أنساها رهبتها منه؛ بل وأنساها نفسها حتى انغلق صنوبر الدمع في عينيها، وتجمد على وجنتيها سائلان سرعان ما جفا كنهر قديم ضل عنه منبعه، قيل أن يقطع ملامحه صوت جلية وحركة، وقضى على صمت المكان صوت علة بلهجة بها قدر من السطنان والدماغ المغيبة:

لكني أشعر أن شيئاً ما ناقصاً يا رجال .. فأنما ما زلت فقطاً حتى الآن.

سطلول آخر:

الله يخرب بيت أمك .. خمر وشربت .. ماكس وضربت .. ماذا نفعل لك بعد كل ذلك؟ .. أنبلس لك قصصاً نوم ونُغني "أه ونص"؟!

سطلول ثالث:

عيب يا جماعة .. للمقابر احترامها

سطلول رابع (ساخرًا):

إنها مقابر مسيحيين يا بغل

مكانه، اشرب عبق الشاب الوسيم متطلعاً إلى تلك الأصوات القادمة من 5 رجال ذي أشكال إجرامية لا توحى بالخير، قبل أن يلاحظ أنها وجود الشاب والفتاة، لينظروا جميعاً إلى قوامها وملابسها الروحية بعيون وحشية، فقال صاحب الصوت الأول:

يا سلام .. أموت أنا في الاحترام!

سطلول الثالث (بصدمة وهو ينظر للشباب والفتاة):

استغفر الله العظيم .. في المقابر يا أولاد الكلب؟

سطلول الرابع (وهو يخرج مطواة قرن غزال ويفتحها):

- اخرس .. (يتطلع إلى الفتاة بعيني ذئب جائع ويتابع) فسفعل مثلك

ثم يقترب من الشاب الوسيم ويلوح بمطواته ويسير بجدها الآخر التلمع على وجهه قائلاً بمزيج من السخرية والوحشية المقيتة وقد فاضت ملامحها بالإجرام:

- بالطبع لن تمنع من أن تعيرها لنا يا شقيق، (يضع المطواة على بطون الشاب وتضيق حديقته وهو يتابع بلهجة حملت الشر كله) أم ستدب في أن تبلعها وحدها وتأخذها من بطونك؟

المسطول الأول يشهر مطواته بدوره ويقترب من الشاب قائلاً:

- الله يقرئك .. ستكون بطعم الخراء إذن .. أُرْضيك يا شقيق أ نأخذ حاجة بطعم الخراء؟

ثم وضع مطواته على وجه الشاب الوسيم متابعاً بشراسة:

- فلترحل من هنا بالذوق أحسن لك .. لك وجه وسيم ستحزن على أمك لو حمل علامة لن يحموها الدهر، وفي المرة القادمة خذني إلى البحر أضمن .. ففي المقابر أناس سيئة تحمل المطاوي وتفعل مع البنات قلة الأدب غصباً عنهن.

المسطول الخامس وهو يتحسس شعر الشاب الوسيم:

- بل مع الشباب أيضاً لو كانوا يمثل هذه الوسامة .. هذا الفم يخصني يا رجال!

المسطول الثالث:

- بالهنا والشفاء يا معلم .. ليس لنا في الجنس الخشن لأنه حرام.

الجميع يضحكون ضحكة شيطانية، بينما ينظر الشاب لهم بتوتر وقلة وهو يتراجع وقد وقفت خلفه الفتاة ممسكةً بكففي رعب وهي تحتمل به، وما أن ينتهوا من قهقهتهم الصاخبة حتى يقول بعقلانية وهذوء:

- ليس بيني وبينها أي شيء .. لقد وجدتها هنا بالصدفة وهي

تتحدث مع صاحب هذا القبر .

المسطول الأول (ساخراً):

كبد أمك .. (يستدير بصره نحو الفتاة ويسألها) وهل رد عليك يا كنتوتة؟ أم قال لك أنا ميت الآن، يمكنك معاودة الاتصال في وقت آخر؟ مع مع مع

جذب المسطول الخامس الشاب الوسيم بعنف ووضع المطواة في فمه قبل أن يقول بغلظة وبشراسة:

تجرد من ملابسك برفضك، أو ننزعها رغماً عنك!

المطلة نفسها، كان باقي المساطيل يلتفون حول الفتاة، قبل أن يزيح الوسيم بيده اليسرى مطواة المسطول الخامس بسرعة، ثم يكيل له ضربة يده اليمنى انفجرت في أنفه كالقنبلة، وانفجرت منه صرخة قبل أن يسقط كالجر، لينتبه الجميع لما حدث ويصفع أحدهم الفتاة ما لديه من عزم لتسقط أرضاً غير قادرة على الحراك، قبل أن يمس على الشاب الوسيم انقضاضة رجل واحد ليمزقوا جسده ووجهه مطاوي التي انهالت على كل سنتيمتر في جسده بلا هوادة، بينما بقي منهم مع الفتاة وهو يكلم فيها بعنف مانحاً إياها من الصراخ ليخرجها مكتوماً.

في مكانه، أخذ الشاب يتلقى الضربات والطعنات لتسيل منه الدماء غزارة شديدة، قبل أن تخمد حركته تماماً وقد تمزقت كل أنحاء وأصبحت يذله الأنيفة مجرد هراويل وخيش مهترئ وهو ملقى في الأرض مضرجاً في دماؤه.

أن ضمنوا أنه في عداد الأموات، انقض الجميع على الفتاة وبدأوا يزيق ملابسها بينما قام أحدهم بغزها بمطواته في فخذها لتسيل الدماء وتستسلم الفتاة في رعب، وعلى ملامحها أعتى ملامح القهر والدمار ..

مع انفلات دمعة ساخنة أحرقت وجنتها، نظرت للسماء في عتاب خست:





الربعة واحتضنته في اشتياق وهي تتشم رائحته كأم تستقبل ابنًا عائدًا  
من الحرب بعد أن انقطعت أخباره منذ عشرين سنة، وتم إدراجها في  
قوائم المفقودين!

كم مرّ عليها من دقائق وساعات أخذت فيها تبكي حتى استنفدت  
دموعها التي شربها الثوب، والتقت في حضنه بذكريات الماضي..

أفاق، فتحت باب حجرتها وخرجت منها لتتأمل بنفس الاستحقار  
المرأة صالون منزلها الفاخر، وصور التابلوهات الفنية الرائعة التي  
على جدرانها، قبل أن تلتقي عيناها بعيني (العدرا) التي بدت في صورتها  
كما تنظر لها خصيصاً، وتوجه لها سهام اللوم والعتاب دوناً عن باقي  
المرأة، فخفضت عينيها خجلاً والماء، ثم توجهت إلى الحمام.

سالت تحت المياه المنهمرة، بعينين مغمضتين وهي تأخذ نفساً عميقاً  
في استنشاق أرضية الحمام برغاوي الـ «شاوور جيل» ثم نظرت إلى لحم  
ها بغير رضا وبدأت في دعه تحت الماء رغم نظافته، لتظل تدعك  
حدها حتى احمر جلدها الذي كادت أن تستلخه كرجيتها في الانسلاخ  
من قشرته، وعندما تفيقت أنه لن ينظف أكثر من ذلك التقطت المنشفة.

عقب عتبة باب الحمام، خرجت الفتاة ترتدي الثوب المحتشم الواسع  
المناس القويم، لتبدو في هيتها فتاة أخرى غير التي كانت منذ قليل..

مدينة فقيرة، بسيطة، لكنها أجمل بكثير بعد أن تخلت عن أنوثتها  
وخبية المفتحة، لتزدي حبات النمش من جمال وجهها النقي الخالي  
من المكياج..

أن غادرت الحمام، تطلعت مجدداً إلى التابلوهات الفنية الأنيقة  
على الجدران، ثم ناجت بعينيها أمها (مريم) وصلت إليها بلغة  
محببة، قبل أن تسمع صوت هاتفها المحمول يرن فوق مائدة أنيقة رغم  
بساطتها، ليرتسم الانزعاج والارتباك على ملامحها وهي تسير  
بالمحمول خائفة القوى، ضعيفة الخطوات، لتمتد يدها برعشة وريبة  
بالمحمول لتضغط زر الرد وتجيّب بندرة خائفة:

في غرفة نوم فاخرة، رغم ألوانها القائمة التي تبعث على الريبة وشبه  
انقباضاً للنفس، فتحت الفتاة عينيها على سريرها الكبير جداً في غرف  
الواسعة، لتتأمل جدران الغرفة وسقفها، ثم تطلعت حولها في دهشة وهي  
تمسك رأسها بالعم من صداد يكتنفها، وقد ظنت -في بادئ الأمر- أن  
ما مرّت به لم يكن سوى حلم أشبه بالكابوس.

تطلعت للصليب المعلق على الحائط المقابل للسريّر، وعليه نموذج  
مصغر للمسيح وهو مصلوب، لتخفق نبضات قلبها فور رؤيته وكأن  
تراه لأول مرة، ثم نهضت من سريرها وهي لا تزال ترتدي نفس الملابس  
التي كانت ترتديها بالأمس.

ما أن اصطدم بصرها بمرآة التسيّرة حتى اتسعت عيناها بذهول حين  
تأكدت من ملابسها الممزقة أن كل ما حدث لم يكن حلمًا، ثم تحركت  
ذهولها إلى مزيج من الاستحقار والاشمئزاز لهيئتها وشكلها، لتظل نظراً  
البعض تتعاقف وتتفاهم مع عينيها التي تضيق وتضيق قبل أن تعود برأسها  
للخلف ثم تردت إلى الأمام نحو المرأة سريعاً وهي تيصق بكل قرف الدم  
على صورتها، وتندحر مع بصقتها الغاضبة دموع حزن وقهر. وفجأة  
جذبت شعر رأسها بقسوة فخرجت في يدها تلك الباروكة التي كانت  
ترتديها ذات الشعر الأحمر الناري، ليُتضح من أسفلها شعرها البني  
الفاتح، الأنعم من الحرير.

وحين تطلعت إلى نافذة حجرتها رأت الغروب يحل وقد شارفت الشمس  
على المغيب في الأفق، فتوجهت إلى دولابها الكبير وفتحته ليقع بصره  
على العديد من الملابس الفاضحة التي تملأ الدولاب..

أخرجت الفستان الأول المليء بالعري والفتحات الفاضحة لتتأملها بصره  
وغضب ثم ألقته أرضاً، ثم أخرجت الطقم الثاني وتأملته بنفس الامتناع  
قبل أن تلبسه، وبعدها لحق به على الأرض فستان ثالث، ثم طقم رابع.

وبعد ثوان، كانت كل ملابس الفتاة ملقاة على الأرض بينما ما زال  
بالدولاب ثوب واسع فضفاض بُني اللون، يبدو رثاً بالياً، إلا أنها مدته  
إليه يدها في بطء وكأنها تستحي منه، وما أن لامسته أناملها حتى جذبت

أثاها صوتٌ أجشُّ فطَّ غليظ القلب قال صاحبه:

- لعل أعصابك هدأت، وصرت أحسن حالاً

حاولت أن تستجمع قوتها وابتلعت ريقها، وهي تقول:

- نعم بفضل المسيح، فقد أخذت قراراً بالتوبة والابتعاد عن عالم

فقد صاحب الصوت الأجش أعصابه وصرخ فيها بغتة:

- هذا عند أمك.. عندما تموتين وتحصلينها.. لكن ما دمت أنا الذي يقرر وليس أنت.. يبدو أنني أخطأت بالأمس سمحت لك بالرحيل مبكراً حتى ترتاح أعصابك.. وأعدك أكررها قط

بكت الفتاة وهي تقول له:

- لقد ارتاحت أعصابي بالفعل واستيقظت مما كنت فيه.. فلماذا ما أعطيتني وتركتني أعود من حيث أتيت بسلام

- يبدو أنك في حاجة لقرصة أذن حتى تفيقي.. فالأصناف الفار أمثالك لا تفيق إلا وهي في عربة الشرطة أو على رقبته عس حاد، وتنفيذ كلا الأمرين شيء تأفه يمكن أن تجربيه بنفس الليلة.. الساعة الآن السادسة.. عشرة بالدقيقة أجدك أمامي عشرة وعشرة لا تلومي إلا نفسك!

ورغم انتهاء المكالمة، ظلت الفتاة ممسكةً بالمحمول لثوان وهي في صدمة وعدم اتزان، قبل أن تلقي هاتفها المحمول وتبكي بشدة، ومن دموعها نذت منها حركة سريعة إلى جوارها فإذا بالشاب الوسيم وال على يمينها بشموخ، مركباً نفس بذلته الأنيقة، يرقبها بنظرات ثاقبة.

صبرخت في رعب وهي تضع يدها على فمها في محاولة لكتم رعبها غير قادرة على الكلام بلسان فزت من عليه الحروف، لتكتفي بعين جاحظتين أطلت منهما كل تساؤلات الدنيا وحيرتها، فأجابها بدوره لهجة أقرب للاعتذار:

أقد أوصلتك هنا بالأمس بعد أن فقتدت وعيك في المقابر.. ففتحت حقيبتك وعلمت عنوانك من البطاقة، وخضت معركة من أجل العثور على وسيلة مواصلات تنقلنا.. معذرة على اضطراري للمبيت ها هنا خارج غرفتك.. فلم يكن لدي مكان آخر أذهب إليه.

ملاحه الوسيمة، ثم اقتربت منه في توجس وحذر وهي تمد يديها في بطء وحذر لتتحسس وجهه وكففيه، وتنتسل إلى أنفها أعظم الشمتها في حياتها..

ليس كباقي العطور.. لا يصل شذاه إلى الأنف فحسب، بل ينفذ تأثيره إلى الروح والنفس ويلقي فيهما السكينة والطمأنينة والراحة في وقت واحد، ويجعل من يشمه يخلق في جنبات الكون حتى كانت قدماه على الأرض.. الآن فقط انتبهت لروعة العطر بعد أن الخطر.

وات التلمص من سحره، لكنها دون قصد هربت منه إليه حين نظرت عينيه الذهبيتين وقالت وهي تُغالب نفسها وكأنها ما زالت على حالة سهار وعدم التصديق:

- لو لم أراك أمامي مرة أخرى لأقسمت أن ما مررت به بالأمس لم يكن سوى حلم.. كيف فعلت ما فعلت؟ ولماذا لا يوجد أمامك مكان آخر تذهب إليه؟

نظر لها بحيرة ووجوه لا يدري ماذا يقول، قبل أن يجمع حروف الكلماربة متمتماً بحيرة شديدة:

ليست لدي أي إجابة على أسئلتك.. كل ما أعرفه أنني فتحت عيني في المقابر حيث قابلتك فاقداً كل ما يربطني بذكراياتي وحياتي السابقة، لم أعثر في ملابسي على أي شيء يدل على شخصيتي، وحين اجتجت للدفاع عن نفسي وعنك وجدنتي أفعل ما فعلت دون أن أدري كيف.

سربت نظرها على وجهه الجميل وقالت وهي تُحاول استيعاب ما فاق لها وتفكيرها:

- ربما تعرّضت لحادث أفقدك الذاكرة أو اعتدى عليك أحدهم ملامحك وهينك ترجي بأنك كنت شخصاً مهماً.

أطرق وجهه في الأرض وأجاب وهو يحاول أن يجلب ويحلب أي تفاصيل من تفاصيل الماضي:

- ربما

ثم رفع عينيه إليها وسألها وهو يتأملها بعينين أقوى من الجاذبية الأرضية - وماذا عنك؟

تطلعت إلى ملامحه وهي تفنده وتمسحه مسحاً، ثم أجابت على سؤاله بسؤال:

- هل بإمكانك أن تفعل ما فعلت بالأمس؟

زوى ما بين حاجبيه وأجابها:

- لست أفهم مقصدك

- أعني لو ظلمني أحدهم واحتجت إلى قدراتك المبهرة التي ما زلت غير قادرة على استيعابها.. هل ستقف إلى جانبي؟

- لا أستطيع أن أعدك بتكرار ما فعلت، لكن ما أؤكدك لك أنني سأبذل قصارى جهدي في مساعدتك لو كنت على حق.

سيطر الأمل والهمة على ملامحها ونبراتهما وهي تقول له وكأنها تتوسل:

- أقسم لك إنني على حق، لم يعد لي من يساعدي سواك فلا تتخل عني!

\*\*\*

(7)

في سيارة موديل «شيفروليه أوبترا» ذات لون أحمر، تسير بسرعة عالية نسبياً على البحر، تأمل الشاب الوسيم كورنيش الإسكندرية من البحر، وشعر بقشعريرة تدب في أوصاله مع أمواج البحر المتلاحقة وقد انشغلت بلون القمر الفضي، فيما تسلكت رائحة اليود إلى أنفه وغمرت حواسه بحالة من المتعة والانتشاء أجزم داخله أنه يمر بها لأول مرة في حياته رغم محو ماضيه وذكرياته، بينما جلست الفتاة إلى جواره على مقعد السائق لتمسك بعجلة القيادة بقوة لعلها تفرغ فيها شحنة توترها المستمر في داخلها وهي تقترب من لحظة حاسمة في حياتها، وقد ارتدّت رأسها مثيرة على غرار التي كانت ترتديها، غير أنها تخلت عن شعرها السمكار الأحمر الناري وبدت في غاية الرقة بشعرها البني الفاتح الذي لم يزل خصلاته على وجهها، لتحكي للشاب حكايتها وهي تقول:

اسمى آيات صالح الراعي..

لا أملك في الدنيا أي شيء..

اسمى سرقوه مني وصرت أستخدمه على سبيل الاستعارة»

كانت ذكرياتها أمام عينها وهي تتحدث حين كانت طفلة صغيرة تنام في سرير متواضع في حجرة بسيطة تتم عن الفقر، بينما يوقظها من نومها رجل كبير -تسبياً- في السن، ذو شارب كث وحواجب غليظة تملأ فيها اللون الأبيض بالأسود..

بعد أن فتحت عينيّ على الدنيا وأنا يتيمة الأم.. أما أبي فكان فلاحاً صامياً ضمن فلاحي بلدة (دميتوه) التابعة لمدينة (دمهور) بمحافظة البحيرة، وأنجبني في سن متأخرة بعد أن مات كل إخوتي الذين سبقوني إلى أعمار صغيرة لم تتجاوز ١٠ شهور على أقصى تقدير.. لذا ألححت عليه أُمّي أن يطلقوا عليّ اسم آيات الذي يُعتبر شاذاً وغير مألوف في الأوساط المسيحية، لعل الموت يُخطئني، وليت سهمه يساقط مني مثلما أصاب من جاءوا قبلي.. فقد جئت وقيت حياة بعد أن هلت أُمّي في يوم مولدي»



ثم عادت تتذكر والدها وهو يجلس معها وهي طفلة على طبلية بها  
صغير من الفول، ليؤكلها بيده من الكمية القليلة دون أن يأكل هو..  
«كان كل ما يعنيه في الدنيا أن يجعلني أعيش مستورة، حتى وإن  
كل ليلة على لحم بطنه، بعد أن يمنحني آخر لقمة استطاعت أن  
لها يده»

الطبلية تزداد بها كمية الأكل، ثم تتحول إلى مائدة كبيرة مملوكة  
بالطعام، وما زال الأب يقوم بإطعام طفلته..  
«ومع الأيام، ازداد رزق السماء ورعاها الله بالبركة، ليظل شغل  
الشاعر أن يسعدني دون أن يفكر في نفسه يوماً»

الطفلة تطل من نافذة دار تسكنها لتأمل أرضاً زراعية بها  
ذات محاصيل مختلفة ومتنوعة، وتنتظر لها بفرحة، فيما ينحدر  
والدها لطبع قبلة على يد قسيس يزور أرضه ويباركها.

الأب يُعادر سيارته الملاكى مرتدياً قفطاناً فخماً، وعمه،  
تحول شعره وحاجباه إلى اللون الأبيض تماماً، وفي يده الطفا  
(آيات) التي كبرت نوعاً ما وهي تملك يده متجهين إلى مدخل  
الشركة الذي يصطف عليه الغلاية والمساكين، فيقوم الأب  
بإخراج أموال كثيرة يوزعها عليهم والكل يأخذ منه المال ويذهب  
له.

الأب يُعادر سيارته الملاكى مرتدياً قفطاناً فخماً، وعمه،  
تحول شعره وحاجباه إلى اللون الأبيض تماماً، وفي يده الطفا  
(آيات) التي كبرت نوعاً ما وهي تملك يده متجهين إلى مدخل  
الشركة الذي يصطف عليه الغلاية والمساكين، فيقوم الأب  
بإخراج أموال كثيرة يوزعها عليهم والكل يأخذ منه المال ويذهب  
له.

«في البداية اشترى قطعة أرض صغيرة، ثم وسّع نشاطه رويداً  
رويداً إلى أن دخل مجال التصدير، وأصبحت لديه شركة صغيرة  
أسسها في منطقة (محرم بك) هنا في الإسكندرية التي انتقلنا  
للعيش فيها، وسرعان ما كبرت الشركة وتضخمت نشاطاته  
لتصبح إمبراطورية باسمه، وانتقلنا للعيش في منطقة (كفر  
عبد)، أجمل وأرقى مناطق الإسكندرية، لكنه ظل على نفس  
الحال من الإيمان والمحبة والعطف على المساكين دون أن

حصرية: هو لقب الحاخام اليهودي يعقوب بن مسعود... عاش في القرن التاسع  
عشر، وينتمي إلى عائلة يهودية كبيرة أسسها عائلة البار في المغرب، ثم هاجر  
أفرادها إلى مصر ودول أخرى وبقي بعضهم في المغرب على مر العصور.  
رواية شعبية يهودية أنه غادر المغرب لزيارة أماكن مقدسة في فلسطين إلا أن  
عُرفت في البحر، وظل متعلّقاً بحصيرة قادته إلى سوريا، ثم توجه منها إلى  
مصر، وبعد زيارتها غادرها متوجّهاً إلى المغرب عبر مصر وفل في قرية (دميتوه)  
(شهر)، ليدفن هناك عام ١٨٨٠ بعد أن أوصى بدفنه هناك.

الطفلة تطل من نافذة دار تسكنها لتأمل أرضاً زراعية بها  
ذات محاصيل مختلفة ومتنوعة، وتنتظر لها بفرحة، فيما ينحدر  
والدها لطبع قبلة على يد قسيس يزور أرضه ويباركها.

الأب يُعادر سيارته الملاكى مرتدياً قفطاناً فخماً، وعمه،  
تحول شعره وحاجباه إلى اللون الأبيض تماماً، وفي يده الطفا  
(آيات) التي كبرت نوعاً ما وهي تملك يده متجهين إلى مدخل  
الشركة الذي يصطف عليه الغلاية والمساكين، فيقوم الأب  
بإخراج أموال كثيرة يوزعها عليهم والكل يأخذ منه المال ويذهب  
له.

«في البداية اشترى قطعة أرض صغيرة، ثم وسّع نشاطه رويداً  
رويداً إلى أن دخل مجال التصدير، وأصبحت لديه شركة صغيرة  
أسسها في منطقة (محرم بك) هنا في الإسكندرية التي انتقلنا  
للعيش فيها، وسرعان ما كبرت الشركة وتضخمت نشاطاته  
لتصبح إمبراطورية باسمه، وانتقلنا للعيش في منطقة (كفر  
عبد)، أجمل وأرقى مناطق الإسكندرية، لكنه ظل على نفس  
الحال من الإيمان والمحبة والعطف على المساكين دون أن

الطفلة تطل من نافذة دار تسكنها لتأمل أرضاً زراعية بها  
ذات محاصيل مختلفة ومتنوعة، وتنتظر لها بفرحة، فيما ينحدر  
والدها لطبع قبلة على يد قسيس يزور أرضه ويباركها.

«في البداية اشترى قطعة أرض صغيرة، ثم وسّع نشاطه رويداً  
رويداً إلى أن دخل مجال التصدير، وأصبحت لديه شركة صغيرة  
أسسها في منطقة (محرم بك) هنا في الإسكندرية التي انتقلنا  
للعيش فيها، وسرعان ما كبرت الشركة وتضخمت نشاطاته  
لتصبح إمبراطورية باسمه، وانتقلنا للعيش في منطقة (كفر  
عبد)، أجمل وأرقى مناطق الإسكندرية، لكنه ظل على نفس  
الحال من الإيمان والمحبة والعطف على المساكين دون أن

آخر حروف كلماتها أمطرت عيناها سيلاً شلالاً وهي تقول بتأثر

في حياتنا أحياء يموتون مرة واحدة، ونموت نحن بفقدهم في كل لحظة.

الأمات هذنة مؤقتة من ذكرياتها المتدفقة كنبح نهر، ليختفي من عينها  
الأمسي دون أن تختفي الدموع السحابة فانتهاز الشاب الوسيم فرصة  
لها عن الحكي وسألها:

وأين باقي أفراد عائلتك الذين كان من المفترض أن تلجئي لهم؟

إليه وقد تجمدت الدموع في مقاليها وقالت بنبرة صوت متهدجة:

منذ أن وعيت على الدنيا وليس لي سوى والدي الذي أخبرني أننا  
آخر فرع في شجرة عقيمة اقتلع خريف القدر كل أصولها، وحين  
رحل وجدت نفسي كشعلة في مهيب الريح، بلا أهل أو سند.

لها الشاب الوسيم بحزن، واستمر بينهما النظر، قبل أن تغرق في  
الأمات مجدداً..

منزلها الفاخر انقضت (آيات) على الخادمة التي تقتلع صورة والدها  
من على الحائط صائحة فيها:

ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟

الخادمة (بتحد):

هذه أوامر إيريني هانم.

مع آخر حرف غادر شفتي الخادمة، حضرت (إيريني) ومعها ضابط  
الأمات من الشرطة على يمينها، و(شوقي) المحامي وابنها الصغير  
(سور) على يسارها، لتشير إلى (آيات) بحزم وقسوة:

هذه هي الفتاة يا حضرة الضابط.

ضابط ينادي في العساكر بصيغة الأمر:

الأب يعود للمنزل فتمثل (إيريني) دور الأم الحنون وتقوم بتقبيل (آيات)  
والمسح على شعرها..

"كنت أخشى على مشاعر والدي الذي رأيت السعادة والبهجة علم  
ملاحه بشكل لم أعده طوال حياتي، فكنمت داخلي ما أعانيه حتى  
أكثر صفوه وهو الذي ضحى بعمره كله من أجل أن يسعدني"

الأب يرقد على فراش المرض، بينما يكشف عليه الطبيب في حضن  
(إيريني) و(آيات) التي تقبل يديه وتطلع إلى عينيه بعينين باكيتين ملأ  
بالحب والحنان، وكذا يقف (شوقي) محامي المقدس (صالح) متم  
للمشهد..

"ورقد أبي على فراش المرض بعدما كبرت سنه ووهنت عظامه، ولم  
يكن لديه شخص يتق فيه سوى إيريني التي استأمنها على اسمه  
وماله وابنته الوحيدة، لكنها لم تكن على مستوى الثقة، لا هي و  
شوقي محامي الشركة"

(إيريني) تسير في أروقة الشركة وقد تغيرت أزياءها تماماً، وسط ترحاب  
الجميع الشديد، قبل أن تصل إلى مكتبها ثم يدخل عليها (شوقي)  
المحامي وعلى وجهه ابتسامة تلعب مكر..

"ما أن عمل لها والدي توكيل عام وأصبحت كل الخيوط في يدها، حتى  
سقطت كل الأقنعة وظهرت الصورة كاملة بكل مساوئها"

(آيات) تدخل مكتب والدها فتجد (إيريني) في حضن المحامي فقزعت  
الصدمة على ملاحظها وهي تنتظر لهما بصدمة شديدة، بينما تعادل  
زوجة أبيها في جلستها وابتعد عنها المحامي بسرعة.

"ويمكر الشياطين تحالفت مع محامي أبي، وسيطرا على كل كبير  
وصغيرة في غياب والدي الذي ظلت حالته تتدهور يوماً بعد يوم..

حاولت أن أصلح الأمر بنفسي دون أن أخبره بالحقيقة خوفاً عليه من  
صدمة لن يحتملها في مرضه الشديد، لكن هذا لم يكن مبرراً كافياً  
لتعطيل أمر الله الذي كانت كل الشواهد تؤكد قرب وقوعه حتى صار أمراً  
مفعولاً تيقنت منه وأنا أأري أبي الثرى بعد أن تتيحت روحه الطاهرة"

- أحضروها!

العاصم منهم، لتمر وهم يجرّونها إلى جوار (إيريني) التي لها في شماتة وقسوة، فتبصق (آيات) في وجهها وهي تصرخ:

السم أني سأدمر حياتك قبل أن أقتلك.. لن تجدي في الأرض شرا واحدا تختبئين فيه من مصيرك الأسود.

(إيريني) وجهها من البصقة بغلّ، ثم صغفت (آيات) بغضب وهي تنظر إلى سلسلة ذهبية ترتديها ومعلق بها صليب، لتتشبها بها ثم تنتزعها من على رقبتها لتمزقها في الوقت الذي يسحبها السائق ويرحلون بها.

سرع (آيات) بحركة شديدة في سيارتها التي توقفت في مكان النساء، وانهارت في نحيب وفي خلفيتها ملهى ليلي مكتوب بالهوية باللون الأحمر "Black Devil"، في حين تأمل الشاب سيارات فارهة - ثمن واحدة منهم كفيل بحل أزمة عائلة بأكملها - وشباب أثرياء يبدو على ملابسهم وأشكالهم الترف وهم يدخلون بملايف فتيات ذات ملابس عارية وفاخرة في الوقت نفسه، المكان بصحبة شباب آخر ليركبن معهم سياراتهم..

الشباب الوسيم يتأمل ملامح (آيات) وهي تتابع بصوت لم يتخلص من رتبه الباكية:

عوا في الأوراق الرسمية، ويدّلوا الحقائق باستخدام أقوى أداة على صنع المستحيلات.. المال.. خاصة لو كان الأمر في يد رجل شعاع النفوس، وفي بلد كبلادي التي صار كل شيء فيها للبيع.

الآن ما زلت أذكر أول يوم لي في مؤسسة رعاية الأحداث مع الشوارع واللصوص والمتسولين واللقطاء.. في البداية أقيمت الانتقام، لكن يوما بعد يوم تلخصت أحلامي في مغادرة المكان إلى جوار الحائط حتى لا أعود للسجن مرة أخرى أبدا.. تعلمت لزم أن أبقى طموحي فيه أن تنتهي الحصّة الأخيرة في السجن حتى أعود لمزنتنا وأشاهد الفيلم العربي وأنا أتناول الغداء لمسي بالارتقاء في حضن أبي فور عودته من العمل.. وجاء الذي غادرت فيه موطن الإجرام والمجرمين.. لكنني وجدت الدنيا

(آيات) تتراجع إلى الخلف بينما ينقض عليها اثنان من العاصم ويصحبانها بغلظة بينما تقول (إيريني) بقسوة:

- صدق من قال، خيرا تعمل شرا تلقى.. أبعد أن أخذك المصالح من الشارع أيتها اللقطة وتيناك مثل ابنته، تكون المصالح هي جزاءنا قبل أن تجف دماؤه في قبره؟

انتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ كالممسوسة:

- اخبريني يا كاذبة.. المقدس صالح كان أبي، واللص العاصم هو أنثى أيتها العاهرة التي لم تصن عرض زوجها في مروض

صفعتها (إيريني) بعنف وهي تصيح فيها:

- قطع لسانك يا ابنة الزنا.. كيف لابنة حرام مثلك أن تسيء أسياها وتدعي نسبها إلى الرجل الطاهر.. إنه والد ابني الموحده، أما أنت فستعودين من حيث أتيت بعد أن انتهت عادت بهذا المكان.

(شوقي) المحامي يخرج ورقة من جيبه ويسلمها للضابط قائلا:

- أرجو أن تثبت سعادتك في المحضر أن المرحوم صالح قد الله روحه كان قد ترك وصية أكد فيها أن هذه الفتاة ليست ابنته وأنه اعترف بذلك حتى يريح ضميره.. وحين أخبرناها بالمحضر رفضت أن تصدقنا وسرقت موكلتني.

تنتفض (آيات) في ثورة وتحاول التملص من أيدي العساكر وهي تصرخ بعنف:

- كاذبات... كاذبات... كلكن كاذبون.. أنا ابنته غصبا عنكم ومن الدنيا كلها.

الضابط يأخذ الورقة من المحامي ليقرأها، ثم يطويها ويضعها في جيبه قبل أن يهجم بالانصراف بينما تسحب العساكر (آيات) التي ما زالت تهاجم

كلها وقد باتت سجنًا كبيرًا لا أعرف كيف الخلاص منه“.

مع حروف كلماتها الأخيرة انتحيت حتى فقدت القدرة على الكلام ورأسها على صدرها وهي تنتفض، ليتأملها الشاب بتأثر ثم القى مناديل ورقية من علبة كارتونية في السيارة، وناولها لها قائلاً بعمق:

- جففي دموعاً لن تُغير من ذكرياتك الحزينة شيئاً، واستلمي أحزانك ما يُعينك على القضاء عليها!

توقف نحبيها بينما ما زالت دموعها الساخنة تلهب وجنتيها، ثم ما أن تستجمع قواها وهي تواصل بشفتين مرتعشتين:

- بعد أن خرجت من الأحداث مررت بظروف عصيبة ربما في غنى عن ذكرها الآن، قيل أن تتعرف عليّ في الكنيسة.. قادتني للعمل مع ريمون عزيز.. صاحب ملهى "بلاك درو" الذي تم تشييده على أحدث صيحة لنوادي الليل العالمية.

بدأت دموعها في التوقف حين ابتلعت ريقها ثم استطردت:

- تعرفت عليه من خلال مكتب جرافيك كنت قد التحقت به بعد خروجي من الأحداث.. في البداية أقنعني أنه لبنات ذات مظهر جذاب ويتطابق عليهن مواصفات خاصة المظهر والجمال وإجادة اللغة حتى يسهمن في الترويج للملهى وحتى يغريني أكثر عرض علي أن يستأجر لي شقة فخمة مكان محترم ويمنحني سيارة فاخرة حتى لا أتعرض لمتاعب المواصلات.

ثم عادت لتتذكر بداية رحلتها مع (ريمون عزيز)..

- رأيته في عين خيالها وهو يصطحبها لأحد مراكز الترفيه ويتحدث مع الفتيات هناك ويخبرهن بطلياته التي يريد أن يقيمها في ملاحم وجسد فريسته الجديدة.

- استسلمت للفتايات اللاتي يضعن على وجعها وجسدها لمساحات السحرية لتتعمق بشرتها وصنفرة وجعها وتزويدها بكل ما هو جديد وجذاب في عالم الأثوثة والإثارة، قيل أن ترتدي ثياباً

استعاراً ذات لون أحمر ناري.

طلعت أحدث محلات الملابس، وارتدت في غرفة البروفة كل ما هو ثمين وساخن قبل أن تخرج ويتأملها (ريمون) بنظرات شيطانية.

يخجل عليّ بمصاريف سخية دفعها من أجل تغيير شكلي.. استغل إجادتي للغة الإنجليزية التي اتقنتها منذ أن كنت طالبة بمدارس أجنبية حتى يقدمني لمعارفه وأصدقائه على شريحة الجامعة الأمريكية ابنة الحسب والنسب.. كنت حينها من رحمة الله وعطف البشر بسبب ما عانيت به بعد خروجي من الأحداث، لذا قررت أن أبيع بالغالي بدلاً من أن أُمْنَح بلا

تأملها الأخيرة وهي تنتظر للشاب بخجل، في حين تأملها بهدوء

مثل المسكنات بطيئة المفعول ولا تقوم بدورها على أكمل وجه.. حال آلامنا الشديدة.. إلا مسكنات الضمير المصنوعة من أجساد الكاذبة ومبررات الوهمية، وحدها التي صنعتها الإنسان بإجادة تامة.. وكلما كان الإنسان عبداً لأحلام عزيزة المال، كلما كان مفعولها أقوى وأسرع.

هذا حقيقي.. لذا استيقظت متأخراً بعد أن علمت أنه فعل مع مثل البنات اللاتي شغلن عنده، نفس ما فعل معي، وأن الأمر أكبر بكثير من تجارة لحم رخيص.

مثل الاستفهام من عيني الشاب لتقول لها نظراته: "أكملي" فأردفت:

شان كل هدفه إقناع رواد المكان من الشباب الأكابر أبناء كبار البلد، أن الفتيات المتواجدات في الملهى لسن بنات ليل يعملن في المكان، ولكنهن بنات من صفوف المجتمع، يعشقن الحفلات والرقص والشرب، حتى يحرم الشباب حولهن باعتبارهن صبيداً ثميناً، ثم يعتقدون أنهم أوقعوا الفتيات في شباكه دون أن يدركوا أنهم هم الذين سقطوا في الفخ، لتصطحب فتيات ريمون



من الأطفال ولديهم غرفة إضافية مغلقة دائماً.. يطرق بعض الرجال الباب خلال النهار، يفتح الزوج باب الغرفة ويقف في الخارج، ثم يُرافق الرجال إلى باب العمارة بعد الانتهاء ليقبض منهم المال ويطلب منهم أن يزوروه مجدداً، بينما تكون زوجته في تلك الأثناء مشغولة بعمل البيت الروتيني فتغسل الأطباق أو تشاهد التلفاز، غير عابئة أو مهتمة بما يجري داخل تلك الغرفة المحبوس فيها ثلاث فتيات تم تهريبهن من مولدوفا، وعلى الأرض بعض البطانيات القذرة ينمن عليها.. يلبس قصصاً وملابس داخلية رثة أما النافذة فمغلقة تماماً، لا فرصة للاستحمام لأيام عديدة.. يدخل الزبون الغرفة، يختار البنت، ويكون الدفع بالدقيقة، أما من لم يقع عليهما الاختيار، فتجلسان في الزاوية إلى أن ينتهي الزبون، تواجهان الجدار.

إحدى البنات تبحث عن شيء حاد لتقطع به عرقها وتموت، إلا أنها لا تجد شيئاً في الغرفة، تفكر في سرقة أي أداة حادة من زبون حين يأتي، كسكين قصافة أطافر مثلاً، ولكن أنى لها أن تمتد يدها إلى جيبه، لينتظر الثلاث فتيات أن يفتح صاحب الشقة المخطوفات فيها باب الحجرة حتى يرمي بعض حبات الموز في الغرفة ثم يغلق الباب بسرعة، دون أن تمثل له هذه الفتيات شيئاً سوى حيوانات قذرة\*.

الفتاة تتهدده حارة، قرّت فيها الدموع رغماً عنها من مقلتيها بعد تغلق بوابة قناتها الدمية، واستطردت:

كانت مشاهدة هذا الفيلم علامة فارقة في حياتي.. بكيت كما لم أبك من قبل ورأيت نفسي في بطلات الفيلم الحقيقيات.. نحن الذين ننزف كل شهر للمساعدة في بقاء الجنس البشري، وأرحامنا هي بيت الروح الإلهية، لكن الرجال لا ينظرون إلينا إلا كسلعة جنسية.. وحين أردت التمرد على هذا الوضع والنهوض من سقطتي، لم أجد سوى قبر أبي الذي قادتي إليه قديما

ورد حول هذه المغامرة الصحفية مأخوذة من تجربة حقيقية في مقالة حملت (الجنس: مغامرة صحفية خطيرة لغرض نبيل) للكاتبة ميمي شكاروفا، محمد زيدان.

هؤلاء الشباب لحفلات أخرى خاصة تقام في فيلات فاخرة شيء فيها متاح ومتاح، وهناك يتحول هؤلاء الشباب ثمانية مدمنين لأحدث أنواع المخدرات مثل الطوابيع والأكس في وغيرهم، ويتم تسجيل مقاطع جنسية فاضحة لهم، حتى تجنيدهم للتجنس على أهاليهم أصحاب المناصب والمهاتمة وحلب المصالح والمكاسب منهم حتى آخر رمق.

تطلع إليها الشاب باهتمام وتفاعل قبل أن يسأله:

- ولماذا لم تترك العمل؟

- هل تعتقد أن ريمون كان سيصرف علينا كل هذه المبالغ أن يضمن حقاً؟ كل فتاة صرف عليها قرشاً واحداً وقبضت مقابلته شيكاً على بياض، ووعداً أننا سنسترد تلك الشيكات، أن نسد ما صرفه علينا ونقدم له الخدمات التي يحتاجها، أن نحول العناوين المدونة في بطاقتنا الشخصية على التي اشتراها لنا حتى يضمن سيطرته علينا، وكل واحد يدرك جيداً أنه لن يُعيد لنا تلك الشيكات أبداً..

منذ قريب شاهدت فيلمًا وثائقيًا عن الاتجار بالبشر لم بلغارية قامت بمغامرة انتحلت من خلالها شخصية عاهل تشيف كواليس هذا العالم، والتقت بنساء تم خطفهن من البلقان مثل البانيا وبلغاريا ومقدونيا وغيرها بعد أن خاطفون ضيق أحوالهن المادية وضجرهن من عيشة أهلها وبعدها تبدأ عملية التثمين، وهي أيام أو أسابيع من التمرير والاعتصاب التي تهدف إلى كسر روح الضحية ومعارفها وبعضهن خضعن للتصوير بالفيديو أثناء عمليات اغتصاب جماعي، وكانت هذه طريقة فعالة للسيطرة على الضحايا، أن يقول القواد للضحية: "إن فكرت بالهرب منا فإن لدينا شريكاً ولدينا الدليل، نعرف أين تسكنين، وسنرسل هذه الصور لك وأهلك".

تخيل معي هذا المشهد: إحدى الشقق في أحد الأحياء الفقيرة في إسطنبول، حيث يعيش في الشقة رجل وزوجته مع

(آيات) في مدخل الملهى الليلي، وعلى يمينها الشاب الوسيم، رجال ضخام الجثة برؤوس صلعاء تمامًا، وقد بدت عضلاتهم مجسمة تحت البذلة التي يرتديها، كصورة مصغرة من البطل Hulk، قبل أن يظهر (نصحي) الممسول عن استقبال الزبائن الشاب، لتوحي ملامحه بأنه رجل في بداية الأربعينيات، جبهته عريضة، وكأنها دهستها بداية، ذو مقدمة شعر خفيفة تميل للصلع، وعلى الخدين السود الطويل المموج كمية كبيرة من مثبت الشعر جعلته شديد اللون، ويرتدي قميصًا كاجوال معظم أزراره مفتوحة كاشفة عن صدره، ويروى في ليلة زفافها، وتتوسطه سلسلة ذهبية ضخمة، بينما تتم وجعه عن الخباثة والدهاء..

(نصحي) الشاب الوسيم الذي بدا نجمًا سينمائيًا ببذلته الغريبة التي جعلته يشعُر المصنف، ثم هيا على لسانه كلمات الترحيب بالصديق معتقدًا أن (آيات) أوقعته في شباكه، وما أن فتح فمه الخرب حتى أسانته المسوسة التي تتألف من كسوتها اللونان الأصفر والأسود جاء بعض التجاويف الفارغة لأسنان سقطت ولن تعود:

أهلاً وسهلاً معالي الباشا.. أنرت المكان كله.

أهلاً به نقرسان وجه الشاب بنظرات ذنب، فقاطعت (آيات) بصرامة: لا شأن لك به يا نصحي.. إنه ليس زبونًا كما تعتقد.

الإنسامة عن وجهه، وأظلمت ملامحه فاستطردت بنفس الصرامة: هل السيد ريمون في مكتبه؟

حاجبني وأجابها بضيق وصدمة من طريقتها في الكلام:

نعم، ولكن..

عاجلته بجملة قاضية أنهت الحوار:

فلتكمل عملك مع باقي الزبائن إذن.. فأنا أعرفُ طريقي جيدًا

رغم خوفه الشديد من المقابر، لأنسى أمامه الدنيا والزمن حتى التفت زفر الشاب بضيق شديد وهو يتطلع إليها مصدومًا لا يعرف ماذا يفعل، فأنكبّت على يديه فجأة وقبّلتهما بذل وتوسل:

- أقبل يديك.. ابذل قصارى جهدك لإنقاذي.. (انحدرت عينيها دموع أخيرة ختمت بها كلامها) لقد صرّحت امرأة رخيصة لا ثمن لها، وأنت أُملي الأخير في أن أسترد آدميتي وشرفي المفقود، أو أخسر كل شيء.

لمعت عينا الشاب ببريق فيض بالتحدي وهو يسحب يده من تحت ثيابها الساخنين، وسال بحروف هادئة بطيئة تطل منها صرامة: كلها وهو ينظر إلى الملهى المطّل في خلفية (آيات):

- أهذا هو المكان؟

تأملت ملامحه بتوجس وقلق وقد حانت لحظة المواجهة، قبل أن تومأ برأسها إيجابًا في تردد، دون أن تقوى على النطق.

\*\*\*

أحد الشباب مقعده وذهب للحديث مع إحداهن ثم أشار إلى الذي يجلس عليها أصدقائه، فابتسمت الفتاة بدورها وأشارت لباقيها ليذهبن جميعاً بصحبة الشاب إلى مائدة أصدقائه ويجلسون في صحبة واحدة.

البار، جلست فتاة ذات شعر بانجاني ترتدي "هوت شورت" أزرق حمالات أبيض، وما أن تلمح (آيات) وهي تسير في المكان الشاب الوسيم، حتى تلتزم صديقتها ذات البشرة الخمرية ذات الذهبية بفعل "تان" أخذته تحت الشمس، بخلاف شعرها البني المتناغم مع لون التوترة القصيرة الضيقة التي لها لون الجلد ترتدي لا شيء، فيما اكتسى نصفها الأعلى بـ "بادي" ضيق صدرها المنفوخ لتتأمل كل من الفتاتين الشاب الوسيم، قبل أن يلهي وهما تؤديان الحركات الراقصة، وما أن تقربا حتى ينظر الشاب بصدمة وحيرة، بينما يتسلل شذى راحته إلى صدريهما داخلهما الإثارة والاشتهاء، في الوقت الذي استمتعت كل منهما إلى بهاء ملامحه وقوامه الممشوق لتمنحه نظرة تفيض بالرغبة، كل منهما لمسائها اللامع بعلق الشهوة، فتشير (آيات) لإحدهما، فتستغل الأخرى انشغال (آيات) بزميلتها لتتقرب من الشاب وتمسح كتفيا في صدره، ليتراجع كمن منه تيار كهربي، وقد دخله باستيقاظ شيء خامل دبت فيه نيران خفية أرقّت نومته، تتأجج ويشتد وهجها في سرعة رهيبة، غير أنها عكس باقي ما كانت تبحث عن الانطفاء والخمود في كيان يحتويها وتفرغ فيه، حتى تنطفئ جذوتها وتموت شعلتها في رضا وسعادة، ليلمح ذو العينين الزرقاوين تلك الهالة الخضراء المحيطة بالشاب وهي تلوّن إلى اللون الأحمر للحظات، ثم خبث حمرتها وعادت من جديد اللون الأخضر الصيب، حين انتهت (آيات) للفتاة ودفعتها بعنف فظن لها شزراً صارخة فيها:

قبض الله روحك!

مع كلمة "الله" طاقة غير عادية سرت في أوصال الشاب، ليقتصر وترتفع حواسه وهو يشعر في أعماق أعماقه بموجة عاتية تقلب وتعيد تشكيل ذرات جسده، فتتفرض عروقه، وتتضخم عضلاته، يغير عظامه غير قابلة للكسر.

قالتا وهي توليه ظهرها، متجنبةً بصحبة الشاب الوسيم إلى الداخل خلفها (صحى) الذي اتسعت عيناه، ثم أشار لأحد ديناصورات له منه مسرعاً وينحني حتى أصبحت أنه أمام قم سيدة الذي يكلمات مقتضبة وهو يشير نحو (آيات) وملاكها الحارس.

\*\*\*

على خلفية أغنية "Love" للمطربة "Inna" أصبح الشاب الوسيم (آيات) في قلب الملهى لتتبع عيناه بدهشة عارمة وهو يشاهد هذا الغريب في الوقت الذي صق في بعض رواد المكان لبدء هذه التي راقت لهم كثيراً..

اندمج البارمان مع الأغنية ليقوم بفتح زجاجات الخمر بسرعة لتفور في وقت واحد وبشكل استعراضي، في حين يقوم بصيهاً سريع ومبهر في الكؤوس ليتهاقت الشباب والفتيات على النقاط وشربها في آن واحد..

وعلى المسرح تراقص الشباب والفتيات بشكل هستيري، ليقع نظر الوسيم على شاب وفتاة يرقصان بمهارة عالية حتى إن الجميع توقفوا الرقص ليصنعوا دائرة حولهما، وأخذوا يصفقون لرقصهما الاستمراري المبهر..

كان ذلك حين دخل المكان ذلك الرجل ذو العينين الزرقاوين اللامع والبدلة الرمادية ذات التفاصيل الغريبة، ليراقب الأجواء باهتمامه ما اتسعت حين رأى حول جميع رواد المكان هالات حمراء، عدا الشاب الوسيم الذي كانت تحيطه هالة خضراء، ما أن رآها الرجل المريب تبددت ابتسامته، وارتسم الغضب بأعنى صورته على ملامحه، فأنقلب بصره نحو (آيات) التي أحاطتها هالة رمادية.

على إحدى الموائد نظر مجموعة من الشباب لمائدة مجاورة تجلس مجموعة من الفتيات ذوات المظهر الأنيق جداً والساخن للغاية في واحد، بشكل يجعل الناظر لا يشك لحظة في أنهن فتيات ليل، بغض النظر عن فتيات متحررات من رواد المكان الذي يأتيه أبناء البار الاستقرابية.

ومن بعيد، وقف (نصحي) وهو ينفث دخان سيجارته، ليتابع (آيات) بنظرة نمر تضيق حدقاته، قبل أن يلقي سيجارته ويدسها في جيبه. ثم يتجه نحو مكتب (ريمون) صاحب المكان.

\*\*\*

دخل (نصحي) مكتب (ريمون) الفاخر الذي يحتوي على أثاثات وديكور تنتمي لنوعية الـ "الترزا مودرن"، بينما تزين جنباته تماثيل منحوتة من عاريات، وقطع عديدة من الأنتيكة، ويكسو الحائط الذي يستند إليه (ريمون) المكتب الذي يجلس عليه (ريمون) صورة ضخمة لنجمة الإغراء (مارلين مونرو)، بينما تناثرت على باقي الحوائط صور أخرى تعود ليست واضحة التفاصيل، وإن كان تكوينها يميل للغموض والرمز ويخيل لمن يشاهد ألونها الغامقة أن الشيطان يطل منها، لا سيما تلك الإضاءة الهادئة ذات الألوان الحمراء والبنفسجي والأخضر، لتبدو بشكل ساحر، وفي ركن المكان استقرّ بار فخم وضخم من الرخام كمية كبيرة جداً من أشهر أنواع الخمور..

فيما غاص (ريمون) في مقعده الضخم الوثير، ممدداً قدميه على السجادة مرتدياً طقمًا جلدياً فخماً للغاية، سواء البنطال المرسوم عليه نقشاً مميزاً، أو القميص المفتوح كله ولا يغلقه سوى زر واحد، وتطل من أعلى سلسلة ذهبية ضخمة، وشعر صدر كثيف، وحتى الحذاء كان مرصعاً بالذهب، وحول مقعده ساعة "رولكس" ثمينة جداً، واضعاً حول عنقه كحللاً، وعلى وجهه مكياج كامل، بينما خلق جانبي شعره تمانناً، أو منتصف رأسه، صنع له كوافير أمريكي بماكينه شعر مخصوصة تدور على صورة حرياء تسيطر على جمجمته وتمتد مخالبيها وكأنها تنقر في جانبي رأسه المحلوقين، بينما ترك في مؤخرة شعره خصلة رفيعة طويلة معقوفة وكأنها ذيل الحرياء لتثير هيئته الرهيبة في قلب من يشاهده لأول مرة.

كل هذه تفاصيل اعتادت عليها عينا (نصحي) من جراء عمله في كازار يعني لـ (ريمون) الذي يتحدث أمامه في هاتف خلوي صلب مصنوع من الذهب الخالص، ويكلمات إنجليزية أمريكية تماماً وبصوت منخفض ألقى كلماته الأخيرة ثم أنهى مكالمته ووضع الموبايل في المكتب، قبل أن يخرج سيجارة "ماريجوانا" ليشعلها وينفث دخانها من أنفه.

الامتحان، وهو يسأل (نصحي) بخيلاء دون أن ينظر إليه:

خير يا نصحي؟

أحد حضرت آيات يا ريمون بك

الخير ابتساماً وثقة مقنضبة، ثم نفث دخان سيجاره ببطء راسماً في الهواء قبل أن يقول بسخرية:

لم يكن أمامها خيار آخر.

أن (نصحي) باعته بتوتر:

لكنها لم تأت بمفردها.

(ريمون) في جلسته ليسأل بجدية وهو ينزل رجليه من على

من جاء معها؟

الشاب الوسيم بنبرة وثقة تموج بالصرامة وهو يدخل المكان يتحد، (آيات) بجهاز عصبي كاد أن يحترق من التوجس والترقب، تسارعت نبضات قلبها حتى كادت أن تغطي على أصوات الموسيقى السليسة التي ترتد في أرجاء المكان.

(ريمون) نفساً عميقاً من سيجارته ثم نهض وهو يتأمل الشاب الوسيم شعر رأسه وحتى أخصص قدميه، في حين تقف (آيات) خلف كتفيها، تنطلق إلى المشهد برهبة، ودخل رأسها تتوالى كل الاحتمالات.

(ريمون) نحوها بخطوات تعد أن تبدي مستهترة حتى أصبح أمامها فنفخ في وجهه دخان سيجاره وهو يسأله:

من أنت؟

ليس مهما أن تعرف من أنا، بل المهم أن تعرف ماذا أريد.



ضاقَت عينا (ريمون) وهو يرمق الشاب بنظرة نارية تفيض باله  
قائلا:  
- أوْمُرني!

استر يا رب.. دعه يفعل ما فعله بالأمس!

أجاب (ريمون) على حارسه ساخراً:

عنونكم من أجل فقرة الساحر.. يظهر أن الأستاذ لديه عرض  
سعاني يريد أن يمنحنا متعة مشاهدته.. قل لي أيها الوسيم، هل  
ستخرج نازلاً من فمك أم ستخرج بيضة من.....أذنك.. دعنا  
نعتبرها من أذنك!

الشاب الوسيم الرجال ضخام الجثة ثم قال ببرود:

ههنا قالوا شجرة واحدة قادرة على صنع مليون عود تقاب.. لكن  
عود تقاب واحد من الممكن أن يحرق مليون شجرة، أتمنى أن  
تعوا الدرس قبل فوات الأوان.

خرج أحد الرجال من جيب بذلته علبة تقاب واقترب من الشاب  
وهو يفتحها أمامه قائلاً بغلظة وقسوة:

ها هو التقاب.. أرنا كيف ستحرقنا!

الشاب الوسيم والتفت نحو (ريمون) متابعا بنفس البرود:

آخر مرة أطلب منك شيكات آيات يا سيد ريمون، ودعنا نمض  
في سلام!

الحد اقترب (نصحي) من الشاب الوسيم بغضبٍ هادر لينفض  
من ظهره ويُجيريه على الالتفات إليه صائحاً:

لقد انتهى وقتك أيها الجرد الحقير (يمسك فكه بقوة شديدة  
ويصوب إلى عينيه نظرة نارية ويتابع) انفذ بجلدك وارك الفتاة  
التي جاءت بك لمصير سوداوي لن تحتمله.. دعها تأكل خبز  
واستغل آخر فرصة للنجاة قبل أن ندفعكما معاً بعد دقيقة واحدة  
من الآن.

ران الصمٹ على المكان للحظات أخذ الشاب الوسيم يتأمل  
ما يحدث به من ديكورات ورسومات، قبل أن يصوب سهام  
نحو (ريمون)، ويخرج ورقاً من جيب بذلته، ليمنحه نحوه قائلاً:  
صارمة:

- هذا عقد شقة آيات والسيارة التي اشتريتها لها.. شكراً إلى  
الحد.. حاجتك عندك ومن حقها أن تسترد الشيكات التي  
بها لديك.

اقترب (ريمون) منه أكثر حتى تلاقي أنفاهما:

- ماذا لو قلتُ ليس لها حق عندي؟

أجابه الشاب الوسيم بنظرة صارمة متحدية:

- من لا يحصل على حقه بالأصول والتراضي، يضطر أن يصر  
بالقوة.

قهقه (ريمون) ساخراً ثم أردف باستخفاف:

- أووووهه.. واضح أنك جامد جداً.. (القي سيجاره فجأة ودهس  
يقدمه وعيناه تيرقان بغضب متابعاً) وأنا أحب أن أشاه  
لديك.. حتى أصفق لك.

قالها وهو يُصفق بيديه بصوت عالٍ، لينفتح باب مكتبه ويدخل  
رجال ضخام الجثة من المعينين لحراسات المكان، يرتدون بذ  
ذات شكل ولونٍ واحدٍ قبل أن يسأل أضعفهم:

- ماذا هناك يا ريمون بك؟

التفتت (آيات) نحو الرجال وارتسم الرعب والهلع على وجهها بأ

للتواصل يد الشاب الوسيم تقدمها رغم تدخل الحارس الثاني، قبل أن يلمس الحارس الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس في حين تواصل يد التقدم حتى تهزم يده أياديهم كلها وتضعها على البار، ثم فجأة يدها ويضغط بيده بقوة شديدة مفاجئة على أياديهم المتكدسة فوق البار على البار فيصرخوا جميعاً بالهم شديد بينما تردد صوت انسحاق يدهم مع تشقق رخام البار وكان قوة هائلة تضغط عليه، قبل أن يبار ويسقط جميع الرجال أرضاً، لتتهزم مخاوف (آيات) ويتراجع هو والسوداوي الذي تجسّد أمام عينيها وهي تطلق شهقة فرح أفرغت البوتر ومكتونات نفسها وهي تنتظر للشاب بفرحة عارمة غير محسوبة ما ترى..

(ريمون) فقد اتسعت عيناه بدهشة وذهول ليسقط السيجار من يده ليغز إلى صورة (مارلين مونرو) التي تملأ الحائط الموجود خلف الأرض على عينيها فتفتتح خزنة سرية تعمل ببصمة اليد، ويرى لها حقيبة سوداء ومسحاً جذبه سريعاً ثم سحب أجزاءه وهو يوجهه الشاب وفي عينيّه كل الغضب والشر.

\*\*\*

في مسرح الملهى ما زالت نفس التفاصيل كما كانت، وما زالت أنغام الأغنية تعمل، بينما يمارس الرجل ذو العينين الزرقاوين هولايته في الأحداث، وفي لحظة انقلاب الحال تماماً..

في المكان صوت طلقة رصاص، ويعدها رأي الحضور الشاب (ونصحي) و(ريمون) يخترقون جداراً خشبياً كان يفصل بين المودي إلى غرفة (ريمون) ومسالمة المكان، لينطلق ثلاثتهم في هجاء مرتطمين بالعديد من الموائد في عنف شديد وما زال في يد (ريمون) المسدس، رغم أنه قد فقد وعيه هو و(نصحي)، فينتبه 10 من الحارس لما حدث ويسرعوا نحو ثلاثتهم، بينما توقفت الأغنية وتراجع الحارس بعد أن توقفوا عن الرقص ليغادروا المكان في عشوائية وتخطيط في الوقت الذي أطلقت فيه النساء صيحات الخوف والفرح، وعلى رد فعل الباقيين اتسعت ابتسامة الرجل ذي العينين الزرقاوين وهو يمسك التيار البشري المتدفق للخارج وكأنه لا يعيا بما يحدث وما يتوقع حدوثه، لينزوي في ركن بالمكان ويتابع عن كتب..

ومع آخر حروف كلماته دفع الشاب بقوة شديدة، إلا أن الشاب لم يقد أملة لتتسع عينا (نصحي) بدهشة، في حين ارتسمت نظرة سلبية على وجه الشاب قبل أن يقترب من أضخم الرجال جثة والذي يفترس جوار البار الرخامي، ليضع الشاب يده على البار في وضع امرأ "رست" قائلاً بتحد:

- ترى هل أعصاب كبيركم قوية بشكل كافٍ؟

نظر (ريمون) للشباب الوسيم بدهشة، في حين تحفز الرجل الضخم، أن يتحدث أحد، تابع الشاب:

- لو فاز عليّ في التحدي، سأترك الفتاة وأرجل، أو نكون مستحقين للدفن.

نظر الحارس الخاص لـ(ريمون) بتساؤل، فقال له (ريمون) بعينيه موافق، ثم أخرج سيجاراً آخر أشعله وهو يتابع الموقف..

وضع البودي جارد يده على الجهة المقابلة من البار، وأمسك بيد الشاب الوسيم، وفي لحظة خاطفة دفع يده بقوة شديدة حتى إن يد الشاب تراجعت للخلف بسرعة..

واتسعت عينا (آيات) وهي تصرخ في ذعر: "يا رب"

فتجمدت كف الشاب فجأة قبل أن تلمس البار بسنتيمتر واحد، لتتسرع عند هذا الوضع، في حين أخذ البودي جارد يبذل جهداً هائلاً ليتم انتصافه حتى احمر وجهه وانتفضت عروق صلته حتى أوشكت على الانفجار بينما انتفضت عضلات ذراعه اليمنى دون أن ينجح في تنزيل يد الشاب حتى النهاية، وفي غمار هذا كله احتفظ وجه الشاب بالهدوء والثقة، وأطلت من عينيهِ الصرامة، وهو يطالع فشل الرجل في هزيمته..

عندها بدأت يد الشاب في الارتفاع ببطء لكنه قوي ومحسوب، يشنح الحارس ويصيح محاولاً منع ذلك دون جدوى..

ارتسمت الفرحة على وجه (آيات) بينما نظر (نصحي) بقلق (ريمون) الذي أمر بعينيهِ رجلاً تانياً من رجاله أن يتدخل، فارتسم الحارس الثاني على يد الشاب الوسيم وتعلق بها حتى يجعله يخسر..

ما أن يصل الحراس العشرة حتى يهب الشاب بقوة جبارة ليمسك الموائد ويقفز بها في الهواء في دورة بهلوانية رأسية وما أن تلامس الأرض حتى يكون قد القى الترابيزة بكل قوته نحو الحراس لترطم منهم في عنف وتتحطم تمامًا، بينما ينقض باقي الرجال السبعة في نفس لحظة إمساكه بمائدة أخرى ليفقّر نحوهم قفزة بسيطة، ويصبح وسطهم تمامًا حتى يلتف بجسده حول نفسه كحفار يتزول المائدة في وجوههم لتحطم فكي اثنين آخرين وأنف ثالث في حين المائدة، بينما ينقض أحد الحراس الأربعة المتبقين كثور هائل حركة الشاب في نفس لحظة انقضاض الثلاثة الآخرين عليه، لترفع الشاب مستغلاً تكبير الحارس له لتتطابق قدماه في وجوه الثلاثة الأتوف والفكوك، وما أن يضع قدميه مرة أخرى حتى يقفز مرة أعلى مصطحباً معه الحارس الذي يكبل حركته حتى يصل به إلى القاعة ليلتعلّق بقدميه بأحد الحواجز المعدنية المثبتة في السقف ثم جسده مرة أخرى بقوة شديدة للأسفل فيفلته الحارس ويسقط بينما فوقه الشاب وينغرس في بطّنه كسمار صلب..

ومن بعيد، وقف الرجل المريب في ركن مظلم يتابع ما يحدث ببرود دون أن يلتفت لوجوده أحد، بينما تأتي (آيات) من الداخل وهي في يدها الحقيبة السوداء التي كانت في المكتب، وتنتظر لما حدث به مزوج بالربع في اللحظة التي يسفل فيها 5 حراس آخرون الإلبيضاء، وينهض أول ثلاثة حراس ارتطمت بهم أول مائدة ألقاها الشاب، وقد تخلصوا من آلامهم وسالت دماؤهم من مواضع الشاتحتدوا جميعاً في مواجهة الشاب، فلتحم (آيات) المسدس الموجود يد (ريمون) الفاقد الوعي، لتقترب منه بحذر وتلتقطه من بين أصابعه لحظة انقضاض الجميع على الشاب، قبل أن يتردد في المكان مسدس طلبة يتجمد معها المشهد ويقف الجميع في ثبات..

والجميع كان ينظر نحو (آيات) التي تمسك بالمسدس وتلوح به أوجوههم بتحفز، وفي الوقت نفسه تقترب من الشاب الوسيم الذي تحت قدميه 7 من الديناصورات فاقد الوعي..

وحين بدأت تشعر بالثقة والطمأنينة، تقدمت (آيات) نحو الشاب لتحتمي به رغم كونه أعزل وكونها تحمل سلاحاً، لكنها تعثرت فجاء أحد الحراس المطروحين أرضاً فاستغل أقرب الرجال لها فرصة

\*\*\*

على يدها ويأخذ المسدس عنوة، ليوجهه نحوها في نفس لحظة ينقض باقي الرجال نحو الشاب الذي تجمد في مكانه وهم يقتربون من أن يقفز فوقهم ليتجاوزهم بقفزة هائلة وهم ينظرون إليه وهو في رؤوسهم، حتى وصل إلى الحارس الذي يصوب مسدسه نحو (آيات) ليركل يده في نفس لحظة انطلاق الطلقة التي تطيش وتقتحم بار لتندلع نيران هائلة تلتهم ثلاثة من الرجال..

الركن المنزوي الذي يقف فيه، وقف الرجل ذو العينين الزرقاوين الشاب الوسيم وعلى أحد كتفيه (ريمون) وعلى الكتف الآخر (آيات) وهو يغادر بهما المكان، قابضاً على يد (آيات) التي تحمل في يدها الأخرى الحقيبة السوداء التي أخذتها من خزنة (ريمون)، وخلفهم الحراس تنقض عليهم بكل شراسة ليغادروا المكان قبل فوات الأوان، ووسط صراخ المصفر، ظل الرجل الغامض يتابع المشاهد من الداخل دون أن يبال بالوهج المستعر حوله أو يتأثر به جسده..

المكان، انطلقت أنوار اللوحة الدعائية المكتوب عليها جملة "Black Down" في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) والشاب، الذي (نصحني) و (ريمون) بعيداً، ثم سار معها حتى ابتلعها الظلام.

وحيث بدأت تشعر بالثقة والطمأنينة، تقدمت (آيات) نحو الشاب لتحتمي به رغم كونه أعزل وكونها تحمل سلاحاً، لكنها تعثرت فجاء أحد الحراس المطروحين أرضاً فاستغل أقرب الرجال لها فرصة

في ساحة كبيرة أمام المسجد الذي حمل اسم الشارع، وتزين  
بمباني متعددة الألوان، ويغني من داخل المسجد الذي لا موضع فيه  
المنشدون بصوت عذب قوي يخلب الألباب، بينما يجلس أمام  
أسوار من البشر أخذوا يهزون رؤوسهم باستمتاع ونشوى، وقد  
الإيمان في لحظة نادرة توحدوا فيها مع الخالق وقعدوا الإحساس  
بالمكان، وهامت أرواحهم في ملكوت الله لتأخذهم كلمات المنشد  
وراء الكون وهو يردد:

لن لمن يفهم عني ما أقول.. فصل القول فذا شرح يطول \*

أنت لا تعرف إياك، ولا تدري من أنت، ولا كيف الوصول

كيف تدري.. من على العرش استوى؟

لا تقل كيف استوى؟ كيف النزول؟

كيف تجلى الله؟ أم كيف يرى؟ فلمعري ليس ذا إلا فضول

هو لا أين، ولا كيف له، وهو في كل النواحي لا يزول

جل ذاتاً، وصفات، وسما وتعالى قدره عما نقول

ذلك، أخذت العجوز تتخلل زحام البشر حاملة العديد من مطويات  
الصباح والمساء، والكتيبات التي تتضمن قصار السور القرآنية،  
أول الحضرة وهي تتنقي بعينها أناساً بعينهم تبحث عنهم.

أن وقعت عين المرأة العجوز على رجل يرتدي جلباباً فاخراً يبرز  
الضمخ، ويبدو على ملامحه الثراء والصلاح، انقضت عليه وهي

الآبيات من تأليف محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف، متصوف، وله  
مناثي مصنف. ويمكن سماعها بصوت المنشد الشهير (علي الهلباري) على  
YouTube و "Soundcloud" حيث تحمل اسم (قل لمن يفهم عني ما  
الهلباري).

في احتفالية شعبية بمناسبة المولد النبوي الشريف، في شارع  
دانايال)، سارت امرأة عجوز، اشتعل الرأس منها شيئاً، لتتسدل حجابها  
من أسفل طرحة موضوعة على رأسها بدون اهتمام، وخطت التراب  
ملامح وجهها صانعة بخطوط خريطة حية لأثار الدهر، وقد ارتدت  
عباءة سوداء قديمة، لتشرق وسط المولد بمظاهره المتعددة سواء في  
التفردة، أو بانعني الحمص والسوداني، قبل أن تصل لحلقة ذكر ضابط

\* شارع (النبى دانايال) هو أقدم وأعرق شوارع محافظة الإسكندرية، من خلاله  
بناء المدينة العريقة ذات الأصول الرومانية حين أمر الإسكندر الأكبر  
اليوناني (دينو قراطيس) بتخطيط هذه المدينة، حيث وضع لها تخطيطاً  
عليه «هيبودامي»، والذي يعني أن تكون شوارع المدينة على شكل شبكي،  
بناء الإسكندرية من خلال شارعين رئيسيين هما السوما (شارع النبي دانايال)  
والكنوب (اسمى فيما بعد بشارع فؤاد وحالياً اسمه طريق الحرية)، وكانا متقاطعتين  
بزواية قائمة تحيط بهما شوارع أخرى فرعية تتوازي مع كل من الشارعين المتقاطعتين  
بالطول والعرض، لتبدو الإسكندرية في شوارعها المتعامدة أشبه برفعة شطرنج  
وعلى مدار تاريخ هذا الشارع العريق منذ آلاف السفين، تعاقبت كل الأديان  
دخلت مصر، واتخذت فيه مفارقات لدور عبادتها، سواء المعابد الرومانية، أو  
بخلاف دور العبادة المسيحية والإسلامية، وشهد الشارع في العصر الحديث  
ذهبية تجاوزت فيها الأديان السماوية الثلاثة، وعاش اليهود والمسيحيون والمسلمون  
في مزاواة ومعشر طيب، ليؤدي كل منهم طقوس عبادته بحرية تامة، ففي  
الشارع يقع مسجد النبي دانايال الذي يُعد من أقدم المساجد في تاريخ الإسكندرية،  
وفي المنتصف تقع الكاتدرائية المرقسية أول كنيسة في مصر، وفي نهاية الشارع  
ناحية محطة الرمل يقع المعبد اليهودي (إلياهو حنايي) وكان الشارع قديماً  
للجاليات اليهودية واليونانية والأرمينية، وتمت تسميته بالنبي دانايال نسبة لأحد  
بنو إسرائيل الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ويضم الشارع  
الكثير من المباني العريقة مثل مبنى جريدة الأهرام، والمركز الثقافي الفرنسي  
أنشئ عام ١٨٨٦، وبالرغم من ازدهار الشارع الشديد إلا أنه كان دائماً محط  
السفراء الأجانب والكتاب الفرنسيين والمصريين ومن أشهرهم ميشال تورنيه و  
نويل وجيب محفوظ وجمال الغيطاني ومحمد سلماوي والدوارد الخراط وصنع  
إبراهيم، ويتواجد به الآن أشهر باعة الكتب القديمة والحديثة، بأسعار تناسب  
والباحثين والقراء العاديين من محبي الثقافة.





ينهي الحديث:

- فلتمسكي المفتاح وتذهبي.. وراعي أكل عيش.

قبضت (آيات) يدها على المفتاح لتسير في اتجاه الشاب بينما ما رأسها ملتفتاً نحو (دميانة) لتقول بابتسامة ساخرة:

- إن شاء الله سيكشفون أمرك.

(دميانة) مبتسمة:

- سأقرأ حينها الشهادتين.

وفي مكانه، فوجئ الشاب الوسيم أثناء الحديث الدائر بين (الدميانة) وبين حانية تربت على كتفه من الخلف ليلتفت نحو صاحب اليد فإذا به رجل عجوز يبدو من ملامح وجهه أنه شديد الكهولة، ذلك كان جسده غفياً، منتصب القامة، يعج بطاقة فوارة، ذو وجه مشرق وضأ رغم استمراره الشديد، محاط بلحية كثيفة شديدة النعومة، كالثلج، تتدلى حتى صدره، فيما طالبت شعيرات حاجبيه حتى كادت تغطي عينيه الواسعتين المريحتين للنفس بشكلهما العضلي فاقع النور ويسر الناظرين، وكسى شعر رأسه عمامة ناصعة البياض بنفس لجلابه خفيف الملمس وكأنه مصنوع من الشاش، وعلى وجهه ابتسامة غامضة لا تعرف لو اطلعت عليها سر مصدرها.

أطلق التساؤل من عيني الشاب، بينما تحنطت الابتسامة الغامضة على شفهي الرجل لثوان قبل أن يقول ببطء، ويصوب رخيخ بدا كما لو كان يخرج من دهاليز قبو عميق:

- كيف حالك يا بني؟

- !!!!!

- ألا تعرفني؟

عقد الشاب حاجبيه برهة في محاولة مستحيلة لاسترجاع ماضي ثم تماماً من ذاكرته، ثم رد على السؤال بسؤال ملئ بالهفة:

هل تعرفني أنت؟

ابتسامة الرجل وهو يوميء برأسه قائلاً:

بكل تأكيد.. لقد التقينا منذ قديم الأزل

قديم الأزل؟

نعم يا ولدي.. فجميع مخلوقات الله تقابلت ذات يوم في عالم غير العالم، حين كنا في العدم، نلح على الخالق أن يوجدنا، فالبسنا ثوب المادة ومنحنا وجودنا من اسمه الموجود على سبيل الاستعارة، ككل شيء استعزناه بعدها من أسمائه، فاستعزنا الكرم من اسمه الكريم، والصبر من اسمه الصبور، والقدرة من اسمه القدير، حتى حواسنا مثل السمع والبصر، استعزناها من السميع البصير.

الشاب وقد فجرت إجابة الرجل دويًا هائلاً في روحه، وملأت سوجة هائلة من التساؤلات..

مع هذا الكلام من قبل وأمن به ليمثل جزءاً من أفكار قديمة كانت له من المسلمات التي لا نقاش فيها، لكنه لا يدري متى عرفها، أي ظرف، وحين تقافمت حيرته ولم يجد ما يسد جوع فضوله ولو من شئيل من الذاكرة الخاوية على عروشها، تطلع بنظرة توسل للشيخ أمامه وقال:

هل لي أن أجلس معك وأفهم منك مقصدك!

أجاب الرجل بابتسامة غامضة زادت من حيرته:

على رسلك يا فتى، فكلُّ أجلي أوان، والرحلة ما زالت في بدايتها.

سارع الشيخ إلى ما وراء كتفي الشاب ليرى (آيات) التي تتقدم نحوهما بمرحلة الخطى وقد أخذت السعادة تتغافز على ملامحها، لتخبر ابتسامته بتدركه في تأثر:

مسكينة.

التفت الشاب نحو (آيات) التي وصلت إليه، لتلوح بالمفاتيح التي أخذت من (دميانة) أمام وجهه قائلة في جزل:

- أبسط يا عم.. حصلنا على مكان للمبيت.

لكنه لم يسمع كلامها وقد استحوذ كلام الرجل على تفكيره وانقباضه، سيما حين التفت إلى حيث تركه فلم يبقَ ناظره سوى على العدم.

\*\*\*

سار الشاب مع (آيات) في شارع (النبي دانيال) باتجاه البحر ومساكن الرمل حتى وصلا إلى شارع (سعد زغول) الذي يتقاطع معه، ومن ثم بمحلات الملابس والباعة الجائلين في لحظة غلق دفتار الرزق إلى انقضى فيها السامر، واصططت معها أقفال أبواب المحلات بعد إغلاق الأتوار، ليعم الظلام الشارع ويتبقى فيه بعض الإضاءات الخافتة التي تكشف لوحة محل (شيكوريل) وميني (دار المعارف) وعدداً من العمارات العتيقة ذات الطراز المعماري العريق، وتنتمي لزمن الإسكندرية الجميلة حاملة بصمات البشوات، والبكوات، وأمراء وملوك مصر (محمد علي وعائلته، حين كان بعض أبناء الجالية اليونانية والإيطالية يعملون كهائن وحلاقين.. ووسط تلك العمارات وقفت مبان حديثة حملت سمات ومناخ العصر الحديث بضخامتها وواجهاتها الزجاجية، لكنها وقفت كخوازيغ غريبة لا تمت بصلة لباقي الأشجار المعمارية العريقة المزروعة في حديقة التاريخ حيث المعمار الإيطالي البديع والطراز الفلورنسي الذي زال يميز ما تبقى من الإسكندرية القديمة، ليوجه الشارع بلغة الحداثة والمعمار رسالة استغاثة: نداء لمن يهيم الأمر.. الإسكندرية العتيقة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتُسرَق منها عراقتها وتراثها على يد لص وقت متسلسل للندن اسمه.. التحضر والتطور!

تلقت عينا الشاب طرف الرسالة وهو يتأمل المشهد حوله بمقتاضاته قبل أن يشعر بيد (آيات) تجذبه وهي تتحرف نحو إحدى العمارات التي تنتمي لحقبة الثلاثينيات حيث المدخل الضخم الذي يوازي ارتفاع دورين من العمارات الحديثة، ليصعد معها السلالم القديمة الرخامية ويتابع أناملها الرقيقة وهي تتسند على سور "الترابزين" الخشبي في رحمة الصعود الشاقة للسطح بعد أن اعتادت قدماها على المصاعد الفاخرة.

السلح، وجدا في انتظارهما الكثير من العيش الخشبية المتأكلة، التي كانت تسكنها الحديد من الأسر المعذمة من الدنيا حين كان أكابر القوم يخصصونها للخادمين والطباخين من العمار، ثم أتت الزمن بتغيراته على خريطة المجتمع وتبدل كل ما تبقى تلك الغرف شاهداً على تاريخ الأمس ومرتباً للدجاج والبط السهل العيش في إحدى العيش على يد السمسارة العجوز الماكرة التي أفتعت تلك الطيور البلهاء أن سكنها الجديد ها هنا أفضل من دون أن تخبرها أن مصيرها سيكون الذبح ذات يوم، وفرضت اليوم سطوتها باطياق "النش" اللافتة التي ملأت أرجاء المكان، بل هذا التغيير ظلت (دميانة) وغرقتها كجدر قديم لم ينجم مقلع في إزالته أو زحزحته، ليزداد تاصلاً ورسوخاً كلما مضت الأيام.

(آيات) والشاب الذي ما زال يحمل اللوحات والحقيبة أمام مصطبة مربعة أمام غرفة (دميانة) لتتس المفتاح في قفلها الحديدي الصدئ، ليأيه بصعوبة لتدخل الغرفة وتتشع ذاكرتها وذكرياتها بتأمل جنبات الضيق، وأرضيته القذرة، وسريره الوحيد الذي يستحي الموتى من عليه على ضوء سراج خافت الضي اقترب من الاحتراق، ظل لتتوزع إضاءته على أرجاء الغرفة، لاهية بظل الفتى والفتاة في هذا غامضاً وكان الغرفة تستجوبهما عن سبب المجيء، قبل أن (آيات) إلى الشاب الذي تبعها للدخل قائلة بحزن:

هذا هو المكان الذي استقر بي المقام لأعيش فيه مع دميانة مقابل خدمتها والمشاركة في طعامها وشرابها، بعد أن خرجت من الأحداث وتلطمت في الدنيا.

على كلماتها وهو يتأمل المكان بدوره دون أن ينظر لها: دائماً الجلال سكته أصعب، لكن بركته تنوم أكثر.

استدار يتأمل عينيها الحزينة، دون أن يدرى أن لنظرات عينيها الذهبيتين صوته القوية محرراً خاصاً يتسلل لنفسها كخدر شديد المفعول، إنها احتاجت ثواني حتى تستجمع قواها وتملك القدرة على أن تشيح بألمرها بعيداً عن مرمى عينيها لتقول بشفتين مختلفتين:

- أتمنى أن يكون الحلال كافياً.

في أوصالها رعدة مماثلة وتكف عن التطلع إليه، بعد أن انسحب من شجرتها نحو السماء التي بدت لها في تلك الليلة سماء غير مألوفة، وكان للنجوم لغة، ولحركة السحاب إيماءات، لكنها لم تملك بعد الإشارة وترجمة العبارة.

\*\*\*

معرفة المبيت المعقدة ذات المظهر البائس المتردي، وقف الشاب أمام جاكيت بذلته، وشمر ذراعيه ليكشف عن رصغين منحوتين من الحركات البارزة وهو يعلق آخر لوحة على الحائط، ثم يتأمل باقي اللوحات التي تم توزيعها على الجدران، في حين غيرت (آيات) ملابسها نفس الثوب البالي ذي الهيئة الرثة، لكنه لم يستطع أن يخفي الهادئ الذي بدا طبيعياً هذه المرة وقد خلت قسما وجهها من الحزن، وانسدل على كتفها شعرها البني الناعم الطويل، لتتطلع هي إلى لوحاتها بمزيد من الحسرة والحزن قبل أن يسألها الشاب وهو يحدو اللوحات دون أن ينظر إلى وجهها:

ما دميت أنت موهوبة إلى هذا الحد، فما الذي ألقى بك في طريق ريمون بدلاً من أن تمشي في السكة التي تقدر موهبتك؟

والله إشارة البدء لتجيب بأكثر مما احتمل الاستفهام:

كل لوحة من اللوحات التي أمامك فيها جزء من ذكرياتي

إلى إحدى اللوحات بتأثر:

هذه رسمتها في أول عيد ميلاد أقضيه وحدي بدون أبي الذي لم يحضر الهدية التي وعدني بها.

أرأت إلى لوحة أخرى وقد زادت جرعة التأثر في نبراتهما وملامحهما:

وهذه كانت في أول عام لي بالأحداث.. كانت موهبتي قد نضجت بشكل لافت للنظر وجذبت اهتمام مشرقتي.. أولتني معاملة خاصة بعد أن انبهرت بوردة مثلي تم انتزاعها من

قالتها ثم جلست على السرير لتفتح الحقيبة السوداء وتفحص محتوياتها ما بين شيكات كثيرة ومجموعة أسطوانات مدمجة ظلت تفحصها عثرت على الشيك الخاص بها بعد عناء، حتى إنها أفرجت عن حارة كانت حبيسة صدرها وهي تقول للشباب:

- حمداً لله.. أخيراً وجدت الشيك القادر على إعادتي للسجن.. امتلكت صك حريتي بفضلك.

تأمل الشاب باقي الشيكات والأسطوانات وهو يقول:

- سأعيد باقي الأشياء التي لا تخصنا في أقرب وقت.

اتسعت عينها اللتان أطل منهما الذعر وهي تقول:

- أتود العودة بعد كل ما حدث؟ لن أسمح لك أبداً.. ثم سافحص هذه الأسطوانات وأعرف محتواها لعلني أجد فيها ما يحميها من انتقام ريمون الذي حتماً سيقيم الدنيا ولن يقدها جراً ما فعلناه، أنت لم تعرف نفوذه وسلطانه بعد.

التفت الشاب خلفه متأملاً باقي جنبات السطح، وما أن وقعت عينها على عشة الدجاج حتى هب ديك بداخلها متحركاً بشكل هستيري مطلقاً صياحاً شديداً كاد أن يثقب آذان السامعين.. وكان صياحه هو إشارة البدء لباقي الديوك في عشش الأسطح المجاورة، انطلق صياح الديكة كل العشش في تنابح حمل أصوات ارتجافتهم وحركاتهم داخل العشش في سيمفونية بدت غريبة لـ (آيات) التي عقدت حاجبها في دهشة واستغراب وهي تتطلع للمشهد في حيرة، في الوقت الذي شخص فيه بصر الشاب نحو السماء ليتأملها في رهبة وخشوع وهو يردد دون وعي منه كلماته تسبقه:

- الله أكبر.

تأملته (آيات) وهو يتابع النجوم بعينيه ويسرح في نور القمر وتوقف عيناها على شفتيه المرتجفتين قبل أن يقول بقلب واجف وما زالت عيناها معلقة بالملوكوت العلوي:



اعتدت عشرتهم واعتبرتهم عائلتي البديلة رغم كل ما بهم من إجرام وشراسة وطائفة، لكنهم مع الوقت نزعوا مخالبيهم وتسلطت الألفة لقلوبهم وهم يتعاملون معي.. لذا رسمت هذه اللوحة.

أشارت إلى لوحة سادسة، بدأت دموعها الساخنة في جرح وجنتيها بول بصعوبة:

وهذه بعدما أحببت مني، زميلي الجديد في مكتب الجرافيك الذي التحقت بالعمل به.. كان يريد أن يتزوجني لكن ظروفه الصعبة حالت دون ذلك.. لذا اضطررت أن أذهب إلى زوجة أبي أطلب منها أي مساعدة تُعطيني على الزواج، وأنا أعدها إلا أזורها مرة أخرى.

أشارت إلى لوحة سابعة سوداء مليئة بالكآبة وزاد انهمار دموعها وهي

وهذه بعد أن أرسلت ابنها أمير ليفضحنى في مكتب الجرافيك الذي طردوني منه بعد أن عرفوا بأمر الأحداث، لقتني بعدها علاقتي بأول حب في حياتي.

على السرير بعد آخر حرف، وانحنى ظهرها بعد أن غرقت في حزن شديد يمزق نياط القلب حتى إن عيني الشاب التمتعا رغماً عنه، بول من بين دموعها:

كان نفسي رينا يستجيب دعوتي وأتزوجه.. كنت أحبه جداً.. جدًا... (رفعت رأسها نحوه وعيناها ما زالتا تمطران) أليس من الممكن أن يصبح كل ما سبق كابوساً قد أصحو منه وأجدي ما زلت طفلة لم تهتك براءتها الحياة بعد؟!

أشارت لنحبيها وهي تطرق برأسها للأرض وتفتح قنواتها الدمية على سائر أسرارها لتسقط مع كل دمعة ذكرى حزينة حاملة معها جزءاً من فئاتها المحطم..

ومع التعاطف مبلغة، فاقترب منها ثم انحنى جاثياً على ركبتيه ليرفعها من الخراب في الدموع ويجعله في مواجهة وجهه وهو يقول:

بستانها الجميل، ليتم غرسها في صحراء مقفرة في صحبة الصبار.. لم تصدق نفسها حين وجدتني حاذقة في الإنشاد والفرنسية، وأجيد الرسم والتلوين، وتخرج أنامل من العزف البيانو والكمائن مقطوعات موسيقية قادرة على دغدغة المشاعر واصطحاب السامعين إلى رحلة عبر الذات، يشاهدون الحب، والشجن، والحنين، وكل ما هو غير محسوس ومن غير أن المشاهدة كانت بالأذن لا العين، وربما تخللت أصوات الأوتار الحزينة، صوتاً أكثر يؤساً وألماً، ينبعث من أصوات الصوتية التي كانت تشارف على التمزق كلما غنيت لأحد. رغم أنني تعلمت العزف والغناء لأشعر السعادة في جنبات الحزن، حسبما كان يتمنى أبي الذي لم يبخل عليّ لأجيد مهارات من كملكته الوحيدة قبل أن يسوقني القدر إلى سوق النخاسة.

ابتسمت ابتسامة حزينة، ثم أشارت إلى لوحة ثالثة وأردفت بجسد رقيق من التأثر:

- وهذه حين طلبوا مني لوحة أدخل بها مسابقة في الرسم، حصل بها على المركز الأول، فساءدنتني المشرفة بعدها على الجرافيك على الكمبيوتر حتى تدخل بي مسابقات أخرى وتقدم على ترقيات مع كل مركز أول أحصل عليه، بعد أن صرت في منزلة الأئمة التي دافعت عنها وجمعتها من أطفال الشوارع المتشردين الذين كانت صحبتهم وزمالتهم أمراً إجبارياً في حياتي الجديد البائس.

عادت لتشير إلى لوحة رابعة وقد بدأت عيناها تلمع بالدموع:

- وهذه حين توفيت مشرقتي وأمي البديلة في حادث عارٍ لتتركني وحيدة من جديد.. يومها فوجئت بدموعي تنهمر كشلال بعد أن ظننت أنني بفراق أبي، قد ودعت من لن أبكي بعده.

أشارت إلى لوحة خامسة وقد زاد لمعان عينيها:

- وقبل خروجي من الأحداث بشهر.. لم أكن أعرف، على أي بحرיתי، أم أبكي لأنني غير قادرة على تحديد وجهتي الخروج، وأين ساعيش، ومع من، وكيف سأحتمل فراق أبي.

- إن الله يمنح الإنسان ما يحتاجه حقاً، وليس الذي يريده.

- ما الذي كنت أحتاجه لأمرُ بكل ذلك؟ وما الذي سيمنحه الله لمن نجسها الخطية مثلي بعد كل ما اقترفته من آثام؟ أليس المُنْذِر يقول إن السماء تفرح بخاطي واحد يتوب، أكثر 99 بائراً لا يحتاجون إلى توبة لكني تبت كثيراً وعدتُ للسلوطة.. أخشى أن ثباتي على الحق صار معجزة في الدنيا انتهت فيه المعجزات.

- المعجزات أبدية لأن صاحبها لا بداية له ولا نهاية، ومن صفات البقاء والاستمرارية، ثم إن الجميع ينظرون إلى الله بأعين صاحب المعجزات، لكنهم لا ينتبهون أنهم المعجزة ذاتها.

- كلماتك تشبه كلام رجال الدين الذي يعجب السامعين، ليس سرعان ما نلقي به عرض الحائط حين لا يغير الواقع المألوف البغيض حولنا مهما رددناه ونحن نرفع أكف الضراعة إلى السماء، لكن ما يكسبك المصادقية أني رأيت معك الأفعال وليس الكلام فحسب.

- ما فعلت إلا ما منحني الله القدرة على فعله، لكن الناس اعتادوا أن تنظر فقط لأفعال أقرانهم من البشر دون أن ينتبهوا إلى مصدر تلك الأفعال، وهذا سر تأليه بعض الأشخاص وحسن أكثر من الإله.. صدقيني يا آيات كل شيء قابل للتحقيق! آمنا بالله كما ينبغي أن يكون الإيمان.

ثم التفت نفساً عميقاً وهو يتأمل ملامحها واستطرد:

- وبالرغم من أنني لا أعرف من أنا، وماذا سأفعل في مشكلتي، لكنني أقسم لك أن لוחتك القادمة ستكون أجمل لوحة في حياتك.

تأملته بعينين عرفتُ أخيراً طعم البسمة وهي تشعر أن الكون كله قد أهل عليها برحابته وأنواره المتلائية في السماوات على يدي هذا الغامض، قبل أن تقول وهي تقاوم رغبة ملحة في معانقته والارتواء بين أحضانها:

- دائماً ما يهتم البشر بهوية بعضهم، ويسألون عن الغريب القادم

من أين أنتي، لكن أنا يعني فقط إلى أين سيمضي.. سأقف إلى جوارك بكل ما أملك وسأبذل من أجلك قصارى جهدي مثلما ساعدتني.. وأنت أيضاً دورك معي لم ينته بعد (تمد يدها لتمسك يده وتساله).. أتعدني بالألا تتخلي عني؟

إلى يدها، ثم حرّر أنامله من أصابعها ببطء وهو يتطلع إلى عينيها

أعدك.

ومن إنني بلا دين، فهل هذه أفعال المؤمنين؟

نعم (دميانة) بصوت غاضب وهي تقف على عتبة باب الغرفة، لينهض (آيات) في توتر وارتباك، قبل أن تقول الأخيرة بتلعثم:

لا تفهمينا خطأ يا دميانة.. إنه.. إنه..

بسريرة غاضبة:

ما رأيك في أن أنزل وأطلع بعد نصف ساعة حتى تجدا عمة مناسبة على مقاسي بعد أن ألغي عقلي؟

نعم (آيات) بتوتر أكبر:

لا والله، هذا يبقى، يبقى....

الشاب إلى (آيات) مقاطعاً ثم نظر إلى (دميانة) وقال بصرامة:

أنا واحد لا يعرفها ولا تعرفني.. لكن الظروف الصعبة التي جعلتك تبيعين سوزاً قرآنية وأذكاً رغم مسيحيتك، هي نفسها من وضعتنا في هذا الموقف.. لو كانت (آيات) ترغب في الحرام ما كانت لتعود لهذا المكان البائس مرةً أخرى، بعد أن كانت تنام فوق مراتب من ريش ناعم ومفارش حريرية وفوق هذا تقبض ثمناً لا بأس به.

القط جاكب بذلته واقترب من (دميانة) ونظر إلى عينيها بقوة متابعاً:

ت (دميانة) حاجبها وقالت بغم منزوع الأسنان إلا قليلا:

أنا لا أصدق إلا ما أراه بأب عيني.. كلام الحكايات الذي سمعناه ممن سبقونا والذين بدورهم سمعوه ممن قبلهم لو تتبعناه أوجدنا آخره سرايا اسمه الإله.. وفائدته الوحيدة عندي أن أجد هبة أكتبها في بطاقة تحقيق الشخصية وأقلب بها عيشي من الكنيسة.. عدا ذلك لم نزل من الأديان سوى الحروب الطاحنة من بني البشر.. كل واحد يرى نفسه في الجنة ومن على غير منه في النار.. أفيقي يا عزيزتي.. لو لم ألتقطك من الشارع وأويك لما أنزلت عليك السماء منزلا تأوين إليه.. وهذا الجيمس بوند الذي تغافرين به، لم يمد إليك يد العون إلا ليجد مكانا يؤويه بدلا من اللف والدوران بلا أهل أو مأوى.

ت (آيات) نفسا عميقا لعله يطفئ ذلك الغضب المحموم الذي يسطر على حواسها فور التهكم على الشاب الوسيم، ثم قالت بازدياد:

استغفر الله.. لقد فقدت الأمل في عقلك أيتها العجوز الخرفة.. لكن لا بأس من تذكيرك بأن أول نقود حصلت عليها من الحيوان الذي اسمه ريمون اقتسمتها معك بالنصف وملأت لك ثلاثتك رغم أنني كنت أستعد لتغيير محل إقامتي وكنت أعتقد أنني لن أعود ها هنا مرة أخرى.

ت عليها (دميانة) بتحد:

ولأنك قدمت السبب وجبت الأحد يا عين أمك.. لو كنت رحلت بشكل غير لائق لكنت الآن تفرشين الرصيف وتلتحقين السماء.

ت (آيات) الرد بتحد مائل:

وأنت أيضا لو متت واكتشفت أن الله موجود دون أن تقدمي السبب، فسيتم إقاروك في الجحيم.

(دميانة) في عناد:

إن أموت إلا حين أقرر.. ولو وجدت الرب في انتظاري فسأحاسبه

- لو عندك مكان للمبيت غير المصطبلة الموجودة في المبنى لديني عليه حتى ولو في آخر الدنيا، غير ذلك سأكون مضطرا للمبيت ها هنا الليلة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.. نصفها على خير

قالها ثم غادر المكان ليغلق الباب خلفه، تاركًا خلفه (دميانة) مسرعة من تأثير لهجته وكلامه الواثق الذي استعمر مسامعها وتردد صدها في ذاتها، بينما كادت دقات قلب (آيات) أن تخترق ضلوعها وهي تنمنا في نفسها: أي نوع هذا من الرجال؟!

\*\*\*

على السرير الحقيق الذي يجمعهما، وتحت تلك البطانية القديمة التي تغطي نصفيهما الأسفل، هببت (دميانة) على صدرها وقد اتسعت عداوتها في دهشة شديدة غير مصدقة ما حكته لها (آيات)، وما زال صراخ الديوك يتردد بالخارج، قبل أن تقول (دميانة) بصوت يملأ نبرته الظهور:

- يا خرابي.. وكأنك تحكين فيلما.. أهذا الولد "الحليوة الفوار" الذي توجي هيئته الوسيمة أنه يأكل بقسماط مسقي في الشارع يطلع منه كل ذلك؟

تابعت (آيات) وكأنها لا تصدق ما تحكيه بلسانها:

- ماذا لو أخبرتك أن كل ما حكيت لك لا يساوي شيئا بجوار الحقيقة.. إنها أمور لا تحكي، ولكنها تروى بالعين، وشيئا بالأذن فقط.. هل تعتقدين أنه "مخاوي" للجن والعفاريت؟

اجابتها (دميانة) بصرامة غاضبة:

- اصمتي أيتها المافونة وكفاك تخريفا.. ما عفريت إلا بني آدم هل تصدقين هذا الهبل؟

رمقتها (آيات) بنظرة ساخرة، وأردفت:

- معك حق.. واحدة لا تؤمن بوجود الرب نفسه، فهل ستستبعد وجود العفاريت؟

سارات المطافئ والإسعاف والشرطة خارج الملهى الليلي الذي  
سبني خرب تتصاعد منه الأدخنة، فيما حمل رجال الإسعاف  
على نقالة ليضعوه بحرص وعناية داخل إحدى سياراتهم

الكان، تجلت آثار الحريق والحطام على جنباته في المدخل،  
أشهر رجال المعمل الجنائي في كل شبر بالمكان يفحصونه  
الضحايا، فيما وقف (نصحي) في منتصف المسرح وقد امتلأ  
الضحايا والكدمات، وتحول معظمه إلى اللون الأسود من رماد  
الحدث مع ضابط مباحث برتبة عقيد، ضخم الجثة، جاحظ  
التي بشرة تميل إلى البياض، وشعر رأس خفيف قصير، ويرتدي  
اللون، وبدت نيرة صوته غليظة حين سأل:

ما الذي حدث بالضبط يا...؟

نصحي.. نصحي حسن عبد المعبود يا سيدي

لطيم.. ماذا حدث يا نصحي؟

حماسية بشكلٍ مبالغ فيه أجاب (نصحي) على الفور:

اهم الإسلاميون الإرهابيون يا سيدي.. فجأة اقتحم المكان  
مجموعة من الرجال المسلحين، بعضهم يحمل أسلحة آلية،  
والبعض الآخر يحمل قتال مولوتوف، والبعض الثالث يحمل  
أسلحة بيضاء من السنج والسيوف، ليشتوا حرباً ضارية اندلعت  
جاء مع اشتعال التيزان والضرب والتكسير في كل أرجاء  
المكان، حتى إن الـ"بودي جارد" لم يكادوا يستوعبون الأمر حتى  
سقط منهم من سقط ما بين قتيل ومصاب.

الضابط كلمات (نصحي) وأدخلها في جهاز كشف الكذب الكامن  
الط، وهو يُس سجارة بين شففيه ثم أشعلها بقداحته ليأخذ منها  
سباً نفت دخانه وهو يتأمل المكان بنظرة فاحصة ثم قال:

- قيل أن يُحاسني.. سأسأله لماذا فعلت فينا كل ذلك؟  
تخلّيت عنا وتركتنا نتعارك ونطح بعضنا البعض  
وصف نفسه بأنه لا يرضى بالظلم.. (تلتهم عينها)  
سأقول له إنني كذبت وجوده من فرط تصديقي في رحمة  
احتجت لها ولم أجدها.

لمعت الدموع بالمثل في عيني (آيات) لتفر من على شففيها  
التي حاولت أن ترد بها حتى يشتت، فهيمت في خفوت:

- تصبحين على خير.

ثم انزلت بأكملها تحت الفراش، لتغمض عينيها وهي تُس  
يحلم جميل يأخذها إلى عالم أفضل، تسرق منه السعادة أو  
كاذبة.

\*\*\*



- لقد رأيت ما تقول بنفسى.

تقافز الذهول على وجه (نصحي) وهو يسأل في وجوم:

- أحقاً؟ كيف؟

النقط العقيد (يحيى الشاهد) نفساً جديداً من سيجارته وأجاب:

- في أفلام عربي كثيرة.

ثم مال نحو (نصحي) وضابقت حديقته وهو يضغط على حروفه بشكل يؤكد على شعوره بأن ثمة شيئاً خفياً ومريباً في الأمر:

- يبدو أن شهود العيان الذين حكوا عن شجار عنيف بين شاب وسيم مجهول والسيد ريمون ورجالهم كانوا سكارى صديقي.

توترت ملامح (نصحي) وازدرد ريقه حين قال:

- ها؟ ربما كانوا يقصدون أحد رجال الجماعة المسلحة الذين

قاطعته العقيد:

- منذ متى وأنت تعمل في هذا المكان؟

- أنا أعمل مع صاحبه قِبل حتى أن يؤسسه، فأنا ذراع له منذ زمن طويل ووالده قدس الله روحه هو الذي ربّاني.

- هل هناك أعداء للسيد ريمون؟

ارتبكت كلمات (نصحي) وهو يجيب:

- لقد تلقى مؤخراً تهديدات مجهولة بغلق الملهى والامتناع نشاطه ببيع الخمر، والأفسيكون تدمير المكان عن بكره هو الجزاء الرادع له ولا مثاله.

- هل أبلغ البوليس بذلك؟

كلا.. لقد ظن إنها مجرد تهديدات خرقاء أو مزحة من صديق سخيف، فقرر تجاهل الأمر برمته.

وهل سرق هؤلاء الإرهابيون شيئاً من المكان أم كان هدفهم الانتقام فحسب؟

لم أتبين الموقف حتى الآن يا سيدي.. لقد فقدت وعيى وما زلت أشعر بالدوار وأعتقد أن السيد ريمون هو الأجدر مني بمعرفة إذا ما كان هناك شيء تمت سرقة أم لا.

بحكم كونك الذراع اليمنى للسيد ريمون، هل كان نشاط المكان قاصراً فقط على استقبال الزبائن وإقامة الحفلات أم كانت هناك أنشطة أخرى؟

ماذا تقصد يا سيدي؟

كلامي واضح.. هل كان للمكان أنشطة أخرى غير المعلنة؟

إطلاقاً يا باشا، فعملنا كله في النور.

هل لك أن تصف لي أولئك الإرهابيين؟

لم أتبين ملامحهم يا سيدي بكل أسف، فقد كانوا ملتئمين

كيف تبين أنهم كانوا ملتئمين إذن؟

(نصحي) أن تبطلعه الأرض وقد نفذ مخزونه الاستراتيجي من (نصحي) إلا أن العقيد (يحيى) منحه ابتسامة ساخرة ووفر عليه التفتن في كذبة جديدة حين ربت على كتفه قائلاً:

يبدو أنك مرهق ومتوتر بشدة جراء ما عانيته الليلة يا سيد نصحي، سنلتقي مجدداً بعد أن نتال قسطاً من الراحة.

لم التفت نحو مساعدته وسأله:

هل انتهى رجال المعمل الجنائي من عملهم على أكمل وجه؟

أجابه مساعده بلهجة تفيض بالاحترام:

- نعم يا سيدي.

ألقى العقيد (يحيى) نظرة أخيرة على المكان ثم قال لمساعدته بلهجة مغزى وهو يوزع نظراته بينه وبين (نصحي):

- عظيم، فسيتوقف على تقريرهم الكثير من التفاصيل المهمة ستكشف كل شيء.

قالها ثم انصرف من المكان وخلفه باقي رجال الداخلية، ليعبر الزرقاوين والعينين الزرقاوين والبذلة الرمادية من ركن خفي ويسير بخطوات وثيقة نحو (نصحي) الذي شحب وجهه وحاكى وجه الموتى، لم يشعر بوجود الرجل إلا حين تكلم بصوت أجش أشبه بصوت البول بالصخر:

- كل ما حدث يمكن معالجته والتغلب عليه لو استمعت وسيدك إلى كلامي.

انقضى (نصحي) مع وجود الرجل المباغت وسأله في حدة:

- من أنت؟

\*\*\*

اقتحم الرجل ذو العينين الزرقاوين غرفة (ريمون) بالمستشفى بخفة ودون أن يشعر به أحد، ليقترّب بخطوات وثيقة من ذلك السرير الذي يرقد فوقه الأخير مغمض العينين، وما أن أصبح أمامه حتى أخذ يدها بعجاب شديد تسريحة الحذاء التي تقيض باطرافها على جسمه ليمس بأصابعه على خصلة شعره الطويلة التي تمثل ذيلها، ثم لمس نحو الجسد المسجي حتى تلامست أنفاسهما. عندها شعر (ريمون) بلهيب يلفح وجهه ففتح عينيه ببطء ليجد عينين زرقاوين تحمقان في وابسامة مرعبة يصوبها صاحبها نحوه في الظلام، فانقبضت رقبته كتنفيه كسلخافه وهو يقول بفزع وهول:

- ما هذا؟ من أنت؟! التجدد...

خسفة الرجل المريب على حنجرته فجأة لينشب فيها أصابعه بقوة وقسوة شديدة أجبرته على ابتلاع باقي حروفه ليلوذ بالصمت زائغ العينين مرتعش الأطراف فيما قال الرجل بصوت يشبه الشيطان:

أما أعلم عنك كل شيء، ومتعاطف مع ما حدث لك من ذلك الوسيم الذي أذل ناصيتك وحطم هيبتك، إلى الحد الذي جذب البوليس ليدس أنفه في عالمك ويتشم صفقاتك المشبوهة، وسرعان ما سيكتشف أمر الدعارة والمخدرات، والسلاح، وشبكة التجسس على أولاد الكبار، لينتهي الأمر بأعدائك في صباح يوم لن يخبروك بتاريخه، حين يوظفك مأمور السجن بصحبة قواته فجأة، قائلًا في غلظة: هيا لتنفيذ الحكم.

أنا (ريمون) في الاتساع بدهشة عارمة مع كل كلمة من كلماتك، ثم تحولت نظراته المندهشة إلى رعب لا حد له من مصير تجسد في مخيلته، وما أن انتهى ذو العينين الزرقاوين من كلماته التي عنق (ريمون) الذي شلت حركته وتجمد الهول على ملامحه يفوق على النطق، في حين تابع الرجل وهو يقرب وجهه منه

أنا أعرف أين ذهبت فتاتك بحقيبتك الثمينة التي تحوي الأسطوانات الممنجة (تضييق عيناه ويطل منها شر الدنيا كله وهو يريثف).. لكن ذلك الشاب الذي يرافقها لا توجد قوة في الأرض كلها قادرة على هزيمته.. إلا أنا.. فكيفك أن تعرف من الآن أن هدفاً واحداً، وهذا كل ما يهم.

\*\*\*

متأخر من الليل خلت فيه الشوارع من الهوام والدواب، اقترب العنبرين الزرقاوين من ذلك العقار الذي يسكنه الشاب الوسيم، حتى أمام بوابته فترة وجيزة أخذ فيها يتأمل الشارع والعقارات الكائنة فيه، انخفت فجأة وكان العدم قد ابتلعه، انتهب رياح باردة على الشارع، في فتح النوافذ وأبواب الشرفات، دون أن يعرف سكان الشارع الرياح التي هبت عليهم وأنعشتهم لم تكن إلا روحاً خفية تغلغل في

رغباتهم لهدف معلوم.

فجأة الجميع شعروا بشوق عارم، وحنين لا حد له نحو زوجاتهم، الشباب أو حتى الكهول..

الكل داعبه الهوى، وتملكت منه الرغبة، واشتعلت فيه الشهوة، الذكور وقد شعروا بقوة وعنفوان غير طبيعي يدب في أجسادهم، مغاضون ولا مفهوم، حتى نصب الأعصاب وجعلها كالحديد!

وفي غضون دقائق انطلقت آهات المتعة وصرخات التذذ في نداء للطبيعة، اخترق الجدران والنوافذ ليبلغ عنان السماء، ويصك الشباب الوسيم ويقلق نومته.

فرّ النعاس من عينيهِ اللتين فتَحهما بتوتر وقلق، ثم جلس على نصف جلسة يرهف السمع ليرتّب صدق ما يسمع..

تأكد أنها صرخات مشبوبة بالانتشاء والشيق، ولا علاقة لها بالخمار الاستغاثية..

وبعد أن تأكد، أخذت تلك الصرخات التي تخترق أذنيه تتحول في صور وخيالات في خياله وعقله الباطن بشكل متكرر، مزعج، سكينته وثباته، لتزداد ضرايب قلبه ويشعر بشيء خامل، نائم، اسما في أعماقه!

هز رأسه بقوة في محاولة يائسة لطرد تلك الخيالات واستعادة براه وعفته، والإسماك بلجام نفسه الحيوانية في أولى ليالي انطلاقتها لكن جنوى، وقد أيقن رغم فقدانه لذاكرته، أن ما يشعر به الآن لم يمر طيلة حياته السابقة..

استغرقت به مشاعر جديدة ورغبات رُكبت في جسده الصلصالي، بافتقاد شيء لا يدري كنهه، ثم تحول الافتقاد إلى عطش من نوع خاص انتشر في جسده كالنار في الهشيم، دون أن يعرف كيف السبيل الارتواء..

ملازماً مصطبته وأخذ يجوب السطح ذهاباً ومجيئاً ك(هاجر) فيها بين الصفا والمروة في لحظات التلطم بحثاً عن شربة ماء (هنا) في وادٍ غير ذي زرع، لكن عطش صاحبنا ما كانت لترويه (نوم) بأكملها!

يا حمار! إلى عشة الدجاج وأرهف السمع لباقي الأسطح وهو يتساءل: لماذا خمد صياح الديوك؟!

\*\*\*

ان صارت قاب قوسين أو أدنى منه، حتى وضعت راحتها اليمنى  
تحتها ليلتفت لها بسرعة، ويتأمل عينيها الساحرتين وقد لمعت  
وهي تسأله:

الا تتذكر إلى أي دين كنت تنتمي؟

دين؟

الا تؤمن بوجود الله؟

بل أؤمن.

وكيف لا تعرف معنى الدين إذن؟ لعلني كنت أعرف قبل أن  
أنسى.

إلى السماء وأردف:

كل ما أنكره الآن أنني مؤمن بوجود الرب.. كلما حدثته شعرت  
به يهبط من عليائه ويحل في قلبي ليجيبني بلغة التخاطر حيث  
لا حاجة للكلمات.. بل مشاعر ومعان جليلة يتلقاها الفؤاد فيدرك  
المعزى كاملاً بلا لبس.. دون الحاجة لمفردات قاصرة قد لا  
تكفي لإيصال المراد.

كلماته نحو حالة روحانية خلقت معها في السماء، لكن وسامته  
الذي لم تشتم مثله طوال أيام عمرها جذبها كمغناطيس مطلق  
نحو حضنه الذي تمتنت لو اتخذته بيتاً، لتقترب منه أكثر وتقول:

ألم تشعر بالبرد وأنت مغطى بخرقه بالية؟

بها بنبرة يملؤها الإيمان والحكمة، لتتف حائراً أمام انجذابها:

ربك يعطي البرد على قدر الغطاء.

ان تبتس ببنت شفة، صك مسامعها صوت أزيز الباب خلفها، لتلتفت  
والشاب نحو الصوت ويجدا (دميانة) بملامحها الناعسة تتجه إلى

مع بداية شروق الشمس وإطلاق نورها الخافت، استيقظ الشاب  
بعد ليلة ليلاء شعر فيها أنه يكتشف خبايا جسده لأول مرة، وسار  
جدار السطح الذي تفصله عنه خطوات بسيطة، حتى وضع راحتيه  
عليه وهو يولي وجهه شطر السماء متأملاً كيف يهدي الصباح  
سناء لأهل الأرض مجاًناً، وارتبست على ملامح وجهه النقي  
وهو يقول بصوت خفيض بين الجهر والخفوت:

- اللهم في تدبيرك ما يُعني عن الحيل.. وفي كرمك ما هو  
الأمل.. وفي عفوك ما يحو الزلل.. اللهم إنا نرجو عفوك  
ونعوذ بك من سخطك.. اسئلك بحفظك.. وأسبغ علينا كرمك

وفي غمار دعائه، لم يشعر بـ (آيات) التي غادرت حجرتها الحقيمة  
أطراف أصابعها، لتسير نحوه وهي تملأ رئتيها بذلك النسيم العليل  
بعطرها النفاذ، مغمضة العينين بنشوى واستمتاع، في حين تتابع  
دعائه بتأثر بالغ وهي تقترب منه كالمسحورة دون أن ترى ذلك الملمح  
الذي هيمن على قسماته وهو يواصل مناجاته للرب بقلب شفاف:

- أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمَجَّدَ اسْمُكَ فِي كُلِّ الْأَرْضِ.. حَيْثُ  
جَلَّالِكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ.. الْمَجْدُ لَكَ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ  
السَّلَامُ، وَيَا لِنَاسِ الْمَسْرَةِ\*

\* جزء من ترنيمة مسيحية تدعى "المجدلة الكبرى"، وتقال أثناء القداس الإلهي  
حسب الطقس اللاتيني بعد طلب العفزان (كريايسون) وقيل الصلاة الإلهية  
ابتهاجاً وفرحاً بالرب الإله لأن رحمته عظيمة، وتم تأليف هذا النشيد باللغة الرومانية  
في الكنيسة الشرقية منذ القرون الأولى للمسيحية ليُرغم في صلاة الصياح، وأما  
في قداس ليلة الميلاد في القرن الثاني، ثم تم توسيع نطاق تلاوته لتشمل قداس  
أخرى مثل قداس عيد الثالوث الأقدس، كما تُرغم في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في  
القداس الاحتفالية أو قداس الأعياد وأيام الأحاد العادية، لكنها لا تُرغم في قداس  
التنكرات أو قداس الموتى.



الحمام المنفصل عن الغرفة، فبادرتها (آيات) بابتسامة قائلا بتودد:

- صباح الخير يا دميانة.

ردت عليها (دميانة) بوجه كئيب:

- صباح النور، هيا، شغلي في شراء وتجهيز الفطار.

باغت الرد (آيات) التي ارتسمت الصدمة على وجهها، لتتظر للشاب  
حرج ثم اقتربت من (دميانة) قائلة بخفوت:

- ما معي لا يكفي لشراء خبز حاف بعد كل ما حدث.. أنا  
الآن من معك وسوف..

قاطعته (دميانة) بغضب:

- انظري يا ابنة الناس، ما أوله شرط آخره نور.. هناك اتفاق  
بيننا أن تعيشي معي وحق نومك تدفعينه أكل وشرب ولباس  
للمكان.. وإذا كنت قد سمحت لك بالعودة أنتِ والحليوة  
معك، فلا يعني ذلك أنني سأصرف عليكما.

تمنت (آيات) لو لم تأت لهذا الوجود وهي تقول بصوت متهدج:

- لكن أنا..

أعفاها الشاب من وصلة الذل وهو يقاطعها ناظرًا لـ (دميانة) بثبات:

- عندك حق يا دميانة.. هيا بنا ننزل يا آيات لإحضار الفطار.

سألته (آيات) وهي تلتفت نحوه بدهشة:

- هل معك نقود؟

أجابها بهزة رأس بطيئة تغيد النفي، فسألته بدهشة أكبر:

- وكيف سنشتري الفطار إذن؟

تطلع إلى عينيها بابتسامة جعلتها تشكر الظروف المؤلمة التي

بسمه بهذا الجمال، ثم قال بيقظة:

المطر يغادر عشه كل يوم خماصًا ومقصده على من خلقه..  
ومر آخر اليوم شعبان دون أن يملك نقودًا.

(دميانة) بتوجس، قبل أن يقترب منها ببطء وهي تتأمل ملامحه  
وتسحرته نظراته وطريقة كلامه الواثقة من جديد قبل أن يقول  
لا رب فيها:

ما الذي تريدين تناوله في الفطار؟

\*\*\*

خطوات (آيات) وهي تسير بجوار الشاب وعلى وجهها الإرهاق،  
بفيرة منهكة:

ضمت ساعة على مسيرنا دون أن نفعل شيئًا، والجميع رفض  
إعطائنا إفطارًا على الحساب.. ماذا تنوي أن تفعل؟

وهو يواصل سيره دون أن يفتّر حماسه:

إياك أن تياسي أو يفث ما يحدث في عضدك.. غالبًا آخر  
مفتاح في سلسلة مفاتيحك يكون هو المناسب لفتح الباب.

سيرهما حتى مرًا إلى جوار عربة فول، التوت عندها قدم (آيات)  
منها فسقطت وهي تتأوه قبل أن تمسكها يد الشاب بأعصاب من  
وعائتها على الوقوف من جديد..

إلى عينيها وقالت بضغف ووهن:

صدقتي لن نصل لشيء.. نحن في زمن لا ثمن فيه لابن آدم  
إلا بما في جيبه من نقود، ولن يصنع موتنا من الجوع أي فارق  
مع من حولنا.. لقد ابتلعت المجاعات آلافًا من البشر دون  
أن يشعر برحيلهم أحد، وكم من أناس عاشوا مننين طولًا في  
انتظار الرزق وماتوا قبل أن يأتي.

أجابها بتحدٍّ وإصرار:

عائلة:

منذ متى تلقي الحداة بالكثاكتيت يا عين أمك؟.. هيا أنجزني فأنا هانئة.

نحو الشاب مجدداً وواصلت جلده بكلماتها المتهكمة:

في إحدى المرات، مشيت في جنازة، كانت الخشبة فيها في خفية الريشة.. وأخذت الناس تهال للميت الذي يجري نحو قبره ومستعجل على الجنة.. وبعدما وصلنا القبر اكتشفنا أن الخشبة كانت فارغة، ولم نلق من الصدمة غير على صوت سيارة الإسعاف التي جاءت تحصلنا وفيها الجنة بعد أن تم استبدال الصندوق بأخر فارغ، فهل نفس الناس على أن الميت التقى كان يعرف طريقه إلى قبره.. كل المأفونين بهم يفكرون بنفس الطريقة ولا أمل في شغائكم.

سوت بائع الفول من خلفها:

الطلب يا أمي.

نحو صاحب العربة وأخذت منه ذلك الكيس البلاستيكي الذي به طاب، وما أن استدارت للشباب حتى اقترب منها قائلاً بنقطة:

ثرى هل اشتريت الفول حتى تثبتني أنني كنت مخطئاً في الإيمان بعقيدة لا تؤمنين بها؟ أم أن تقني في عطف الخالق ورزقه لنا مهما كانت الظروف هي التي أرسلت الرزق على يدك لتثبتني بنفسك عكس ما تؤمنين به؟

فيها كلماتها وحاصرت عقلها لتسرح فيها رغماً عنها، وإن جاهدت يدور على ملامحها التأثر، في اللحظة التي انحنى فيها الشاب نحو الأرض ليأخذ حفنة ضخمة من التراب بيديه، وما أن نهض حتى بدأ يمسح يديه من راحتيه ببطء، ليتحول أثناء انسياحه إلى ذهب!!

عينا (دميانة) بدهشة عارمة، وألقت بكيس الفول والعيش والتقطعت

- ما أعرفه أن الرزق يُطارِد ابن آدم أكثر من بحث ابن آدم لو كانوا آمنوا بقلبٍ واثق بلا ذرة شك لتحول التراب في أيديهم إلى ذهب.

“وهل أنت على هذه الدرجة من الإيمان؟”

تردد صوت (دميانة) خلفه ليلتفت نحوها هو و(آيات) حيث أم جميعهم واقفين أمام عربة الفول، دون أن تكف المرأة العجوز عن التمسك بعينيها بشماتة، ثم انحنيت على الأرض وملأت راحتيها بحفنة التراب، ونهضت وهي تمد يديها نحوه قائلة في تحد:

- فلترني كيف تحول التراب إلى ذهب أيها المؤمن بدلا من أن تخلفكما منذ ساعة على لحم بطني.

تأمل عينيها بهدوء دون أن ينبس ببنت شفة قبل أن تلقي التراب وتتبسم ساخرة وهي تردف بهتكم:

- من يشاهدك وأنت تتحدث بنقطة وحزم تسحره كلماتك وأصابك أي غباء هذا الذي أصاب عقلي حين شعرت أنك ستفعلها وما الإفتار رغم تقني في أن جيبك خاوي الوفاض.. أخذتني بك خلفكما لأشاهد ماذا ستفعل وأنا أشعر أنك ستصنع معجزة، بك مثل باقي الموكوسين الذين يكيفون كل حاجة في هذا العالم البائس على مفاصل الدين حتى يهربوا من فشلهم.

ثم التفتت (دميانة) لبائع الفول وأخرجت من عيها اثنين جنين معدلين ووضعتهم على العربة وهي تقول في عجالة:

- بجنين فول وزيت حار، وبخمس قرش عيش، وبخمس قرش بادنجان.

ومن جانبها، أخذ بائع الفول الجنينين ودسهما في جيب المريلة الذي يرتديها وهو يقول:

- فلنجعل الحساب علي هذه المرة يا أماء!

لا تكتزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ،  
وحيث ينقب السارقون ويسرقون\* (انحنى ليحمل دميانه ثم  
تابع) بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا  
صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون.

ثم سار حاملاً (دميانه) ليشق طريقه وسط الزحام، وقد تجمد الكثير  
الناس في أماكنهم، فيما امتدت إلى جسده بعض الأيدي لتتمسح فيه  
أن ظهرت منه كرامة لن يحوها النسيان أبد الدهر في نفوس كل  
بائسها، أما (آيات) فقد ارتجفت أوصالها حين التحم هذا المشهد  
الأسطوري الذي مرّت به معه في المقابر، وفاقت جرعة الإنهار  
ملأت نفسها حدود استيعاب العقل البشري والمشاعر والأحاسيس  
الأفعال الإنسانية، لتتصب عيناها على كيس الفول الذي تمزق  
على الأرض دون أن تحرك ساكناً، وقد غرقت روحها في بحر  
بغشاء موج من التساولات.

\*\*\*

(آيات) مفتاح الغرفة في الباب ببطء وتلجلج، لتتظر بعينين  
مملوءتين إلى الشاب الذي يحمل (دميانه) وقد صعد خلفه أفواج من البشر  
والخلفه كالمجاذيب..

عتبة الباب، انتظر الشاب أن تُفسح له (آيات) المجال ليدخل  
غرفة حاملاً الثعلبة العجوز فاقدة الوعي، ليسجي جثمانها على السرير  
ووقف كمن يضع طفلاً رضيعاً، ثم التفت خلفه حيث ما زالت  
تتأمله بعين الرهبة والرجفة، لتسأله بعينين مملوءتين بالإنهار دون  
تكرار بمئات الأشخاص الذين وقفوا خارج الغرفة وملأوا السطح  
بمئات السلم المؤدي إليه، كمن سمعوا أن (مارلين مونرو) تستحم على  
السطح:  
من أنت؟

طلع إلى عينيها وقال بنبرة صوّب رخيمة ساحرة لا ينافس سحرها سوى  
عينيّه الذهبيتين:  
أنا الذي اختارني الرب لأكون أنا، مثلما اختارك لتكوني أنت  
لو قلت لي إنك نبي جديد لما ساورني الشك.. ولو أنهموك

طرف جلبابها بسرعة لتضعه تحت راحتي الشاب، في اللحظة التي  
فيها زبائن عربة الفول لما يحدث ليتوقفوا عن الأكل وينقض  
على (دميانه) يتخطفون منها الذهب..

ومن جانبهم، لاحظ المارة ورواد المحلات وأصحابها ما يحدث،  
الجميع ما في أياديهم لهياً وراء ذلك الكنز المفاجئ الذي وُلد من العدم  
ساعة حظ حتمًا أن تتكرر في العمر مرة أخرى، ليمرق مجاذيب  
بعبون متسعة جاحظة، وأفواه مفتوحة، وأقدام تسوقها يوصلتها نحو  
بجوار (آيات) التي تسمرّت في مكانها غير مصدقة نفسها دون أن  
الاقترب، لترى في طرف ثوان معدودة تكسداً بشرياً غير عادي اختفى  
الشاب و(دميانه) تماماً، في حين بدا باقي الشارع خاوياً على عروشها

وداخل التكسد والزحام الرهيب، سقطت (دميانه) أرضاً لتتكاكب  
الأيدي وتدهسها الأرجل بلا رحمة، وأخذ رأسها يتخبط في الأرض  
بقسوة شديدة، وشعرت برجرجة مخها حتى بدا دوار عنيف يبتلع  
وقد تمزق جلبابها، وتعفر وجهها بالتراب، وامتلا جسدها بالكم  
والسحجات لتتمنى في تلك اللحظة أن تملك القدرة على أن تصدر  
الجميع: خذوا الذهب وكل ما أملك واتركوني أعيش، لكن الألم والدم  
جمداً الكلمات والصراخ على شفيتها دون أن يبالى أحد بنظرات  
التي ارتسمت على ملامحها قبل أن تفقد الوعي، بينما أخذت الأرض  
تتخطف الذهب في فوضى ووحشية، والشاب يتابع المشهد عن قرب  
أن يتدخل، حتى عاد الذهب إلى سيرته الأولى لينساب مرة أخرى  
الأيدي في صورة تراب، ويعود الجميع بخفي خنين.

بعضهم اتسعت عيناها برهبة، والبعض الآخر شوق في ذعر، والبعض  
الثالث تجمد في مكانه كتمثال إغريقي لأحد التعمص الذين أصابتهم  
رأس ميديوسا الملعونة، وسرت في المكان همهمة، وعلا صوت  
في تلك اللحظات ظهر الرجل العجوز ذو الملامح السمراء الذي  
الشاب في المولد، ليمرق بين الأكتاف المتزاحمة ويمد بصره  
المشهد عن قرب، في حين تطلع الشاب إلى الوجوه المحيطة به  
جحطت منها العيون وقال بصرامة:

- بالسحر لما استطعت أن أصف كلامهم بالأباطيل.

تأمل عينيها وتجمد حولهما الزمان والمكان لثوان، قيل أن تنقش سيدة منتقبة لا يظهر منها شيء حتى عينيها، وقالت بلهفة غريفة مركبة إلى جواره في لحظة استسلامه للموت:

- حتى ولو ساحرًا، نحن في حاجة لقدراتك بعد أن قشلت دموع الأولياء وجهود الأطباء في رفع الضر عنا (انكبت على ركبتيها قائلة بتضرع) أقبل يدك ساعدني!

سحب يده من أمام فمها كمن يخشى عضه أسد، لتزجج النقاب على وجهها وتضعق ناظره بوجهها المشوه ذي الجلد المتهترئ المبرص ونصف رأسها الذي اختفى منه الشعر تمامًا وظهرت أسفله أرواح جمجمة محروقة ببشاعة، وذابت إحدى عينيها والتحم الجفان بفعل نار أتت على أنوثتها وإنسانيتها وأصدر فرمانًا بالحبس خلف نقاب بقي لها من العمر، في صفقة عادلة ستحميها من السنة الناس التي ترحم، ويحميهم من ملامحها المثيرة للخوف والرهبة.

صرت الهمهمة فور كشف السيدة للنقاب عن وجهها، لتواصل تضرع وهي تبكي وتتسال دموعها من عين واحدة:

- لقد دمّرتني طليقي وقضى على حياتي ومستقبلي، فلنأمنس وندم بيدك المباركة وتعيدني من جديد لعالم الأحياء، فما أقسى تموت وأنت حي.

زاحمها حول الشاب رجل أرعيتاني بسيط الهيئة، ذو ذقن طويلة قائلا:

- وأنا فصلتني الشركة التي أعمل بها أنا وزملائي لتقليل ميزاننا، وألقت بهمाम عملنا على باقي الموجودين فيها ولا مصدر لنا لي أنا وأطفالي الأربعة.

ثم انضمت لهما سيدة عجوز تقدمت نحو الشاب وقالت في حرقة:

- منذ أيام توفي زوجي بسكتة قلبية بعد أن رفضوا انضمامي للنبابة رغم تخرجه بتقدير جيد جدا واجتيازه اختبارات القبول والده كان عامل نظافة.. هذا أمر يستحق الطرد من جنتهم؟ كان من المفروض تكريم الأب الذي ربى ابنه أفضل تربية حتى

تخرّج بتفوق على أقرانه من أبناء الحسب والنسب؟

سيدة طفلة جميلة سمراء ذات وجه خالطه التراب وملابس رثة حافيتين:

أريد دمية وساندوتش هامبرجر من ذلك المحل الذي يوزع لعب هدية مع وجبات الأطفال.

الشاب نحو الطفلة ومسح بيده على شعرها الغجري في اللحظة التي سمعته فيها ابتسامة عذبة بها ما تبقى من براعتها، وقيل أن يقترب خامس نهض الشاب واستوقف الجميع بنبرة صارمة:

ما فعلت إلا ما شعرت أنني قادر على فعله في لحظة إيمان، وهو نفس الإيمان الذي يخبرني الآن أنني غير قادر على نفْعكم بقدر ما تستطيعون نفْع أنفسكم في التعامل مع ابتلاءاتكم.. (وزع نظراته على الجميع وارتفع صوته بحسم مستطردًا) من كان يعتقد أنني ساحرٌ فلماذا لا يغير السحرة حياتهم للأفضل؟ ومن يرى أنني إنسان مبارك فانا أكثركم بؤسًا.. عودوا إلى بارئكم، فهو وحده من يملك أن يجيب كل منكم مسأَلته إذا صرتم على ناموس الكون المُحكّم.

الهمهمة وتعلت الأصوات بنبرات التوسل والتذلل، فيما تحوّل الصبح ومن عليه فجأة إلى ما يُشبه عالم الكارتون والجرافيك في عيني الوسيم الذي رأى صحابات من الأحلام والأمانى تُخلق فوق رؤوسها، لكن جميعها مرسوم خلف قضبان ذات أقفال حديدية صدئة تناسلهم وضعف إيمانهم، قيل أن يتزاحم الجمع حول الشاب وتمتد الأيدي للتمسح به، فانقضض صائحًا فيهم بنبرة أمرة دوت كالرعد:

كفّس!

ساعت أوصال الجميع مع صيحته الهادرة التي كادت تخلع قلوبهم، ساروا في أماكنهم وكان على رؤوسهم الطير، وإن لم تكف أعينهم عن مأسرته بالتوسل والتذلل وقد أبت نظراتهم تصديق فكرة أنه لا يملك العاص، فأحس أن الهواء قد خلا من الأكسجين في تلك البقعة البائسة



ودون أن يشعر، أخذته قدماه بعيداً عن المكان مغادراً السطح دون  
يجرؤ أحد على اعتراضه.. لا يدري إلى أين يتجه؛ لكنه على  
عزم على الرحيل غير عابئ بهرولة (أيات) خلفه، ولا بصوتها  
المتهدج حين سألته إلى أين سيذهب.

\*\*\*

في أعالي السماء، وجدت أنبويًا أسطوانيا انجذبت إليه فجأة، لتغرق في  
بعضها فوق بعض قبل أن تندفع بسرعة هائلة إلى نهايته التي  
سماها بصيص ضوء أخذ يكبر ويتسع كلما اقتربت منه حتى عبرت  
من الجانب الآخر من الوجود، لتجد نفسها أمام أنوار صافية  
لم تجد في جمالها ولا بهاء ألوانها مثيلاً في الأرض على مدار  
الذي بلغت أرضه.

قوية، شديدة، فائقة السطوع، لكنها رغم ذلك لا تؤذي العين أو  
وفي الخلفية موسيقى خلابة تتغلغل في الروح وتجعلها في حالة

دميانة الأضواء، لتجد بعدها أرضاً مترامية الأطراف من الخضرة  
والأشجار، تطلوها بعض المرتفعات التي تنهمر منها شلالات  
السوا بالوان مختلفة لا مثيل لها على الأرض، وحولها جبال منقوشة  
رائع عبقري حسان، بينما تنتشر الملائكة في كل جانب لترفرف  
خفاقة، فيما أخذ بعضهم يلهو ويلعب مع بعض الأطفال  
الذين ارتدوا ملابس بيضاء وانبثق النور من وجوههم كقدسين  
الهالات النورانية..

أن تطير فارقت عن الأرض بسهولة ووجدت نفسها تسبح في  
كما تريد بمجرد التفكير، لتخلق عالياً وتُجر أكثر في عباب هذا  
النوراني الجميل، ومن بعيد لمحت..

إنه هو..

نفس زيه الأبيض الذي رآته به في كل الصور..

أفد أرسل المُعلِّم الأكبر صغار المُعلِّمين للشرح والتفسير، لكن بعض التلاميذ انصرفوا عن العلم وحاربوا مُعلِّمهم المرسلين.

حين أراد المُعلِّم الأكبر أن يخبر التلاميذ بوجوده.. أرسل لهم كلامًا مع مُعلِّمين يشبهونهم في الخُلقة والتكوين حتى يؤكدوا على بعض الدروس المثقَّلة بقدراته، ويوم لقائه المعلوم.. لكن ماذا عن التلاميذ الجدد الذين لم يشاهدوه ولم يلتقوا بمندوبيه من المُعلِّمين الذين أرسلهم، ليصبح الأمر بمثابة حكايات قديمة حتَّى ما طرأ عليها التعديل والتغيير عبر آلاف السنين شأن كل حكاية يتناقلها البشر من مكان لمكان، ومن عصر لعصر؟.. كيف لنا أن نؤمن بكلام سمعناه من آبائنا وأجدادنا عن مُعلِّمين لم نرهم، ولم يروه من حكي عنهم، انتدبهم مُعلِّم هم أنفسهم لم يشاهدوه؟

ولماذا لم تفكري في الكلام الذي أرسله المُعلِّم؟ لعل فيه الخلاص.  
أفد كان كلامه نفسه مصدرًا للشك.

كيف؟

كلام المُعلِّم الحقيقي، لا بد وأن يكون مفهومًا لكل التلاميذ.. ليس به طلاس ولا غموض، ولا يتوقف الابتعاد به والنجاح فيه على نسبة ذكاء بعضهم، لأن الأغبياء ومحدودي الفهم لم يخلقوا يومًا عقولهم.. كان من اللائق به أن يُوحَّد أبناء المدرسة، لا أن يتسبب في صراعات طاحنة بين تلاميذ الفصول المختلفة.  
نقنه بين إصبعيه الإبهام والسبابة ليفرِّقها ببطء وهذوء وقد عقد يديه مفكِّرًا في كلماتها، ثم استدار عائداً إلى كرسيه بخطوات متعاقلة في تطلع إلى منكبَيه العريضين، وما أن وصل لكرسيه حتَّى التفت إليها وجلس من جديد قائلاً في تعاطف:

يبدو أنك مررت بتجربة مؤلمة.

القط العصا التي يهش بها على غنمه من جانبها وضرب بها على رأس قائلاً:

ها هو ذا خط الزمن أمامك، احكي ما شئت، كُلي أذان مصغية!

نفس الوشاح الذي يغطي نصف رأسه الخلفي، ويلتف حول ويظهر من تحته نصف رأسه الأمامي كاشفًا عن شعره البني الناعم الطويل المفروق من المنتصف.. لحيتة الناعمة الخفيفة.. والبيضاء.. عينيهِ الملونتين العميقتين، اللتين تبدو كل منهما ككوكب يسر الناظرين..

يجلس على كرسي العرش وحوله مجموعة من الخراف تركض هنا وهناك تلعب مع الأسود في سلام استثنائي يخالف ناموس الدنيا..

”كيف حالك يا دميانة؟“

لم تغادر الكلمات شفَّيته، ورغم ذلك اخترقت مسامعها، وتغلغل في نفسها، لتجيبه بدهشة وانبهار:

- هل.. هل أنت...؟

ابتسم وهو يجيب برقة وصوت عذب فاق جماله تلك الموسيقى العذبة التي تتردد في أصداء هذا العالم:

- نعم، هو أنا.. لقد كنت أنتظر منذ زمن.

بدأت تستجمع قواها وتستعيد منطقها الذي كَوَّنته على مدار سنين طويلة تحسُّبًا لمجيء هذا اليوم وقالت:

- وأنا كنت أنتظر تلك اللحظة التي أختبر فيها إذا كانت مقابلة أم لا.

قام من جلسته واقترب منها بخطوات هادئة لا تخلو من الشموخ والعظمة دون أن يتخلَّى عن ابتسامته الحانية وهو يتأملها، ثم سألها حين أسس أمامها وجهاً لوجه:

- المقابلة نفسها كانت اختبارًا.. فهل سمعتِ عن تلميذ والمُعلِّم إن كان هناك اختبار أم لا؟

- وهل هناك تلميذ يُوضع في لجنة اختبار دون أن يقابل مُعلِّمه ويأخذ فرصته في الفهم والمعرفة على ما سيتم اختياره فيه؟

ومع ضربة العصا تحوّلت الأرض أمامها إلى ما يُشبه شاشة  
هولجرامية تعرض مشاهد رباعية الأبعاد لكل العصور، فتأملت  
بدهشة عارمة سرعان ما تحوّلت إلى دموع حزينة يملؤها الألم  
وضعت يدها على نقطة محددة اختارتها دونًا عن باقي الأزمان،  
من عندها الحكى.

\* \* \*

مدينة الإسكندرية، عام 1942 م  
انحدرت الدموع الساخنة على وجنتي تلك الطفلة السمراء الجميلة  
الضفيريّتين، وهي تشهد لحظة نزول ذلك الصندوق الخشبي الذي  
جثمان أمها إلى مثواه الأخير، قيل أن يُسَلَّى القس صلاته إلى  
لمباركة روحها التي صعدت إلى الملوك السماوي، طالبًا من الله  
والقديسين أن يشفعوا لها أمام عرش النعمة، ثم أخذ يُذَكِّر  
بالاستعداد لذلك اليوم الذي لا مفر منه، وفي غمرة أحزانها ودموعها  
ألهمت خديها، شعرت بكف رقيق يتسلل الأجساد المحيطة بها  
على كفها في حنان ورفق. توقفت عن البكاء وهي تلتفت نحو  
هذا الكف، فإذا به (موريس)، ذلك الطفل اليهودي الجميل، ذو  
البشرة، ذو الشعر الأسود الفاحم فائق النعومة، والعينين الواسعتين  
وينتمي مع أسرته التي تحضر الدفعة لطائفة (القرائين) \*

يا جرجس.. دميانة ابنتك مثل ابني موريس تمامًا، ولا ضير أن  
ليليان زوجتي بتريتها في أوقات عملك“

(ركي موردخاي) ذلك اليهودي الرفيع، ذو الوجه الأصفر الذي تبرز  
سلمات الوجنتين، وتطل منه عيناان ضيقتان مختبئتان خلف نظارة  
معلقة بسلسلة تتكلى خلف قفاه، ويعلوه شعْر خفيف منحول في  
شعره، لتخرج كلماته بصوتٍ يشعر من يسمعا أنها خرجت من أنفه  
لسانه، في صالة منزله بحارة اليهود في (بحري)، موجهاً حديثه  
إلى صديقه البدين الأضلع (جرجس)، الذي امتد كرسه أمامه كسيدة  
الملك في 4 ثوانٍ، لتؤمّن (ليليان) زوجة الأول على كلامه قائلة:

يا إلهي لقد وقع هوى ابنتك الجميلة في قلبي منذ أول وهلة رأيته  
.. دعها معي يا جرجس ولا تخف، فلقد حرمت من نعمة الإنجاب  
لك العملية التي قمت بها وكم كنت أتمنى أن تكون لي ابنة.

\* كان يهود مصر يتكونون من طائفتين رئيسيتين، "الريانيين" و"القرائين"، أما  
"الريانيين" كانت تمثل الجانب الأكبر في مصر والعالم، وكان يطلق عليهم أحياناً  
"التموديين"، ويؤمن أتباع هذه الطائفة بكتب العهد القديم الملقبة بال(تاناخ) و  
ن كتب ال (توراة) وهي أسفار موسى الخمسة ومنهم سفر التكوين، وال (تلميد)  
يعني الأنبياء، و(كتوفيم) ويضم كتابات مثل المزامير، سفر الأمثال، وكتب  
الأنبياء، ويبلغ عدد كتب التاناخ 39 كتاباً مقدّسة تمت كتابتها باللغة العبرية  
القرنين الثالث عشر والثاني قبل الميلاد، بخلاف إيمانهم بالتلمود الذي يحتوي  
63 سفرًا، وينقسم لقسمين: (المشناه) و(الجمارا)، ويحتوي على شروح التوراة  
عن الدين اليهودي والتاريخ الديني والقوانين التي كتبها حاخامات اليهود.  
أما طائفة القرائين، فهي تيار في اليهودية يطلق عليه أيضاً "القرالوت"،  
المنتمين لها في مصر كانوا من الطبقة البسيطة، وكانوا مندمجين مع المجتمع  
سواء المسلمون أو المسيحيون ولا يختلفون عنهم سوى في الطقوس الدينية  
وكان أولادهم في المدارس المصرية العادية، وكانت لهم صحف ناطقة باسمهم  
جورنال "الكليم" الذي كان يناقش المواضيع المصرية والوطنية، ويختلف القرائين  
الريانيين في أنهم يؤمنون بالخمسة أسفار الأولى في العهد القديم فقط، ولا يؤمنون  
بالتلمود ويعتبرونه كلام بشر.

اشتهر من سكان (القطاريين) و(بحري) المترابطين اجتماعيًا برباط  
الأمم من رباط الأخوة، كان (زكي) و(جرجس) صديقين حميمين،  
في الكثير من الصفات والتفكير إلا في خانة الديانة، التي كان  
اسمها في بطاقة (زكي): يهودي، بينما كان (جرجس) مسيحيًا  
مسيحيًا.

مدرسة صغيرة بالمنزل، تطلعت الصغيرة (دميانة) ذات السنوات  
إلى مكتبة بها العديد من الكتب ذات الأحجام والمقاسات  
مختلفة، قبل أن تلتفت نحو (موريس) ذي الثلاثة عشر ربيعًا وتسأله

ألا يوجد في غرفتك سوى الكتب فقط؟ أين الألعاب التي تلعب  
بها؟

وأجابها بطريقة بدت أكبر من سنه بكثير:

تلك الكتب هي اللعبة التي يروق لي كثيرًا أن أقضي بها أغلب  
وقتي، فيها أجول كل أنحاء العالم وأنتقل عبر الزمن وأنا على  
سريري بين جدران غرفتي.

للكتب مرة أخرى بدهشة ثم نظرت إليه وسألته:

كيف؟

أراحه بطريقة مسرحية وأشار لمكتبته وهو يجيب بغموض:

هذا سؤال لن تفهمي إجابته أبدًا إلا إذا جربت اللعبة بنفسك، فمن  
يقراً يلخص كل متع الكون في متعة واحدة.

طلعت إلى ملامحه بإعجاب وقبل أن تنبس ببنت شفة، أطل فجأة شبح  
العالمية الثانية الذي خيم على الأجواء في الإسكندرية وشقي  
وبلدان العالم في ذلك الحين، لينطلق صفير التحذير من غارة جوية  
بها الطائرات الإيطالية التابعة لقوات المحور، في محاولة لضرب  
أهداف تابعة لقيادة الأسطول الملكي البريطاني المؤازر لقوات الحلفاء،  
ثم نقله من مالطا إلى الإسكندرية منذ سنوات بناء على معاهدة 1936،  
أخذ أحدهم يردد بصوتٍ مشير للتوتر:

كان (زكي) محاسبًا بفندق (سان إستيفانو) الذي مؤلت بناءه  
(موصيري) اليهودية، بينما كانت زوجته (ليليان) موظفة بأحد  
التابعة لعائلة (قطاوي) اليهودية أيضًا\*، وجمعت الصداقة بين  
وأ أسرة المحامي (جرجس عادل كيرلوس) أشهر من لعب على الماء  
في تاريخ الإسكندرية بأكملها، ولم يذق طعم الخسارة في لعبة الماء  
قط.

\* استفاد اليهود كثيرًا من معيشتهم في مصر منذ عهد الوالي العثماني (علي  
علي) وحتى الملك (فاروق)، واستغلوا مهارتهم في كل مجالات إدارة الأموال  
تكتلات اقتصادية وضاعفوا ثرواتهم، وبرزت أسماء عائلات منهم كان لها شأن  
اقتصاد مصر ومنهم عائلة (يعقوب قطاوي) الذي كان رئيسًا للطائفة اليهودية  
مصر، فضلًا عن كونه رئيس شرف المحفل الماسوني في مصر، وكان له دور  
تولوا إنشاء وإدارة محلات (منشة وشركاه) مع أبناء عائلة (منشة)، واقتتحوا فرعًا  
بلندن، ثم انفصلوا عن (منشة)، واقتتحوا فرعًا إضافية ببابريس والإسكندرية، وأسس  
العائلة معامل لتكرير السكر وتدرج وصولهم لمناصب بالحكومة المصرية حتى  
أحد أفرادها (يوسف قطاوي) وزارة المالية ثم وزارة الاتصالات، واقتتحوا بنكًا  
في إنشاء بنكين آخرين وأداروا البنك الزراعي واحتكروا صناعة الملح والصودا  
أما عائلة (موصيري) فكانت ذات أصول إيطالية، كبيرهم (نسيم بك موصيري)  
هاجر لمصر سنة 1749 م، واستوطنها وناسب عائلة (قطاوي)، وكانت من أهم  
عائلات أعيان اليهود في مصر، وأسهموا بمساهمات كبيرة في إعانة الطائفة اليهودية  
المصرية ودررو الأموال لرعاية أبنائها، وغرفت العائلة بتأسيس أنشطة تجارية  
في مصر بداية من إنشاء بنك (موصيري)، وبناء وإدارة عدة دور للسينما  
صناعيًا بخلاف تأسيس شركة (جوزي فيلم)، وفي مجال الفنادق والسياحة  
فندق (مينا هاوز) و(سان ستيفانو) بالإسكندرية، كما أسسوا جريدة (إسرائيل)  
وكانت تصدر من القاهرة بالعبرية والعربية والفرنسية، وبخلاف ذلك كانوا من  
العائلات التي أسهمت في دعم الصهيونية وقيام الكيان الصهيوني في فلسطين.



- طَفَى النور .. طَفَى النور!

... لكن بدون شمع.

وهو ينفخ في الشمعة التي تحملها، فأشعلت عود ثقاب وهمّت الشمعة من جديد وهي تقول في عناد:

لقد شارفت الغارة على الانتهاء يا زكي.

في عود الثقاب وقال بإصرار زاد معه ذلك الخفان الملاحظ:

فلنوفر الشمع إذن يا لي لي يا حبيبتى، فنحن أولى بكل ملهم أدفعه من جيب الحى.

توجهها وغادرت المكان وهي تتمتع بكلمات غير مسموعة بدت بالطلاسم، في الوقت الذي قَهَقَ فيه (جرجس) قائلاً:

زوجتك محقة يا زكي، فعدّ كبيرٌ من الساسة والشعب يقولونها علناً: إلى الأمام يا روميل، ويعد سقوط مرسى مطروح وأسر 7 آلاف جندي من قوات الإنجليز، بات كل ما ينقص روميل اجتياز 200 كيلومتر لتتدخل قواته الإسكندرية ويحررنا من قبضة الإنجليز .. ألم تلاحظ أن أنوار قصر الملك ها هنا تظل على إنارتها في قلب الغارات والمعارك بينما كل المدينة تقبع تحت الظلام أثناء القصف؟

خفض (زكي) بصره وأطرق إلى الأرض متممًا بصوتٍ مسموع الكاد:

وهل تعتقد أن الألمان سيكونون أكثر رافئاً بنا من الإنجليز؟ انظر حولك لكبار التجار والأثرياء اليهود الذين بدأوا في تصفية أعمالهم وبيع ممتلكاتهم بمجرد اقتراب روميل من الإسكندرية لتعرف أي مصير سوداوي ينتظرني أنا وقرءاء اليهود الذين لا يستطيعون الفرار من مدينتنا إذا ما رجحت كفة الألمان.

همّ (جرجس) بالإجابة في نفس اللحظة التي انتهت فيها الغارة وعادت الأنوار إلى البيوت فاستطرد (زكي) موجهاً حديثه لطفله:

لقد انتهت الغارة، هيا يا موريس، خذ دميانة إلى غرفتك.. فأنا

لتتطفئ أنوار الحى بأكمله، ويسود الظلام وصمت البشر بشكل من حدة صوت سارينة الإنذار القابض للقلب، فيما اقتربت (دميانة) (موريس) في رعب، قبل أن تسمع صوت أزيز الباب الذي انفتح وأفتح بضوء بسيط تسلل إلى الغرفة من شمعة حملتها (ليليان) وهي بحنان:

- تعال يا اجلسا معنا في الصالة يا صغيري الجميلين.

لكنها سرعان ما تخلت عن نبرتها الحانية حين اصطحبت للصالة، لتزفر زفرة حارة وتقول غاضبة:

- لعنة الرب عليك يا هنتر الكلب أنت وحلفاءك الحمقى، أرفع أصعد إلى السطح يا زكي للأطمئنان على الكتاكيت في العشة.

صاح فيها (زكي) غاضباً:

- صه أيها الخرفة، فلتذهب الكتاكيت إلى الجحيم.. أتريدين يلمحك طيار بتلك الشمعة في يدك فتكونين سبياً في شارعنا مثلما قصفوا المنازل في شارع السبع بنات\* منذ أيام أجابته بعصبية:

- دع الأمر على ربنا يا رجل، فلن يأخذوا منا إلا ما هو علينا ففقد، ثم إن الطليان والألمان لا يؤنون المصريين بالخطأ بعد أن تحالف معهم الملك فاروق من وراء الكواليس هب واقفاً كمن لاذه عقرب وقال بصوت خفيض:

- 100 مرة أنه عليك ألا نقم السياسة في كلامنا خاصة يتعلق بشأن جلالة الملك يا امرأة، اصعدي لكتاكيتك إن كان

\* يُعتبر شارع السبع بنات أحد أهم وأعرق شوارع منطقة الثغر في الإسكندرية وبيداً من ميدان المنشية حتى منطقة الببان، وينتهي على حدود طريق القباري، مليئاً باليهود والجاليات اليونانية والإنجليزية، فكانت به الحانات والكاكين والبيع الخمر فضلاً عن الكثير من بيوت الدعارة، وترجع تسمية الشارع إلى وجود راهبات في دير، كن يقمن بإضاءة الشارع لأن السير فيه كان خطراً على المرور ريا وسكينة أشهر سفاحتين في تاريخ مصر الحديث بذلك الطريق الذي إلى منطقة الببان، لذلك سمي الشارع بالسبع بنات.

أريد عمك جرجس في موضوع على انفراد.

بالشهد والموع.

عينها وتابع:

هي مثلك، أيقونة هاربة من كتب الحوادث الإغريقية.. ساحرة لا تعرف النوم في الصيف، ولا تخشى الضباب والصقيع في الشتاء.. تُبادل زانربها الغرام بالغرام، وتغرق الكلام في الألحان.. كانت قرية صغيرة اسمها راقدوة، ثم تحولت إلى مدينة كبيرة من أجمل العرائس التي تتبختر على شاطئ البحر المتوسط، وعلى أرضها تاريخ طويل تفوق أحداثه روعة وغرابة الأساطير، لذا أحببت القراءة عنها ومعرفة أدق أسرارها.

القراءة هي التي علمتني أصل تسمية هذا الحي بالعطارين، ويرجع سر الاسم إلى سببين، السبب الأول هذا المسجد (وأشار لمسجد العطارين وتابع) كان في البداية كنيسة باسم القديس أنثاسيوس الذي ظهر في المرحلة التي انتقلت فيها المسيحية من مرحلة الاضطهاد والتعذيب إلى مرحلة الدراسة والتعليم، حتى إن خلافاً كبيراً نشأ بين المسيحيين في تفسير المسيحية وكانت أولى بوادره في الإسكندرية باعتبارها من أكبر مراكز انتشار المسيحية في العالم، وكان الخلاف بين اثنين من فريقي القديسين.. القديس الكسندروس الأول بابا الإسكندرية ومعه تلميذه الشماس أنثاسيوس وفريقهما الذي آمن بثالوثكم المقدس من الأب والإبن والروح القدس ورأى في مسيحكم طبيعة إلهية، والكاهن أريوس وتلامذته الذين أنكروا ألوهية المسيح والثالث المقدس، ورأوا أن المسيح لم يكن سوى بشر مُرسل من إله واحد، ليتفاهم الصراع ويكثر الشغب بين مؤيدي كلا الفريقين، وفي مجمع نيقية الذي انعقد في عام 325 ميلادياً، انتصر أنثاسيوس بمعونة الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي كان وثنياً وتحول إلى المسيحية، وتم نفي أريوس، ثم فرض الإمبراطور مذهب أنثاسيوس على الإمبراطورية الرومانية ككل ليصبح الأخير أسقفًا للكرزة وبابا الإسكندرية، وبنيت بعدها كنيسة باسمه في العطارين استمرت لسنوات طويلة جدًا حتى تهدمت، وبعد دخول القائد العربي عمرو بن العاص للإسكندرية بنى فيها الجامع الغربي وتهدم في فترة لاحقة، ثم تم بناء الجامع الشرقي على

وضع (موريس) يده على كتف (دميانة) وغادر كلاهما متجهين إلى الحجرة الصغيرة، فيما قال (جرجس):

- ألن تشعل النور يا زكي؟

مال (زكي) نحوه وأجاب هامساً:

- ما أريدك بشأنه موضوع يجب أن يبقى في الظلام.

\*\*\*

قارت الشمس على الرحيل في آخر ساعات النهار، حين سار (موريس) مع الطفلة (دميانة) في شوارع حي (العطارين) العتيق وصلا إلى مسجد (العطارين) الذي يختلف طراز معماره الإسلامي الشرقي عن الطراز المعماري المميز للحي بمبانيه وحوائيته المرتسمة على ملامحها فنون العمارة الأوروبية ذات الدوق الأممي حامله بصمات اليونانيين والطلليان والأرمن، الذين كانوا يهتمون بالزينة والطيور في محلاتهم، ما بين من يعلق قفص به بغاء، أو يضع حوض به ترسة بحرية، بخلاف رائحة النباتات والبهجة تصديرها أصانص الزرع الموضوعة في الشرفات، حامله وروداً ملونة الألوان والأنواع متعددة، كلها تثير في النفس سعادة خفية وقور العين عليها، بينما وضعوا في مداخل البيوت أصانص الصبار

توقف (موريس) عن السير أمام المسجد فتوقفت بدورها (دميانة) المشي متاملة ملامح رفيقها الذي عزم على استعراض ثقافته الواسعة وما تحصل عليه من هواية القراءة التي بداها وهو في الخامسة من عمره، ليحرص منذ ذلك الوقت على اقتناء الكتب والمجلدات أحياناً استعارتها أحياناً أخرى، والتهام سطورها في نهم كدودة قراءة لا تسبغ قال بعد أن رتب أفكاره كمن يلقى محاضرة:

- منذ فجر التاريخ والإسكندرية هي ملكة الإبداع والفن والجمال والجمال.. قال عنها الشعراء إنها قطر الندى، ومهبط الشعراء المغسول بماء السماء، واعتبروها أيضاً قلب الذكريات المساء

العطارين وينزلون البضائع في المخازن الضخمة والخانات  
ليخزنوها عندهم، ويبيعوا للتجار المصريين الجزء المراد بيعه في  
مصر، أما البضاعة المصدرة القادمة من المدن الإيطالية مثل  
جنوة وبنديفة ومارسليا، فكانت تنقل إلى المراكب من العطارين  
ثم إلى شارع الخديو ثم إلى الميناء.

النقطة شعر بغصة في حلقه وهو يتذكر أياماً عصيبة لم يعيشها  
مع مرارتها عبر السطور التي التهمها يوماً حين أراد أن يستكشف  
التي رُذ وعاش فيها، وما زال -سيظل- كل ما قرأ عنها يسكن  
قلبه ومشاعره وكل جوارحه:

لكن المدينة عادت تُعاني من الخراب بعد اكتشاف طريق  
رأس الرجاء الصالح وجفاف فرع النيل والقناة التي كانت تمد  
الإسكندرية بالمياه العذبة، حتى إن عدد سكان الإسكندرية الذي  
بلغ 600 ألف نسمة تراجع إلى ثمانية آلاف نسمة عند قدوم  
الحملة الفرنسية، قبل أن يمنح الوالي العثماني محمد علي قبلة  
الحياة إلى الإسكندرية من جديد بشقه لترعة المحمودية التي  
عادت لتوفر مياه الشرب مرة أخرى، بخلاف ربط الإسكندرية  
بداخل البلاد وتسهيل نقل التجارة إليها بأقل التكاليف، فزادت  
مساحة الأراضي الزراعية، وتم تعميق الميناء وزيادة أرفصته  
ليستوعب زيادة النشاط التجاري.

مع تلك الحماسة التي ملأت كلماته برغبة عارمة في السجود  
وقبيل أرض الإسكندرية التي ما كانت تتصور أنها بهذا التاريخ  
رغم أنها لم تتعرف بعد سوى على الزر اليسير، بينما أخذ  
نفساً عميقاً وصوبَ ناظره نحو عينيها مباشرة وهو يستعد  
أهم جزء في الحكاية:

واستقدم محمد علي اليهود من شتى أنحاء العالم كأمره  
أهل الأرض في التجارة، ليقموا فيها مشاريعهم واستثماراتهم،  
وزادت هجرتهم إلى مصر في عهد الخديو إسماعيل بعد أن  
تمتعوا بكل الامتيازات الأجنبية، وصارت مصانعهم ومحلاتهم  
ذات الأفرع الكثيرة مع الوقت قوة اقتصادية تتحكم في اقتصاد  
البلد بأكمله، ما بين شيكوريل وعدس وعمر أفندي وبنزايون

أنقاض كنيسة القديس أثناسيوس، وتأثر العرب في بنائه بما  
الإسكندرية وجعلوا منذته أشبه بتصميمها لكنه تهدم مع الزلزال  
وبيعت أسقفته حتى جاء المملوك الأرمني بدر الدين العماد  
أمير الجيوش في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي  
استعان بجيشه الأرمني للسيطرة على القلاقل التي واكبت  
وأزقت الدولة الفاطمية، والطريف أن ابنه ثار عليه واستولى  
بمدينة الإسكندرية بتأييد أهلها وأطلق على نفسه لقب  
الدولة، فنزل أمير الجيوش على أبواب المدينة وحاصرها  
حتى طلب أهلها الأمان وقتحو له أبوابها، فدخلها وأخذ  
أسيراً وعاقب أهل الإسكندرية على تأييد ابنه الأوحى بأن  
عليهم جميعاً مسلمين ومسيحيين ضريبة مائة وعشرين ديناراً  
من كل فرد، وجدّد بالضرائب الجامع الشرقي الذي سمي  
بعد بمسجد العطارين نسبة إلى العالم محمد العطار الذي  
فيه، وكان أحد كبار مشايخ المسلمين الذي جاعوا من المعيشة

تطلعت إليه بانهار إزاء كل هذه الثقافة والمعلومات التي تدفقت  
ذاكرة قوية لا تعرف النسيان وقد حارت على شفتيها الكلمات، فزعم  
بانهارها وأرسل مستكملاً:

- أما السبب الثاني وراء اسم العطارين، فيرجع إلى سوق العطارين  
الذي نشط ها هنا منذ الفتح العربي، واشتهرت معظم مدن  
الحي بتجارة التوابل والطور حتى أصبحت من أشهر أسواق  
العطارة في العالم.. فكانت العطارين أهم مركز لتصدير العطارين  
إلى مملكة البهار في أوروبا..

ثم أشار لليبوت وهو يتلفت حوله وقد توحد مع عالمه الحال الذي هام  
إليه منذ أن أحب القراءة متابعاً:

- هل تعلمين أن التجار كانوا ينزلون في السويس وينقلون  
بضائعهم على الجمال إلى الإسكندرية ليعبروا من الملاحين  
والطريق الزراعي حتى يصلوا إلى باب شرق المدينة وينادوا  
حتى الصباح عندما يأتي الحراس ليفتحوا لهم باب الدخول للبلاد،  
فيعبروا المنازل حتى يصلوا إلى الدكاكين داخل الإسكندرية،  
وكان الوكلاء الأجانب يخرجون لاستقبال القوافل القادمة في

والدها يديه عن تربيتهما، واعتاد علي السهر خارج البيت  
وأوقات متأخرة كل ليلة دون أن يجرؤ مخلوق أن يسأله من أين جئت  
عندما كنت تفعل؟ لتنفرد والدتها بتربيتهما، وتصبح هي الأم والأب  
والعائلة والأصدقاء ودولة القطب الواحد التي لا تكفي كل قرارات  
مجلس الأمن واعتراضات الفيتو لإيقافها.

كلام الأم هو الحقيقة المطلقة.. صوابها هو الصواب وما سواه  
مخطئ.. وأوامرها ونواهيها دستور كوني ليس هناك محام من  
يشهر في محكمة الحياة الدستورية قادر على مراجعته والطعن في  
أحكامه، فتحولت مع الوقت من ربة أم لإله، ثم رحل الإله فجأة لتجد  
الصغيرة نفسها وحيدة في الفراغ والعدم!

وفي حضرة التاريخ الذي لم تعرفه، وجغرافيا المكان العريق الذي  
لم تتجول فيه بمفردها رغم كونه قاب قوسين أو أدنى من منزلها،  
لعبت أنها تولد لأول مرة في عالم جديد ممتع يكشف أسرارهِ وخباياه  
لكل القديس الصغير (موريس)، لكن مهلاً.. كيف يكون قديساً وهو  
يهودي؟

لعبت عقلها بإرجاء السؤال حتى لا يُعكر صفو تلك الحالة التي  
مر بها لأول مرة في حياتها على يديه، وتكلمت بصعوبة كمن يتعلم  
الكلام:

أكل هذا تعلمته من القراءة!؟

لعبت ابتسامته وقد رافت له دهشتها:

لا تُسرفي في الإبهار والدهشة يا عزيزتي واتركي قدرًا لما هو  
أب، فما أخبرتك به لا يمثل سوى بضعة صفحات مما أعلم.

وشملاً وغيرها، بخلاف البنوك التي أنشأوها، وخطوط  
الحديد التي مَتَّوْها، والتتقيب عن البترول الذي أجروا من  
مئات العمال، وعربات سواريس التي يسرت حركة النقل  
وغیرها من الأنشطة المتعددة التي بفضلها عادت الإسكندرية  
من جديد تضح بالتجارة وحركات البيع والشراء، وتوافد  
آلاف قرص العمل للمصريين، والأجانب الذين ضاقت  
الأرض بما رحبت، وجاؤوا إلينا بحثاً عن الرزق أو  
الاضطراد والحروب الأهلية والتطهير العرقي، فصارت  
موطناً لخليط من جاليات الإيطاليين، واليونانيين، والأرمن،  
والشوام، والأتراك، والبلغار، في مزيج إنساني نادر من  
وجسيات مختلفة، زُرعت مدينتنا الخصبة  
نوفاً مختلفاً من البشر يستحيل أن يجد الألفة والمعاشرة  
التناغم في كل مدن العالم إلا الإسكندرية، التي باتت قربة  
تتسع لكل أهل الكوكب، ومتحفاً زمنيّاً مفتوحاً، نشم في شوارعها  
وأحيائه عبق التاريخ العتيق، ونمت أعيننا بأثار بني الإنسان  
شئى الحضارات الفرعونية، والإغريقية، والبطلمية، والديونسية  
والقبطية، والإسلامية.

انتهى من كلماته ووقف يتأمل تأثيرها على ملامح الطفلة الصغيرة  
التي تحول استمتاعها بتلك المعلومات إلى حشرات..

الآن فقط أدركت كيف ضاعت 10 سنوات من عمرها في  
شيء..

كيف عزلتها أمها عن الدنيا وحرمت عليها نزول الشارع  
نهائياً باسم الخوف عليها من المجهول، بعد أن اختفت خالتيها في  
ظروف غامضة ثم اتضح فيما بعد أنها كانت إحدى ضحايا  
وسكنية..

كيف منعها من القراءة قائلة: "الكتب ستعلمك أموراً لا ينبغي  
تعرفها في هذه السن"، دون أن تكمل الأم باقي الجملة بشكل  
وإن كانت داخلها تردد: "ستجعل من الصعب السيطرة عليك"  
أن يفوق تفكيرك تفكيري".



ساعة الأخيرة بشكل حاسم ثم اقترِب من الخواجة ونقده نصف فرنك،  
الليلة ببد، والخمس طَلقات باليد الأخرى، ثم فتح البندقية بمهارة  
فيها طلقة وأغلقها بسرعة وإحكام قبل أن يُسلمها لـ (دميانة) قائلاً  
شعلم:

فلمسكي البندقية بثقة، ثم تضعي مؤخرتها عند كتفك هكذا،  
وبعد أن تلامس سيابك الزناد، لا تتسرع في الضغط قبل  
الأكد من مرور شعاع البصر من فتحة الناشكاه الخلفي إلى  
فتحة الناشكاه أعلى سن نملة الدبابة أسفل منتصف الهدف  
فأبلاً.

هيا يا خبيبي!

الخواجة (كرياكوس) بلهجة عربية مُتَكسِّرة، ثم ألقى الطبق الأول،  
(دميانة) الزناد..

لم تصب الهدف على مدار 4 محاولات فاشلة اقترن فيها صوت  
الناشكاه بصيحات السخريه، وهمز ولمز الأطفال الواقفين، وحين  
المرور على الطلقة الأخيرة، أمسك (موريس) البندقية وهي لا تزال  
(دميانة) وتطلع لوجهها بابتسامة حانية قائلاً بلهجة تحمل شيئاً  
الزناد:

ولا يهكم.. حتى قادة العسكر يُخطئون في إصابة أهدافهم  
أحياناً.

البندقية في رفق لتستسلم له أناملها، وقيل أن يلقي الخواجة  
الآخر، نظر (موريس) لباقي الأطفال باستخفاف ثم وجه نظره  
نحو الطبق الذي سيج في الهواء وضغط الزناد ليغير الطبق مساره  
بعد أن أصابته الطلقة، ليتهاوى أرضاً وسط تصفيق الأطفال  
مات تشجيعهم، دون أن تتيسر (دميانة) ببنت شفة، لكن تلك البسمة  
نقشها كانت تخفي عن كل شيء.

أبواب واقفة رصينة، تقدّم نحوها (موريس) حاملاً تلك اللعبة التي فاز  
بها قصص الصحن الطائر ووضعها في يدها دون أن ينطق بحرف،  
بنظراتهما سفيراً ورسولاً.

\*\*\*

قالها بلهجة ساحر يستعد لفقره جديدة، ثم وضع يده على كتفها  
بها جانباً ليجمها من الترام الذي كان يمر في هذا الوقت بشارع  
العتارين) قبل أن يقبض على يدها ويستأنفا السير..

مرّاً بجوار الكنيسة الإنجيلية وأخبرها أن تاريخ بنائها يعود للقرن  
عشر على يد رسل القديس مارتن لوثر كينج زعيم البروستانت  
حاول نشر أفكاره ومبادئه عبر تلامذته في كل بلدان العالم،  
إلى كافة المسيحيين وتصحح لديهم ما أفسده الباباوات والقساوسة  
القرن الماضية.

ثم وصلا إلى تجمع بشري على هيئة نصف دائرة يحفها أنوار  
مختلف الأعمار والأشكال، لكن أغلب الوقوف فيها كانوا من الأطفال  
وعلى طرف نصف الدائرة وقف رجل تبدو ملامحه غير مصرية،  
صحون من البلاستيك يلقيها في الهواء، ليقوم مجموعة من الأطفال  
أيديهم بنادق الرش بتصويب طلقاتهم نحوها في محاولة لإصماد  
وسط مزيج من التعليقات الطريفة والسمة، لتبتسم (دميانة) وتنتبه  
طفولتها الهاربة وهي تتابع بهجة أقرانها من الأطفال.

”ألم تلعي بيتر من قبل؟“

باغتاً (موريس) بالسؤال، فانطفت البسمة الاستثنائية وعاد الوجه  
والحزن إلى ملامحها وهي تهز رأسها نفياً، فعاد لممارسة دوره:

- إنها لعبة يونانية يا صديقتي، أدخلها في الحى
- كرياكوس، بنصف فرنك \* تأخذين 5 طلقات، ولو استلمت
- تصيبين صحناً لك هدية.. أنا عازمك على اللعب.
- لكني لم أمسك بندقية من قبل.
- حان وقت التجربة إذن.

\* النصف فرانك عملة مصرية قديمة كانت شأوي قرشين.

سلا إلى البياصة، وجدا الباعة يلمون بضاعتهم المفروشة على «رصوفة ومنظمة بعد أن انفض السامر، فتأمل (موريس) ثم نظر للسماء قائلاً:

للأسف وصلنا متأخرًا.. إنها ساعة المغرب التي يرحل فيها الباعة ويضعون بضاعتهم في المغارة\* لكن لا يهم، إنها فرصة للشاهدي أجمل ما عرفته العطارين على يد إلياس ملك السمان. سعادة شديدة وقد وجدت أخيرًا ما تقوله في حضرة موسوعة المتفلة:

لقد سمعت كثيرًا عن إلياس من أبي الذي كان يحضر لنا من عنده سمناً مشوياً لذيذاً على فتراتٍ متباعدة.. أخبرنا أنا وأمي أنه رأى عنده سيد درويش قبل وفاته، حيث كان يأتي للثناء مع سلامة حجازي ويتبارى حولهما بعض المطربين الشباب والعازفين على الزبابة والعود، ثم توالى من بعدهم على المحل هريد الأطرش وصباح وفريد شوقي ومعمود المليحي وغيرهم من نجوم المجتمع.

تفاعلها، وشعر بالسعادة حين تأكد أن فئاته الجميلة التي قرر لها من صنع يديه لم تضجر أو تمل، فاردف:

ملك السمان وبولس شوحا صاحب محل الأحذية الأشهر في دمشق، كلاهما من عائلتين لبنانيتين جاءا هنا هرباً من الفتن بين العرب المسيحية في لبنان، تماماً مثلما نزح آلاف الأرمن من تركيا إلى سورية هرباً من المذابح والتطهير العرقي ضد المسيحيين، لكن كل واحد إلى مدينتنا في كفة، وإلياس وحده في كفة أخرى..

من بين كل أصحاب المحلات في العطارين، الذي يؤجر كئاسين صينيين لتنظيف السوق من مخلفات الباعة ورشه بالماء، ثم يترك السوق ساعتين للعب الكرة واللهو حتى يعرضهم عن زحام السحار وعدم وجود مكان يقضون فيه طفولتهم، ثم تفرد طاولات الطعام في مكان، ويبدأ العازفون السوريون الذين يجلسون على مقهى حبيب العزف، بالتزامن مع شئ السماء

استمر السير بعدها في شوارع وأزقة (العطارين)، ولاحظت (دمرانة) مرة أن لكل 100 متر كئاس مخصص يحرس أصحابه على مراضاته، لتبدو كل شوارع الحي نظيفة جميلة حتى تلك الباعة الفقيرة فيه، وحين تسلك إلى أذنبيها تلك الموسيقى الممتعة ذات النغمة اليوناني، شعر (موريس) بما يجول في خاطرها فقال وهو يواصل السير:

- إنهم الجريج يا عزيزتي.. يعلقون في مناور بيوتهم الميكس ويؤثرون أسطوانات المزيكا أو يعرفونها كي يستمع الناس لموسيقاهم وتعم الفرحة حولهم.. هم أيضاً أولاد بلد راس مزاج وطيبو المعشر مثل المصريين، ولا يختلفون عما وجدته والشهامة.. أعرف منهم نفراً كثيراً، وحضرت بالخطبة بأسيلي اليوناني على أنجيل سليم ذات الأصل اللبني

ثم دخل بها في حوارٍ ضيقة ملتوية أشبه بالمثاهة، بها خليط من المصرية والوجه اللبنانية والسورية، تحاول بيوتهم أن تغش من الأجانب في البناء والشكل الخارجي، لكن فرق الجودة كان واضحاً وبدت أغلب المساكن فقيرة وعشوائية ولا يتخطى أغلبها ثلاثة طوابق على الأرجح، ومن جديد حان الدور على (موريس) ليميط اللثام هذا العالم:

- حي العطارين كله عبارة عن سوق كبير.. وتلك الرائحة تغزو أنفك الآن ليست رائحة العطاراة ولا رائحة الأجانب هي رائحة الرزق.. فهنا أولاد البلد من السكندريين السوريين واللبنانيين في ورش الخياطة ومحلات الخردوات تباع مستلزمات الخياطة من الكلف والأزرار والسوست وانتشرت تجارة الملابس المستعملة وصارت في حاجة لمن تجديد الملابس ويصلح عيوبها، سواء الثوب التي تحتاج رفة، أو الملابس التي سقطت أزرارها وسوستها، وكان أول تاجر بها في الحي هم الشوام، حتى أصبحت لهم ساحة عامة بهم أطلقوا عليها بياصة الشوام.

- بياصة؟  
- إنها كلمة محرفة من اللغة الإيطالية، وأصلها الصحيح بيتازا، وتعني الساحة أو الميدان، هيا نذهب إليها!

الساحة هي ذلك المكان الذي كان يخصص لحفظ البضاعة والطاولات الخاصة بالشوام مقابل أجرة.

ب خفيض وهو ينظر للأرض في ضيق:

اليهود.

\* \* \*

سوت كركرة "البوري" \* في ذلك المقهى الشعبي من شيشة  
التي نام خرطومها على كرشه الضخم بينما أخذ يقبل مبسمها  
ساحياً منه أكبر قدر من المعسل الذي كانت بينهما قصة عشق،  
مرجه من أنفه كمحرقة للموتى الهندوس في اللحظة التي ألقى  
بها في النرد بلعبة الطاولة صائناً بقعة:

حذّ عندك.. هب يك!

حجرا النرد حول نفسيهما قبل أن يستقر كل منهما على الرقم 1

عينا (حسن) أفندي ذي الشارب القصير والبذلة القديمة البالية،  
الشعر المنكوش بعد أن خلع من فوقه الطربوش ووضعه على  
البراقب (جرجس) الذي يُحرك أقراص الطاولة العاجية في لعبة  
سوسة) وينقلها للخانة المقابلة وقد شارف على الانتصار بعد منافسة  
الوطيس بينهما كانت في البداية لصالح (حسن)، ثم استأذن  
(حسن) وذهب إلى المболе، ليعود منها شخصاً آخر لا تكذب يده  
التي يستقر عليها حجرا النرد بعد أن ينطقها لسانه قبل حتى  
رامي الحجرين، ليتمتم الأفندي بنفرة وهو يهز حجري النرد في يده  
ساعداً لإلقائهما:

حظ عوالم.

ساعف غضبه حين خائته أرقام النرد وباعدت بينه وبين الفوز،

الزرجيلة في تلك الحقبة الزمانية لها عدة أسماء.. التي تحمل كمية أكبر  
الخان الخالص تُسمى "عجمي"، أما الدخان المخلوط بالمعسل فكانوا يسمونه  
"مصري"، لأنه كان شكلاً مصرياً خالصاً.

- ليملاً دخانه اللذيذ الشهى الأجواء ويتصاعد إلى سماء  
جاذباً معه عليه القوم ووجهاء إلى المكان، فيشاهددهم أهل  
عن قرب ويشعرون بالسعادة لمصافحتهم والحديث معهم،  
على يد إلياس صار في حيناً الصباح للعمل، والمساء

أغمضت عينها وأخذت نفساً عميقاً تمت لو تخللته رائحة الشاي  
لم يبدأ بعد، ثم نظرت حولها وتساءلت:

- لكنني لم أر أي عطارين منذ بدأنا جولتنا، فأين اختفى  
سوق للعطارة؟

جذبها من يدها واستكملاً الجولة مستطرذاً:

- لقد اختفت مهنة العطارة منذ زمن بعد ذلك التغيير الذي طرأ  
خريطة المكان، وأعقبه ظهور محلات أخرى للساعات والذهب  
والأنتيكات والتنجف، ومع الوقت بدأت كل جنس  
الجنسيات العديدة تتخصص في مجال معين.. فأصبحت  
من نصيب الجريج، والساعات للأرمين، والأنتيكات وال  
للطليان، بينما المخابز والحانات تم توزيعها بين الشوام

نظرت إلى محل صغير يعرض الأنتيكات والخردوات وهتفت:

- لقد رأيت العديد من المحلات المشابهة لهذا المحل.. ألن  
عنها؟

احمر وجهه وأجاب في اقتضاب:

- هذا محل العائز للرهونات.. باقي المحلات المشابهة  
مخصصة في تسليف المحتاجين مقابل أخذ أشياء  
يملكونها كرهن لحين تسديد القود التي استلفوها مع دفع  
مادي آخر نظير التسليف، أو يتم الحجز على تلك  
ويبيعها إذا ما جاء موعد السداد ولم يسددوا.

سألته من جديد:

- ومن هم أصحابها؟

ليدس زجاجة الـ(إسباتس) ذات المشروب الغازي بنكهة التفاح ويفرغ ما فيها في جوفه دفعة واحدة، لعلها تبرد ناره المشتعلة .. بينما سحب (جرجس) من البوري نفساً طويلاً بمزاج شديد، مشاماً حُصمه الغاصب قبل أن ينفس دخانه من فمه هذه المرة في الهواء ألقى فيها حجري النرد قائلاً بثقة وهو يتأمل أرضية الطاولة:

- شيش جوهار.

ليستقر الحجران بالفعل على رقمي 6 و 2، ويحرك (جرجس) الطاولة ناهياً الدور قبل أن يغلق صندوق الطاولة الخشبي صانعاً في القهوجي:

- المشاريب على حسن أفندي يا ابني وصف عليها كوب ساشيه مع عمك زكي، (ثم نظر لخصمه وجده بنبرة تحدّثه) تعوضها المرة الجاية يا أبو علي.

ثم نهض متجاهلاً كلمات (حسن) أفندي الذي قال في غيظ:

- أنت أكيد مخاوي.

ثم سار (جرجس) بخطوات بطيئة اهتز معها كرشه الزجاج كرسى ويجلس إلى جوار (زكي) الذي كان يراقب ما يجري بأسلوب شديد، قائلاً باعتذار:

- لا تؤاخذني يا زكي، طال الدور مني هذه المرة.

ابتسم (زكي) وقد اكتسب ملامح وجهه بالسعادة قائلاً:

- لا يهم يا صديقي.. فقد كانت متابعتك أمتع من مشاهدة الرمي وسماع الست أم كلثوم.

ثم قرّبت الابتسامة من ملامحه وهو يعقد حاجبيه وينظر من منظور نظارته المستندة على منتصف أنفه قائلاً بصوت رفيع خرج من منادى:

- والآن دعنا نتكلم في المصلحة يا عزيزي.. ماذا فعلت الموضوع الذي حدثك بشأنه؟

(جرجس) نفساً عميقاً زاد من كركرة الشيشة وجعل خديه يكادان ينفصان من الداخل ثم قال:

أنت حبيبي يا زكي ولا أستطيع أن أرفض لك طلباً.

ثم توجه على وجه (زكي) حتى إنه لم يستطع التحكم في حركاته التي تقافز على مقعده بسعادة مفرطة كالأطفال قائلاً:

أنت أعلم أنك لن تؤخذني يا جرجس.. ألف ألف..

ثم (جرجس) بجملة خاطفة قطعت كلامه وشتت أفكاره:

لكن نسبة 50% قليلة على ما سأقوم به، فبدوني لن تحصل على ملهم واحد من جيب زبانتك.

ثم (زكي) أكثر رفعا حين نثر على صفحة وجهه الود المصطنع

أوه، جرجس يا عزيزي، لا تنس أيضاً أنك بدوني لن تجد زيوناً تحلب منه مكسبك بطريقك السحرية، ثم إنني لست وحدي، وهناك من سيقاسمني في نسبيتي.

(كركركركركرك) 60% إذن، وهذا آخر كلام.

عينا (زكي) وقال بابتسامة تخرج من تحت صفي أسنان يصطكان

ما باليد حيلة، أنا أيضاً لا أستطيع أن أرفض لك طلباً يا عزيزي، ألف مبروك.

ثم (زكي) وهو يقبل (جرجس) الذي لم تغادر الشيشة شفتيه، قبل أن

وعندك واحد شاي هنا على حساب أستاذ جرجس.

ثم له (جرجس) بدهشة تحولت إلى ابتسامة، قبل أن يأتي شاب أسمر يرتدي مريلة وطاقيّة يطل من تحتها شعر مجعد طويل، جاحظ



العينين، وتناثرت شعيرات ذقنه الطويلة نسيئاً على صفحة وجهه. كان الشاب يمسح عرقه من جبهته وفي يده صينية الشاي التي وضعها باحترام أمام (زكي)، (جرجس) ملاحه الغربية على المكان وسأله:

- هل أنت جديد هنا؟

أجابه الشاب بلهجة صعيدية لم تتلون بروح المدينة بعد:

- نعم يا معالي الباشا.

بدأ (زكي) في تقليب الشاي، أما (جرجس) فشعر أن دخان الدخان صار مكتوماً فقال للشاب بلهجة أمّرة:

- اضبط رصة الحجر يا.....

- خدامك سليم.

قالها الشاب وهو ينحني ليعيد رص الفحم بتلك الماشية التي أمرها مربيته، ثم عقد حاجبيه في دهشة بعد أن تسلفت إلى أنفه رائحة اشتمها حين اقترب من يد (جرجس) اليمنى وهو يحرص له الفحم.

كانت رائحة تشبه الصنّان إلى حد بعيد، لكن من يجرؤ على .. الزبائن بحقيقتهم القذرة لا سيما في بداية عمله بمكان جاء إليه من الدنيا، وأقنع صاحبه بالعمل عنده بشق الأنفس، وقبل أن يسأل - النتن حسبما وصفه في نفسه - إذا ما كان يريد خدمة أخرى، (جرجس):

- من أي داهية جئت يا سليم؟

أجابه وهو ينظر إلى الأرض ليداري تأفقه وضيقه:

- أسيوط.

قهقه (جرجس) فور سماع الإجابة وقال لـ (زكي) بشماتة:

- قل لإخوانك اليهود أن يسرعوا في الهجرة يا زكي.. فقد ..

واحد من المركز التجاري الوحيد الذي لم يستطع اليهود أن ينجسوا فيه ويترجحوا.. تقول حكايات التراث الشعبي أن تاجرًا يهوديًا ذهب إلى أسيوط زاكبًا حماره، ولما وصل سأل عن مكان الركاب حتى يبات فيه هو وحماره، وهناك أعطى صبيًا صغيرًا كالة\* وقال له: خذ هذه واشتر لنا غداء، وأكلا للحمار، وشيئا أسلي به، ويمكنك أن تحتفظ بالباقي لنفسك، فغاب الغلام الأسيوطي ثم عاد ببطيخة أعطاها للتاجر وقال له: لقد اشتريت هذه البطيخة بمليم وفيها غداؤك، ومن ليها يمكنك التسلية، أما قشرها فهو غداء حمارك، واحتفظت لنفسي بالمليم الآخر، فحسب اليهودي كفاً بكف وقال: "ليس لنا عيش في هذا البلد" ثم رحل.

(جرجس) يقهقه من جديد، فيما ابتسم (زكي) ابتسامة باهتة وقال مستتر:

قد تكون هذه الحكاية صحيحةً يا جرجس، لكن نهايات الحوادث غالباً- ما تكون بدايات لحاويات أخرى لم تحك بعد.

\*\*\*

(مدانة) بدّهشة وحيرة وهي تسير مع (موريس) في شارع (لاجنتيه) أخبرها من قبل أن معناه شارع التهجّة، وينتمي لحي (الإبراهيمية) الذي عاش فيه اليهود الأثرياء في عهود سحيقة، وكانوا من في مظاهرات كبيرة ضد حكم الإمبراطورية الرومانية، ثم لعبت لهم لعبتها وغيّرت خريطة توزيع البشر لتسكنه الجاليات الإيطالية، الألمانية، والفرنسية، لكن أكثر من اندمج فيه وشعر أنه وطنه الثاني أبناء الطبقة المتوسطة من اليونانيين، أحفاد الإغريق، الذين أطلقوا (كوكينيا)، أي الحي الأحمر، وهو نفس اسم الحي المماثل الخاص بملقة العاملة في اليونان، بنفس الحارات الضيقة والبيوت المتلاصقة، لما قاّحت من قبائل الإيطاليين والأرمن رائحة نبات الدفناخيا أو (ودن) والقلل والياسمين، وروائح أخرى مميزة، وغيرها من المعلومات التي

\* النكّة: غُلة مصرية قديمة كانت تُساري في قيمتها 2 مليم

لقد حكى أبى لنا - أنا وأمى - الكثير من الحكايات الطريفة عن فندق سان إستيفانو منذ نشأته وحتى يومنا هذا، كأمر طبيعي لشخص يعمل محاسباً به منذ سنوات طويلة بعد أن عيّنه فيه جدي بحكم علاقته الجيدة بالعديد من كبار الطائفة اليهودية.. فقد لاحظت عائلة موصيرى المالكة لشركة السكة الحديد أن منطقة الرمل - الجديدة في ذلك الحين - كانت شبه مهجورة لا يسكنها إلا القليل من البدو، وفيها عدد متفرق من الفيلات التي يمتلكها أثرياء المدينة ويمضون فيها فترة الصيف، فاختارت الشركة موقع الفندق في نفس موضع كنيسة القديس إستيفان الشهيرة التي تهدمت، ومولت بناء الفندق ليُحقق الجذب لمختلف الجاليات الأجنبية ويحقق حالة من العمران تشجع استقرار السكندريين في منطقة الرمل الجديدة، وبالتالي يزيد الإقبال على خط السكة الحديد.. وبعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بـ أربع سنوات، تم افتتاح الفندق في عهد الخديو توفيق، واستمد اسمه من اسم الكنيسة المتهمة.

أوراق (موريس) من حالة التأمل ونظر إلى عيني (دميانة) الجميلتين:

سرعان ما لاقى الفندق الجديد استحسان الناس وحقق شهرة طاغية.. مبنى فخم على غرار مباني المنتجعات السياحية الفاخرة والكانزيوهات التي تطل على الشاطئ الفرنسي البلجيكي.. طريق الكورنيش لم يكن قد بني بعد، وبالتالي لم يكن هناك فاصل بين الفندق والشاطئ الخاص به الذي امتد على مساحة رملية لا يقطعها شيء.. احتوى على ملاعب للتنس، ومكان للموسيقى يطل على شاطئ البحر، صمم الجزء الأعلى من حائطه - الذي يكون خلف الفرقة الموسيقية - على شكل قوقعة حتى يعكس صوت الآلات الموسيقية على الشاطئ وبجسمه، فكانت الحفلات الموسيقية التي ينظمها الفندق في الصيف ملتقى الصقوة بالإسكندرية.

توقف لابتلاع ريقه، وأخذ نفساً عميقاً صمت بعده برهة ثم أرفف:

ازدهرت حياة الفندق الصاخبة في الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية.. فإلى جانب الحفلات الراقصة التي كانت تملأ

عرقتها صاحبتنا من فتاها الموسوعي الذي أجاب سؤالها عن أوراق (كرايس) قائلاً:

إنها لعبة مراهقات قديمة يا عزيزتي، تم اختراعها لتزويد المراهقات بالمتعة خلال الحملات الصليبية منذ زمن طويل، ويستخدمها المراهقات في الحرب العالمية الدائرة حولنا بعد أن تطورت وأصبحت من ألعاب القمار في العالم بعد البوكر.

- قمار؟

خرج سؤال (دميانة) هذه المرة حاملاً قدرًا من الاستكثار والمصداقية وخرجت إجابة (موريس) حاملة قدرًا من الحرج والضيق:

- نعم؛ فهي لعبة قائمة على حجرين من النرد مثل الطاولة.. الرهان على أرقام معينة فيها، والفائز من تصدق توقعاته، والقواعد ليست سهلة عكس ما يبدو الأمر في ظاهره.. وجد أبى أن يد والدك تطوّر أرقام النرد حسب رغباته واحتياجاته للمكسب - وكأنه إله الحظ - أقنعه بتعلم تلك اللعبة لعل فرقه المدهشة في تحديد أرقام النرد تفلح وتجعل المكسب أمراً من الحدوث باستمرار، وهو خيار لم يمنحه إله القمار لأي من أتباعه حين خلق حزم مائدته الخشبية الخضراء التي يبلّث بها ملايين الطماعين والكسالى والمرضى خلف ضربة حظ محتملة غير ما تتعطف به أوراق اللعب وأحجار النرد ويلى الروايات في شتى بقاع الأرض.. الصفقة بين أبى وأبيك - باختصار - كانت: مهمتك المكسب فحسب، وأنا سأعفك على أرقام الجاليات الأجنبية التي تعشق الكرايس وسأقنعهم باللعب مع فرقة المصيري القادم من الطبقة الدنيا رغم إصرارهم على عدم اللعب مع المصريين إلا من يحملون لقب "باشا" أو "بك" كحد أدنى لدخول عالمهم.

هتفت به وهي لا تُصدق ما تسمعه:

- لكن والدك إنسان بسيط مثل أبى.. كيف ومتى خالط أرواح الجاليات الأجنبية وتعرّف عليهم ليقيم بهذا الدور؟

سرح وهو يجتر المعلومات من ذكرياته:

سماءها الألعاب النارية كل أسبوع، كانت إدارة الفندق تقيم الشّاء كرنفالاً سنوياً يرتدي فيه أبناء الجاليات الأجنبية الملابس التكرية تقليداً لذلك الكرنفال الشهير الذي كان يُقام في البندقية الإيطالية وكان النّلاء يسبّرون فيه متكرين يعرفهم العامة ويختلطون بالشعب ويتحدثون معه بلا حواجز، بخلاف عرض الزهور السنوي الذي كان يُقيم في الفندق وحتى يجتذب الفندق زبائن جددًا من غير النّلاء، كانت تقدم أبونيه موسميًا يسمح لحامله باستخدام خدمات الفندق كافة بأسعار رمزية.. ويجانب كل ذلك.. كانت صالة السينما المكشوفة، ذات المقاعد الخشبية التي أفلأماً أمريكية.

- وما علاقة كل ذلك بلعبة الكرايس؟

سألته في لهفة، لتوقف ثرثرته التاريخية التي كان من الممكن أن تكون ممتعة لو ذكرت في موضع آخر، فمنحها ابتسامة باهتة لم تعرف حزنها حين أجاب:

- أكثر ما اشتهر به فندق سان إستيافانو كان كازينو القمار كان الملك فاروق يتردد عليه في بعض الأحيان، قيل أن القمار لدرجة فاقت إيمان اللورد ساندوتش، أول من ألعب اللعبة السريعة التي سميت (ساندوتش) نسبة لاسمه؛ لا يضطر إلى مغادرة المائدة الخضراء ويتوقف عن اللعب بحكم عمل أبي بالحسابات وقربه من الكازينو، استطاع أن يمدد مدار سنوات تكوين قاعدة بيانات خاصة به، وضع فيها عشاق لعبة الكرايس، ومعلومات تفصيلية عنهم، ثم بدأت سان إستيافانو في الأقوال والتردي.. بدأ ذلك في الثلاثينيات عندما بدأ بناء طريق الكورنيش الذي فصل الفندق عن شاطئ الخاص الممتد حتى البحر، ولتعويض هذا الخلل رُبط الطريق بشاطئ البحر عن طريق نفق يمر أسفل طريق الكورنيش. ونتيجة لهذا التعديل أجريت تعديلات أخرى في واجهة القمار وداخله فأصبح غريباً على رواده القدامى.. ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية، ازدهرت فنادق ومطاعم وبارات الإسكندرية، والفندق سان إستيافانو.. فقد استخدمت مدرسة فيكتوريا كرايس

سمت هنيئة وأردف بمزيد من الأسى:

من هنا بدأ أبي يشيع بين شبكة علاقاته حكاية ذلك الرجل المصري الأسطوري الذي لا يهزم في الكرايس، وأغرت حكاياته وطريقة وصفه البعض ليخوضوا التحدي، رغم انتمائه للطبقة الدنيا، بملابسه المتواضعة، وذكته غير الحليقة، وملامحه البائسة.

لم سنوات عمرها العشر، إلا أنها كانت تُدرك جرم وجرمانية القمار وأبعاده.. لم يكن والدها ينظرها يوماً شخصاً مثاليًا أو رجلاً جديرًا بالاحترام، لكنه - على الأقل - لم يصل إلى هذا المستوى الرقيق الذي وصل إليه الآن في الدرك الأسفل من مراتب البشر.

هل تستطيع مواجهته وعتابه؟!

سأجل بالطبع، فقد كان رجلاً مهيباً، ذا نبرة غليظة ويد عريضة وملمحة أسهل شيء عليها أن تهوى بكل عنف على الوجوه بصفحات أناسي، كسرت إحداها فك أمها ذات يوم، وورمت خدها هي شخصياً سوطاً بأكلمه حين هوت على وجهها عندما كانت تبكي شأن أي طفلة صغيرة عمرها 3 سنوات لكنه سئم بكاءها، ومن يومها وهي تكتم دموعها أمامه، وتخشى حتى الجلوس في حضرته.

هل يُجيز دينك القمار؟

سألت بصدمة فأجابها (موريس) بحزن:

- كلا، وهذا سبب الشجار الذي نشب بين أمي وأبي مؤخرًا عندما سعيذاً وفي حوزته غنيمة أول صفقة ربحتها مع والدك واستمر أمامها في فخر.. يبدو أن الأيام المقبلة لن تمضي على خير

\*\*\*

"لآخر مرة أحذرك يا زكي.. إن لم تعد من سكة الندامة والوهل فسيكون هذا قرافاً بيني وبينك".

قالتا (ليليان) بنبرة حادة حاسمة وهي تستقبل (زكي) الذي عاد للم تلك الساعة المتأخرة من الليل، ليخرج من جيبه عشرات الأوراق النقدية متعددة الفئات ويبدأ في ترتيبها وعدها، وفي عينيه بريق النصر والسيادة غير عابئ بكلامها، قبل أن يخلع من على عنقه ذلك الحبل الذي ارتد كسلسلة يتدلى منها مفتاح دسّه في ذلك الدرج المغلق بإحكام، ليفتحه كما عن كومة من الأوراق النقدية والعملات المعدنية ثم وضع معها الغنم الجديدة وقد زاد بريق عينيه واتسعت ابتسامته الظفر التي احتلت ملامحه

لم تستطع (ليليان) أن تكتم غضبها الذي تفاقم مع تجاهله لكلماتها فانقضت على الدرج تقبض على أوراق البنكنوت الكريهة المملطخة بالحرارة وهي تهم بعثرتها في الهواء لعلها تذهب مع أنراج الرياح وتعود الطهارة إلى بيتها الذي تنجس، إلا أن يده الغليظة قبضت على كفها ولوث معصمها في قسوة حتى تاهت في ألم، قبل أن ينهض ببطء وهو ما زال ممسكاً بيدها وقد تحوّل بريق النصر في عينيه إلى بريق من نوع آخر جعله في عيون أشبه بشيطان رجيم، وتأكد إحساسها حين قال بنبرة قاسية بطيئة ينكر على مخارج حروفه للتأكيد على أنه يعني كل حرف يُنطق:

- انتبهي لنصرفائك معي يا ليليان، فبعض الأفعال قد تكلفنا لا تملكين دفعه.

ألقت نفسها في حضنه وأجهشت بالبكاء:

- عد زكي الذي عرفته وأحببته من كل قلبي قبل أن نخسر كل شيء.. ما تفعله أنت أيضاً سيكلفنا ما لا طاقة لنا به.

من حضنه، وتطلع إلى عينيها وهو ينكلم بسرعة وحماس حتى الإقناع من لسانه إلى عقلها وكيانها:

أفقي يا حبيبتي وتأملي المشهد حولك جيداً.. الأرض نفسها طاولة قمار كبرى جميعنا نقف فيها خلف أوراق اللعب وأحجار النرد.. التجارة رهان.. المغامرة رهان.. الحب رهان.. الحياة والموت نفسيهما مجرد وجهين لرهان كبير، وبينهما الكثير من الرهانات التي طالما لعبناها معاً دون أن ننتبه إلى ميزان الحلال والحرام.. فلم نُحرمين الرهان حين أصبح مكسبه مؤكداً، وابتسم لنا الحظ أخيراً ونحن على أعتاب عالم جديد سننقل إليه قريباً بنقلة كذلك التي نقلت غيرانا من بني جلدتنا وجعلتهم يستبعدون سيادتهم وملكيتهم للأراضي والعقارات والأسواق في هذه المدينة التي بناها أجدادنا منذ فجر التاريخ ثم تم طردهم منها شر طردة بعد أن عوملوا معاملة العبيد؟

عن مسكته العنيفة لمعصمها، ثم احتضنت يدها كفيها وغاصت أصابعه واستطرد:

هذا البلد قام على أكتاف عائلاتنا اليهودية كعائلات سموحة، ومنشأة، ورولو، وقطاوي، وموصيري، وعدس، وسوارس، وغيرهم.. وحين الوقت لتؤسس عائلة يُشار لها بالبنان ونؤمن مستقبل ابننا ودريته من بعدنا.. سناسب إحدى هذه العائلات ونكبر معاً مثلما حرّلوها علاقات النسب والصهر إلى بيزنس مشترك ضاعف أموالهم، وجعلهم سنداً لبعضهم ودولة داخل الدولة.

عيناها وتهيج صوتها وهي تقول:

وقد تكون نهايتنا مأساوية مثلما وجدوا شيكوريل مقتولا دون أن

تغني ثروته الطائلة ومئات الموظفين الذين يعملون تحت إمرته عنه شيئاً.

ثم أناملها وأعقب:



لمت كمن سرى في جسدها مليون فولت وقالت كالمصعوقة:

أذا ما تعلمت من مخالطة طائفة الزينانيين والأسكيناز الذين لا يكفون عن الحديث عن حلم دولة إسرائيل والوضع السياسي الدولي؟ حتماً اندسوا مع باقي الجاليات الأجنبية وعبروا بعقلك على موائد القمار.. أفق أيها الغافل وإسال نفسك: ما لنا ومال أوطان بديلة وقد خلقنا في وطن أصيل يحتضن كل أبناء الأرض من المهاجرين والمعذبين وراعيي السلام والسكينة؟.. أنتخلي عن كل ذلك وتذهب خلف مكاسب وهمية في أرض ليست أرضنا، لنخوض هناك حرباً من صنع أيدينا ثم نجني وبالها أبد الدهر؟.. ثم منذ متى والأرض ملك لأبناء دين معين وقد خلقها الله لكل البشر أملاً في التعايش؟

عاشا بخيبة أمل وحسرة على كلماته التي عجزت عن اختراق منطقها:

احتضان وطننا لمختلف الجنسيات مجرد احتضان وقتي، سيزول يوماً، صدقيني، شأن كل شيء لا يبقى على حاله.. ستتغير خريطة الإنسان والعمران يوماً، وعندها ستضيق تلك الأرض الواسعة علينا بما رحبت، وإن نجد لنا أرضاً تحتويننا سوى أرض الجدود التي نستحقها منذ أبد الدهر.. ثم إن هذا الوطن ليس وطننا شأن أوطان أخرى اعتقد نفر منا أنها أوطانهم بعد أن عاشوا فيها بسلام وعزتهم الأمانى، وما بين ليلة وضحاها أنقلبت عليهم شعوب تلك الأوطان وأبادوهم في مجازر جماعية أو ألقوهم أحياء في أفران متقدة مثلما يفعل هتلر اليوم.. منذ فجر التاريخ استعبد الفراعنة طائفتنا، وقضى فرعونهم الكبير على رجالنا، وسبى جنوده نساءنا وهتكوا أعراسهن، وقتلوا بأمره الأطفال الرضع، رغم أن مصر كانت وقتها وطننا.. وبعد عودة أكثر من مليون يهودي من فلسطين إلى مصر مرة أخرى واستقرار 200 ألف منهم بالإسكندرية في عهد البطالمة ومشاركتهم في إتمام بنائنا، طرد الرومان بعدها أجدادنا خارج أسوار المدينة بعد أن أوسعوا فيها القتل والسلب، وتحالف الشعب المسيحي معهم علينا وهدموا معابدنا، واستحلوا دماءنا كامة من الوثنيين الأنجاس رغم أننا لم نعبد صليلاً مثلهم.. ولم يختلِف الأمر في عهد الفتح الإسلامي.. اقْرئي رسالة الحنان بن شمربة

للأمجاد ضربيتها يا عزيزتي، لكن الوجه المشرق للثروة والجاه بساط المخاطرة.. لنقتدي بعائلة روتشيلد اليهودية التي تملك قدرًا كبيرًا ثروات العالم وتتحكم بأسعار الذهب في أمريكا وأوروبا والإمبراطوريات السياسية حتى نجحت في إصدار وعد بلفور\* بإقامة أوطان لنا في أرض الميعاد..

\* وعد بلفور: هو ذلك الوعد الذي أصدره وزير الخارجية البريطاني (لورد بلفور) بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، بالتأييد من نوفمبر عام 1917 م، في خطاب إلى اللورد (روتشيلد)، أحد زعماء الحركة الصهيونية العالمية وتأييد رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج، لكسب ود عائلة (روتشيلد) ذات الأصول الألمانية، والتي كان لها نفوذ قوي في صنع القرار بين الممالك والإمبراطوريات الكبرى في العالم بحكم سيطرتها على الاقتصاد العالمي وذلك بعد مفاوضات استمرت ثلاث سنوات بين الحكومة البريطانية من جهة واليهود البريطانيين والمنظمة الصهيونية العالمية من جهة أخرى، واستطاع خلالها الصهاينة إقناع بريطانيا بتدعيمهم على تحقيق أهداف بريطانيا، والحفاظ على مصالحها في المنطقة.

وكانت الحكومة البريطانية قد عرضت نص تصريح بلفور على الرئيس الأمريكي (ولسون)، ووافق على محتواه قبل نشره، ووافقت عليه فرنسا وإيطاليا رسمياً سنة 1918، ثم تبعها الرئيس الأمريكي ولسون رسمياً وعلمياً سنة 1919 وكذلك اليابان، وفي 25 أبريل سنة 1920، وافق المجلس الأعلى لقوات الحلفاء في مؤتمر سان ريمو على أن يعيد إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين، ويضع وعد بلفور موضع التنفيذ حسب ما ورد في المادة الثانية من صك الانتداب. وفي 24 يوليو عام 1922 وافق مجلس عصبة الأمم المتحدة على مشروع الانتداب الذي دخل حيز التنفيذ في 29 سبتمبر عام 1923.

كما كان وعد بلفور مكافأة أيضاً لعالم الكيمياء اليهودي البار، الدكتور (وايزمان) الذي ساعد بريطانيا في استخراج مادة الأميتون التي شُتخدم في صنع القنابل الحربية وكانت سُتخرج من خشب الأشجار، وكان استخراجها بكميات كافية يصعب إلى مقادير هائلة من الخشب، ولم تكن في إنجلترا غابات كثيرة تقي بهذه الحامض، فكانت بريطانيا تستوردها من أمريكا، ثم ارتفعت الأسعار وقت الحرب وابتدأ الجيش البريطاني في غاية الحرج، فوضع (وايزمان) مواهبه تحت تصرف بريطانيا اقتناعاً منه بأن أمل الصهيونية رهين بالنصر للحلفاء؛ فاستطاع أن يستخرج من الأميتون المطلوبة من عناصر أخرى غير الخشب، مثل الحبوب والذرة على وجه الخصوص، وبذلك حل لبوطانيا أعوص مشكلة عانتها أثناء الحرب، ورفض (وايزمان) تقاضي أي مكافأة مادية جزاء عمله، بشرط أن تصنع بريطانيا شيئاً في سبيل الوطن القومي اليهودي.

أوغر الصدور بأشبطته التجارية الاحتكارية، وتسليف التجار المتعثرين بالريا مستغلا حاجتهم للمال، حتى فوجئت الشعوب أن من جاؤوها ضيوفاً بسطاء قد علا شأنهم بعد أن امتصوا دماء مواطنيها، وتسيدوا عليهم، وعاملوهم معاملة العبيد.. بخلاف سياسات المكائد ونشر الخلافات والفتن لضمان الاستمرارية في السيادة والتحكم، حتى يضعف الخلاف الجميع ويشقت أوقاتهم ومجهوداتهم وأموالهم بل وأرواحهم ودماءهم إن لزم الأمر، وضمان بقائنا فوق قمة الهرم الاجتماعي بينما يتناحر الجميع تحتنا.. ألم تتأمل النظرة الدونية لغير اليهود من البشر واعتبارهم من الأغيار الذين تجوز سرقتهم واغتصابهم وقتلهم إن لزم الأمر في عرف المتطرفين من جنسنا؟؟ الشعوب لم تضطهد اليهود في واقع الأمر بقدر ما انتقموا من معتققي تلك الأفكار العنصرية التي لم يوصنا بها الكليم موسى ولا جدنا الأكبر إبراهيم، وإنما نشرها حاخامات تلموديون متعصبون، ومتطرفون آخرون رُوجوا لها باعتبارهم من حكماء وساسة بني إسرائيل فاتبعهم عبدة المال والشهوات والمتعصبون حتى جاء اليوم الذي دفعوا فيه ثمن ما يعتقدون ويفعلون.. غد لأي واقعة تاريخية مما ذكرت وستجدها - غالباً - نتيجة لتلك الأسباب التي اشتعلت الأحداث من عندها، وما أنت تسير على النهج نفسه وستصل لنفس النتيجة إن لم تعد لوصايا التوراة.

رأسه في عناد، وانتابت كلماته الحماسة وهو يتابع بلهجة لا ريب أنها أو تراجع محتمل:

ستستعيد أمتنا أرض الميعاد عما قريب، ولن نذهب إليها أنا وأنت وموريس خاوي الوفاض ك مهاجرين فقراء يقتاتون على فتات ما تلقىه إليهم الأيادي؛ بل وجهاً وأكابر سيذكرهم التاريخ كمؤسسين لدولة إسرائيل العظيمة.

استحبت إلى الخلف بعينين تتنافسان في إخراج أقصى كم من الدموع، وأمين متخاذلتين مرتعشتين، وانسحب معها آخر ما يربطها به من مشاعر، واحترام، وأمل في راب الصدع الذي اكتشفت أنه كسر من المستحيل أن يلتئم فتاته، فيما احمر أنفها الذي سال منه المخاط اللزج ليمتزج بالدموع وهي تقول بلهجة وداع خرجت من فؤاد محطم:

رئيس الطائفة اليهودية في مصر عام 1011 ميلادياً، أرسلها للقدس يشكو فيها من اضطهاد الخليفة الحاكم، وقد علقوا خشبة حول رقابنا، وهذمت الكنائس اليهودية، والتوراة ونُشرت في الطرقات، ثم أسالي نفسك عن أي وطن تتحدثين.

لقد تكرر الظلم والاضهاد الواقع علينا من عصر لعصر ومن بلد لبلد، كأمة رخيصة هانت على الأمم التي أدركت لا وطن لنا أو مأوى قباعت واشترت فينا بثمن بخس.. فرنسا أجبرنا الملك لويس وابنه فيليب الثالث على الدخول المسيحية، واستصدروا تشريعاً كرسياً بارتداء اليهود زياً مسيحي، وفرضت عليهم ضرائب باهظة، وجاء من بعدهم في الرابع ليصادر ممتلكاتهم ويطردهم من فرنسا رغبة في تطهيرها من أجل المسيحية.

وفي إنجلترا عام 1189 ميلادياً هجم الإقطاعيون والبارونات على اليهود وقتلوا أعداداً كبيرة منهم، واختفت الطائفة اليهودية من السجلات التاريخية زمناً طويلاً..

وفي إسبانيا عام 1391 ميلادياً ظهرت المذابح الجماعية لليهود.. وسنستيقظ يوماً إن بقينا ها هنا على مذبحه جثثاً تطير فيها رقابنا في لحظة تحول مفاجئة، يأتي بعدها من يعمل بقايا الأجساد الطامرة من رؤوس، وأمعاء، وأصابع في أكياس بلاستيكية تُلقى بلا مبالاة في حفرة حقيرة تبول عليها الكلاب، وتتوه أسماؤنا وسط آلاف الأسماء التي سيتجاهل التاريخ أصحابها، مكتفياً بذكر إجمالي عددهم كضحايا لمذبحة جديدة تضاف لمذابح ارتكبت ضد اليهود دون أن يقتصر لأرواحهم ودمائهم أحد، مثلاً لا نعرف أنا وأنت أسماء الآلاف الذين سقطوا في مذبحه كيشيوف التي تعرض لها اليهود بالإمبراطورية الروسية في بداية هذا القرن.

صرخت فيه:

كل الشعوب في البداية تفتح أذرعها لنا، لكن بعضنا هو الذي

عيناها وهوى قلبها في قديمها حين انتبهت إلى معنى كلماتها  
التي كان غائبا عنها، وعلمت أن المأساة المرتقبة صارت أكثر فداحة  
من تخيل..

ذهب قديسها الصغير ليعيش مع أمه عند جدته في حارة اليهود بالقاهرة،  
بحريته حواس الخمسة التي ما عرفت فوائدها واستخداماتها إلا  
شمسه في عالمها المظلم.. رؤية وجهه، وسماع صوته، وتذوق  
لمسه، ولمس يديه، وشم رائحته.

لأنه كانت ضريبة في عالم وحيد لم يُعابرها فيه أحد بأنها عماء أو  
بفروعة ما يراه بعينه أمامها ليشعرها بحجزها، فلم تكتشف مأساتها  
إلا حين وجدت يدا حانية قادتها من الظلمات إلى النور.. عندها فقط  
كانت حجم الكارثة التي كانت تعيشها، لكن - بفضل الرب - كان ذلك  
يفسر لحظة الشفاء التي لازمت اكتشاف المرض، والآن جاء طبيبها  
بها بضرورة إعادتها لعالم الوحدة والعلى من جديد بعد أن ذاقَتْ  
عذابت وجريت ما لن تستطيع الاستغناء عنه..

راح قلبها في موسم الربيع، فإذا به في الموسم نفسه يحترق ويصبح  
أدما تذروه الرياح بعد أن عبث أحدهم بالكرة الأرضية، وبذل المواسم،  
الاستفد الخريف في غير مواعده، لتتحب وتتردد بانكسار:

لماذا لم يستأذنا أحد قبل أن يحضرونا إلى هذا العالم؟

\*\*\*

هزّت 5 سنوات..

لعلة بسيطة في بحر الزمن، لكن بعض نقاط الماء قد تنقب الصخر،  
وبعض السنين القلائل قد تغير مسائر البشر ومجرى التاريخ..

سنوات حدثت خلالها قفزة في حياة (زكي) الذي استثمر كل ملهم  
ربحه من القمار عن طريق دجاجته الذهبية (جرجس)، وأخذ يضارب في  
البورصة، ويدخل في صفقات سريعة ضاعفت من أرباحه، حتى أصبح  
يملك عقليته الماسية من الأعيان، وسكن بإحدى فيلات شارع (داود  
سون) المجاور لشارع (أبو قير) الرئيسي بمنطقة (الوران) الراقية، بعد أن

تكلّم بصيغة المفرد، فكلانا ينتمي لوطنٍ مختلف.. ودينٍ آخر..

دون أن يشعر أي منهما في غمرة انتصاره لوجهة نظره، تلك الملامح  
البريئة التي غزاها الوجود وصاحبها الصغير يتابع عن قرب من  
خفي مناظرتيها الأخيرة، بعد أن لاح في الأفق فصل الختام.

\*\*\*

على شاطئ الإبراهيمية المليء بالوجوه الأجنبية، التقى (موريس)  
(دميانة) حاملين الملاحم المصرية الوحيدة في المكان الذي لا يرحم  
المصريون الذهاب إليه، ليلقي الأول قولاً ثقيلاً بمزید من الحزن والألم:

- لقد حسمت أُمي أمرها وقررت الذهاب إلى جدتي في حارة اليهود  
بالقاهرة لتعيش معها أيام ما قبل النهاية بعد أن وصلت الأمر  
إلى طريق مسدود.. كنت أتمنى أن تكون اليهودية كالمسيحية  
في صعوبة حدوث الطلاق بشكل يقترب من الاستحالة، لكن  
بكل أسف مثل الإسلام في إباحة وقوعه حال إذا ما رغب أحد  
الطرفين أو كلاهما في الانفصال.

انحدرت دمعاً ساخنة على خدها الأيمن وهي تحاول طرد ذلك الكاوس  
متطلعة إلى ملامحه الحزينة، لعل بسمه خاطفة تلوح منه ويخبرها بغيرها  
أن الأمر برمته كان مجرد مزحة سخيفة، لكنه ظل على حزنه الذي  
ضخم هواجسها ودفعها لتسال بصوتٍ باكٍ جريح:

- لقد عوضني حضن أمك الحنون عن فقد والدتي.. لا أستطيع  
أن أتخيل حياتي بدونها مع أب اعتدت طوال حياتي أن وجوده  
مثل عدمه كصفر في خاتمة الشمال.. هل تتخيل شعور غريب  
ما ليث أن وجد طوق النجاة في عرض البحر ثم اكتشف بعد  
التعلق به أنه متقوب؟ كان من الأولى به أن يغرق من البدار  
بدلاً من التعلق بأملٍ كاذبٍ سيجعل غرقه أشدّ ألماً وعذاباً.

هز رأسه في أسى، وأفرج عما يجيش في صدره بحزنٍ أكبر من حزنها:

- كلانا مأساته واحدة.. الفارق أنك فكرت في فقد أُمي، وأنا فكرت  
في فقرك.

تملك محلات تجارية تتاجر في كل شيء، سواء الملابس، أو الأغذية الكهربائية وغيرها..

قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، شارك (زكي) في شن حملة دبرها اليهود لمقاطعة البضائع الألمانية تحت شعار "قاطعو البضائع الألمانية كنوع من الإنسانية"، وبعد حسم الحرب لصالح قوات الحلفاء وانتشار (هتلر)، شارك في الخفاء مع عائلة (موصيري) في دعم العرب الصهيونية وتمويلها، الذي بدأ مع أول جمعية صهيونية نشأت في مصر عام 1897م، لبيتبعها ظهور 14 جمعية في القاهرة والإسكندرية. اتحدت عام 1917م تحت اسم "الاتحاد الصهيوني" الذي كان رئيسه (جاك موصيري)، وأصدروا صحيفة (إسرائيل) بثلاث لغات: العربية والعبرية والفرنسية لصاحبها (ألبرت موصيري)، ونظموا احتفالات بمناسبة إصدار وعد بلفور حضره 8 آلاف يهودي، وشارك (زكي) في تهجير اليهود المصريين إلى دولة فلسطين التي أقرت "عصبة الأمم" أنها أصبحت تحت الانتداب البريطاني بعد ضياعها من الدولة العثمانية التي انضمت لقوات المحور وألقت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. فانتقلت إلى السيادة الإنجليزية من يومها، ليندمج اليهود المهاجرون من كل الجنسيات في الأراضي الفلسطينية ببطء وخطوات تكتيكية محسوبة صانعين مجتمعاً يهودياً مترابطاً يُسمى بالـ (اليشوف)، حتى شكلوا في غفلة من الزمن عصابات مسلحة صنعت أسلحتها في ورش سرية رغم تجريم الانتداب البريطاني لحيازة الأسلحة وسن عقوبة الإعدام من يملكها، بخلاف سرقة بعض مخازن الأسلحة والذخيرة البريطانية، وتصنيع سيارات يهودية، ثم بدأت فجأة في شن الحرب على الشعب الفلسطيني بغرض تهجيده من أرضه وقتل وإبادة من يُصمم على الدفاع.

أشهر هذه العصابات كانت عصابة الهاجاناه التي تأسست في مدينة (القدس)، وتعني "الدفاع" باللغة العبرية، وانضم إليها آلاف الشبان اليهود، وقامت باستيراد السلاح الأجنبي، وانتشاء الورش لتصنيع القنابل اليدوية والمعدات العسكرية الخفيفة، وتحولت إلى جيش نظامي بعد أن كانت ميليشياً، بدعم وإشراف من قوات الانتداب البريطاني، وعصابة الإرجون أو "المنظمة العسكرية القومية" باللغة العبرية، وكان شعارها يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كتب حولها بالعبرية: "راك كاخ" أي "هكذا وحسب"، ليبدأ عمل هذه العصابات على قدم وساق في انتظار اليوم المرتقب الذي بات مجيئه قاب قوسين أو

أشياء، بخلاف عصابتي البلماخ والشتيرن.

أما (جرجس) فقد استعان بمربية استقدمها من بلدة (كفر الدوار) ليسند لها مهمة رعاية ابنته الوحيدة، ويسقط من على كاهله أعباء واجبات الأب، حتى يتفرغ للعب القمار الذي أدمنه وتركه من أجله المحاماة.

أعرف لعبة الكرايس، ونسى أرقام نرد الطاولة، سواء الدش، أو الشيش، أو الدو، أو السيه وغيرهم، ودخل لسانه عصراً جيداً تعلم فيه مفردات تلك العالم المختلف الذي صار عضواً دائماً فيه، ليردد: بوكس كارز، هاي بت، هارد وي، هاي لو، وفي فمه السيجار بدلا من البوري.. وبعد أن كانت البيرة مشروباً في المناسبات والأعياد فقط، صارت مشروبه شام هي والشامانيا بدلا من الإسبائس.

لم يرد الكرايس التي كان مكسبه فيها مؤكداً، كزهد البشر في كل شيء ساح وسهل، وأدمن الألعاب التي يتجرع فيها الخسارة، ليجد متعته العديدة في البوكر دون أن يقوى على الابتعاد عنها رغم الخسائر الفادحة التي كلفته الكثير والكثير إلى درجة بيع أثاث منزله، وطرد مربية ابنته التي لم يجد المال الكافي لأجرتها.

من عاد للعب على المشاريب في مقهاه القديم، اكتشف (سليم) ذلك العامل الأسبوطي بالمقهى سر تفوقه في لعبة الطاولة وقدرته على طبع أرقام النرد حسب رغبته.. كان ذلك حين راقبه وهو يتبول في سلة المهملات، ووجد يبول على يده اليسرى عن عمد، ليعود بعدها وقد هلفه الحظ في كل رمياته!

من راقبه مرة أخرى وتكرر ما شاهده بنفس التفاصيل، أيقن أن الأمر ليس صدفة، فأفشى سره بين الزبائن، وصار الجميع يشترطون عليه ألا يذهب للمبولة وهو يلاعهم، حتى إنهم صاروا يضعون إلى جواره ماجة فارغة يتبول فيها أمامهم كشرط أساسي حتى لا يذهب للمبولة، "حرب - أول مرة في حياته - أن يخسر اللعب على المشاريب، وتتخطم أسطورتته.

من حاول الرجوع مرة أخرى لأحضان الكرايس كانت الأمزجة تغتير، وصار الإقبال عليها أقل بكثير، بعد أن أسهم هو نفسه في إقناع بعض رفاقه في هذا العالم بلعبة البوكر. أطلعت علاقة بـ (زكي) اتخذته سلفاً لتحقيق أهدافه، ثم لفظه كمن أظلم من حياته كلياً أجرب أنتهى الغرض من تربيته.. فما فائدة رفيق



الأمس الذي كان تيمة الحظ والمكسب، بعد أن صار إله المركز الأهم في كل شيء؟!

كل الآلاف التي ربحها (جرجس) ضاعت في الليالي الحمراء، ومضاهيات الفتيات الصغيرات من كل الألوان والأشكال إلى حد اصطحابهن معاً إلى منزله ليلاً غير عابئ بـ (دميانة) التي كانت تنام في حجرة مجاورة وكثيراً ما كانت تستيقظ على أصوات معارك السرير الطاحنة، لتفتح باب حجرة النوم بفضول ذات مرة رأت فيها ما خدش حياءها وهناك برأى للبد، قيل أن تجرب صفعاً جديدة أفتعتها بعدم فتح ذلك الباب مرة أخرى وإن كانت بمفردها في المنزل.

لكن على الأقل كان القدر رحيماً بها فيما يتعلق بـ (موريس)، الذي لم تتألم والدته مع والدتها حادة الحزن، بخلاف عدم قدرتها على مغادرة الإسكندرية، فعادت من حارة اليهود في القاهرة واستأجرت غرفة في سطح إحدى العمارات بشارع (سعد زغول) وضعت على بابها الـ «مزوراء» واحتفظت داخلها بنسخة من التناخ و«كيبا» \* كانت حريصة أن تترك (موريس) يارتدائها، لتضمن المعيشة في معية الرب الذي يؤمن به والده تعالىمه.

رفضت أن تأخذ أي أموال من زوجها السابق، وتركت له شقة (بحري) لتكتفي بتلك الحجرة ونهب حياتها لتربية ابنها الوحيد بجانب العطف على (دميانة)، ابنتها التي لم تلدها، وهكذا ظل القديس الصغير الموصوف إلى جوار زهرته الجميلة التي أقسم أن يرعاه في بستانه حتى يرحل أوراقها من الذبول ويمسحها من التساقط في خريف القدر، ومعه أمه تبارك أفعاله وتتولى عنه مسؤولية الأمور التي تفوق طاقته.

\* المزوراء: هي رق مستطيل الشكل، تكتب عليه الجمل الملائمة من العهد القديم التي يختارها الشخص اليهودي، وتعلق على كل أبواب المنزل والحجرات عدا الحمام في بيوت اليهود، حيث يأمر الكتاب المقدس اليهود مرتين بأن يكتبوا كلمات الرب على أبواب بيوتهم، وعلى الجانب الآخر من الرق تظهر كلمة «شذائي»، وهي أحد أسماء الرب، وتتكون من الحروف الأولى لكلمات ثلاث: «شومير دلاوتو يسرائيل»، أي «حامى أبواب اسرائيل».

\*\* كيبا: هي الطائفة اليهودية التي يتم ارتداؤها للدلالة الخارجية على كون الرجل يهودياً متديناً، وقد تكون مشوشة بأنماط مختلفة، وأحياناً يطرز عليها اسم صاحبها إذا كان ملحقاً.

سلعت إلى عينيهِ وقالت بحزنٍ عميق:

العام نفسه، وأعلنت أن تقسيم فلسطين غير قانوني، وقررت أن  
تسحب ١٠,٠٠٠ بندقية و ٣,٠٠٠ متطوع ضمن ما يُعرف بجيش الإنقاذ،  
٥٠٠ فلسطيني، بعد أن أمرت بتشكيل لجنة عسكرية فنية لتقييم  
العمليات الدفاعية الفلسطينية ضد العصابات الصهيونية، وخرج التقرير  
بمستجابات تؤكد قوة اليهود، وعدم وجود قوى بشرية للفلسطينيين، أو  
لهم أو سلاح أو ذخيرة يُوازي أو يُقارب ما لدى الصهاينة، وحث  
على «الدول العربية على «تعبئة كامل قوتها»..

صارت حدة القتال بين الفلسطينيين واليهود بعد قرار التقسيم الصادر  
من الأمم المتحدة، وبلغت أعداد عصابات الهاجاناه الصهيونية قرابة  
٤٥,٠٠٠ فرد، وحينما بدأت التعبئة في أعقاب قرار التقسيم انضم إلى  
هاجاناه نحو ٣٠ ألف مجند من يهود فلسطين و ٢٠ ألف آخرين من  
أوروبا، وفي بداية عام ١٩٤٨م، تشكل جيش الإنقاذ الفلسطيني  
تحت الضابط السوري (فوزي القاوقجي)\*، فاجت عصابات الأرجون  
وساروا إلى استخدام السيارات المفخخة في تفجير مركز الحكومة  
فلسطينية في يافا مما أسفر عن مقتل ٢٦ مدنيًا فلسطينيًا وفي مارس  
١٩٤٨م قام المقاتلون الفلسطينيون غير النظاميين بنسف مقر الوكالة  
اليهودية في القدس مما أدى إلى مقتل ١١ يهوديًا وجرح ٨٦..

صعدت الأمم المتحدة - بعد تحرك صهيوني خفي- على بريطانيا  
لإهاء انتدابها على فلسطين، حتى يخلو الجو لليهود هناك، فتقرر  
الحكومة البريطانية إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في منتصف  
أيلول بين يومي ال ١٤ وال ١٥ من مايو ١٩٤٨..

السوري القاوقجي: قائد عربي عظيم تميز بشجاعته النادرة وعرويته التي دفعت  
هذه المعارك ضد الاستعمار في مجمل المناطق العربية. ولد في مدينة طرابلس  
بولاية العثمانية، ودرس في المدرسة الحربية في الأستانة (إسطنبول)، ثم اشترك في  
الحركات السورية ضد المستعمر الفرنسي، وشارك في المعارك ضد الإنجليز خلال  
الحرب العالمية الأولى في العراق عام 1914، وفلسطين عام 1916 حين كانت  
تحت حكم الدولة العثمانية. ساعد الملك عبد العزيز آل سعود في تشكيل الجيش  
السعودي عام 1929، وشارك في ثورة فلسطين على المحتل البريطاني عام 1936،  
وفي العراق أسهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 على الحكومة العراقية  
البريطانية للإنجليز، وقوى قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام 1947، وقام بتجنيد  
الشار من المتطوعين الفلسطينيين بين عامي 1947 و 1948 لقتال المحتلين  
الإسرائيليين.

- أخلاقي لا تجد مانعاً في تمني مبادلتك القيلات.. لكن، الس  
يقف حائلاً بيني وبينك إذا ما أردنا أن نصير جسداً واحداً

أمسك كفيها وتابع:

- كلانا يؤمن بالمسيح، غير أن مسيحك قد صُلب، ومسيحي  
يُبعث بعد.

تركت يدها بين كفيه وخفضت عينها وقالت بصوت خافت وكأها  
تقوى على المصارحة:

- ليست المشكلة في صلبه، بقدر أن من صلبه كانوا من اليهود

وضع أنامله تحت ذقنها ورفع وجهها الجميل ليتطلع إليه قائلاً  
ومحبة خرجت من القلب:

- إن كان قد صُلب من أجل الخلاص في عقيدتك، فلا تترك  
أعداءه تنفيذاً لوصاياه.. ألم يقل: أحبوا أعداءكم؟ ثم إن  
الأمس غير يهود اليوم.

- طالما صليت من أجلك وطلبت منه أن يحبك مثلما أحببتك

وضع رأسها على كتفه بحنان وقال وهو يمسح شعرها:

- يكفي أن تدليني على المحبة حتى تدليني على الله.. قال  
صلاة تسمو فوق كل صلاة.

\*\*\*

٢٩ نوفمبر، عام ١٩٤٧ م

وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دول  
يهودية ودولة عربية فلسطينية وتدويل منطقة القدس وجعلها منطقة  
دولية لا تنتمي لدولة معينة ووضعها تحت حكم دولي، لتصبح خمسة  
اليهود في الأرض ٥٦%، و ٤٣% للعرب، و ١% لمنطقة القدس الخاصة  
تحت الانتداب البريطاني بإدارة الأمم المتحدة، وسط معارضة واستنكار  
شديد من الدول العربية التي اجتمعت في القاهرة بين ٨ و ١٧ ديسمبر

قوات من سوريا، ولبنان، والمملكة العربية السعودية، لتدخل الجنود العربية أرض فلسطين وتتضم جيش (الجهاد المقدس) الذي تكوّن من مجموعة من الفلسطينيين وبعض مسلمي البوسنة وبعض المرتزقة من الألبانيين الذين بلغ عددهم حوالي 30 ألفاً وبرتباطياً..

عاش الأردني يُبلي بلاء حسناً، ويجتاح القدس ويسترد الضفة الغربية المحتلة في يد الجيش العربي، ويلحق بالجيش الإسرائيلي خسائر فادحة، ثلاثة ألوية عبرت نهر الأردن إلى فلسطين، ثم ازدادوا إلى أربعة مع سعي الحرب، بالإضافة إلى عدة كتائب مشاة..

الجيش المصري يقوم بتحويل طائرات النقل إلى قاذفات للقنابل لتسهم في الحرب حيث لم يكن هناك قاذفات للقنابل في ذلك الوقت، بينما هاجمت قواته تجمعي (كفار داروم) و(نيريم) الصهيونيتين، ورايض حوده وضباطه في قرية (الفالوجة) لمحاصرة مدينة غزة، وسط ترحاب شديد من الشعب الفلسطيني الذي تعرّض قبل مجيئهم إلى مذبحه.

القوات اللبنانية تُحارب على الجبهة الشمالية وتُسوّلي على قريتي (الملككية) و(قدس) في منطقة (الجليل الأعلى) جنوب الحدود اللبنانية.

القوات السعودية تُبائر القتال جنباً إلى جنب مع القوات المصرية وتخوض المعركة الأولى في (بيت حانون) بالقرب من (غزة)، وتواجه مستعمرة (بيرون إسحاق)..

الجيش العراقي يُحرر مدينة (جنين)، ويطرده المنظمات الصهيونية منها وعلى رأسها الهاجاناه بعد معارك شرسة، ويصعب بمشاركة قوات فلسطينية على حافة تحرير (حيفا) التي تمت محاصرتها، ولكن تقدم الجيش توقف فجأة بسبب رفض القيادة السياسية في (بغداد) إعطاءه الأوامر للزحف وتحرير المزيد من الأرض، مما سبب إرباكاً شديداً بين صفوف القوات العراقية!

مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يتدخل ويفرض على الجميع وقف إطلاق النار، وحظر تزويد أي من أطراف الصراع بالأسلحة في محاولة للتوصل إلى تسوية سلمية..

إسرائيل لا تلتزم بقرارات مجلس الأمن، وتسارع في تعويض خسائرها في الوقت الذي انهالت عليها الأسلحة بصورة ضخمة لا سيما الطائرات،

العصابات اليهودية في فلسطين ترتكب أكثر من ٧٠ مجزرة جماعية وكانت مجزرة قرية (دير ياسين) في التاسع من أبريل عام ١٩٤٨م من أخطر وأبشع هذه المجازر، حيث أبادت عصابات الأرجون وشبان سكان القرية عن بكرة أبيهم، واستغلت العصابات اليهودية المصادفة الحادث في توجيه رسالة تهديد للشعب الفلسطيني: إما الرحيل أو الإبادة والاعتصاب والسلب والنهب والحرق كما حدث في (دير ياسين)..  
بعد ثلاثين عاماً قررت الجامعة العربية إرسال الجيوش العربية إلى فلسطين، وأكدت اللجنة السياسية أن الجيوش لن تدخل قبل انتهاء الانتداب البريطاني وانسحاب بريطانيا المزمع في ١٥ مايو.

في الساعة الرابعة عصرًا يوم ١٤ مايو، قبل ٨ ساعات من انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين ورحيل آخر جندي إنجليزي، أعلن المجلس اليهودي الصهيوني في تل أبيب أن قيام دولة إسرائيل سيصبح ساري المفعول في منتصف الليل، وبالفعل أعلن (ديفيد بن غوريون) الرئيس التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ومدير الوكالة اليهودية قيام الدولة الإسرائيلية، عودة الشعب اليهودي إلى أرضه التاريخية رسمياً دون أن تُعلن حدودها بالضبط، ليعلن الرئيس الأمريكي (هاري ترومان) الاعتراف بدولة إسرائيل بعد إعلانها ببضع دقائق.

الهجرة اليهودية تتوالى من شتى أقطار العالم.. مصر، اليمن، الحبشة، العراق، الهند، أوربا، روسيا، أمريكا، وأكثر من سبعين جنسية أخرى يفضل يهودا وطنهم الجديد في إسرائيل عن أوطانهم التي نشأوا وترعرعوا فيها، ليرتفع عدد اليهود من خمسين ألف مهاجر إلى ستين ألف وخمسين ألفاً.

(ديفيد بن غوريون) رئيس الحكومة الإسرائيلية المؤقتة يقيم أول مجلس دفاع إسرائيلي بعد أقل من أسبوعين على إعلان دولة إسرائيل، لمواجهة العرب الذين اتحدوا - أخيراً - لتحرير فلسطين، في حرب بدأت رحاها في الأسبوع الأول من يونيو عام ١٩٤٨.

اندلعت الحرب في المستعمرات الصهيونية، وارتفعت معها أعداد الميليشيات الصهيونية المسلحة ووصل عددهم في الأسبوع الأول إلى 107 آلاف جندي وجندية نتيجة لرفع سن التجنيد إلى 35 عاماً، ضد جيوش المملكة المصرية، والمملكة الأردنية، ومملكة العراق، ومعهم

في أول مساندة القضية الصهيونية وذلك من خلال مقابلة سرية بينهما في إحدى محطات توليد الكهرباء اليهودية بأمارة شرقي الأردن، حتى إنه وافقته على خطة تقسيم فلسطين، لذا شارك في الحرب لاكتساب خبرة أمام شعبه وتشكيل ورقة ضغط لتمرير مصالحه ليس أكثر، بل كان على خلافات مع الكثير من الحكام والقادة العرب الذين كانوا يمشون أطماعه وطموحاته، حتى إنه رفض عبور القوات السعودية من خلال أراضيه إلى فلسطين، كما تحالفت معه وأيدت أهواءه المملكة العراقية الهاشمية التي كان هناك فرع أردني داخل سلطتها، حتى إن وزراء العراقيين الذين أصروا مرارًا وتكرارًا على فرض حظر تجاري دولي على الدول الغربية المالية لإسرائيل، لم يقوموا بأي إجراء لتنفيذ هذه القرارات.

في فلسطين نفسها كانت هناك خلافات بين قائدتين يقودان القوات الفلسطينية.. (عبد القادر الحسيني) قائد جيش الجهاد المقدس، و(فوزي عاروقجي) قائد قوات جيش التحرير العربي..

كيف ينتصر جيش من الجنود والضباط المخلصين، بقيادة ممزقة صفت على قلب رجل واحد، ما بين خائن، أو قاسد، أو متعصب لرأيه لا يسمع للآخرين؟

هنا.. "دخل العرب فلسطين وهم في ظاهريهم أمة واحدة، وكلمة واحدة، مجتمعين للدفاع عن فلسطين ملك آبائهم ومردق أجدادهم الفاتحين، بينما كانت قلوب قادتهم وحكامهم شتى، وأهواؤهم متباينة، يضم بعضهم البعض الآخر غير ما يظهر، ويبدون جميعهم من الحماسة والحمية غير ما يبطنون. ومن غريب أمر هذه الدول البائسة أنها زجفت على فلسطين وبعضها لبعض كاره، وحاسد، ومبغض شرًا، رغم أن إجمالي القوات العسكرية لأعضاء الجامعة العربية كان قوامه 165 ألف جندي، بالإضافة إلى ميزانية عسكرية تصل إلى 28 مليون جنيه إسترليني، وبلغ عدد سكان مصر والعراق وسوريا وشرق الأردن ولبنان واليمن والمملكة العربية السعودية نحو 45 مليون نسمة، بما يوازي 200 ضعف عدد سكان دولة إسرائيل الوليدة!

دخل اليهود فلسطين اشتائًا ينسلون من كل فج من فجاج الأرض، هاربًا واحدًا، وكلمة واحدة، وهدفًا واحدًا، ظاهريًا وباطنيًا، باذلين الأموال

بينما تطوع الكثير من يهود أوروبا إلى الذهاب لجبهات القتال، إيمانًا مع الجيش الإسرائيلي في خرق الهدنة والتوسع في الأراضي التي احتلتها فرجفت قواتها نحو (الغالوجة) التي يرايض فيها الجيش المصري ومقاتلتيه جنوده وضباطه من أجل إضعاف الجبهة الجنوبية التي كانت تسيطر شيئًا فشيئًا من (تل أبيب)..

مباحثات سرية تتم بشكل منفرد بين بعض القادة العرب وبين إسرائيل، غير أن كل القادة لم يكونوا مجتمعين، بل كل يفادوض بمفرده لإنهاء الحرب!

في 8 يوليو عام 1948، استأنف الجيش الإسرائيلي القتال في الجبهات رغم محاولات الأمم المتحدة لتمديد مدة الهدنة، وعندما استأنف المعارك من جديد كان للجيش الإسرائيلي اليد العليا، واتخذت المعارك مسارًا مختلفًا تعرضت فيه القوات العربية لسلسلة من الهزائم، استطاع إسرائيل بعدها أن تفرض سيطرتها على مساحات واسعة من أراضي فلسطين التاريخية، لتنتهي المعارك في 21 يوليو بعد أن هددت إسرائيل الأمن بفرض عقوبات قاسية على الجوانب المتقاتلة، فقبل العرب الهدنة الثانية التي كانت اعترافًا بالهزيمة، وضياح فلسطين.

تقارير ساخنة في الصحافة المصرية والعربية والعالمية تشير بالنقد والتصریح لخيانة وإهمال القادة العرب..

رئيس الأركان المصري اتضح أنه أبلى الملك (فاروق)، بأن الجيش المصري على استعداد تام للقتال، مؤكداً أنه: "إن يكون هناك حرب مع اليهود، وأنه سيكون مجرد استعراض للقوة دون أدنى تعرض للمخاطر، وأن جيشنا سيصل إلى تل أبيب في أقل من أسبوعين". في حين أنه في الواقع، لم يكن الجيش مستعدًا، ولم يكن يمتلك حتى خرائط لفلسطين بخلاف إمكاناته الفقيرة التي لا يمكن اعتبارها جدية قوة غزو، وشبه إمداد الجيش المصري بصفة أسلحة فاسدة.

الملك الأردني (عبد الله) الأول، شارك في الحرب لأنه كان يحلم بتأسيس (الأردن الكبرى) التي تضم تحت وصايتها كلا من سوريا، ولبنان، وفلسطين، وأمارة شرقي الأردن، مما جعله في خلافات مع (أمين الحسيني) مفتي فلسطين، والنظام السوري، كما أكد الملك (عبد الله) لـ (جولدا مائير)



والأرواح، مُسَخَّرِينَ قَوَى العالم، مُسْتَعْمِدِينَ لأغراضهم أمريكا وروسيا. فكان ما لا بد في مثل هذه الحال، أن يكون النصر للعرب الهزيمة.

ما عرف التاريخ أرضاً غالية مقدسة، لدى أهلها إمكانية حمايتها عنها، ضاعت بأرخص مما ضاعت به فلسطين\* فصدق من، "إنما يأكل الذئب القاصية من الغنم!"

\*\*\*

عادت (دميانة) من لجة ذكرياتها، في ذلك الملوكوت السماوي، عيناها البراققتان بعيني المُعْلَم مجدداً، ثم سألت مشاعرها وذكرياتها صورة خطين من الدموع الساخنة على وجنتيها، لينظر المُعْلَم إلى نظرة ثاقبة اخترقت ماءها المالح، ورأت ما فيها من أحداث جسام تجسدت على صفحة وجه (دميانة) البائس..

رأى كرات النار تنهال على محلات (شيكوريل) اليهودية، وأفراد جماعة الإخوان المسلمين يقومون بإلقاء القنابل ضد محلات معاركة لليهود، انتقاماً لما فعله أقرانهم في فلسطين، قاصدين من هذا العمل الجهاد في سبيل الله..

انفجارات أخرى تدوي هنا وهناك في حارة اليهود بالقاهرة في الوقت الذي كانت ترزور فيه (إيليان) والدتها المريضة، لتسقط مع من سقطوا..

(موريس) و (دميانة) يركضان في أروقة أحد المستشفيات، وما أن يسالا إلى غرفة الأم، حتى يجداها مغطاة بملاءة بيضاء..

يقترّب (موريس) بخطوات ثقيلة بطيئة لا يُصدّق نفسه.. يرفع الغطاء بيدَيْن مرتعشتَيْن، فتتسع عيناه من هول المنظر وبشاعته بينما... (دميانة) الوعي..

\* الجزء المكتوب بين علامتي التنصيص مأخوذ من جريدة (السفير) الفلسطينية، بتاريخ مايو 2010 م يتصرف.

بالحق باب منزل (جرجس) ويطلبه بتسليم شقيقه التي رهنا عنده الحصول على مبلغ من المال خسره في القمار، فيرتسم الذل على ملامحه، وهو يتوسل إليه طالباً مهلة أياماً معدودات من أجله يدبر له المبلغ الذي اقترضه منه دون أن يُفْطِر في شقيقه، الدائن أن أمامه يوماً واحداً فقط، بينما تطل (دميانة) برأسها من دورتها لتتابع الحوار الصادم بقلب واجب..

(ي) كأس النبيذ في احتفال سري بفيثله مع عدد من كبار اليهود، إذا للهجرة، قبل أن يُفاجأ أمامه بـ (جرجس)، صفحة الأمس التي أن تتطوي بعد أن تدهور الحاضر إلى حد مُخيف، فجاء بعد أن كل الأبواب في وجهه، ولم يجد سوى صديقه اليهودي بديلاً..

واجهة سريعة ومقتضية استعرض كل طرف فيها أفضاله على الآخر، انتهى الأمر بخروج (جرجس) مطروداً مسحوراً، بعد وصلة ضرب تلقاها حين فقد أعصابه وحاول الانقضاض بيديه على غريمه..

سعد (جرجس) درجات السلم في ذلك العقار بشارع (سعد زغلول) في طريقه لتلك الحجرة التي يسكنها (موريس) وقد أضمر في نيته هدفاً واحداً.. لا بد أن يحرق قلب (زكي) على ولده جزاء على ذلك النكران المجرم الذي اختتمه بوصلة من الذل والمهانة..

سبع بجوار الجثة رسالة تفيد بأن مرتكب الحادث فعل ذلك انتقاماً من ذلك الشاب اليهودي ابن أحد كبار الأثرياء اليهود الذين يُساندون إسرائيل في الخفاء، لتتجه الشبهات نحو جماعة الإخوان المسلمين..

قال باب الحجرة ويفتحه بضربة واحدة، وفي عينيه شر الدنيا كله، ولم أن يخرج مطاوعة من جيبه يتلقى هو الطعنة القاسية حين وجد (موريس) و (دميانة) على سرير واحد، في لحظة قررا فيها التجرد من الملابس، واللحم، والدم، والعظم، لتلتقي روحاهما المعذبة في جنة بلا دمار دينية أو طبقية بين البشر، صنعها جيهما على مفاص حالتهما البائسة، وكلمة سر فتح بابها المغلق هو الاحتضان والاحتواء، ليهربا هناك من ذلك العالم الموحش، لكن قبل إتمام رحلة الوصول ظهر هذا المطب الصناعي الذي غيّر المسار وقلب الأوضاع..

على الدم في عروق (جرجس) وتضاعفت رغبته المحمومة في قتل ابنته

سيرة.. ولا يتفاجأ عند عودته بما حدث، قبل أن يستقل تلك المركب  
السفينة إلى إيطاليا، ومنها يذهب إلى إسرائيل حسبما رتب له والده كل  
قبل رحيله..

هذه النقطة توقفت الذكريات عن التدفق حين مرر المعلم أطراف  
أسفل عيني (دميانة) لتجفف دموعها مع لمسته الحنون، وتسري  
أوصالها مع لمسته رعدة رهيبه، لكنها كانت الرعدة التي تسبق  
الهادئة والهدوء..

لأت أن تستجمع قوتها ورباطة جأشها وقد وجدت أن الجراة والصراحة  
مناخ رغم مهابة الموقف وعظمة المستضيف، ثم قالت بلهجة لوم  
عن العتاب:

أرأيت كيف فرقنا الوصايا المختلفة والمناهج المتعددة؟ لماذا لم  
يتم الاكتفاء بأمة واحدة بدلا من أمم متناحرة متعصبة لأنسابها  
ومناهجها الروحانية التي تصلها بالسماء؟ لماذا نلجأ ونحاسب  
على أخطائنا وذنوبنا. رغم أن الخطأ الأكبر من البداية لم يكن  
من صنع أيدينا؟

أجابها وهو يُعمن النظر في عينيها دون أن تتغير نبرة صوته الهادئة:

حين قتل قابيل هابيل في أول جريمة قتل نفذها بنو الإنسان،  
لم تسَل الدماء حينها بين أمم مختلفة الأديان أو الأعراق أو  
اللغات.. فالخطيئة كامنة في النفس بشكل أزلي، بينما التعدد  
والاختلاف كانا حجة من لا يستطيعون مكاشفة حقيقة نفوسهم  
المریضة وتعطشهم للدماء والشر، لكنني لا ألقاهم قبل أن يمرؤا  
برحلة علاج، فإما أن يختاروا بعدها الشفاء، أو يعادوا المرض  
مرة أخرى بمحض إرادتهم، حتى لا تكون هناك حجة على  
الطبيب بعد خروج المريض من المشفى متعاطيا للعلاج الأمثل.

رحلت في كلماته ولم تحرك ساكنا حين أكمل:

على كل حال، احترم من يأخذ وقتا طويلا للوصول إلى الحقيقة  
بأختياريه واجتهاده، أكثر من الذين يروثونها بلا أي فهم أو تفكير..  
لكن حذار من أن لها فترة صلاحية قد لن تجدي بعدها إذا ما

طعنات سريعة تطيش في الهواء (موريس) و(دميانة) يُحاولان  
تفادي المطاوعة واحتواء الموقف، لكن حتى خيار إخفاء الفضيحة واستئصال  
الخطيئة بالزواج لم يكن غير وارد بين يهودي ومسيحية.. وبعد ذلك  
ومحاولة للهرب أعقبها ركض سريع على سطح المنزل، تفادي (موريس)  
اندفاعه (جرجس) السريعة نحوه بكل غله الطافح، ليصطدم الأخير  
السطح ويسقط صريحا..

أخيرا تذكر (موريس) أن له أبا بعد سنوات من العزلة والمقاطعة،  
(زكي) أخبره أن الحل الوحيد هو الهروب إلى (إسرائيل)..

يرفض (موريس) ويُحاول البقاء في وطنه الذي لا يعرف أو يعترف  
لإثبات براءته، لكن ما من دليل على ذلك، بعد أن قام بتهريب (دميانة)  
إلى شقتها فور سقوط (جرجس) حتى لا يراها أحد ويعلم بوجودها  
وقوع الحادث ومن ثم تطولها الفضيحة..

(زكي) يرسل خطابا إلى حاكمدار العاصمة منتحلا صفة ابنه وتوهمه،  
للاعتراض على نفسه بارتكاب الحادث حيال هذا المسيحي المتعصب  
الذي حاول قتله لمجرد أنه يهودي، ويخبر ولده أنه لم يعد له خيار  
بالهجرة إلى أرض الميعاد حيث يجب أن يعيش ويموت هناك كمواطن  
يهودي أخيرا أصبح له وطن يناديه!

لقاء أخير بين (موريس) و(دميانة) يُعطيها فيه مفتاح حجرته بالسلم  
في شارع (سعد زغلول) لتعيش فيها بعد أن تم الحجز على شقة والداها،  
فتتساءل كيف يكون المكان الوحيد المتاح للإقامة فيه هو المكان نفسه  
الذي شهد مقتل والداها، ثم تودعه بدموع من دم بعد أن صارت بينهما  
دماء المسيح.. ودماء والداها أيضا!

وفي التوقيت نفسه تعرضت فيلا (زكي) للسطو من (سليم) وأصدقائه  
الصعابدة الذين جاءوا للحصول على ما خف وزنه وغلا ثمنه، وقد أقدموا  
ضمانهم أن دماء وأموال اليهود حلال حلال، بعد أن ظهر سواد قلوبهم  
على حقيقته حين شردهوا المسلمين في فلسطين وطردهم من ديارهم  
وأستولوا على أرضهم، ليرحلوا بثروة طائلة كان (زكي) يستعد لتهديتها،  
ويتركون خلفهم جثته، لينجو (موريس) من مصير أبيه بسبب لقائه

عُثِرَ عليها.

أنا التساؤلات التي تدوي في عقول البشر دون أن يجروا أغلبهم على الإفصاح عنها والجهر بها خوفاً من القداسة الزائفة والكهنوت الديكتاتور.. جنت لأسكن قلبك الشجاع وأمد جسدك المنهك بالقوى اللازمة ليتم مهمته.  
أي مهمة؟

مهمة تحرير البشر من سطوة الأكاذيب والخرافات التي خدعهم بها المرسلون.

الآن عرفت من أنت.. لقد جاءت زيارتك متأخرة يا هذا بعد أن اقتربت من الحقيقة في حضرة المعلم بالملوك السماوي.

لم يكن هناك مُعَلِّمٌ أو ملكوت.. إن هي إلا محض هلاوس بصرية وسمعية تسيطر على الإدراك حين يُقَتِّرون من الموت وتحتاجون أن تمذوا أنفسكم بشحنة روحانية تظنون أنها في يد قوى أكبر منكم لتعيدكم إلى الحياة ونجيبكم عن أسئلتكم التي فشلتم في الإجابة عليها، دون أن تظنوا أنكم المتحدث والمستمع في وقتٍ واحد.. المعلم الحقيقي هو أنا.

أخذت عيناه الزرقاوان تتسعان حتى حُيِّلَ إليهما أن داخلهما دوائر تتسع دور حول نفسها ليُتَسَلَّ إلى كيانه إحساس بالخطر والدوار، ثم فرد كفه أمام طيفها الأثيري وشعرت بكيانه ينسحب بأكمله ويدخل في سطوة يده ويتابع بصوتٍ أعمق وأعمق:

أوحى إليكم بالأفكار فتحولوا إلى أقوال وأفعال تتسبونها لأنفسكم دون أن تشعروا أنني أقف خلف ذلك.. فأنا الإله الذي يتبعه أتباع لا يؤمنون بوجوده.

شامل كيانه الأثيري حتى صار في حجم قبضة يده التي أحاطت به بأطلة السوار بالمعصم رغم محاولاتها المستميتة في الإفلات والتسلل من بين أصابعه دون جدوى، ولأول مرة منذ زمن طويل جداً، وجدت نفسها تصرخ بصعوبة شديدة وقد تجمّدت أحيالها الصوتية:

يا يسووووووووع!

الكنفي بضحكة شامتة وهو يغوص بها في مؤخرة جسد المادي الذي

مع آخر حرف من كلماته شعرت بطيفها يطير متراجعا للخلف وهو ما زالتا معلقتين به وهو يتصاغر في الأفق البعيد دون أن تبتعد عنهما التي تتردد في أعماقها:

- سارعي بالبحث عن الحقيقة بقلبك الذي يتسع للكون بأكمله، عثرك الضعيف فيسطل قاصراً على استيعابها كصعوبة الحفرة لماء البحر.

صرخت وهي تبتعد:

- لدي الكثير من التساؤلات التي لم تُجِب عنها بعد.

- عليك العثور على إجابتها بنفسك.. فلو علمت كل شيء لما صار لعودتك معنى.. ما زالت أمامك الفرصة يا دميان فاستغلها قبل أن نلتقي مجدداً.

ثم دخلت في نفس النفق المظلم الذي أتت منه، لتَهْوِي بسرعة هائلة إلى السماء الدنيا من جديد، قيل أن تصل لسطح المنزل وتزلق فوقه بنعومة، ثم اخترق طيفها غير المرئي جدران الغرفة المُسَجَّى فيها جسداً على السرير وشاهدت (آيات) وهي تحاول إفاقتها..

اقتربت من جسدها حتى كادت تلامسه، وهمت أن تغطس فيه لتعود إلى طبيعتها، فشعرت بيد ساخنة تمسك بطيفها وتكبل حركته، مع انهيار صوتٍ رخيخ تسال إلى مسامعها من الخلف:

- مهلا أيتها العجوز.. أن لهذا الجسد الذي أنهكته السنين أن تسكنه قوى ترد إليه شبابه.

التفتت حولها مذعورة لتجد نفسها أمام الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي زاد بريقهما كمصابيح الزينة، وقد تحول مثله إلى طيف أثيري لا يراه إلا من يماثله في حالته دون أن تشعر بهما (آيات)، فسألته برحفة:

- من أنت؟

حملق في عينيها وأجاب بصوتٍ عميق:

سعد الله على سلامتك يا ريمون بك\*

الها (نصحي) وهو يدخل مع سيده في الفيلا ذات المعالم التراثية  
من رده التي يملكها في منطقة (كفر عبده)\* أحد أرقى المناطق السكنية  
(الإسكندرية).

ساحل (ريمون) كلمات (نصحي) وهو يدخل فيلته مرتدياً نظارة شمسية  
والوجه لأعلى، وعلى ملامحه التجميد والضيق، بينما وضع ذراعه  
على المصباح في حامل طبي، وعلى يساره الرجل ذو العينين الزرقاوين،  
بعد أن غادر طيفه الأثري جسد (دميانة) وترك روحها حبيسة داخله،  
معلقة الحركة والانتشار، ليصبح جسدها حياً مع إيقاف التنفيذ.

تحت رائحة الفيلا مبهجة بعد أن تولى الخدم رش أفخر أنواع معطر  
الهدوء وتنظيف أرضيتها المرمرية البراقة ذات الطابع التركي، وترتيب  
أثاثها ذات الطابع الكلاسيكي، وتماثيلها وأنتيكاتها النادرة، بخلاف  
السلحة العتيقة ذات الطابع القديم الأثري المعلقة على الحيطان، لكن  
(ريمون) الذي اعتاد ذلك لم يبال به حين جلس في ردهة الفيلا متأملاً  
دول ذا العينين الزرقاوين وقد وضع ساقاً فوق ساقٍ منفثاً دخان سيجاره،  
وهو يقول من بين سحابة الدخان التي تحيط به:

\* منطقة (كفر عبده) هي إحدى مناطق حي شرق بمدينة الإسكندرية، وتقع بين  
الحيين (جابر) و(رشدي)، وضمت بين جنباتها أكثر من ٨٠٠ قصراً وفيلاً أثرية  
وتاريخية أشهرها فيلا الأميرة (فايزة) شقيقة الملك (فاروق)، وقصر (قرداحي).  
والمنطقة المنسوب لها السامي البريطاني (كينشتر) يمتلك فيلا بالكفر، فضلاً عن الفيلات  
الأخرى والقصور التي يملكها السياسيون والشخصيات المهمة والأجنبية من  
اليونانيين والإيطاليين على وجه الخصوص، وبعد حكم المحكمة الدستورية العليا  
مصرية بإلغاء قرار مجلس الوزراء المصري بحظر إزالة الفيلات والقصور التاريخية  
التي، عجز رؤساء الأحياء والمسؤولون بالمحافظة عن التصدي لمن يهدم الفيلات  
المتحجرة بسبب غياب التشريع ووضع آليات إدارية وقانونية تمنع ذلك، وكان اسمه  
فيما شارع (المارشال الليبي)، وتم تغيير الاسم بعد أن تعاطف أهل الإسكندرية مع  
أهل قرية (كفر عبده) بالسويس التي جاولت القوات البريطانية هدمها وإخلاءها من  
ساكنيها عام ١٩٥١ بحجة أنها تهدد أمن القاعدة البريطانية بالسويس، وقد اشتبك  
أهالي القرية والقوات النظامية والذناديون في معركة بطولية مع القوات البريطانية لمنع  
هدم القرية، فأصدرت الحكومة قراراً بتحويل مسمى المنطقة التي يسكن فيها القنصل  
البريطاني في الإسكندرية إلى (كفر عبده).

يدا لها ضخماً للغاية قيل أن يصبحا داخله بالفعل، وتجرب فيه  
نملة تتأمل تمثالاً عملاقاً بأحد المعابد، قيل أن يتحول ذعرها إلى  
مطلق وهي ترى جسدها لأول مرة من الداخل..

قلبها الذي ينتفض وينبض بسرعة شديدة.. الدماء وهي تتدفق في الشرايين  
والأوردة.. الأمعاء الدقيقة المحاطة بالأعور والقولون..

حاولت أن تتحرك بطيفها الأثري لتستحوذ على جسدها المادي،  
إلى نفوذ سيطرتها من جديد، ف شعرت أنها مسلوية الإرادة، عديمة  
لثرف في قاع الجسد لا حول لها ولا قوة، فيما ذهب طيف الرجل ذي  
الزرقاوين إلى قمة الجسد ليخاطبها من عند الرأس قائلاً بصوت مليء بالهنا

- من الآن أنت هنا مجرد ضيفة لا عليها سوى المشاهدة والاستماع  
في صمت.. فقد اقتربت ساعة العرض، وأعدك.. أن يهرأ  
مبهرًا.

في تلك الأثناء عقدت (آيات) حاجبها في توتر وهي تشاهد  
(دميانة) الذي انتفض فجأة وأخذ يمور حتى تقوس مع ارتفاع البطن الذي  
كاد يلامس السقف، بينما تشنجت الأطراف بشدة، ثم تراجعت الفناء في  
فزع شديد حين خرجت من قم العجوز صرخة رهيبية كادت تصم أذنيه،  
قبل أن تخدم حركتها تماماً وقد تقصّد جبينها بالعرق، وناقس وجهها  
المتعرق وجوه الموتى.

وبعد ثوان، فتحت (دميانة) عينيها التي بدت مختلفة وإن لم تتغير  
(آيات) أن تحدد وجه الاختلاف لتكتفي بهزها ومحاولة إفاقها  
تهتف فيها بتوتر لا مثيل له:

- دميانة.. دميانة.. هل أنت بخير؟

لكن (دميانة) ظلت تتطلع إلى ملامحها بعيون جاحظة تبعث على  
الخوف لمن يراها دون أن تحرك ساكناً، ثم أفرجت فجأة عن ابتسامها  
بدت مريبة وأجابت بصوت أخشنت نبراته:

- اطمئني يا عزيزتي، لم أكن يوماً أفضل حالاً من الآن.

\*\*\*



لقد انتهت مشكلتك مع الشرطة تماماً بعد أن دفع للمعلم لرجال المعمل الجنائي الذين ستؤكد تقاريرهم ما قاله استجوابه بشأن ما حدث، وسيمسدر رئيس العقيد يحيى بالتمسك مع رجالنا في النيابة أمراً باعتقال بعض الشباب الملتحقين بتدمير ملهاك، وقتل وإصابة بعض رجالك، بخلاف الشروع في قتلك، وسيتكفل رجالنا في القضاء بالباقي.

تطلع إليه (ريمون) مبهوراً، وسأله وعلى ملامحه أقصى ما يملك البشري من قدرة على التعبير عن الدهول:

لقد أعطيتنا قائمة بأسماء رُتب وأصحاب مناصب رفيعة على يقين من نزاهتهم ولم نحاول حتى الاقتراب منهم يوماً، استطعت تجنيدهم بهذه السرعة؟

هم جنودي منذ زمن.. فأنا أعرف كل خائن وغير شريف في هذا البلد مهما كانت جودة القناع الذي يُخفي وراءه حقيقة. وللمرة الأخيرة أحذرك من أن تسألني مجدداً خلال الأيام المقبلة مهما بدا ما أمرك به غريباً أو عجز عقلك عن استيعابه.. هذا الإيقاع بفثاتك وصاحبها الوسيم واستعادة أسطواناتك المدمرة سيظل حبل المشنقة يتأرجح أمام رقبته.

جف ريق (ريمون) وامتقع وجهه، وهو يغمغم بصوتٍ خفيضٍ مرتعد:

سأفعل كل ما تأمرني به لكن حاول أن تجعل ذلك سريعاً!

أخذ الرجل المريب نفساً عميقاً من السيجار ثم أخرجه من فمه وسأله به أرجاء المكان وهو يردد بغل شديد دون أن ينظر لأحد وكأنه يحدث نفسه:

كل من يسكن هذا الجسد الطيني يُحاط بنقاط الضعف.. فها أنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

\*\*\*

لم يدر الشاب الوسيم كم مر من الوقت أثناء تلك الجولة الإجبارية التي قادتته إليها الظروف في شوارع الإسكندرية وأزقتها..

لم يدخلها شيء قادم من جوفه منذ أن وجد نفسه في المقابر!

تفاقت حدة الألم بسرعة متناهية، جعلته يقبض بكفه على بطنه، ويفار وقفته باحثاً بعينه عما يمكن أن يسكن به هذا الألم، ليسعى يميناً ويساراً على الكورنيش ذهاباً وإياباً، وفي المرة السابعة وجد الفتاة الصغيرة التي قابلها على السطح، وفي يدها كيس ورقي عليه علامة (ماكدونالدز).

نظر إليها وقد جرى ريقه، فأشرق وجهها الأسمر بابتسامة ملانكولا وصفي أسنان ناصعي البياض..

"أحدهم منحني الوجبة المفروجة ومعها العروسة التي كنت أريدها حين شاهدني أنظر نحوه هو وأسرتة من خلف زجاج المحل".

قالتها ببراءة وغوية وهي تتجه نحوه.. فتحت الكيس وأخذت منه باكيت البطاطس ودستته في يده متطلعة إلى وجهه بذات الابتسامة الخلابة ثم انصرفت في صمت.

تلاأت عيناه بالدمع وهو ينظر لأصابع البطاطس بخجل متجمداً في مكانه، ثم مد أصبعيه الإبهام والسبابة ببطء وكأنه يكشف هذا الشيء لأول مرة، قيل أن ينلقط أول أصبع، ثم لم يشعر بباقي الأصابع إلا حين دس يده في الباكيت ووجده خاوياً على عروش.

جاءه النداء الثاني من الجسد الذي فرغت شحنته وصار في حاجة ماسة للراحة، بعد قضاء ليلة ليلاء من الخيالات العارية وصرخات الشبق، ودقائق معدودات من النوم المتقطع، غير الكافي لإمداد الجسم بحاجته للسكون والراحة.

أولى ظهوره للبحر ونظر للصف المقابل حيث تمثال (سعد زغول) وفندقي (سيسيل) و(إمبريال)، ومبنى الغرفة التجارية، وحلواني (ديليس) ذي الأصول اليونانية الذي تعود نشأته لمائة عام مضت، ولم يجد بداً من العودة لشارع (النبى دانيال) من جديد..

عبر الطريق بخطى منهكة، حاول أن يوفر فيها الرمق الأخير من طاقته

فانف خلوي صارت شحنته من الكهرباء 5% فقط، ولمعت في ذهنه ساحة مسجد (النبى دانيال)\* التي كان العشرات يفتشونها بالأمس، لانه قدما نحو الجامع الذي قرر أن يفرد فيه ظهره ويحصل على راحة من الراحة بعد أن صارت عودته لحجرة (دميانة) تعني تهافت الناس عليه من جديد.

على حذاءه ودخل مع الداخلين، وأخذ يتأمل المكان ناظراً حوله بدهشة، وهو يتساءل في أعماقه: كيف يبدو المسجد من الداخل أوسع وأكثر راحة بكثير مما يبدو عليه من الخارج، حتى إنه شعر بالجدران تتحرك وتتدد لاستيعاب آلاف من البشر قد يأتون في أي لحظة، غير أنهم لا يأتون!

رفع بصره على باب المقصورة الذي يؤدي إلى مرقد الجثمان المدفون أسفل المسجد بعمق نحو 5 أمتار، وشعر بعيق روحاني ينبع منها فسار تجاهه وهبط درجات السلم الخشبي الحزوني بخطوات بطيئة متأنية، لجد ضريحاً مغطى بقماش أخضر يبعث على الراحة والطمأنينة، وضعت عليه لائحة مكتوباً عليها بخط مزخرف: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} وتحت الآية الكريمة عبارة تقول: هذا مقام نبى الله دانيال والحكيم لقمان.. مهداة من السيد أحمد الجمل في ٢٨ شعبان ١٣٨٦هـ - الإسكندرية، وعلى الضريح نفسه تراصت مصاحف قرآنية، وأوراق بالية عليها أوراد وأذكار وكتيبات دينية.

\* مسجد النبى دانيال كان معبداً يهودياً باسمه، وتم هدمه وبناء مسجد النبى دانيال بدلاً منه، وهناك روايتان حول الضريح الموجود به على عمق ٥ أمتار، الرواية الأولى تقول إنه لعالم عراقي قدم من الموصل إلى الإسكندرية في القرن الثامن الهجري اسمه محمد بن دانيال الموصلي وهو أحد شيوخ المذهب الشافعي، والرواية الثانية تقول إنه نبى الله دانيال، وقد أدى وجود العديد من الآثار الرومانية تحت المسجد إلى الاعتقاد بأن مقبرة الإسكندر الأكبر موجودة أسفله، ودعم هذه الفكرة وجود الجبانة الملكية في تقاطع شارع النبى دانيال مع شارع فواد إلا أنه بعد البحث والتنقيب لم يكتشف أي شيء يخص الإسكندر، ولكن تم اكتشاف أنفاق كبيرة من العصر الروماني متصلة ببعضها وكانت مصممة لهروب الملك عند قيام الثورات التي كان يقوم بها أهل الإسكندرية القديمة بحيث يهرب إلى خارج البلاد وكان منها ما يؤدي إلى البحر المتوسط مباشرة، وقد وصف المؤرخ الإسلامي المقرئ في هذه الأنفاق بأنها من الاتساع والارتفاع أن يسير فيها الفارس متمطياً جواده رافعاً سيفه.

مرت ثوان تأمل فيها الشاب الضريح، ثم جلس على الأرض جواراً وفي طوله مؤمداً ذراعه اليمنى، قبل أن يسلم جفنيه للنعاس، جامعاً أفكاره وفكره ووعيه، ذاهباً بها لعالم الروى والأحلام.

\*\*\*

زفر العقيد (يحيى) زفرة حارة وهو يسير مع مساعده في أروقة معمار (برج العرب) بالإسكندرية قائلاً في غضبٍ جم:

- إنه أسوأ أيام حياتي بلا شك.. تغيير مفاجئ في سير أحداث قضية يُدرك أغبي عسكري أن وراءها أمراً مريباً، ثم تطالب بالمفاجئ بحراسة وتأمين حاخام إسرائيلي جاء ليُدنَس أرضنا ويحتفل مع حفنة من اليهود المتقيين في الإسكندرية بعيد رأس السنة العبرية وكأنهم يريدون استبعادى وإقحامى في أمرهم يشغلنى.. هل رأيت أمراً يبعث على القىء أكثر من ذلك؟ أو سألنا بنا الحد لدرجة استقبال إسرائيليين يُقيمون شعائهم على أرضنا؟

أجابه مساعده:

- إنها قواعد دينهم يا سيدي.. فمن تبقى منهم على أرضنا بعد قيام دولة إسرائيل أخذ يتأكل حتى صار اليوم في مدينتنا 22 يهوداً فقط، مقسمين ما بين 4 رجال و18 سيدة، جميعهم من الكهول والعجزة، وتحتصر أعمارهم بين السبعينيات والتسعينيات، حتى إن نصفهم لا يغادر سكنه بسبب الحالة الصحية الحرجة، ويحتاج النصاب اللازم للصلاة إلى ١٠ رجال على الأقل فضلاً عن حاخام لإتمام الطقس حسب العقيدة اليهودية، لذا يتم تعويض النقص العددي بدعوة اليهود الأجانب الموجودين في مصر، سواء العاملين بالقطاعات أو المصالح الأجنبية، أو استقدام اليهود من إسرائيل أحياناً إن لزم الأمر مثلما حدث هذه المرة.

رفع العقيد (يحيى) حاجبه بذهشة، فابتسم مساعده وعُثب سريعاً:

- لقد عرفت الكثير عن هؤلاء القوم بحكم مشاركاتى المتعددة

في تأمينهم وحمايتهم في المواسم والأعياد اليهودية الماضية.. في المرة الأولى كان لديّ نفس شعورك تماماً، لكن مع الوقت رأيت النصف المملوء من الكوب حين تفتحت عيناى عن عالم غريب ومثير لا تعرف عنه سوى الصهيونية والثار والحروب والدم والاحتلال، فيما له جذور أخرى تمتد لأنبياء ورسل تنفوق قصصهم الممتعة حكايات ألف ليلة وليلة وباقى الأساطير.. هل تعلم أن...

في عبارته فجأة ورسم على ملامح وجهه الصرامة والجدية وهو يقول بعد سريعاً:

- فلنؤجل كلامنا لوقتٍ لاحق، فقد وصل الحاخام مع الوفد الدينى الإسرائيلى.

الوقت (يحيى) حيث ينظر مساعده ليلمح كهلاً عجوزاً محنى الظهر بهلاً، تمسك كفه المعروفة بعصا يتكى عليها في السير وقد ارتدى مِعْلَقاً أسود طويلاً، من تحته قميص أبيض، وعلى رأسه قبعة كبيرة تشبه تلك التي كان يرتديها أبطال هوليوود في أفلام الـ"كاوبوي"، ومن أسفلها تتدلى خصلات طويلة حلزونية، فيما ضمّر بعض شعيرات لحيته الملوية على الجانبين.

بعد أن فحصه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه غمغم العقيد وهو يتجه نحوه:

- قياداتنا أخبرونا أن نظهر شيئاً من الود في استقباله باعتباره من أصل مصري.. تبّاً للميري الذي يحرمانا من النقاش وإبداء الراى مع من هم أعلى رتبة.. كنت أريد أن أصرخ فيهم: هذا يؤكد حقارة أصله.. مؤكداً أن جدوده كانوا من الرعاى الذين تركوا وطنهم الأم الذي تربوا في خيراتهم وتمرغوا في نعمه من أجل حلم عنصري قائم على تعصبٍ دينى صهيونى.. ونحن.. نكلف بحراسته.. يا للسخافة!

لم يعلق الضابط على كلمات رئيسه بعد أن أصبح أمام الحاخام الذي

تقدم الوفد بخطوات، قبل أن يُفاجأ (يحيى) بمساعده يقول للوفد بأمره بدت حقيقية:

- روش هاشناه\* سعيد

فابتسم الحاخام وحياه على الطريقة العبرية قائلاً:

- فليكتب اسمك هذا العام في سجل الحياة السعيدة.

رمق العقيد مساعده بنظرة نارية، وحين تبادل مع الحاخام النظر، علم كل منهما للآخر بنظرة طويلة كانت تحتاج إلى مصور سينمائي ومصور

\* روش هاشناه: تعني رأس السنة العبرية، وهو عيد يهودي يحتفل به اليهود في عام في الأول والثاني من شهر تشرينيه العبري، الذي يوافق في التقويم الميلادي شهر سبتمبر وأحياناً مطلع أكتوبر، حيث يختلف مواعده في كل عام تماماً. تختلف مواعيد التقويم الهجري كل عام مع التقويم الميلادي، ويعتمد التقويم اليهودي على دورتي الشمس والقمر معاً، ويتم تحديد طول الأشهر والسنوات بواسطة معادلات حسابية اسمها (خوارزمية) وليس حسب الاستطلاعات الفلكية، ويعتبر هذا العيد يوم الدين الذي يحاكم الإنسان فيه عن السنة الماضية ويحاول أن يكفر عنها في بداية العام الجديد من خلال أيام التوبة العشرة التي يبدأ بها العام الجديد، وتنتهي في اليوم العاشر بعيد الغفران (كيبور)، وتقول التقاليد اليهودية إن هذا التوقيت هو فترة صدور الحكم الإلهي، حيث يُحاسب الرب جميع البشر والأمم على أفعالهم خلال السنة المنتهية للتو، ويتم البت في مصائرهم للعام الجديد.

وصبب الديانة اليهودية، امتثل سيدنا (إبراهيم) الخليل عليه السلام في هذا اليوم لأمر ربه وهم ينجح نجله (إسحاق) عليه السلام على جبل (موريا) في (أورشليم)، وهو الجبل الذي أقيم عليه فيما بعد الهيكلان المقدسان الأول والثاني، لذا تميز صلوات كل يوم من يومي هذا العيد ذروتها حين ينفخ في "الشوفار" وهو نوع من البوق مصنوع من قرن كبش، رمزاً لكبش الفداء، كما أن الملائكة بشراً سيدتنا (سارة) بولادة (إسحاق) في مثل هذا اليوم أيضاً، وهناك اختلاف بين رجال الدين اليهودي أيضاً حول خلق الله للعالم في مثل هذا التوقيت، وإعلان الملكية لله حسب ما ورد في التوراة الشفيعية "المشاة"، وتمتد طقوس هذا العيد يوماً ثالثاً، الذي يصادف ما يُعرف بصوم (جدليا)، وهو إحياء لذكرى قتل (جدليا بن أحقام)، الذي ولّاه (نبوخذ نصر) ملك بابل على من بقي من يهود فلسطين، حيث كان قد نقل معظم اليهود أسرى إلى بابل.

وتأرب لتخليدها للتاريخ..

الحاخام يتأمل ذلك العقيد المصري الذي حاول رسم ابتسامة مصطنعة تُعبر عن الترحيب، لكن كوامن القلب تسلكت رغماً عنها إلى العينين، ليستشف من تلك المشاعر المضطربة ونظرات الزيف في عين الحاخام الإسرائيلي الذي بدا وكأنه يبحث عن شيء قدده رغم أنه حط للتو رحاله ووصل إلى تلك الأرض التي لم يأخذ أحد رأياها في أن يطأها بقدميه..

.. مصافحة بدت باردة، رسمية، وكلمات ترحيب مزيفة، تحمل في طياتها من التملق والكذب ما فاق معانيها الظاهرة، قبل أن ينتهي الأمر بركوب الحاخام مع العقيد (يحيى) في سيارة، فيما ركب مساعده مع باقي أعضاء الوفد الديني في سيارة أخرى لتأمينهم.

وصلت السيارات من المطار، في طريقهما إلى معبد (إياهو حنابي)\* شارع (النبي دانيال)، ليخفي (يحيى) الذي يجلس في المقعد الأمامي إلى حمار السائق نظراته الحائرة ومشاعره البغيضة خلف نظارته الشمسية، ملتزمًا بفضيلة الصمت في لحظات قد يكلفه فيها الكلام الكثير، لكن الحاخام بادره بالكلام من المقعد الخلفي بلهجة حانية:

- بعد إذنك يا بُني.. أريد زيارة صديق قديم في شارع سعد زغلول قبل الذهاب للمعبد.

أدار (يحيى) عنقه نحوه وتأمله لثوان قبل أن يقول بلهجة رسمية:

- لكنك لم تبلغنا بتلك الزيارة من قبل يا سيد موريس.. كان من الواجب أن يحدث ذلك لتأمينك جيداً.

- ثمة أمور لا تدري أنك ستقوم بها مسبقاً إلا حين يأخذك إليها حينئذ جارف، ثم إنني أريد أن تكون مفاجأة.

\* معبد إياهو حنابي: يطلق عليه أيضاً معبد النبي دانيال، وهو من أقدم وأشهر معابد اليهود في الإسكندرية. شُيّد عام 1354م وتعرض للقصف على يد الحملة الفرنسية على مصر، عندما أمر نابليون بقصفه لإقامة حاجز رمائية للمدفعية بين حصن كرم الدكة والبحر، وأعيد بناؤه مرة أخرى عام 1850م بتوجيه ومساهمة من أسرة محمد علي.



- شغلنا لا يعرف المفاجآت يا سيدي.

- شغلكم قائم على توقع المفاجآت والتعامل معها يا ولدي.

فأجاب على ملامح وجهه دهشة أكبر بكثير وهو يدور حول نفسه متكئاً على عصاه، متأملاً ما فعلته الأيام والسنون من تغييرات جذرية في شكل الشارع الذي شهد أجمل أيام عمره.. كل شيء تبدل وتغير وكأنه في مدينة غير المدينة..

قامت الإسكندرية وطناً يعيش فيه، وتسير بكل تفاصيلها وملامحها في سحر وهو بعيد عنها، والآن يشعر على أرضها وأمام العقار الذي تزيى به بالغبية!

"الإسكندرية هي الأميرة والبقي، هي المدينة الملكية والمؤخرة اللوطية، إنها لن تتغير أبداً طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطرم فيها مثل صير العنب الذي يتخمر في الرافود، وطالما ظلت فيها الشوارع والميادين، تتدفق وتتجسس، وتتخمر فيها هذه الأهواء المختلفة والضغائن المتباينة، والتي سرعان ما تهدأ فجأة، إنها الصحراء المغطاة بعظام هؤلاء المنفيين فيها"

ما زالت كلمات الكاتب الإنجليزي (لورانس داريل) تسكن مخيلته حين قرأ رايته (رباعية الإسكندرية) في الستينيات، وصدق أن الإسكندرية ان تتغير أبداً.. كان يكذب كل من لحق به في إسرائيل من اليهود المصريين، ويخبرونه أن الإسكندرية التي عرفوها وتربوها فيها اندثرت في غير الزمن، وقامت على أنقاضها مدينة أخرى لا يعرفونها ولا تعرفهم.. حين قرأ تلك الرباعية رفعها في الوجه وصاح: ها هي الإسكندرية في أنظار الإنجليز الذين يقولون مثلي: "لن تتغير أبداً"، فأكملوا له باقي الجملة: "طالما استمرت الأجناس المختلفة تضطرم فيها" لكنها اليوم لا تحتمل حتى بني الجنس الواحد من المصريين، أو بمعنى أدق، هم الذين لا يحتملون أنفسهم!

الآن أيقن أنها استسلمت لفعل الزمن، وهي التي كانت في نظره مُحصنة، أبية على التغيير.

تولى العقيد (يحيى) هُش البشر حين هموا بالتجمهر وأطالوا النظر، وأخرس ألسنة الصبية الصغار حين حاولت الغمز واللمز، لينفض التجمع قبل أن يبدأ وتسكت الأفواه خوفاً من جسده الضخم، وهيته

شعر (يحيى) بغصة شديدة في حلقه عندما ردد الحاخام كلمة (ولدي) وابتلعها أثناءه بمضض دون أن يدري أن ملامح وجهه جاشت بما يُعادل أن يخفيه منذ أن بدأ اللقاء، فابتسم الحاخام وأردف:

- آسف إن ضايقتك كلمة ولدي.. فلو كنت في موقفك لربما انتابني نفس الشعور، لكن.. من كان مجبراً على الاختيار كان عليه التنازل.. ستفهم يوماً كلماتي.

عقد (يحيى) حاجبيه وقد أنابتها كلمات الحاخام أن رغبته في الزيارة شاعى وراءها سرّاً دفتياً، لكن شيئاً ما لا يدري كنهه جعله يهز رأسه بالموافقة قائلاً:

- لك ما تريد سيد موريس.

ثم نظر إلى ساعته وأردف:

- لكن من المفترض أنك جئت لإقامة الصلاة في الكنيس والاحداث البعيد الذي سيبدأ قبل غروب الشمس بحوالي ساعة.. وعلى حدود علمي هذه زيارتك الأولى لمصر منذ أن هاجرت إلى إسرائيل.. فهل سيمهلك الوقت الفرصة للعثور على صديقك الذي ربما يكون قد غير محل إقامته أو توفاه الله؟

ارتعشت خلجات الحاخام وقال في لهجة حزينة تشبث بالأمل:

- فلنفعل ما علينا فعله، ونترك للرب القرار الأخير.

\*\*\*

لم يبال (موريس) بنظرات الدهشة والاستكار والبُغض التي صُوِّبها نحوه المارة في شارع (مسد زغول) فور مغادرته للسيارة وقد التصقت العيون بهيئته اليهودية غير مصدقة أن يهودياً يسير بهيئته الصريحة المستقرة بين ظهرانيهم، فيما بدا غير مبالي بردود الأفعال التي قد تكلفه حياته

المهيبة ونبرة صوته الغليظة الرنانة، ونظراته المتجهمة الأسود من نظراته الشمسية ذات العدسات العاكسة كمرآة، والأهم من كل ذلك، جراب المسدس الذي بدا من تحت جاكيت بذلته. فلغة السلاح هي الأكثر قدرة على الإقناع أحياناً.

صعد درجات السلم وحده بعد أن طلب من العقيد وألحَّ في طلبه أن يتركه بمفرده في هذا اللقاء لحاجةٍ في نفس (يعقوب).

مع كل درجة سلَّم كان يصعدُها، كان يهبط درجةً في درك الذكريات والأيام الخوالي لتذهب عليه نساتم الماضي، وتطير معها طاقيتُه، ولحيته، وشعرات المشيب، وتسقط سنوات العجز والكهولة من على عاتقِه ويعود من جديد طفلاً غصّاً ببراءة ونقاء الأمل البعيد.

استعادت درجات السلم نظافتها ولمعانها، وعادت الألوان الزاهية لحوائط الجدار، والتأم زجاج نوافذ السلم المكسور، وخلي خشب الدرابزين من الخدوش والتآكل واستعاد بريقه البني، وهو يرى (دميانة) تنفّز الدرجات ركضاً وهو يركض خلفها..

تسللت إلى أذنيه أصوات الضحكات البريئة الصاخبة قبل أن يهتِك عرضها تبدل الظروف والأحوال، ثم اصطبغ كل شيء حوله بالدم حين وصل إلى السطح..

مال جانباً بذعر ليتفادى انقضاضة (جرجس) الأشبه باندفاعة ثور هائج، لكن (جرجس) تخطاه وقد سلطَ نازحه على ذلك الصبي الذي يُناور عزرائيل وهو يصرخ في هولٍ وفزع، قبل أن يغير الصبي موضعه في اللحظة الأخيرة ويتركه يلتمس بالهواء ويأخذه بحضنٍ أخير سبَّح بعده في الفراغ خلال رحلة ذات اتجاهٍ واحدٍ للقاع، أسلم بعدها روحه يدًا بيِّدَ لملك الموت الذي حضر، وأبى أن ينصرف خالي الوقاض.

هَرَّ الحاخام رأسه بقوة محاولاً طرد هذا المشهد الذي تزوج بذاكرته زواجاً كاثوليكيًا لا انفصال فيه، دون أن تتجح السنوات الطوال في محوه، قبل أن تطرق يده المرتعشة على باب الحجرة.

هي إلا ثوانٍ حتَّى فتحت له (آيات) التي شهقت فور رؤيته وهي راجع خطوةً للخلف وقد اتسعت عيناها من هيئته التي ما كانت تتخيل أن تراها على الحقيقة، أما هو فقد سقط قلبه بين قدميه وهو يسألها سوت مرتجفٍ وقد تلاعبت الاحتمالات بأعصابه، وكأن القدر يلصق أسه فوهة مسدس ذات ساقية دَوَّارة، ويلعب معه لعبة الروليت الروسي\*:

- دميانة موجودة؟

طلت على دهشتها ثواني حاولت أن تستوعب فيها الموقف، وهي تنعصر اكرنتها حول أي معلومة ذكرتُها لها (دميانة) من قبل عن معرفتها شخصٍ يهودي دون جدوى..

"هل هي على قيد الحياة؟"

أعاد (موريس) سؤاله بقلبٍ مرتجفٍ، فهزت رأسها إيجاباً ببطء متممةً بدھشة:

- نعم.

ثم سألته بتجفّر:

- من أنت؟

- موريس زكي.. صديق قديم جاء لمقابلتها.

- لكنها نائمة الآن.

- فقط أخبرني باسمي ولنز رد فعلها.. فقد طال الانتظار سنوات فاقت عمرك كله.. هل انتِ ابنتها؟

- لست ابنتها لكنها أُمي على كل حال.. اجلس حتى أوقظها!

\* الروليت الروسي: هي لعبة حظ مميتة نشأت في روسيا. يقوم من يلعبها بوضع رصاصاتٍ واحدة في المسدس، ثم يقوم بتدوير الأسطوانة "ساقية الطلقات" التي يمكن أن تحمل ست رصاصات عدة مرات بحيث لا يعرف ما إذا كانت الرصاصات الوحيدة ستطلق في الضربة القادمة أم لا، ثم يوجه المسدس نحو رأسه ويسحب الزناد. وتستخدم هذه اللعبة لعدة أسباب، منها الانتحار أو إثبات الشجاعة، وترجع نشأتها إلى روسيا عندما لعبها الجنود الروس لإثارة بعضهم البعض!

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير نحو المصطفية، فجلس مستنداً على عصاه، وفي الداخل هزت (آيات) كتف (دميانة) لتوقظها عيئاً، دون أن تدري أن المسيطر على الجسد الآن قد غادره ليواصل غيه في مكان آخر، تاركاً هذا الجسد بروحٍ حبيسةٍ معذبةٍ داخله، لم تعد تملك السلطان والنفوذ عليه.

وداخل الجسد، كانت (دميانة) تسمع (آيات) وهي تردد اسمها بذروة تصاعدية أخذت تتعالى بتناسبٍ طردي مع قوة الهز وقد انتابتها رغبة ملحة في إيقافها من باب الفضول لتعرف أي صلة تربطها بهذا اليهودي الذي يجلس في الخارج.

انفتحت روح (دميانة) الحبيسة داخل جسدها المهزوم حين وصل إلى مسامعها صوت (آيات) الرنان البعيد، ذي الأحرف البطينية المتقطعة وكأنه صدى صوت يأتي من كهف جبل قائلته: "يقول إنه صديق قديم اسمه موريس زكي".

وظل طيف (دميانة) الأثيري يصرخُ بكل ما أوتيت من قوة دون أن يسمعها أو يشعر بها أحد كهاتف ينقلُ أهم مكالمة ينتظرها صاحبه على الإطلاق، لكنه كان على الوضع الصامت!

وبعد دقائق، خرجت (آيات) من الحجرة بملاح عابسة، وقالت بخفية أمل:

- للأسف لا تريد أن تصحو، حتى بعدما أخبرتها باسمك.

امتقع وجهه غير مصدق أذنيه، ثم فجأة تهللت أساريره وهو ينظر إلى ما خلف كتفها رسماً على وجهه أقصى ما يملك البشر أن يرسموه في التعبير عن السعادة المطلقة، كمن انتهى للتو من حساب يوم القيامة وسمع اسمه مع أهل الجنة، وأي جنة على الأرض كانت أعلى عنده من (دميانة)!

لكن سرعان ما يحل الألم مكان السعادة، حين تظهر الحقيقة كاملة.. وحين يتضح أن (دميانة) التي ما زالت حية تُرزق، قد صارت بهذا الحال المزري!

لم يكن يعلم كيف بذلت ما فاق الخيال، فقط لتنهض قائمة، وتغادر

بهرها بخطوات ثقيلة، وظهر محني كمن تحمل على عاتقها الكرة الأرضية بأكملها.

كانت تطير فرحاً داخلها، وتبتهت بأسمى معاني الحب واللهفة، لكن سلامها الخارجية حملت اليأس والشقاء في وجهٍ لم تعد قادرة على التحكم في قسامته، ليبدو عابساً مكفوهاً.

"أوحشتني يا موريس.. كنت على يقين أن أيام العمر الفاني لن تنتضي قبل أن يصلح القدر ما بدر منه في حقنا".

فالتها روحها الداخلية بسعادة الكون، لكن لسانها الخارجي خزلها في النطق مع ملاح وجهها المتحجر الذي ينظر للأرض، لتتحول كلمات الروح إلى همهمة غريبة غير مفهومة، تبعثرت على لسان الجسد الذي أخذ يئن ويروم كالممسوسين، قبل أن تسقط أرضاً.

انفتض جسد (موريس) وذبّ فيه شباب مفاجئ حين ترك عصاه وهروا نحوها بخفة لا تناسب كهولته، لتلتقي الأيدي وتتعانق الأصابع من جديد.. ومع الالتقاء، التحم الموجب بالسالب وسرى بينهما تيار من المشاعر القديمة المقطوعة منذ زمن، بعد أن حان وقت وصلها..

التحم الماضي بالحاضر وصار المستقبل مستعداً للظهور بعد أن أظلمت غيمة كثيفة أعمت العيون.

لم يسمع صوتها الداخلي الحبيس وهي تصرخ:

- أنقذني يا حبيب الأمس.. أرشدني كيف أسترّد نفسي لتتفك عقدة لساني ويحرر ذراعي حتى أحثوك بينهما.

لكن عينيها التي لمعت بالدمع أخبرته أن ثمة أمراً خفياً جعلها على غير ما يرام.. رفع ذقنها ونظر إلى حديقته اللتين طالما فتن بهما سحراً ورأى فيهما الأمل والسكينة حين كان صبيّاً، فإذا بهما اليوم -لسبب مجهول- مصدر لضيق النفس وانقباض القلب.. ثمة شرور وجحيم مستتر يطل منهما فيلحق أرواح الناظرين بنيران غير مرئية للعيون.. تثبثت يديه أكثر وكأنها تريد أن تحكي لها بلمساتها المتشبثة ما عجز لسانها عن النوح به في تلك الهنيهات الحزينة، ثم بدأت قواها تخور، وارتخت الأصابع ولم تعد حتى قادرة على الانقباض!

استقبل (إبراهيم منير)، رئيس الطائفة اليهودية بالإسكندرية، ذو العمر الخمسيني، الحاخام الإسرائيلي والوفد اليهودي بحفاوة شديدة على باب معبد إلياهو حنابي، كما صافح العقيد (يحيى) ومساعدته بابتسامة حار في مهبها رجل الأمن الذي لا يفرق بين كراهية اليهود والكيان الصهيوني.. هل هي ابتسامة ودودة من القلب؟ أم مزيفة لزوم الاستخدام الاجتماعي؟، لكنه على الأقل رد بواجدة «تيك أوي» تخرج وقت الحاجة لمن تضطره الظروف للتعامل معهم بحكم عمله..

جزء من الرسميات، وأخذ يدور حول نفسه وقد أخذته قدماء في جولة سير مقصودة داخل أرجاء المعبد بشكل مختلف عن جولاته التفقدية التي قام بها من قبل لتأمين المكان، حتى وجد نفسه أمام حجرة معلق بها آيات هرائية فعقد حاجبيه وهو يطالع وجه الرجل الأصلع ذي الشعر الأبيض الجالس فيها وسأله حائزاً وهو يشير للآيات:

- ما هذا؟

ابتسم الرجل وهو ينهض من على مكتبه قائلاً بلهجة تفيض بالود:

- قل سلام عليكم أولاً!

ثم مثّ يده مصافحاً وهو يقول دون أن يتخلى عن ابتسامته:

- اسمي عبد الرسول، المسؤول الإداري بالمعبد، وأعمل به منذ ٢٠ عاماً.

- عبد الرسول؟

- عبد الرسول محمد.. فجميع العاملين هنا مسلمون ومعنا محاسب مسيحي، والجميع هنا متحابون لأننا لا نقيم علاقات وفقاً للعقيدة الدينية. فالمعبد مغلق معظم العام بحكم قلة عدد اليهود الباقين في الإسكندرية، ولا يهون علينا اليوم الطويل في معبد شبه مهجور من البشر إلا حسن المعشر والعلاقة الطيبة بين المسلم والمسيحي واليهودي، وجميعنا يشعر بالسعادة حقاً عندما تأتي

كل هذا و(آيات) تتابع ما يحدث غير مصدقة عينها، قبل أن تردف:

- حتى الأمس كانت في أفضل حال، ثم تعرضت لوعكة صحية في الصباح فقدت على أثرها الوعي، وحين أفاقت أخبرتني (أنا) بخير، بلهجة مليئة بالعافية والقوة، وطلبت مني أن أتركها نائمة ولا أوقظها مهما حدث.. لا أعلم ما الذي أصابها.

وضع (موريس) يده تحت ذقن (دميانة) ورفع وجهها إليه قائلاً:

- عودي كما كنت من أجلي ولو للحظة واحدة أسمع فيها صوتاً الذي أفتقدته كثيراً.. هيا يا دميانة لا تخذليني.. خلقتك بالمسح الذي اختلنا على دماثة وتقاربنا في محبته أن تغليها!

هزت (آيات) رأسها وقد شعرت أنها تحلم.. منذ متى وكان للمسيح مكاناً في حياة هذه الكافرة العجوز التي طالما تفاخرت بكرهاتها للآديان!!؟

“ما الخطب يا سيد موريس!!؟”

قالها العقيد (يحيى) وهو ينظر للمشهد دهشة شديدة بعد أن شعر بتأخر الحاخام وصعد للاطمئنان عليه، فنظر إليه الحاخام من مكانه بخجل وحزن قبل أن يحاول النهوض وتعاونه (آيات) في النهوض بـ (دميانة)، وقال وهو يلتقط عصاه من على الأرض:

- لا شيء يا سيادة العقيد.. يبدو أن جارتني القديمة في حالة صحية سيئة.

ثم نظر إلى (آيات) وقال بنبرة هزيلة من فرط الحزن:

- ساعود زيارتها يا ابنتي بعد الانتهاء من الاحتفال برأس السنة العبرية.. لو احتجت شيئاً ستجديني في معبد إلياهو حنابي رهن إشارتك.

ثم نظر إلى (يحيى)، وتابع:

- هيا يا بُني.. أقصد يا سيادة العقيد.

\*\*\*



الوفود للاحتفال برأس السنة اليهودي في شهر سبتمبر، بخلاف أعياد الغفران، والحنوكا، والبوريم، والمظلة، ومسحات أورايم وعيد الفصح.

منذ هذه اللحظة وجد العقيد موظفًا طليبا بدرجة مرشد سياحي تدرج به داخل المعبد الزاخر بأعمدة رخامية مرتفعة ذات أسلوب إيطالي ولافتاب نحاسية تحمل أسماء حراسه الذكور، ومقاعد تسع أكثر من ٢٠٠ شخص، بخلاف مقاعد إضافية للسيدات في الدور العلوي، وأشار (عبد الرسول) عند مقدمة المبنى إلى غرفة مغلقة أخبره أنها تحتوي على ٢٠٠ من ألواح التوراة التي تم جمعها من المعابد الأخرى في الإسكندرية وإغلاقها وبيعها.

"حتى عام ١٩٣٠م كان هناك ٢٠ معبدًا في الإسكندرية تنتمي إلى مجموعات ومجتمعات متباينة ما بين يهود مغاربة وأتراك وإيطاليين وأسيان وفرنسيين ويهود مستعربين، مثل معبد إيلياهو حزان بشارع فاملايس يوسف في حي سيورنتج، ومعبد جرين الذي شيدته عائلة جرين في حي محرم بك، ومعبد يعقوب ساسون في جليم، ومعبد كاسترو الذي أنشاه موسى كاسترو في حي محرم بك، ومعبد نزاح إسرائيل الأشكنازي، ومعبد شعار تغيله الذي أسسته عائلة إنزاراوت وشاربيه في حي كامب شيزار، وكان للطائفة مجلس عام يتكون من حاخام باشي، ونائب الحاخام، ورئيس، ونائبه، وسكرتير، لكن اليوم تبقى فقط هذا المعبد، ومعبد منشه الذي أسسه البارون يعقوب دي منشه عام ١٨٦٠م بميدان المنشية، وكان مبنى بسيط مكونًا من طابقين، لكنه الآن متهدم ومغلق، ويحاول رئيس الطائفة اليهودية الحفاظ عليه بأي شكل، لأن من يسقط لا تقوم له قائمة مرة أخرى خاصة أنه غير مسجل كاثر."

قالها (عبد الرسول) وهو يواصل جولته مع العقيد (يحيى)، ثم أشار إلى عدد كبير من الحضور تحمل وجوههم ملامح متباينة ومختلفة الأعراق والألوان:

- كل اليهود الذين يعيشون في الإسكندرية اليوم من العجايز، معظمهم يعيش في ملاحى، وبعضهم يقيمون في شققهم ومعهم جليسات يدفع رواتبين السيد إبراهيم منير من واقع مسؤوليته كرئيس للطائفة اليهودية التي تملك العديد من العمارات والمباني المحيطة بالمعبد ويذهب ريعها للطائفة. اليهود الباقون حتى

اليوم في مدينتنا رفضوا رفضًا باتًا أن يهاجروا إلى إسرائيل، وقالوا وطننا الحقيقي هنا في مصر، ولدنا فيه، وسنموت على ترابه حين يحين الأجل، حتى بعد تلك الضغوط التي تعرضوا لها حين هاجر أزواجهم أو زوجاتهم وأخذوا معهم أطفالهم الذين كبروا وصاروا شبابًا ورجالًا يحملون الجنسية الإسرائيلية ويتأتون لزيارتهم في فترات متباعدة، لكن الوجه الطريف والمشرق في الأمر مرتبط بأولئك الذين تزوجوا من مسلمين ومسيحيين، وصارت عائلاتهم تتشكل من أكثر من دين، سواء الجدود أو الأبناء أو الأحفاد الصغار، وكلهم يحضرون للاحتفال برأس العام هنا في المعبد ويأكلون التفاح المغسوس في العسل للاستئثار بعام جديد ربما يكون بطعم وصفاء العسل أيضًا، بخلاف الرمان الذي ترمز حياته الكثيرة للوفرة والخير والبركات.

ثم أشار لمسيدة عجوز بدت على ملامحها آثار جمال قديم غرب مع الزمن، وبُذلت قسماته الأيام بعد أن انتزعت منه نضارته وبريقه، لتحل محله خطوط معوجة من التجاعيد، وقفت تتكلم بحميمية شديدة مع (موريس) ليبدو على ملامحها التأثر الشديد والانفعال دون أن يسمع العقيد كلماتها وكأنه يشاهد مشهدًا صامتًا وأردف (عبد الرسول) مبتسمًا:

- هل ترى تلك السيدة التي تقف هناك؟ إنها أنجيل سليم، ملاك هجين من اليونان ولبنان، عمرها الآن ٨٠ عامًا وتستعد لدخول الجنة.. أعرف ذلك لأنى على مدار عشرين عامًا منذ سنوات لم أشعر يومًا أنني أجلس مع جسد؛ بل روح خفيفة ومرحة.. لم تكنسها الحياة مرارة المصرة على ما قد مضى، بقدر ما اكتسبتها مزيدًا من الحب وخفة الدم.. هي مسيحية، لكنها تواظب على الحضور ها هنا في كل مناسبة لأنها تشم داخل هذا المعبد -حسب ما أخبرتني- رائحة الماضي واسكندرية القديمة التي نشأت وترعرعت فيها، وتحرص على تهيئة أصدقائها اليهود العجائز الذين لم يغيرهم الزمن في علاقتهم بها ومعاملاتهم معها مثلما غير آخرين.

كانت متزوجة من رجل يوناني يدعى باسيلي، مات مبكرًا بعد أن ترك لها طفلها نيكولا وأنطوانيت.. ثم كبرت أنطوانيت وأصبحت خياطة شهيرة يئالونها بدمام تونة، واكتسبت الجنسية المصرية

بزواجها من سليم داود، رجل تركي الأصل جاء أبوه من الحرب الأهلية في تركيا.. أما نيكولا الابن الثاني لأرجيل وباسيلي فما زال يوناني الجنسية، يأتي كل ٦ أشهر إلى مصر بتصريح إقامة. كلهم يتحدثون اللهجة السكندرية بطلاقة، ولا تجد في أحاديثهم أثرًا لكلمة أجنبية، وتُسم في حضرتهم الرائعة البودرة لكركتيل الجنيات الطبية التي جمعتها الإسكندرية بالأمس واقتربت من الاندثار اليوم.

اقترب العقيد (يحيى) من (أنجيل) ليسترق السمع لكلمتها وقد أثار ملاحظها ولغة جسدها فضوله، في تلك الأثناء التي كانت تقول وهي تُغالب دموعها:

- ما زلت لا أصدق عيني يا موريس.. مرحى يا أخ الأمس الذي حضر أخيرًا قبل ملك الموت.  
ابتسم (موريس) معلقًا:

- ألم يقولوا أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي أبدًا؟  
- لكنك جئت متأخرًا للغاية.. لنا جلسة طويلة نحتسي فيها القهوة في فناجيننا الضخمة التي كنت تسخر منها وتسميها "كروانة"، لأحكى لك كيف ضاعت الإسكندرية وتشوه وجهها الجميل، بعد أن كانت مدينة كوزموبوليتان تحتضن كل الجنسيات والأديان بلا تمييز أو تفرقة، فإذا بها تتعرض لقرصنة العقل وتأميم الوجدان بعد أن أمم عبد الناصر محلاتنا وممتلكاتنا.

التمتعت عيناها بالدمع واستطردت بانكسار:

- أيقنت أنها لم تعد تلك المدينة الكونية التي كنا نعتبرها أمما متحدة مصغرة حين طردنا أحد أبناء البلد من عمارتنا بالإجبار في الخمسينيات، وأسكنها للصعيدية لأنهم أولى من الجريج والأرمن -على حد تعبيره- يومها صرخت فيه: لنا رب يتولانا.. ستموت في نفس اليوم الذي استوليت فيه على حق، وبعدها بعام توفي في التاريخ نفسه بالفعل.. وبعد أن هاجر معظمتنا خوفاً من التأميم ويطش عبد الناصر، اشترى أولاد البلد محلاتنا

قبل الهجرة بأبخس الأثمان ولم يُحافظوا على أنفقتها وأسمائها العريقة، قيل أن يزاحمهم الصعيدية الذين جاءوا سُرَّعة صغارًا من كل حذب وصوب، وبدأوا نشاطهم في الحواري والأزقة وأعينهم على امتلاك المحلات والعقارات.. كانوا ياكلون كسر الخبز المغموس في الماء ويضعون القرش فوق القرش لتوسيع نشاطهم وتوغلهم في المدينة حتى استقحل أمرهم وتفاقم عددهم وصاروا قوة ضاربة احتلت الشوارع الرئيسية وهيمنت على المحلات بعد مشاجرات ومعارك طاحنة بالأسلحة النارية انتصروا فيها حتى صارت لهم اليد العليا وكانهم دولة داخل الدولة، تمامًا مثلما تنبأ كفافيس\* ذات يوم في قصيدته الشهيرة "قئ انتظار البرابرة".

الفيلات والقصور الأثرية العريقة تهدمت وقامت على أنقاضها أبراج مشوهة يسكنها أناس لا يقدرون قيمة الأماكن وعبقها التاريخي.. قام على أنقاض ممتلكاتنا القديمة سوقٌ جديدٌ بتاجر أبنائه في الأنتيكات والتحف التي تركناها خلفنا، بخلاف أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم لقب (الفران)، وصارت مهمتهم نبش بيوت العطارين القديمة المهجورة، واستخلاص كل ما هو ثمين ليعرضوه على مهاويس جمع الأنتيكات على مقبى عليه.

منذ شهور وقعت أسقف البيت على أنطونيت ابنتي.. كانت تقريبًا مدقونة، ودخل ولاد البلد لإفقاذاها، لكنهم سرقوا أنتيكات المكان.. أجد أشياءني في بيت جارتى وعندما ألمح لها تقسم لي أنها اشترتها من السوق.. هم نفس جيران الماضي الجميل حين كنا ندخل بيوت بعضنا البعض وتبادل المهرات، لكل بيت يوم تكون السهرة عنده، لكنهم اليوم يتجنبونني ليس لأنني يونانية الأصل؛ بل لأنني مسيحية، ولم أعد أدري هل الزمن هو الذي تغير أم الناس.

\* قسطنطين كفافيس أو كوستانتينوس بترو كفافيس (٢٩ أبريل ١٨٦٣ - ٢٩ أبريل ١٩٣٢): هو واحد من أعظم شعراء اليونان المعاصرين، وهو مفكر مصري يوناني غير نمطي، عيّر في شعره عن التلاقي المشترك لعالمين: اليونان الكلاسيكية، والشرق الأوسط القديم، وتأسس العالم الهلنستي، والأدب السكندري الذي كان مهبطًا خصبًا لكل من الأرثوذكسية والإسلام، والسبل التي تدفع بشعوب المنطقة على اختلاف أساليبها نحو الكمال الإنساني.

وهو في حالة إرهاق شديد، فأجاب:

- كنت أبحث عن مكان أنام فيه، حتى غلبني النعاس.

اقترب منه الرجل أكثر ومدّ رأسه للأمام قليلاً مُصدِّراً أنفه الذي أخذ يشم رائحة الشاب الخلابة، ثم زوى ما بين حاجبيه وهو يسأل:

- ما نوع العطر الذي تضعه؟

هز الشاب كتفيه قائلاً:

- لم أضع أي عطور.

تسللت السباحة لوجه الرجل وهو يُمعن النظر في قسّات وجه الشاب المنحوتة من ضياء البدر في ليلة تمامه ويَتَبَسَّم قائلاً:

- لقد جاءتني جموع المصلين بسببك وقالوا لي شمة رائحة جميلة ليس لها مثيل تتبعث من تحت المسجد يا شيخ، حتى إن بعضهم ظن أن صاحب الضريح قد قام من رقدته!

ثم التفت نحو المصلين وخاطبهم قائلاً:

- والآن وقد علمتم علة الأمر، هيا بنا نصعد لإقامة الصلاة!

قالها وهو يشير بيديه للناس ويدفعهم لفض الجمع والصعود لأعلى، لكنهم بدوا كتماثيل منحوتة في أماكنهم منذ عشرات السنين، وقد حملوا في ملامح الشاب الساحرة، غير مصدقين أن يكون بشر بهذا الجمال، وتلك الرائحة..

أخذ أحدهم يُسبح ويُحوقل في حضرة الشاب حتى خُيل إليه أطياف من الأنوار البيضاء المجنحة تمرق إلى جواره ثم تختفي في لحظة فتلفت حوله في كل الاتجاهات بحثاً عنها غير مصدق عينيه، وهو يُكبّر الله بصوت مرتجف، وبالمثل شعر البعض الآخر بمخلوقات نورانية حولهم ارتبط حضورها بظهور هذا الشاب الوسيم، فسرت مهمة في الجمع الذي زاد تراحمه حول الشاب، وبدأ للإمام أن الأمور ستفترق من بين يديه فأمسك بيد الشاب وسحبه معه نحو سلم الصعود قائلاً:

على كل حال سنتجول معاً في العطارين لنشاهد بنفسك نهر خريطتها، وتلك المقاهي التي صارت تتبع المخدرات هناك نهائزاً، تماماً مثلما نقشت تلك التجارة في حارة اليهود التي صارت باطنية\* جديدة لو كنت سمعت عنها.

«وماذا عن دميانة؟»

أطلق (موريس) السؤال الأهم لديه من كل ما سبق، مع أول مساحاة صمت من فم السيدة الجعانة للحكي، فامتعضت ملامحها وأجابت:

- لم أعد أعرفها بعد أن باعت المسيح وضلت طريقها.. الله أَسامح مع من لا يؤمنون به، لكني لا أغفر لمن ذاقوا منهُ محبته ثم خرجوا منها.

عبست ملامح (موريس) وغربت ابتسامته، فيما أدار العقيد وجهه بعد أن وصل الحديث لفصل الختام، وأخذ يتجول بعينه في المكان غير مُصدِّق أنه يقف على أرض مصرية، وإن أخبره حسه الأمني أن شمة أمراً جلياً على وشك الحدوث!

\*\*\*

اخترقت أسماع الشاب الوسيم أصوات مهمة تسلك لحلمه غير الواضح، قبل أن تهزه يد معروقة لرجل يقول:

- يا أخ.. يا أخ!

فتح عينيه بصعوبة، وشاهد من خلالهما صورةً باهتة لرجل أربعيناتي يقف وسط زحام من الوجوه العديدة أخذت تتضح ملامحها رويداً رويداً وقد انصبّت أنظار أصحابها جميعهم نحوه وهم يتهايمسون بأصواتٍ غير واضحة، فيما قال له الرجل:

- ماذا تفعل هنا؟

تذكر الشاب كيف نزل درجات السلم الخشبي ونام إلى جوار الضريح

\* الباطنية: أشهر مناطق بيع المخدرات في القاهرة في حقبة الثمانينيات والتسعينيات.

- هيا بنا نصعد لنصلي صلاة المغرب وليبقَ هنا من يريد أن يبقى.

شعر الشاب بالارتباك والخجل عندما وجد نفسه مقبلاً على صلاة لا يعرف كيف يُصلّيها، فقرر الالتزام بالصمت وتقليد الناس فيما يفعلون.

\*\*\*

دخل الشاب الميضة حيث يتوضأ المصلّون، بعد أن خلع جوربيه وجاكـ بذلته وشمر أكمام قميصه مثلما فعل الكثيرون، ليُشاهد عباد الرحمن الذين يتطهرون استعداداً للصلاة ما بين من يمسح أذنيه، ومن يغسل قدميه، وأخذ يراقبهم حتى يفعل مثلهم شاعراً أنه رأى مثل هذا المشهد من قبل لكنه لا يذكر متى وأين، وحين اقترب من أحد الصنابير ليتوضأ فرك عينيه غير مُصدق ما يشاهده..

ماء الوضوء الذي يتساقط من المصلين تصنع كل قطرة منه فور ارتطامها بالأرض صورةً ضوئية أشبه بتلك التي تصدر من أجهزة البروجكتور، وتظهر في تلك الصور ذنوبهم، كاشفة عن أدق أسرار الخطايا التي ارتكبوها في الخفاء ويكاد ألا يعرفها أحد سواهم!

رأى الشاب في إحدى القطرات التي تتزلق من رسغ رجل يمسح مرقفه، صورته مع فتاة غانية كنتك اللاتي شاهدهن في الملهى الليلي الخاص بـ (ريمون)، ثم أدار وجهه فجاء حين رأى في صورة القطرة التي تليها مشهد جماع بينه وبين الفتاة، لتقع عينه على رجل آخر حليق اللقن، غائر العينين، تظهر صورته في القطرات التي تتساقط منه وهو يمسح مجموعة من المتفجرات!

تابع الشاب باقي القطرات التي تتابع فيها الخطايا، ليرى الرجل الحليق بصحبة مجموعة من الأشخاص غير الملتحين يحملون صناديق متعددة في إحدى الشقوق، ثم يرصونها إلى جوار نافذة تطل على مبنى ضخـم..

بعد أن فرغوا من رصّ الصناديق، وضع الرجل المتفجرات التي في يده فوق أحد الصناديق ووصلها بعددٍ رقمي ثم ضغط أحد الأزرار لتتناقص الأرقام تنازلياً..

في قطرة الماء الأخيرة كانوا يُغادرون العقار، ثم نظر أحدهم سائراً إلى ملك المبنى الضخم الذي كانت شرفة الشقة التي كانوا فيها تطل عليه، ولم يكن هذا المبنى سوى.. المعبد اليهودي!

املع الشاب وضوءه واستوقف ذلك الرجل وهو يُغادر الميضة مرطباً أسنانه بالدعاء والذكر، أثناء تنزيل أكمام قميصه قائلاً بلهجة صارمة وعينين يتطاير منهما الشر:

- هل تعرف أني لـن أصلي؟

نظر له الرجل بدهشة شابهة التوتر، فأكمل الشاب وهو يمسك بكتفيه ويجذبه نحوه:

- فهناك مجموعة من الأبرياء مهددون بالقتل والدمار على يدك أنت وجماعتك بعد أن جهزتم لهم كميات غنيّة بالمتفجرات.. ألا ترى أن في ذلك واجباً أقدس من الصلاة؟

اتسعت عينا الرجل في رهبة، ثم دفع الشاب فجأة صائحاً بكل غلظة:

- إليك عني!

ليركض الرجل حافياً خارج المسجد كمن يفر من الموت، في الوقت الذي عبر فيه رجل عجوز من أمام الشاب معترضاً طريقه، مما حال دون الإمساك بالإرهابي الهارب الذي سلم ساقفه للرياح، فتأمل الشاب ذلك العجوز غاضباً ليتضح له أنه نفس الكهل الأسمر الذي قابله في المولد أمس، وقبل أن ينبس ببنت شفة منحه الرجل ابتسامة غامضة ولحق سريعاً بجموع المصلين الواقفين صفوفاً في حضرة الرب كأنهم بنيانٌ مرصوص.

كظم الشاب الوسم غيظه وارتنى جوربيه وغادر المسجد ليرتدي حذاءه في عجلة، ثم ركض سريعاً وهو يرتدي جاكـت بذلته متوجّهاً نحو المعبد اليهودي وهو يدعو من أعـمق أعماقه أن يصل في الوقت المناسب.

\*\*\*

اقترب الشاب مهزولاً من المعبد اليهودي ليجد النطاق المحيط به وقد تحوّل إلى ما يُشبه منطقة عسكرية محصنة بالحواجز والمتاريس، بعد



أجابته الضابط بلهجة متوترة، فنظر العقيد بقلب مقبوض نحو الشاب وتأمل سلامحه وهلة تأكد فيها بحسه أنه صادق قيل أن يصيح بصوت زاعق:

- استدعوا خبير المفرقات فوراً!

فصاح فيه الشاب بتوتر مماثل:

- ليس هناك وقت.. سيقع الانفجار في أي لحظة.

صاح العقيد في أفراد خدمة التأمين:

- فليستد الجميع لإخلاء المعبد وتأمين عملية الإخلاء.

ثم أمسك بيد الشاب وقال للضابط بكلمات سريعة مقتضبة:

- سأصعد لأتبين الأمر، إذا ما أعطيتك إشارة نفذ عملية الإخلاء فوراً.

ثم جذب الشاب من يده مردداً:

- هيا بنا.

\*\*\*

اقتحم العقيد (يحيى) الشقة بعد أن ضرب الباب بكتفه ضربة أودع فيها كل قوته، وخلفه الشاب الوسيم..

أثار دماء على الأرضية، قادت العقيد للعثور على جثة رجل كهل ملقاة في الحمام..

خيرته الأمنية صنعت في خياله صورةً لذلك الكهل وهو يفتح باب شقته فيباغته الإرهابيون بهجوم عنيف حاول أن يقاوم فيه قبل أن يقتلوه ويسحبون جثته للحمام للسيطرة على الشقة وتنفيذ مخططهم من خلالها..

تلك الصناديق تحوي مادة الـ TNT شديدة الانفجار.. الكمية كبيرة جداً تكفي لتدمير المعبد وباقى العقارات والمحلات المجاورة.. وتلك

أن تم إغلاق شارع (النبي دانيال) ومنع السيارات من دخوله، وفي كل شبر رجل أمن مدمج بالسلاح وعلى وجهه علامات الاستعداد والتأهب.

تلاحقت أنفاسه بسبب قطع المسافة من المسجد للمعبد في ثوانٍ قليلة أكلت فيها قدماء الأرض وهو يجري بسرعة مذهلة، ثم وقع بصره على ذلك العقار المطل على المعبد، والمتطابق في هيئته مع ما شاهده في ماء الوضوء بالمسجد، وأخذ يبحث بعينيه عن شرفة الشقة التي تطل على المعبد وبها المتفجرات، حيث لم يتبين حين رآها في أي دور تقع.

الآن عثر عليها وعرف أنها في الدور الثاني..

"علام تنتظر؟"

أتاه السؤال من خلفه، لينظر إلى السائل فإذا به ضابط شرطة ينظر له في صرامة متابعاً دون أن ينتظر إجابته على السؤال:

- تحقيق شخصيتك لو سمحت!

ارتبكت ملامح الشاب، وأجاب متلعثماً:

- ليست معي أوراق تحقيق شخصية، فأنا فاقد للذاكرة لكن دعك من كل ذلك الآن (وأشار بيده نحو شرفة الدور الثاني وتابع) ففي هذه الشقة قبلة ستفجر في أي لحظة وتأتي على هذا المكان بكل من فيه.

اتسعت عينا الضابط وهو يقبض على يد الشاب متسائلاً:

- من أين جئت بهذه المعلومة؟

"ماذا هناك يا محمود؟"

قالها العقيد (يحيى) وهو يقتربُ منهما وقد شعر بأن هناك أمراً مريباً.

"هذا الفتى يزعم أن هناك قبلة في الدور الثاني ستأتي على المعبد بكل من فيه يا سيدي."

«ثم وصل الشاب إلى السطح كان اليهود يخرجون مهرولين من داخل  
السعيد دون أن يغادروا ساحته الواسعة، فيما ظهر على شاشة عداد  
التفجير رقم 4

«نظر الشاب للسماء ورصد اسم الله ثم دفع الصندوق الثقيل بقوة خارقة  
جعلته يرتفع لأكثر من مائة متر دفعة واحدة، لكنه لم ينفجر ليسقط سريعاً  
ويقترّب من المعبد، ثم حدث الانفجار..

اندلع جحيم أنار سماء الإسكندرية، واختلط صوته بصرخات الفزع  
والذعر التي خرجت من الحناجر، وأطلق موجة تضاعفية هزّت المعبد  
ليفقد أفراد اليهود وقوات الشرطة توازنهم ويسقط بعضهم أرضاً فيما  
شبك البعض الآخر أصابع كفيه فوق مؤخرة رأسه حامياً دماغه بين  
مرفقي ذراعيه المثنيتين المضمومتين، في الوقت الذي هبطت فيه شظايا  
الصندوق المشتعلة كنيازك وشهب نارية تبحث عن تعيسى الحظ ممن  
انتخبهم الأقدار، لتصيب إحداها سيدة مسنة، وتمحو الأخرى سقف  
إحدى السيارات، فيما تطايرت الحواجز الحديدية الخاصة بالأمن في  
مشهد لم يشهده تاريخ الشارع منذ بناء تلك المدينة العالمية الأمانة!

وحده الحاخام الذي شخص بصره نحو السماء في الوقت الذي كان  
الجميع يخفضون فيه رؤوسهم ويتحاشون النظر نحو جحيم مستعر في  
الأعالي، كنعام يدفن رأسه في الرمل خوفاً من الخطر.

وحين هدأت الأوضاع وصعد العقيد (يحيى) من جديد للعقار وفتش  
الشقة والسطح، كان الشاب الوسيم قد اختفى تماماً دون أن يترك خلفه  
أدنى أثر، وكأنه قد تبخر.

\*\*\*

المفتجرات المرتبطة بالشاشة الرقمية وموضوعة على أحد الصناديق  
حين تنفجر ستفجر معها كل الكمية الهائلة التي تملأ باقي الصناديق  
لتخرج معها نيران جهنم وتمحو كل شيء في لحظات..

والأرقام التي تتناقص تنازلياً على شاشتها تشير إلى تبقي 31 ثانية فقط،  
ثم 30 ثم..

هل سيكفي الوقت اللازم لإخلاء المعبد من اليهود الذين جاءوا من  
مختلف بلاد العالم للاحتفال بعيدهم التوراتي المقدس؟

27,26, 28

«محمود.. أدخل المعبد فوراً»

قالها صارخاً في جهازه اللاسلكي، من باب أداء واجب يعرف مسبقاً أنه  
لن يجدي لمنع الكارثة.

نظر للشباب، وقال مسرعاً:

- هيا نغادر فوراً!

- يمكنك أن تغادر بمفردك للنجاة بحياتك، ودعني هنا أقم بواجبي!

- هل تعرف كيف تبطل مفعول القنبلة؟

- كلا، لكني سأحاول.

حاول العقيد أن يجادل، لكن رقم 18 الذي ظهر على الشاشة نسف أي  
محاولة نقاش، ليغادر العقيد الشقة مسرعاً، بينما حاول الشاب انتزاع  
القنبلة من فوق الصندوق دون جدوى..

حمل الصندوق الثقيل المثبته به القنبلة وترك باقي الصناديق التي  
ستصبح عديمة الخطورة مع ابتعاد القنبلة عنها، واستعان باسم الله الذي  
يكفي ترديده لضخ الهائلة في عروقه، واتجه مسرعاً نحو السطح  
غير مبال بالأرقام التي تناقصت إلى حد مخيف..

وردت تلك الكلمات بالإنجليزية على لسان (يفعات شمير)، رئيسة الرابطة الدولية للمصريين اليهود في إسرائيل، والتي كانت من ضمن الحضور في احتفالات المعبد برأس السنة العبرية، وحمل وجهها غضب الدنيا أمام كاميرا شبكة (سكاي نيوز) الإخبارية لتبث حديث العقيد (يحيى)، وتتوجه إليها الأعين، قبل أن ينتفض رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية ويسرع الخطى نحو الكاميرا مقاطعاً كلمات (يفعات) قائلاً:

- اسمي إبراهيم منير وأمّثل يهود الإسكندرية باعتباري رئيس طائفتهم ها هنا.. في الحقيقة أنا لا أحب التحدث مع وسائل الإعلام، لكنني مضطر لتوضيح أن كلمات السيدة يفعات لا تمثّل إلا وجهة نظرها الشخصية، فالفارق شاسع بين من ترك وطنه الأم واختار وطنًا جديدًا، ومن صمّم على البقاء في أرض مصر رغم كل التغيرات الجذرية التي طرأت على خريطة السكان والأديان بعد أن عاش هنا يوماً الآباء والأجداد كأهل بلد حقيقيين، وجزء من نسيجها الوطني، يتمتعون بما يميز شعبها من خفة دم وروح دعابة وكرم ضيافة وحسن معشر، وقبل قيام إسرائيل كان التسامح التلقائي وعلاقات الود تسود الجميع، مسلمين وأقباطًا ويهودًا، يجاملون بعضهم في الأفراح والأتراح، ويهنتون بعضهم في الأعياد والمناسبات، يسهرون على أغاني أم كلثوم ويضحكون على مسرحيات الريحاني، وليسوا مجرد جالية أجنبية أو أقلية عرقية مثلما كان وضع اليهود في باقي الأمم.

**"لكن هذا لا ينفي أن ما وقع كان حادثاً إرهابياً بكل المقاييس"**

قالها الحاخام (موريس) وهو ينضم للمشهد مرتدياً ملابس الاحتفال، لتلمع على وجهه فلاشات الكاميرات الفوتوغرافية، قبل أن يتابع:

- فاستهداف يهود أو أي بشر مدنيين أبرياء بغض النظر عن ديانتهم لا يمثل سوى فعل خسيس لو أردنا الدقة.. غير أننا علينا أن نتأمل الحدث بنظرة متأنية لنذكر أنه رد فعل على إرهاب مماثل يحدث في مكان آخر بوضع معكوس يعاقب فيه المسلمون المدنيون على ديانتهم أيضاً.

اصطبغت ساحة المعبد اليهودي باللون الإضاءة الصادرة عن سيارتي سيارات الشرطة والإسعاف الرابضة في شارع (النبي دانيال)، فيما حمل رجال الإسعاف جثة الكهل العجوز الذي قتله الإرهابيون في شقته، وجثمان السيدة التي أصابها إحدى الشظايا.

كان ذلك حين وقف رئيس الطائفة اليهودية بملاحج جامدة تتداول عليها ألوان الإضاءة المختلفة، قائلاً بصرامة وغلظة للعقيد (يحيى):

- هذا ما لن أسمح به يا سيادة العقيد، لو انطبقت السماء على الأرض لن يفش أحد معبدنا.

أجابته العقيد بصرامة مماثلة:

- يبدو أنك لا تقدر الأمر حق قدره يا سيد إبراهيم، لقد كدتم تُمحون من الوجود بمعبدكم الذي ترفض الآن تفتيشه.. بخلاف أن ذلك القتل الذي عثرنا عليه في مسرح الأحداث كان يهودياً.. لا بد أن نعرف أمر هذا الشاب، فحتمًا لديه ما يفيدنا في القضية.

- قلت لك إنه لم يدخل المعبد، ثم إنه غير مدان ليختبئ.. المدان الحقيقي حر طليق الآن وعليكم العثور عليه.

- من السابق لأوانه أن نحكم بعدم إدانته.. لقد رفض أن يبرز تحقيق شخصيته وتحمّج بحجة تشبه الأفلام العربي الرديئة، ومن المحتمل أن يكون ضمن الإرهابيين الذين حاولوا تنفيذ المخطط ثم استيقظ ضميره على آخر وقت.

- هذا أيضًا سيناريو خيالي لا يقل رداءة.. فالإرهابيون الذين تستيقظ ضمائرهم في اللحظات الأخيرة لا وجود لهم إلا في المسلسلات الدرامية الهابطة.

"هذه هي نهاية الحياة اليهودية في مصر، التي أثبتت فنة عنصرية من شعبها أن تلك الأرض لا تتسع لكل الأديان كما كانت من ذي قبل، حتى وإن كانوا يحملون ذات الجنسية"

وسرح قليلا ثم تحدّث وهو يستدعي من الذاكرة أحداثاً مؤسفة تجري في مدينة (القدس) كل عام بالتزامن مع عيد (روش هاشناه) العبراني..

- قبل هذا العيد بأيام، تنتشر الدعوات الصهيونية لاقتحام المسجد الأقصى بين الإسرائيليين ومنظمات المعبد المزعوم، ومع صباح روش هاشناه، تتدفق أعداد كبيرة من اليهود على الجامع، وتدخله في صحبة كبار المسؤولين والوزراء في دولة إسرائيل.

مع تكرار الأمر على مدار أعوام، ارتبط العيد التوراتي بإطلاق النفير العام لدى المسلمين من كل الأعمار، سواء أهل القدس أو أهل الداخل الفلسطيني، للمرابطة بأعداد ضخمة داخل المسجد وحوله في الطرقات والأزقة المؤدية إليه لمواجهة تلك الاقتحامات.

في هذا العام منذ خمسة أشهر قبل عيد رأس السنة العبرية، قامت قوات الأمن الإسرائيلية بمنع عشرات الشباب المنتمين لحركة حراس الأقصى من الوصول للمسجد، وقامت باعتقال عدد كبير جداً منهم، وأخيراً قامت بمنع عدد من نساء الأقصى المرباطات، تمهيداً لهذا اليوم وما بعده، بخلاف مصادرة الهويات، واعتبار التكبير تهمة يتم اعتقال من يقوم بها.

صار الوقوف في وجه الاقتحامات الإسرائيلية تهمة يُمنع القائم بها من دخول الأقصى لثلاثة أشهر.. منعت قوات الاحتلال من هم دون الـ ٥٠ عاماً من دخول المسجد من كلا الجنسين، وفرضت طوقاً مشدداً على أبوابه.

تحول وسط ومركز مدينة القدس إلى ما يشبه الثكنة العسكرية بعد أن غابت عنها مظاهر الحياة الطبيعية، وتغلّبت عليها المظاهر الشرطية.

الكنيست الإسرائيلي أعطى أوامره للشرطة بتسهيل كل الاقتحامات، ومنع كل مظاهر التكبير في الأقصى، وأمر بإغلاق المسجد خلال الأعياد التوراتية.

لكن الشبان المقدسيين لم يستسلموا..

أدوا صلاة الفجر في الشوارع والطرقات القريبة من محيط الأقصى وأطلقوا دعوة النفير العام ولم يبالوا بالاستعدادات العسكرية، فيما دعت بعض الصفحات الإسرائيلية على مواقع التواصل الاجتماعي لمسيرات صهيونية جماعية عند جميع أبواب المسجد، ونفذت بالفعل مسيرة حاشدة جابت شوارع القدس وحتى باب الأسباط للمدينة، رفعت خلالها رايات الهيكل المزعوم، وشهد المسجد الأقصى اقتحامات لم يسبق لها مثيل في تاريخه كمّاً ونوعاً، ومنعوا أي مسلم من دخوله، واستمر المنع حتى قبيل صلاة الظهر، إلا أن أعداداً حاشدة وكبيرة تجمّعت عند أبواب المسجد الأقصى واستطاعوا كسر الحصار حوله وتدفقوا إليه أفواجا، قبل أن تحدث المذبحة..

عشرات من القتلى المسلمين سقطوا برصاصات الأمن الإسرائيلي، بخلاف اعتقال المئات.. بالطبع سقط مصابون وقتلى إسرائيليون، لكن بعدد ضئيل جداً أبرزته وسائل الإعلام الإسرائيلية والغربية التي ركزت على صور الدماء والجثث اليهودية فقط، ووصفت المسلمين بالإرهابيين.

"تتعرف بك؟"

قالها المراسل وهو يُقرب الميكروفون من فمه، فأجابه (موريس):

- موريس زكي، حاخام يهودي ذو أصول مصرية، وواحد من أكثر المعارضين لقيام دولة إسرائيل الصهيونية بحكم انتمائي لجماعة ناطوري كارتا\*

\* ناطوري كارتا: عبارة باللغة الآرامية تعني (خُرأس المدينة)، وهي جماعة يهودية معارضة لإنشاء دولة إسرائيل الصهيونية.

\*\*\*



في الغرفة المغلقة التي تحوي ألواح التوراة بالمعبد، وقف الشاب يومئذ أمام رئيس الطائفة اليهودية، والحاخام اليهودي الذي حكى حكايته من بدايتها واستكمل:

- بعد سفري الاضطرابي إلى إسرائيل، عشت أيامًا كحيلة السواد.. صبي وحيد بلا أهل وسط السنة ترطن لغات مختلفة، وجنسيات متعددة لا يجمعها سوى النقم على أوطانهم الأم التي فروا منها كمن يفِر من الجحيم، وتفرقة مؤلمة بين المواطنين ذوي الأصول الشرقية، والأصول الأوربية.

ضابط الموساد الذي كان يتعاون مع أبي في الإسكندرية قرأ على وصيته، وأخبرني أنني سأحصل على ميراثي قريبًا، وسلمني إلى حاخام تعهد ببرعايتي وأخذ يقرأ على مسامعي عشرات الفتاوى التي زعم أنها مستندة إلى التوراة ووصايا الرب.. كانت الفتاوى تُبيح قتل الأغيار من غير اليهود حتى لو كانوا من غير الأعداء في حال عرض تواجدهم شعب إسرائيل للخطر، وتستبيح دم المدنيين الأغيار إذا ما ساعدوا جيش الأشرار العرب، أو حتى قاموا بتشجيعه على الحرب على اليهود وأعداؤه عن ارتياحهم إزاء أعماله دون الحاجة لقرار يقتلهم على مستوى الأمة، إذ يكفي بضعة أفراد ففسد، وحل أيضًا قتل الأطفال الأغيار في حال إذا كان واضحًا أنهم سيلحقون الضرر باليهود عند نضوجهم، مؤكدًا أنه يحل قتل هؤلاء الأطفال عمدًا ومباشرة لا من خلال محاربة ذويهم الكبار قسب، خاصة أولاد زعماء الأغيار لممارسة الضغوط عليهم\*.

كان يُحرض المصلين أمامي على قتل الفلسطينيين وممارسة عمليات إرهابية ضدهم بتأكيد صلاحية الأفراد العاديين من دولة إسرائيل بسفك دماء العرب أتباع مملكة النشر، خارج إطار قرارات الحكومة أو الجيش.

\* هذه الفتاوى حقيقية بالفعل، ويروج لها عدد من الحاخامات في إسرائيل، وقد صدر منذ فترة في إسرائيل كتاب أثار ضجة بعنوان (عقيدة الملك) يبيح فتاواه قتل الأغيار استنادًا لتفسيرات العهد القديم ومصادر التشريع اليهودي، للحاخامين يتسحاق شبيرا وزميله الحاخام يوسي إيليتسور.

وبعد هذا كله، يخبرني أن البشرية مرتبطة مع الله بالعهد النوحى\*، الذي أقامه مع نوح وذريته بعد الطوفان العظيم كما ورد في سفر التكوين، حيث حرم علينا الرب القتل وسفك الدماء!

وجدت نفسي أمام نموذج مختلف تمامًا عن الحاخامات الذين قابلتهم وتربيت في كنفهم في مصر.. بل وجددتني أمام دين غير الدين الذي فهمته من أمي المتديعة.. أعيتني قلة الحيلة وحيني لوطني الحقيقي ولم تكف الكوابيس الأليمة عن مطاردتي في نومي، لأرى نفسي فيها أقتل الأطفال الأبرياء وأرقص على جثثهم بين مخضبتين بالدم، لأنفض في كل مرة صرخًا دون أن أجد حصنًا دافئًا يحتويني ويهدئ من روعي.

عزمت على الهرب، وبكيت في صلاتي للرب طالبًا منه النصح والرشاد، حتى أخذتني سنة من النوم رايت فيها وأنا بين اليقظة والنعاس طريقًا موحشًا يفيض ظلامًا القلب، تقف بميابة في نهايته، وما أن تبادلنا النظر حتى أخذ كل منا يركض نحو الآخر بأقصى ما لديه من قوة دون أن تتناقص المسافة بيننا مهما ركضنا، ثم لاحظت في الأفق سحابة من نور أخذت تقترب مني رويدًا رويدًا حتى تبينت أنه واحد من السارافيم\* ذي الأجنحة الستة، حملني على ظهره وحلق بي في سماء القدس المظلمة وأنار الطرقات والشوارع من تحته لأبصر خط سيره إلى أن وصلنا فوق بيت يصدر خيوطًا من الضياء تصل ما بين الأرض والنجوم، فهبط بي السارافيم أمام مدخله وقال لي: من هنا تسعد إلى وطنك مرة أخرى بعد أن تأتيك سحابة النور مرة أخرى بالأمر المحسوم.

فركت عيني وقلبي يخفق بشدة على ما أتاني من يقين، وما أن أشرقت الشمس حتى ذهبت إلى حي مئة شعريم في القدس، وتتبع مسار

\* العهد النوحى: 7 نواذ الهية مقدسة، تنهى بني إسرائيل عن الوثنية، والزنا، والقتل، والكفر، والسرقه، وأكل اللحم التي جاءت من حيوان وهو على قيد الحياة، أي التي تم قتلها من جسد وهو حي، وكذلك مطالبة المحاكم التي تُحاكم البشر في فرض هذه القوانين.

\* السارافيم: طائفة من الملائكة في الديانة اليهودية، وكلمة السارافيم أصول عبرانية يغلّب أن يكون معناها "كائنات مشتعلة" أو ربما كان معناها "شرفاء".

سحابة النور التي رأيتها في الحلم حتى عثرت على نفس البيت الذي شاهدته، وحين طرقت بابه فتح لي رجل طيب أخبرني أنه الحاخام الفلسطيني سلوم شمنويل، واستضافني في منزله وعزفني بأبنائه الاثني عشر، وكانت زوجته منتقبة.

كنت أظن أن كل يهودي في فلسطين إسرائيلي بالتعبية، قبل أن ألتقي بهذا الحاخام المتدين الذي انتمى لليهود الأرثوذكس الحريديم.. أخبرني أن اليهود الفلسطينيين هم نسل اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين التاريخية كجزء من السكان الأصليين قبل بدء الهجرات الصهيونية.. تركزوا في صف وطبريا والخليل والقدس، وعاشوا في سلام ومحبة مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين.

ومع صدور وعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين تباعاً، ازدادت حدة التوتر إلى أعلى مستوياتها بين الطوائف اليهودية المؤيدة للصهيونية، وتلك المعارضة لها في فلسطين حتى تم اغتيال جاكوب دي هان المتحدث الرسمي باسم جماعة إسرائيل أغودات المعارضة لإقامة دولة يهودية، وتم تأسيس جماعة ناطوري كارتا التي ترفض الصهيونية بكل أشكالها وتعارض وجود دولة إسرائيل عام 1935، وكان هذا الحاخام الذي التقيته من أوائل المؤسسين لها بعد أن أيقن تماماً أن الصهيونية من أخطر المؤامرات الشيطانية على الديانة اليهودية والإنسانية بأكملها، إذ تقوم على معاداة الرب ومخالفة تعاليم التوراة، والانسلاخ عن التراث الديني اليهودي.

كان بيته هو البيت الوحيد الذي شعرت فيه أنني لم أغادر مصر، لا سيما حين فسر لي الرؤيا التي رأيتها وأخبرني أن تأويلها يعني أن الرب يأمرني بالانضمام لتلك الجماعة والدفاع عن تعاليم التوراة الحقيقية ونصرة المظلومين، وألا أعود لوطني حتى تأتيني بشارته في رؤيا أخرى تملئ عليّ ذلك، وما أن استلمت ثروته والذي حتى منحنيها بالكامل لذلك الحاخام الطيب وخضت معه هو وجماعته حرباً ضروساً لنقل في وجه دولة بُنيت على التعصب: نحن اليهود الحقيقيون هنا أما الباقي فهم العابرون.

ذكّرناهم بغضب الله على بني إسرائيل الذين عصى أجدادهم وأمره منذ آلاف السنين، وبسبب خطاياهم تم طردهم من اورشليم وهدم هيكلهم، فباتوا ممنوعين من الصعود إلى جبل الهيكل أو حفر الأرض تحته، وبناء على التلمود البابلي فإن أي محاولة لاسترداد أرض إسرائيل بالقوة هي مخالفة للإرادة الإلهية حتى يأتي المسيح يوماً ويؤسس تلك الدولة على قيم المحبة والخير والسلام والعدل.

جئنا القدس نعظ في الناس ونوضح لهم حقيقة الأمر، مطالبين بتحرير فلسطين من عريضة الصهاينة حتى يعيش الجميع تحت حكم فلسطيني لا فرق فيه بين مسلم أو مسيحي أو يهودي.

حتى بعد تضيق دولة إسرائيل الخناق على اليهود الفلسطينيين ومنحهم الجنسية الإسرائيلية بالإجبار في الثمانينيات من القرن الماضي، رفضوا أن يقاضوا شيكلاً واحداً من دولة إسرائيل أو الخدمة في مؤسستها العسكرية.. وحين تلد زوجة أحد أعضاء ناطوري كارتا في المستشفى، يرفض أن يأخذ أي مساعدة من الضمان الصحي الإسرائيلي.

معظمهم لا يتحدث اللغة العبرية، ولغتهم الرسمية هي الإنجليزية.. يقيمون الحداد في عيد قيام دولة إسرائيل كل عام، ويخرجون في مسيرات حاشدة تدعو الله بزوال ذلك الكيان الصهيوني وتفكيكه، يرفعون علم فلسطين، ويحرقون علم إسرائيل، دون أن تنتهيم عن عقيدتهم حملات الاعتقال، وهجم الموانئين الصهاينة على بيوتهم واقتحامها، وضربهم بالهراوات الحديدية ونيش قبورهم، وغيرها من صنوف التعذيب والاضطهاد.

ثم اقترب (موريس) من الشاب الوسيم وتأمل ملامحه بإعجاب شديد وكأنه لا يصدق عينيه ثم ارتعشت أطرافه وهو يردد بكلمات يقولها ببطء من فرط الانفعال وكأنه يلقي قولاً ثقيلاً:

- وحين حدثت اقتحامات المسجد الأقصى منذ شهر، ولاحت في الأفق مذبحة جديدة سترق فيها الدماء، جاعني الإذن أخيراً بالعودة إلى وطني بعد كل هذا العمر.. كان ذلك وأنا في نفس الحال بين النوم واليقظة حين رأيت نفس الطريق الموحش

الجمع بينهما في هذا الوطن الحزين.. كلمات قصتك التي رويتها تبدو صادقة رغم غرابتها التي تجعلها جديرة بحكايات ألف ليلة وليلة، لا سيما أنها تتفق مع رؤية سيدي الحاخام.. لكن لا بأس.. فكل حكايات الرب في توراته تبدو أقرب للأساطير رغم أنها واقع يفوق الخيال.

بتأثر مماثل رد عليه الحاخام قائلا:

- مهما بلغ خيالك يا إبراهيم، لن تصل إلى ما شاهدته من هذا الفتى وهو يفرق فرق الجحيم.. (ثم نظر للشباب وأردف) حتماً هو أنت ما قصده السارافيم حين قال إن للرب جنده في كل مكان، حتى وإن كنا في قلب الجحيم.

كان الشاب يسمعها ويحول بينهما النظر وهو يشعر بدقات قلبه تتسارع بشدة وتزأل كيانه، ليحين دوره في الانهيار أيضاً ويصبح مفعولاً به بعد أن لعب دور الفاعل منذ أن فتح عينيه في المقابر، وحين صمت كلاهما وجد نفسه يسأل الحاخام بلسان مرتعش:

- هل لك أن تخبرني ماذا تقصد بالسارافيم؟

- هي ملائكة خلقت من نار، جمالها يفوق الوصف، لكل منهم ٦ أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجله، وباثنين يطير.. يفوق فوق عرش إيل عليون\* وعملهم تسبيح اسمه في السماء والإشادة بسجايه الإلهية المجيدة، وتطهير خدامه المصطفين مثلاً طهروا فم النبي إشعياء من النجاسة.

سرت فتشعريرة في جسد الشاب حين رددت شفتا الحاخام كلمة (الملائكة) وتخبط داخله المشاعر..

ثمة حنين داخله لذكريات لا يتذكرها، وأوقات سعيدة ذهبت وبقيت منها رائحة السعادة التي لا يذكر أسبابها، كمن يشتم رائحة جميلة ويريد أن يحتفظ بها لكنه لا يعرف لها اسماً حتى يخبر به بائع العطور إذا ما أراد تركيبها، فيعيش على ذكرى رائحة لا تبرح روحه وإن اختفى من الواقع شذاها.

\* إيل عليون: الإله الأعلى في اليهودية.

المظلم، وقد وقفت فيه دميانة التي شاخت ملامحها، تلوح لي بالجميـء وكلانا يسير نحو الآخر، لكننا كنا نقترّب ونذوب بيننا المسافات هذه المرة، غير أنها سقطت في حفرة عميقة قبل أن نتلاهي، ووقفت عاجزاً عن مساعدتها، فإذا بالسارافيم يأتي إليّ مجدداً، ويقول لي: اهبط مصر ومد يد العون لمن ضلوا الطريق، وقل كلمة الإنصاف هناك مثلاً قلتها هنا مراراً.

ارتجفت هولاً، وقلت كيف أفعل وقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئاً فقال لي السارافيم: لا تخف وامض قدماً، فللرب جنده في كل مكان، وإن كنت في قلب الجحيم.

عندها فقط وافقت على دعوى القوم للاحتفال ببروش هاشنا بعد سلسلة من الدعوات التي تلقيتها على مدار سنين طويلة كان ردي فيها حاسماً بالاعتذار.. وحين ارتجت السماء وخفض الجميع أعينهم خوفاً من لهيب النيران الذي مرق فوق الرؤوس، رفعت رأسي نحو الجحيم وأنا أتذكر كلمات السارافيم، حتى رأيتك وأنت تفقر ففرتك الهائلة من سطح المنزل إلى سطح المعبد وكأن يد الرب هي التي حملتك.

ثم استدار نحو رئيس الطائفة اليهودية وقال له:

- هل فلطنت الآن يا إبراهيم لماذا طلبت منك إخفاء الفتى في أسرع وقت حين قلت لك سأشرح لك لاحقاً؟

نظر رئيس الطائفة اليهودية للشاب بانبهار، ثم قال للحاخام:

- معك حق يا سيدي.. فكل رجال الأمن يفكرون بنفس العقلية في كل مكان بالعالم.. منهجهم القبض على من يصلح أن يكون متهماً وسد خاتمة الجاني بأي ثمن بغض النظر عن الحقيقة.. المهم أن تكون هناك إجابة للرأي العام، ومجرم خلف القضبان تنزل صورته في الصحف ووسائل الإعلام.

ثم عاد ينظر إلى الشاب بعينين يملؤهما الإعجاب والتأثر وقال له بامتنان:

- بفضلك سيظل معبدنا شامخاً لتقام فيه الصلوات والاحتفالات من قلة قليلة ما زالت تتمسك بديانيتها وجنسياتها معاً رغم استحالة

## «حدثني أكثر عن الملائكة»

قالها الشاب بلهجة ظمان يبحث عن الارتواء، فسأله الحاخام متبسماً:

- ألا تعرفهم؟

بُهِتَ ملامح الشاب وغزتها الحيرة والارتباك وهو يجتر ذاكِرتِه الممحبة، شاعراً أن ثمة شفرة على هذا الأمر لا يعرف مفتاح فكها، فأجاب قائلاً:

- أعرف عنهم القليل، لكني أشعر دائماً أنهم قريبون مني.

تأمل الحاخام ملامحه وسرت داخله رعشة داخلية حين وقر في قلبه شعور أخبره أن لهذا الشاب خصوصية ما تربطه بهم، ثم قال:

- هي مخلوقات من نار يا ولدي، تنقسم إلى نوعين، قسم لا يطرا عليه الموت، خلقه الرب في اليوم الثاني من أيام الخلق، وقسم آخر خُلِقَ في اليوم الخامس، يموت بعد أن يمكث زمناً طويلاً قَدَّرَ له فيه الحياة بأجلٍ محددٍ، ومنهم من يموت في يوم خلقه بعد أن يقرأ التلمود ويُسَبِّح التسابيح.

ويخلق الله كل يوم ملكاً جديداً عند كل كلمة يقولها.. فهؤلاء الملائكة يأتون إلى عالم الوجود بسرعة كما يخرجون منه.. منهم ميخائيل للنار وانضاج الأثمار، وجبرئيل للبرد، ومنهم من وظيفته حفظ الأعشاب التي تنبت في الأرض، وهم واحد وعشرون ألفاً بعدد أنواع الأعشاب، كل واحد منهم يحفظ النوع الذي ينبت به.. بعضهم مخصص بالخير، وبعضهم بالشر، وبعضهم ليُنْثَى المحبة والصالح، وبعضهم لحفظ الطيور والأسماك والحيوانات المتوحشة، وبعضهم مختص بصناعة الطب، وبعضهم لمراقبة حركة الشمس والقمر والكواكب، ومنهم المجاورون لعرش الرب وحملته والمسيحون بأقداسه.. وتشتغل الملائكة ليلاً ببث النوم في الإنسان، وتصلّي لأجله نهائياً\*.

ثم نظر إلى عيني الشاب نيهات سيطر فيها الحزن على قسماته واستطرد:

\* هذه المعلومات عن الملائكة جاءت حسب ما ورد في العقيدة اليهودية.

- غير أن الملائكة لم تظهر يوماً ليشر أو تتصل به في الواقع أو الرؤية إلا ومسه في حياته بأسٍ وعظمٌ تمثلاً لرسالة مقدسة يتلقاها، وأمانة ثقيلة الحمل عليه أن يُبلّغها مهما كان حجم الألم والمعاناة.. هكذا كان قدر الأنبياء والصالحين على هذه الأرض التي تنبت أشواكاً تحت أقدام المُكَلِّفين، مثلما حدث مع الكليم.

عقد الشاب حاجبيه متسانلاً:

- الكليم؟

ارتسمت الدهشة على وجه (موريس) وسأله:

- ألا تعرفه؟

ظل الفتى ينظر إليه بحيرة وعيناه تجيب: "وكأنني سمعت عنه أنباء طواها النسيان".

فقال الحاخام:

- حسناً.. ربما كان من المفيد أن أقصص عليك خبره.

وبدا الحاخام يحكي للشباب عن معجزات (موسى) التسع التي أيده الله بها ليثبت نبوته إلى فرعون وبني إسرائيل، وذلك الفارق بين من يؤمن بأسفار موسى الخمسة المكونة للتوراة، وأولئك التلموديين الذين قالوا على الله ما لا يليق في تلمودهم المزعوم الذي لا يؤمن به هو شخصياً مثل: "يتندم الله على تركه اليهود في حالة العاسة حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل"، وأن النهار اثنتا عشرة ساعة.. في الثلاث الأولى يجلس الله ويطلع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يُطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك، وأنه لا شغل لله في الليل غير تعليمه التلمود مع الملائكة، ومع إسموديه ملك الشياطين في مدرسة السماء، بخلاف العنصرية الفجة التي ترى اليهود بشراً لهم إنسانيتهم، أما الشعوب الأخرى فهم عبارة عن حيوانات، فضلاً عن تقديس الحاخامات، حتى إن الله يستشيرهم على الأرض عندما توجد



ومع كل حرف من هذه القصص كان الشاب ينتفض ويرتجف، وقد اختلطت داخله مشاعر الرهبة من قدرات الله ولحظة كلامه مع البشر، والاستكثار من تجديف ووجود بني إسرائيل تجاه الرب، والمحبة الشديدة لكلهم الله العظيم الذي فاقت حكايته الخيال والأساطير، وأتى بما لم يأت به أحد قبله من المعجزات وتأييد السماء، حتى أشفق عليه الحاخام فنظر لأطباق موضوع عليها التفاح المغموس في العسل وثمار الرمان، وأشار إليها قائلاً للشاب:

- دعنا نكمل ذلك ونحن نتزود يا ولدي بما يُعيننا على ما هو قادم.. ففي انتظارنا أيامٌ عجاف.

\*\*\*

وهت (آيات) بملاح مرتبكة على عتبة مكتب العقيد (يحيى)، وإلى هوارها عسكري أشار له الأخير بالانصراف قبل أن يقول لها:

- تفضلي بالجلوس يا أنسة آيات.. أم أقول يا مدام؟

هت سؤاله بنبرة تهكمية، وهو يلتقط سيجارةً دسها بين شفتيه وأشعلها بدهاقته دون أن يبالي بإجابتها وهي تتمم بصوتٍ خفيض: "أنسة".

وبعد أن أخذ نفساً ضاقت معه حدقته مع شفتيه المضمومتين، أخرج دخانه ببطء وهو يتأمل فريسته التي تنتظر للأرض وتهز رجلها بنوتر، بينما خيل إليه أنه يسمع صوت دقات قلبها المتسارعة قبل أن ينقض عليها:

- باختصار لأنني لا أحب الثثرة.. لا حديث في شارع النبي دانيال سوى عن ذلك الشاب الوسيم الذي ظهر برفقتك حين قدم فقررة السيرك وسحر أعين الناس حتى اعتقدوا أن التراب قد صار ذهباً.. المواصفات تتطابق تماماً على نفس الشخص الذي حذر من انفجار المعبد اليهودي قبل أن يختفي تماماً فور وقوع الانفجار.. هل لم يستتج عقلك بعد أنك صرت متورطة في أمر بالغ الخطورة قد يجعلك تقضين ما بقي من عمرك في السجن؟

ترققت عن النظر للأرض ونظرت نحوه كالممسوسة بملاح يحتلها الهول.. أيقن من انتفاضتها ونظراتها الزائغة أن حصون مراوغتها الهشة قد انهارت فور بدء الاشتباك، فواصل طرق الحديد وهو ساخن:

- تحرياتها أفادت بأنك خريجة مؤسسة الأحداث، قيل أن تعلمي مع المجني عليه ريمون عزيز الذي اتهمك بمحاولة قتله وأبلغ عنك أنت وفَتاك الساحر.

أطفا سيجارته في منفضة السجائر وهو يردف بلهجة ثعلب يجلد فريسته المحاصرة بنظراته الماكرة قبل اقتراسها:

- يؤسفني أن موقفك حرج للغاية.. لا مفر من القائك في الحجز.

نجحت كذبتة في قلب كيائها حتى تلالأت عينها بدمع رقرق، وشعرت أنها ضل عنها العون والسند..

غاب الشاب الوسيم القوي الذي ظنت أنه طوق نجاة في بحر الأقدار.. تبدل حال (دميانة) وصارت عديمة الفائدة أكثر من ذي قبل.. وصارت غزاة مغربة في قصص الدنيا الضيق المليء بالأسود الجوعى، ولا مناص للنجاة إلا بالاحتماء بأسد قوي يزود عنها ويمنع اقتراس الآخرين، رغم أنه لن يخرجها في النهاية من القفص.. لذا قالت في توسل:

- أقبل يدك قف إلى جانبي.. ساحكي لك كل شيء!

بدأت في الحكى، وأشعل العقيد سيجارة جديدة لم يأخذ منها نفساً واحداً وقد نمسى الزمان والمكان وتوحد مع الأحداث التي لم يستوعبها عقله، وإن شعر قلبه أن بها ضريباً من الصدق، لمسه بنفسه حين التفت عيناه بعيني الشاب عند المعبد اليهودي..

وحين انتهت (آيات) من الكلام، كان العقيد مجرد جسد يجلس أمامها، بينما أوتحت عيناه السارحة التي لا تنتظر إليها، أن عقله وكيانه باتا في عالم آخر..

عالم من الخيال تحولت فيه كلمات الحكى إلى حركات وأفعال أخبرته غريزته أنها حقيقية، لكنه سقط في فخ: كيف حدث ذلك إن كان صدقاً؟ من أين جاء هذا الفتى؟

لو كان ساحراً حقاً، لبحث عن المال واستغل تلك القدرات في أن يكون سيذاً بين حفنة من الجيلة والمفتونين يسحره، ليجنى من أغنيائهم المال، ويضاجع من فقرائهم النساء، ويحول الصعاليك إلى خدم تحت رجله، شأن الكثير من السحرة الذين صادفهم في حياته وانتهى بهم الحال خلف القضبان..

ما الذي كان يعنيه بانفجار معبد على رؤوس أصحابه ليخاطر بحياته أمام قنبلة لو انفجرت لانفتحت أبواب الجحيم على مصراعها إلا لو كان لديه يقين في أمر أعلى عنده من حياته..

عاد إلى وعيه وتركيزه حين مرّت شعلة السيجارة بين إصبعيه السبابة

والوسطى لتحرقه بعد أن وصلت إلى الرمق الأخير، فوضع قلتر سيجارته العذراء في المطفأة، ثم هبّ واقفاً بشكل مفاجئ وهو يقول:

- هيا بنا!

ارتدى جراب السلاح فوق قميصه، ثم التقط سلاحه الميري ودسه فيه هل أن يرتدي فوقه جاكيت بذلته الذي وضع فيه هاتفه المحمول وعلبه سيجارته مستطرداً:

- ستصحبيني إلى غرفة دميانة لنأخذ الأسطوانات المدمجة التي حصلت عليها.. أعدك أن أخذك من المازق لو وجدت في الأسطوانات ما يدل على صدق كلامك.

- وماذا عن الشاب؟

أجابها بنبرة غامضة:

- سنعر عليه حقاً.. لا أحد يفر من قبضتنا.

وجمت ملامحها، وقد حارت في تفسير كلماته، لكنها سارت معه على كل حال، مستسلمة له كدابة يسحبها صاحبها من لجام حين غادرا مكتبته ويتوجها إلى سيارته التي استقلها بعد أن جلست إلى جواره وهي تحاول أن تتخيل ما ستسفر عنه الدقائق المقبلة.

انطلقت السيارة في طريقها لغرفة (دميانة)، و(آيات) تُخلق في سماء من كوابيس البقطة، تبحث عن بادرة أمل محتملة وخاتمة سعيدة لهذا التسلسل الأسود من عواصف قدر لم تتخيل يوماً أن يخبي كل هذه المفاجآت.

لم تكتثر بتلك المكالمات التي أجراها العقيد مع مساعده الذي كان يجري تحرياته عند المعبد اليهودي ويحاول الوصول لهوية الشاب الوسيم.

فقط التقطت أذناها الجملة التي ختم بها مكالمته: "كنت واثقاً أن هناك لعبة خفية في قضية ذلك المدعو ريمون.. ستخبرنا الأسطوانات المدمجة

التي في حوزة الفتاة بالكثير والكثير .. هيا قابليني هناك .

غادرت السيارة بعد أن وصلت أمام العقار، ولمحت بطرف عينيها مساعد العقيد وهو يقترب منه ويصافحه، قبل أن تدخل مدخل العقار ..

صعدت إلى السطح فوجدت (دميانة) تجلس على المصطبة وهي لا تزال على تلك الحالة البائسة من اللاموت واللاحياة، منكسة الرأس، محنية الظهر، معلقة بين النوم واليقظة، وبالطبع لم ترد عليها السلام.

فتحت (آيات) باب الغرفة فحفظت عيناها وامتنع وجهها حين وجدت محتويات الحجرة مقلوبة رأساً على عقب دون أن يبقى فيها شيء على مكانه ..

انكبت على الأرض تُفَرِّز المحتويات بعينين زائغتين سال منهما الدعم، ويدين أخذت تقلب في كل كبيرة وصغيرة بلهفة غريق يُحاول التعلق بالماء في لحظات الاحتضار، شأن كل مبتلى بالفقد وهو يبحث عما فقده للمرة الألف دون جدوى، قبل أن تقتنع - أخيراً - أن الأسطوانات قد سُرقت بالفعل ولا أثر لها!

فتحت باب الحجرة بصعوبة وهي تُجرجر قدميها للخارج شاعرة أنها تُغادر باب الدنيا ..

اقتربت من سور السطح وألقت نظرة واجمة على سيارة أول رجل أمن يُبدي استعداداً لمساعدتها، حيث يجلس فيها مع مساعده استعداداً لاستقبالها بكنزها الثمين الذي سيخبط به رؤسائه بعد أن انقلب موقفهم في القضية بشكل مفاجئ، واشتم منهم رائحة التواطؤ والتورط ..

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تُحاول أن تتخيل رد فعله لتتسأل الدموع من عينيها، قبل أن يقطع خيط أحزانها مشهد غريب لسيارة مسرعة اقتربت من سيارة العقيد، وفجأة ألقى أحدهم منها جسماً غريباً ما أن اصطدم بالسيارة حتى انفجرت وأحدث انفجارها دويّاً هائلاً جذب الأنظار، ليركض نحوها المارة وأهل المنطقة ويتجمعوا حولها في ثوان، بعد أن صارت منطقتهم بؤرة للإرهاب، ومركز جذب للانفجارات في يومين متتابعين، دون أن يشعر أحدهم بذلك الانفجار الذي يحدث بالأعلى في نفسية فتاة

تهز رأسها ميمناً وبساراً وهي تتابع الموقف بعينين تبيكان بحرقه، واضعة يدها على قمها لتلتمس صرخة هادرة، فيها آخر ما تبقى من إنسانيتها التي تعثرت مع الانفجار وتحولت إلى أشلاء من اليأس، وشظايا من الانكسار وخيبة الرجاء.

\*\*\*

ارتسم التوتر على ملامح (ريمون) وهو يتلقى تلك المحادثة التي أخبره فيها رجاله أنه تم تفجير سيارة العقيد (يحيى) بنجاح، قبل أن يُنهى المكالمة ويتأمل الرجل ذا العينين الزرقاوين الذي أعطاه ظهره ووقف أمام زجاج الشرفة يمارس هوايته في تنقيف دخانه وهو يتأمل السحب غير مبالٍ بتفاصيل المكالمة ..

تقدم (ريمون) نحوه وقال بارتباك وهو ينظر إلى ظهره دون أن يرى عينيهِ المتوهجتين:

- الأمور تسير من سيئٍ لأسوأ .. فَجَرْنَا سيارة العقيد بعد أن أخبرتنا مساعداً أنه عاد يدس أنفه في قضيتنا مجدداً رغم استبعاده، لكنه نجا بمعجزة .. صحيح هو في حالة حرجة ولم يمت مثل مساعده، لكن احتمال عودته سيظل قائماً، بخلاف رجالنا الذين لم يعثروا على الأسطوانات المدمجة بعد أن فَشُوا غرفة تلك المرأة العجوز ملي ملي .. لماذا لا نختطف آيات وتتصدى بنفسك لفتاها الذي تزعم أنك الوحيد القادر على هزيمته؟

أخذ الرجل نفساً طويلاً من سيجاره، وصنع من زفيره دوائر من الدخان وهو ينظر إلى الأعلى متجاهلاً إجابة ذلك المتحدث التافه، منتبهاً لذلك الخصم الذي فاجأه بلعبة جديدة أركبت حساباته وغيزت مسار المباراة ..

رغم صمته، كانت عيناها تقول الكثير والكثير ..

لم يكن في حساباته أن يظهر ذلك الحاخام اليهودي، ولا أن يتورط الشاب في حادث المعبد ليبعد بهذا الشكل عن (آيات) و (دميانة) التي تلبسها خصباً ليكون بالقرب منه ..

اليهودية الذي آمن له عملية الخروج..

تحركت حققتا عينيه يمينًا ويسارًا مع كل خطوة يخطوها، متأهبًا لخطر مجهول من رجال الشرطة، وعقله يسترجع كلمات الحاخام (موريس) الأخيرة..

"وجدك هنا يا ولدي صار يُمثل خطورة عليك وعلينا.. لقد اتصلت بصديقي القمص يوسف أرمانويس وحكى له كل ما سبق، ورحب باستضافتك في كاتدرائية مارمرقس\*.. إنها هنا إلى جوارنا في شارع النبي دانيال، لكن مدخلها الرئيسي ستجده في ١٩ شارع كنيسة الأقباط،

\* كنيسة مارمرقس: هي أول كنيسة مصرية بناها القديس (مرقس) مبشر المسيحية في مصر وأحد تلاميذ السيد المسيح عليه السلام، حيث دخل الإسكندرية عام 61م من بابها الشرقي، وحين جال في شوارعها تهرأ حذاؤه من كثرة السير، فأعطاه لإسكافي يُدعى (أنيانوس) ليصلحه، وأثناء عَزْز الإسكافي المخز في الحذاء، نفذ إلى الجهة الأخرى وجرعه، فصرخ (أنيانوس) من الألم باليونانية: "إيسثوس" أي يا الله الواحد.. فأمسك القديس (مرقس) ترابًا من الأرض وتفل عليه ثم وضعه على الجرح وشفاه باسم المسيح، وتعجب (أنيانوس) من ذلك فبدأ القديس (مرقس) يبشره بالإله الواحد، فأمن هو وأهل بيته وتعمدوا، وفتح (أنيانوس) منزله ليضم فيه المؤمنين، فأصبح أول أسقف رسمه القديس (مرقس) الرسول، والبابا الثاني لكرسي الإسكندرية الرسولي المعروف باسم الكنيسة القبطية، وبُنيت أول كنيسة في إفريقيا، وعرفت باسم كنيسة (بوكاليا)، ومكانها هو مكان الكاتدرائية المرقسية الحالية، وكان هذا المكان يتوسط الإسكندرية القديمة، ثم استُشهد (مرقس) الرسول في نفس المكان على يد الوثنيين وهو يحتفل برفع القرايين المقدسة يوم عيد الفصح، وتم دفنه في الكنيسة بعد أن انفصل رأسه عن جسده بسبب التعذيب، لكن جسده تعرّض لسرقه من بعض البحارة الإيطاليين سنة 827م، وبنوا عليه كنيسة في مدينة (البندقية) الإيطالية، ثم استعادت الكنيسة القبطية رفاته بعد مرور 11 قرنًا على سرقته في عام 1968م تحديدًا وتم وضعه بالكاتدرائية المرقسية في العباسية، داخل مزار أعد له خصيصًا تحت الهيكل الكبير، أما الرأس فما يزال بالكاتدرائية المرقسية بالإسكندرية، التي بُنيت في نفس موضع أول كنيسة مصرية بعد سلسلة من الهدم وإعادة البناء.

ولكنيسة المرقسية مكانة كبيرة في تاريخ الكنيسة العالمي، لأن منها كان بطارقة الإسكندرية الأقباط العلماء الذين واجهوا الهرطقات المختلفة، وأصبحت الكنيسة المرقسية مقرًا لبطريرك الكنيسة لمدة ألف عام، ثم انتقل المقر عدة مرات إلى أن أصبح الآن في العاصمة المصرية القاهرة، في أرض الأنبا (رويس) في الكاتدرائية المرقسية بمنطقة العباسية.

ابتسم ساخرًا في وجه السماء وقد شعر أنها رقة شطرنج تتقاطع فيها النجوم والكواكب بخطوط طويلة وعرضية، بينما أمسكت يد من نور بجسد (موريس) وحركته للأمام، فردد في نفسه: "حسنًا.. أعترف أنها لعبة مفاجئة وغير متوقعة، لكنني أيضًا لاعب محترف.. هالك لعبتي الجديدة إن كنت تفضل الاستعانة برجال الدين وأصحاب السلطات الروحية".

قالها وهو يتخيل يديه تمتد إلى داخل إحدى الكنائس لتلتقط أحد النساء من أمام لوحة العشاء الأخير للسيد المسيح، وتضعها في رقة الشطرنج حيث..

«إحم»

خرج الصوت من (ريمون) وهو يصطنع سعة مقفلة لجذب الانتباه، فرمقه الرجل بنظرة نارية وقطب حاجبيه وهو يُجيب بلهجة بدت كلسية سيماط أربعت السامعين:

- سيحدث ذلك عما قريب.. لا تجعل ما يحدث حولك يُريك.. فالمفاجآت أمرٌ محتمل دائمًا في أي لعبة، لكن الراجح هو من يُحافظ على هدوء أعصابه ولا تنتيه المخاطر والفواجع عما عزم عليه.

ثم عاد ينفث دخانه في وجه السماء وهو يتابع ببرود:

- فقط تابع في صمت، وتعلم أصول اللعب حين تكون المباراة بين الكبار!

\*\*\*

سار الشاب الوسيم في شارع (النبي دانيال) بخطوات متحفزة رغم محاولته المضنية في أن تبدو طبيعية حتى لا يجذب الأنظار إليه لا سيما أنه قام بتغيير هيئته بتلك العباة البيضاء المزودة بغطاء رأس وضعه على دماغه ليخفي به معظم ملامح وجهه، بعد أن غير بذلته التي لَبَّت عليه وصارت جزءًا من تكوينه، ليغادر المعبد اليهودي بمعرفة رئيس الطائفة



المتفرع من هذا الشارع.. لقد أخبرني أنه لديه اجتماع اليوم\*، وسيكون في انتظارك\*.

تذكر الشاب حين سأله كيف جمعت الصداقة بينك وبين قس مصري رغم أنك لم تأت إلى مصر منذ أن غادرتها، فأجابته الحاخام أنه حضر العديد من مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام "ADIC"، لا سيما تلك اللقاءات التي عقدت في جامعة الـ (سوريون) في دولة (فرنسا) الأشبه بالبيئة التي تنوب فيها جميع الفوارق العرقية والعنصرية بين مختلف الأجناس..

هناك النقي بالكثير من رجال الأديان الإبراهيمية الذين حملوا جنسيات مختلفة وجاءوا من أوطانهم بحثاً عن لحظة سلام وتعايش ممكن بين أتباع الأديان الثلاثة، الذين تفوق أعدادهم أكثر من نصف البشرية، من خلال البحث الدقيق في النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية والإسلامية، وعقد جلسات حوار عميقة تبحث عن الوصايا والتعاليم المشتركة بين تلك الأديان التي تعود في النهاية لنبي إلهي واحد سيعود إليه البشر يوماً، ويفقون خاشعين بين يديه.

"الآن تنتقل الرحلة إلى أرض جديدة حتى يقضي الرب كلمته.. سنلتقي مجدداً حين يحين الوقت المناسب.. لا تفقد تفكك في الخالق مهما حدث".

ترددت كلمات (موريس) الأخيرة في ذهنه حين رأى من بعيد أمين شرطة يتجه نحوه..

أدار وجهه بعيداً وطوّح بصره ناظراً إلى اتجاه آخر حتى لا يجذب انتباهه، وفجأة ظهر الشيخ الأسمر العجوز مجدداً بنفس جلبابه ناصع البياض، كعادة ظهوره في الأوقات الغريبة ليمنح الشاب ابتسامة غامضة وهو يمرق إلى جانبه، ثم تعثر في خطاه وأمسك بيد الأمين الذي تشقت انتباهه وهو يساعد الرجل على استعادة توازنه، وحين عاد للنظر إلى حيث موضع الشاب كان الأخير قد اختفى تماماً.

\* بخلاف القاديس والأعياد، تعقد الكنائس اجتماعات بشكل دوري مع شعبيها، ويخصص لكل فئة من البشر اجتماع خاص به، مثل اجتماع للفتيان والفتيات، واجتماع للسيدات، واجتماع لشباب الخريجين وهكذا.

مع الداخلين إلى حضرة الرب في هيكله، دخل الشاب الكاتدرائية المرقسية بعد أن أزاح عن رأسه ذلك الغطاء المرتبط بالعبادة التي يرتديها من ناحية القفا، ليندو في رداءه الجديد الأبيض ملاكاً فعلياً يمشي على قدمين، وليس شاباً ذا أصول ملائكية.

ولج الكاتدرائية وهو لا يعرف أنها قد تهدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة على مر التاريخ، وفي عام ١٨٧٠م، تم بناؤها على الطراز البيزنطي مع تزيينها بعدد كبير من الأيقونات المسيحية، ثم تم نقل الأعمدة الرخامية الستة التي كانت ترتكز عليها الكنيسة إلى مدخل الهيكل الذي تُقام فيه الصلاة والقداس، بخلاف الاحتفاظ بالمنارات بعد تعليتها وتزويدها بنقوش قبطية جميلة وتقويتها.

لمح على يسار الباب الخارجي للكاتدرائية منى، لكن أحداً لم يخبره أنه يعود للقرن الماضي ويحتوي على مقر البابا ووكيله بالإسكندرية، وقاعات الكلية الإكليريكية المختصة بالعلوم المسيحية.

ترجل داخل الكاتدرائية متجهاً نحو الهيكل الذي تقف عنده العمدان الستة، وعلى عتبة بابه شعر برهبة تسري في أوصاله دون أن يعرف سرها، ليقف في مكانه لحظات أرسل خلالها حواسه إلى الداخل ليستكشف ذلك الاجتماع الذي يحدث بين رجال الكنيسة وشعبها..

اشتمت أنفه رائحة البخور النفاذة الذي أشعلته أحد القساوسة في الشورية بعد أن ملأها خُدام الكنيسة بالجم، لتلأ رائحة البخور نفوس شعب الكنيسة بالروحانيات، بعد أن اختلطت برائحة الشموع المحترقة..

رأت عيناه عند المدخل (صندوق عطاء) حمل كل منهما اسم أحد المتتبعين الذي تم تقديم الصندوق باسمه كصدقة جارية على روحه، حتى يضع المصلون الصدقات في ثقب الصندوق من أعلى وتذهب لصالح الكنيسة..

وعلى أقصى اليمين واليسار كانت هناك مكتبتان تحملان الكُتب المقدسة، وفي المكتبة اليمنى تحديداً مطويات ورقية تحمل اسم (النيايح الإلهية)، تصدر بشكل دوري عن الكاتدرائية، وتحمل دروساً ومواعظ وصلوات مكتوبة، متاحة لمن يريد أن يأخذها..

والى جوار كل مكتبة كان هناك سلم حديدي حلزوني يقود لأعلى،

صباحات جنود غاضبين.. أصوات السباط الحارقة وهي تُسَلِّدُ الجلد وتسيل منه الدماء الساخنة.. طرقٌ وخبطٌ عنيفٌ يخترق اللحم والعظم.. صرخات ألم واستغاثة..

أغمض الشاب عينيه وكرمش ملامح وجهه وقد بلغ التشويش والتداخل بين الأصوات مبلغه، ثم فتح عينيه ببطء ووضع تلك الصورة في ذاكرته الجديدة مع باقي ما شاهده من أيقونات أثرية في تلك الكاتدرائية، أحدها ليسوع، والآخرى لمريم العذراء وكلاهما مطلي بالذهب والفضة، وأيقونات أخرى أثرية للقديسين الشهداء مارمرقس ومارجرس ومارمينا، بخلاف أيقونتين للألأنا أنطونيوس والأنبا شنودة..

شعر الشاب أن ثمة رابطاً يربطها جميعاً لا يدري كنهه، وكان صادقاً في إحساسه.. حيث انتمت جميعاً للفن القبطي. لكنه في ظل هذا التأمل والتطلع لهذا العالم الجديد، لم يكن يعلم أنه نفسه صار محط أنظار الجالسين حين غزا سحرُ شذاه أنوفهم جميعاً في وقتٍ واحدٍ جالِباً معه مملكة السماء إلى الأرض!

تركيبيةٌ روحانيةٌ صنعها القدر في ظرف استثنائي نادر الحدوث، حين اتحد في وقتٍ واحدٍ عطرُ الملائكة الذي لا مثيل له على الأرض، بجمال (يوسف الصديق) غير المتكرر، مع صوت ترانيم تُمجِّدُ اسم الرب، لتهب تحت سقف الهيكل مع دخول الشاب نَسْمةً رقيقةً داعيتُ الوجوه، وتسللت عبر الأنوف إلى الأرواح والأفئس لتحملهم إلى عالم الملكوت وهم لا يزالون جالسين على مقاعدهم.

بعضهم تعرَّضَ لهزة نفسية وظل ينفض فحاًء، وأخرى أخذت تتعجب بشدة بعد أن شعرت بخطاياها تتجسد أمام المسيح فانهارت خجلاً، ليلاحظ الشاب الموسم ذلك قبل أن يقع بصره على صاروخ!

هكذا كان أهل البلد يلقبون فتياتهم بالغات الجمال والجاذبية.. وهكذا كانت تستحق أن تُسمي.

لو شاهد الشاب الوسيم (سكارلت جوهانسون) من قبل لظن أن تلك الفتاة التي تُحْمَلُ فيهِ هي توأما المطابقة لموصافاتها الشكلية تماماً بفارق شعرها الأسود ذي الخصلات الحمراء المصبوغة بدم الغزال، والذي كان مُسرَّحاً بطريقة الـ "كيرلي".

بخلاف منارتين كنسيتين، كل منهما عبارة عن قائم معدني يحمل صينية بها رمالٌ غُرسَتْ فيها الشموع المشتعلة، بخلاف شموع أخرى جديدة موضوعة في باكت بلاستيكي، تنتظر من يُخرجها ويغرسها في الرمال ويشعلها تقرباً للرب، وترمز كلتا المنارتين إلى العهد القديم قبل ظهور المسيح، والعهد الجديد المرتبط بميلاده وظهور المسيحية على يديه.

داخل الهيكل كانت هناك مصفوفات من المقاعد خشبية المترصة، يجلس عليها فتيان وفتيات الكنيسة حيث كان الاجتماع مخصصاً هذه المرة للشباب، وإلى جوار تلك المقاعد الخشبية على أقصى اليمين وأقصى اليسار أعمدة رخامية ملصوقٌ عليها ورق حائط منقوش عليه صلبان، ومعلق على هذه الأعمدة من أعلى شاشات LCD تدبّع ترانيم مسيحية حلوة الصوت، هادئة اللحن الذي تغلب فيه الآلات الوترية..

أرهف الشاب السمع فتسللت إلى أذنيه ترنيمة (غالي عليك) التي تعمل في الناشطات، ويشارك شباب الكنيسة الجالسون على المقاعد الخشبية في ترديد كلماتها بأصوات جميلة شجية ليتمائيل بعضهم يمينا ويسارا وهو يرتك مندمجا مع الكلمات ومثاثرا بها، فيما يكت بالقرب منه عند مدخل الهيكل فتاة كانت تشعل شمعة جديدة عند المنارة اليمنى، وأخذت تنتم بدعاء سري بينها وبين الرب وهي مغمضة العينين..

وضع الشاب قدمه في الهيكل وبدأ يسير بخطوات وئيدة استكشفت فيها عيناه ذلك العالم الجديد، ليرى سقف الهيكل المقوس ذا الأطر المتعددة التي تقسمه إلى ما يشبه أقواساً مفتوحة ناحية الاتجاه الأسفل، وقد تدلّت منها 7 نجفات على استقامة طولية واحدة كأنها في طابور ينتظر الوصول إلى لوحة (العشاء الأخير) للسيد المسيح وحواريه المعلقة فوق المذبح في منتصف الهيكل، وأسفلها نافذة زجاجية على هيئة صليب من الزجاج الملون، وأمام النافذة ثلاثة صلبان كبيرة أحدهم على اليمين، والآخر على اليسار، والثالث في المنتصف وترمز للآقانيم الثلاثة الأب، والابن، والروح القدس.

تطلع الشاب إلى لوحة العشاء الأخير للمسيح وتلاميذه، وتعلقت بها عيناه لفظة، ثم تداعت في ذاكرته أصداة أصوات متداخلة بشكل مشوش دون أن يفسرهما بشكل واضح..

روحانية.. ولا يحتاجون إلى زمن كبير في انتقالهم، ولا يتزوجون..

خلقهم الله في اليوم الأول من أيام الخلق، حيث خلق الله النور، لذا قال لنا الكتاب المقدس أكثر من مرة، وفي أكثر من آية إنهم أرواح مقدسة، أو أرواح قاهرة، وهم أيضًا قديسون ونورانيون، طبيعتهم نورانية.. لكن رغم ذلك سقط بعضهم بخطيئة التكبر وأصبحوا شياطين، ومنهم الرئيس لوسيفر زهرة بنت الصباح، الذي ورد ذكره في سفر إشعياء.

أما عن أنواع وفصائل الملائكة يا إخواني، فهم ثلاث طغمت..

الطغمة الأولى تشمل على ثلاثة أنواع.. السارافيم.. وهم ملائكة يضطرمون بحبة الله أكثر من بقية الملائكة.. والكاروبيم.. وهم أعلم وأكثر نورا، ومنهم الكاروبيم المسلح بسيف لهيب نار على الفردوس، يحفظ شجرة الحياة بعد طرد آدم وحواء.. ومنهم العروش.. وهم الملائكة الذين يكونون للعرزة الإلهية بمنزلة منابر وكراسي محيية.

وكذلك تشمل الطغمة الثانية ثلاثة أنواع.. القوات.. وهم الذين وهبهم الله قوة عظيمة لفعل العجائب.. والسلاطين.. وهم الأرواح الذين يضبطون سلطان الشياطين وجهنم، وقد أقامهم الله - عز اسمه - على الأرض لحفظ نظام العالم، وقد سماوا سلاطين لأنهم يظهرون سلطان الله تعالى وقدرته الضابطة.. والسيادات.. وهم الأرواح الذين لهم سلطان على البشر وعلى الملائكة الذين هم أقل منهم كمالاً.

أما الطغمة الثالثة من الملائكة فتتكون بالمثل من ثلاث فصائل.. الفصيلة الأولى اسمها الرياسات.. وهم الملائكة الذين لهم سلطان خاص على الممالك لحفظها.. أما الفصيلة الثانية فتتكون من رؤساء الملائكة.. وهم الملائكة المرسلون لأعظم الأمور.. ويقول عنهم يوحنا الرائي في سفر الرؤيا: «رأيت السبعة الملائكة الذين يقفون أمام الله».. أي أن رؤساء الملائكة سبعة وهم: الملاك الأول ميخائيل الذي يعني اسمه (من مثل الله)، وهذه العبارة قالها الملاك ميخائيل حينما حارب

انتهزت الحصون الدفاعية لافتاة الكنيسة أمام سحره الطاغى، وأعلنت استسلامها من أول ثانية، وهي التي حصلت على "توب سكور" في مغامرات جمع القلوب المحطمة، وأكبر عدد من علامات الإعجاب والتعليقات على صورها في مواقع التواصل الاجتماعي والتدوينات القصيرة، دون أن ينجم سهم كيوييد يوماً في إصابتها ولو بخدش واحد على مدار جميع جولات لعبة الإغراء التي بدأتها منذ أن خرطها خراط البنات بمواصفاتها الصاروخية، حتى إنها تجاهلت كل من حولها، ولم تبال ببريستيجها ك (فينوس) التي اعتادت النظر للجميع من فوق برج عاجي، حين أشارت إليه ميسمة ليجلس في ذلك المقعد الخالي بصفتها الشباب ويجاور مقعدها بصفتها الفتيات، وإن فتنت عليها نظراتها وقالت عينها إنها تمنى لو خالف الغرف وجلس إلى جانبها على نفس مقعدها لتسأله: ما اسمك؟، وتخبيره أن اسمها (كريستين عياد) .

انتهت الترانيم وحن موعد العظة، فجلس الشاب في المكان الذي أشارته له سبابة الفتاة، وقد عاوده عند النظر إلى عينيها ذلك الشعور المولم الذي انتابه حين بات في السطح بجوار غرفة (دميانة)، وشعر أن شيئاً ما داخله ليس على ما يرام، لينقذه من تلك الأحاسيس والهواجس بدء عظة القصص (يوسف أرمنيوس) ذي الملامح الهادئة الرصينة التي تدل على سنوات عمره الخمسينية، وقد ارتدى نظارة طبية ذات إطار أسود تماشى مع لون بشرته الأبيض، وقال بكلمات هادئة عبر الميكروفون:

- بسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد آمين.. نشكر الله على هذه الفرصة المباركة التي سمح بها أن نجتمع في بيته لنطهر خطايانا، ونعيد تذكير أنفسنا بنعمه ومجده.

حديثنا اليوم يا أحباء المسيح سيكون عن الملائكة، وكيفية سقوط الشياطين لتتعلم منهم أعظم درس على الإطلاق.. لا أحد في أمان تام من السقوط في ظلمات الجحيم حتى وإن كان ملاكاً!

كلمة ملاك تعني رسولا، وللملائكة أجساداً لطيفة من النار أو الهواء.. قدراتهم غير محدودة.. هم أكثر قوة، وسرعة، ونشاطاً من الإنسان.. سواء في معرفة الأشياء، أو الوصول إلى حقائق الأمور.. ملاك واحد قادر على هزيمة جيوش بأكملها.. لا يمرضون، ولا يضعفون، ولا ينامون، ولا يموتون، لأنهم كائنات

نفسه بالخالق، معتقداً أن مجده ذاتي، وليس مكتسباً من الله، فدخله المجد الباطل وأراد أن يصير مثل الله، لذا يقول له إشعياء النبي: «أنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات. أرفع كرسي فوق كواكب الله، وأجلس على جبل الاجتماع في أقصى الشمال. أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي، لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجُب».

وهكذا سقط الشيطان بعد أن كان رئيس الملائكة وأعظمهم شأنًا، رغم الحكمة الكاملة التي وهبها له الرب.. وقد مع السقوط قداسته ليتحول إلى وحشٍ روحي أغوى معه بعض الملائكة من الرتب السماوية المختلفة، وجرَّ سقوطه كثيرين من جماعة الكاروييم، والروساء، والقواد، والسلاطين، والأرباب، وسَمَّى منذ هذه اللحظة بسطنانيل، أي المعاند أو المقاوم لله، لأنه لم يرجع عن سقطته، ولم يشعر بخطئه، ولم يطلب التوبة.

زوى الشاب الوسيم ما بين حاجبيه وسرح في كلمات القُصص التي ضربت شيئاً خفياً في أعماق أعماقه، ف شعر أنه ينفصل عن الجمع المحيط به بعد أن تلاشت صورة الهيكل في عينيه وظن أن الأرض تتبدل بغير الأرض، والسماء بغير السماء، ليبقى فقط من المشهد صوت القُصص الذي استطرد:

- ورغم علو منزلة الملائكة، لم يشفق الله على الذين سقطوا وأخطأوا منهم؛ بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم، وسلمهم محروسين للقضاء بغيرٍ أبدية تحت الظلام، والمقصود بالقضاء هنا هو يوم الدينونة.

ويقول سفر الرؤيا: «حدثت حربٌ في السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التتتين. وحارب التتتين وملائكته ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء. فطرح التتتين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله، طرح إلي الأرض وطرحته معه ملائكته».

ويقول سفر الرؤيا أيضاً: «ويلٌ لساكني الأرض والبحر، لأن

الشيطان حين تكبر وأراد أن تكون له قدسية مثل قدسية الرب، ويعد ميخائيل رئيساً لجميع طغعات الملائكة، وملاك القيامة الذي بشر النسوة حاملات الطيب قائلاً لهن: المسيح قام من الأموات.. والملاك الثاني جبرائيل أو غريال حسب بعض الترجمات القبطية، ومعنى اسمه: رجل الله، وحمل كثيراً لبني الإنسان البُشرات الطيبة التي غيرت تاريخ الإنسانية، فقد أرسل إلى أورشليم ليحمل البشارة لـ زكريا في شأن ولادة يوحنا المعمدان وأرسل أيضاً إلى الناصرة ليُبشر العذراء مريم بأنها ستكون أمّاً للمسيح.. والملاك الثالث رافائيل الذي كشف عن نفسه في سفر طوبيا قائلاً: «أنا رافائيل الملاك، أحد السبعة الواقفين أمام الرب»، وكلمة رافائيل معناها دواء الله، وبعض الآباء يلقبونه بمُفرِّج القلوب لقوة شفاعته لدى المؤمنين وحرصه على إدخال الفرح والسعادة لقلوبهم.. وباقي الملائكة الرؤساء السبعة لم يرد ذكرهم في الكتاب المقدس، وإنما ذُكروا في كتاب التسابيح المسمى بالإبصلمودية وهم سورئيل، وسداكينيل، وسرائئيل، وأنانييل.. أما الفصيلة الثالثة في الطغمة الثالثة فتتكون من باقي الملائكة الذين يخدمون في شتى الأعمال الأخرى\*.

والملائكة يا إخواني تشفع لنا مثلما يشفع القديسون العظام من صالحى البشر، لذا نتوسل إليهم في صلواتنا بالشفاعة حتى يصعدون بصلواتنا إلى الله، ويتشفعون من أجل سلامة العالم، وتوبة الخطاة التي يفرحون بها.. فهم يحيوننا وعلينا بالمثل أن نبادلهم المحبة، بل ونعني أن تقدسهم وتمجدهم هو في الواقع تمجيد لله نفسه.. إذ يقول الوحي الإلهي على فم داود النبي: «الله يتمجد في قدسيه»، وقال أيضاً: «سبحوا الله في جميع قدسيه»، ومن مظاهر التمجيد والإكرام وضعت الكنيسة - بإرشاد الروح القدس - تماجيد خاصة بالملائكة - بأسمائهم - تذكر في التسابيح الكنسية في مناسبات تذكاراتهم وأعيادهم. ولكن بعض الملائكة وعلى رأسهم سطنانائيل الذي كان ينتمي لجماعة الكاروييم، انحرف بفكره إلى الخطأ، وأراد أن يساوي

\*وردت هذه المعلومات عن الملائكة (في العقيدة المسيحية) في تقسيم القديس غريغوريوس في كتابه (مروج الأخبار في تراجم الأبرار)، وموقع الأنبا تكلا وعدد من المواقع المسيحية



إيليس نزل إليكم وبه غضب عظيم؛ عالمًا أن له زمانًا قليلًا»، وهذا ما حدث بالفعل حين انتحل إيليس هيئة الحية ودخل الجنة وأغوى حواء وأدم وجعلهما يتساويان معه في نفس خطية عدم الطاعة لله، ثم سقط الجنس البشري نتيجة لذلك ودخلت الخطية إلى العالم.

أغض الشاب عينيه ليولي جل تركيزه مع حاسة السمع فقط، محاولة أن يستعيض البصر بصورة بديلة أخذ ينقب عنها في الذاكرة، دون أن يشعر بالرجل ذي العينين الزرقاوين والبذلة الرمادية وهو يندلف الهيكل، ويجذب شمعة يُوقدها ثم يغرسها في الرمل وعلى وجهه ملامح يحار في فهمها وتفسيرها أربع قارئ لغة الجسد وأشهرهم فراسة، في الوقت الذي كان القمص يقول فيه:

والكتاب المقدس يشهد أن هذا الملاك الساقط قد أغوى الجميع وحاول إسقاطهم بشتى الطرق والأساليب بمقاصده الشريرة وتجاربهِ المتنوعة اللعينة، حتى إنه تجرّأ وأقدم على محاولة فتنة السيد المسيح نفسه، وكل هذا يجعلنا نتوخى الحذر في علاقتنا بربنا.. فقد سقطت الملائكة وأبونا آدم.. وكلنا معرض للسقوط مهما كانت درجة الإيمان.

لمعت عينا الشاب بالدموع، بينما ابتسم الرجل زرقاوي العينين ابتسامة غامضة وهو يتأمل الهالات المحيطة بأجساد الحاضرين قبل أن تلفت نظره الهالة الحمراء المحيطة بـ (كريستين) حين قال القمص:

- لكن كيف توقع بنا الشياطين دون أن نشعر؟

يحدث ذلك من خلال كلماتنا، أو الأمور التي نحياها.. فهم يكتشفون الأفكار التي يطرحونها علينا عن طريق الانفعالات والعلامات الظاهرية التي يفعلها الإنسان عندما يتلقى وسوسهم.. فحين يكون الواحد منا صائمًا، يهينون أمام عينيه مناظر أطعمة شهية ويراقبون رد فعله وتصرفه.. فإذا ما أراه يتطلع إلى الساعة منتظرًا ميعاد إفطاره من الصوم الانقطاعي، على الفور يُدركون أنه قد قبل شهوة النهم، وأنها مدخل جيد للتغريب به.. وإذا

ما أثاروا فينا بواعث الحزن أو الغضب أو الشهوة الجنسية، فإنهم يستطيعون أن يدركوا إن كانت لها جذور في القلب أم لا عن طريق حركات الجسد والاضطرابات المنظورة على وجه الإنسان، أو أعضاء جسمه المختلفة، وبهذا يكتشفون بدهاء الأخطاء التي يسقط فيها الإنسان ومدى تقبله لها، لأنهم يعلمون إن لكل إنسان خطيئة معينة يجذب إليها على الدوام، وهذا ليس بعجيب.. فالإنسان نفسه يستطيع أن يكشف حال غيره من الإنس ويعرف كيف يشعرون من الداخل من خلال نظراتهم وحركاتهم الخارجية، فما بالنا بمن هم أكثر دهاءً وحذافةً من البشر؟

لذا راقبوا أنفسكم من الداخل واحرصوا على تهذيب النفس في الخفاء أكثر مما تحرصون على إظهارها بالمظهر المنمق أمام الناس.. فهناك أعين لا تنام تراقبكم وتتسلل إلى أرواحكم من أبواب النفس التي تتركونها مفتوحة وأنتم لا تشعرون.

ومع كلمات القمص الأخيرة، اتسعت ابتسامة الرجل ذي العينين الزرقاوين وهو يتأمل هالة الشاب التي فقدت الكثير من وهجها وبدا لونها الأخضر باهتًا، ليغادر الرجل الهيكل ويقطف زهرة من أحد الأشجار ويشمها ساجيًا من أنفه نفسًا طويلاً وهو مغمض العينين، قبل أن تتقلب سحته وهو يلقيها أرضًا ويدهسها بحذائه.

\*\*\*

مالت الشمسُ إلى المغيّب حين تعالت يد (موريس) بالطرق على باب غرفة (دميانة) دون أن يفقد الأمل في رؤيتها مجدداً رغم إجابة الصمت التام على طرقاته وكأنه يقف أمام قبرٍ قديمٍ تغفن كل من فيه، لكن.. الانتظار في حرم الأحبة فضيلة.

واصل الطرق بلا يأس، وشيء داخله يخبره أن خلف هذا الباب حبٌ قديمٌ لن يخلّده بعد كل هذه السنين، وما أصدق حسد العاشقين حين تستبد بهم المشاعر.

هوى قلب الحاخام بين ضلوعه حين تراجع الباب للخلف مع صوت الصرير المميز لمفصلاتهِ البالية ثم طل وجه (دميانة) العابس الذي ذهب عنه ضعف وتخاذل الأمل، وقد حلت محله الصرامة والقسوة التي تطل من عينيْن متمترتين قبل أن تقول بصوتٍ خشنٍ:

- ماذا تريد؟

صفعه سؤالها بكل ما فيه من جود لذكريات الأمل البعيد، وأثارت دهشته تلك النبرة الغريبة ذات الرنة المعدنية التي لم يتخيل أن تسيطر على أحوالها الصوتية يوماً حتى وهي عجوزٌ مُسنّة!

استغرق ثواني أخذ فيها يتطلع إلى ملامحها وهو لا يُصدق نفسه، قبل أن يجيب بعينٍ متسعة وقلبٍ يتخبط بفعل زلزال الصدمة:

- أهذا ما جاد به لسانك بعد كل هذه السنين؟ هل نسيت موريس يا دميانة؟!

"مُحال أن أفعل.. لا تصدق تلك الكلمات المكذوبة التي ينطقها لسانٌ فقدت السيطرة على لجامه.. خذ بيدي وحرّني مما أنا أقيه لأجيبك بكلماتٍ لم تنطقها من قبل أنسنة العاشقين".

هكذا صرخت من داخلها بصوتٍ لم يتجاوز شفتيها، بينما نطق لسانها المزيف وشفاتها المحتلتان:

- بل سأظل أذكر قاتل أبي، خائن العهد الذي تركني في أمس

الحاجة إليه وعاد بكل صفاقة بعد عشرات السنين التي انقطعت فيها أخباره تماماً، ينتظرنني أفتح له ذراعاً ليترمي في حضني.. لم يدرك عانيت حين تركني وحيدة.. لم يعرف أنني سافرتُ القدس وصارت الناس تتأدّيني بالمقدسة فقط من أجل عينيه لعلمي أراه ولو صدفة وأقنعه بالعودة معي قبل أن أعود بخفي حنين.. فهل رأيت سفاقة أكثر من ذلك؟

- لا تجعلني نظرك القاصر هو المعيار الأود في تقييم الأمور يا حبيبة الأمل.. أنت لم تسمعي حكايتي بعد.. رب أمور تجهلنيها قد تجعلني مجنباً عليه مثلك تماماً ويستحق شفقتك

- فلتبحث عن الشفقة في بيوت الرب التي يتضرع فيها المغفون لإله لا يسمع الأوجاع أو يشعر بها، أما هذا المكان فقد صار وطناً لا يتسع سوى لقلبٍ محطمٍ كفر بكل شيء.

قالت كلماتها الأخيرة وهي تشير بسبابتها للخارج لتطرده من حياتها للأبد، فجحظت عيناه وأرسم الهول على ملامحه لثوانٍ تمنى فيها أن يكون كل هذا مجرد كابوس لا أساس له في الواقع، لكن الإصرار والشراسة المنحوتين على قسماّت وجهها كجلود صخر، حطما آخر ما تبقى لديه من أمل لينسحب بقدمين لا تطاوعانه على المشي، ويُنَادِر السطح ساحباً خلفه أنيال الخيبة ولثات حبه القديم، دون أن يلاحظ في تلك اللحظات النحسات أنه رغم وجه (دميانة) الكاسم، اللابدة فيه القسوة باعته صورها، ثمّة دموع ساخنة نزلت لتُثدّي لواعج الأسف، لكن نزولها جاء متأخراً بعد أن ولّاه ظهره منصرفاً، دون أن تملك روحها الحبيسة داخل جسدها المحتل أن تغفل شيئاً حيال قصة حبها الوحيدة وهي تكتب فصلها الأخير رغماً عنها بيد لا سلطان عليها أو إرادة.

\*\*\*

ارتعدت فرائص (آيات) وهي تقترب من الكاتدرائية في الساعات الأولى من الصباح، بعد ليلة ليلاء لم تنق فيها طعم النوم خوفاً من طرقات مفاجئة قد تدوي في أي لحظة على باب حجرتها من قوات الأمن لاستجوابها بشأن ما حدث للفقيد (يحيى)، وإعادة فتح ملفاتهِ القديمة التي تبذل قصارى جهدها لدفعها في سابع أرض، أو من رجال (ريمون)

في الكتاب المقدس، فسألته حينها بحق: وهل نعرف بعضنا بعضًا على الأرض؟ ليندهش كل الحاضرين من سؤالها، قبل أن تتابع بقهر: لي ثلاث سنوات أشرت في هذا الاجتماع ولم يسألني أحد عن مشكلاتي التي تذرف بسببها عيني الدموع وأنا معكم دون أن يشعر بي أحد، أو هم بالسؤال، فهل نهتم بالذين سبقونا إلى القديس، بينما لا نهتم نحن هنا ببعضنا البعض؟

ثم رحلت ولم تعد من يومها بعد أن تركت (ألبرت) مبلولاً يشعر بالذنب ويحاول استعادتها من يومها بلا جدوى، بعد أن أدرك مدى فداحة خطئه حين نسي أن الخادم الروحي هو إنجيل متجدد، وكنيسه متحركة، بل صورة الله أمام تلاميذه، وسيلة إيضاح لكل الفضائل وها هو ذو ياتي إليها في الوقت المناسب ليأخذ بيديها مجدداً إلى الرب، دون أن تتجاهله أو تصده مثلما فعلت من قبل.

دخلت الكاتدرائية غير مصدقة أن قديمها عرفت الطريق مجدداً للمسيح، بعد أن هجرته أعواماً كانت فيها صورته هو وأمه لا تفارق عينيها، دون أن تجرؤ على الارتواء في حصنه بجسد أنقلته الخطايا والذنوب، أو حتى ليس صليبه في عشرات السلاسل الذهبية التي تداولت على صدرها بعد أن فكرته الأيادي!

الآن تقترب من الهيكل مع عشرات الوافدين من شعب الكنيسة لكنها ما زالت تشعر بالاغتراب والخوف وكأنها ابنة دين آخر تتسلل إلى القُدَّاس الإلهي \* لاستكشافه، ولا تعرف ماذا ستقول إذا ما اكتشف أمرها!

\* القُدَّاس الإلهي: هو لقاء من نوع خاص مع المسيح من خلال تقديس النفس بالتوبة ثم تناول جسد المسيح الذي يرمز إليه بالخبز، والشرب من دمه الذي يرمز إليه بالنبيذ، من خلال طقس (الاقبال) الذي يُعد سراً من أسرار الكنيسة السبعة أو أسرار الملوك، وهي: (سر المعمودية، سر الميرون، سر تناول جسد الرب ودمه، سر التوبة والاعتراف، سر مسحة المرضى، سر الزيجة، سر الكهنوت)، ويُعد القبال تنكازاً للشمامسة الأخير للمسيح مع تلامذته حين قال لهم: «في كل مرة تأكلون من هذا الخبز، وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتي، وتعرفون ببقامتي، وتذكرونني إلى أن أجيء»، وتدل على نفوس الحاضرين بعد التوبة والاقبال القفاست الإلهية، وتتحد أجسادهم بجسد المسيح ويعيشوا معه حياة أبدية حسب إنجيل يوحنا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

الذي حتماً ما سيعود للانتقام دون أن يكون إلى جوارها ملاكها الحارس، لكن أحداً لم يأت، لتستنتج أن وزارة الداخلية لم تعرف بتفاصيل لقاء العقيد الأخير بها على الأقل حتى الآن، ولم تربط بينها وبين الشاب الوسيم مثلما ربط هو، وأن (ريمون) ما زال في أزمة توجب انتقامه، وهو ما قد يوجب العاصفة، لكنها أتت على أي حال وعليها تدبير أمرها.

لكن أين ذهب فتاها الذي أرسلته لها الأفكار في لحظة فارقة في حياتها؟ هل افقدت حمايته وقوته الخارقة التي جعلتها تغمص عينيها وتنام في سكونية وهدهد لأول مرة في حياتها منذ أكثر من 20 عاماً مضت؟ أم افقدت ذلك الشعور نفسه الذي غزا قلبها في حضرته وغير نظرتها للحياة والبشر؟

ارتعبت حين تخيلات (ريمون) ورجاله يقتحمون حجرتها ويجذبونها من شعرها ليخطفوها في مكان آمن يُذوقنها فيه كل صنوف التعذيب الوحشي انتقاماً منها على ما تسببت فيه، دون أن تجد من تحتمي به هذه المرة من بطشهم، لكن (دميانة) التي استرذت وعيها وصار صوتها أكثر غلظة وخشونة بشكل مفاجئ، أخبرتها أن (ريمون) لن يغامر بالإتيان إلى مكان تعرض لهجوم إرهابي يومين متتاليين، ومن المحتم أن رجال المباحث والشرطة منتشرون في كل جنباته، ثم فجرت أقصى مفاجاتها حين مثت يدها بمبلغ سخي من المال وطلبت منها أن تأخذه وتدبر به حالها مؤقتاً، ثم تُعيدة حين ميسرة!

وحتى تكتمل ليلة المفاجآت، زارها (ألبرت) أمين عام الخدمة باجتماعات الخريجين في الكاتدرائية، وأخبرها أن إخوانها هناك يفقدونها \*، بعد أن ظنت أن الكنيسة قد نسيتها وصارت نسياً متسياً.

صحيح أنها كانت غاضبة منه منذ أن كانت ملتزمة وتذهب للكنيسة قبل انحرافها، بعد ذلك الموقف السخيف حين تحدثت في أحد الاجتماعات عن عذوبة الحياة في السماء يوم الدينونة، وكيف سيتعرف المسيحيون على أفراد عائلاتهم وأصدقائهم والأنبياء والقديسين، وقدم براهين كثيرة

\* خدمة الانتقاد: هي خدمة كنسية تطوعية، يقوم من خلالها بعض المتطوعين الذين يطلق عليهم (خُدَّام الكنيسة) بتفقد إخوانهم الغائبين أو المنقطعين عن الكنيسة ويذهبون إليهم في منازلهم للاطمئنان على أحوالهم والأخذ بأيديهم حتى يعودوا للكنيسة مرة أخرى قبل أن تتدهور حالة الانقطاع عن عبادات الرب لمرجات أصعب، وخدمة الانتقاد مستوحاة من مقولة للقديس بولس الرسول: «لنرجع ونفقد إخواننا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب كيف هم».

فور أن أصبحت داخل الهيكل عقدت حاجبتيها ثم أخذت من أنفها نفثاً عميقاً عبّأت به صدرها وهي تتلفت حولها بحثاً عن الشاب الوسيم الذي شمت رائحته المتفردة حولها، بينما اشرباب عنقها في محاولة لإرسال النظر إلى كل ركنٍ بعيدٍ قد يكون فتاها وفقاً فيه بينما تتردد الصلوات داخل الهيكل:

- كيرالييسون كيرالييسون\* يا رب ارحم.. كيرالييسون كيرالييسون ارحمنا يا الله.. كيرالييسون كيرالييسون اسمعنا وارحمنا.

اختارت (آيات) مكانها في أحد مصفوفات الهيكل الخشبية وقد أشعل يقينها بوجود الشاب ثورتها، لتفتش عن وجهه الملائكي في كل وجه يسقط عليه ناظرها..

مرّت عيناها أثناء البحث عنه على رجال الكهنوت بتونيّاتهم البيضاء التي يرتدونها في القُدّاس الإلهي رمزاً ليوم القيامة الذي ستبعث فيه الخلائق بأجساد روحانية، متسربلين بثياب بيض كما جاء في سفر الرؤيا، بينما اختلفت باقي الأزياء حسب درجاتهم ورتبهم المتفاوتة، ما بين شماسين وكهنة وأساقفة، ثم واصلت البحث عنه بقلب تسارعت دقاته وهز كيائها بعنف حتى كادت أن تغطي على صوتي الذف والترانيم اللذين يتم استخدامهما في القُدّاس الإلهي لتحريك مشاعر المُصلين، وتعميق الإيمان في أرواحهم، وجذب عواطفهم نحو الله، بينما لعبت رائحة الشاب في الهيكل دوراً روحانياً أعظم من كل الألحان الكنسية والشموع والبخور، وجعلت الحضور يقسمون في قرارة أنفسهم إن هذا القُدّاس هو أعظم قُدّاس إلهي حضوره في حياتهم، حتى خيل إليهم أن المسيح كاد أن يتحرك في لوحة العشاء الأخير!

وعلى مدار ما يقرب من الساعة التي استغرقها قُدّاس الموعوظين الذي يُسمح فيه للجميع بالحضور سواء مسيحيين أو غير مسيحيين، استمعت (آيات) للبولس والكاثوليكيول والسنكسار والإبراكسيس والمزمور والإنجيل دون أن تياس من التفتيش والتفتيش عن الشاب بعينيتها، حتى إن دعواتها

\* كيرالييسون: هي كلمة يونانية تتكون من مقطعين.. (كيري) وهي اختصار لكلمة (كيريس) أي الرب أو يا رب، وكلمة (ليسون) أي ارحم، أي أن معناها الإيماني (يا رب ارحم)، وتقال في الصلاة عامة، والصلوات الطقسية خاصة، وفي صلوات القُدّاس.

اسمع بعينيتها وهي تتأملها في لوحة العشاء الأخير ركزت على أن «معهما بقفاها من جديد دون أن يفترقا بعدها، حتى غطت هذه الأمنية اللوحية على دعواتها لنفسها بالتوبة والنجاة من براثن (ريمون) ورجال الشرطة.

وبعد انتهاء العظة تم إخلاء الهيكل من غير المسيحيين الأرثوذكس المستعدين، تمهيداً لتناول جسد الرب من الرجال والنساء الذين انفصلوا على جانبي الهيكل في النصف الثاني من القُدّاس المخصص للمؤمنين بالعقيدة المسيحية فقط وأسرارها السبعة. خلا الهيكل من رائحة الشاب المميزة، فغادرت (آيات) المكان كمن نذهتها النداهة قبل أن تقع عيناها عليه بالخارج، لكنه لم يعد وحده، بعد أن تعرف على الجميلة (كريستين) التي ارتسمت على ملامحها الفاتنة أعذب ابتسامة من الممكن أن تبتسمها امرأة لا سيما حين صبغت شعرها باللون الأصفر الذهبي وسلمته إلى السيشار وال «بيني ليس» لتصير أكثر جمالاً وسحرًا مع تلك النعومة الحريرية التي جعلت خصلاتها تنطير مع نسيمات الهواء وتندلى على وجهها الحليبي وعينها الخضراوين المحفوفتين بمحدد عيون أسود جعلهما مسحوبتين على الطريقة الفرنسية، وقد خرجت مع الشاب من الهيكل بعد أن حضرت في منتصف القُدّاس ولم يعد مسموحاً لها بالتناول.

تزلزل كيان (آيات) وشعرت أنها تتلقى ألف ألف طلقة من مدفع جرينوف في كل ملي من أنحاء جسدها حين فجعاها ما ترى بعينون تمتنت لو كانت تكذب عليها، لكن رائحة الشاب ما كانت لتأتي بتلك الروعة من شخصٍ سواه.

شأن كل النساء، لم تبال بباقي التفاصيل أو تتوقف عندها، سواء ذلك الرداء الأبيض الذي يرتديه، وأين وكيف قضى ليلته بعيداً عنها، وما سر ارتباطه بفتيلة كادت تؤدي بمعبّد بأكمله بكل من فيه، فقط يكفي أنه يقف مع أنني بدرجة صاروخ، تمنحه كل هذا الدلال بنظراتٍ وُلدت سفاحاً في بيت الرب!

ابتلعت حنقها ومرارة حلقها العلقم، ثم نثرت عينيها وهي تسير نحوها وقد شحذت قواها وكيدها، استعداداً لمباراة أنثوية ما من معلق رياضي على هذا الكوكب قادر على التعليق عليها.



«أهذا ما تعاهدنا عليه؟ تتركني بهذه السرعة دون حتى أن تدلني على مكانك الجديد؟».

ألقت كلماتها وكأنها تلقى دلوًا من الماء المثلج على نافوخ (كريستين) دون أن تنزل أي منهما عينيها عن الأخرى لتتبدلا النظرات بطريقة لن تفهمها إلا من تشترك معها في هرمون الأستروجين الأنثوي، قبل أن يجيبها الشاب الوسيم:

- لم أكن لأحتب بوعدي، لكن بعض الأمور العارضة قد تُدخلنا أحيانًا في مساراتٍ جانبيةٍ قبل أن نعود بعد زوالها للطريق الرئيسي.

ابتسمت من قلبها وشعرت مع كلماته بجناحين يشقان جسدها ويبرزان خلف ظهرها لتقترب منه أكثر بخطواتٍ بدت كالتحليق ثم هبطت أمام (كريستين) وتمادت في دلالاتها وهي تهمس بشبقٍ أجادت التعبير عنه كعاهرةٍ قديمة:

- عُد إلى مسارك الرئيسي في أسرع وقتٍ إذن، فقد افتقدتك كثيرًا من مجرد ليلة واحدة مضت كالف عام.

«هل تعرفان بعضكما؟».

قالها (ألبرت) وهو يغادر الهيكل بعد انتهاء القداس ليقترّب من ثلاثتهم قبل أن تجيبه (كريستين) ساخرة:

- بكل تأكيد... سمعتهما تتحدث عن الطرق والمسارات فعلمت أنها من هيئة التخطيط والكباري.

أحرقتها (آيات) بنظرة ازدراءٍ من قمة رأسها إلى أسفل قدميها، قبل أن يضحك (ألبرت) معلقًا:

- كلا يا كريستين.. إنها آيات، صديقةٌ قديمةٌ طالما أمتعتنا بصوتها الرائع وعزفها البديع على آلة الكمان في فريق الترانيم قبل أن ترحل لظروفٍ عارضةٍ وتحلين محلها.. فصوتها ينافسك في الجمال والروعة.

نكت (كريستين) نظرة الازدراء لـ (آيات) وقالت بكيدٍ أنثويٍ مائلٍ وهي تدها للمصافحة بأطراف أصابعها:

رائع.. فأنا أعشق المنافسة.

\*\*\*

رحبوا معي بأختنا آيات التي افتقدناها كثيرًا طوال الفترة الماضية، وقبل أن ندعوها لتشاركنا باقتراحاتها وأفكارها لخدمة المسيح وأبنائه، اسمحوا لي أن أعرفها على الوجه الذي انضمت لنا في غيابها».

قالها (ألبرت) أمين عام الخدمة لاجتماعات الخريجين في اجتماعه بمجموعة من الشباب والفتيات في مبنى الخدمات الملحق بالكاتدرائية المرفسية، والذي يجتمع فيه المسيحيون باعتباره نادي وحضانة مع التصريح بإقامة الشعائر الدينية لأبناء الطائفة الأرثوذكسية، ثم أشار للشباب الذين انضموا في غياب (آيات) قائلاً:

- كريستين عياد، تجيد الغناء والعزف على البيانو.. أندرو ميشيل يجيد العزف على الجيتار.. أمير برسوم، أستاذ في الدرامز.. جميعهم أعضاء فريق (تسابيح) للترانيم، ومعنا أيضًا في الاجتماع مايكل ماجد، ومينا مجدي، وسمير عزيز وماريان رسمي، ومريم فهمي لكن علاقتهم بالغناء كعلاقتي بكوكب بلوتو تمامًا.

ضحك الجميع، ثم أشار (ألبرت) للشباب الوسيم وقال:

- ورغم أن هذا الشاب ليس من شعب الكنيسة، لكن أبونا يوسف أمر بالإحسان إليه وحسن معاملته، وسيعمل خادمًا لحراسة وتنظيف المكان مع عم حنا حارس المبنى حتى يتم البت في أمره، وإستأذني أن يحضر معنا اجتماعاتنا وأخبرته أنه مرحب به، والآن فلنستمع إلى أختنا آيات.

شعرت الأخيرة بالحرج حين صوّبت الأنظار عليها وحاولت الإمساك بالأحرف الفارة من على شفثيها حين قالت بكلماتٍ متلجلجة:

- كان شعوري بالاغتراب هنا سببًا ضمن أسباب انقطاعي عن الاجتماع والكنيسة.. وقد أوحى حسن استقبال أبونا يوسف لهذا الشاب الذي لا نعرف أصله ودينه بفكرةٍ تتعلق بالاغتراب

انفجار ضخم أطاح بهما أمام عينيها في كنيسة القديسين، بعد الانتهاء من قداس كنا نتمنى فيه الخير للجميع.  
ثم التقطت جهاز البيانو وقالت بدموعها الساخنة وقد تحولت نبرتها المستهجة إلى نهنية:

أقربي في التاريخ وتعلمي مما حدث لنا في الأسس القريب.. أحداث الخانكة عام 1972، أحداث الزاوية الحمراء في سبتمبر 1981، أحداث الكشف في ديسمبر 1999، أحداث نجع حمادي في يناير 2010، أحداث العمرانية بنوفمبر 2010، أحداث كنيسة القديسين في سيدي بشر في يناير 2011، أحداث ماسيرو في أكتوبر 2011، وفي كل لحظة تمضي بظل الخطر محيطاً بنا.

قالت جملتها الأخيرة وقد انفتحت قنواث الدمع على مصراعيها ليسود المكان صمت مطبق، والتامعت بعض العيون المتعاطفة بالدموع الحبيسة التي صنع احتباسها على المقاتل بريقاً أخاذاً، قبل أن تأخذ (كريستين) نفساً عميقاً وتقول بلهجة حماسية شحذت الجميع:

- رنموا معي واجعلوا ترانيلنا تصل إلى جيوش الملائكة التي تسبح الله في الأعالي بغير سكوت.

وبدأت أصابعها في مداعبة مفاتيح البيانو الذي أصدر نغمة حزينة لترنم ترنيمة «ونيكى ليه» \* قائلة:

ونيكى ليه، ما هو إلها قال لنا.. باسمه هيكون لينا اضطهاد ووعده لينا، محدش يمسنا.. إلا ولينا، يكون إكليل جهاد

ومن جانبهم تفاعل الحاضرون معها، وأمسك كل منهم بآلته ليواصلوا معها الغناء والعزف، ورغم أنها شعرت (آيات) بالتأثر والتعاطف، وتراجعت في حلقها الكلمات، بينما سرخ الشاب الوسيم في كلمات (كريستين) والوقائع التي ذكرتها بينما تعاد أمام عينيها مشهد القنبلة وصناديق المواد شديدة الانفجار التي كادت تأتي على حياة بشر أبرياء غزل من السلاح وهم يوصلون بالمثل في المعبد اليهودي، وذلك الذين كان يتوضاً تهيئاً للصلاة رغم مشاركته في قتل الرجل العجوز وزرع المتفجرات، ليصعد من أعماق أسفاه سؤال وصل إلى سطح الإدراك وتردد على لسان التفكير بصوت داخلي لم يسمعه سواه:

- ما أمر هؤلاء المسلمين! \*

\* هذه الترنيمة موجودة بالفعل ويمكن سماعها على موقعي يوتيوب وساوند كلاود.

أيضاً.. فبعضنا يشعر بالغربة داخل الكنيسة لأن من حوله يهيم بكلام عام.. لا يمس مشكلاته وآلامه الشخصية، ولا يسأله عما به وكيف يمكن تقديم العون له.. وبعضنا يشعر بالغربة في وطنه.. ويعمق هذا الإحساس وقائع اضطهادي وسوء فهم لدينا العظيم.. والإساءة لأتباع يسوع المخلص الفادي.. فهل نكتفي بالتوقع والنشيج والدموع الصامتة داخل جدران كنائسنا لنظل الفجوة تنسع بيننا وبين من لا يفهمون ديننا بشكل سليم تحت دعوى الصبر والتحمل؟

أجابتها (كريستين) بعصبية:

- وماذا تريد أن نفعل؟ نذهب لنغني ترانيمنا لهم في المساجد؟

- بل نغني معهم خارج دور العبادة في حفلات مشتركة بيننا.. نعلمهم كيف يحبونا بلغة الموسيقى التي تفهمها كل الإنسانية وتتأثر بها.. نوصّل لهم تعاليمنا مع الألحان والأوتار التي تخترق القلب والعقل، وترسّخ في الوجدان، فترسّخ معها كلمات ترانيمنا.. وبالمثل نسمع لهم وتتفاعل معهم فيخرجوا أجمل ما فيهم بدلاً من شعورهم الحانق بأننا معزولون عنهم، ونقول خلف الجدران ما يسبب نبيهم وعقيدتهم وكأننا لا شغل لنا في الكنيسة سوى ذلك، رغم أنه أبعد ما يكون عن حقيقتنا

- إنهم يحرمون الأوتار والمعازف.. يحرمون تهنئتنا في أعيادنا ومناسباتنا، بل يحرمون حتى محبتنا.. وحتى من يبدون اعتدالهم واستنكارهم لتصرفات أقرانهم يفعلون ذلك بشكل عارض سرعان ما ينقلب على عقبيه مع أول خلاف يدب بينهم وبين واحد منا، فيتكبرون حينها أننا كفار، ديننا محرف، خبيثاً، ماركين، حلال فينا أي فعل يشفي غليلهم ويخرس السننات لنظل عبيداً لهم.. دكك من كلامك الحالم واطلبي من المسيح أن يغمرك بمحبته.

- هذا كلام من لا تعرف تعاليم المسيح وصاياه التي أمرتنا أن نحب أعداءنا ونبارك لأعدائنا ونحسن إلى مبغضينا ونصلي لأجل الذين يسيئون إلينا.

انفجرت دموع (كريستين) وصرخت فيها:

- بل كلامك هو كلام من لم تجرب استنهاد أبيها وأمها في

ظهر أحد مشاهير مقدمي البرامج الليلية التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية على شاشة التلفاز، وقال عبر برنامجه الشهير في مفتتح الحلقة بلهجة يسودها الحماس الشديد:

يهود مصر .. من الملفات التي يعتبرها الناس للأسف الشديد ملفاً شائكاً، لذا يتفاداه الإعلام المصري ولا يقترب منه إلا بصورة حذرة، رغم ارتباطهم الوثيق بتاريخ بلدنا، ومساهماتهم فيه بشكل أو بآخر، سواء في السياسة، أو الاقتصاد بفروعه المتعددة من زراعة وصناعة وتجارة، أو حتى الفن سواء في المسرح الذي أسسه في مصر اليهودي يعقوب صنوع، أو السينما التي لمع فيها نجم العديد من الفنانين اليهود مثل الفنان عمر الشريف الذي كان اسمه ميشيل شلوهوب قبل أن يُعلن إسلامه، وليلي مراد التي كان اسمها ليليان زكي موردخاي، ونجوى سالم التي كان اسمها نينات شالوم، بخلاف بعض الشخصيات التي حامت حولها الشبهات في التواطؤ مع إسرائيل مثل الفنانة كامليا التي كان اسمها ليليان فيكتور كوهين، والخاتنة راقية إبراهيم واسمها الحقيقي راشيل ليفي، وغيرهم..

جميعنا في مصر على مدار سنوات طويلة وقعنا في فخ الخلط بين اليهودي والإسرائيلي.. جميعاً عموماً كراهيته لليهود بشكل محجف ونسينا أنهم كانوا يوماً أشقائنا في الوطن والإنسانية، حتى إن الرئيس محمد نجيب قام بزيارة اليهود القرائين خلال عيد كبير في بداية قيام ثورة يوليو، وهنأهم بعيدهم، وما زالت تهنئته محفوظة بسجل المعبد اليهودي بالعباسية حتى يومنا هذا، وبعضهم لعب دوراً وطنياً عظيماً مثل شحاتة هارون، ويوسف درويش، وهنري كوريال الذي أسهم في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر عام 1956..

نعم، البعض أثبت خيائته وولاءه للحركة الصهيونية أكثر من ولائه للارض التي عاش فيها، مثل أولئك الذين تورطوا على سبيل المثال في عملية لافون عام 1954، لتقجير أهداف مصرية وأمريكية وبريطانية، بهدف إخراج مصر أمام العالم

وإثبات أنها دولة غير آمنة على رعاياها الأجانب، حتى يتم تهريب اليهود المصريين وإيهامهم بأنهم مضطهدون داخل مصر بهدف ترغيبهم في السفر إلى إسرائيل، وزيادة الكثافة السكانية هناك وإنعاش الاقتصاد الإسرائيلي من خلال تحويل المزيد من الودائع والأموال إليه، لكن الأمور وصلت إلى فصل الختام مع حرب 1967 حين تم اعتقال كل الشباب اليهودي الأكبر من 17 سنة في مصر، والقبض على المواطنين اليهود حسب الهوية وليس حسب أدلة الاتهام، وهو ما برره البعض بأنه نفس ما حدث في الحرب العالمية الثانية حين قبضت أمريكا على اليابانيين المقيمين على أرضها حتى وإن كانوا حاصلين على الجنسية الأمريكية وفقاً لنظرية الاحتياط الأمني في حالة الحروب، لكن على أي حال فقدت مصر في النهاية أكثر من 70 ألف يهودي ليصبح عدد اليهود فيها اليوم أقل من 25 يهودياً، وفقدت أيضاً حالة الحب والاحتضان للجنسيات والأعراق الأخرى بعد أن كانت يوماً حاضنة لأكثر من 13 جنسية مختلفة، وهو ما انعكس وألقى بظلاله مؤخرًا بشكل عملي وتطبيقي على حادث معبد إياهو حنابي بشارع النبي دانيال في الإسكندرية.

لذا سنفتح اليوم ملف يهود مصر الشائك مع ضيف حلقتنا الحاخام موريس زكي، الإسرائيلي الجنسية ذي الأصول المصرية.. والذي تصلح قصة حياته أن تكون فيلمًا سينمائيًا من الطراز الأول.

تطلع الشاب الوسيم إلى شاشة هاتف (آيات) الذكي ذي مقاس السبع بوصات، والذي يعرض اللقاء المرفوع على موقع Youtube وهما يجلسان في ساحة مبنى الخدمات في وقتٍ مالت فيه الشمس للغروب قائلًا:

- كل ما يُقال قصّة عليّ هذا الرجل الجليل في تلك الليلة التي لا تُنسى، حين سهرنا معاً حتى الصباح.

مررت (آيات) إصبعها على الشاشة فوق خط الزمن لمقطع الفيديو المذاع، لتتخطى أكثر من 15 دقيقة من زمن الحوار، ثم قالت:

- دَعَكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَنِي عَنْ رَأْيِكَ فِي هَذَا الْكَلَامِ!

وضغطت بإصبعها مجدداً على الشاشة فعاد (موريس) للكلام قائلاً:

- كانت أُمِّي تُقاوم في أبَيِ عنصرَيْهِ المفرطة التي بُنِيَتْ عليها إسرائيل، لذا ربنتي بعيداً عنه وهي تُحاول استئصال تلك الجينات، لكن مع عودتي بعد عشرات السنين فوجئت بهذا السرطان وقد تفشى حتى أصبح منهج ونمط حياة في مصر وشعبها بأكمله، ولا يحتاج الأمر لاكتشافه سوى الاختلاط بالمصريين ليوم واحد فقط على أحد المقاهي والاستماع لهم حتى تلاحظ ما لاحظت.. في الدين.. المسلم يكره المسيحي باعتباره كافراً، والمسيحي يرى المسلم إرهابياً جاهلاً.. داخل الدين الواحد السلفي يسخر من الصوفي والصوفي يضيق بجهل السلفي، وكلاهما ليس على وفاق مع المنتمي لطائفة الإخوان المسلمين، بخلاف ذلك العلماني الذي يتلقى سيلاً من الشتائم.. في المدارس أبناء المدارس الأجنبية يزدرون أقرانهم من تلاميذ المدارس الحكومية، وأبناء الأطفال يأمرونهم بعدم اللعب مع أبناء حارس العقار وباتعي الخضراوات وعمال النظافة لأنهم ليسوا من مستواهم.. في السكن يذهب الأثرياء والمقتدرون إلى تجمعات سكنية خاصة، محاطة بالأسوار والبوابات حتى لا يختلطوا بأبناء الطبقة المتوسطة أو الدنيا، وتُرسخ إعلانات التلغاف هذا الفصل الجماعي وتُركبه.. بخلاف نظرة أبناء المدينة الدونية للفلاحين وساكلي القرى والنوج، وتبادل النكات التهمكية بين أبناء المحافظات المختلفة في الصعيد وبورسعيد والمنوفية والشرقية وغيرهم.. وفي الرياضة نبعت مشجعو النادي الأهلي أقرانهم من مشجعي نادي الزمالك بالبوابين، ويصف الزملاكية أقرانهم الأهلاوية بالماليم.. حتى كلمة "بلدي" التي من المفترض أن تشير للجذور صارت سببة ووصف لما هو سيئ ودون المستوى في الذوق.. فلا عجب بعد كل هذا أن يرفع أئمة المساجد أكف الضراعة إلى الخالق، ويدعون على اليهود أحفاد القردة والخنازير، أن يشئت الله شملهم ويفرق جمعهم ويرمل نساءهم ويبيتم أطفالهم، أو تظهرنا الأعمال الفنية دائماً بالخونة، الجواسيس، شديدي البخل.

- هل يؤلمك ذلك؟

بلا شك.. لكنه يؤلمني بصفتي إنساناً وليس يهودياً، أن يتفشى الغل والكرهاية في القلوب إلى هذا الحد.. ففي إسرائيل عانيت من العنصرية بصفتي مدافعاً عن القضية الفلسطينية، وهنا كدت أموت فقط لكوني يهودياً مؤمناً، بعيد الرب نفسه الذي يعبدونه، وكان حَمَلَةُ الحق في هذا الزمان لا بد وأن يتجرعوا العذاب من كافة الأطراف، لكن على كل حال دعني أوضح لمن يشاهدونا الآن ما تعلمته من الحوارات المشتركة التي حضرتها مع ممثلي الأديان السماوية الثلاثة بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام، لعل ذلك النور الذي تسلك إلى قلبي يتسلك إلى باقي القلوب..

وفقاً للحكيم اليهودي شمعون بن عازي، فإن أهم مبدأ في الكتاب المقدس يوجد على وجه التحديد في آية في سفر التكوين تقول: هذا كِتَابُ مَوَالِيدِ آدَمَ، يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ. على شبه الله عَمِلَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَنَارَكَ وَدَعَا اسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خَلَقَ. وهو ما يتطابق مع الآية القرآنية التي تقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". وآية أخرى تقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا".

وفي سفر إشعياء يقول الرب: أَطْلُبُوا الرَّبَّ مَا دَامَ يَوْجَدُ. ادْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ، وفي القرآن يقول الله: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ".

وفي سفر اللاويين يقول: إِذَا سَأَلْتُمْ فِي فِرَاضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، أَعْطِي مَطَرَكُمْ فِي جَنَةِ، وَتُعْطِي الْأَرْضُ غَلَّتَهَا، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَلَى ثَمَرَهَا، وَيَلْحَقُ بِرِاسِكُمْ بِالْقَطَافِ، وَيَلْحَقُ الْقَطَافُ بِالزَّرْعِ، فَتَأْكُلُونَ خَبْزَكُمْ لِلشَّعْبِ وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ أَمِينٌ، ونفس المعنى نجده في القرآن حين قال الله: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ



الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَنَفْسِنَا عَلَيْهِمْ يَرْكَابُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ“.

كل هذه أمثلة بسيطة لمدى التشابه بين تعاليم التوراة والقُرآن.. وانتماء اليهود والمسلمين لنفس الإله.

لكن سيدي ألا تتفق معي أن إسرائيل هي دولة دينية يهودية، بقدر يجعل تصرفاتها محسوبة على اليهود بشكل عام؟

لا تقل دولة يهودية، بل هي دولة صهيونية تتخذ من التوراة ستاراً خدعت به الآلاف، واليك وصايا التوراة التي تتناقض كل ما يحدث في إسرائيل منذ نشأتها وحتى اليوم..

ليس المطلوب من أتباع الدين اليهودي احترام حياة الآخرين وكرامتهم وأسرهم وممتلكاتهم فحسب، فالتوراة تذكرنا دائماً بمسئوليتنا نحو الضعفاء، سواء كانوا فقراء، أو أيتاماً، أو أرملاً، أو غريباً، وتطلب منا أن نتنازل عن جزء من حقولنا وحصادنا سواء لفقراء اليهود أو غير اليهود الذين يعيشون بيننا ويفتقرون إلى دعم الأسرة والمجتمع الذي ولدوا به، وهو ما أوصى به سفر اللاويين حين قال: وَعِنْدَمَا تَحْصُونَ خَصِيدَ أَرْضِكُمْ لَا تَكْمُلُ زَوَائِجَ حَقْلِكَ فِي الْحَصَادِ. وَلَقَاطُ حَصِيدِكَ لَا تَلْقُطُ وَكَرْمِكَ لَا تَغْلِقُ، وَنَيْزَارَ كَرْمِكَ لَا تَلْقُطُ. لِلْمَسْكِينِ وَالْغَرِيبِ تَرْكُهُ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ؛ بخلاف سفر التثنية الذي قال معنى مشابهاً في قوله: والمحب الغريب ليعطيه طعاماً ولباساً.

وقد ذكرت واجبات الشعب اليهودي تجاه الغريب في أسفار موسى الخمسة حوالي 36 مرة، ولا توجد وصية أخرى في التوراة تحتل هذه المكانة البارزة، ولا يقتصر واجبات نحو الغريب على معاملتهم معاملة عادلة فقط، بل أيضاً يتحتم علينا حمايتهم ومحبتهم حسبما ينص سفر اللاويين قائلاً: وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكَ فَلَا تظلموه كَالْوَطَنِيِّ، مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمْ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

ويعتبر الضريح اليهودي المقدس والمعبد في القدس أماكن مفتوحة تحق زيارتها للبشرية جمعاء، إذ يقول الملك سليمان وقت تدشين المعبد حسب ما جاء في سفر الخروج: وكذلك

الْأَجْنِبِيُّ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ هُوَ، وَجَاءَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ وَبِيَدِكَ الْقُوَّةُ وَذِرَاعُكَ الْمُمَدُّودَةُ، فَمَتَى جَاءَ وَصَلَى فِي هَذَا النَّيْتِ فَاسْمَعْ أَنْتَ مِنَ السَّمَاءِ مَكَانَ سُكْنَاكَ، وَأَفْعَلْ حَسَبَ كُلِّ مَا يَدْعُو بِهِ إِلَيْكَ الْأَجْنِبِيُّ، لَكِنِّي يَعْلَمُ كُلُّ شُعُوبِ الْأَرْضِ اسْمَكَ، فَيَخَافُوكَ كَشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنِّي يَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ دَعَى اسْمَكَ عَلَى هَذَا النَّيْتِ الَّذِي بَنَيْتَ.

هكذا كل من آمن بالله بغض النظر عن عقيدته، استحق الرحمة والعدالة.. هذه هي الدعائم الرئيسية للأخلاق اليهودية والأساس الذي يبنى عليه بيت الله، فما ذنب اليهودي المؤمن اللاوي\* الذي ينفي تلك التعاليم ليكون له نصيب في الكراهية والدعاء عليه بأقسى أنواع الدعاء؟

بصفتك يهودياً له مواصفات خاصة، تجمع بين الأصول المصرية، والجنسية الإسرائيلية، بجانب موقفك الواضح من القضية الفلسطينية.. هل لديك رoshة تعالج تلك الأزمة التاريخية القديمة ليحل بعدها السلام؟

الحل موجود منذ قديم الأزل يا سيدي في التوراة، وفي الرؤية السائدة في العصر اليهودي المسيحي، والقائمة على رفض جميع أشكال العنف والعداء بين بني الإنسان، حينها تنطبق علينا نبوءة إشعياء ويسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسن معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والذئب وترعىان وتربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد العظيم يده على جحر الأفعوان، لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحار.

وما جاء في نبوءة سفر إشعياء يتفق في الكثير منه مع النبوءة الإسلامية المتعلقة بآخر الزمان لا سيما في الجزء القائل: "ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس

\* اللاوي: كلمة يهودية تعني المؤمن المُوَحَّد بالله.

الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون: هلم نضع إلى جبل الرب.. إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه نسلك في سبله. لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن اورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين، فيقطعون سيفهم سككا، ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا، ولا يعلمون الحرب في ما بعد.

وضعت (آيات) سياستها على شاشة الهاتف لتوقف الحلقة عند هذا الحد ثم ابتسمت ابتسامة ساحرة وهي تقول للشاب بمرح:

- لقد وقعت في حب هذا الرجل.

ثم تابعت بجديّة لم تخلُ من الإعجاب:

- لم أتخيل يوما أن يشعر يهودي بواقعا ويفنّده بهذه الدقة، حتى أني تعلمت منه في دقائق ما لم أتعلمه عمرا بأكمله في ذلك البلد الثائنه أهله.. لا أدري أي حماقة تلك التي دفعت دميانة لقطع صلتها به والتنبيه على طرده لو عاود المجيء مرة أخرى.. وحين حاولت معرفة طبيعة العلاقة التي جمعتما يوما رفضت بشدة وكأنها قد التبسها ألف عفريت.. لكن هذا لا ينفي أنه من طراز نادر بحق.. مؤكداً أن بابا الفاتيكان قد جلس مع حاخامات بتلك العقليّة حين أعلن رسمياً تبرئة اليهود من دم المسيح.

احتواها الشاب في بحر عينيه الذهبي العميق وهو يسأل:

- وماذا كان رأيك في اليهود قبل أن تستمعني إليه؟

- بصراحة؟ كنت واقعة في نفس الفخ الذي أشار إليه، وكان قلبي يكره كل ما هو يهودي.. إن الإيمان بالثورة وتلك الأسفار التي أشار إليها يُعد جزءاً لا يتجزأ من عقيدتنا المسيحية التي تُسمي كتبهم بالعهد القديم، لكنني لم أتعلم فيها يوماً أو أقرأها على هذا النحو، لذا لم أهدم ذلك الحاجز النفسي بيني وبين اليهود رغم أصولي اليهودية كما أخبرتك من ذي قبل، لكنني صرت على استعدادٍ لصداقتهم لو كانوا بهذه العقليّة.

- ربما كانت صديقتنا كريستين ومن هم على شاكلتها في حاجة لشخص مُسلم يتحدث بنفس ثقة هذا الحاخام في دينه ويركز في حديثه عما هو مشترك ومتشابه بين الإسلام والمسيحية حتى تتخلص من عقديتها مثلك.. أم أن لك رأياً آخر؟

انطفأت البهجة في ملامحها وغرب المرحُ عن عينها حين ظللها حاجباها المعقودان وهي تُجيبه بغضبٍ وتحفز:

- نعم لي رأي آخر، يقول إن اهتمامك قد زلّ عن حده بتلك الفتاة الأشبية بعروسة المولد الملطخ وجهها بألوانٍ تليق بمهرج.

ثم غمرته بأنفاسها وهي تقتربُ منه أكثر قائلةً بدلالٍ ورقة:

- لن يتسع وقتك للوقوف إلى جوار كل الناس والاهتمام بمشكلاتهم.. فاتم مهمتك حيال من كان وعك الأول لها!

حاول التراجع بكياسة، لكنه شعر بأطرافه تعصبى أوامره وقد وقف مستمرا في نطاق جاذبيتها لا يقوى على الانسحاب، فلاحظت ذلك وعادت لعينيتها بسمتها وقد دنا الأمل لأول مرة في ذوبان ذلك الجبل الجليدي الشامخ بينهما بلهيب جاذبيتها وهيامها به، قبل أن تقول:

- يا إلهي.. كدت أنسى ما جئتُك مخصوصاً بشأنه.

أطل من عينيه التساؤل دون أن ينبسَ ببنت شفة وقد شعر أن الصمت في حضرة تلك اللحظات شيء يُثاب عليه، فيما فتحت حقيبتها وأخرجت منها هاتفاً محمولاً كذا صوت كاميرته على وجهه الأخاذ والتقطت له صورة وهي تبتسم ابتسامة كشفت عن أسنانها اللؤلؤية من فرط سعادتها بما تفعل، لتتسّم ابتسامتها وهي تتأهّد أول صورة فوتوغرافية له على شاشة الهاتف، قبل أن تضعه في يده وهي تشير نحو صورته قائلة:

- انظر كم يبدو وجهك جميلاً حين تكون الصورة برؤية فنانة مثلي، مبروك عليك هاتفك الجديد.

- هاتفي؟

- نعم.. أنسيت أنني ما زلت مهددة من ريمون ورجاله، وصار

مبيتك معنا في السطح فيه خطورة عليك.. هب أني تعرضت للخطر في أي لحظة، فكيف أستغيث بك وقتها؟

- من أين جئت بثمانه؟

- لن تصدق، لقد أعطيتي دميانة مبلغًا من المال وقالت إنها غير متعجلة في استرداده.. يبدو أن مائة يهودي سيموتون كما يقول المثل حين يسلفنا شخصٌ بخيلٍ.. إجم، لا مؤاخذه يا عم موريس.

قَلَّبَ الهاتفُ في يديه وهو يتأمل مفاتيحه وشاشته بحيرةٍ شديدةٍ قائلًا:

- لكني لا أعرفُ كيف أتعامل مع هذا الشيء.

- سأعلمك كل كبيرة وصغيرة فيه.. لقد اشتركت لك أيضًا في باقة الإنترنت لتتواصل عبر "فيس بوك" و"واتس أب" و"فاير".

- ماذا؟

- يا الهي.. ما تخيلت أن يجهل أحدٌ بهذه التطبيقات حتى وإن كان فاقداً للذاكرة.. على كل حال لا تحمل هماً، لكن لا بد وأن يكون لك اسمٌ في هذا العالم الافتراضي، ما رأيك في نور؟

- نور؟

- لقد أضأت حياتي ودنياي منذ أول لحظة التفتيك.. ما كنت لأخيل أن يسميك أي مخلوق عاقل باسم آخر سوى هذا الذي خلُق خصيصاً من أجلك وحدك يا نور حياتي.

انتفض قلبه مع تلك الطريقة التي نطقت بها جملتها الأخيرة وهي تفتته بغواية سحر عينيها، فردَّ عليها بصمت نظراته الأبلغ من أي كلام، قبل أن تخونه شفاهه بابتسامةٍ عاريةٍ انتمتها ألا تُصيح عنها حتى يكسوها بوقاره فخرجت مثيرةً للإغواء بشكلٍ شعرت معه (آيات) أن قلبها يكاد أن ينفجر من دقاته الصاخبة، قبل أن تشير إلى تطبيق تسجيل الصوت في الهاتف وتقول بسعادةٍ مقرّطةٍ وهي تغوص أكثر وأكثر في نهره العذب الأجل من العسل المُصفى:

- لقد حرصت أيضًا على شراء كارت ذاكرة بسعة تخزينية كبيرة حتى يكفي لتسجيل كل ما يجول بخاطرك من أفكار، ملاحظات، هواجس، أو حتى مشاعر.

قالت كلمتها الأخيرة وهي تمنحه أجمل ابتساماتها ثم تابعت:

- أنا أيضًا سأفعل المثل على هاتفي، ثم نتبادل الملفات الصوتية، لعل من بين الكلمات المسموعة نجد كلامًا جديدًا محذوفًا من النص، لكن الصمت والسكات يبوحان به.

ثم أخرجت أوراقًا وقلمًا ولوّحت بهما وهي تردف:

- لكن هذا لا يمنع أني أحب البوح بالكتابة أكثر، فقد كانت هي سلوأي الوحيدة حين عشتُ عمرًا بمفردي بلا صديقٍ حقيقي سوى الورقة والقلم، كلما حاولت الهروبَ بهما إلى عالمٍ جديدٍ من نسج الخيال، ابتلت الكرايس والكشاكيل بدموعي البائسة حين اكتشف -في كل مرة- أني لا أجد سوى العناسة حتى في الخيال.. وقد حان الوقت لأضيف إلى الكتاب المقدس سيفزًا جديدًا يمليه علي الإله الذي استجاب أخيرًا لدعواتي المتأخرة بعد سنوات ظلت فيها عالقًا بين السماء والأرض، ومنحني أقصى مما كنت أحلم به.

\*\*\*



## تسجيلات الشاب الوسيم

في كل دقيقةٍ تمضي، أتعلم الكثير من هؤلاء المسيحيين الطيبين..

لم يجمعي اللقاء بعدُ بشخص مسلم لأسأله لماذا يعتبرونه كفاراً، وعلى أي أساس يستحل البعض دماءهم، لكن بغض النظر عن ذلك فإن ما أمر به معهم أمراً رائعاً بحق.. ولا يُذكر صفوه سوى تلك اللحظات الأليمة التي تُذكرنا فيها (كريستين) بطعم الظلم والاضطهاد، فتفتال البسمة على الوجوه، وتُسَمِّ شعوراً بالسكينة تتسلل إلى أرواحنا مع نغمات الترانيم التي تُغنيها (آيات) عن أمجاد المسيح، وعظمة تعاليمه، بعد أن تجلب الأولى من ذاكرتها المشحونة ترانيم عن أرواح الضحايا المجني عليهم وكيف لم يات أحد بحقهم حتى الآن..

هذه تُرثِّم فتقول: "حبك، شيء احترنا فيه.. زي الهوا، دايماً بنلاقيه.. شمس تنفي ليل البردانيين.. نور ينور عتمة الحياة"، فتتمايل معها الأجساد، وتجلجلي أصوات المحبة لتصل إلى أعالي السماء.

وهذه تُرثِّم: "هو إحنا عشان ساكتين.. فُكِّرْتُونَا خايقين.. لا ده إحنا ما بنخافشي.. قدام الموت ثابتين.. نقدر نمسك سلاح ونعمل زيكم.. ونملاكم جراح ونسيح دمكم.. لكن مش هي دنيا.. تعاليم المسيحية.. ويسوع سايب وصية.. إن إحنا نحكيكم.. بنصلي لكم تعيشوا.. بمحبة زيننا.. وتدوقوا من حلاوة.. وطيبة ربنا.. ما يمش إحنا مين.. ما يمش إنتوا مين.. وكفاية إن إحنا وانتم.. بشر ويني آدمين.. وضروري تخلوا بالك.. صحيح إحنا سكتنا لكم.. لكن لينا رب عظيم.. يبحارب عننا"، فتمعن الأعين، وتتفكر النظرات، وتتسلل إلى الوجوه ملامح يصعب الحكم عليها إن كان ما يعترئها هو الغضب، أم الحزن، أم القهر.

وعلى روعة الصوتين لتلكا المجلتين، والآلات المحايدة التي تعزف الألحان المطلوبة منها بلا أدنى تحيز لما تحمله الكلمات من معان، يتوه وجدان بين الصفاء والكر، المسالمة والتحفز، الراحة والألم، الأبتسام والدمع، ولكل شعور مريدوه المستعدون لاستقباله وإزكائه.

انصرفت (آيات) في وجهة نظرها.. وانضم لها معظم الفريق الذي بدأ رحلة البحث عن مؤلفين ومُنشدين مسلمين تمهيداً لعمل حفلاتٍ باسم المحبة والجوانب المشتركة بين الإسلام والمسيحية..

جلسة شخصية بين الفصص (يوسف أرمانيوس) و(كريستين) انتهت بتوبيخ الأخيرة على إصرارها على إقحام الإسلام والمسلمين في أحاديثها، والتأكيد على أن تكرار ذلك بشكلٍ مبالغ فيه في كل شاردة وواردة "عيب، وما يصحش، وغير مسموح بيه هنا.. مفهوم واللأش مفهوم؟" لتأخذه (كريستين) المكان باكياً، وترك خلفها مادة ثرية للنميمة والحكي، لا سيما على ألسنة الشامتات فيها جزءاً غيرة ذفينة من جمالها الذي يعمي العيون عن سواها في أي مكان تذهب إليه، وفي اليوم التالي، تم توزيع كتيب بعنوان: "القرآن والمسيحية" كُتب على غلافه أنه تأليف قداسة البابا شنودة الثالث، وما زلت لا أعرف هل للقصص علاقة بتوزيع هذا الكتاب أم لا، فهو رجل مهيب لا يستطيع الكثيرون النظر في عينيه، وأكثر ما يميزه عن غيره من رجال الكنيسة هو الغموض وكثرة الاختلاء بنفسه، وعصاه التي يتوكأ عليها كصديق وحيد أفضل من البشر، وإن كان استقباله لي حافلاً، ولا أدري حتى الآن.. لماذا حلق كثيراً في وجهي، وشد على يدي اليمنى بيديه الاثنتين عند المصافحة، ثم لمعت عيناه بالدموع وهو يقول: "يا اهلا بمن يحملون رائحة الأحية".. ترى هل كان يقصد الحاخام (موريس)؟!

.....

مهما كان الحال هاقدّر .. يا للي بتشوق البحور

مهما كان ع الأرض ضلعة .. السما مليانة نور

تغنّت (آيات) بهذه الترنيم بصوت لا مثيل في جماله وقد نامت آلة الكمان على كتفها الأيسر، بينما أراحت خدها الجميل عليها فيما أخذت يدها تحرك عصا الكمان بحرفية لتداعب أوتارها وتخرج منها لحناً شجيئاً من وجدان السامعين، وما أن اكتفت بنزير يسير من غناء وعزف الترنيم حتى طالباها الأطفال أن تكملها مؤكداً أن صوتها الخلاب- وكان معهم الحق في ذلك- يفوق جمال الأصوات الأصلية التي تغنيها في التسجيلات، فأشترطت عليهم -رهي- تنتظر نحوي وتبتسم ببراءة نافست



براعتهم- أن يشاركوها الترنيم فصرخوا بحماس طفولي: "موافقييييين"  
لتمسك الكمان وترجحه على كتفها من جديد وبعد ثوانٍ علت أصواتهم  
جميعاً حتى شقَّت السماء وهم يرددون:

بارك بلادي .. بارك بلادي

يا سامع الصلاة .. في قلوب كل البشر

بارك بلادي .. بارك بلادي

التفت لصراخ قلوبنا .. وأرسل لنا المطر

يوماً ما، مرَّ المسيح من هنا، ويبدو أن آثار قديمه ستظل محفورة أبداً  
الدهر في هذا الوطن، وفي كيان كل من يسكنه.

.....

حوارٌ شيقٌ دار بيني وبين ذلك الفتى الطيب (أندرو) الذي كانت طريقة  
مسكرته للجيتار، تُشبه احتضان عاشقٍ لعشيقته..

قال لي وهو لا يزال محتضناً جيتاره بينما سرحت عيناه في ملكوت  
السماء:

- خلق الله الإنسان لهدفٍ واحدٍ.. أن يُسبِّحَهُ.

أن يتعلم أن يكون فنّاناً، ويشعر بكل ما هو انعكاسٌ لله في  
الكون فيتغنّى بعظمته ويزيده تمجيداً..

خلق الله الإنسان على صورته، على أن يكون فنّاناً، شاعراً،  
رساماً مثله، والدليل أن واحدة من أولى مهامه كانت إبداعية،  
ألا وهي تسمية الحيوانات من عدم..

ثم تدخل الشيطانُ ورسم للإنسان هدفاً مُشوّهاً أحماً، وهو أن  
يصير مثل الله خالداً، عارفاً، خالداً، وكان الرب الذي خلق  
الإنسان على صورته، كان رافضاً أن يصير ابنه شبهه وعلى  
البشر أن يحتالوا عليه لينالوا ما كان قد قرره لهم بالفعل!

فكانت بضاعة الشيطان هي المعرفة، والثمن الذي دفعه الإنسان  
هو الفضول..

وتمت الصفقة، وباع الإنسان البركة السماوية في مقابل طبق  
عدس!

استبدل الإنسان موهبة إبداع الالموجود ليشتري روتين معرفة  
ما هو موجود، ومن يومها سمح الشيطان لنفسه أن ينزل بوابل  
من الأكاذيب على العالم، وزعم أن الفن في العالم مجرد درجة  
ثانية، وأن الإبداع ما هو إلا مظهرٌ من مظاهر الترفيه، حتى  
يبعد أبناء آدم عن الخيط الوحيد الذي يربطهم بالخلود والتشابه  
مع الله، ويُخرجهم من جنة أنفسهم مثلاً أخرجه من جنة عدن،  
فانساق البعض منا خلفه، ونسوا أن جميعنا أظرف قد وضع  
فيها الله جوابات لهذا العالم، وكان طبيعياً على من اعتبر أن  
الفن مجرد نشاطٍ ترفيهي ألا يسعى لتسييح الله بالبحث عن  
رسالته داخلنا حتى يعيد اكتشاف كل شيء، بعد أن سمحوا  
للشيطان الأحمق المسكين الذي يفكر للإبداع، والذي استقى  
جيله ووسائله من التجربة لقلة خياله، أن يتحكم فينا ونحن من  
أودع الله الإبداع فيهم.

اهتمنا بعرق الوجه الذي يجلب الخبز رغم أنه عقاب لأنه شغلنا  
عن التسييح بالألسن، والأوتار، والرسم، كأخر مرادفات متبقيّة  
من مملكة الجنة التي غادرناها.

ثم علمت كم يحبني هذا الفتى حين نزع محبوبته من حضنه، ودسّها في  
يدي هو يمرق بأصابعه على أوتارها قائلاً:

- خذ يا صاحبي.. تعلم كيف تُسبِّح الله.

.....

اعترف..

وقعت في حب المسيحية، إلى الحد الذي جعلني اهتم بمعرفة أسرارها  
وحكاياتها المذهلة عن مملكة السماء وملكوتها الأبدى، ومعجزات  
القديسين والشهداء الذين مستهم بركة المسيح، أكثر من اهتمامي بمعرفة

حقيقتي الضائعة، واستعادة ذاكرتي المفقودة، وإزاء هذا الحب بدأت رحلة المعرفة.

ما كان لي أن أخفي إعجابي الشديد وانبهارى اللا محدود بشخصية المسيح الأسطورية الذي جاء ليقدّم نموذجاً للتأثر على ظلام العقول والقلوب، وقائداً لعهد جديد يؤسس فيه لبناء المدينة الفاضلة التي يرعى فيها الحرية والعدل والمساواة، ويعلم من قيم الخير والحق والجمال، كحل ممكن للحدوث رغم قسوة الواقع البائس، وما أروع كلماته التي تُمتع السامعين وترجع قلوبهم كمقطوعة موسيقية خالدة لا يزول تأثير وقعها أبداً:

”روح الرب نازل عليّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للماسورين بالإطلاق، وللغصبي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية“.

”تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين بالأحمال، وأنا أريحكم.. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأنني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم“.

جاءه شابٌ غني أراد الانضمام لجماعته وأكد أنه نفذ وصاياهم بعدم القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور، فقال له (يسوع): ”إذا أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع ما تملكه ووزع ثمنه على الفقراء، فيكون لك كنز في السماوات، وتعال تبعني، فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزيناً لأنه كان يملك أموالاً كثيرة، وقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم: يصعب على الغني أن يدخل ملكوت السماوات، بل أقول لكم: مرور الجمل في ثقب الإبرة أسهل من دخول الغني ملكوت الله“.

وحين جاء نبي الله يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمرًا، قال اليهود إن به شيطانًا، وحين جاء المسيح وأكل وسطهم وشرب قالوا: ”هو ذا إنسان آكل وشرب خمر، محب للعشارين والخطاة“، فسأل اليهود الفريسيون \*تلاميذه: ”لماذا يواكل مُعلمكم الخاطئين

\*الفريسيون: يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين، وكان الفريسيون جماعة يهودية اعتزلت المجتمع اليهودي، واتبعت مذهباً دينياً متشدداً في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفعية التي استنبطوها.

والعشارين؟“ فسمع المسيح كلامهم وقال: ”ليس الأصحاء يحتاجون إلى طبيب، بل المرضى.. ما جئت لأدعو الأبرار، بل الخاطئين“.

وقال للفريسيين أيضاً: ”إن العشارين والزواني يسبقوكم إلى ملكوت الله.. جاءكم يوحنا المعمدان سالكا طريق البر فلم تؤمنوا به، وأمن به العشارون والزواني، وأنتم رأيتم ذلك فلم تندموا وتؤمنوا به ولو بعد حين“.

سخر المسيح من أصحاب السلطة، وحضّ على إلغاء المراتب الاجتماعية التي تُصنّف الناس لطبقات، وقال لهم: ”ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين، وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالصغير، والمترس كالخادم“.

وعندما كان يتناول العشاء الأخير مع تلاميذه، قام عن العشاء فخلع رداءه، وأخذ منشفة فانتزح بها، ثم صبّ ماء في مطهرة وشرع يغسل أقدام تلاميذه... فلما غسل أقدامهم وليس رداءه وعاد إلى المائدة قال لهم: ”أنقهمون ما صنعت إليكم؟ أنتم تدعونني مُعلِّماً وسيِّداً، وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا، وإذا كنت أنا المُعلِّم والسيد قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض، فقد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا ما صنعت إليكم“.

أدان سعي البشر المحموم إلى مراكمة الثروات والإفراط في استهلاك الخيرات فقال لهم: »لا تهتموا فتقولوا: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فهذا كله يسعى إليه الوثنيون، وأبوهكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. فاطلبوا أولاً ملكوته وبركه وتزادوا هذا كله. لا يهتمكم أمر الغد، فالغد يهتم بنفسه. ولكل يوم من الغناء ما يكفيهِ“.

أحدث (يسوع) انقلاباً على القيم القديمة، وهو يعلم أنه لن يحصل بسهولة ويسر، وأعد تلاميذه وأتباعه لصراع كان يعلم أنه سيحتدم لا محالة بكل عنف وشراسة حين يبدأ الصدام بتعاليم العهد القديم فقال لهم: »لا تظنوا أنني جئت لأرسي سلاماً على الأرض، ما جئت لأرسي سلاماً، بل سيفاً، فأبني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنات مع أمهات، والكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته“.

»جئت لألقي على الأرض نارا«، لأن العالم القديم يجب أن يحترق ليخرج من رماده العالم الجديد.

وضع أجمل وأرقى أسس المحبة..

«أحبب ربك بجميع قلبك، وجميع نفسك، وجميع ذهنك.. تلك هي الوصية الكبرى والأولى».

«أحبب قريبك حبك لنفسك».

«وصية جديدة أنا أعطيتها لكم، أن تحبوا بعضكم بعضاً».

«افعلوا للناس ما أردتم أن يفعلهم الناس لكم، هذه هي خلاصة الشريعة وكلام الأنبياء».

شيئاً فشيئاً كان المسيح يلغي شريعة الطقوس القديمة، ويحل محلها شرع المحبة والأخلاق..

لكني لم أفهم بعد كيف يفعل ذلك، وفي الوقت نفسه يقول في إنجيل متى: «إن الكتب والفريسيين على كرسي موسى جالسون، فافعلوا ما يقولونه لكم، واحفظوه، ولكن لا تفعلوا مثل أفعالهم، لأنهم يقولون ولا يفعلون»؟!

كيف وصف المسيح المحب لجميع الكنعانيين بالكلاب، واليهود بأولاد الأفاعي، ورفض شفاء ابنة امرأة كنعانية في نواحي صيدا بحجة أنه مرسل فقط لبني إسرائيل، فدنا منه تلاميذه يتوسلون إليه قائلين: «أجب طلبها واصرفها لأنها تتبعنا بصياحها، فأجاب: لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل»، لكنها وصلت إليه، فسجدت له، وقالت: «أعطني سيدي»، فأجابها: «لا يحسن أن يؤخذ خبز البنين ويلقى إلى جراء الكلاب»؟!

ألم يقل لتلاميذه في إنجيل متى: «اذهبوا وتعلموا جميع الأمم، وعلموهم باسم الأب والابن والروح القدس»؟ فكيف صد هذه المرأة لمجرد أنها كنعانية إذن؟!

«لقد جاء يسوع ليهدى أولاً الشعب اليهودي الضال، ويُضرم في قلوب أبنائه عواطف الإيمان والثوبة والمحبة لله، وينقذهم من سلاسل الفرائض اليهودية الحديدية التي كانت تشدهم إلى الأرض، وتمنعهم من أن يرفعوا رؤسهم إلى العلا ليقموا لله العبادة الصحيحة. لذلك كانوا بحاجة إلى المعجزات الكثيرة التي تثبت أفكارهم وتذكركم بواجباتهم الدينية تجاه

فحتم الوثنيون الذين كانوا يعبدون الآلهة، كانت لديهم تعاليم ووصايا ترتقي بتعاملاتهم، ثم تحولت عباداتهم إلى عبادات شكلانية خالية من أي انعكاس على سلوكيات التعامل، وعمّ الظلم والقسوة أرجاء أرض الزينتون إما على يد جنود الإمبراطور الروماني وولاته، أو على يد أكابر اليهود لا سيما علماء الدين منهم الذين جعلوا من الديانة اليهودية شريعة بالية تكمن خصوصيتها في أنها شريعة طقوس ترمي بالدرية الأولى إلى تأسيس الطرائق التي يحب الإله يهوه أن يتجل بها، ونوع الأضاحي المقربة إليه، والحفاظ على قدسية يوم السبت، والاحتفالات الدينية الدورية، والطقوس والعبادات التي يتوجب إقامتها، وما يجوز وما لا يجوز في كل مناحي الحياة، حتى زادت القواعد التي تُقيد حياة اليهودي وسلوكه اليومي إلى ٦٠٠ قاعدة، بعد أن كان الشغل الشاغل لليهود خلال القرون الخامسة السابقة لميلاد المسيح، الحفاظ على تقديدهم الديني بأي ثمن وترفعهم عن الاختلاط الكافي بباقي الأمم دون أن يمنعهم ذلك أن يأخذوا من الأمم ما يفيدهم ويضيف إليهم، وتم ربط حياة اليهود بأوامر ونواهي حراس الشريعة الذين وضعوا حاجزاً يفصل بين اليهود وبقية الأمم، فجاء المسيح وهذّب الكهنة والكتبة وعلماء الشريعة من الناموسيين والفريسيين الذين مثّلوا النخبة المتعلمة من المجتمع اليهودي، وبدأ في تغيير شريعة موسى التي شوّها أتباعه، وأحل محلها شريعة القلب والروح التي تخدم الإنسان وتفتح آفاقه نحو السماء بعد أن تحوّل الدين بفعل الغلاة إلى استعباد وألم.

مرّ (يسوع) خلال المزارع في يوم السبت المحرم على اليهود العمل فيه، فأخذ تلاميذه يقطعون السنايل وهم سائرون، فقال له الفريسيون: انظر، لماذا يفعلون في السبت ما لا يحل، فقال لهم إن السبت جعل لخدمة الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت.

هاجم حراس الشريعة وقال لهم: «الويل لكم أيها الناموسيون.. تحملون الناس أحمالاً باهظة، وأنتم لا تسمون هذه الاحمال بأحد أصابعكم... الويل لكم أيها الناموسيون، قد استوليتم على مفتاح المعرفة فلا أنتم تدخلتم، ولا الذين أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون».

غير شريعة موسى التي كانت تُحلل الطلاق بفعل قساوة قلب أتباعه، وقال إن الزوج والزوجة حين يتزوجان يصيران جسداً واحداً، ومن يجمعه الله لا يفرقه إنسان.

خالقهم وربهم، ووصفه للبيض منهم بأولاد الأفاعي لم يكن سبباً بقدر ما كان تشبيهاً حقيقياً لسلوكياتهم التي تشبه سلوك النعابين حقاً في التلون والخبث، غير أن يسوع لم ينس الوثنيين ولم يهملهم، فإن لهم مكانهم المحدد في مخططة الخلاص، وبالفعل أتى اليوم الذي أرسل إليهم تلاميذه ليطلعوهم على طريق الخلاص، ويهدهم إلى الإيمان والتوبة، ولذلك فإن كلامه لا يتضمن أي إهانة للمرأة الكنعانية ولا الوثنيين عموماً، ولكنه يعرض، بأسلوب شعبي شائع يفهمه الجميع، المخطط الإلهي الذي رسمه لليهود أولاً ثم للوثنيين من بعدهم، دليل أنها حين قالت له: رُحماك سيدي، حتى جراء الكلاب تأكل من الفئات الذي يتساقط عن موائد أصحابها، أجابها قائلاً: «ما أعظم إيمانك أنتِ المرأة. فليكن لك ما تريدين. فَصَغَبَتْ ابْنَتُهَا مِنْ سَاعَتِهَا».

هكذا أخبرني القمص يوسف.. وهكذا تعلمت أن الإنجيل مكتوب بلغة أدبية رمزية، لا ينبغي أن تُفسر كل حرف فيه بالمعنى الظاهر الصريح.

.....

ما زلتُ أبحر في المسيحية، وأندesh في كل لحظة معرفة.. ثمة آيات أحفظها في الإنجيل عن ظهر قلب، بل واستشهدت بها في أحاديث سابقة لي من قبل دون أن أعرف أصلاً أنها وردت في الإنجيل!

ما تعلمته مجدداً أن الكتاب المقدس يتكون لدى المسيحيين الأرثوذكس من جزعين، هما العهد القديم الذي يتضمن أسفار موسى الخمسة المعروفة باسم التوراة اليهودية، وأسفار بني إسرائيل التاريخية، وبها عرض لبني إسرائيل منذ دخولهم فلسطين إلى الفترة التي تلت عودتهم من السبي البابلي، وأسفار الأناشيد الشعرية التي تحتوي على مواعظ دينية، وأسفار أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا من بعد موسى مثل سفر إشعيا الذي انتابتي عند قراءته حالة عجيبة من الحنين والحب لهذا النبي رغم أني لا أذكر عنه شيئاً، ووجدتني أشعر بسعادة غامرة حين أتت سيرة ملاك الرب الذي ناصر إشعيا، وقُتل بمفرده أكثر من 185 ألف جندي من جيش آشور في ليلة واحدة، لكن سرعان ما تحولت سعادتي إلى بكاء حار وأنا أقرأ لحظة نشره بالمنشأ على يد الملك منسي الذي أعاد الوثنية لأورشليم مخالفاً تعاليم والده الملك حزقيا، وسألت في نفسي كيف صمت ملاك الرب حيال ذلك؟

قرأتُ أيضاً أسفار إرميا ودانيال وحزقيال ويونان وحجي وزكريا وغيرها من أسفار العهد القديم، التي لا يؤمن اليهود بطبيعية الحال إلا بها، أما العهد الجديد في المسيحية، فهو عهد بدأ مع ميلاد السيد المسيح المعجز من أمه العذراء مريم، ويتكون من الأناجيل الأربعة القانونية متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، ورسل بولس، وأعمال الرسل، ورسالة يوحنا التي سُميت سفر الرؤيا، وعددها 27 سفرًا مُقدَّساً، ولقد انتقلت الكنيسة الرسمية هذه الأسفار تحديداً في القرن الرابع الميلادي من بين عشرات الأسفار التي كانت متداولة بين المسيحيين وأدت لحدوث الخلافات والصراعات بينهم، ووصمت الكنيسة بقية الأسفار بالمنحولة الزائفة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهرطقة المنحرفين عن الإيمان القويم.

سألت عن معنى الكنيسة الأرثوذكسية، فعلمت أنها الكنيسة قديمة الإيمان، وكلمة أرثوذكسية هي كلمة يونانية الأصل تعني الرأي القويم أو الإيمان السليم، ثم قادني السؤال لسؤال آخر عن الفارق بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت لأبداً في التحرك أكثر وأكثر وأعترف أن الديانة المسيحية في الأصل كانت تتبع تعاليم كنيسة واحدة تُسمى كاثوليكية في الوثائق الرسمية، وتُسمى أيضاً أرثوذكسية لتمييزها عن الجماعات التي خرجت عن الاعتقاد الرسمي، ورغم التنوع المشروع الذي كان قائماً بين كنائس الغرب وسائر الكنائس أو البطريركيات الشرقية، كانت الشراكة قائمة والاتصالات متواصلة بين شقي العالم المسيحي، ولم يكن تسمية كاثوليكي أو أرثوذكسي تأخذ معنى مذهبياً بعد، ثم مع الوقت دب الخلاف والشقاق لأسباب ثقافية وسياسية بين الكنيسة الغربية المتمثلة في الفاتيكان التي أصبحت الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد، والكنيسة البيزنطية الشرقية التي أصبحت فيما بعد الرومية الأرثوذكسية، وكانت البطريركيات الملكية في الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم تحت الحكم العربي، ولم يكن لها دور مباشر في الخصومة القائمة بين الكنيسة الرومانية والكنيسة البيزنطية.

ثم استقحل الخلاف على أيام ميخائيل كيرولاس بطريرك القسطنطينية عام 1054 ميلادياً، ومنذ هذا التاريخ وهناك مسيحيون كاثوليك يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان وأرثوذكس يتبعون الطقوس الدينية اليونانية البيزنطية.



نؤمن بإله واحد  
الآب ضابط الكل  
وخالق السماء والأرض  
وكل ما يرى وما لا يرى  
ويرب واحد يسوع المسيح  
ابن الله الوحيد . المولود من الآب قبل كل الدهور  
إله من إله، نور من نور . إله حق من إله حق  
مولود غير مخلوق  
مساوي الآب في الجوهر  
الذي على يده صار كل شيء  
الذي من أجلنا نحن البشر  
ومن أجل خلاصنا  
نزل من السماء  
وتجسد من الروح القدس  
وولد من مريم العذراء وصار إنساناً  
وصُلب عوضاً في عهد بيلاطس البنطي  
تألم ومات وذُفن وقام في اليوم الثالث كما في الكتب  
وصعد إلى السماء  
وجلس على يمين الله الآب  
وايضاً سيأتي بمجده العظيم  
ليدين الأحياء والأموات  
الذي ليس لملكه انقضاء

وبعد فترة حدث جدل واسع حول 3 آراء جديدة مست صلب العقيدة المسيحية..

الرأي الأول كان لمكدونيوس أسقف القسطنطينية الذي قال إن الروح القدس عمل إلهي منتشر في الكون، وليس بأقنوم متميز عن الآب والابن، بل هو مخلوق يُشبه الملائكة وليس ذا رتبة أسمى منهم..

الرأي الثاني كان لأبوليناريوس أسقف اللاذقية الذي قال إن لاهوت المسيح قد قام مقام الروح الجسدية وتحمل الآلام والصلب والموت مع

ونتيجة لظاهرة بيع صكوك الغفران من الكنيسة الكاثوليكية وعدم وجود أي أمل لمغفرة ذنوب المسيحيين إلا بشراء هذه الصكوك، ظهر الراهب والقس الألماني مارتن لوثر كينج في بداية القرن السادس عشر واعترض على هذه الظاهرة قائلاً أن الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هو هدية مجانية ونعمة الله من خلال الإيمان بيسوع المسيح مُخلصاً، وبالتالي ليس من شروط نيل الغفران القيام بأي عمل تكفيري يلزم صاحبه بشراء هذه الصكوك، كما رفض سلطة الكنيسة الكاثوليكية في منح البابا وحده الحق في تفسير الكتاب المقدس معتبراً أن لكل امرئ الحق في التفسير، وقال إن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمر الإيمان، وعارض سلطة الكهنوت المسيحية في الكثير من الأمور حتى إنه سمح للقساوسة بالزواج.

كما قدم مارتن لوثر أيضاً ترجمة خاصة به للكتاب المقدس بلغته المحلية بدلاً من اللغة اللاتينية التي كانت اللغة الوحيدة المسموح باستخدامها لقراءة الكتاب المقدس من الكنيسة الرومانية، مما أثر بشكل كبير على الكنيسة وقاد لترجمة الكتاب المقدس فيما بعد لأكثر من لغة، وغيرها من الأمور الشهيرة التي قام بها، وأدت إلى حدوث موجة واسعة من احتجاجات المسيحيين ضد الكنيسة فظهر المذهب البروتستانتي الذي يعني الاحتجاج، غير أن القمص يوسف أخبرني أن الكاثوليك والبروتستانت محرومان من ملكوت الله في السماء ولن يدخلوه مثل الأرثوذكسين.

علمت أن بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت الكثير من الخلافات الجوهرية في أهم أسس وقواعد الدين المسيحي، مثل أسرار الكنيسة السبعة، وغيرها.

وقرأت قانون الإيمان المسيحي الذي تمت كتابته على فترتين.. الفترة الأولى بعد ظهور الأسقف أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح، وقال إن المسيح هو مجرد مخلوق بشري وليس واحداً مع الله الآب أو معادلاً له، فبعد أول مجمع مسكوني للمباحثة في هذه القضية وهو ما يُعرف بالمجمع المسكوني الأول أو مجمع نيقية، نسبة إلى المدينة التي عُقد فيها بين عدد كبير من الأساقفة معظمهم من الشرق، وحضروا المجمع لحسم هذه المسألة، وبعد معركة طويلة انتصر أصحاب الرأي القائل بالألوهية المسيح، بإشراف الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول، وتم

الجسد، كما قال بوجود تفاوت بين الأقاليم الثلاثة التي يتكوّن منها الثالوث المسيحي فقال إن الروح القدس عظيم، والابن أعظم، أما الآب فهو الأعظم.

أما الرأي الثالث فكان لأوسابيوس الذي قال إن الثالوث ذات واحدة، وأقدم واحد، وليسوا ثلاثة أقانيم.

فانعقد المجمع المسكوني الثاني في مدينة القسطنطينية، العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية عام 381 ميلادياً برئاسة 150 أسقفاً من كنائس الشرق والغرب، وهناك جاء النص الثاني من قانون الإيمان المعروف بقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني المكمل للقانون الأول:

ونؤمن بالروح القدس .. الرب المحيي.. المنبثق من الآب  
ومع الآب والابن.. يسجد له ويمجد  
الناطق بالأنبياء  
ويكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسوليته ..

نقر ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا  
ونتنتظر قيامة الموتى وحياة جديدة في العالم العتيق

آمين

وهكذا كانت تتعقد المجامع المسكونية من عصر لعصر بسبب ظهور انشقاقات في الكنيسة والعقيدة المسيحية، وكانت تتعقد بدعوة من الإمبراطور الروماني، وتحضرها غالبية أساقفة الكنيسة شرقاً وغرباً، بحيث يتم تمثيل كامل للكنيسة الجامعة ككل، ويقرر المجمع حكماً جديداً غالباً ما يكون حراماً أو نفي صاحب الرأي المخالف، لتشكل هذه المجامع علامات فارقة في تاريخ العقيدة المسيحية.

وبلغت هذه المجامع سبعة مجامع كان من أهمها مجمع خلقيدونية الذي انعقد سنة 451 ميلادياً، ونجم عن هذا المجمع انشقاق أدى إلى ابتعاد الكنائس الشرقية (القيطية والأرمنية والسريانية) عن الشراكة مع الكنيستين الرومانية والبيزنطية اللتين اتفقتا على أن للمسيح طبيعتين: "الكلمة يفعل ما يختص به الكلمة، واللحم يفعل ما يختص به اللحم، فالواحد من المذكورين يبهز بالمعجزات، والآخر ملقى للإهانات"، بينما

ات الكنائس الشرقية أن كلمة (طبيعتين للمسيح) تعني أنه شخصان، مما هو في حقيقة الأمر طبيعة واحدة.

يا ويلي.. يكاد عقلي ينفجر.. فإذا كان المسيح بطبيعة واحدة إلهية وإنسانية في نفس الوقت، فمعنى هذا أن واقعة الصلب ماتت فيها الطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية، فهل عاش الكون بدون إله لمدة ثلاثة أيام إلى أن قام المسيح من بين الأموات؟!

وماذا عن مجمع أفسس الأول الذي انعقد بعد ما صرح به الراهب القس الإنجليزي بيلاجيوس أن خطية آدم قاصرة عليه وحده دون أن تمتد إلى بقية الجنس البشري، وأن كل إنسان منذ ولادته يكون كادم قبل سقوطه، بخلاف قوله إن الإنسان بقوته الطبيعية يستطيع الوصول إلى أسامي درجات القداسة بدون انتظار إلى مساعدة النعمة، فقالوا إن تعاليمه فاسدة وتهدم سير الفداء المجيد الذي قام به السيد المسيح من أجل تحرير البشر من خطيتهم، وتقل من أهمية دمائه التي سالت على الصليب؟!

هل الله حقاً من الممكن أن يُحاسب البشرية كلها بذنب آدم؟

هل تُورث الخطية؟

وماذا عن الذين عاشوا وماتوا قبل ميلاد و الصلب المسيح ليفديهم من خطية آدم؟

أجابني القمص يوسف أن بولس الرسول قال في رسالته لأهل رومية: "قد صولحنا مع الله بموت ابنه"، وقال لهم أيضاً: "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت". هذه هي عقيدتنا يا ولدي، وما جاء في كلام بيلاجيوس يتنافى معها، بل ويهدمها.

لكنه لم يسمعي وأنا أتمت بيبي وبين نفسي بصوت خفيض:

يا الله.. ما كل هذا التاريخ الصعب المليء بالخلافات والانشقاقات في رحلة تكوين ديانة الإلهية أخذت تتشكل وتضاف إليها الوصايا والقوانين مع كل اجتماع على مدار قرون، رغم أن المسيح قال عند صلبه إن دينه قد تم؟!

إله الطبيعة يتألم الآن؟".

إن رواية يهوذا هذه هي فريضة ضد المسيحية لا يُصدقها عقل إنسان، ومن يُنكر واقعة صلب المسيح يُنكر بالتبعية حقيقة تاريخية أجمع عليها اليهود والمسيحيون الذين عاصروا صلب المسيح ومن بعدهم، بغض النظر عن كونها واقعة دينية.. وأما عن إنكار الوهيته، فمن الذي يُحيي الموتى سوى الله؟

من جديد وجدتي أسئال:

- ما أمر هؤلاء المسلمين؟

أصبحتُ حريصاً على حضور اجتماعات مع خُدام آخرين من الكنيسة، والاستماع إلى العظة والدروس..

اليوم انجذبت بكل حواسي لسؤال تلك الفتاة التي سألت الخادم:

قالت لي صديقة مسلمة إن المسيح لم يُصلب، وإن القرآن يقول: لو ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن هناك بعض الأقوال الإسلامية تقول إن يهوذا الإسخريوطي هو الذي تم صلبه بدلاً منه بعد أن جعله الله شبه المسيح، وإنه لم يكن سوى مجرد نبي، فما هو الرد الذي أقوله لمن يقول لي مثل هذا الكلام؟

فأجابها قائلاً:

- المسيح لم تكن شخصيته مجهولة في المجتمع اليهودي، لأنه كان يجول في كل مدينة وقرية يركز بملكوته الله، وصنع مع الشعب معجزات لا يحصى عددها، وكانت تجتمع إليه ألوف من البشر لكي تستمع إلى تعاليمه. ثم إنه قبل الصلب مرّ بخمس محاكمات أمام ولاة مثل هيرودس وبيلاطس، وأمام رؤساء الدين مثل حنّان وقيافا رئيسي الكهنة، وبعد هذه المحاكمات وقف بيلاطس والي اليهودية أمام جموع الشعب وخبرهم بين تسليم المسيح لهم ليصلب وبين باراباس اللص، وعندما طلبوا صلب المسيح سلمه بيلاطس إلى جنود الرومان ومرّ بمراحل الجلد واللكم والتعيير وإكليل الشوك، وأخيراً سار في طريق الألام حاملاً الصليب تحت حراسة مشددة إلى أن بلغ مكان الجلجثة، وهناك سَمَرُوهُ ورفعوه على الصليب وكان في رفقته في طريق الألام حتى مكان صلبه أمه مريم ويوحنا الحبيب وبقية المريمات.. وهو على الصليب نطق بكلمات لا ينطق بها لسان بشري.. فمتى اندمّس يهوذا في هذا المشوار العلني المكشوف أمام كل بشر ليضع نفسه مكان المسيح؟!

وكيف أن يهوذا بعد خيائته يفعل هذا؟ وما ترى لمن سلّم يهوذا نفسه لكي يُصلب عوضاً عن المسيح. وهل لو كان يهوذا هو الذي صُلب كانت تحدث كل مظاهر الطبيعة التي قال بسببها ديونيسيوس الأريوباغي، ذلك العالم الفلكي الشهير: "لا بد أن

الجميل في الأمر رغم آلام عقلي السقيم في رحلة المعرفة، أن كل من حولي لا يمانعون الإجابة عن كل أسئلتني، ومن لا يعرف يجلبني إلى من هو أكثر منه علماً وتعمقاً في الدين، لكن الأجل أنهم يُبدون دهشهم من درجة استيعابي الفائقة، ويستحسنون أسئلتني التي يصفونها بالذكاء لدرجة أنهم أحياناً لا يجدون لها إجابة تريح عقلي!

لكن هذا لا ينفي أن ثمة إجابات تكون وافية، وهي التي أعضمها وأستوعبها جيداً، ثم أخرجها بشكل مبسط لأطفال الحضانة الذين يُحبون اللعب معي والجلوس حولي في حلقة يزداد عدد المنضمين إليها يوماً، لتتسامر ونضحك معاً، وعم (حنّا) حارس المبنى يضرب كفّاً بكف متسائلاً: كيف تحوّل هؤلاء القردة المشاغبون إلى خرافٍ وديعة؟ فأجيبه مبتسماً وأتمنى أن أكون محقاً: ربما وَجَدْتُ أخيراً الراعي الذي يستحق أن تستكين إليه.

انتهزت (آيات) الفرصة وانضمت إلينا، لتجلس معي في قلب دائرة الأطفال الذين ما زالوا على طهر وتقاء الملائكة، بعد أن أخبرتني بلهجة حملت قدراً كبيراً من الصدق أنها تعلمت مني - وأنا الذي لم يتيقن أحد بعد من ديني الحقيقي - ما لم تتعلمه طوال عمرها من الرهبان والقسيسين، وسألت: "لماذا لم أتقّيك قبل الوقوع في الخطيئة؟"، فحضرت أنا معها بالمثل تلك الدروس التي علّمت فيها الأطفال العزف على آلة الكمان والرسم، وأجبتهما: "حتى يكون ثمن وقوعك هو التكفير عن الذنب

بهذه الطريقة الرائعة التي لا يُقِل عليها الكثيرون ممن لم يسقطوا مثلك..  
ولأول مرة أرى كيف تَمزج البسمة بالدموع على وجه البشر بهذا المزيج  
المدّش الذي ارتسم على ملامحها.

.....

الخوف.. الرعدة.. الرغبة في الهرب من شيء لا أعرفه، هي المشاعر  
التي انتابتني حين قام (بيشوي) - ذلك الطفل الأسمر اللطيف- يرسم  
وجهي بالقلم الرصاص على جسد أبيض اللون وعلى جانبيه جناحان  
عظيمان بموهبة فريدة من نوعها - لمن هم في مثل سنه- قائلاً بابيسامة  
لن أنساها ما حبيت: "خلّكتك واحداً منهم، فأنت تشبه تلك الرسومات التي  
رأيتها في العديد من الكنائس للمخلوقات السماوية الجميلة"، وتزامن مع  
كلماته نظرة مؤثرة منحتها لي (آيات) تصديقا على كلامه وهي تتراجع  
بين الإبتسامة والرهبة، فأدركت في تلك اللحظة كيف على المرء أن يفر  
أحياناً من التقدير والتبجيل، مثلما يفر دائماً من اللوم والعتاب والتبكيت،  
لذا غادرت مبنى الخدمات بخطوات مرتبكة لا تعرف اتجاهاً أو جهة.

انفصلت عن هذا العالم بكل ما فيه، اللهم إلا لمسابٍ رقيقةً دأب بها  
الموج قدمني الحافيتين وأنا أسير على رمال البحر وحدي في (بحري)،  
وقد أسدل الليل ستاره في ليلةٍ بدت فيها السماء مُعتمّة، بعد أن سجل  
القمر اسمه في دفتر الغياب.

الهواء الساقع أخذ يضرب جسدي حتى شعرت ببرودة تُشَمِّل أطرافي..  
فالشتاء دائم انتهاز الفرص للانقضاض على ليل الإسكندرية الأعزل  
من الحرارة، دون أي اعتبار لمعاداته مع فصل الصيف الذي كان في  
طريقه للانسحاب من معركةٍ غير متكافئة الأطراف.

انتزعني من البرودة والشرود صوتٌ نغمات غريبة لم أعرف مصدرها وأنا  
ألتفت حول نفسي، قبل أن أكتشف مع ذلك الاهتزاز في جيب جلابي أنه  
رنين الاتصال على الهاتف المحمول الذي أهذته إليّ تلك الفتاة التي لا  
أعرف إلى أين ستمضي بنا الأقدار.. بالطبع كانت هي المتصل ومن  
يكون سواها.

بصوتٍ ملهوفٍ سألت عن حالي، واستفسرت عن سر ذلك التحول  
المفاجئ الذي انتابني إلى حد المخاطرة بخروجي من المبنى بشكٍ

مفاجئ رغم احتمالية بحث الشرطة عني، واستحلفتني بالعودة سريعاً وأن  
أروخي الحذر أثناء رجوعي..

عاشت على صخرةٍ بعد انتهاء المكالمات، ونظرتُ إلى شاشة ذلك الشيء  
الساحر القادر على إذابة المسافات والفواصل بين البشر بضغطة زر،  
وسألت نفسي دون أن أصل لإجابة شافية: لماذا بدا صوتها عبر الهاتف  
أشهر دفناً وجاذبية؟

لا أنكر أن مكالمتها جاءت في وقتها.. بصراحة، لم أعد قادراً على  
تفسير ذلك الشعور بالارتياح المرتبط بسماع صوتها..

أهي التي في حاجة إليّ، أم أنا الذي لا أستطيع الاستغناء عن حواء  
عالمي الذي كنت فيه (أندم) الوحيد البائس، لا سيما مع ذلك الحنان  
الجارف في عينيها، والاهتمام البارز في تصرفاتها، ولمساتها الدافئة  
ليدي في لحظات خاطفة تتصنع بعدها الاعتذار بحجة أنها لم تكن  
تقصد، فيما تقول نظراتها الشقية إنها كانت لمسابٍ مع سبق الإصرار  
والترصد.

غوتني شاشة ذلك الهاتف التي تستجيب لمجرد لمسات الإصبع،  
فضغطت سبابتي على تطبيق "فيس بوك" الذي أخبرتني (آيات) أنه  
يجمع البشر من كل أنحاء العالم، لأتأمل صورتي وهي تنتظر بابيسامةٍ  
خفيفةٍ نحو الكاميرا.

كانت هي الصديقة الوحيدة لي، فخلّكتُ على حسابها الشخصي وبه  
وجدتُ اسماً إضافياً لها مكتوباً بين قوسين وكان (عاشقة الوردي)،  
ووضعتُ في الغلاف الخلفي لحسابها صورةً أكثر من رائعة لباقة ورود  
أنيقة الشكل، جميلة الألوان، بخلاف الكثير من الخواطر التي اكتشفتُ  
أني أجيد القراءة عندما استطعت قراءتها بسهولة، لكن هذه الخاطرة  
تحديداً كانت أروعهم بالنسبة لي على الأقل، حتى إنني قرأتها بعيني وأنا  
أسمع كلماتها تتردد بصوتها في أذني:

- قبل هذه الكلمات كانت هناك ألف تجربة سابقة محاها  
زر المسح في لوحة مفاتيح قراءاء، فشلت في توصيل  
ما يعيش في القلب، وتحولت تلك المشاعر الحزينة إلى  
كلماتٍ تعبر لك عما هو أكبر من الكلام..





ماتت على عتبات دنياك كل التشبيهات البليغة، واحتضرت الاستعارات والكنائيات، وانتحرت ألفاظ الحب والغرام في يأس أمام قتي فوق مستوى اللغات، وبقيت أنا وحدي في ملكوتك الهائل كدرويش لا يشعر بمكنونات قلبه سوى مجاذيب العشق الذين سحرتهم قلوب فاتنة كقلبك الأخاذ.

أصبح وجودك لقلبي بعد الدين ديناً، وصرت أكتب في حيك أسفار الشوق، ومزامير الهيام والوله، وتلمود الوفاء لذاتك التي جاءت إلى الوجود من أجلي، وأحيا فقط من أجل انتظار لحظة تحقيق النبوءة، حين تنظر لعيني الدامعتين، وتمنحني أجمل ابتساماتك وأنت تقول في حنان: لقد سمعت صوت قلبك وفُسر لفة دقائقك المشفرة بالعشق، ثم تلخص الشرق في كنفك الأيمن، والغرب في كنفك الأيسر، وتضمني في صدر صار لي في رحابة الكوكب لأحيا في عالمك وحدك، مستبدلة به كل العوالم.

آه لو تسقط المحاذير، ويمحو الغرام بمحادثته تلك الخطوط الحمراء التي تُقيد البشر، لتقدمت نحوك وجذبت أناملك الرقيقة الملكية لأضعها على قلبي فتدرك مدى يؤسي وشقائي في حيك، مع تلك الدقات الصاخبة التي تلهيني بسياط الحب..

لأخبرتك أن ثمة لغة وحيدة لا تعجزها المفردات الهزيلة أو ترهقها الأوصاف المحدودة، ثم أضع شفتي على شفتك لتتسأل زوحي من جسدي وتحل في جسدك حاملة معها كل المعاني التي لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات، وما لا يمكن أن يقال بالتشبيهات، فتبرق عينك ككوكب دري وأنا أسألك: هل فهمت ما أريد أن أقول؟ وتهز رأسك بالإيجاب وعلى شفتك نفس الابتسامة الساحرة وقد فهمت أخيراً ما عجز اللسان عن البوح به، فأقبلتك ألف ألف مرة دون أن يزالنا الضجر، أو يحطينا الزمان والمكان.

سألتك بالله، لا تنسَ وأنت تقرأ هذا الكلام كمعجب بنص من عاشقة مجنونة غرقت في حب محبوبها حتى أدنيتها، دون أن تدري أنك أنت المقصود... لا تظن أن الأمر لا يعدو كونه

كلمات لطيفة من إنسانة تصنع حالات حائلة من الوهم..

فحروفي حياة كاملة، وددت لو قدمتها قريباً تحت قدميك.. وأنت المحبوب يا حبيبتي، وأنا المحبة حقاً وصدقاً..

فمتى تدرك يا أعظم الرجال وسيدهم في نظري؟!

#أحبك.

ابتسمت بلا وعي مني، رغم أنها أقسمت على القارئ ألا يبتسم، لكنها لم تكن ابتسامة محبوب بالنص كما كانت تخشى.. بل ابتسامة قبول.

ذهبت عياني بعدها إلى طرف الشاشة، فحملت الذهول والتعجب هذه المرة، إذ لم أتوقع أن تبلغ طلبات الصداقة أكثر من ألفي طلب في هذا الوقت القصير في عالم لا يعرفني فيه أحد!

مهلاً.. من الذي قال إنهم لا يعرفونني؟ ربما كان أحدهم يعرف هويتي السابقة.. سأقبل كل طلبات الإضافة إذن.

هاهاها.. اتضح أن أحدهم يعرفني بالفعل، لكن بهويتي الحالية ذات الذاكرة المحذومة.. إنها (كريستين) التي كانت أول اسم في قائمة الراغبين في صداقتي، مع صورة قريبة لملامح وجهها الساحر، تقول للناظرين إن اشتباه صاحبة تلك العينين لا يمكن أن يكون ذنباً على الإطلاق!

”إحم.. استغفر الله...“

قلتها وأنا أترجع عن ذلك الشعور الذي ومض فجأة داخلي وكاد أن يسيطر عليّ، قبل أن أستعيد لجام نفسي..

لكني قبلت طلب الإضافة على أي حال!

.....

صافحتني (آيات) حين التقينا مجدداً بلهفة أكثر من الأمس، وستكون بالتأكيد أقل من الغد شأن كل مرة نلتقي فيها اهتمامها بشكل أظنه وصل إلى الحد الأقصى، قبل أن أكتشف في المرة التالية أنها قادرة على

اختراق السقف، والوصول لأبعادٍ جديدةٍ من اللهفة التي لا نهاية لها..

تماماً مثل عينيها اللتين أعدت اكتشافهما في لحظات السلام واستناب الأوضاع بعيداً عن الصخب والصراع، فإذا بهما بحرٌ لا ساحل له.

لا شك أن (كريستين) أكثر جمالاً، لكن ما أشعر به تجاه (آيات) لا أعتمد أنني مررت به من قبل.. حتى وإن كانت ساقطة ذات يوم، يكفيني أن علاقتي بها بدأت بمعركةٍ من أجل الشرف!

هي أول عاهرة أحبها رغم أنني لا أتذكر باقي النساء اللاتي مررن في شريط حياتي، لكن الغهر من المستحيل أن ينسى من ذاكرة الرجال حتى وإن كانت تلك الذاكرة مفقودة.

ذلك هو الحب.. عصي على الفهم والتفسير كلغة ميتة لم يعد هناك من يعرفها من البشر، صعب على النسيان كإله من المستحيل أن ينسى مخلوقاته.. نستخدمه مضطرين كمشروب غازي فوّار ليلع ما نتعاطاه على مائدة الحياة من وجبات سريعة طبختها الأقدار بقسوة عسيرة الهضم، فلا نملك الاستغناء عنه مهما سمعنا عن آثاره الجانبية التي تسبب هشاشة القلب.

غير نظراتها معي كان فضيلة.. إغواؤها لي غير من كراهيتي للمكياج الذي كنت أراه حيلة غير شريفة لتجميل ما هو دميم، لكن زيادة مقدار انحطاط العالم إلى حدٍ غير محتمل جعلت عيني في حاجة لمن يخدعها ولو بجمال زائف بعد أن تمنيت أن تزول منهما نعمة الإبصار من فرط الفج، فإذا بيدها الرقيقة تمسك فرشاة توزيع أحمر الخدود، وتوزع خمرة الجمال الحقيقي على وجه هذا العالم القبيح.

حين أطالت النظر إلى وجهي، سمعت صوتها الداخلي بشكل واضح، ظننته خيالاً في بادئ الأمر قبل أن أكتشف أنه خاصية عجيبة مذهلة في جعبة قدراتي التي ما زلت أكتشفها على يديها..

كان ذلك حين ثبتت بصرها في مواجهة عيني ورددت داخلها بصوت خفي فضحته عيناها:

- كم شعرنا بالآلفة والثقة في أصدقاء أنفاهم سريعاً، فأفرجنا عما

تخفيه سرائرها بين الصدور، وفي اللحظات الحزينة الحالكة حكينا لهم أوجاعنا وأسرارنا وكأننا لا فتاجي سوى أنفسنا، أو نففضض مع السماء التي لن تقشي السر، ثم عضضنا الأنامل من فرط الندم، لا لألهم خائناً الثقة، بل لأن القلب انتخب أحدهم لينقل إلى خانة الحبيب، والحبيب في بداية الحب لا ينبغي أن يعرف ما يعرفه الصديق القديم.

ماذا لو عرفني وأنا بلاصفة الضمان، وما زالت بكارتي على ضبط المصنع؟

ماذا لو قدمتني له الظروف كأبي فتاة شريفة، لتقع عيناه فقط على الجانب المبهج في شخصي؟.. أما كان هناك أمل وقتها أن تكون قصتنا أقوى من أن يهددها ماضي لا أملك آلة الزمن للعودة إليه ومنعه قبل حدوثه؟

الآن صار كل ما يميزني في ناظره مجرد غواية من بائعة هوى رخيصة تريد الإيقاع به، وكل نظرات بريئة ومشاعر طاهرة سرعان ما يسفهرها بكذبة متقنة وحكمة بارعة من ساقطة تجيد التغرير بالرجال!

ليتني ما حكيت له كل شيء.. فأحياناً يكون كل ما نقوله صحيحاً تماماً.. والخطأ الوحيد فيه، أنه قيل من الأساس!

لكنني أيضاً لم أطلع على سره الخفي وشخصيته الغامضة، فربما كان هو الذي لا يستحق أن أمنحه قلبي ومشاعري..

ماذا؟

هل يمكن؟

لا.. لا أستطيع حتى أن أتخيل ذلك.. ثم إن الشيطان نفسه إذا ما تاب، قد يكون جديراً بالحب والصداقة أكثر من ملاك قد تسقطه خبراته المدعومة وصحيفة أعماله الطاهرة في سقطة لا خلاص منها، وهذا الفتى لديه من الخبرات والمهارات ما يغفر له زلة سطنائيل، فهل يغفر لي زلتي أنا الأخرى؟

ابستم لكلماتها ورددت عليها بصوتي الداخلي أيضاً تاركاً لفراسيتها القدرة على ترجمة ما يتوح به عيني؛

- الحب، هو الغسل الوحيد الذي ينظف ويمسح الماضي، والإله الذي يسكن في قلوبنا يغفر زلات الأحبة مهما كانت خطاياهم قبل أن نلتقي بهم.. فقد ولدوا منذ أن عرفناهم.

لمعت عيناها بمزيج من دموع الفرحه والتائر، جعلني أقسم أنها سمعت ما جال بخاطري أيضاً.. هذه أبسط معجزات العشاق.. ثم تيقنت من هذا حين ابستم من بين دموعها الماسية وقالت ببطء وهي تتأمل عيني بهيام:

- أخبرتك في أول معرفتنا أنني كنت أحب شخصاً لم تشأ الأقدار أن تكمل قصتنا بالنجاح.. الآن أيقنت أن الحب الأول لا يموت.. لكن.. حين يأتي الحب الحقيقي، فإنه يذقه حياً.

ثم ارتبكت ملامحها حين شعرت أنها قالتها بلا مناسبة، فاستطردت في خجل:

- قرأت هذه المقولة بالأمس في كتاب من كتبي القديمة وشعرت أنها كتبت من أجلي.. ما رأيك فيها؟

جاوبتها بإسمامة تمنحني الفرصة لتأجيل الإجابة وأنا أفكر بيني وبين نفسي: هل أخبرها أن (كرستين) قد صارت صديقة لي على هذا الموقع الاجتماعي الذي اكتشفت أنه يشكل إيماناً لكثير من البشر؟

هل أعترف لها بأنني تصفحت البومات صور تلك الأخيرة المرفوعة على الموقع وعليها رقم قياسي من التعليقات وعلامات الإعجاب وتلك الأيقونات التي تُعبر عن المشاعر بكنهية إلكترونية تغمر فيها الأعين، وتُخرج فيها الرسومات السنثتية؟

هل أبلغها أنها حادثنني عبر صندوق المحادثات، ورغمما عني أبديت إعجابي بصورها الفاتحة، فأرسلت لي صوراً أخرى "سيلي" أخبرتني أنها "إكسلوسيف" لي وحدي، في أوضاع غريبة يظن من يراها أنها تتعرض للاغتصاب من شخص خفي لا يظهر جسده لكن تظهر آثار فعلته، وتذكرت وأنا أشاهدها بقلب يرتجف ذلك الشعور الذي أحرق

فوق سطح منزل (دميانة) حين سمعت أصوات المتعة والشفق لمعت بالعطش، قبل أن ينتهي الأمر بتبادل أرقام الهاتف حين طلبت مني بشدة في موضوع تريد أن تحكيه لي على انفراد، ولم أستطع إخراجها وأنا الذي لا يستطيع أن يخلد من يحتاج منه يد العون ما قادراً على ذلك؟

وحين طال شرودي سألتني: "روحت فين؟!"، وقبل أن أجيب قطع حديثاً (حنا) الذي أخبرني أن القمص (يوسف) يريدني..

ذهبت إلى ذلك الرجل الجليل، وبين يديه اكتشفت أنني لم أكسر بعد طاهر المهابة تجاهه رغم وده البالغ نحوي، واحترامه لشخصي المجهول شكلي يدفعني دائماً للحيرة والتساؤل.

ابستم بشكل نادر الحدوث، وأبدى إعجابه الشديد بنشاطي الملحوظ تجاه الأطفال، ثم اتسعت ابتسامته وهو يسأل بصيغة بدت تقريرية أكثر منها سؤالاً - وكأنه يعرف الإجابة - كيف فهمت طقس تقسيم القران في الأتراف الأخير واستخراج الجزء المسمى بالـ "إسباديون" الذي يرمز لـ (عمانويل)، رغم أن مسيحيين كثرًا يحضرون القداس منذ سنوات ولا يستطيعون شرح القصة المتصلة والمنفصلة بهذه السلاسة.

ألمبرته بخجل أني حضرت القداس لنهايته ولم أنصرف مع المنصرفين من جاء النصف الأخير المخصص للمسيحيين المتعدين فقط، لكنني لم أتناول بعد أن عرفت أن الشامسين كانوا يقولون قديماً مُحذرين: "من كان طاهرًا فلين من الأسرار المقدسة، ومن كان غير طاهر فلا يدين منها، ولا يقترب ولا يحترق بنار اللاهوت.. من كانت له عشرة مع صاحب، من كان به فكر زنا، من كان سكراناً فلا يدين"، وأنا لا أعرف ما أبونا درجة طهارتي، ولست مسجوناً حتى الآن على (شعب الكنيسة)، لكنني على أي حال مُعجب بهذا المصطلح لأقصى حد بعدما وجدته بالفعل على أرض الواقع، وليس مجرد فكرة ترددها الألسن.

فالكنيسة بمثابة وطن متكامل لأبنائه في الاحتضان والتكافل بين الرعية.. وكلمة وطن يعني وطنًا، بكل مشتملاته ومؤسساته.. الأسقفيات التي تشبه وزارات هذه الدولة للتعليم، والرياضة، وغيرها.. دور المسنين التابعة لدولة الكنيسة ومخصصة لاستقبال العجائز الذين شردهم الأقدار

الشمعة التي يخرج بها الشَّمْس من باب الهيكل ويتقدم الكاهن عند قراءة إنجيل القُدَّاس تشير إلى يوحنا المعمدان الذي سبق السيد المسيح ليمهد الطريق قدامه، كما أن وضع شمعة أو ثلاث شمعات على الصليب عند مباركة الشعب إشارة إلى أن الذي علق على الصليب هو المسيح نور العالم وأنه بالصليب نقلنا من الظلمة إلى نوره العجيب.

والشمعة كالعابد ليس لها فخر في ذاتها، فهي مفحمة لا نور فيها، باردة بلا حرارة، وتظل هكذا إلى أن تتحد بالنار .. حينئذ تلتهب وتضيء، فتبدد حُجُب الظلام المحيطة بها، وتبعث الحرارة والدفع إلى مَنْ حولها.. فطبيعتها بدون عمل النار تافهة مهملة، مثل طبيعة الإنسان بدون عمل النعمة والإيمان في قلبه، حتى إذا اشتعلت بالنار صارت من طبيعة النار، وانفارت لا بطبيعتها الأولى وإنما بطبيعة النار المتحدة بها.. كذلك المؤمن الذي ليس فيه صلاح من ذاته ولكن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار .. من عند شمس البر الذي جعل وجهه موسى النبي يضيء بعد اقترابه منه.

لذا توضع الشموع أمام أيقونات القديسين إشارة إلى أنهم كانوا نوراً للعالم، وأنهم كالشموع التي تدرب لتنير للآخرين دروبهم.. وعندما نوقد شمعة أمام أيقونات القديسين فإننا نطلب شفاعتهم وصلواتهم أمام عرش النعمة.

وكما كان المحيط ظلاماً، ظهر نور الشمعة بقوة أكثر مهما كانت صغيرة وضعيفة، فينتفع بها كثيرون.. فظلام الكون بأكمله لا يستطيع أن يكتم ضوء شمعة

.. عرفت سر تصميم معظم الكنائس على هيئة سفينة واقفة بشكل سمودي تتجه مقدمتها نحو السماء، كرمز لسفينة (نوح) التي أقلت الفئة الناجية من البشر من غضبة الرب، حين أفنى عقابه الإلهي كل من عاها من خلائق.

وعلى هاتفه المحمول شاهدت صوراً عديدة له مع البابا كيرلس السادس بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية، ومن بعده البابا شنودة، والبابا

ولم يجدوا معيئاً وسنداً في آخر أيام العمر.. دور رعاية وتربية الأيتام المساكين.. المستوصفات الطبية التي تحمل أسماء السيدة مريم العذراء ومشاهير القديسين القدامى لتوقيع الكشف الطبي على المرضى بأسعار رمزية.. المدرسون الذين يقدمون مجموعات دراسية لغير القادرين.. حضانات رعاية الأطفال.. الدور التي تقدمها الكنيسة لتنمية مهارات الشباب وتطويرها لتناسب سوق العمل مع العديد من المتخصصين المسيحيين الذين يتبرعون بالوقت والجهد في نقل علومهم وخبراتهم للشباب، بخلاف الارتقاء بوجود شعب الكنيسة بتعليم العزف والغناء والرسم، وغيرها من الأنشطة التي يصعب حصرها.

أنهى القمص الغامض اللقاء بابتسامة جانبية معلقاً علي كلماتي قائلاً: "ربما كنت واحداً من رعايا الكنيسة قبل أن تفقد ذاكرتك"، فقلت له: "أو كنت واحداً من خصومكم المسلمين"، ولا أدري لم سرح طويلاً في كلماتي الأخيرة، ثم رد شارداً وكأنه يخاطب نفسه: "لست أعاديهم ويشهد الرب علي كلماتي.. ليترك كنت مسلماً لتشهد بنفسك"، ثم لمعت عيناه الأبي الأول مرة أمامي بالدموع!

.....

اكتشفت أن عم (حنا) حارس مبنى الخدمات الذي أقيم فيه حكاية بمفرده..

تاريخ وموسوعة كنسية تمشي على قدمين..

سألته عن معنى كلمة (كرازة)، فأجابني:

- الكرازة هي المناداة علناً بالإنجيل في العالم غير المسيحي، والتبشير العلني بعمل يسوع الفدائي، والدعوة إلى وصاياه وتعاليمه وتعريف الجميع بها، سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين.

أخبرني أيضاً عن جدوى استخدام الشموع هنا في الكاتدرائية وباقي الكنائس كطقس كنسي لا غناء عنه، بخلاف إشعالها أمام أيقونات القديسين:



اجعل هذا المبلغ خميرة للبركة وسئبني الكنيسة به.. فلم أطلب إلا وحصلت عليه وغداً سترى صدق كلامي».

فصحب أنه لم يمض أسبوع حتى جاء إلى الكنيسة رجلاً وقوراً، جاوز سن من عمره، كان يعمل مفتشاً للغة الإنجليزية هو وزوجته، ولم يكن لها أولاد وكان يسكن في فيلا يملكها في منطقة مصطفى باشا، إلا أنها كانت فيلا صغيرة في شارع ضيق ومنطقة مقطوعة، ليس فيها حركة ولا شيء في الليل، يخاف الإنسان أن يسير فيها، وعدد المسيحيين محدود، والبابا كيرلس السادس موجوداً بالإسكندرية، فقال: «غداً ستغير اسمك وتبقى كنيسة كويصة»، وفي اليوم التالي كان الأستاذ ميخائيل يُوقع على التنازل، وكتب أنه يتنازل عن ملكية الفيلا للبطريركية لإقامة كنيسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل، كما تمت المرأة تماماً!

وبدأ المبلغ الخمسين جنبها في هدم الفيلا وإقامة مبنى بسيط لكنيسة الملاك ميخائيل في مصطفى باشا، وفيما كان العمال يحفرون الأساسات، وإذا بهم يجدون قطعة من حجر جيري يرسم قربانة مملوء صليبا، وعلم الجميع بما لا يدع مكاناً للشك أن العمل من البداية هو عمل إلهي، وأن هذه الست أم مراد أن تبني كنيسة كانت تحركها يد خفية، إذ يتكلم الله في قلب مختاريه ويحركهم لعمل مسرته.

وبعد سنواتٍ أراد أحد أبناء الست أم مراد وكان يعمل طبيباً أن يذهب إلى السعودية ليعمل هناك بعض الوقت، وبعد مقابلة مع وفد العمل السعودي الذي جاء إلى مصر وضع أمامهم شروطه التي توافقته من جهة المربح وخلافه، ولكن لم يوافق الوفد على هذه الشروط، ورجع الابن من القاهرة تبتو عليه علامات الضيق وحكى لأمه تفاصيل المقابلة التي انتهت بالرفض.. وكان يوم ٧ سبتمبر، وكان تذكار الملك روفائيل مفرح القلوب يقع في اليوم التالي، فرفضت هذه البارة قلبها بالصلادة، وقالت: «يا ملاك الله رافائيل، يا مفرح القلوب، إن سمعت ابني خيراً يفرح قلبه فل منتصف الليل سأعرف أن الرب سمع طلبي بشفاعتك المقبولة»، وقبل منتصف الليل بدقائق دق تلفون المنزل، وكان المتكلم هو رئيس الوفد السعودي الذي أبلغ ابنها بقبول جميع الشروط وهناءً بحصوله على الوظيفة. ففترعت هذه المرة بمبلغ ٢٠٠ جنيه، وتم حفظه كخميرة صغيرة يستطيع أن يخمر العجيين كله، وفي غضون أسابيع قليلة تم شراء الأرض وبنيت كنيسة باسم الملك روفائيل.. مفرح القلوب. \* للقص لوقا سيداروس

\* ما ورد عن (أم مراد) مأخوذاً من كتاب (رائحة المسيح الزكية في أبرار معاصرين)

تواضروس في أكثر من مناسبة، سواء عيد الغطاس الذي يتم فيه الأبطال فيه على نهج تعميد يوحنا المعمدان للمسيح في نهر الأردن باعتبار التعميد هو النواية الوحيدة للملكوت، أو عيد التجلي الذي تعاد فيه المسيح مع النبيين موسى وإيليا فوق جبل طابور، أو رسامة القسوس الكهنة من البابا، وغيرها من المناسبات الكنسية.

وعلى لسانه أيضاً ترددت حكايات لا تنتهي عن معجزات القديس (مارمينا العجايبى) و(مارجرس) والألم (تماف إيريني) وغيرهم، بعد عاش عمره كله يقطن معلق بالكنايس والأديرة، راضياً بأن يكون من حارس بسيط، دون أن يسلك السلك الكنسي الذي لا يرى نفسه أهلاً لأمانته الثقيلة رغم إيمانه الأكثر رسوخاً من إيمان العديد من رجال الكنيسة.

ماتت زوجته، فتولى تربية ابنه الوحيد (ماجد) الذي سافر إلى ألمانيا مؤخرًا: «يشوف حاله بعد ما قلت له لقد ولدت في الأرض التي رعت المسيح في المهدي، وإن أتركها أبداً حتى أموت وأدفن فيها.. روح إنك وسيني هنا مش مهم.. فيه معايا ملايكة هنترعاني وتفرحني، مثلما رعى ميخائيل وروفائيل أم مراد».

وحكى لي قصة (أم مراد) صديقة الملائكة حسيما سمعها من القمص (لوقا سيداروس) في كنيسة (مارجرس) في الإسكندرية حين ذهبت إليه وعرفته بنفسها أنها أرملة وأم لثلاثة شبان، من بني سوف، ثم إذا بها تخرج لفئة قماش مصورة وقدمتها للقمص قائلة: «خذ هذه الخمسين جنبها وابن لي بها كنيسة على اسم الملك ميخائيل»، فقال لها: «ابن خمسين جنبها لا تكفي لشراء رخام للمذبح، ونحن نبني الآن كنيسة على اسم القديس تولا هيمانوت الحنسي بالإبراهيمية، وهو صديق للملاك ميخائيل، فممكن توجيه هذا المبلغ لبناء مذبح بالكنيسة باسم الملك ميخائيل وهذا يوفي الغرض أما بناء كنيسة بأموالك القليلة فهذا أمر مستحيل».

حينها أخذت منه النقود، وقالت له: «أنت لا تملك الإيمان الكافي بأن ربنا ممكن يعمل بالقليل»، وبدأت تقص عجائب الملك ميخائيل رئيس الملائكة معها، حتى قالت: «اطلب من السماء أي حاجة، وصدقتي سأحضرها لك.. إياك ألا تصدق، فهذا الملك صنع معي الكثير»، ثم ردت له المبلغ مرة أخرى وهي تقول: «أحفظ بالنقود عندك، وحين تظهر

حاجة لدراسة عميقة يكون عنوانها: صدق أو لا تُصدق!

هل أن أفقد ذاكرتي كنت أنتهي حقاً لتلك المنطقة الملتصقة في  
الأمم؟ أم كنت أنتهي لمملكة أخرى أعيش فيها حياة كريمة، ثم أفتني  
الانسانة في هذا الاثون لتلتهمني ظروفه القاسية كآلف ألف  
منه تسقط فيه يومياً ولا تعرف وهي تصرخ وتتقافز ألما بأي ذنب  
أفعلها وما السبيل للخروج!!

ومثل يوم يمضي اكتشف داخلي شيئاً جديداً لم يكن بهذا الوضوح حين  
استعدت وعني لأول مرة في المقابر ..

صوتي الجميل الذي بهر الجميع حين اندمجت مع ترانيمهم ذات مرة  
إلى الحد الذي دفعني إلى إغلاق عيني وترديد تلك الكلمات التي لمست  
أصاقي بصوت لم أجد إن كان عالياً أو خفياً.. فقط تركت العنان  
لشاعري حتى تُعبر بالدرجة والنبرة الملائمة لاستماعي وتصديقي لما  
أردد، ولم أفق إلا وقد اختفت كل الأصوات من حولي ليكون صوتي هو  
السوت الوحيد المتردد في الأفاق، وحين فتحت عيني، كانت كل العيون  
تعاصرني بنظرات الدهشة والإعجاب، في الوقت الذي اصطلمت فيه  
النفوس وتباعدت بشكل متكرر متلاحق بسرعة شديدة حماسية.. علمت  
سهم بعدها أن هذا اسمه (تصفيق) للتعبير عن الإعجاب وتشجيع  
السيد على إبداعه، أيّاً ما كان هذا الإبداع، فكان هذا سبباً للتمادي  
في عالم الغناء الساحر بعد أن وجدت لدي حنجره قوية وحساً مرهفاً  
وصفوه بأنه قائد على غزو الآذان دون استئذان، والسيطرة على الحواس  
والأنفس مع أول حرف يُغادر شفتي..

بدأ الأمر بغناء الترانيم، ثم تدرجت إلى أغاني أخرى بت أسمعاها عبر  
سوقي "يوتيوب" و"ساوند كلاود" في ذلك الهاتف الذي أهدتيه (آيات)،  
بعد أن أخبرتي أن هذين الموقعين من أكثر المواقع التي ستمتعني في  
ليالي الوحدة حين ينام الكون من حولي وتبقى عينا مفتوحتين..

جريت مرة أن أكسر روتين الترانيم، واستعدت من ذاكرتي الجديدة بضع  
أغان غير كنسية لأسماء مطربين ومطربات لم أعرف مدى شهرتهم  
ونجاحهم الجماهيري حين عشقت أغانيهم وأنا أسمعها لأول مرة،

وحين سألته: لماذا لم تفكر في الهجرة خارج تلك البلاد ما دام ابنك  
وجد خارجها ما أغراه على البقاء هناك؟ ضحك بطريقة لم أفهمها وأجاب:

- التقيت منذ قريب بشاب ابن حلال اسمه شريف، جاء إلى مصر  
في إجازة سنوية حيث يعمل مترجماً في وزارة العدل الألمانية.  
في أحد الأيام كانت عنده مهمة ترجمة 4 قضايا خاصة بمحنة  
القضاء الإداري الألماني.. وبالصدف كانت كل القضايا تخص  
مصريين.. القضية الأولى كانت أسرة مسيحية كاملة، تطالب  
اللجوء لأن رب الأسرة كان يُشارك في تبشير الفتيات المسلمات  
في الصعيد بالمسيحية، وتُسفير من تفتت بالمسيحية منهم إلى  
أوروبا للزواج هناك، وسبب الرغبة في اللجوء السياسي هو الخوف  
من بطش الإخوان وضباط جهاز أمن الدولة الذين يضطهدون  
المسيحيين.

القضية الثانية كانت تخص أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين  
الذي دخل إلى ألمانيا عن طريق صربيا والمجر، وسبب طلب  
اللجوء السياسي: الخوف من بطش أمن الدولة والمخابرات  
وأنصار الرئيس الجديد الذين ينتمي معظمهم للمسيحيين!

القضية الثالثة كانت لأسرة مسيحية صغيرة جميعها تريد اللجوء  
السياسي وسبب الطلب: الخوف من بطش النظام السياسي  
والأحداث الإرهابية وتهديدات جماعة الإخوان المسلمين.

أما القضية الرابعة فكانت لمواطن مسلم معارض للنظام السياسي  
الحكام، وكره لجماعات الإسلام السياسي ويريد اللجوء السياسي  
خوفاً من بطش النظام وتهديدات الإسلاميين.

ثم أبتسم وأنهى حديثه قائلاً:

- أخبرني الشاب المترجم أن القاضية استشاطت غضباً وصرخت  
فيه بعد القضية الثالثة، وقالت: لا بد أن هناك شيئاً ما خطأ..  
فإما أنك تترجم بشكل غير دقيق أو أن كل هؤلاء لديهم أزمة في  
فهم أوطانهم رغم كل هذا العمر الذي قضوه فيها، وبعد القضية  
الرابعة انفجرت من الضحك، وقالت: من المستحيل أن تجتمع  
كل هذه الأضداد في بشر أسوياء.. فمصر والشرق الأوسط في

لكن يكفي أن تعليقات المستمعين والمستمتعين بتلك الأغاني في تلك  
التعليقات، كانت خير دليل على أن ما شعرت به لم يكن أمراً خاصاً بي  
وحدي، إذ خلقت بي أصواتهم، والألحان المصاحبة للكلمات التي يشد  
بها في عالم آخر.. أرضه من الحنين، وسماؤه من الشجن، وهواؤه  
من الصباية، وأنهاره من الشغف، سكانه ممن أصابتهم أسهم العشق  
فاستمعوا بما ينزفون من لوعة وأنين، في صحبة الليل المقمر ذي النور  
الألبح الذي يضيء القلوب ويسر الناظرين رغم مقدار الألم!

ما أن بدأت في غناء مقتطفاتٍ من الأغاني التي علقت بذاكرتي حتى  
انقلب الحال..

بدأت (آيات) الأمر حين دأبت الكمان، ثم تسبل (أندرو) من خلف  
الحن الترانيم وجاء معنا إلى عالم المغنى، وأخيراً لحق بنا (أمير)  
بالدرامز، قيل أن ثنائنا (كريستين) بحضورها وكان القدر يرتب لنا كل  
شيء على مسرح الحياة لتشارك معنا بالبيانو في وصلة غناء وعزف  
لم يشهدها مبنى الخدمات من قبل، ويصنع الجميع ما سموه "بلاي  
ليست" بذائقة الحزن المستتر خلف ابتساماتهم الباهتة، ورائحة الماضي  
الذي رحل بكل شيء حلوا، وترك ذكريات توجعهم حلاوتها بقدر عدم  
استطاعتهم أن يكرروها، فيما شعرت من جانبي بمتعة مع إيقاف التنفيذ  
في ذاكرة لا يسكنها سوى الخواء والتشويش.

لكل ما سبق وجدنتي فجأة أردد:

ساعات بشتاق ليوم عشته وأنا صغير.. لشكلي قبل ما أتغير

لأيام فيها راحة البال.. عشان كنا ساعتها عيال

يبدو أن الأغنية جاءت على الجرح، حتى إن الجميع سرحوا في ذكرياتهم  
وهم يشاركونني الغناء بصوت يملؤه الشجن، وعزفوا على آلاتهم عزفاً  
وترباً بطيئاً زاد من اللحن الأصلي ألماً وؤساً، ومع انتهاء الأغنية أخذت  
(آيات) تعزف بكمانيها الحزين مقدمة أغنية (أوقات) ثم بدأت الغناء  
وحثنتي بعينيها أن أشاركها فرددنا معاً:

أوقات يا دنيا معاكى بعيش.. وساعات ما بفهمكيش

## وإنت ولا فهماني

أنا في عيوننا الدمع ونحن ننظر لبعضنا وننسى الكون كله من حولنا  
والأصل الغناء ببطء وحزن كصوت كورال يضرب المثل في التناغم  
والعهد بين المُردين:

صابر ع اللي يجيرالى.. وإنت لا ليكي عزيز ولا غالي

ثم سال خطان من الدمع الأسود الممزوج بالكحل من عينيها حين خفت  
سرعة إيقاع اللحن المعزوف في اتفاق لم يتفق عليه الجميع ليبدو غناؤنا  
الحرب إلى الهمس ونحن نقول بصوتٍ مدبوح:

أوقات بتأخدي أعز الناس.. وأقول نصيب وخلص

وأصبر على أحراني

سعت الكلام حتى احتضر مع الحرف الأخير، واحتجنا لاستراحة محارب  
وكل منا يسمع صوت نقات قلب الآخر، فكانت فرصة لـ (كريستين) أن  
نخرجنا من سحر وتأثير أغاني (محمد فؤاد) لتضرب أصابعها لوحات  
مفاتيح البيانو ضربات بدت أقرب للزغزغة وهي تعزف عزفاً منفرداً  
سولو وتغني لـ (دينا الوديدي) بصوتٍ بدا شديد الشبه بصوتها:

بعد الليبان في بيبان.. مرصوفة ورا بعضها

أفتح بقلب جبان.. واللا احتمى ف صهرها

رد اللي بعد الباب، قال لي الطريق مفتوح

عدّي الليبان دي حياة.. ما تجوزش غير ليطمّوح

أشعل غناء (كريستين) غيرة وحماس (آيات) فاستهضت إبداعها الذي  
غلبته الدموع، وبدأت في الغناء لـ (هبة طويحي) مع عزف اللحن الرحباني:

هلاً أنا عرفت مين اللي بيختار .. مرسوم ومكتوب بالعالي المصار

هلاً أنا عرفت ما عدت هالبت .. اليوم كبرت وصرت، وحدي اللي يختار

ثم تضاعف حماسها، وحلقت بها المشاعر عاليًا ليزيد اندماجها، وتلجم

في الأغنية أغنية أخرى لـ (هبة طوجي) أيضاً..

مثل الريح والريح ما إليها بيت  
ولا حيك لـو بيت مثل الريح  
نازل بالحوراء تلويح  
ويقلبي دمع وتجرّح

ثم نظرت إليّ وتابعت باندماج شديد ضغطت فيه على أحبالها الصويرة  
لأقصى درجة وهي تخفي غناء بدا أشبه بالصراخ:

أنا ياريت في أغبر الأيام  
أكتب قدري بأيدي ودهري والأحلام  
أنا ياريت في.. أحبس لك المية  
شي ألف خيرتي.. خيرتي للريح

ورغم أنني لم أدخل عقلها، لكن حركات يدها وهي تلعو وتزجج أشياء  
غير مرئية لنا، جعلني أجزم أنها تتخيل نفسها محاطة بعشرات الستائر  
البيضاء، ومع كل خطوة تخطوها تزجج ستاراً جديداً حتى تجدني في آخر  
الطريق المغطى بالستائر وهي لا تزال تُغني:

البارح جمعت لك.. من كل حقلي زهرة  
واديتلك عطرا يا بكرة أو مش بكرة  
رسالة صغيرة.. لا كلمة ولا صورة  
جوانحتها المكسورة.. مرسومة ع الريح

بعدها جاء دوري وقلّت لهم قبل أن أبداً: "زي الملايكة" التي سحرتني  
حين سمعتها من (عمرو دياب).

فعرفت (آيات) مقدمتها الوترية الساحرة بكمائها الذي عانقت نغماته  
نغمات بياض (كريستين) وكل منهما تنتظر إليّ وتسالني بعينيها: "أقصدي  
أنا؟" وقبل أن أشرع في الغناء جاء (ألبرت) الذي تأخر علينا وفي عينيّه  
غضب شديد من هذا الـ DJ الذي أقنعه في بيت الرب!

ذكرنا بأن مثل تلك الأغاني لا تتناسب طبيعة المكان الذي ينبغي أن  
تُرمّ فيه فقط ونمأله بالقدسيات والروحانيات، إلا أن (أندرو) رد عليه  
مستشهداً بالقمص (بيشوي كامل) الذي كان قديماً وفي الوقت نفسه من  
عشاق (أم كلثوم) إلى حد أنه كان يسمعها باستمرار عبر شرائط الكاسيت  
في سيارته، وانتبهت في نقاشهما الساخن كيف أن المرة داخله صراخ  
أبدي بين أنوار الروح وظلام المادة.

الأغاني - بعد كلمات الرب- قادرة على فرض حالة من الهدنة،  
البطن والروح أخيراً حلاً وسطاً يرضي كلا الطرفين في الطريق  
الراحة والسعادة، فقط إن كانت بإحساس صادق، وعزف راقٍ يمس  
الجسد، ويصعد بهما إلى درجة أعلى، وإلا فتكون فتنة تؤدي  
السطوة.

.....

اكتشافات أخرى في ذائق قد تكون مصدراً للرح، وتجلب ضحكات  
الألمين عليك بعد أن كانوا يصفقون لك بالأمس، مثل خب الأكل  
والشرب لدرجة النهم والاستيقاظ في منتصف الليل وأنت تشكو من معدة  
مليئة تكاد تلتهمك بكل شراسة إن لم تلق إليها ما يُخرس عواءها المزعج  
العارب في كل حواسك ووجدانك.

يا لك يا (آيات)..

في عنقك الجميل سيظل ذنبي عالماً للأبد بعد أن عرّفتني بشهوة الطعام  
التي تناولته معك من أشهر مطاعم الإسكندرية، وحوّلتني المأكّل من  
مجرد وسيلة لكفاف الجسد وسد رمقه بكسرة خبز وشرية ماء، إلى تعاويد  
وملاسم يستخدما الطباخون المهرة في محلات الطعام لسحر من يأكل  
ما صنعتته أيديهم وإخضاعه لعبودية البطن، فيتحكمون به ولو كان  
يعط في سابع نومة على سريره، حتى يستيقظ ويبحث عن أرقام خدمة  
التوصيل للمنازل!

لاحظ عم (حنا) ذلك فأخبرني -بعتاب- أن المسيح والأنبياء وكل الأحرار  
العظام الذين صنعوا الأجداد وغيروا التاريخ الإنساني وخريطة النفس  
البشرية كانوا أقل الناس اهتماماً ببناء البطن حتى لا يقفوا عبيداً لنهمهم  
«شهواتهم»، ويضيعوا أعمارهم في البحث عن الطعام وإشباع ملذاتهم بدلاً  
من تحقيق رسالتهم في أوقامهم.

أخبرني عن ذلك الفيلسوف (غاندي) الذي كان أكثر الناس حرية وهو  
ينطلق هنا وهناك حافياً على قدميه، لا يملك إلا مغزل صوف يدويّاً  
بسيط، وكيساً به بضع تمرات، وعزّة يشرب من لبنها ويصنع من  
صوفها أقمشته التي يلفها حول جسده.



هيات لا أعرف الإجابة.

.....  
عبد النقيت بالحاخام (موريس)..

في ذلك حين فوجئتُ به أمامي في مبنى الخدمات، بابتسامته الودودة،  
إذ جاء لزيارة صديقه القمص (يوسف) والاطمئنان عليّ بعد أن  
قضى آخر أيام عمره من شعر -على حد قوله- أنه مثل أولاده بحق..

الرجل حين شاهد معي هاتفي المحمول، وغمز بعينه وهو يسألني  
عن أهداه لي، ثم أعطاني رقم الخط الذي اشتراه في مصر، وساعدني  
في حفظه في هاتفي، مؤكداً أن إقامته ربما تطول لأيام، وعندما سألته  
عن السبب شرد قليلاً ولم يُجب، قبل أن يربت على كتفي ويغير مجرى  
حديثه قائلاً:

انتبه يا ولدي، ففي لحظة واحدة قد يتغير كل شيء!

.....  
اليوم للقاء (كريستين)، بعد اتصالات عديدة من جانبها كانت تبدأ  
بمسابقات مفتعلة وحجج وأهية، قبل أن ينعم صوتها الرقيق الناعم ويصير  
جمالاً وسحرًا، ثم تخطفني وتطلق بي عاليًا مع ضحكاتها المثيرة  
تترك وراءها خرابًا أكثر هولًا من ممار الحروب، لأسألها بأنفاس  
تتمسك بحتضن وقدرٍ على الاحتمال وجدت أخيرًا من يكسرها بما  
تطاقها:

إنّني عايزة إيه؟

- عايزة أقطّعك!

- !!!!!!!!!!!!!

- بهزر على فكرة.

من هزل عابر كشف عن جدّ دفين!

سالت في طريقي إليها على إجابة تلك أسئلة التي دارت بيني وبين  
نفس: هل ستقابلها لتعلن استسلامك بعد أن تحطمت أخيرًا قدرتك على

"خلق الطعام ليكون في خدمة الإنسان، ولم يُخلق الإنسان ليكون في  
خدمة الطعام، ولا يحق للمرء منا أن يصرخ: "أين الطعام؟ لقد فقدت  
حريتي في الأكل والشرب"، إن كان لديه الحد الأدنى من الكفاف، وما  
يزيد عن الكفاف ليس حرية؛ بل عبودية لما تلوح به أيادي الدنيا الفاسدة  
في تحالفها مع الشياطين".

صدقت يا عم (حنا)..

لكني جوعان للغاية!

.....  
تقول المسيحية إننا سنقوم في القيامة العتيدة بأجساد نورانية، روحانية،  
كملائكة الله في السماء، وهو إحساس ينتابني بالقشعريرة كلما حاولت  
تخيله..

هؤلاء الملائكة محظوظون حقًا بقرهم من الخالق، وقدراتهم الفائقة،  
وعيشتهم السعيدة في الملكوت الأبدي.. ترى هل استحق يومًا أن أكون  
مثلهم؟

هل سأخلص من الخطية والحروب الروحية؟

هل سأخلص من المادة، وأخلع هذا الجسد، وأترك العالم المادي كله؟

هل يعينني وضعي الحالي كفافٍ للذاكرة من ماضٍ قد يكون بغيبضًا أو  
كارثيًا؟

وماذا عن الحاضر؟

والمستقبل؟

والاختيار الواجب عليّ اتخاذه في الخطوات التالية لأنال السعادة التي  
يحلم بها كل البشر في العالم الآخر؟

كلها تساؤلاتٌ توّرقني، في اختبار قد ينتهي الوقت المحدد له في أي  
لحظة..

والمه واستحالة حدوثه أو وصوله إلى النهايات السعيدة.

الذين يحملون الزهور، ويستأنون قبل الدخول، ويحافظون على كل ما ينتمي لمنهج الأخلاق الحميدة قد يكونون أناساً لطفاً حقاً ويستحقون الثناء والمدح، لكنهم يؤساء إلى الحد الذي يستحق الرثاء على افتقارهم لكتالوج الحب الحقيقي الذي تنص صفحاته المليار على أنه لا فرق بين العاشق والمدمن، كلاهما متعته الحقيقية في مخالفة القوانين، والسير في الحواري الضيقة والأزقة المظلمة وهم يتلفنون حولهم حذرًا من الشرطة، وبحثًا عن ذلك "الدليل" الذي يدمهم بالمخدرات التي ستكون بلا جدوى أو أهمية إن لم يسبق الحصول عليها الإحساس بالمغامرة، وذلك الأدرينالين الذي يتدفق في العروق لمقاومة الشعور بالخطر، وهو السر وراء انخفاض نسبة الإقبال على شراء المخدرات المغلفة من السور ماركت في هولندا بعد أن جعلت تجارة المخدرات متاحة ومشروعة، والسر نفسه في عدم اكتمال قصص الحب التي تبدأ بـ: أتمسحين لي؟، أو بعد إذنك!

لذا لم أكرث بكل من هاموا بي حباً لأنهم لم يدركوا أن المرأة الجميلة تعشق من يُغازلها بوقاحة.. من ينظر لها بجرأة.. من لا يكرث بأقاويل البشر ونظراتهم إليه وهو يتماذى في التعبير عن إعجابه.. لكنها أكثر انجذاباً وعشفاً لمن تقع عليه عينها وحده، رغم أنه يقف وسط عشرات البشر، ورغم فتنة الآلاف بها فإنه يبادلها النظرات، ويمضي في دربه كمغنطيس لا يُبالي بالمسامير التي تنتاب حوله وتنجذب إليه، حينها فقط تزداد فرصة انجذابهما كقطبي مغناطيس مختلفين مصيرهما الالتصاق إذا ما اقتريا.

قبضت على يدي فجأةً بقبضة قوية محكمة لا فكاك منها وهي تتطلع إلى عيني بنظرة مليئة بالشوق والرغبة، وأردفت:

للحب صيغة مدوخة لا تكتمل أبداً، وكل دقيقة في أي علاقة تعمل ضد الدقيقة التي كانت قبلها وفقاً لناموس الزمن الذي

الصمود؟ أم لنقول لها كُفّي عن هذا الهراء وابحثي عن فريسة أخرى تستسلم لحبك المكشوفة؟ أم لتسترجمها أن تعيد إليك تماسكك وتوازلك اللذين سرقتهما منك بعد أن احتلت جهازك العصبي إلى الحد الذي منه إصبعك من طاعة أو أمرك حين هممت بالضغط على زر إغلاق الخمار وهي تتعدى حدودها معك في أكثر من مكانة؟

وقيل أن أصل إلى الإجابة كنت قد وصلت إلى شاطئ البحر الذي فيه تواعدنا لأجدها تنتظرنني وقد حضرت قبلي لتكون في شرف استقبالي كما قالت باسمه.

كعروس بحر جميلة فُرت من عالم الأساطير، كانت ترتدي فستاناً أبيض قصيراً، يكشف عن ساقين ملبنتين، وذراعين ملفوفتين لم يجدا أكماماً تسترهما.. فقط كانت هناك حمالتا كتف رفيعتان، فيما التصقت حبات الرمال المحلوطة بقدميها الحافيتين المبلتين بماء البحر، وعلى بعد خطوات كانت هناك فردتا صندلها الأبيض مقلوبتان على الجنب بعد أن تحررت أصابعها الجميلة من سطوتهما.

أقنعتني قبل أن يبدأ الكلام بتحرير قدمي أنا الآخر، حتي لا نقيدنا القيود وتكون للكلمات مطلق الحرية في الخروج من الفم دون أن تعبر على أي فلتن من فلاتر التردد وحسابات التفكير البغيضة التي طالما تسببت في خسارة البشر لا سيما حين يتعلق الأمر بالعاطفة.

إذن فقد حانت لحظة المصارحة، وهذا أكثر ما يعينني بعد أن أعلنت استسلامي في محاولات إجابة ذلك السؤال المستحيل: "ماذا تريد النساء؟"

دغدغة في باطن القدمين تسلت إلى نفسي أثناء السير معها بفعل الرمال التي تعشق اللهب واللغو، لكنها وقت الحد تباع خطي الأساطير فوقها وتمحو آثار أقدامهم مع أول موجة بحر تصل إليها، أو أول هبة هواء تحرك حياتها، دون أن يكون لها عزيز أو غالي.

بدأت الحكى الصريح، فقالت:

- الحب مثل المخدرات، إن كان متاحاً مباحاً سهل المنال، فسيزداد البشر ولن يلهثوا خلفه.. قيمته الحقيقية تتناسب طردياً مع عذابه

## مذكرات ايات

لا أصدق أني عُدت للكتابة والتدوين من جديد بعد سنواتٍ طَوَّل استبدلت بها إغواء القلم بقفزة الجسد، وتحولت خلالها من راوٍ ينسج مصائر الشخص، إلى مجرد شخصية درامية بائسة حبيسة المفعول به، وما قد كان الوقت أخيراً لتصحيح الأوضاع، وإعادة رسم خطة الغد بخطوط رياضية، لعلمي أجد في الصفحة الأخيرة خاتمة السعادة معك.

الكتابة ليست سوى استرجاع لحظات نادرة، الحياة نفسها مرّت عليها بشكل عابر ولم تلتفت لها أو تسجلها في سجلات البشر، وأبتكار لحظات جديدة نحياها على الورق قبل أن تدب فيها الروح.. هي تعويض جميل عن كل الخسائر.. إنقاذ مواقف ومشاعر من الاحتضار، وتخليدها أبد الدهر في عالم يزول فيه كل شيء بالموت إلا ما هو مكتوب.

وحين نكتب عن الحب، فالناسُ جميعهم كُتَّابٌ يحاولون استشراف الخطوة التالية، لكن ماذا لو جاء الحب بشكلٍ مآكرٍ في اللحظة غير المناسبة؟

هنا تكون الخطوة التالية مثيرة للشفقة وتشبه عمل الخير للحصول على نعمة الجنة المؤجلة في اختيار وجودي، الرسوب فيه لا يُعطي فرصة أخرى في دور ثانٍ للإعادة، وهذه هي الخسارة المعقدة التي تخاف منها الكتابة، لأن الخاسر لن يجد أبداً ما يعوضه!

.....

كل شيء في حياتي تغير بعد أن ظهرت في عالمي المظلم وأنرت درويهي القاحلة..

عُدت لحضن آباناً (يسوع) الذي لم أهرجه فصب؛ بل مررت بلحظات نسيت فيها أنه موجود أصلاً!

استعدت حريتي وخرجت من سجن الشيكات، وسجن الجسد في آن واحد وصرت كعصفورة بطلق الحرية تحلق في الأعالي بعد أن انقرضت النور والصقور، واختفت من الأرض بنادق الصيادين!

يُضعف من قوة العلاقات، فلماذا لا نجعل الفراق خياراً بمحض إرادتنا لننتقي من بعده طعم المتعة في السنتنا إلى الأبد، بدلاً من فراقٍ جبري ننشر فيه غسيلنا المتسخ أمام العالم شأن كل العشاق الحمقى بعد أن يكتشفوا الوجه الآخر لعملة الحب القبيحة!!

لماذا لا يمنح كل منا الآخر ما يشاق إليه ويمضي في سلكه متصالحاً مع الوداع، بدلاً من الخوف منه بشكلٍ يفقدنا طعم الإحساس بالنشوة في لحظات الاقتراب؟

دعنا نقرب قليلاً ثم يرحل كل منا إلى وجهةٍ أخرى سرعان ما يُبدلها مثل النحل الذي يحط على كل أنواع الزهور فيخرج عسله مُصقًى.. فأنا لا أريدك لي وحدي مثل كل العشاق الأنانيين الذين كلما حاولوا تحقيق هذا الحلم المستحيل كلما كانوا قاصي قوسين أو أدنى من الخيانة أو الفراق.

أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشف مواطني جديداً للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أتق أنه مليء بالأسرار الجديدة بالاكشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذبةٍ مشروعةٍ تقول إننا لم نكن نقصد!

هيا بنا نكذب بطريقَةٍ أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي الحى ورايات العنق الأنيقة الذين يقولون لأنفسهم نفس المبرر

مع كلماتها الأخيرة كنا قد وصلنا إلى شاليه فخم يُطل على البحر ..

أمسكت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لتخرج مفاتيحها وتفتح بابه بسرعةٍ قبل أن تسحبني من يدي بانبثامةٍ ساحرةٍ، وهي تكرر:

- قلت لك من البداية، لا تفكر كثيراً في كل فعل تُقدم عليه، فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرّت على فلتر العقل الذي يُنقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فبئس من يستخدمونه!

حتى (دميانة) المهجنة من لبؤة شرسة وثعلبية مأكرة، صارت هجها آخر يحوي وداعة الحملان ووفاء الكلاب، وإن احتفظت في كائنا الحالتين بخفة ظل القرد، مثل تلك اللحظة التي عادت فيها لسيرتها الأولى حين مصصت ثفتيتها وتندرت على مبريتي من بُخلها ومواقفها القديمة التي لا تنسى معي، قائلةً بعد أقرب للزّل: - تبا لليبين عديمي الأصل، الذين لا يصونون سوء المعاملة!

لكن.. لم يكن تحولها جذرياً إلى درجة تغيير قناعاتها من النقيض للنقيض في كل شيء، فقط تبدلت في طريقة معاملتها معي وصارت أكثر كرمًا وعطاءً بشكل مذهل وكأنها تدفعني دفعاً للاقتراب من هذا الفتى الخارق، بينما ما زال الطريق بينها وبين الأرب وعزاً للغاية، وبعد أن كان مغلفاً للتحسينات، وضعت فيه أكبر قدر من المتاريس والعراقل بإصرار آثار دهشتي وحيرتي كنفس الدهشة والحيرة التي أصابتنى مع تغير نبرة صوته المفاجئ، وتقلب أحوالها على مدار اليوم بين لحظات سقيمة يخني فيها ظهرها وتخدح حركاتها وكلماتها، ولحظات أخرى يدبُّ في جسدها الطاقة والحركة، ويتوهج حماسها مع تلك الكلمات التي بها أكبر حشد من الإقناع والحجج التي تنكر كل ما هو مقدس وتهدم أساسه.

خلتُ أنها ستنتظر للسماء أخيراً وتقيء للخالق على ما بدر منها بعد أن رأت معجزة تحول التراب إلى ذهب بفعل قلب مؤمن حق الإيمان، فإذا بها تزيد إصراراً على التعتن والعناد إلى حد تحولها من ناقمة على الرب الذي تخلى عنها وتسبب في الكراهية بين البشر -على حد زعمها- إلى ناكرة لوجوده بأدلة بدت أكثر عقلانية وحرفية في الإقناع، لا أعرف متى وكيف اكتسبتها، لكنها أربكتني للغاية وأنا التي تركب مركباً بدائي الصنع في بحر الإيمان متلاطم الأمواج، لا يحتمل شراعي رياحاً قوية، ولم أتعلم بعد السباحة في مائه إذا ما سقطت مجدداً، وقد نلت من الغرق في وحل الماضي ما يكفي، فكنت أفقر من حصار كلماتها وسخف إصرارها إلى دين عينيك الذي رسخ إيمانه في قلبي إلى حد يكفي أن أكون نبيهةً تبشر بها الإنسانية كلها، لكنني لن أفعل لأنني لا أريد أن يؤمن بك سواي، لأحصل وحدي على جنك التي لا أقبل أن ينازعني فيها أحد.

فكم مقدس أنت، حتى إنني أفكر في خلع نعليّ حين تجول بخاطري!

عينايا تحرقانني، ونعاس الدنيا كله قد حل عليهما.. تبا للنعاس الذي

يأتي دائماً في أوقات غير مرغوب فيها وجوده، فيفرض نفسه كمحبٍ لزجٍ الارتباط بمحبوبته قسراً.

(هااااااوم) حسناً.. ها أنا أعلن استسلامي.. سأخلد إلى النوم ثم أعاود العناية عنك غداً..

كلا.. لم أستطع النوم والعقل والقلب يفكران فيك بيقظة أقوى من سلطان الناس، والقلم يتجلى عليه الإلهام في صورته البكر المليئة بالإبداع.. سأعاود الكتابة إذن بعين مغلقة وأخرى مفتوحة، بعد أن دقت معك متعة الكتابة التي أسمع فيها صوتي وهو يحكي، وجعلتك بطلي الوحيد في قصة ليس فيها سوانا..

كيف لي أن أنهي قصة أنت بطلها!؟

.....

أبحث وسادة كل منا حقيقته التي لم يقترب منها بشر.. دموعنا الحزينة التي لم يشهدها أحد حين دفنا فيها وجوهنا وباحت الصدور بأصوات القهر والذهنية، دعواتنا التي كنا يوماً مستعدين أن ندفع أعمارنا بأكلهم ونضحى بكل ما نملك من أجل تحقيقها، لومنا وعتابنا للسماء في لحظة صراحة مع الرب الذي غضبنا من تأخره في العطاء بقدر ثقتنا في قدرته على الإجابة..

إذا كانت أطرافنا وحواسنا ستشهد علينا يوم القيامة بما اقترعنا بها في الدنيا، فاسألب من الله أن يستنطق وسادتي التي لم أنفذ بها الخطايا لكنها تعلم ما وراء الأفعال والأقوال بينما كانت الأطراف مجرد أدوات تُنفذ بلا فهم..

أه لو تحققت المعجزة وبعث المسيح من جديد في هذه الدنيا.. سأسألب منه أن يخلق فيها الروح مثلاً أحيا الموتى ذات يوم، وعندها ستعلم يا حبيبتي من هي عاشقك حقاً وصدقاً، مثلاً نظر يسوع إلى المجذبة وراها من الداخل!

.....

حتى بعد إسدال ستار النوم على عيني بشكل مباشر وكان أحدهم جذب



مقيس الحياة وفصل عني تيار الوجود، ما زلت أراك أمام عيني وكان صورتك البهية قد تزوجت من مقلتي عيني زواجاً قبطياً لا انفصال فيه في اليقظة والنوم، فازاحت كل ما عداها من صور، وصارت هي أصل الأشياء وكل ما دونها مجرد استثناء وشذوذ عن القاعدة.

الفارق الوحيد بين الواقع والخيال، أنني أراك الآن في أعظم لحظة في تاريخ البشرية..

أما (حواء) تتأبط ذراع أبينا (آدم) في يوم القيامة على باب الفردوس ينتظران إتمام مراسم الدخول، وفريق هائل من الأطفال بيض الملابس يقفون على جانبي جسر عظيم تسير عليه البشرية ببطء وحذر، من تحته جهنم التي يتساقط فيها الملايين، وأنا وأنت نسير ببطءٍ وداخلنا اليقين في أننا من الناجين..

فجأة أصابتي طاقة غريبة حوّلت جسدي المادي إلى جسد نوراني اندفع سريعاً للأمام ليعبر الجسر ويصل إلى بر الأمان وحيداً، وحين نظرت نحوك رأيتك لا تزال تخطو بخطوات ونيّدة متمهلة في منتصف الطريق، ثم إذا بالآلة كمان تهبط عليّ من أعلى، وصوت عميق يقول لي: فلتعزفي مقطوعة موسيقية تليق بلحظة دخول الجنة!

بدأت يداي بالفعل في العزف على الكمان النائمة على كتفي، وصاحب عزفي همهمات عميقة ذات طبيعة أوبرالية جعلت من الأمر ما يشبه الملحمة في اللحظة التي انفتحت فيها أبواب الفردوس على مصراعها ليلسبب الأطفال بيض الملابس من على جانبي الجسر ويكونوا أول من يدخل، وخلفهم توافدت باقي البشرية في الدخول، فيما قرر (آدم) و(حواء) أن يكونا آخر الداخلين بعد الاطمئنان على نسلهما.

حمداً للرب، ها أنت تصل يا حبيبي إلى نهاية الجسر، لكن..

نظرة (آدم) المريبة نحوك لم تطمئنني، وحين أشار بحزن نحو يدك، انتبهت بدوري لأول مرة إلى تلك التفاحة التي تمسكها ويدو أنه مقصوم منها جزء كبير..

توقفت بدوري عن العزف، في اللحظة التي نظرت فيها بدورك إلى التفاحة التي تمسكها وأنت ترفعها أمام وجهك ببطء وكأنك تفاجأت بها

من الله لها من قبل، وتبادل كلانا نظرة ملتاعة قبل أن ينهار الجسر الأخير الساقطين بعد أن كان بينك وبين النجاة خطوة واحدة، فأخذت أصرخ وأصرخ وأصرخ، ثم أستيقظ من النوم وأنا أردد: "بسم الصليب.. يمكن أن تكون هذه النهاية"، ولم أدر وقتها لماذا خيل إلي أنني سمعت أصوات مجلجلة من (دميانة) رغم أنني حين نظرت نحوها وجدتها تغط في نوم عميق!

.....

بداول عمري محرومة من خيار الحظ في حياتي، لكنني لم أكن أعرف الحظ يكرهني إلى هذه الدرجة إلا حين زارنا في السطح ذلك المندوب من إحدى شركات مساحيق الغسيل الكبرى.. سال عن نوع المسحوق الذي نستعمله، فوجدنا نستعمل مسحوق شركته.. طلب 5 أكياس ليتأكد والمفعول كان لدينا وأعطيناها إياه، فكانت الهدية رحلة حج إلى أراضي المسلمين المقدسة!

هذه بلا فخر الجائزة الوحيدة التي فزت بها في حياتي.. لذا تركت الرد المناسب عليه لـ (دميانة) وأنا اضحك بشدة، وكم من ضحكة يختبئ خلفها حزن عميق، أو غيظ مكتوم، أو حجة مهزومة فشلت في فرض نفسها على السامعين، أو خجل من حقيقة لا يمكن نفيها أو التبرؤ منها، أو خليط من هذا وذاك.

.....

منذ نجاتي من برائن (ريمون) ورجاله، وأنا عديمة الاعتناء بجسدي الذي كان رأس مالي ذات يوم.. فما أسوأ أن يُذكرك جسدك الذي يتعين عليك مشاهدته كلما نظرت للمرأة بمأساتك وماضيك، فلا أنت تستطيع أن تخلع وتغير هذا الجسد الذي ترتديه روحك، ولا أنت بقادرٍ على التصالح مع الماضي.

لهذا السبب طالعت شعيرات ذراعِي، ورجلي، وبطني، وعانتي، دون أن أخشى من اشمزاز الزبائن، لكن حين تخلّلتك معي في لحظة سيهاديني بها القدر وتساوي في سعادتها شعوري وأنا أسمع اسمي في كشوف الفائزين بدخول الجنة، كلما كان التخلص من هذا العار فضيلة واجبة.. فاستعادة أنوثتي فرضٌ أساسي في عقيدة التعبد في عينيك التي لا يجب

أن تقع إلا على ما هو جميل.

مع كل شعرة أنزعها من جسدي بوسيلة إزالة الشعر التقليدية التي تأخذ من الحلاوة أسماها، وتخفي في باطنها الألم الشديد، كنت أتأوه بشدة لوجع لم اعتده يوماً بعد مرور كل هذه السنين، لكن عينيّ المغمضتين كما ترىان في خيالهما صورتني وأنا أرتمي فستان الزفاف الأبيض العاري، وكشف عن جسدي الأملس الناعم، فينتزعني الخيال من هذا العالم الكبري بكل ألمه، كما يُنزع الشعر الزائد من الجسد.

.....

وما زالت مأساتي مستمرة، مع الصور الفوتوغرافية التي لا يُعجبني فيها شكلي، دون أن أجد إجابة لذلك السؤال الأزلّي: لماذا لا أظهر في الكاميرا بنفس الهيئة الجميلة التي أراني بها في المرأة؟

ما فائدة وجه البطة والغمزة والقيلة والكثف البارز المائل للأمام مع نظرة إغراء وغيرها من إماءات وحركات أستكشف بها ما أبوء عليه وأنا أجربها أمام المرأة كبروفة للحظة زمنية أريد تخليدها في صورة، فإذا بالصورة في كل مرة أقرب لشوقي المكوّج مني؟!

ترى كيف أبوء في عينيهِ اللتين ترىاننا بشكلٍ يختلف عن عدسة الكاميرات وزجاج المرايا؟

.....

رغم كل المخاوف من رجال الشرطة، ورجال (ريمون)، والمخاطر المجهولة الأخرى التي لا نعلمها ويعلمها القدر الذي ربّينا لنا، طلبت منه أن نقضي يوماً معاً، بعيداً عن أعين كل من نعرفهم ويعرفوننا لأذوق طعم القرب منه بمفردي، دون الحرج من نظرة قس، أو خادم.

صحيح أن الكنيسة وخدماتها في وجوده صار لها طعم آخر، لكن حتى ملكوت السماء لا نستطيع أن نكتفي به طوال الوقت ما دمنا نسكن الأرض بعدد... ثمة أمور أخرى فينا لا تشبعها الروحانيات وقد خلّقت النفس في جسد حيواني كثيف له مشبعات أخرى غير الدين، لذا يبحث عنها -رغمًا عنه- خارج دور العبادة.

فوجدت أن داخله نفس الاحتياج، ورغبة شديدة في البحث، لكنه لم

سبح إن كان البحث عني أو البحث معي.

أمام مبنى الخدمات في تلك الساعة التي تسبق شروق الشمس، يغادر المكان في حماية جُح ظلام الساتر، وأنا أرتمي قبعة كبيرة ذات قرص عريض، وسروال قصير من نوعية الـ"برمودا"، "سهل الخلع في أي لحظة أود فيها أن أسير معه حافية، وعلى حقيبة كبيرة بها فستان أحمر حمالات، من قماش ستان لامع لينةاسب السهرة، وجورب شيفون أسود أعشق منظر رجلي فيه مداداً لارتدائه حين يحل الليل بعد أن نمضي معاً يوماً بأكمله من أجل ليالي العمر..

أرتمي فور أن وقعت عيناها عليه سعادة الكون كله، غير مصدقة أنني سأنال شرف مواعده وصحبته بعيداً عن الصخب، والعراك، والدم، السطامع، وتلك الحيوانة التي تحوم حوله واسمها (كريستين).. فصحيح أني لم أدرس طب بيطري، لكن لدي خبرة لا بأس بها في الكلاب المصابة.

مصنوع يوماً استثنائياً يُباهي به الله ملائكته ومن يأتي من بعدنا من البشر، ليعرض عليهم تفاصيل هذا اليوم، قائلاً: "لم لا تكونوا مثل هذين القلبين؟"

يوم بلا ذنوب وخطايا.. تتحقق فيه الأماني المشروعة، وتستجاب فيه الدعوات، ولا تعرف القلوب الضيم.. يومٌ تفصيل على مفاصل قلبينا.

هوجي حين التقاني بألة الكمان في جرابها المعلق على ظهري، فابتسمت ابتسامة لم أشاهدني وأنا أتبسّمها، لكنني خلّت أنها كانت رقيقة صافية كقلب طفل طاهر حين قلت له: "سأغني لك وحدك، وأعزف لك وأنت تغني لي بمفردي، في تلك اللحظات التي سفتقتصها على بحر خاوم من البشر وكأنه خلق لنا وحدنا، فيما نامت كل العيون حولنا واستيقظنا معاً قبل باقي المتطفلين".

وحين صعدنا تلك الصخرة في قلب البحر، أخبرته أن لي فيها ذكريات أليمة حين كنت أناجي البحر مناجاةً حزينة بدموع لم أجد يوماً من يسحبها، لذا أردت أن أمحو بخابري السعيدة التي تكتبها اليوم لذاكرة الغد، ذكريات الأمس البائسة التي كتبتها الأقدار لليوم.

ثم أخرجتُ الكمان وقد بدأ نور الشروق يتسلل في السماء على استحياء..  
خالقًا لوئنا رماديًا حائرًا بين الظلام والضياء، وطلبت منه أن يختار أغنية  
أعزفها له، فأختار (دوريني) التي أعشقتها لفرقي الـ (مغني خاتنة) رغم  
أنها كانت تحتاج إلى بيانو، لكني أعطيت لمقدمتها طعامًا آخر بلمساتي  
على الأوتار قبل أن يختلط صوته بعزفي قائلاً:

دوريني في عقل بالكَ .. في الرخام أو في الكلام

في الدولاب المستخبي .. جوة في أوضة المنام

دوريني في أسطوانتك

غفوة كل كلامها عنكَ

في عينيكي وف مرايتك

أو في كشكول الغرام

كدت أن ألقي الكمان، وألقي نفسي في حضنه.. فتمة أصوات جميلة  
من فرط فتنتها لا يكفيها التصفيق وكلمات الإنشادة والإعجاب، ويكون  
الحضن هو أقل جائزة تمنح لها، لكني تماكنت نفسي بمعجزة ورددت  
على عظمة صوته ومشاعره بأغنية (حيلة أمل) التي عزفتها وغنيتها  
وعيناى سارحتان في ملكوته، وقد شعرت بكل حرف فيها وكأنه كتب  
لي وحدي:

معلقٌ روحه ع الشماعة جنب الباب  
وسايب باب ماضيه المَر متوارب  
كعبه اللي دار ف الدنيا لف وداب  
ساب للحياة الحبل ع الغارب

”جرينا الغناء كثيرًا، فما رأيك أن نرقص؟“

القيتُ عليه سؤالِي وقلبي يخفق بشدة، وأنا أنتظر أن يقول: ”لا مانع“  
لأرتمي في حضنه ويقترب قلبيانا فيتهاما بشكل مباشر بعيدًا عن لغة  
الأسن القاصرة التي لم تُخلق للمحبين، لكنه سأل بحيرة: ”كيف؟“

هكذا

وأنا أضع الكمان على الصخرة، وأشغل على هاتفِي المحمول أغنية  
”حبيبي“ لمطربتي المفضلة (هبة طوجي) ثم ارتيمت في حضنه فور  
بدا الأغنية لأراقصه على اللحن الرجائي والكلمات التي كتبها عاشق  
الوقت:

يا حبيبي .. كل ما في الصمب نادى

يا حبيبي .. ومضى الموج وعاد

وأنا في موج عينيك شرع يتهادى

ول أن يُجاريني بخطوات مرتبكة داست فيها قدمه على قدمي الحافيتين،  
تسببت في غرس الصخر فيهما، لكني كنتُ في عالم آخر منزوع الألم  
الشاوره، وقد هامت عيناى في عينيه غير مكترثة بخطواته التي أخذتُ  
أسحبها بشكل عملي دون أن أنبس ببنت شفة حتى لا أقطع صلاة  
الهب المرتلة في تلك الأغنية:

عند أبواب المدينة ينتهي النسيان

وأنا والليل

أنا والقرصان

والمحبون على أرصفة البحر

يحاز من سكبنة

تركوا الشارع بيكي

تركوا الأرض الحزينة

والمصابيح الحزينة

أبحروا صاروا سفينة

أثرى نحن الـ هرينا

أم تراها هربت فينا المدينة

بدأ أدأوه يتحسن، كعقري يُحسن التعلم والمُحاكاة بشكل مذهل، ليراقصني  
في النصف الثاني من الأغنية باحتراف شديد وكأنه يرقص طوال عمره،  
ثم ترك نفسه مثلي وحن دوره ليهم في عيني هو الآخر مع نغمات  
الأغنية التي تصعد بنا في سماوات طلبنا من ربنا أن يوقف الزمن فيها  
عند تلك اللحظات حتى يؤديها إلى أبد الأبدين وصوت (هبة طوجي)  
يتردد داخلنا:

يا حبيبي .. وتعال تعال

يا حبيبي .. إن أيامك عطر

وانتظاري.. لك خمُر  
ليس بالسُكر ولكن فيه سُكر  
ليس بالنهر ولكن فيه نهر  
له في القلب هدير  
في الهُدُيات هدير  
ف تعال تعال

توقفت الأغنية لكن قلوبنا لم تتوقف ونحن نلتهم بعضنا بالنظرات.. كل شيء فينا يذوب ويتفتت.. الزمن يذوب، والمكان يذوب، والعقل يذوب، والقلب يذوب.. تعطلت اللغة، وحل محلها سكوت ناطق معبر، ونحن في غيبوبة صاحبة تكفي فيها اللحظات عن التذاعي، والكون كله ينصهر في إحساسٍ عميقٍ بالنشوة والسعادة والانتصار.

حتى وإن كانت النشوة معك يا حبيبي لحظة واحدة، فستصبح كالأبد، وتستمر ما حبيت ماثلة أمام الشعور، ممتزجة بصحوي ونومي وأحلامي وهذائني، ملتصقة بكياني الداخلي دون أن تنفضها مغصات الحياة أو تذكر صفوها الظلوف الصعبة ولو عشت ألف عام، فالشعور بحبك أصبح بعضاً من نفسي، أحيا بحياته، وأموت بماته.

قال لي بابتسامة خالية أضاعت فيها عيناها الذهبيتان أكثر من شمس الصباح:

هل تعلمين.. كنت أحسد الملائكة على قدراتهم ومكانتهم في الملوك، لكن ثمة أموراً اكتشفتها معك جعلتهم أخرى بأن يحسدوا لو كان يجوز لهم ذلك.. فالإنسان يستطيع أن يعزف، يكتب، يرسم، يدع في شتى ميادين الإبداع.. يلبس السماء دون الحاجة إلى أجنحة وهو يغني ويرقص في لحظة سعادة.. لديه القدرة على الحب والحنن اللذين ينفذان إلى القلب ويكشفان عن ذاتنا العميقة، ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنا الدفينة المختبئة خلف أجسادنا التي ترتديها قمصان من الجبس المقيدة للحركة والانطلاق، فتدرك بما يخفق به القلب من حب يبقى بعد الفناء، وما يبدعه الخيال من فنٍ خالد أننا نحتمي على بذرة الخلود في دواخلنا، ونحتوي على الأبدية في قلوبنا.

وحين نظرت معه للسحاب الأبيض الخلاب في الأفق، شعرت أنني أراه

مرة على حقيقته، بعد أن كنت أعتبره -سابقاً- مجرد ضمام من الشاش الأبيض على وجه صفحة السماء المصابة بلعنة الناقمين على القدر!

بها كنت أتجه معه إلى محل (محمد أحمد)، أشهر محلات الفول والماقل في إسكندرية بأكملها، والذي انشئ في الخمسينيات بشارع مصر متفرع من شارع (سعد زغلول) بمنطقة (محطة الرمل) وسط المدينة، ومع مرور الوقت أصبح أحد أشهر معالم مدينتنا، وأخبرته أن قمارنا في نزهتنا المقبلة سيكون في محل (ألبان سويسرا) بشارع (دورسيدي) في (كامب شيزار) حيث طيق (السوق بالجينة) الذي يُعد قمة مكتملة الأركان!

طابت لنفسي طيق فول بالزبدة، واختار لنفسه واحداً بزيت الزيتون، لكن من ذاق من طريقي طلب التبديل!

طريقته وهو يأكل الفلافل الساخنة لتذوب بين شفثيه الورديتين كانت ماهرةً بألف كتاب، حتى حين سئل بعد أن أكل المخلل، وبرت عيناها وأخذ يهوي ببديه أمام وجهه قائلاً بطفولية شديدة: "يح"، كان في تلك الحالة أيضاً وسيماً جذاباً، وكان فتنته عصية على أن تشتتها مقارف البشر.

هذا الفتى يُشعرنى كلما التقيته وكأنه ولد الآن، ويعيش الحياة لأول مرة!

هل أن أحاسب ونصرف ثرثرتنا قليلاً فأخبرته أن هذا المكان زاره العديد من المشاهير في مجالات السياسة والفن والأدب، منهم الملكة (صوفيا) ملكة إسبانيا، والمطرب اليوناني العالمي ذو الأصول السكندرية (ديميس روسوس)، والأديب العبقري (نجيب محفوظ) الذي تعلمت من رواياته الكثير وما زلت أتخصس منها طريقي في لحظات الكتابة، والفنان (فؤاد المهندس) الذي كتب تعليقاً بعد تناول الطعام، وضعه صاحب المطعم في بروزان بصالة الطعام قال فيه: "كلمتين ويس.. الفول يجئن"، لكن ذاكرة بطلي الممسوحة للأسف لم تقف عند أي اسم منهم، فتساوى في أذنيه وقع الأسماء مع أي اسم آخر غير رنان.

.....



ألا يوجد أصدقاء مسلمون لديك؟

عالمي سؤاله حتى أنني ظلت أحقد فيه ثواني، فتابع:

أنت عيناى اللتان أرى بهما عالمي الجديد.. لقد تعرفت على مسيحيين بما يكفي، وحتى اليهود الذين من النادر العثور عليهم في هذا الوطن، التقيت بهم بصدفة قديرية غير متوقعة، لكنني لم أقابل أحداً من الأغلبية التي تملأ أرجاء تلك المدينة بعد، وأردت معرفتهم عن قرب.

سألت في كلامه وأنا أعوذ بالزمن، وقلت:

في وقتٍ من الأوقات كانت كل مشكلتي أن كل من حولي مسلمون، لما كنت أنا المسيحية الوحيدة في مؤسسة الأحداث.. لم يكن لديّ حتى إنجيل أقرأ منه، والصليب الوحيد المتاح لي كان هذا..

أدعيت ذراعي ليرى ذلك الوشم الصليبي المحفور في جلدي ثم تابعت بالرسامة حزينة:

أن تكون مسيحياً يعني أن تتقبل بصدر رحب تلك النكات التي يقولها المسلمون علناً عن القسيسين والرهبان والقديسين بل ويسوع أحياناً، لأن مسيحننا غير مسيحيهم بكل تأكيد.. وتضحك أحياناً لأنهم اعتادوا أن يجعلوا إهانتهم خفيفة الظل رغم قساوتها وألمها.. أن ينادوك بالكفّس، أو الأربعة ريشة، وتعتبر أن هذا اسمٌ حركي مازح لا يقلل منك ولو من باب خداع النفس.. كان المسيحيون يضعون الصليان وأيقونات الشفاعة والقديسين حتى يتباركوا بها، لكن مع الوقت أصبح هدفهم من ذلك هو الإفصاح عن مسيحيّتهم أمام الغرباء حتى لا يسب أحدٌ في المسيحيين أمامهم على الأقل ويكتفي بسبهم في غيابهم.. وفي الوقت نفسه، من يقولون في وجهك بضحكة سجمة: "إنت كافر ورايح جهنم أساساً"، ستجد منهم مواقف لا تُسمى من الشهامة والإنسانية إذا ما مسك سوء أو احتجت منهم خدمة!

باكداج عيشة عليك أن تأخذها كما هي في هذا الوطن المجنون

يقولون إن البن هو علامة عمق الأماكن، يصبح شهيئاً وتقبلاً في الأماكن العريقة ذات الأصول التاريخية مثل العطارين، والمنشية، ومحطة الرمل، وشانها ومانعاً في الأماكن الوليدة مثل سيدي بشر، ومول سان إستيفانو، وذلك الملهي الحقيق الذي كنتُ أعمل فيه، وقريباً من راحة الجنة عندما يكون برازيلياً، لذا اقترحت عليه أن نحسني فنجالين من القهوة في محل (البن البرازيلي) ونحلي بـ "شيز كيك".

وحين رشف أول رشفة، كاد أن يسقط فنجاله وهو يغمض عينيه ويهرأسه مشائلاً: "ما هذا المرار؟"، فأجبته: "وأنا في الأحداث قالت لي مشرفتي أحبي القهوة، فسئلكم كيف تُعجبك المرارة وتستمتعين بها!"

ثم رآن علينا صمتٌ لم يقطعه سوى صوت (فبروز) جارة القمر وهي تشدو بكلمات (جبران خليل جبران) الخالدة على الحان (نجيب حنكش) المسروقة من لحن السماء:

هل تخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور

فتتبع السواقي وتسلقت الصخور

هل تحممت بعر وتشتفت بتور

وشريت الفجر خمراً في كؤوس من أثر

حاولت وأنا أسمع أن أفر من نظراته إليّ أو نظراتي إليه، لكن.. كل الطرق كانت تؤدي إلى عينيه.

استغرقت الكلام لفترة لم أكثرث ما بها من دقائق بقدر ما اهتممت بما فيها من دواء الوصال ومتعة الاقتراب من تحقيق الهدف.. إنه سحر البدايات في كل قصص الحب الذي يجعل كل شيء حولنا يبدو جميلاً وكأننا نكتشف الحياة لأول مرة بذات الدهشة والمتعة التي كانت تتناوب ونحن صغار.. الضحك الصاخب لأسباب قد لا تستحق.. ذقات القلب المدوية والمتلاحقة مع أبسط فرحة.. تصويب النظر والتحديق في البشر والأشياء حولك مع رغبة عينيك الدووبة في سبر الأغوار والوصول إلى ما خلف مستوى الرؤية.. رغبنا العارمة في لمس كل ما حولك وكأنك تريد احتواء الكون كله في كفك الصغير.

سألني بغتة:

الذي لا تنطبق عليه دراسات علم النفس والاجتماع، وحتى الآن هنا في مصر -أي دين- لديه نكهة وقواعد مختلفة، رغم أن معلوماتي الدينية سطحية جدًا.

وبعد خروجي من الكنيسة وعملي بمكتب الجرافيك اكتشفت أن هذا الجنون تحول من العلاقة الثنائية بين المسلمين والمسيحيين إلى كل الأديان.. في داخل كل دين ستجد فرقاً منشقة تختبئ الحقيقة وتكفر من دون سواها.. سنة، شيعة، أرثوذكس، إنجيليين، وشهود يهوه.

سأقول لك نكتة تختصر كل ذلك.. عندما قامت القيامة وبعد انتهاء الحساب، وقف ملاك على باب الجنة يسأل الناس: أنت أرثوذكس؟ فمن يجيبه بنعم يتركه يدخل، وحين قال له أحدهم: "لا" صاح فيه الملاك: لن تدخل، وبعد انتهاء اليوم دخل الملاك فوجد الرجل الذي أخبره أنه غير أرثوذكس في الجنة، فقال له: "كيف وصلت إلى هنا؟ ألم أمنعك؟"، فقال له الرجل: "وجدت ملاكاً آخر جعلنا نقفز من على السور".

وبعد انتهاء النكتة ظل صامتاً، فسألته:

- فهمت حاجة؟

فهز رأسه بنعم ولا!

في خطوتنا التالية لم نجيب فتاي الأسطوري بمحلات الملابس في شارع (مصطفى كامل) رغم فخامتها من الخارج والداخل، ربما لأنها بدت عصرية أكثر من اللازم وصاحبنا اعتادت عيناه على كل ما هو مرتبط بالعراقة والتاريخ، أو لأن الحداثة جعلت المكان كأنثى صاروخية الجمال، لكن بمواصفات اصطناعية من صنع السيليكون والمؤخرة البلاستيكية.

على أي حال لم نغادر المكان إلا بعد أن ألححت عليه أن أشتري له طقمًا جديدًا من تلك المحلات، سروال جينز كحلي، قميص لبني كاروهات، بلوفر تركب أبيض شبكي التطريز بفتحات واسعة تبرز القميص الملبوس تحت منها، وكوتشي adidas أبيض، ليبدو بعوده الفارع، ومنكببه العريضتين، وعضلاته المفتولة، وشعره الكستنائي الناعم في هذا الطقم أجمل وأوسم من (براد بيت) و(توم كروز) و(ليوناردو دي

البري) حتى إن المنطقة قد انقلبت -بلا مبالغة- رأساً على عقب.

حين جان موعد الغداء اقترحت عليه محل (هولمز) الذي أكلت عنده أطعم ساندويتشات برجر في حياتي.. انتجنا إلى شارع (سوريا) في ساحة (رشدي) ثم وصلنا إلى ذلك المحل الضيق لكن بين حوائطه الرائعة متعة تسع للندى كلها.. بالطبع لم يفهم قائمة الساندويتشات ذات الطعم الأجنبي، فاخترت له Cheesy Mushroom واخترت لنفسى Bloody Hell بالهالابينو وصوص الفلفل المسكر، وخلال انتظار هورز الساندوتشين على نغمات أغانيهم الأجنبية الرائعة التي يختارونها نحن في عال، أخذت تأمل تلك الأوراق المستطيلة الملصوقة على حائط المحل كتذكارات وانطباعات مكتوبة من الزبائن لتخليد لحظات سبعة قضوها في هذا المكان، وضحكت كثيرًا حين قرأت جملة كتبها أحدهم باللغة الإنجليزية: **It teaches you how to make sex with Stomach** وقيل أن أترجمها له قال: "إنها تعني أن المحل يعلمك كيف تمارس الجنس مع المعدة"، لأكتشف أنه يجيد الإنجليزية، وربما لغات أخرى في بحر مفاجئته التي لا تنتضب.

أخذت قلمًا وورقتين، وطلبت منه أن يكتب كلانا ما يجول بخاطره لنحذو هذو من سبقونا ونترك كلماتنا لمن سيأتيه بعدنا.

أهمك كل منا في الكتابة باهتمام شديد وكأننا في لجنة اختبار ثانوية عامة، وبعد انتهينا أعطى كل منا للآخر ورقته ليقرأها فسمعت صوته في كلماته المكتوبة:

- أجمل ما في الحب بداياته التي تسبق الاعتراف به بشكل صريح.. وأسهل ما فيه أن تكون له نهاية حتى وإن كانت سعيدة.. فالسعادة يضيئها الملل والاعتقاد، وإن حافظ عليها المحبون تبقى كسلة مجمدة، فقدت حيويتها وفائدتها، فليت كل العشاق يحبون من البداية إلى البداية!

سرحت بشدة في كلماته العميقة التي ولدت من طفل بدرجة فيلسوف، وخمل بقوة تتين، وتساءلت في نفسي: "كم تجربة خاضها هذا الفتى العاشق ليصل إلى خلاصة الحب بهذا الاحتراف؟"

كان هذا قبل أن أنظر إليه وألاحظ تأمله أيضاً لكلماتي المكتوبة التي جاء فيها:

العلاقة الجميلة تقوم على ما لا نؤمن به، ما لا نفهمه، وفي كثير من الأحيان على ما نحتقره أمام الآخرين، كمن تخلت عن كبريائها وشعورها بالاشتمزاز حين خلعت جوربي حبيبي ووضعت قدميه في إثناء لتغسلهما وتدعك أصابعه بكل الحب، أو ذلك الذي تخلى عن كرامته وركع أمامها على الملأ ليطلب منها الزواج، وحين اختلجا ببعضهما في ليلة الزفاف، جثا على ركبتيه وحرر قدميهما من حذاءها الأبيض وطبع بشفتيه عليهما قبلة رقيقة بكل الحب والسعادة.. وهذا ما يُعطينا الأمل في أن الحب لا يعرف المستحيلات، ويؤمن قلبي رغم فارق المسافات.

وبدون اتفاق مسبق، وضع كل منا ورقة الآخر في جيب ملبسه، ولم نلصقهما مع باقي الورق المصقوق، وحين لاحظنا ذلك اكتفينا بتبادل الابتسامات التي خرجت من القلب بطعم كل شيء جميل من ثمار الجنة التي لم نذقها بعد، وإن كنا قد حصلنا الآن على تجربة مصغرة لمذاقها.

جاء النادل وأعطانا الساندوتشين الضخمين جدًّا، ومع كل ساندوتش قفاز بلاستيكي، طلبت منه أن يرتديه، وأخبرته أنه سيعرف فائدته فور أن يبدأ الأكل، وحين تدفقت الجبنة من كل جانب وعزقت شفتيه وأنفه ودفقه ابتسم وقال إنه فهم، فاقترنت تلك اللحظة بكاميرا هاتفي النقال.

وحين زحفت الشمس المطعونة بسكين الغروب تاركَةً خلفها نريقًا من الطيف الأحمر في الأفق، وحين بدأت سائتر الليل في النزول تدرجياً استقلنا مشروعا\* إلى (المنتزه) حيث (روستري كافيه) الذي أبدلت فيه ملائسي بفستان السهرة الحمالات، وتذكرت وأنا أرتديه حين كنت أحلم وأنا صغيرة بذلك الزيف الفسيولوجي الذي لا تنسى أي امرأة على وجه الأرض أول ميعاد فاجأها فيه، ليسقي أرضي البرينة ويثبت ثمار أنوثتي، ويغريني على وضع الكثير من أحمر الشفاه بلون الكرز اللامع، وأرتدي فستانًا أحمر ذا حمالتين كنف وظهر عار، وينحسر عن رجلي إلى ما أعلى الركبة، فيما ترتاح قدماي الجميلتان ذواتا الأصابع التي يعشقها

\* يطلق أهل الإسكندرية على الميكروباس كلمة (مشروع) اختصارًا لجملة (مشروع النقل الجماعي).

الرجال في كل النساء، لا سيما حين تكون أظافرها ملونة بطلاء شفاف في صندل أسود ذي كعب عال، وخيوط تلفت حولها كأخطبوط يستمتع وحده بطعم أنوثة فريسته، لأجذب الأنظار العلوب حولي بينما تمطر على أسماعي كلمات الغزل والإعجاب السعادة، وحين ضللت عني أحلام المراهقة وشيخت قبل الشباب، استلمت الأمانى فقط في أن أجد في هذا الكون حُصنًا يحتويني، وها

من دورة المياه أنثى مكتملة الأركان في الوقت الذي عملت فيه Lana Del Rey للرائعة Old Money، وفي طريقي إلى جذبت في طريقي كل ما حلمت أن أجذبه يومًا من نظرات وتمتمة على موائد الشباب، غير أنني اليوم لم أعد أبالي إلا بنظرة واحدة من كل النظرات، بل وعن العالم بأكمله.

أسماعي بابتسامة إعجاب كدت أدفع عمري كله لأحظي بها، وها أنا أجلس عليها، بينما تجاهل هو بدوره كل العيون التي حطت على وجهه الذي كان كميئًا كل من يدخل في نطاقه يتم القبض عليه.

هذا اخترت هذا المكان لنقضي فيه سهرتنا؟.

أجبت حبل أفكارى بسؤاله فأجبته بحماس:

هنا أجمل أطباق أكل إيطالية يُمكن أن تتناولها في حياتك، بخلاف صداقتي مع "الشيشة مان" الذي يحضر لي شيشة مخصصة على طريقي.. يضرب ماءها الثلج في الخلط مع الليمون والحيهان ثم يصفيها ويصبها في الدورق، فتعطي لمعلل التفاحتين الفاخر مذاقًا ولا الخيال.

لم غمرت بعيني:

كما أنهم يقيمون حفلات كاريوكي، يُطلقون فيها أشهر ألحان الأغاني المفضلة، ويتركون للحضور فرصة الغناء عليها.. أريد أن نغني معًا وأركز معك في الغناء دون الانشغال بالعزف.

وبعد نصف ساعة كنا نأكل طبق المعكرونة الفوتوشيني، بالمشروم

والصوص الأبيض، لكني كنت قد شيعت بابتساماته الحانية، فربما لا تمنحنا الابتسامات خبزاً نأكله، لكن يكفي أنها تشبع جوع الروح الأمل قسوة وإيلاماً من جوع الجسد.

وحين نزلت الشيشة أخذت نفساً عميقاً لم أتلذذ بمثله منذ زمن، ومددت الميسم نحوه وعرضت عليه أن يجرب الأمر، فأبى، لكني ألححت أن يجرب ولو نفساً واحداً فأخذه ويبدو أنه استلذ طعمه لكنه لم يكمل بعد أن سعل 3 مرات.

أخبرته أنني توقفت عن تدخين السجائر مؤخراً، أما الشيشة فشربها مجرة "فاريح" قد أتوقف عنها هي الأخرى بعد أن وجدت أخيراً فرحة تلخص كل أنواع الفرح، ثم هربت من نظراته بسحب الدخان من الميسم وتغيبه بسحب كثيفة ممتعة عبأت المكان كله برائحة قلبي الذي غمرته السعادة، في الوقت الذي أسك في بهاته المحمول وأخذ يفحص شاشته قبل أن ينظر نحوي ويبتسم وهو يعيد على مسامعي قراءة تلك الخاطرة التي كتبتها في حسابي الشخصي في "فيس بوك" منذ وقت قريب:

في سباق الحب فقط، يحصل المتسابق الأخير على المركز الأول، ويفوز بجائزة قلب محبوبه وروحه وكيانه!

فكلمة (أحبك) هي التعويض الوحيد الذي يفتح بوابة العالم من جديد.. ولا أحد ولا شيء يمكنه معرفة ما الذي كان ينقص هذا الحب ليأتي في اللحظة المناسبة، وهل الآن هي الفرصة المناسبة أصلاً أم لا، لكنه يأتي ومعها التعويض المدفوع بشكل فوري وكاش عن كل ما سبق، حاملاً معه أفراراً ابصمنا بالعشر أنها لن تأتي بسهولة.

أحبك هي الحبر الذي ساكتب نفسي به وأنت معي، فبدونك أنا اللا شيء!

ساكتب حتى أذكر نفسي بما أصبو لتحقيقه، وأعوض في الوقت نفسه كل ما فاتني من خسائر فادحة بما فيها خسارة الموت الذي لاحقتي دائماً في كل محطات حياتي.. موت الأهل والأحبة، موت الشعور بالإنسانية، موت التعاطف، موت الصداقة، موت الشعور بأهمية الشكل النبيل للوطن..

ربما لا تعيد الكتابة شيئاً إلى مكانه، لكنها تساعدنا على ترتيب أثارنا الماضي تماماً مثلما تركناه بلا أي تغييرات تعبت بتفاصيله فتبدل حقيقته في لحظة تخوننا فيها الذاكرة، وقد تساعدنا في معرفة الخطوة التالية إذا ما توخينا الدقة في الحسابات، وأنا لا أريد التنبؤ بخطوتي القادمة معك فحسب، بل أريد أن أصنعها على مقياس أحلامي، إلا أن للكتابة آثاراً جانبية مؤلمة حين تحثك على شراء تفاصيل جديدة من متجر الحياة حتى يكتمل النص، فتكتشف أنك في حالة إفلاس، فهلا أقرضتي عمرك؟!

لله لم ينتبه أني كنت في هذه اللحظة أكتب على حسابي بـ"فيس بوك" حالة جديدة:

دائماً ما كنتُ أخجل من ذكرياتي وأحاول الفرار منها، معك فقط تعلمت أنه ليس بالضروري أن ندخل الذكريات بين شفرتي مقص لتكون حياتنا أفضل، وأن الماضي الذي يتعرض لعملية مونتاژ تزيل الأمور المخجلة وتقص حواشي وزوائد الخطايا، لن يجعل المستقبل سوى مسخ أكثر تشوهاً ومدعاة للخل.

ها هي فقرة الكاريوكي قد بدأت.. طلبت الميكروفون وكنت أعرف ما أريد تحديداً قبل حتى أن يبدأ هذا اليوم، فظرت إلى عينيهِ وغنيت أغنية (حالة حب) التي أشعر كلما أسمعتها أن (إيسا) تغنيها بلساني ومشاعري، دون أن أعرف أن سعادة اليوم وممتعه كانت رصيذاً ستسحبه دموعي التي انفتحت على مصراعيا وأنا أردد:

وأنا جنبك شافية منك.. حاجة من راحة أبويا

كان إيقاف دموعي المطيرة مستحيلاً كنفس استعالة لقاء ستنا (مريم) في زقة السئات، وكيف لا وقد استيقظ الماضي بكل ألمه ويؤسه في لحظة واحدة تراكمت فيها كل أوجاع الكون.

واصلت الغناء، واستمرت الدموع، حتى اختفى صوتي تماماً رغماً عني فتركت المايك وأنا أشير بيدي بما معناه: "تنتهي" دون أن يملك لساني القدرة على نطقها، وأدفن وجهي بين كفي وقد استقرت بي الأم الماضي



وهواجس الحاضر، ومخاوف المستقبل، فإذا بقائي العاشق يُداويني بالتي كانت هي الذاء، حين فوجئت بصوته يعلو في الميكروفون ويغني بدوره

لما النسيم يبعدي بين شعرك حبيبتي بسمعه.. يقول آهات

كان صوته رهيباً بمعنى الكلمة، كنفس روعة رائحته التي ما زلت لا أعرف مصدرها، ومع كل حرف ينطقه كانت دمعاتي تنهمر أكثر، يفارق أنها تخلصت من ملحها وألمها، وصارت دموعاً مسكرة تريح القلب وتغسل أوجاعه.

وبعد انتهائه من الغناء ظل ممسكاً بالميكروفون، وقال على الملأ:

- هذه الأغنية تصف كل ما أشعر به تجاهك، فأنا أحبك بالفعل (وقرب وجهه إلى وجهي والتهمني بنظراته وهو يردف) والعلاقات الجميلة تقوم على ما لا تؤمن به.. ولا تفهمه!

ارتفعت في حضنه ولم أبال بأي شيء، ليصق كل الحضور بشدة، وتطلق بعضهن صرخات التشجيع، ويشغل الكافيه أغنية Je t'aime التي تعني "أحبك" باللغة الفرنسية، للمطربة العالمية لارا فابيان، فرقصنا عليها في أول لحظة إفراج عن قصة حبنا الذي كان حبيباً في الصدور.

.....

عدتُ إلى غرفتي في السطح، هابطةً من السماء في تلك الليلة، بعد أن كنت أرفرف بجناحين من الشوق والوله، أخذاني إلى الجنة ونسيت هناك أي جذور لي على الأرض قبل أن أعود من جديد لوجه (دميانية) البائس الذي كان في انتظاري، وفي عينيها نظرات ساخرة تذكرني دوماً بأن كل الأمنيات الطيبة مشروعة لبني البشر، لكنها تبقى في النهاية مجرد أمنيات!

باركت لي حين حكيت لها ما حدث منذ قليل، وأبدت استعدادها التام لمساعدتي إذا ما رغبت في الزواج، ولكن.. وآه من الكلام الذي يأتي من بعد لكن..

ماذا لو استعاد ذاكرته المفقودة واكتشف أنه ينتمي لدين آخر؟

هل سيبارك قساوسة الكاثوليكية تلك الزيجة؟

سرحبون بوجوده في مبنى الخدمات ويساعدون شخصاً غير مسيحي في الارتباط بفتاة مسيحية؟

على كلماتها التي أعادتني من جديد للواقع البائس المختبئ دوماً في الظلام يتحين الفرصة لطعن السعادة في ظهرها من الخلف، بينما صديقتي العجوز بحماس أكبر:

قلت لك يوماً - ولم تصدقيني- أن الأديان هي أكبر عائق أمام المحبة بين البشر، وسعادة قلوب الإنس، حتى إن الحيوانات تفرح عنا لأنها لا تجد مثل تلك المنغصات والمحاذير الدينية في علاقاتها.

لم تست وجهها بصرامة مفاجئة، وقالت بجديّة مصطنعة:

بسم الحب، والمشاعر، والأحاسيس، القلب الواحد أمين.

سعدت فيها غاضبة:

ماذا تقولين أيها المأفونة؟

سعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيبة تخاطب مستمعينا على غرار خطبة الجمعة، قائلة بتهكم:

- بريك الذي تؤمنين ليست كلماتي أكثر جمالاً؟ على الأقل نالوني يجعلك تتالين الجنة على الأرض بدلاً من انتظارها في عالم الملكوت.

صحتُ مجدداً:

- اصمتي يا دميانة!

اصعدت فوق المصطبة واصطنعت من نفسها خطيبة تخاطب مستمعينا على غرار خطبة الجمعة، لكن بشكلٍ ساخر:

- حسناً.. خذنيها على الطراز الإسلامي حتى لا تصابي بالحساسية.. إن الحمد للخب.. نحمده ونستعينه وننوب فيه..

من يشعر بالحب فلا مظل له، ومن يفقد الحب فلا هادي له  
وتعود بالحب من شروق الأديان، ونفس الأوثان، والذماء  
نفسك باسم الرحمن.

اتسعت عنايا وشعرت برهبة من عينيها التي زاد بريقهما بلعمة مبرحة  
لكن قلبي المطعون وعقلي أسير التساولات لم يستطعا إنشاء  
مواصلة الكلام وقد انهكت قواي بالبحث عن مازق لتساولاتها المعنوية  
إلى حد الفجيرة، قبل أن تهبط من فوق المصطبة وتقرب مني ونفوسها  
بصوتها الذي زاد خشونة:

- بادري بالفرار من سطوة مسيح مزيف، وتثلث مخادع، وأهمل  
كنسية طالما خزمت الملايين من السعادة والعشق.. انفضي  
أجمل ليالي العمر مع الذي خلقته الظروف لينقذك ويملا حياتك  
بالفرح، مثلما ولدتنا الظروف من العدم دون الحاجة لوجود  
أكذوبة اسمها الخالق.

كدت أسقط في فخ كلماتها التي كانت تعني أن أريح حبيبي وأخسر كل  
ما أمنت به من ثوابت ومقدسات خلّث أنها كانت وراء إرسال هذا الفتى  
في حياتي، ومع كلماتها التي أخذت تخفّر عن سماعي بلا هودة، وتجد  
صدى في نفسي، دبت في جسدي طائفة غضب هائلة جعلتني أدعها  
في صدرها وأنا أصرخ فيها بأخر ما تبقت لدي من قدرة على الرفض:

- إليك عني أيّها الخرفة وكفى عن هذا الهراء، إنها معركة قلوبين  
وليست معركة أديان.

اقتربت مني بإصرار وعزيمة لا تنتهي دون أي تأثر من لطمتي وتابعت:

- كفى أنت أيّها التعسة عن المراوغة.. ألا تحكّمون الأديان في  
مصائرهم وتجلعونها ميزاناً لقياس الصواب من الخطأ؟ اجعلي  
من كلامي مسألة وانظري بما سيحلها الدين؟

الإجابة أنه سيفرق بينكما كما فرق بين ملايين القلوب.. وحين  
ترتبطين يوماً برجل آخر تكتشين ظلمه وجبروته، وتحاولين  
تصحيح خطأك بالطلاق منه، ستجدين نفس الدين يقف حائلاً  
بينك وبين سبيل جناحك الوحيد بدعوى أن الرب قال: "الذي

مع الله لا يفرقه إنسان"، وتتضمن إلى قائمة الآلاف الذين  
يسولون الرحمة من الأباة، ويتوسلون إليه ليؤلف بحالهم، فيجيبهم  
بكل صلف أن لا سبيل إلا بإثبات واقعة زنا، فيستسلم بعضهم  
بائساً من رحمة ربه، ويلجأ البعض الآخر لتغيير ملته.. هيا  
أهربي بحياتك قبل قوات الأوان.

عزيمة رفضي لكلماتها في الوهن، وانفتح داخلي شيء ما كان  
وهابت مستعداً للاستقبال وأنا أتمتع بصعوبة:

ما رأيت في المسيح وأما سوى الرحمة والمحبة.. بينما  
كانت وستظل الشرور من صنع البشر.

نعم يا عزيزتي.. أخيراً بدأنا نتفق.. كل الشرور بالفعل من صنع  
البشر، حتى الأديان التي نجحت في الانتشار بعد أن التقى أول  
نصاب بأول غبي.

إنها ليست معركة بين خير وشر، أو بشر وشياطين اختلقها  
الأنبياء لتكون فزاعة لبني الإنسان، لكنها معركة عقل لغاه  
أصحابه وعيدوا نصوصاً مقدسة من عصور غابرة ما زال  
العلم ينفيها في العصر الحديث بعد أن نفذ إلى عمق الذرات  
والجزئيات، واخترق السماوات، ورأى هذا الكوكب وخلّقه على  
حقيقتها.. ولو نزع أتباع الأديان عنها قداستها وتأمّلوها بعد  
تجريدتها في عصر العلم لمااتوا من الضحك لكنهم لا يجرؤون،  
لأن قوة الأديان الحقيقية تكمن في تخييب عقول أتباعها.

سعرت أن عينيها تتسعان أكثر ونبرة صوتها تزداد خشونة وهي تشير  
بإصبعها نحو السماء وتتابع:

- إلهك ومخلصك المسيح مثلاً.. له ثلاثة أقانيم هي الآب والابن  
والروح القدس، فهل هي صفة أن ترتبط فكرة التثليث بأغلب  
العبادات الدينية القديمة؟ في الحضارة الفرعونية هناك ثالث  
طيبة من الآب (أمون)، والأم (مون)، والابن (خنسو)، بخلاف  
ثالث أبيدوس من الآب (أوزوريس)، والأم (إيزيس)، والابن  
(حورس).. وفي الثالث الهندي القديم ستجدين للإله ثلاث  
صور أيضاً هي (براهما) الخالق، و(شيفا) المهلك، و(شنو)

أطلعك عليها لو أردت.. وعلى هاتفك المتصل بشبكة الإنترنت آلاف المواقع، لكن شعب الكنيسة يخشى إزاحة أطنان التراب من الرؤوس، وفتح العقول الصدئة وتحريرها من رقة القداسة الخادعة.

فأمام ضعف عقيدة التثليث وعجز العقل البشري عن تصورها، لم يجد رجال الكنيسة من سبيل إلا القول بأن تثليثهم سر من الأسرار التي لا يمكن للعقل أن يفهم على كنهها، واعترف القديس سان أوغسطين بتعارض المسيحية مع العقل فقال: "أنا مؤمن، لأن ذلك لا يتفق والعقل"، وقال كيركجارد: "إن كل محاولة يراد بها جعل المسيحية ديانة معقولة لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليها"، ولم يختلف عنهم الأب جيمس تد حين قال: "العقيدة المسيحية تعلو على فهم العقل"، وكذا قال القس أنيس شروش: "واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، سر ليس عليكم أن تفهموه، بل عليكم أن تتقبلوه".

ارجعي إلى النصف الآخر من الحقيقة، وتتبعي عجز الحجج الواهية.. قلبي صفحات التاريخ حين كانت الكتب المقدسة سرًا مخفيًا في الكنائس والأديرة، لا يطلع عليه سوى رجال الدين، وممنوع على العامة قراءتها أو الوصول إليها لتعرفي أي عبث مرّت به المسيحية في العصور الوسطى التي لقبها الأوربيون بعصور الظلام.

اقرئي للمؤرخ وول ديورانت صاحب موسوعة قصة حضارة واسمعي إليه وهو يقول: "لما فتحت المسيحية روما انتقلت إلى الدين الجديد دماء الدين الوثني القديم.. اقرئي في دائرة المعارف البريطانية التي تذهب إلى أن القالب الفكري لعقيدة التثليث هو يوناني الأصل، لأن التصورات الدينية فيها مأخوذة من الكتاب المقدس، ولكنها مغموسة في فلسفات أجنبية.

هرت بالدوار والعجز، فومضت عيناها (دميانة) أكثر كلبوة تتلذذ استسلام فريستها، وقررت أن تلعب بها قبل إفراسها حين تابعت:

هل تريدان إبهازا أكثر؟

الحافظ، وحين خاطبهم النقي (أنتيس) في إبتهالاته قائلاً: "أيا الأرياب الثلاثة، اعلموا أنني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟" فظهرت الأرياب الثلاثة وقالوا له: "اعلم يا أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل، والكاثر الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات".

حتى صيغة الأمانة التي انبثق عنها مجمع نيقية الذي أنهى جدالا واختلافاً واسعاً حول شخص المسيح إن كان مجرد بشر أم له طبيعة إلهية، بها اقتباس واضح وصريح من الوثنيات السابقة، إذ قال الهنود القدامى: "نؤمن بشافستري (الشمس) إله ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وبابنه الوحيد أني (النار)، نور من نور، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، تجسد من فايو (الروح) في بطن مايا العذراء، ونؤمن بفايو الروح المنبثق من الأب والأبن الذي هو الأب، والأبن يسجد له ويمجد".

وفي الحضارة الفينيقية ستجدين (أدون) المولود من العذراء (عشتار) والأب الإله (إيل)، وعند الفرس كان الثالوث من (زروان)، و(أورمزد)، و(أهرمان)، ثم تطور وأصبح (أورمزد)، و(أهرمان)، و(ميترا). كذلك عبد البوذيون إلهًا مثلث الأقانيم، يسمونه الثالوث النقي (فو)، ويقولون أيضاً أن (فو) واحد لكنه ذو ثلاثة أشكال، وفي أحد معابدهم هناك تمثال لـ (فو) مثلث الأقانيم.

هزرت رأسي بعينين زائغتين وصرختُ فيها:

- كل هذا محض افتراء وكذب، من أين جئت بهذه التخاريف؟

- من التاريخ غير الكنسي.. التاريخ الحقيقي غير المغلوط أو المعبوث فيه بصمات رجال الدين.. من الكتب التي هال رجال الكنيسة عليها التراب قبل أن يسير خلفهم أتباع حرموا أنفسهم من الفهم والمعرفة والتحري، وسلكوا طريق الإيمان بالوراثة والنقل الأعمى.. لدي مئات الكتب والمصادر التي يمكنني أن

الظلمات، فقدّم الرعاة للطفل الإلهي ثمار محاصيلهم الأولى، ورعى مواشهم، ومع ذلك فالفتي البطل كان عارياً ومُعَرَّضاً للريح الباردة، فاختبأ في شجرة تين وأكل من ثمارها، وصنع من أوراقها ثوباً له، وخرج على هذا النحو لكي يواجه كل قوى العالم، قبل أن ينتهي الأمر بصعوده إلى السموات مرفوعاً من قِبَل الشمس، وسط الإشعاع الصادر من عربته التي ترفعه بواسطة أربعة أحصنة كما ورد في قصة إيليا في الكتاب المقدس، ولكن هناك ومن أعالي السموات، لم يتخل عن حماية المؤمنين الذين أخذوا على عاتقهم خدمته بتقوى وأصغوا إلى كلماته، وهو يفعل شيئاً الأب كما كان يسوع يقول.

وكان لميترا ثور يركبه، وحين حاول الفرار منه يوماً أمسك به من خلال فتحة أنفه بإحدى يديه، وطعن باليد الأخرى الجوانب السفلية لبطن الحيوان بسكينه الصيد، فنبئت من جسم الثور المملكة النباتية، وولّد من عموده الفقري الجنطة التي تَمْنَحُ الخبز، وطلّع من دمه النبيذ الذي يُنْتَجُ الشراب المقدس للأسمار..

ألا يذكرك ذلك بطقس التناول المقدس في الكنائس؟

ادخلي على موقع متحف اللوفر في باريس وشاهدي بأم عينيك الآثار المكتشفة في بلاد فارس والموجودة حالياً لأتباع الإله مترا وهم يتناولون الخبز والنبيذ، وابحثي بعدها عن تصريحات الكاتب الفرنسي فرانس كومون في مجلة علم الآثار لعام 1946 حين قال: نظراً لأن لحم الثور كان صعب المنال أحياناً، فقد اضطُر أتباع الإله ميترا إلى استخدام الخبز والنبيذ مكان اللحم، وكانوا يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميترا ودمه.

والآن حاولي استيعاب أن المسيحيين في روما كانوا ينصرفون لسهرات الوثنيين أتباع ميترا في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر لاعقادهم أنه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار كهزيمة إله الظلام وانتصار إله النور، وانظري كيف تم تحويل هذا التاريخ تحديداً إلى تاريخ ميلاد المسيح لصرف

أقربي كتاب المُخْصُون الستة عشر المصلوبون فداء للبشر، لتعلمي أن واقعة صلب المسيح بهدف الفداء للبشرية ليست الأولى من نوعها، إذ سبقه إليها 16 شخصية تاريخية دينية مثل كريشنا الهندوسي، وهيسوس إله قبائل السلت، وثولس المصري، وبروميثيوس، وغيرهم من الذين صلبوا بتفاصيل تتشابه كثيراً مع قصة صلب المسيح بل ولنفس الأسباب أحياناً.

أقربي في عقيدة الفرس الثنوية التي يتنازع فيها النور والظلمة على سيادة الوجود حيث يحكم الكون الإلهان، إله الملائكة الأعلى، وهرب الكون الذي خلق نوراً لا يحرق، وخلق الورد والبليان، ثم تصدى له إله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشدها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الأوار، فمن عمل خيراً من الناس فهم خدام الإله الأعلى، ومن عمل شراً منهم فهم خدام الإله الأسفل، وسوف تحدثم الحرب كرة أخرى، فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة، تخلق معه ألوف الألوف من جنده، وتطير بينها الحيات والثعابين، فيدور القتال سجالاً، حتى يهزم الإله الأسفل، ويلقى عصا الطاعة لإله السماء.

والآن قارني هذا بما ساقه القديس أوريجين عن ملحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة، وإبليس رئيس الشياطين، وأطوار السجال الذي يدور سجالاً بين الفريقين، ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون في باطن الأرض أو يقيدون بالأغلال حتى الموعد الأخير، ثم تتشبث الملحمة الأخيرة قبل القيامة، وبعد ظهور المسيح الأول بألف سنة، فيذهب أهل النار إلى النار، ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم.

تأملني عبادة الإله (مترا) في بلاد فارس، الذي خلقه إله النور (أورمزد) لكي يحمي أتباعه من أتباع إله الظلام (أهريمان)، فخلقه من صخرة متولدة على ضفة النهر، تحت ظل شجرة مقدسة، وكان بعض رعاة الجبل شهوداً علي معجزة دخوله إلى العالم، فقد رآه يخرج من الصخرة، ورأسه متوج بقبعة ملوكية، متسلحاً بسكين صياد، وهو يقود شعلة كانت تضيء



الموت من خلال مفتاح الحياة أو (الأبناكا) كما كانوا يسمونه، والذي يُعد صليباً فرعونياً.

الكلام من تأليفك.. فكل المخبولين أمثالك يخلطون التاريخ بآرائهم الشخصية ليلووا عنق النصوص والكلمات ويصلوا إلى ما يسمونه.. أما الواقع فما زال يشهد بمعجزات المسيح وأتباعه إلى هذا.. فكيف فعلوا ما فعلوا بفعل دين مسروقٍ من الأساطير؟

وأنا أنقض عن عقلي أي تأثير لكلماتها المسمومة، وقد شعرت بالاشتهاد بالمعجزات سيخرسها فعدت لجدها وأجابت:

ولماذا لا ترجعين للعلم والتاريخ وتحكمين بنفسك؟.. فكل ما ذكرته موجود في كتب ومراجع من السهل الرجوع إليها، أما المعجزات التي تتخمين بها أنت وباقي المغيبين أمثالك فما هي إلا قدرات خاصة موجودة لدى الكثير من البشر، سواء كانوا مسيحيين، أو مسلمين، أو بوذيين، أو هندوساً.. والعلم اليوم يصنع ما هو أكثر إعجازاً، من طيران، وأجهزة محمول، وشبكة إنترنت فهل نقدر من ابتكر كل هذا ونتخذهم أنبياء وآلهة؟

لاحظي أننا لم نتحدث بعد عن تاريخ تدوين الأنجيل بعد وفاة المسيح أصلاً، من مدونين لم يُعاصروا الأحداث التي يروونها، وإنما نقلوها عن عاصريها وهذا ما يفسر بعض التناقضات التي نراها حتى يومنا هذا، بخلاف موجة من البلبلة والتشتت التي حدثت بين الكثير من القساوسة وجماعات المسيحيين في القرن الأول والثاني بعد الميلاد، حتى الجزء الثاني من القرن الثالث الميلادي عندما تم اعتماد صيغة نهائية متفق عليها لهذه الأنجيل الأربعة.

ألم تسألني نفسك: لماذا يوجد هذا العدد الكبير من الأنجيل؟ ألا يكفي إنجيل واحد؟

والإجابة أن هذه الأنجيل كُتبت لجماعاتٍ مختلفة في شتى

أنظار مسيحيي روما وأوربا عن هذا العيد الوثني، ولنفس السبب تم تحويل يوم الأحد الذي يسمى Sunday أي يوم الشمس في عقيدة عبادة الشمس والنور، ليصبح عطلة أسبوعية للمسيحيين. واليوم الأخير المقدس في الأسبوع الذي سيشهد خاتمة المسيحيين والقيامة بعد أن تم دمجها بالرمزية الشمسية منذ أن لمزاحمة هذا الدين الوثني وإزاحته من طريق المسيحية.

حتى فكرة تجسد الإله في صورة بشر يعيش وسط الناس ويحدثهم ويحدثونه، هي فكرة مقتبسة من الأساطير والديانات الوثنية. منهم أوزوريس في مصر، ويعل في بابل، وأنيس في فرنسا، وناموس في سوريا، وهركليز ند الإغريق، وكريشنا في الهند، وأندرا في التبت، ويوذا في الصين، ومتر في فارس.

زاعت عيني، وزادت دقات قلبي وهي تواصل بكل شراسة:

- السب مصرية يا عزيزتي؟

تأملني معي إذن غطاء رأس المسيح، ولحيته، عصا الراعي، ثم اقرئي في تاريخ الفراعنة عن أوزوريس أو أوزار التي تعني الراعي، ذلك الرجل الملتحي أيضاً، ذو الشعر الطويل المغطى بغطاء الرأس الممتد من مقدمة الرأس وينسدل على الكتف، والذقن الطويل..

أزوريس أول من سجل التاريخ البشري خير انتصاره على مملكة الموت، وقيامته ظافراً فاتحاً طريقاً للحياة الأبدية لكل بني البشر. ليصبح القاضي العام للجنس البشري، الذي يحاسب البشر على أعمالهم خيراً كانت أم شراً، فيدخل الأبرار إلى ملكوت النعيم، بينما يحقّق الهلاك بمن حادوا عن جادة الصواب، وهي الفكرة نفسها الموجودة في المسيحية عن يوم الدينونة ويسوع الذي سيقيف البشر أمام كرسي دينونته ليقدّموا حساباً عما فعلوه في الجسد.

وفي نفس دائرة التشابهات، عبّر المصريون بإيمانهم بالحياة بعد

من بين دموعي الصامته التي فشلت في الانتصار ليسوع،  
بشكل مريب، ثم أجابت:

ولماذا أسألكم وأنا لذي الإجابة واليقين فيما وصلت إليه.. اذهبي  
إليهم وإسألهم وحدك، وأراهمك على كل ما أملك أنهم لن يجيبوك  
على أي من أسئلتك.. بشرط واحد..

أي شرط؟

أن تخبرهم أن كل هذه المعلومات قد قالتها لك صديقة مسلمة،  
وانظري رد فعل أتباع إله المحبة نحو كلام خصومهم لتوقني  
أني على حق.

الاربت مني أكثر، ووضعت وجهي بين يديها الساخنتين وأردفت  
بجاهد أن يبدو حنوناً رغم نبرتها شديدة الخشونة:

صديقي يا ابنتي لا أريد لك سوى السعادة قبل أن تضيع منك  
أجمل سنين العمر مثلاً ضاعت مني.. فما أشقى الوصول  
للحقيقة في سن متأخرة، بعد أن يبلى الجسد ويمسي عاجزاً عن  
استعادة ما أخفاه الجهل من متع وهبات تمنحها لنا الطبيعة كل  
يوم، لكننا لا نلمسها بأيدينا بفعل قيود صعبة من الحرمان التي  
فرضتها الأديان العقيمة.

\*\*\*

الحضارات والبلدان حتى يتم إقناعهم بالمسيحية، ولعل  
يُفسر لنا الانشقاقات الباكرا بين اليعقوبية والبولسية والمسيحية  
ليصبح عندنا مسيحية يعقوبية يهودية أيدت في أورشليم  
ومسيحية بولسية يونانية الثقافة رومانية الهوى، حكمت  
بعد، ومسيحية مصرية أصلية اندثرت مع اندثار ما  
الكنيسة بالهرطقة وبقيت لها آثار هنا وهناك.

كل هذا ولم أقل إلا النزر اليسير، فالأكاذيب والتلفيقات التي  
لا يقبلها العقل لا حصر لها، بخلاف علامات الاستفهام  
الكنيسة التي لا تخضع أموالها لرعاية الدولة رغم أن موارد  
تقدر بالمليارات سنوياً، سواء من العشور، والتبرعات الداخلية  
والخارجية، والذنور، وتحويلات كنائس المهجر، ومعزى  
الحسابات في البنوك بأسماء القساوسة وزوجاتهم، في الوقت  
الذي ثبت فيه بالدليل القاطع فساد بعض رجال الكنيسة  
إنه تم نشر تحذيرات تطالب بعدم حقهم في جمع تبرعات مالها  
أو عينية.

سألتها بدهشة الكون: "متى تعلّمت كل ذلك يا دميانة؟"، فأجابت:

طوال عمري أقرأ وأبحث، قبل أن التقي بك بسنين طويلة، وقد  
أن كانت الكتب والمعرفة هي سلواني الوحيدة، ثم أيقنت أخيراً  
أن الإنسان هو إله نفسه القادر على إسعادها أو خزيها، وبعد  
أن وجدت كل من حولي حمقى لا أمل في شفائهم من مرض  
الأديان، قررت استغلال جهلهم المشفع بالدين، تماماً مثلاً  
فعل البابا والقساوسة حين باعوا صكوك الغفران في العصور  
الوسطى لراغبي التوبة.. لم أكن بحاجة لإقناعك بمثل  
الطريقة لأنك كنت مسيحية في البطاقة فحسب، لكن اليوم أرا  
تقنين نفسك بالانغماس في تعاليم غيبية ستزيدك يؤساً أكثر من  
البؤس الذي دُفنته مع ريمون و...

"هل تجيئين معي إلى الكنيسة وتواجهينهم بما لديك ولننظر من مناد

الهيكل وهي تضم كنفها وتغطي صدرها بإحدى يديها،  
وسنعت الأخرى على فُرجها الذي حاولت إخفاءه بين ساقها  
متمتين لتداري عورات ظنت أنها انكشفت، وقد شعرت بالشيطان  
يها من ثيابها بعد أن استقر بدا وسط المقاعد الخشبية الخالية  
من البشر والملائكة!

وفي غمرة نحيبها، أخذت أصوات الترانيم والموسيقى الكنسية  
ومهمات القُداَس العظيمة تفر من أذنيها وتبتعد وتبتعد، بينما اختفى  
السبح من على الصليب، وفر تلاميذه من لوحة العشاء الأخيرة  
التي وقف فيها (يهوذا) وحده ميتسماً بسخرية.

"ماذا بك يا آيات؟"

والها الشاب الوسيم بنبرة متوجسة وقد هاله خطأ الكحل السائلان  
على خديها من عيين متعتين، قبل أن تنظر إلى عينيه وتمطر  
عينها أكثر وأكثر، لتجيب عن سؤاله بسؤال خرج بصوت متلجلج  
لمقاتل يحتضر:

- أين المسيح؟!

سبح حبيبته في دهشة، وسال:

- ماذا؟

- أين المسيح؟

ثم ألقت نفسها في حضنه بشكل مباغت، ودفنت وجهها في صدره،  
لتنحدر دموعها الصامتة إلى نحيب، ونهضة غير منتظمة الإيقاع، قبل  
أن تخدم حركتها تماماً ويتوقف صوت بكائها، فأبعداها عن صدره ويتأمل  
وجهها مغضض العينين وقد ثقل وزنها في يده التي باتت تحمل جسدها  
بالكامل بعد أن تراخت قدمها وهو يردد اسمها بلوعة: "آيات.. آيات".

\*\*\*

"لماذا عاملتها بهذه الطريقة يا أبونا؟"

"هذا الكلام غير مقبول هنا.. مليون مرة أنهى ألا نفتح مثل  
النقاشات مع إخواننا المسلمين، حتى لا تحمل النفوس أي كراهية  
تساحن، ولنتفك للرب حسم هذا الخلاف يوم الدينونة.. هل  
فتح الباب للمشاكل والصراعات التي لن تنتهي قبل أن تقضى  
الجميع؟!"

قالها القمص (يوسف أرمانوس) بنبرة غاضبة في حجرته التي  
فيها (آيات)، فأجابته الأخيرة بتلعثم وأرتباك:

- كلا يا أبونا، لكن صديقتي المسلمة راهنتني أنك لن تجيب على  
تساؤلاتي.

- صديقتك هذه لم تعرف المسيحية حق معرفتها، واكتفت بمرآة  
كلام محفوظ هي نفسها لم تتأكد من صحته، واكتفت بترديد  
تلقنته مثل البيغاء، وأجزم أنها لم تمسك يوماً إنجيلاً لتقرأه  
حتى تستكشف الأمر بنفسها، ولا حتى مصحف.. اطلبي  
أن توظف الوقت الذي تقضيه في ترديد ما لا تفهمه في ألسنة  
الأخرين في فهم دينها أولاً.

- وماذا عني؟

- لو كان الإيمان بيسوع يملأ قلبك لما هزتك هذه الكلمات  
اقتربي من المسيح أكثر واطلبي منه أن ينير قلبك بمحبته  
تحدث بعدها، وإياك أن تقمعي المسلمين مرة أخرى في شؤم  
خاصة بالكنيسة.. فقد نذرت نفسي ألا أكرههم مهما بدر منهم  
عن إذنك.. لدي أمور أخرى أريد الانتهاء منها.

قال جملته الأخيرة وهو ينهض في مكانه لحسم انتهاء اللقاء حتى لا  
يعطيها فرصة أخرى للمزيد من النقاش والجدل.

نظرت له نظرة أخيرة بعينين ثلّمعان بدموع القهر وخيبة الأمل، وما  
غادرت الحجرة حتى تركت لدموعها العنان غير مصدقة أن (دميان)  
كانت على حق عندما راهنتها بأنه لن يجيب عن تساؤلاتها أبداً!

صوم مثلاً، حتى إن الولي كان يضربها ويوبخها ثم ينس منها مع مرور الوقت، لكن رغم كل هذا كانت أقرب إنسانة لقلبي في هذا العالم.. كانت أُمِّي وأختي وصديقتي، وكان كل منا خازن أسرار الآخر، وصديقه الناصح المُخلص حين يحار العقل ويعجز الفكر عن الوصول لحل في معضلة ما.

القصة ليبتلع ريقه، ثم طال صمته وكأنه سيقلي قولاً ثقیلاً قبل أن يروح أخيراً:

وذات يوم، صدر قرار بتشكيل لجنة خاصة سميت بـ (لجنة القرآن)، تضم 5 أعضاء من كل كنيسة على مستوى الجمهورية، لينحصر عملهم في قراءة القرآن واستنباط التناقضات والمعلومات المغلوطة التي تجافي التاريخ أو المنطق فيه، لاستخدامها في المناظرات التي تحدث مع شيوخ وعلماء المسلمين، ووضعها في مواقع الويب المسيحية، وكانت أول مرة أمسك فيها مصحفاً في حياتي، قبل أن أتبحر في كُتُب التفسير لقرآن الإسلام، سواء تفسير القرطبي، وابن كثير، والجلالين، بخلاف كتب البخاري ومسلم التي جمعت أحاديث وسيرة نبي الإسلام، وكتب أخرى شهيرة في الدين الإسلامي اهتمت بجمع سيرة (محمد)، وقصة الخلق منذ مجيء (آدم) حتى بعثة نبي آخر الزمان حسب رؤية المسلمين، مثل (السيرة النبوية) لابن هشام، و(تاريخ الرسل والملوك) المعروف بتاريخ الطبري، والبدائية والنهاية لابن كثير، و(زاد المعاد في هدي خير العباد) تأليف ابن قيم الجوزية، و(المال والنحل) للشهرستاني، و(السيرة الحلبية) لعلي بن برهان الدين الحلي، وغيرها من الكتب التي أجزم أن أغلب المسلمين أنفسهم لم يطلعوا عليها.

ومع القراءة والتبحر في الإسلام وربط الأمر بالتاريخ والأديان الأخرى، وجدت الكثير من الشبهات واندهشت كثيراً كيف لم ينتبه المسلمون لهذه الأمور، وأدركت أن هذا يرجع إلى سبب عدم قراءة كتب التاريخ والسيرة والتفاسير والتأمل فيها، وبالتالي لم ينتبهوا أن لفظة (الله) كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة نبي الإسلام، وكانت تعود لإله القمر (الإلاد) وتم اختصارها إلى (الله) في عصور ما قبل الإسلام، حتى إن

قالها الشاب الوسيم في حجرة القمص (يوسف) بعد أن أفأقت (أبائهم) بعد مجهودات مضنية بذلها هو وباقي خدام الكنيسة، لتقص عليه بعد إفأقتها ما حدث بالتفصيل الممل، ثم ترحل وتطلب منه أن يخرج معها، لكنه طلب منها العودة لحجرتها والحصول على قسط من الراحة أولاً.

تأمله القمص بملامح مترددة، تتأرجح بين الغضب والندم قبل أن يجرد بصوت خافت يستدعيه من غياهب الذاكرة السوداء التي طالما حارها غسلها بعشرات الأعمال الصالحة:

- لقد نكأت آيات دون أن تقصد جرماً قديماً يا ولدي، كلما طلبت أنه اندمل، ساق لي الرب من يذكركني به، ويبدو أنه لن يظلم أبداً.

صمت الشاب ولم يعقب بحرف، وقد أدرك بفطرته أن ما يمر به القمص هي لحظة اعتراف لا إردية، تحل على لسان الإنسان المكلوم في وقت لا يختاره بعد أن تستبد به الأحزان، ولا يكون هناك مناص من البوح أمام أشخاص لا يختارهم المرء، ولكن تسوقهم الأقدار ليشهدوا هذا الاعتراف، وبالفعل مضت ثوانٍ قال القمص بعدها:

- لم أصل إلى هذه المرتبة في غمضة عين.. فقيل أن أصيح قمصاً عشت سنوات طويلاً في الكنيسة، وبين جدرانها، بدأت الحكاية..

- كنت طفلاً نابغاً لأب في غاية الدين، حتى إنهما حرصا على أن أكون من رجال الكنيسة منذ نعومة أظفاري، ولم أخل دعوتهما الملحة للمسيح أن يحفظني ويرعاني ويجعلني من رجاله المقربين، فأصبحت شماساً وأنا ابن 10 سنوات وسط ذهول الأوساط الكنسية، ثم ترقيت في السلك الكنسي بسرعة ولمع نجمي في دوائر الدراسات اللاهوتية، إذ كنت من طلاب مدارس أحد في الكنيسة، وتربيت في المعمودية.

لم أكن ابنهما الوحيد، فقد كانت لي شقيقة تدعى (مريم) تصغرنى بعامين.. وكانت كلما كبرت في السن، كلما ابتعدت عن الكنيسة، حتى أصبحت مقلّة جداً في حضور القداس والتناول، ولم تكن



دم الحيض عند المرأة في اعتقاد الأقدمين هو سر الميلاد، فمن المرأة الدم، ومن الرجل المنى، ومن الإله الروح.

الشمس نفسها طويلاً وقد شعر أن الحمل الثقيل الجاثم على نفسه في وطأته، فأردف:

مع كل وقت يمضي كنت أكتشف المزيد والمزيد، مثل تلك التناقضات بين الرواة في واقعة الإسراء والمعراج في كتب الأحاديث والسيرة التي يقدسونها ولا يجرؤ أحد على التشكيك فيها، فإذا بها تحمل أكثر من رواية بتفاصيل مختلفة، لكن المفاجأة الأكبر لم تكن في التناقضات بين الروايات بقدر ما كانت في تشابه الواقعة نفسها مع قصة النبي (يعقوب) في سفر التكوين حين انطلق هاربا من وجه أخيه (عيسو)، محروماً من عاطفة والديه واهتمامهما، ليصير في الطريق عند غروب الشمس وحده معرضاً لمخاطر كثيرة، وحين وضع رأسه على حجر واضطجع، رأى السموات مفتوحة، وسلماً سماوياً منصوباً على الأرض رأسه يمس السماء، ثم تجلى له الله قائلاً: "ها أنا معك"، لينس كل عوز ويعطى بفيض أكثر مما سأل وفوق ما طلب، فيما كانت الملائكة نازلة وصاعدة على هذا السلم، بخلاف ما ورد في أسطورة (ميترأ) الذي صعد إلى سماء مقسومة إلى سبع سموات، وكل واحدة مرتبطة بكوكب، وثمة سلم مكوّن من ثمانية أبواب متوضعة بعضها فوق بعض، ولعبور الأتباع من درجة إلى الدرجة التي تليها، كان على الفرد أن يتعرّف على عبارات مقدّسة لكي يرضى ملاك الإله (أورمازد) الذي يحرس البوابة، بشكل يشابه إلى حد بعيد حين كان (جبريل) يستفتح باب كل سماء يصعدُها مع (محمد) فيسألونه: "من؟" فيجيب: "جبريل"، فيسألونه: "ومن معك"، فيجيب: "محمد"، فيسألونه: "أو قد أرسل إليه؟" وكان الملائكة التي تؤمن بالأنبياء وتتناصرهم لا تعرف إذا كانوا قد بعثوا أم لا.

ثم اشتدت دهشتي عند قراءتي في العلاقة بين الديانة الزرادشتية والإسلام لا سيما في واقعة الإسراء والمعراج أيضاً..

فلما أخذت ديانة (زرادشت) في الانحطاط في بلاد الفرس،

العرب الوثنيين استعملوا كلمة (الله) في تسمية أطفالهم، والداها على ذلك أن والد (محمد) كان يدعى (عبد الله)، كما أن (الله) هو الاسم المذكور من (اللات) التي كانت تعني إلهة الشمس ولجذب اهتمام أهل قريش ومحاولة استرضائهم، تعددت أسماء إله الإسلام بطرق تشابه مع أوتانهم، فأصبحت كلمة (العزير) مرادفة لـ (العزى)، والمنان مرادفة لـ (منة)، بل وإن لفظة (الله) كانت موجودة قبل بعثة (محمد) للدلالة على أن الله القدر كان أكبر الألهة، واكتشفت أن كلمة الله دخلت المسيحية مع ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية وتأثر المسيحيون بالكلمة السائدة والمنتشرة في المجتمعات العربية، حتى أصبحت لصيقة بالسنتا وصعب تخليص اللسان منها بعد أن اعتاد عليها، بخلاف الكثير من التفاصيل الوثنية التي ما زالت لصيقة بالإسلام إلى يومنا هذا، مثل حج البيت.

عقد الشاب حاجبيه وثبتت نظراته على وجه القميص دون حتى أن يرمش، بينما واصل الأخير:

- فقد كان الحج الجاهلي في شهر ذي الحجة أيضاً، في نفس موعد الحج الإسلامي، وكان الحجاج يقلون محرّمين ملبين، وتختلف التلبية بحسب الإله الذي نسك له الحاج، حيث مثلاً يقول من نسك للات: "إليك اللهم لييك، لييك، كفى ببيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية، أربابه من صالحين البرية"، ويقول من نسك للعزى: "إليك اللهم لييك، لييك وسعديك ما أحبنا إليك"، وكان نسك قريش للإله إساف، وكانت تلبيتهم: "إليك اللهم لييك، لييك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"، وكلها صيغ شديدة التشابه بصيغة الحج الإسلامي، وكان الحاج يطوف بالكعبة سبعة أشواط تبدأ من عند الحجر الأسود أيضاً.

كما اكتشفت أن المصادر التاريخية القديمة تقول إن أصل كلمة الحج هو (الحك)، إذ كان يمارس في الحج طقس غريب وهو الاحتكاك بالحجر الأسود، وهناك رواية إسلامية تقول إن الحجر الأسود كان أبيض ولكنه أسود من مس الحيض في الجاهلية، حيث كانت النساء تمس الحجر بدماء الحيض، وكان

الإعجاز، وكيف يحمي الرب كعبته قبل بعثة رسول آخر الزمان بطيور ترمي الجنود بقطع من الأحجار المشتعلة، ثم يتخلى عن نفس الكعبة المقدسة مرة حين ضررها الحجاج بن يوسف الثقفي بالمنجنيق في حربه مع عبد الله بن الزبير في القرن الأول هجرياً، ومرة حين هجم القرامطة على الحجاج في موسم الحج بيوم التروية وقتلوا الحجاج العزل من السلاح، فأخذ الناس يلقون بأنفسهم في الآبار ويفرون إلى رؤوس الجبال خوفاً من سيوف القرامطة الذين نهبوا أموالهم، واستباحوا دماءهم، وقتلوا الحجاج في رحاب مكة وشعابها حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرهم أبو طاهر سليمان علي باب الكعبة، والرجال تصرع حوله في المسجد الحرام وهو يقول ساخراً: "أنا بالله وبالله أنا، يخلق الخلق وأفنيهم أنا"، والناس يفرون ويتعلقون بأسفار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً ويقتلون وهم كذلك، حتى بلغ عدد من استشهد من الحجاج أكثر من ثلاثين ألفاً، وبعد انتهاء المذبحة أمر أمير القرامطة بأن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم في المسجد الحرام، وهم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها وشققها بين أصحابه، ثم أمر بعد ذلك بقطع الحجر الأسود وهو يقول: "أين الطير الأبايل؟ أين الحجارة من سجيل؟" ثم قلع الحجر الأسود ونادى بأعلى صوته: "يا حمير، أليس قلتم في بيتكم هذا ومن دخله كان أمناً؟ فأين الأمن؟"، وأخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم وخرجوا وهم يقولون: "قلو كان هذا البيت لله ربنا، لصب علينا النار من فوقنا صبا"، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من 20 عاماً.

ثم عاد أطرق القميص وجهه للأرض ولاد بالصمت وقد وصل إلى أقل ما في حكايته الأليمة، فلم يستطع الشاب الوسيم مع الصمت صبراً، وقد تحدثت الكلمات فضوله فسأل:

- ما الذي حدث بعدها؟

فنفس القميص زفيراً طويلاً إنكأ فيه وهو يخرججه على حرف الحاء الذي يرز رنينه وصداه قبل أن يجيب:

ورغب المجوس في إحيائها في قلوب الناس، انتخبوا اسمه (أرتاويراف) وأرسلوا روحه إلى السماء، ووقع على جسده سبات، وكان الهدف من سفره إلى السماء أن يطلع على شيء فيها ويأتيهم نبأ، فخرج هذا الشاب إلى السماء بقرار، وأرشاد رئيس من رؤساء الملائكة اسمه (سروش)، فقال من طبقة إلى أخرى وترقى بالتدرج إلى أعلى فأعلى.

ويقول (أرتاويراف) عن واقعة معرجه: "قدمت القدم إلى حتى ارتقيت إلى طبقة النجوم في حومت، ورأيت أرواح المقيدين الذين ينبعث منهم النور كما من كوكب ساطع، وهو عرش ومقعد باه باهر رفيع زاهر جداً، ثم استقيمت من سروش (الملك) المقدس ومن الملك (أذر) ما هذا المكان".

وكان (أذر) هو الملك الذي له الرئاسة على النار، و(سروش) هو ملك الطاعة، وهو أحد المقدسين المؤيدين، أي الملائكة المقرئين لديانة (زرادشت)، وهو الذي أرشد (أرتاويراف) في جميع أنحاء السماء وأطرافها المتنوعة، كما فعل (جبرائيل) مع (محمد).

ولما اطلع (أرتاويراف) على كل شيء، أمره (أورمزد) -إله الصالح الذي كان سند وعضد مذهب النبي (زرادشت)- أن يرجع إلى الأرض ويخبر الزرادشتيين بما شاهد، ودونت هذه الأشياء بحذافيرها وكل ما جرى له أثناء معرجه في كتاب اسمه (أرتاويراف نامك).

لم يجد الشاب ما يُعقب به، فاكتفى بالصمت وهو يتأمل صورةً للعذراء وهي تحمل المسيح الصغير وحولهما ملائكة على هيئة أطفال تُحيط رؤوسهم هالات من الضوء، بينما استطرذ القميص:

حتى واقعة الطير الأبايل الشهيرة التي يتغنى بها التاريخ الإسلامي، ونزلت فيها سورة القيل تاريخاً لحماية الرب لكعبته من جيش أبرهة الأشرم حين أراد هدمها، ثبت عدم وجودها في أنباء وقصص العرب قبل بعثة نبي الإسلام، رغم أنهم كانوا يدعون كل كبيرة وصغيرة، فكيف يتجاهلون واقعة بهذا

فلاسفة عظام على أنهم أنصافُ آلهة، أو أبناء آلهة هبطت  
إلى الدنيا وتجسدت لخلاص بني الإنسان وهدايتهم، فصار  
كثيرٌ منهم ينظرون لشخصية المسيح بنفس المنظار، مستغلين  
التعبير الرمزي عن المسيح في لغة الأناجيل، ليأخذوا البنية على  
معناها الحرفي الذي اتفق مع ثقافتهم الوثنية، ورأوا فيه ابن الله  
الحقيقي الذي كان إلهًا فتجسد ونزل لعالم البشر لخلاصهم،  
وأكد إبراهيم أن مصطلح ابن الله لم يكن قاصرًا على المسيح فقط،  
وشمل العديد من البشر مثلما جاء في سفر التكوين.

صعقتنا كلماته، وحين حاولنا نقاشه صمم على موقفه وأكد أن  
عقيدة الصلب والتثليث والتجسد لاقت رواجًا لدى العوام الذين  
أعجبهم الغلو في رفع مقام من يقسونه، قبل أن تلعب عدة  
عوامل سياسية وثقافية واجتماعية ولغوية لصالح الاتجاه الوثني  
في النظر لشخصية المسيح، وشيئًا فشيئًا صار هو الأصل  
وصارت مخالفته هرطقة وخيانة لحقيقة يسوع..

ورغم أن الموحدين بالإله والمؤمنين ببشرية المسيح صاروا فئات  
ضئيلة يُنظر إليها على أنها مبتدعة ضالة، مثلما حدث مع  
الأسقف أريوس في الإسكندرية، إلا أن إبراهيم اعتبرهم موحدين  
وليسوا مهرطقين، وأخذ يذكر أمثلة وأسماء لم يعرفها من قبل مثل  
الطبيب الإسباني ميخائيل سيرفيتوس الذي أعلن بطلان عقيدة  
التثليث ورفض الوهية المسيح بشدة، وسمى الثلاث بالوحش  
الشيطناني ذي الرؤوس الثلاثة، وقام بحركة نشطة جدًا في  
الدعوة إلى التوحيد الخالص ثم اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته  
ثم أعدمته حرقًا حسب ما قال إبراهيم مستشهدًا بكتب ودراسات قال  
إنها متاحة معه لمن يريد الاطلاع عليها، والإيطالي فأوستو  
بالولو سوزيني الذي نشر كتابًا إصلاحيًا ينقد عقائد الكنيسة  
الأساسية من تثليث وتجسد وكفارة، ثم توصل للتوحيد الخالص  
وأخذ يؤكد عليه في كتاباته حتى انتشرت تعاليمه في كل مكان،  
وتعرض أتباعه لاضطهاد وحشي، وحرق الكثير منهم أحياء  
أو خرموا حقوقهم المدنية وحُرقت كتبهم، والبريطاني جون

ما زلت بعد كل هذه السنين أذكر ما أوردته في تقرير  
كتبت: "لقد تعرضنا لأراء وأحاديث كوكبة ضخمة من  
العلماء والمفسرين ورواة الأحاديث، فوجدت ما يليق وصفه  
بمجرد أساطير وتجميع لعبادات قديمة"، ثم سألت: في  
نفسه: "كيف تتخذ الآلاف من المدارس والمعاهد والجامعات  
الإسلامية من هذه الخرافات منهجًا تدرسه لطلابها؟ وماذا لنا  
من خريجي هذه الجامعات والمعاهد والمدارس؟ إن هذه  
وأمثالها وضعت عقل المسلم في محنة ما بعدها محنة،  
أن يُعمل المسلم عقله ويرفض هذه الأشياء ويكتب حينها  
وفاته بيده، أو يستغني عن العقل الذي منحه الله إياه ويصا  
فكر الأسطورة كما هي بعد أن يُخرس صوت الفكر ويصا  
داخله" وأنهيت تقريري بكلمات جريئة قلت فيها: "علينا  
لمثل هذه الكتب والعودة إلى الوراء أربعة عشر قرنًا لنبدأ  
مرحلة ما قبل هذا الفكر الصحراوي والبدوي إن كنا صادقين  
البحث عن حل لحالنا المُتردي، وإن كانت لدينا الشجاعة  
تحمل المسؤوليات أمام أنفسنا، وأمام الله، وأمام الشعوب".

ثم لمعت عينا القمص بالدموع وأردف بكلماتٍ ثقيلة تخرج بالكاد:

في تلك الأثناء، كان لي صديق في لجنة القرآن يُدعى (إبراهيم  
يونان)، طالما اعتبرته أخي الذي لم تلده أمي، فخر مفاجئ  
مدوية حين سأله أحد الأساقفة عما وجد في القرآن وسيرة نبي  
الإسلام من أخطاء، فأجاب: "لم أجد في القرآن ما يعيبه أو  
ينقده"، ثم بدأ يفند ما ورد في تقاريرنا من أخطاء إسلامية، وحين  
زاد اللغظ والجدل قلب المائدة على الجميع وشكك في التثليث  
وصلب المسيح والوهيته، مؤكداً أن الاعتقاد بالوهية المسيح لم  
يصبح عقيدة مستقرة وسائدة بين المسيحيين إلا بعد انقضاء  
عهد الحواريين والتلاميذ الأوائل للمسيح، ومرور قرن على الأقل  
على ميلاد يسوع، وقال إنه حين دخل المسيحية مؤمنون جدد  
من الأمميون الوثنيين، كانوا متشبعين بثقافة عصرهم الوثنية  
الهيلينية التي تنظر للعطاء من أباطرة أو قادة فاتحين أو

التي كانت تحتم عليّ التحلي بصفات معينة في التعامل مع الأزمات، لكنني ضربت بكل ذلك عرض الحائط حين علمت بإسلامها.. (بكي بصوت مسموع بعد أن كانت دموعه صامتة، ورفع يديه المرتجتين أمام وجهه وهو يتابع) سلمتها بيديّ للهلاك حين أخبرت والذي بما استأمنتني عليه في لحظة غضب أعمى شعرت فيها أن إسلامها انتصار على كل ما كتبت في تقريري، ودعنا لصديقي الذي باع المسيح بعد كل ما تعلمه وترى عليه.. نسيت تعاليم يسوع بالمحبة حتى تجاه أعدائنا ولاعنينا، ولم أفق إلا وأختي قتيلة وأبي في السجن، وكان هذا اليوم الذي لا ينسى علامة فارقة في حياتي.

تعرّضت أسرتي بعدها للتجهيز من المنطقة التي كان أغلب سكانها من المسلمين بعد ما انتفضوا لمقتل أختي، وقد إبرام كل ممتلكاته وأمواله، وتم طرده من منطقته التي كان أغلب سكانها من المسيحيين، فقررْتُ استكشاف الإسلام من جديد.

أعدت قراءة القرآن لأستبطن التشابهات مع الإنجيل، وأعدت قراءة الأناجيل لاستخراج كل ما يقربنا من المسلمين الذين كنت أجزم يوماً أن مصيرهم جهنم كما يقولون عنا تماماً، غير أن الفارق بيني وبينهم أن لي أختاً صارت منهم ولم يعد من الممكن استعادتها بعد أن ماتت على ملتهم دون إمهالها الوقت لتراجع نفسها.

الحبيب القمص دون أن يُجدي مسح يديه على عينيه في تجفيف دموعه السحابة، وهو يتابع بصعوبة:

كلما تذكرت أجمل أيام حياتنا ومعزتي الشديدة في قلبي، كنت أسأل نفسي: هل سنلتقي مرةً أخرى في ذلك العالم السماوي المقدس الذي اختلفنا على رؤيته وطريقة الوصول لنعيمه؟ فحاولت مراراً أن ألعب دور المحامي الذي يفتش في كل القوانين والداستاتير السماوية بحثاً عن البراءة لأخته التي لا يقوى على فراقها وصارت فرصة لقائها الوحيدة في يوم المحاكمة.

ببذل الذي قام بنشاط إصلاحي قوي في بريطانيا ونشر رسالة التوحيدية المدللة بأقوى البراهين المنطقية على بطلان إلهة المسيح ويطلان إلهية الروح القدس، وتفرّد الأب وحده بالإلهية والربوبية، وتعرّض هو وأتباعه لاضطهاد شديد وحُكم وسجن عدة مرات وتوفي أخيراً وهو سجين بسبب سوء ظروف السجن وسوء المعاملة فيه، وغيرهم كثير على مر التاريخ.

بالطبع قامت الدنيا ولم تعد بعد تلك القنبلة التي ألقتها إبرام خاصة بعد أن تأكدنا من اعتناقه للإسلام، وبدأ كبار الأساقفة في نصحه وإرشاده، لكن ثمة مفاجأة أكبر شغلتنني عن مثالي مشكلته، حين طلبت مني أختي مريم أن تحدثني في أمر خطير.

لمعت عينا القمص بالدموع عند هذا الحد، وخُيّل للشباب أن يبذل مجهوداً مضنياً لمنعها، وهو يتابع:

قالت لي في بادئ الأمر أنها ذهبت إلى رحلات في دير مارمينا ببرج العرب، الذي يوجد به قبر الأنبا كيرلوس، فوجدت الناس تسجد أمام قبره ويطلبون منه طلبات كثيرة تتعلق بالشفاء من المرض، أو النجاح في الدراسة، فلماذا يلجأون للقديسين والشفعاء ولا يدعون ربهم بلا أي وساطة؟ ولماذا نعترف لقسيسين هم بشرٌ مثلنا، ولا نتوب إلي الله بشكل مباشر بدلاً من هتك أسرارنا وخصوصياتنا أمام أناس داخلهم نفس الشهوات، وترادهم نفس الوساوس، ومن الممكن أن يستغلوا اعترافات البشر ويسيطروا عليهم مثلما حدث ذلك من قساوسة وراهبان تمّ سُلحهم؟

سألتها: "أنا أستمع للاعتراف، فهل تعتقدين أن أهلك قد يفعل ذلك؟" فيكت وأجابت: "مستحيل أن تفعل، لذا لا أريدك أن تكون مثلهم.. وأدعوك إلى الإسلام!"

تحولت الدموع اللامعة في عيني القمص إلى خطين ساخنين يسيلان ببطء على خديه وهو يتابع:

ورغم أنها وثقت في كآفرب المقربين لها، ورغم طبيعتي الكهنوتية



سأل الخالق في ما لا تفهمه، ومن المستحيل أن تفهمه إلا لو كان كل منهم إله مثله.

القصة أكثر وبدا وكأنه يحتضر وهو ينظر للشباب بانبيهار وتأثر

هو ذاك يا ولدي.. هو ذاك.

لكنك لم ترد على ما سافته لك آيات من شيبات وتساولات رغم أنك لديك ما يقال.

لأنني توقفت عن هذا الهراء منذ زمن يا ولدي، منذ أن اكتشفت أنه حرق في ماء البحر، وعبث لن يصل بأبناء أي دين إلى الحقيقة التي يزعمون أنهم يبحثون عنها.. فقد صار الأمر بمثابة لعبة تحدٍ ممثلة، يتفنن كل طرف في كيد الطرف الآخر رغم أن معظم من يثيرون تلك المواضيع والتساؤلات في كلا الجانبين غير ملتزمين بدينهم ولم يبحثوا فيه، إن هي إلا أسئلة وشبهات جاهزة بأخونها كما هي ويلقونها في وجه خصومهم غالباً من وراء جدر الكترونية في مواقع ومنصات شبكة الإنترنت وبرنامج باليتوك، فيتجادلون، ويتكلمون، ثم ينتهي الأمر بوصلة من السباب والكراهية وتبادل الأمنيات البشعة، دون أن يغير أي طرف قناعاته.. أما الإيمان الحقيقي فبعيد كل البعد عن ذلك.. وحين يوقر في القلب، يضرب في الروح والكيان والنفس فيتغير كل شيء، دون أن يحويه العقل أو تكفيه الكلمات.

على الأقل عليك أن تؤدي واجبك.

واجبي هو أن أمنع العبث وأصح مفاهيم الإيمان الصحيح وطرق النقاش لمن يبحثون عن المناقشة.. فقيمة الإيمان بالمسيح في تلك الحالة هي الصمت ما دما نثق في تصحيته الخالدة من أجل تخليصنا من الخطية، بل ونصلي من أجل الذين يلعنونا ويسبون إلينا.. إذ إن معركة من أجل إثبات الصواب بين جيشين يقفان على قشرة تلج ضعيفة معرضة للانهار، هي الخطيئة في حد ذاتها، ولا تعني سوى أن الطرفين حمقى

تعمقت في الإسلام بمنطق مختلف، ووجدت للشباب والتناقضات التي ارتأيتها في الإسلام ردوداً واجتهادات إسلامية كان من المستحيل أن أفهمها وأنا أقرأها بعين متحفزة ومتريص، وكتبت بالمثل اجتهادات لكل الشبهات التي ذكرها وغيره تجاه المسيحية، وذكرت معها نفس الوصفة السحرية لتجعلها سهلة الهضم.. أن يتخلى قارئها عن التحفز والتمسك بالأحكام المسبقة قبل قراءتها.

قبل أن أحظى بحضور مؤتمرات الحوار بين ممثلي الديانات الإبراهيمية الثلاث، بإشراف الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان وتعليم السلام.

التقيت هناك بالحاخام (موريس) وعدد كبير من رجال الدين اليهودي والإسلامي، ولأول مرة في حياتي تفهمت دعوات بعضهم لي بالإسلام من منطق أنهم يريدون لي الخير والنفع، ولأول مرة في حياتي كنت أتمنى أن تكون النجاة ليست قاصرة على المسيحيين فقط.

سألت الرب من بين دموعي هناك وفي أماكن أخرى: لم فرض علينا هذا الاختبار القاسي؟ لم علينا أن نفارق الأحبة في عالم الفردوس باسم طاعتك التي من المفترض أن تجمعنا؟ وما فائدة الخلود إن لم تكن مع من نحب؟ فكم من أناس تجمعهم أواصر القرابة والصداقة والمواقف والذكريات التي لا تنسى، غير أنهم ليسوا على دين واحد، فلماذا سيتفارقون يوماً بسببك وأنت إله المحبة الأجدر بتجميع كل الأشتات؟

قاطعه الشاب بشروء وكأنه يجيب نفسه:

ربما كانت الإجابة أنه ترك لبني الإنسان حرية الاختيار ليتقوا جميعاً على منهج واحد إن أرادوا، فرفضوا ذلك وتمسك كل منهم بمنهجه، ثم لاموا خالقهم لأنهم مخذرون، ولو كانوا من الخراف أو البهائم لسألوه: لم فرضت علينا الذبح والقتل من بني الإنسان ليأكلوا لحومنا؟ وعاتبوه على أنهم مسيرون.. فكل المخلوقات

(دميانة) بضحكة ساخرة، حملت جلجلتها الزنانة شماتة الكون،  
فإن تقول لـ (آيات) الباكية بشَفٍّ:

هل صدقت كلماتي الآن، أم ما زال يساورك الشك في أن  
رجال الدين لا يهتمهم سوى الرغبة في السيادة على البشر،  
والنصب عليهم باسم تعاليم ومقاسد زائفة، ليفوزوا وحدهم  
بالجنة المزعومة، لكن على الأرض، قبل الموت، حيث لا  
ينتظرنا بعده سوى العدم.

(آيات) على بكائها الصامت، فواصلت (دميانة):

وكيف ستمثلي كروشهم، ويحصلون على أفخر السيارات  
والبيوت، وشملأ أرصدتهم في البنوك بالأموال، إن لم يكن  
هناك إله يخفون به العبيد، ويستمدون من سلطاته وبطشه  
سلطات أقوى من سلطات الرؤساء والملوك والقباصرة والجيش  
والحكومات.

(آيات) بتحريك رأسها بميثا ويساراً بسرعة أخذت تزداد، وتزداد،  
(دميانة) حاجبها وأمسكتها من كتفيها وهي تسألها:

لماذا تهزين رأسك هكذا؟

(الفضت) (آيات) وصرخت فيها:

سأكذب كلامك حتى ولو بمنطق التعنت والعناد الذي يصدر  
عن عديمي الحجة.. وكفاني أن أنكئ على انتمائي وقناعاتي  
الدينية بحكم الوراثة، وأعتبر أن كل ما سمعته منك محض  
كذب واقتراء وجهل، حتى ولو لم يكن لدي ما يثبت ذلك.. فقط  
سأظل فخورة بمسيحييتي التي ستدخلني الفردوس، ولو لم أنل ما  
أصبو إليه في عالم الملكوت ووجدت بعد موتي العدم، فيكفيني  
أن أعيش على تعاليم فيها الخير والسعادة لمتبعيها.

لسعت عينا (دميانة) بالسخرية والتهكم، وسألتها:

- ألا ترى أن الصمت أحياناً يتم تفسيره بأنه ضعف في المبدأ  
وفالاش في الرد، مما يدفع الطرف الآخر في التماذي؟

- والرد أحياناً لا يحسم الجدل ولكنه يجرك إلى معركة قد  
تنتهي.. وندخل جميعاً في حرب كلامية تُوغر القلوب بال...  
والعفت ويكون الانقضاء بالأسلحة أمراً حتمياً في نهاية المطاف.

- صدقتني يا بُني الحرب الكلامية الدائرة حول الله لن تصل لشيء  
ما دام الأمر مجرد مقارعة للحجج واستخدام مقصور على العقل  
العاجز بطبعه على استيعاب أمور فوق مستوى الفكر.. ومهما  
سدد أبناء كل دين من كلمات الإهانة والتكفير نحو الآخر فلما  
منهم أنها ضربات قاضية ستحسم الجولة وتهدم الدين المخالف..  
فلن يجدوا إلا تعلقاً زائداً من الآخرين بدينهم حتى وإن لم يجدوا  
الرد المناسب على من يشنون عليهم الحرب.. فحقيقة الأمر  
أن الأديان تكتسب قوتها كلما زاد ضعف معتققيها وشعروا  
بالاضطهاد، ومهما اشتد وطيس المعركة فلن يصل أي طرف  
إلى شيء لأن مفتاح الإيمان في القلب وليس العقل.

ثم التقط القمص نفساً طويلاً ليقول آخر كلماته في تلك الجلسة:

- وباfterاض أن كل الأديان صحيحة ومقبولة من الرب دون اتهام  
لدين بالتحريف أو الكفر، فسيدخل معظم البشر الجحيم أيضاً،  
لأنهم لم ينفذوا تعاليم الكتب التي آمنوا بها.. فلماذا لا يبحث  
كل إنسان في دينه ويهتم بتنفيذ تعاليمه واجتنب نواحيه قبل أن  
ينصب من نفسه إلهاً وحكماً على أديان ومعتقدات الآخرين؟  
هل لديك إجابة؟

هز الشاب رأسه بالثقي، فقال القمص بأسى:

- أنا أخبرك.. فالمتشددون لا يعبدون الله، ولا يعبدون الدين، بل  
يعبدون انتماءهم نفسه.

- وفنالك الوسيم؟

- سأ تزوجه مهما حدث، حتى وإن ثبت أنه غير مسيحي، في ذلك مثل الكثير من المسيحيات اللاتي تزوجن من مسيحيين ولم يتسبب الدين في تعاستهن كما زعمت.

- أخشى أنه هو الذي قد يفرط فيك بعد أن وجد في غيرك ما تعففت عن منحه له بعد أن منحتيه لغيره قبل أن ترتمي في حضن المسيح.

- ماذا تقصدين؟

- فتشي وراءه جيدًا يا عزيزتي، فربما وجدت في تناقضك الفوز به.

أقلت (دميانه) قبلتها ثم نهضت من على المصطبة متجهةً إلى غرفتي قائلة وهي تمصص شفثتها:

- فللخطايا رائحةٌ فواحَةٌ تستثيبها أنوفُ العاشقين، ويشمها من على بُعد أصحاب الخبرات ممن أكل عليهم الدهر وشرب مثلي، وللمرة الثانية ستركبن أني كنت محقة.

ثم أغلقت الباب خلفها بعنف لتتنفض (آيات) في مكانها وهي تحاول أن تطرد من رأسها أي أثر للشك في فتاها الأعلى من مستوى الشبهات، لكن عينا، ما كان لأثني أن تستثني حبيبها من تساؤلات الريبة والشك لا سيما إن كان محط أنظار الآخرين.

أخرجت هاتفي المحمول من حقيبتها، مدفوعةً بكلمات (دميانه) التي قادت تصرفاتها، لتفتح موقع فيس بوك، وتبحث عن الحساب الشخصي للمدعوة (كريستين)، دون أن تعرف لم اختارت هذا الاسم تحديدًا حين طرأت في رأسها الوسالوس..

وجدت حسابها الذي لم يكن ضمن قائمة أصدقائها، وتصفحت عند دخوله تلك الصور الجديدة المرفوعة مؤخرًا، وكم اللاهثين خلفها في التعليقات، دون أن تشعر على ما يبرز نيران الشك المتوهجة في أعماقها، ثم أخذت تصفح الكلمات التي يكتبها المستخدمون للتعبير عن حالاتهم

الراجية، وما يفكرون فيه، وفجأة وقعت عيناها على كلمات ليست  
الكلمات كتبتها (كريستين) منذ أيام قلائل:

سار للخطيئة معك طعمٌ خاصٌ فاق روعة الحلال.. حتى أني ندمت  
على كل لحظة لم أذق فيها طعمك، وكان الذنب الأكبر في حبك هو  
عدم الوقوع في الذنب..

سحكي في خواطرك حين تجردنا من الملابس واللحم والدم والعظام  
سردنا نفسًا واحدًا أنا شبيهة، وأنت زفيره؟

من عانقتي وكان لا أحد غيرك يعرف معنى العناق..

من قبلتني وكان القبله لم تخرع بعد..

لم سترمز لذاتك باسم مستعار في بطل يحكي جزءًا من الحقيقة، لتبقى  
هويتك جزءًا محذوفًا من النص، لا يظهر حتى في ضمير الغائب؟

لا يهم ما ستخبر به الآخرين، فقط يعنيني كم أنا محظوظة بك يا  
شيطاني الحارس.

أغرست الكلمات في قلب (آيات) كحرايب حبشية مسنونة على أسننها  
السم الزعاف، وشعرت وهي تخور أن جسدها لوح زجاجي أصابه  
السرطان فتصدع وامتلأ بخيوط الشروخ والوهن، ولم يعد ينقصه سوى  
لمسة بسيطة ليقتت إلى ذرات تذروها الرياح كان لم يكن.

دخلت على حساب فتاها الوسيم وسألت صورته بنظراتها الدامعة بعد أن  
صارت شكوكها في منزلة اليقين: لم فعلت ذلك؟!

ومن جديد فرّت من الواقع المؤلم إلى مملكة الورقة والقلم، غير أنها  
في هذه المرة لم تكن ترسم عالمًا جديدًا على مقياس أحلامها وأمنياتها  
مثلما اعتادت؛ بل تكتب بحبر من دم أصعب لحظات الألم حين ينزف  
قلب العشاق في لحظة الاستيقاظ على حقيقة غير متوقعة، ولا محتملة  
التصديق..

وبدأت يدها في الكتابة بما تمليه عليها دقائق قلبها:



- قيل أن ألكاه، كنت أعيش أكلينيكيًا.. مجرد عقل موصول بأجهزة الوجود وخرائط الحياة. ويعد أن التقيتك أدرك لأول مرة كيف يمكن أن تكون الحياة أجمل من الجحيم فقط إذا كنت فيها.. فقد كنت من قبلك أرضًا بورًا

هامة، فلما وطنتها قدمك اهترت وريت وأنبئت من كل زوايا بهيج، وصار أمل لقلبك من حين لحين، وقودًا يدفع آلة زماني نحو غد أفضل أمّني روعي به، دون أن أكف عن التفكير في اختلاق الحجج والمبررات لجذب انتباهك، ومشاهدة الاهتمام في عينيك الوضاعتين الأعظم من ألف ألف شمس..

كنت كلما أهرب منك، أفر إليك في موضع آخر من الخيال، أنصب فيه مسرحة لا يحوي سوى ديكور ملامحك التي تغار منها الملائكة، وأجري فيه بروقات لا نهائية لأحاديث ينطلق فيها لساني بالبلاغة والفصاحة والعمق تارة، وأستجلب فيها النكات والمواقف الكوميديّة تارة أخرى، وأفكر كيف أصنع منها حديثًا ممتعًا يسرق قلبك ومشاعرك ويسلمهما لقلبي المفتون بك، فيأتي الواقع بما لا تشتهي السفن، وأقف في حضرتك كالمنسجورة، لا أملك سوى التلعثم كطفل يتعلم الكلام.. تحته عينك أن ينطق، أن يبيح، لكن عيّنًا، تنتحر الكلمات على شفّتيه وتلقي بنفسها في عالم النسيان!

مع حروف كلماتها الأخيرة، أمطرت عيناها من جديد لتغرق دموعها دولة الصفحة التي أوت إليها بخوارها ومشاعرها كأخر ملاذ تبقى لها في خضم تلك اللحظات العصيبة، فواصلت الكتابة دون أن تجفّ الدموع:

- كنت أموت في حضرتك ألف مرة وأنا أدرك أن اللقاء مهما طال سينتهي بوداع، وأحيا في الوقت نفسه لحظات سعيدة سيؤديها الدهر حتى بعد أن أفنى ويطوئني النسيان، قائلة لنفسي: لو لم تمنحني تلك الحياة البائسة سوى هذا الإنسان لكفى.

حتى حين اهتز إيماني بالمسيحية التي انتظرت منها أن تدخلني الفردوس وتعضني عن آلام الدنيا، قلت لنفسي: كل هذا لم يعد يهم، فقد أتى إليّ الملكوت هنا على الأرض مع هذا

الإنسان الذي لا مثيل له.. فهو أول تعويض من نوعه عن الجنة بما هو أغلى من الجنة!

ربما كانت وقاحة مني أن ألومك على الوقوع في خطيئة واحدة، وأنا التي سقطت قبلك في كل أنواع الخطايا مع كل صنوف البشر، بعد أن سرت مع الشيطان الخفّ بالخفّ في تلازم لا انفصال فيه، لكنني صرت بعد العثور عليك إنسانة أخرى لعلها تكون جديرة بذلك النموذج النادر الذي لم تر له مثيلًا في البشر وقد ارتقى إلى مصاف الملائكة، فإذا به أسفا صار بعد معرفتي مجرد ساقط، مثلما سقط الكاروب وتنجست مقدسه!

مرت بأنفها يحرقها بمخاطه اللزج الذي لم تعد قادرة على ششنته، ركت دفتراها وفتحت حقيبتها لتخرج منها مناديلها الورقية وتسمح بها البلب المالح الذي يحضر بلا استئذان كلما تقافت مشاعر البشر في الحزن أو الفرح على حد سواء، ثم تمتعت وهي تسمح دموعها وقد مل التحفز في ملامحها بدلًا من الانكسار:

- إن كانت الخطيئة هي قدر كل البشر لا محالة، فلنخطئ مع من نحب!

\*\*\*

"لن يكتمل مخطئك.. خذها مني كلمة، ستفشل في النهاية"

فألها طيف (دميانة) الحبيب داخل جسدها إلى طيف الرجل ذي العينين الزرقاوين المسيطر على بدنّها، فابتسم ساخرا وتألقت عيناه بشدة وهو يرد عليها ببقّة مطلقّة:

- جميعهم يسقطون في النهاية..

دائمًا ما تكون فرصة الإغواء الأولى صعبةً تجاه من يملكون المبادئ الخيرة، لذا ترجح كفة الإيمان الراسخ أمام كفة الخطيئة عند أول محك، لكن عبقرية الذنوب والشهوات أنها تتراكم وتتكاثر طول الوقت، بينما مأساة الإيمان أنه يضعف ويتناقص باستمرار مع ضربات القدرة المؤلمة، واختبارات الحياة التي غالبًا ما تكون عسيرة، حتى تأتي اللحظة التي تخور فيها القدرة على الصمود والاحتمال تدريجيًا، فتخرج كفة السيئات وتهبط



أسفل شيئاً فشيئاً وهي تُخرج لسانها لكفة الفضيلة التي  
وترتفع، حتى يأتي الوقت الذي يجد فيه صاحب الخطيئة  
وقد تورط فيها، لا يعرف متى وكيف سقط، بنفس ذات الدهن  
حين ينظر أحدهم لصورته وهو صغير ويتساءل: متى وكيف  
كبرت إلى هذا الحد الذي يفصلني عن شكلي القديم؟!

سرحت في كلماته قليلاً ثم حاولت أن تدحض منطق قائلة:

- لقد علمها الفضيلة، ونأى بها عن السقوط.. لو كانت إرادته قابلة  
للثني لخار منذ أول لحظة لقاء، ما رأيته منه بعيني يجعلني  
على يقين في أن لديه إيماناً أعنى من الشهوات.. سيدحض  
منطقه حيلك الرخيصة وسترى.

- النزوات والخطايا تحدث أصلاً لأنها لا تخضع للمنطق، والآن  
ما سقط فيها حكماء ورهبان وشيوخ وقادة هم أبعد ما يكونون  
عن السقوط بمنطق البشر، ثم إنك لم تشاهدي ما شاهدت حين  
انفرد بتلك الصاروخ الأخرى.

قاطع حديثهما صوت طرقات على باب الحجرة، فبرقت عيناه وقال لها:

- ها هي فتاتك جاءت لتطلب مني المساعدة على أن تبات الريشة  
في المِخْلَة.

ثم انتشر طيفه في جسد (دميانة) ودبّت فيه الحركة، فنهضت من على  
السريр لتفتح يدها الباب وتتأمل وجه (آيات) الباهت، المرسوم على  
وجنتيه خُطان من الكحل..

- هل فكرت في كلامي؟

قالتها (دميانة) بصوت أجش، فأجابتها (آيات) بصوتٍ باكٍ:

- بل صدقته.

- عظيم.. الآن يمكنني القول إن هناك أملاً في أن تحسلي على  
سعادتك.

انتحبت (آيات) وهي تقول بنظراتٍ زائغةٍ وعينين ذابلتين:

- لقد فقدت الثقة في كل شيء.. ساعيش وأموت في تعاسةٍ وبؤسٍ يا دميانة.

لها (آيات) وهي لا تزال تريح رأسها على صدرها:

هل تساعدينني على ذلك؟

أجابتها (دميانة) بخبث:

كيف يا عزيزتي، فأنا امرأةٌ عجوزٌ كما ترى؟

رفعت (آيات) رأسها وتسوّلت منها الحنان وهي تقول بتوسل  
واستضعاف:

- فقط أريد غرفتك ليلة واحدة.. ساسرق السعادة ما دامت الدنيا  
تبخل أن تهاديني إياها.

دخل جسد (دميانة) أخذت روحها الحبيسة تصرخ: "لا يا آيات، إياك أن تقضي".

لكن لسانها الخاضع لإرادة الرجل المريب قال بترحابٍ شديد:

- على الرحب والسعة يا ابنتي.. فصدق من قال: "وما نيل المطالب  
بالتمني ولكن، تؤخذ الدنيا غلاباً"، ثم اني لديّ بالفعل أمور  
أخرى طالما أردت الانتهاء منها منذ زمن، وهذه أفضل فرصة.

قالت جملتها الأخيرة بطريقة ذات مغزى، وقد لمعت عيناها ببريق  
مريب لم تلاحظه (آيات)، فيما تردد داخل الجسد ضحكات الرجل  
المجلجلة غير عابئ بصرخات طيف (دميانة) التي لم تياس وهي  
تواصل النداء بصوتٍ داخلي مكبل بقيود الصمت: "لا يا آيات..  
احترسي قبل قوات الأوان".

\*\*\*

\* مؤلف هذا البيت، هو أمير الشعراء أحمد شوقي.

"هل تصدق أنني بحثُ له - رغم معرفتنا منذ أيام قليلة- بذلك السر الذي حكيته لك بعد معرفتنا بسنوات؟".

قالها القمص (يوسف) بدهشة وتجبب للحاحام (موريس)، فابتسم الأخير وقال:

- لهذا الفتى قدرة عجيبة في اختراق دواخل من يعرفهم خلال فترة وجيزة دون استئذان.

ثم سيطر الحزن على ملامحه، وأردف:

- لقد حكيت له أيضاً عن حكايتي مع دميانة وأدق أسرار حياتي التي لم أقصها لمخلوق من قبله.

عيث القمص بلحيته وهو يقول:

- وهذا كل ما أخشاه يا موريس.. فما زلنا نجهل هوية هذا الفتى، ورغم ذلك أرى انجذاب تلك الفتاة له بشدة، وهذا وضع لا أرضى به في كاترانيقتا.. فأبناء الله سقطوا بفعل النساء كما جاء في سفر التكوين حين عاشروا بنات الناس بعد أن رأوا من حسنهن وجمالهن، فولدن لهم أولاداً عمالقة كان بهم ابتداء الشر على الأرض.

رد عليه الحاحام، وقال:

- أزيك من الشعر بيتاً بشأن ما ورد في تراثنا العبراني حول قصة هبوط ملاكين إلى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهاري، ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له، لكن شمهاري ما لبث أن وقع في حب امرأة تدعى الزهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلعها على اسم الله الأعظم الخفي الذي يُخرج به إلى السماء، ففعل ذلك إرضاء لها، وما أن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في

الصعود إلى السماء قبل أن تقي بوعدھا لشمهاري، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السبارة، وحولها إلى الجرم المعروف بكوكب الزهرة.. لذا أتفق معك أن الشاب والفتاة كليهما خطر على الآخر بالفعل.

ابنسم ابسامة يشويها الألم، قيل أن يستطرد:

لكن.. ليس بسبب أن أحدهما معلومة ديانتھ، والآخر قد ينتمي لدين آخر.. الأمر تكمن خطورته في أنهما قطبان مختلفان، وحثاً ما سينجذبان حتى الالتصاق.

سأن القمص على كلماته:

- ما دمت تتفق معي، فلا بد وأن نجد للشباب مكاناً آخر يسكن فيه بعيداً عن مبنى الخدمات التابع للكاترانيقة، رغم أنني أحببته، لكن أفضل أن أتواصل معه بعيداً عن هنا.

أوح (موريس) بسبابته قائلاً:

- حسناً، لكن عليك أنت أيضاً أن تُعيد الفتاة التي عاملتها بفظاظة إلى حضن الكنيسة وأن تشرح لها ما سألت عنه، قيل أن تنقد ثقتها في الرب وتتحرف.. لا تنس أن الشيطان اختبر مسيحك نفسه 40 يوماً، ما بين رشوة، وجوع، فما بالنا بضعاف الإيمان وقد غلق رجل الكنيسة الباب في وجوههم.

ارتسم التوتر على ملامح (يوسف) وهو يتذكر حين فشل الشيطان في إغواء المسيح، كيف لجأ إلى إلحاق الضرر به عن طريق تلامذته، فدخل في تلميذه (يهوذا الإسخريوطي)، وأفشى سره مع رؤساء الكهنة وقواد الجند واتفق معهم على خطة تسليمه إليهم، حتى تم الإيقاع به (يسوع) في النهاية.

\*\*\*

طرق الشاب الوسيم باب حجرة (دميانة)، فأتاه صوت (آيات) من الداخل:

أأريد مساعدتي؟

لمعت حبل أفكاره وتيار الأسئلة الذي توافد على عقله بصوتٍ أكثر رقةً وسعاً في آن واحد، ف شعر أن كل ما فيه يذهب إليها، إلا قديميه اللتين نادان أن تنزلقا هما الأخريان رغمًا عنه كمن يتعرض لسحبٍ شديدةٍ في البحر ليجي يغشاه موج، فقرر أن يسبح عكس التيار وقال بصعوبةٍ وهو يجاهد نفسه:

سامحيني يا آيات، أريد فعلاً لكني لا أستطيع.

لمعت عيناها بدموعٍ حقيقية، ثم تصنعت الألم والمعاناة وهي تمد ذراعها لتأخذ الدواء من كرمود مجاور لسريها، قبل أن تسقط زجاجة الدواء أرضاً فانثنت لتلتقطها ليبدو ظهرها العاري الجذاب وقد انسدلت عليه مصلات شعرها وجعلتها أشبه بامرأةٍ من نساء الجنة لكنها غطست ولم تلبث ثانية لتسقط من فوق السرير بشكلٍ مفاجئ وهي تتأوه بصوتٍ في الماهر الألم وباطنه الإغراء، حتى أن لكتلة الصخر أن تذوب بفعل نيران الحب والشهوة التي قضت على احتماله البشري الذي مهما كان قويًا إلا أنه في النهاية كان له حدود.

اندفع، وهو في حقيقة الأمر مدفوع، ليقطع المسافة التي تفصله عنها، ويمسك بيدها ويعينها على النهوض، فتعلقت في كتفيه وتأرجح صدرها أمامه قبل أن ترتمي في حضنه وتظهر له بعينين يملأهما الشبق، بينما لسعته أنفاسها بأجل حمى يمكن أن تصفع وجه العاشق..

مسحت شعره بيدها وأراحت ذقنها على كتفه وهي تضمه أكثر لحضنها وتقول بكلماتٍ مرتعشةٍ خرجت مع زفير صدرها الحار:

- الآن فقط بدأت أتعافى.

ومن خارج الحجرة كانت (دميانة) تسترق النظر عبر فتحة الباب الموارب

وضع راحته على الباب فوجده مفتوحاً ويتحرك مع دفعة يده للداخل بصريز مزعج شتته شذى ذلك العطر الذي عبأ هواء الحجرة وتسلل لأنف الشاب وملاً نفسه بالانتشاء.

وقع بصره على (آيات) النائمة على السرير بمفردها وقد تورد خدها، وتكلمت عيناها، فيما تركت خصلات شعرها الحريرية ذات اللون البني الفاتح تسبح بحرية على وسادتها البيضاء، وتذكر مكالمتها الهاتفية التي استغاثت به فيها، مؤكدة أنها تشعر بالألم شديد لا يُحتمل، ولم تجد سواه لتطلب منه المساعدة بعد أن غادرت (دميانة) المكان وقالت إنها ستبيت في الخارج هذه الليلة.

"هل يجعل المرض النساء بهذا الجمال الصارخ؟"

كأنه كان يلقي سؤاله بصوتٍ مسموع وقد تسارعت دقات قلبه مع رؤية وجهها الملائكي، وعيناها اللتان تناديان به بياض وولع، لكنه سرّها في نفسه وحاول أن يبدو مترثاً وهو يقول:

- ألف سلامة عليك يا حبيبتي.

افتعلت سعةً مصطنعةً حركت خصلات شعرها على وجهها، وحسرت الغطاء عن كتفها العاريتين بفعل قميص نوم أبيض ذي حمالتين رفيعتين، أبرز مفاتيها بشكلٍ مثير، قبل أن تقول بلهجةٍ مزجت بين النعومة والضعف:

- آسفة على إزعاجك، لكنني متعبةٌ جداً.. لا أستطيع حتى أن أرفع رأسي من على الوسادة لأتناول الدواء.. (رفعت ذراعها العاري من تحت الغطاء وأشارت للشباب) هل لك أن تساعدني على الجلوس لو سمحت؟

تجمّد في مكانه لحظاتٍ تضاعفت فيها دقات قلبه، فمدّت ذراعها أكثر

لعل قميصه من على جسده، ثم أمسكت حزامه فأغمض عينيهِ حتى  
 يترجع وهو يدفعها بعيداً عنه قائلاً بصوتٍ ضعيفٍ كاد أن  
 يهجم أمام شهوته التي تضخمت كوحشٍ قادرٍ على ابتلاع الجميع: "معاذ

اللعنة عيناها وهي تسقط أرضاً غير مصدقة نفسها، فيما أخذ ينهج  
 أمام صدره ويخفق بسرعة من فرط مقاومة نفسه التي جرفها التيار،  
 أعادها بمعجزة..

ثم جذب قميصه ووضعه على جسده، وحاول مغادرة الغرفة، فركضت  
 الباب لتمنعه، فتسابقا في الخطوات حتى جذب الباب قبلها وقتحه  
 وهو في الوقت الذي تعلق فيه بقميصه من الخلف، وبمجرد انفتاح الباب  
 رأيا بهما أمام..

"أبونا يوسف؟!"

والله (آيات) بهلع وهي تجذب ملاءة السرير لتستر بها جسدها العاري،  
 بينما اتسعت عينا القمص وهو يوزع نظراته بينها وبين الشاب الذي حاول  
 الزحف أزراً قميصه بارتباكٍ شديد..

"سحق من قال إن الزمن أفضل جهاز لكشف الكذب.. وكشف الحقيقة.."

والله القمص بصوتٍ يملؤه القرف والاستهجان، وقد أطلت من عينيهِ  
 طرقات استهلاك مخزون الإنسانية الاستراتيجية من الاحتقار والاشمئزاز،  
 ثم أرفف موجهاً حديثه للشباب:

من الآن لا مكان لك معنا أيها المُمثل البارء.. عُد إلى حيث  
 أنتبت (حوّل نظره نحو آيات وتابح) وأنتب أيثنا الورعة الكاذبة،  
 ابحتي عن شرفك أولاً قبل أن تبحتي عن الحقيقة خلف الشبهات  
 المتعلقة بدينك.

وقبل أن ينبس الشاب ببنت شفة، دوى في المكان صوت سارينة النجدة،

وقد أخذت عيناها تتوهج، قبل أن تعقد حاجبيها وقد شعرت بشيء ما  
 غير طبيعي يحدث حولها، فاقتربت من سور السطح وألقت نظرةً للأسفل  
 ضالقة معها عيناها كعيني نمر وهي تجز على أسنانها بغضبٍ شديدٍ  
 قائلةً بصوتٍ لا يمت لصوتها الحقيقي بصلة:

.. سحُناً.

وداخل الغرفة كان الشاب الوسيم يلوذ بالصمت، وقد ماتت ذراعاه على  
 كتفي فتاته شاعراً لأول مرة بهذا الطعم المميز من اللذة التي تشبه الماء  
 المالح، كلما شرب منها شاربها كلما ازداد عطشاً، وقد استيقظت داخله  
 كل الخوازل النائمة، التي استيقظت من قبل عندما سمع فوق نفس  
 السطح أصوات الشبق والمتعة في جنح الليل وتساءل عن سر مصدرها،  
 ويبدو أنه على أعقاب عالمٍ جديد سيولجه لأول مرة ويسير أغواره، فقط  
 إذا ما نجح في إسكات صوت الصراع المشتعل داخله بين رغبةٍ في  
 ضم من أحبها قلبه بقوة أكبر إلى حد الالتصاق والتطابق، وصوت ينزرد  
 صدها في أعماقه دون أن يعرف مصدره، ويقول له بإصرارٍ لا يكل ولا  
 يمل: توقف..

أسقطت (آيات) ورقة التوت الأخيرة وتجردت من قميصها قائلة: "هَيْثُ  
 لك"، فضمها أكثر وشعر برغبةٍ عارمةٍ في اقتحامها اقتحاماً يتحولان بعده  
 من اثنين لواحد، له نفس المشاعر، والأحلام، والأمال، فتتلاصق الحقائق  
 والمعاني والأحاسيس، ويحدث الانسجام من هذا التماسٍ ليسقط معه  
 آخر قناع للواقع، وتذوب الأنانية، ويصبح لهما مصيرٌ مشتركٌ، وطريقٌ  
 يمشيانه معاً دون أن تفرقهما تفرعاته ومساراته الجانبية.

ما زالت أمامك الفرصة للتراجع..

بدأت في فك أزرار قميصه، فطاعها باستسلامٍ وقد همت به وهمٌ بها..  
 هناك خطايا يقع فيها المرء، فلا تعود حياته بعدها إلى ما كانت عليه  
 أبداً



- رياه، الشرطة علمت أنك هنا.

أزاح الشاب القمص، وغادر الغرفة سريعاً ليلقي نظرةً من فوق السطح شاهد من خلالها 3 سيارات شرطة يغادرها مجموعة من الجنود والضباط المدججين بالسلاح، فضم قبضته بغضب ثم تذكر أنهم يؤدون واجبهم، ولا ينبغي له أن يقاتلهم، فاتجه نحو (آيات) التي ارتدت قميص نومها ولكمها في وجهها لكمةً تفجرت معها الدماء فصرخت بشدة، بينما اتسعت عينا القمص وحاول التراجع لكن الشاب قبض على يده وقال بصرامة:

- لا تخف يا أبونا.. كان ذلك لمصلحتها حتى نقول للشرطة إنني

- تهجمت عليها وتتقي عن نفسها شبهة إهوائي.. ستشهد معها أنك جئت لتتفقددها، فوجدتني أهددها للمبيت عندها بالإجبار بدلاً من أن تعرضا نفسيكما للمساءلة من أجل بانس مثلي.

ومن مكانها المختبئة فيه بالسطح، شاهدت (دميانة) يعيون ترمي بشرر ذلك الفتى وهو يقفز قفزةً من قفزاته المبهرة سبح فيها في الهواء كأنه صقر يحلق بجناحيه المفرودين فوق أعالي الجبال، ليهبط فوق سطح بعيد، ومنه واصل القفز فوق باقي الأسطح حتى اختفى عن الأعين تماماً.

\*\*\*

والطبيب المعالج للعقيد (يحيى) في الطريقة المؤدية إلى غرفته المستشفى الذي يعالج فيه، قبل أن ينثني مقبض الباب ويندفع إلى الداخل فتستقبله ممرضة وامرأة شحبت ملامحها وذبلت عيناها الباكيان، وهي تشير إلى جسد العقيد العاري الموصل بالأجهزة الطبية والتنفس الصناعي، قائلة:

- ساعدنا يا دكتور.. زوجي يحتضر.

راعت الممرضة بسرعة وهي تشير إلى شاشة جهاز رسم القلب الذي يرسم منحنيات مخيفةً تغيد بتدهور حالة قلب العقيد:

لقد تعرّض جسده لانقباضةٍ عنيفةٍ ثم اضطربت من بعدها نبضات قلبه كما ترى.

الطبيب حاجبيه وهو يلقي نظرةً على الشاشة قبل أن تتحول منحنيات قلبه من مستقيمة إلى خط مستقيم فصاح في الممرضة:

إلى جهاز الصدمات الكهربائية.

لما أتته الجهاز المكون من صاعقين كهربائيين فأمسك به واتجه نحو صدر العقيد العاري وقد أدرك أن مريضه تعرّض لموتٍ مفاجئٍ للقلب وفان بطيني مع ارتفاع في ضغط الدم فصاح في الممرضة:

- استدعي فريق الطوارئ فوراً.

ثم وضع الصاعقين على صدر العقيد ومنحه صدمةً كهربائيةً وعينه تتأمل شاشة جهاز رسم القلب التي ما زال رسم القلب عليها في صورة خط مستقيم دون أي تحسن، قبل أن يمدّه بصعقةٍ جديدةٍ وهو يُغمغم حتى تسمعه زوجة (يحيى):

- لو عاد قلبه للحياة، فسيفيق من غيبوبته.. ادعى الله كثيراً في تلك اللحظات التي تأمل أن تمضي على خير.

\*\*\*

هام الشاب الوسيم على وجهه في الشوارع والطرق، منكسر النظر مترنح الخطى، مترجع الأعطاف، لا يدري إلى أين سيجد رحمة الله المرة بعد أن تهالكت سفينته، وتمزق شراعها، وغاب في الأفق أي أثر لجزء جديد يرسو عليه، فيما بهت نور الشمس في السماء وخفت حرارتها في ساعة العاصري.

تحسّس ملابسه فافتشف ضياح هائقة المحمول، ليفقد معه وسيلة اتصاله الوحيدة بهذا العالم.

ومن جديد، وجد نفسه في منطقة (بحري)، على نفس ذات كورنيش البحر الذي يحاول أن يلامس فيه الحقيقة..

نظر إلى السماء وقد حارت على شفثية الكلمات، لكن قلبه الذي ينبض بحب ربه لم يكن في حاجة إلى الكلام، وقد ارتقى شعوره بخالفه عن المفردات والألفاظ..

"قَمَرٌ.. قَمَرٌ.. قَمَرٌ سيدنا النبي قَمَرٌ"

اخترقت الكلمات مسامعه بصوت خلّاب شجي، يضع تنوين الضمّتين على حرف الراء الذي يمدّه في النطق بغنة جميلة تتسلل من الأذن إلى القلب، فأرھف السمع ليواصل الصوت جملةً جديدةً مدّ فيها حرف الياء بنفس الغنة الممتعة:

"وَجَمِيلٌ.. وَجَمِيلٌ.. وَجَمِيلٌ سيدنا النبي وَجَمِيلٌ"

ثم بدأ صوتٌ من حشود البشر يردد خلفه بنفس طريقته في الإنشاد حتى هبّت على وجه الشاب الوسيم نسمةً عليلَةً هدأت من روعه لتكون بمثابة

العامل المحفّز ليرتدّد صدى الإنشاد في عقله وقلبه، فأغمض عينيه ولحس أنه مرّ بأجواء مشابهة كهذه من قبل، وفجأة انتفض وفتح عينيه بعدما بعد أن رأى بقلبه -وهو مغمض العينين- أطيافاً بيضاء تصعد إلى السماء الأعلى وكادت روحه أن تصعد معها، فإذا به أمام مسجد (العباس المرسى) الذي يطلق أهل (الإسكندرية) عليه -بالخطأ- (موسى أبو العباس)، لتبدو قبابه المميزة شامخة في الأفق وقد غطتها الزينة مختلفة الألوان، بينما امتلأت ساحته وكل الشوارع المجاورة به سيل متدفق من آلاف البشر الذين أتوا من كل فج عميق للاحتفال بليلة الأخيرة من سبع ليالٍ تقام احتفالاً بمولد ذلك الشيخ الصوفي، أحد أعلام العارفين بالله في تاريخ الصوفية، وأحد تلامذة الشيخ (أبي الحسن الشاذلي)، بينما واصل المُنشد:

"ألف المصطفى كالورد نايي"

والجمع خلفه: "الله الله"

وعطرها يبقى إذا مسّت أيادي

الله الله

وعمّ نوالها كلّ العباد

حبيب الله يا خير البرايا

ولا ظل له بل كان نورا

الله الله

تتال الشمس منه والبدور

الله الله

ولم يكن الهدى لولا ظهوره

وكل الكون أثار بنور طه

ثم بدأ حاملو الدفوف الذين يرتدون جلابيب بيضاء في الضرب عليها

بإيقاع منتظم مريح للأذن بينما أخذ الجمع يردد مع المنشيد:

مولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا

على حبيبك خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلُوْدٍ بِهِ

سِوَاكَ عِنْدَ خُلُوْلِ الحَادِثِ العَمَمِ

مولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا

على حبيبك خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ

ولن يضيّق رسول الله جاهك بي.. إذا الكريم تحلّى باسم مُنْتَقَمِ

مولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا

على حبيبك خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ

ثم تغير إيقاع الدفوف ليزداد بضربات أقوى وأسرع على الدفوف مع كلمات نشيد جديد غناه مُنَشِدٌ آخر، قائلًا:

النبى صلوا عليه.. صلوات الله عليه

وَيُنَالُ البركات كل من صلى عليه

النبى يجلى الهوى.. النبى حبه دوا

يالا بيّنا نكون سوا.. عند النبى ونصلي عليه

النبى أنواره بان.. والحجارة لمحمد لانت

والطريقة الصعبة هانت.. كرامة لرسول الله

أخذ الحاضرون يتميلون يمينًا ويسارًا باندماج شديد وقد أسكرهم الحب الإلهي، والحنين لرسول الله حتى فقدوا الإحساس والسيطرة على أجسادهم التي خُفَّ وزنها وبدت في خُفِّ الريشة بينما واصل المُنَشِدُ إنشاده، في اللحظة التي عقد فيها الشاب حاجبيه وهو يتطلع إلى ذلك المشهد الأخاديعين الرهبة والحيرة.. فطالما تساءل عن المسلمين الذين لم يلتق بواجب

هم، فإذا به الآن أمام مليون منهم!

”يا مليونين“

سكنت الجملة مسامحه وهو يشعر بيد تربت على كتفه، فانتفض صرور في يوم عاصف وهو يلتفت لمصدر الصوت الذي خرج من تلك العجوز الغامض، بنفس ملامح وجهه شديد الكهولة، رغم جسده العلى منتصب القامة، ووجهه المشرق الوضاء رغم اسمراره الشديد، وتلك اللبسة الكثيفة شديدة النعومة التي تحيط وجهه بلونها الأبيض الثلجي، وشلى حتى صدره، فيما طالعت شعيرات حاجبيه حتى كادت أن تغطي عنيه الواسعتين المريحتين للنفس لاسيما حين يكون مظهرهما عسلي فلام اللون يُبهر الناظرين، وقد غطت شعر رأسه عمامة ناصعة البياض بنفس لون جلبابه خفيف الملمس وكأنه مصنوع من الشاش، وعلى وجهه ابت الابتسامة الغامضة التي لا تفارقه.

فجر الشاب فاه وهو يتأمله، بينما تساءل في نفسه: هل قلت مليون حسب عالٍ أم اخترق هذا الرجل فكري؟

كلما اقتربت من الحقيقة كلما استغنيت عن الحواس التقليدية التي تشارك فيها البشر مع الحيوانات، حيث هناك وسائل أخرى للتواصل بين الواصلين..

قلتها الرجل ”كهل“ بقيرة هادئة وقد بدأت ابتسامته في الغروب عن وجهه، فاستجعت عناء الشاب وتساءلت فقلت قلبي، حين خيّر إليّ أن يعينى الرجل تتالق بوهج غريب قبل أن يمد يده نحوه، فأردًا كفه وهو يقول بصوتٍ واثق، يسحر نفوس السامعين فلا تملك إلا الانصياع له:

- هيا بنا يا بُنَيَّ، فقد حان دوري في رحلتك.

\*\*\*

لقد سئمت من كلماتك التي لا تحفظ غيرها وتردها ببرود  
سخيف وكأنك تقف على خشبة مسرح.. (ألقي سيجاره وصرخ  
وقد فقد صبره تمامًا)، قل لي كلامًا جديدًا يا رجل، حتى ولو  
اعترفت أنك عاجزٌ عن هزيمته.

ملاح (نصحي)، ورن على المكان صمت تام بعد أن توقف  
أعمال عن عملهم، والتفت جميعهم نحو (ريمون) وذلك الرجل الذي كانوا  
يتمنون تجاهه بالرغبة لأسبابٍ يجهلونها.

صمت ملاح الرجل سخريتها المميزة، وتوهجت عيناه الزرقاوان بشكلٍ  
المرحفة الجميع حتى إنهم كذبوا أعينهم وهم يشاهدون ذلك النور  
المنبعث منها بشكلٍ خفيف، ثم تجمد بهم الزمن فجأة لتثبت حركتهم  
أماما وكأنهم تماثيل صلبة، إلا ريمون الذي أخذ يدور حول نفسه  
مسلقًا فيهم برعب، وحين اكتملت دورته وجد نفسه أمام الرجل الغامض  
الذي جذبه بيد واحدة من عنقه ورفعته من على الأرض قائلاً بلهجة باردة  
ألمها برودة الثلج الذي يجمد الدماء والأطراف:

- أنا لا ألوكم يا صديقي على وقاحتك.. بل هو خطئي من البداية  
حين لم أخبرك من أكون بقدرٍ كافٍ أن تصمت في حضرتي  
للأبد.

ثم نفخ فيه نفخة بسيطة، لكنه شعر أن أعاصير الأرض بأكملها تضرب  
جسده وتقتلعه من بين يدي الرجل ليطير للخلف مسافة 20 مترًا ويرتطم  
بأحد الحوائط الجسية فيططمها ويسقط معها بعنفٍ شاعرًا بكل عظمة  
من عظامه تنن وكأنها انسحقت في مكابس من فولاذ، وحين هم برفع  
رأسه وجد الرجل ذا العينين الزرقاوان أمامه وقد ذابت المسافة الفاصلة  
بينهما في لمح البصر فاحتضن حذاميه الضخمين وقال بصعوبة وهو  
يسعل بشدة، وقد تغفر وجهه وشعره وملابسه بلون الجبس الأبيض:

- أقبل قدميك كفى، لقد علمت من أنت يا سيدي!

وحين لاحظ منه نظرةً لأعلى ارتعدت فرائصه حين وجد السقف قد

ضجَّ الملهي الليلي بحركة العمال الذي يقومون بإعادة بنائه على  
وساقٍ تحت إشراف مهندس الديكور الشاب الذي قال لـ (ريمون) بابا...  
واقعة:

- كما ترى يا ريمون بك اقترينا من الانتهاء خلال وقتٍ قياسي  
وعدتك، وتصميماتٍ وديكوراتٍ أقوى بكثيرٍ من الشكل القديم.

التقط (ريمون) نفسًا من سيجاره وقال بعنطة:

- كان هذا عملك الذي منحتك عليه الرقم الفلكي الذي طلبت.

بهتت ملاح المهندس، ثم قال بغضبٍ مكتوم:

- أنا في الخدمة دائمًا.. عن إذاك.

ثم اقتلع حديثًا مصطنعًا مع أحد العمال، بينما نظر (ريمون) للرجل ذي  
العينين الزرقاوان وتوسل له بعينيه قائلاً بتوتر:

- كما ترى لقد اقتربت ساعة الافتتاح.

تأمل الرجل المكان بنظرةٍ ساخرة، ثم أجاب:

- مبروك.

تبادل (ريمون) النظر مع مساعده (نصحي) فأشار له الأخير حتى يكتف  
غضبه ولا يتسرع في الرد، قبل أن يتولى عنه مهمة الحديث قائلاً للرجل:

- نريد أن تكون الفرحة فرحتين يا سيدي كما وعدتنا.. فما زال أمر  
هذا الشاب..

قاطعته الرجل:

- لقد ضاق عليه الحصار وخارت قواه.. سأواجهه قريبًا وأقضي  
عليه.



اختفى فيما استطلعت هيئة الرجل لتبلغ عنان السماء، ومن أعلى تألف عينا الزرقاوان ككوكبين يلمعان في السماء، قبل أن يعود الرجل لهيئته ويعود السقف فوقه، قبل أن يتسم ساخرًا ويمد يده نحو (ريمون) ليساعده على الوقوف قائلاً:

- لا تقل ذلك يا صديقي.. لقد كنتُ أمزح معك فحسب.

ثم طرقت بإصبعيه الإبهام والوسطى فعد (نصحي) والعمال إلى وعيدهم وكأنهم لم يغيّبوا طرفة عين، قبل أن ينظر المهندس لحائط الجيب المتهدم، ويسأل بذهول:

- متى سقط هذا الحائط؟ لقد كنت أنظر له للتو وكان سليمًا!

دون أن يجد أحدهم ردًا يقوله، فيما اكتفى الرجل ذو العينين الزرقاوان برفع كتفيه ومط شفتيه بشكل ساخر بما معناه: "لا أعرف"، رغم أن نظراته كانت تنشي بأنه يعلم الكثير.

\*\*\*

اخترق الرجل العجوز الأسمر أمواج البشر الزهية في مولد (أبو العباس المرسي)، صاحبًا في يده الشاب الوسيم كجد يمسك بيد حفيده في رحلة إلى مكان يشاهده لأول مرة، مكتفيًا بالسير والمشاهدة دون أن ينبس ببنت شفة، فيما أخذت عينا الشاب ترصدان وتحفظان تفاصيل هذا العالم الجديد.

في الشوارع الجانبية المحيطة بالمسجد كانت هناك الأرجوحات، وعربات "النشان" يبنادق الرش، والألعاب النارية، ويانعو الطوى المنتشرون في كل مكان، وغيرهم من عمال "أرزقية" خلعو عبادة مهنهم ومشاعلهم، وارتدوا عباءة المهن والأنشطة المصاحبة للمولد ما بين بيع المسك، والعنبر، والعود، والسواك، والأسطوانات المدمجة المسجل عليها القرآن الكريم، ومطويات أذكار الصباح والمساء وقصار السور القرآنية، للحصول على مكاسب مالية بطعم التفحات والبركات، وحولهم أطفال ونساء بملابس متواضعة، ترتسم البسمة على وجوههم من شدة السعادة.

اختلطت روائح الطيب ببارود الـ "بمب" ودخان، مع عرق الزحام..

عانت السكينة والروحانية بضجيج البشر وأصواتهم المختلطة، وبدا السعد برمته لوحةً سراليةً سمت على التفاصيل، ولخصت التفاصيل الأساسيل المتضاربة في خطوط ألوان ممتزجة يستشعرها كل ناظر. سأل يختلف مع باقي الناظرين، ويتفق مع ما ينبض داخله من قناعات أفكار ومعتقدات.

الشاب بيد تجذبه من ساقه، فنظر نحوها فإذا بها الطفلة التي التقاها من قبل فوق سطح (دميانة) حين سألته عن دمية تلعب بها مع باقي السائلين الذين سألوه يومها أن يلبي لهم مطالبهم..

السمت له ببراعتها الملائكية، فأنشيت نحوها وضمتها بذراعه وهو يتذكر كيف قاسمته ساندوتش البرجر حين كان جوعان على البحر، قبل أن يمد يده في حوضه يداً تمتد نحوها بدمية جميلة أجمل من التي كانت تملكها..

سألت لوجه الرجل الكهل الأسمر الذي ابتسم لها وهو يحمل الدمية سائحا فيها بصوت عالٍ حتى تتضح كلماته في هذا الضجيج:

- اشكري هذا الفتى، فهذه الدمية هديةً منه.

هبت بسعادة وهي تُوزع نظراتها بينهما:

- شكرا.

ثم أخذت الدمية وركضت بها حتى ابتلعها الزحام.

وفي ساحة ميدان المساجد الفسيحة سارت قوافل متساوية في مسيرة جميع الطرق الصوفية التي بلغت 77 طريقة، وعلى رأسها الطريقة (الشاذلية) بصفة خاصة التي تزيى عليها الولي صاحب المولد، وانطلقت المسيرة عقب صلاة العصر من مسجد (سيدي علي تراز) حتى ميدان مسجد (سيدي أبو العباس المرسي)، وطافوا حول ساحته مرتدين جلابيب مختلفة الألوان، بينما تميز الأشخاص الذين كانوا يقودون المسيرة عن الآخرين بارتدائهم الجلابيب البيضاء، ذات الشارات الخضراء والمدون عليها الطريقة الصوفية المنتمون إليها. يتقدمهم أشخاص يقومون بالتطليل والتتمير مع أداء حركاتٍ لرقصٍ ارتجالي وهم ينشدون ويهللون "الله أكبر

.. الله حي .. لا إله إلا الله .. سيدنا المرسي حبيب الله“.

(وسمي)، وتم الانتهاء من بنائه عام 1943م.

وأهل المسجد وخارجه، شاهد الشاب حلقات الذكر والحضرات بالساحات العلوية والخلفية والمحيطية بساحة الأولياء في سرادقات استقبلت أبناء الطوائف الصوفية من جميع محافظات الجمهورية، إذ لم تقتصر الاحتفالات على الموالد يوماً على أهل الحي أو أهل المدينة.

أعدت الأعمدة الرخامية والنحاسية للمسجد، وتطلع إلى أعمدته مثمنة الشكل، وشعر بألفة شديدة نحو الزخارف ذات الطراز العربي والأندلسي المميزة للمكان، وأسفل صحن القبة الغربية كان هناك ضريح (أبي العباس) وولديه.

وعلى بُعد 6 أمتار من مسجد وضريح سيدي (أبي العباس المرسي)، جلس كهل عجوز وزوجته على حصيرة بسيطة، والأثنان كانا يرتديان رداءً متشابهاً، حيث كان الأول يرتدي جلباباً أخضر ذا عمامة بيضاء مائلة بين يديه سبحة، بينما كانت ترتدي زوجته جلباباً أخضر أيضاً طرحة بيضاء، وأخذاً يتناولان “النفحة”، وهي عبارة عن طعام “رز ولحم” وزعه أحد مريدي المولد ومحبي آل بيت النبوة وكل من سار على نهجهم حتى ظهرت كراماته مهما حاول إخفاءها حتى لا يفتن الناس، بينما ارتشفا عصير الدوم المحبب لدى الصوفيين.

وهين عجز الشاب عن فهم ارتباطهما بالضريح ومحاولتهما لحمايته، قال له الكهل الأسمر:

هذا الرجل يعمل بمهنة “التوباتية” أو كما يسميها البعض الآخر “تطويف المساجد” منذ 20 عاماً، وتتمثل تلك المهنة في تنظيف الأضرحة والتوابيت الخاصة بأولياء آل الصالحين، وتطهيرها، وجمع النفحات من أحباب ومريدي آل البيت، والحفاظ على تابوت الولي بمنع وصول أي مريد إلى داخله، وتعد مهنته من الأساسيات داخل العالم الصوفي، لأنها تعتبر عنصر الأمن والأمان للولي ولأحبائه من فوضى الموالد وزجائها.. أتى من الأقصر منذ 7 أيام وهو وزوجته لحضور المولد وممارسة مهنته بالضريح، ويقوم طوال فترة المولد في الحديقة المجاورة لدى المسجد، ويعيشان تلك الأيام على نفحات القادرين من

بدأ بعدها تنظيم المؤتمر الصوفي السنوي، بحضور شيخ مشايخ الطوائف الصوفية، ومحافظ الإسكندرية، ومشايخ الطوائف وأعضاء المجلس الصوفي الأعلى، وممثلين عن وزارة الأوقاف، وقيادات دينية من الأزهر الشريف، والقيادات التنفيذية والمحلية والسياسية.

استمع الشاب لكلمات الصوف، فعرف أن هذا المسجد والمولد يخص شخصاً اسمه (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأصفاري المرسي)، وُلد في مدينة (مرسية) في الأندلس عام 616 هجرية، الموافق 1219 ميلادياً، ومن مدينته حصل على لقبه (المرسي)، حيث نشأ في بيئة صالحة أعدته للتصوف، وحين أصبح عمره 23 عاماً، اعتزم والده الحج إلى بيت الله الحرام فصاحبه معه هو وأخاه وأمهما، فركبوا البحر عن طريق (الجزائر)، حتى إذا كانوا على مقربة من شاطئ (تونس) هبّت ريح عاصف أغرقت المركب بمن فيها، ونجا (أبو العباس المرسي) وأخوه من الغرق فقصدا (تونس) واتخذاهما داراً لهما، وهناك قابل المتصوف الكبير (أبو الحسن الشاذلي) أحد أقطاب التصوف في التاريخ الإسلامي، وانتقل معه إلى مصر، وأصبح لقبه (المرسي) متداولاً في مصر بعد حذف لام التعريف.

عرف أيضاً أن (أبو العباس المرسي) أقام في الإسكندرية ثلاثاً وأربعين سنة ينشر العلم، ويهذب النفوس، حتى صار يُضرب المثل بورعه وتقواه، وتولى مشيخة الطريقة الشاذلية بعد وفاة (أبي الحسن الشاذلي)، وظل يحمل لواء العلم والتصوف حتى وفاته، وتربى على يديه عدد كبير من العلماء، أبرزهم (ابن عطاء الله السكندري)، حتى تُوفي ودُفن بالإسكندرية في مقبرة باب البحر، وبعد وفاته بعشرين عاماً بنى الشيخ (زين الدين بن القطان) كبير تجار الإسكندرية عليه مسجداً على الميناء الشرقي بالـ (أنفوشي) على الطراز الأندلسي، ثم تعرض الجامع لسلسلة من التجديدات والتوسعات حتى أمر الملك (فؤاد) الأول بإنشاء ميدان فسيح يُطلق عليه ميدان المساجد على أن يضم مسجداً كبيراً لـ (أبي العباس المرسي) ومسجداً للإمام (البوصيري) والشيخ (ياقوت العرش)، وقام بوضع التصميم الحالي له المهندس المعماري الإيطالي (ماريو

..بني على عكازه على نفس الحال، وكيف تستجاب دعوة له بالشفاء  
..لم يكن مريضاً من الأصل؟!

..حال المسجد في ثوان معدودة، وتصاحب البعض وهو يتشمم بأنفه  
..الشباب التي عبات أرجاء المكان بشذا لم تتعدّه الأنوف من قبل:

اتشمون رائحة سيدنا أبي المرسى.. الرجل يُرسل لنا بركاته  
ويوصل دعواتنا لرنا الآن، فيطلب كل منكم مسألته.

..الزحام حول الضريح المُثل بمطر الأعين الباكية، فيما أخذت  
..الأسر تزد الدعوات بصوت عالٍ، بينما فاضت الكفوف بأموال كثيرة  
..الأت على الفقراء والمساكين، في مظاهرة من نوع خاص!

..أن يشعر بهما أحد، اتسعت ابتسامة الكهل الأسمر وهو يتأمل  
..الشباب الوسيم الذي عقد حاجبيه وسأل نفس سؤاله القديم دون أن يجد  
..إجابة:

ما أمر هؤلاء المسلمين؟

\*\*\*

..على كورنيش منطقة (بحري) الذي يضح بالمرائب، سار الشاب ماسكاً  
..عليه بلاستيكية بها أكلة "لبيلة" ساخنة، بعد أن اشتراها له الكهل  
..الأسمر من محل (الشيخ وفوق) ليأكل منها بنهم شديد بعد أن استبد  
..الجوع مجدداً، دون أن يشغله الاستمتاع عن الاستماع بتركيز شديد  
..لأولام الشيخ:

..اسأل أي شخص في بحري عن الشيخ خضر، وسيخبرك الجميع  
..من أصغر طفل لأكبر كبير أنني شيخ الصيادين، وأقدم من  
..سكن في تلك المنطقة على الإطلاق.. لكن أحداً منهم لن يُخبرك  
..مَتى جئت إلى هنا بالضبط.. فالجميع جاءوا من بعدي.

..انحار نحو مراكب "الفلوكة" الرابضة فوق الشاطئ، كسباع البحر  
..استطرد:

الصوفيين الذين يعطوهم الأموال والطعام، للحفاظ على  
..تابوت سيدي المرسى، ويعمل تلك المهنة في كل محافل  
..مصر؛ حيث يطوف ويخدم توابيت أولياء الله الصالحين  
..مدار العام حباً فيهم وفي آل البيت.

تطلع الشاب إلى ملامحه وحاول سبر أغواره وهو يسأله:

- وأنت.. من تكون؟

ابتسم الرجل ابتسامة أضاعت وجهه وهو يجيب:

- ما زال أماننا متسع من الوقت، لعلك تجد أسئلة أكثر أهمية  
..والحاجاً.

ومع آخر حرف من كلماته أشار بعينه إلى مجموعة من البشر البسطاء،  
..إحداهم كانت امرأة كفيفة، وآخر كان عاجزاً يتكى على عكاز، فيما حملت  
..سيده أخرى ترتدي عباءة سوداء، شاباً مصاباً بشلل في أطرافه الأربعة  
..ويدت ملامح وجهه غير متزنة لا سيما فمه الذي كان لسانه يخرج  
..خارجة، وآخرون جميعهم كان يضع النذور والهبات عند الضريح، وهم  
..يطلبون من الولي تفرج كراتهم وتحقيق مطالبهم، فيما وضع البعض  
..الأخر مطويات لسور قرآنية، وخطابات بها أمانيتهم العاجزة عن التحقق،  
..ليشاهد الشاب الوسيم ما يحدث بعينين متسعيتين من الدهشة والانبهار،  
..ليتمتع في تعاطف واستكثار في الوقت نفسه:

- مساكين.. اللهم خذ بأيديهم إليك.

..وفجأة صاحبت المرأة الكفيفة بعينين متسعيتين زاد بريقهما وقد ارتسمت  
..على وجهها أعتى أمارات الدهول:

- ربنااااااااااا.. (ثم مدّت يديها أمام وجهها وتابعت) لقد أبصرت..  
..أنا أرى.. أرى.. (ثم انطلقت دموع الفرح السحاحة وهي تقول  
..باكية شيء يا أبي المرسى يا أبي العباس!

وفي الوقت نفسه انطلقت الزغاريد في المسجد، حين نزل الشاب العاجز  
..من يد أمه المتعبة وقد صار جسده سليماً معافى، فيما ظل الرجل الذي

أول (خضر) البحر الواسع وقد تلاطمت أمواجه، واسودت مياهه الشفافة  
باعتساف ظلام الليل عليها، ثم دخل الشاطئ وسار على رماله وخلفه  
الشباب الذي تبعه وهو يستمع إلى قوله:

كان الشيخ الشعراني أحد كبار الصوفيين الذين بهروا العوام  
بعلومهم ومعارفهم.. قيل أن يدخل في سلك التصوف كان عالم  
زمانه فيما يتعلق بآفاقه والفتيا، أو بلغه اليوم كان بمثابة مفتي  
الديار الإسلامية.. وفي نفس زمانه كان هناك ولياً صالحاً اسمه  
علي الخواص، لكنه كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ورغم ذلك  
اشتهر أمره بين الناس، وتداولت الألسن كراماته، ومكاشفاته،  
والعلوم التي تتساب من فمه، فجلس بين يديه العلماء يتلقون  
منه العلم اللدني غصّاً طرباً، وكان مجلس هذا الولي في طريق  
عمل الشيخ الشعراني الذي كان يحدث نفسه في كل مرة مرّ بها  
من أمامه قائلاً: "كيف يتخذ الله من شخص جاهل ولياً ويمده  
بالعلم؟"

وقف الشيخ عند أحد مراكب "الفلوكة" ذات المجدفين، ثم التفت نحو  
الشباب، واستطرد:

وفي ذات يوم، كان الشيخ الشعراني يلطف زوجته زينب ويلعب  
معها لعبة فغلته، وحددت له عقوبة أن تركب على ظهره كما  
يفعل الأبناء مع آبائهم، ثم مرّ بمجلس الشيخ الخواص، ومن  
جديد قال لنفسه: "ما اتخذ الله من ولي جاهل"، فأشهر الخواص  
لبغلة الشيخ الشعراني التي يركبها، فأطاعته وغيّرت مسارها  
تجاهه، ثم قال للشعراني: "لو اتخذت لعلمي يا جحش زينب".

دفع (خضر) المركب في المياه لتستعد للإقلاع ثم التفت نحو الشاب ومدّ  
يده ليعينه على الركوب ليجلس كلاهما في الفلوكة، ثم أشعل مصباحاً،  
وتابع:

نزل الشيخ الشعراني من على بغلته، وقد أدرك أن من يكلمه  
إنما هو ولي مكاشف من الله تعالى، فلم يُعاند ويكابّر، وطلب

علمني الصيد وركوب البحر ما لن يتعلمه المرء في أي  
أخرى.. فالصيد هو أكثر شخص يتعامل مع الله بشكل  
مباشر.. يلقي شبابه فيحدد له الرزاق حصّة معلومة من الرزق  
ياخذها يدّاً بيدٍ وينصرف في صمته، دون الحاجة للتوقع أو  
دفاقر الحضور والانصراف، أو الوقوف على أبواب مكاتب  
المستولين.. ومع الزمن، صار لي الكثير والكثير من المراكب  
التي يعمل عليها صيادون تحت إشرافي، اتفقت معهم أن  
توزع المكاسب عليهم وعلى الفقراء والمساكين، وأحصل منهم  
فقط على ما أحتاج من أكل وشرب بسيط، وبما للعجب لا يكثر  
المال عن مطاردتي بأضعاف مضاعفة كلما أقيته على قارعة  
الطريق لأهل السبيل.

في دولة الصيادين تعلمت الكثير من السماء والبحر.. اقتربت من  
الرب، واستجليت أسرار، وكان سخياً في علومه التي خصني  
بها ولا تخضع لما جاء في الكتب ودروته الأقدمون في الوثائق  
والمراجع؛ بل هو من العلم اللدني الضنين، الذي يأتي في  
صورته البكر من مصادره العليا، بالمكاشفة والفتوحات من الله  
نفسه حين يختار قلوباً من عباده يلقي فيها المعاني والمطلوبات  
التي لا تكفيها العبارات والكلمات، فتصل النفس إلى ما وراء  
الكلام واللغات، بعد أن تشرق الشمس الإلهية على الروح فيلهم  
ضياؤها القلب أسراراً وكشوفات تحمي تحلقه بهذه الدنيا الفانية،  
وتزيد من احتقاره لكل ما فيها وما عليها، فمن وهبه الله الذوق  
النقط الإشارة وترجم العبارة، ومن لم يفهم وتوقف به السير فقد  
نال حظه، إنما يأخذ كل واحد قدر مشربه.

توقف الشاب عن الأكل، وأعطى عليه الليلة لأحد الشحاذين، وقد  
ارتعشت أطرافه فور ذكر سيرة الرب التي سدت جوع بطنه بما هو أرقى  
من الإحساس بالشبع، وتأمل ملامح عم (خضر) وهو يحدث نفسه: "أي  
مكاشفات يقصدها هذا الشيخ العجوز؟ ولماذا اختصه بها الله وهو بهذه  
الهيئة المتواضعة؟"

ابتسم (خضر)، وتساءل:

هل سمعت عن الشيخ الشعراني يا ولدي؟



منه أن يقبله في زمرة تلاميذه، فقبله الخواص بشرطين: أولاً أن يبيع كل الكتب التي يملكها في مكتبته وجعلته بشر بعلومه ويعجب بنفسه، وكان هذا أمراً شاقاً جداً على عالم مثله، فبشره هي ثروته بما فيها من الهوامش والملاحظات القيمة التي كتبتها على مر السنين، غير أنه قد صدق الله النية فتخلص من كل كتبه وباعها بالفعل.

أما الشرط الثاني فكان أن ينزل في السوق ويركب بغلته بالعكس، ويضع جرساً في عنقه وينادي على نفسه: "عبد من يشتريه؟"، وهو شيخ الشيوخ وعالم البلاد، لكنه أيضاً فعل وكسر نفسه وكبره تماماً، وهنا قبله الخواص وخصه بعلوم لم يخص بها أحداً سواه، وأصبح الشعراني من أعلام الأرض حتى إن مكانته السابقة رغم علوها، لم يعد لها مكاناً مقارنة بما وصل إليه، وقال إنه ما إن باع الكتب وتخلص منها حتى وجد كل كلمة ومعلومة منها تتسلل في ذهنه، فأدرك أن الله قد قبل منه بدائته، وعوض الكتب التي تخلص منها باندماج العلم الذي فيها في عقله، فلا تنظر إلى البشر من الخارج وتجعل نظرك القاصر حكماً عليهم.. هذا أول درس عليك أن تتعلمه حتى لا تسقط في فخ المظاهر المتلونة كالأكاذيب، وتخفي في باطنها الحقائق الخفية التي لا تراها الأعين وإنما تتركها القلوب.

ثم بدأ الشيخ في التجديف لتبدأ المركب في السير وهي تتأرجح بهما بشدة بفعل الأمواج العالية، دون أن يبالي كلاهما ببرودة الجو، وخطو البحر من المراكب والبشر ليبدو مظلماً حالك السواد مثيراً للرعب، دون أن يقطع صوت الموج سوى صوت الشيخ (خضر) الرخيم:

- موعدنا اليوم مع أهل الله وأحبائه، ممن انشجرت صدورهم لنلقي الأسرار الإلهية، الذين هاموا بالله حباً، وجردوا ذواتهم من الإخلاص لأي وجود سوى وجوده، فمنحهم ما لم يمنحه لسواهم.. أحذرك يا ولدي، فالرحلة شاقة، والمسيرة ستجد حتماً ما يعترضها من حيرة وغموض، وقد يُبهم عليك الأمر، لأننا سنحاول النفاذ عبر أقطار السموات والأرض، والخرج من حنود الزمان والمكان، لتتخس المطلق، حيث لا تسعنا العبارة، ولا

نجد الكلمة التي تعبر عما سنراه ونستشعره.. ففي العالم الذي سنذهب إليه ستتقاصر الحروف عن المعاني، ولن تكفي لغة الكلام المحدودة لشرح ووصف ما لا يقال، إنما هي أنوار وإشارات والهامات، والنفس تنوق من المعاني بقدر ما وهبها الله.. وكما هو معلوم، فالعبارة لا تكشف الحقيقة، ولو أن اللغة قادرة على إيصال الشرح كاملاً لما بقي على وجه الأرض من كافر.

فقد الشاب حاجيته وسأله وهو يتأرجح يميناً ويساراً مع حركة المركب المنزلق على صفحة الماء بفعل الموج:

لماذا الأمر بهذه الصعوبة؟

وأصل الشيخ للتجديف وهو يجيب:

لأن الله من صفاته أنه العزيز، الممتع، الذي لا يبيع أسراره إلا لمن كان أهلاً لتلك الأسرار، فهي ليست شرعة لكل وارد.. ومنذ بدأ الخليقة والقافلة مليئة بالركب، لكن قليلين هم من يصلون في النهاية.. ومن توقف به السير فقد أدرك حظه، إنما يأخذ كل واحد من الكلمات على قدر مشربه.. جفت الأقلام، وطويت الصحف.

وأخذ الشاطئ يتباعد ويتباعد في عيني الشاب الوسيم حتى أصبح البحر وحده هو عالمه الوحيد الذي لا يتجاوز امتداد البصر في كل الاتجاهات، ولم يعد هناك بصيصٌ للضوء إلا أشعة المصباح الذي أثار ضياؤه وجه الشيخ (خضر).

\*\*\*

أن تصحبني في سيارتهم.

الحاخام التاكسي ونقد سائقه أجرته وهو يقول بإصرار:

لنركب معك إذن.

التاكسي مغادراً، بينما نظر القمص باستحقار لـ (آيات)، فقالت

شواطي:  
أبونا:

هل تذكر يا أبونا قصة القديسة مريم التي قرئت من أهلها وهي ابنة 12 عاماً إلى شواطي الإسكندرية، لتلاصق الأمواج الباردة قدميها وهي تحفر على رمل البحر الناعم رسومات بلا معنى، قبل أن تتعرف على شاب ذهب مع بلا نقاش إلى منزله لتفقد معه عذريتها وتتعرف لأول مرة على متعة الجسد التي كانت شغوفة باكتشافها وتجربتها في هذه السن الصغيرة، حتى راق لها الأمر وظلت تمارسه 17 عاماً بشكل مجاني بلا مقابل رغم احتياجها الشديد للمال، لكن احتياجها للمتعة كان أشد؟

ألم تخبرنا أنها حين رأت ذات يوم حشوداً من المصريين والليبيين تتجه إلى البحر ذاهبين إلى القدس لحضور عيد تمجيد الصليب المقدس، وأردت الركوب معهم لحضور هذه المناسبة العظيمة، اكتشفت أنها لا تملك المال الكافي، فقدمت جسدها ثمناً للتذهب إلى العيد المقدس بعد أن استهوتها التجربة.

وكيف ذهبت إلى هناك وتوجهت إلى الكنيسة في الفجر مع الجميع لتشهد ساعة الصعود المقدس، وفشلت في دخول الكنيسة 4 مرات كانت في كل مرة تزاحم الناس حتى تصل إلى بابها الذي كان مفتوحاً أمامها، ورغم ذلك كانت تشعر بقوة تضربها وتدفعها إلى الخلف لتحول دون دخولها.

زاد انهمار دموعها وهي تتنحب:

- أتذكر يا أبونا كيف لمست نعمة الرب قلبها، حتى بكت واستغفرت، وبدأت تضرب على صدرها، حتى رأت فوقها أيقونة

زفرت (آيات) زفرة حارة وهي تغادر مديرية الأمن على خير بعد أن انطلقت عليهم الخدعة وصدّقوا أن الشاب الوسيم تهجم عليها، وأنها لم تكن تؤويه، بعد أن أفادت التحريات عن رؤية الشاب وهو يصعد للقفار.

نظرت للقمص (يوسف) وهو يغادر معها بخجل، بعد أن زجّت به معها في هذا الموقف الحرج واضطر أن يؤيد كلامها بالداخل مؤكداً أنه بالفعل ذهب ليتفقددها ويطمئن عليها وفجئ بالشاب وهو يعتدي عليها بالضرب، ولأحظت أثناء حديثه مع الضابط احمرار وجهه الشديد من فرط الضيق والندم، لاضطراره أن يكذب لإنهاء الموقف بأقل قدر من الخسائر، قبل أن يتلقيا تعليمات صارمة بالإبلاغ عنه فور رؤيته مرة أخرى.

وقبل أن يسرع الخطى ويبعد عنها توقفت سيارة تاكسي ذات لونين أسود وأصفر أمامهما، ونادى عليهما الحاخام (موريس) من الداخل:

- حمداً لله على سلامتيكما.. هيا اركبا!

سأله القمص (يوسف) بدّهشة:

- كيف علمت أننا هنا؟

أجابته (موريس):

- لقد أخبرتني دميانة.

هتفت (آيات) بدّهشة شديدة:

- دميانة؟!

صاح (موريس):

- سنكمل كلامنا في الطريق، هيا اركبا!

رد القمص باقتضاب وغضب مكتوم:

- شكراً يا موريس، معي سيارتي التي أنيت بها، فما كان للشرطة

انسان لقلبها بعد أن ظننت أن روحها المكبلة ستظل أسيرة جسدها الذي  
سبب السيطرة عليه في أصعب محنة مرّت بها في حياتها على الإطلاق.

ما زال عقلها يسترجع ما حدث في الساعات الماضية حين قفز الشاب  
الوسيم قفزته الهائلة التي أثارت دهشتها، فانطلق خلفه أثر ذلك الرجل  
في العينين الزرقاوين الذي كان يحتل جسدها، دون أن يهتم بتكبيها  
تلك القيود الروحانية بنفس القدر والكيفية المعتادة، وقد شغله تفكي أثر  
الشاب ومعرفة وجهته الجديدة، تاركاً لها فرصة ذهبية لن تتكرر.

حاولت أن تتحرك وتخرج من مخبئها ففجحت، لكن بصعوبة شديدة، وقد  
سببت كيف تحرك جسدها أو تسيطر عليه بعد أيام طويلة من الأسر.

عفت أرضاً على أرضية السطح القذرة، وهمت بمغادرة السطح كحبة  
سجوز تهرب من صياد عتّى، لكنها وجدت أن الأمر أعسر من أن  
تحاول، فالتجّعت إلى غرفتها بصعوبة شديدة لعلها تصعد إلى سريرها  
بأنقذ أنفاسها.

فجحت الباب الموارب بيدها وواصلت الزحف نحو السرير، فإذا بهاتف  
الشاب المحمول ملقى أمامها على الأرض بعد أن سقط منه حين راودته  
(آيات) عن نفسه.

التفتت الهاتف بيد مرتعشة وأصابع متصلبة، ولمست شاشته التي  
تعمل باللمس، لتدخل على قائمة أسماء جهات الاتصال فلم تجد سوى  
(آيات)، و(كريستين)، و(موريس).. التمتعت عيناها بالدموع وهي تتأمل  
الاسم الأخير قبل أن تضغط عليه، لتظهر على الشاشة جملة (جاري  
الاتصال)، قبل أن تعقبها عبارة (لم يتم الرد).

غز خيبة الأمل عينيها الحزينة وهي تتأمل الشاشة ثم ضغطت على  
خيار (إرسال رسالة)، لتلامس أصابعها بصعوبة الحروف التي تراصت  
أمامها، وتكتب بمعاناة رسالة مقتضبة جاء فيها: "قبضوا على  
آيات والقصص يوسف واختفى ألساب بشكل مفاجئ.. أنقذ حبيبك دميانة  
يا موريس!"

ثم انسال الهاتف من يدها ليسقط أرضاً، قبل أن تمسك بأحد قوائم السرير

العذراء مريم، فشبهت من أعماق قلبها وصلت إليها قائلة:  
"أيها العذراء مريم.. إني مثيرة للكرهية والاشتمزاز أمام نقائك،  
لكني أعلم أيضاً أن الرب يدعو الخطاة إلى التوبة. ساعديني  
أيها النقية. اجعليني أدخل الكنيسة، اسمحي لي أن أنظر إلى  
الخشب الذي صُلب عليه الرب بجسده وسال دمه عليه من أجل  
أن يتوب الخطاة ومن أجلي أنا أيضاً، كوني شاهدتي أمام ابنك  
أنني لن أندس جسدي مجدداً بنجاسة الزنا. وفي اللحظة التي  
سأرى فيها صليب ابنك، سأخلى عن العالم وأذهب إلى حيث  
تقوديني"، لتنتج بالفعل بعدها في دخول الكنيسة ثم ترحل إلى  
الأردن وتزهد في كل متع الدنيا وتتعبّد إلى الله في الصحراء  
بلا أكل أو شرب حتى أصبحت قديسة عجوزاً، عثر عليها  
بالصدفة الراهب زوسيموس، وحين ماتت وحيدة في الصحراء  
دفن جثمانها أسد بدلاً من أن يأكلها.

لقد قال البابا شنودة يا أبونا إنه لا عقوبة للزنا في المسيحية،  
وان بعض القديسين قد زنوا قبل أن يغمر الإيمان قلوبهم ويقبلهم  
الله، فهل تريدني أن أكون أفضل من القديسين؟

لمعت الدموع في عيني القصص، قبل أن يكمل الحاخام:

- أنت قصص يا صديقي ولست إنساناً عادياً.. انظر إلى عينيها  
الدامعتين مثلما نظرت إلى خطيتها!

نظرت (آيات) للأرض خجلاً وواصلت نحيبها، فربت (يوسف) على  
كتفها قائلاً:

- ساصلي من أجلك يا ابنتي.. هيا اركبي معنا!

وركب ثلاثتهم سيارة القصص وانطلقت بهم من أمام مبنى مديرية الأمن.

\*\*\*

تأملت (دميانة) سقف حجرتها وهي تنام على ظهرها طريحة الفراش،  
عديمة الحركة، لا تُصدق أنها استطاعت أخيراً أن تبعث بمعانيتها لأقرب

لم شعرت بيد القمص تمسك يدها ليقول بدوره:

إيمانك هو الذي سيخلصك مثلما تخلصت المرأة المنزوفة من  
الأمها حين صدقت أنها ستشفى، وقال لها المسيح إيمانك  
خلصك، فاذهبي بسلام، وتعافى من عليك.

ومن أعمق أعماقها صرخت (دميانة):

يا رب.

بينما تابع القمص:

كل رؤية، كل سحر، كل عمل شيطاني يبطل.. تقطع كل  
الرباطات، تبطل كل المحاربات، هذا الجسد يتحرر باسم الرب.

أشعر القمص بالآلم حين اعتصر كف (دميانة) قبضته بقوة تفوق بكثير  
سلام جسدها الواهنة، بينما قبل (موريس) يدها الأخرى وهو يقول بحب  
وحنان الكون:

سامحيني يا حبيبتي.. لا تتخلي عني بعد أن عثرت عليك  
أخيراً.. أقسم أنني لن أفارقك أبداً.

لم تتم بينه وبين نفسه:

يا رب اشفها ببركتك.

ومع كل حرف يُرده كان داخله يقين تام أن في دعاء الغيب حُب  
الصادقين، وأجمل رابط يجمعهم في الخفاء، دون أن يلحظ أن (آيات)  
تراقب نظراته العاشقة لحبيبته بعد كل هذا العمر، وبدلاً من أن تدعو  
لصديقتها الوحيدة بالشفاء، كانت تدعو الله أن يرزقها بنظرة عشق مشابهة  
لنظرة (موريس) من فتاها الوسيم!

ومن جانباها اتسعت عينا (دميانة) وهي ترى هيئة مشابهة في ملابسها  
لما كان يرتديه ذلك الرجل الصالح الذي رآته في السماء حين انفصلت  
بروحها الأثيرية عن جسدها من قبل، بفارق أن ملامح وجهه كانت

وتنكي عليها وهي تتأوه وتصرخ فقط من أجل أن تفرد عودها المحني  
لتسقط بعدها على السرير عاجزة عن الحركة بعد أن نفذ رصيدها من  
المجهود والطاقة، دون أن تستطيع أن تجيب على اتصالات المحمول  
المكررة التي توالى بعد إرسال الرسالة بدقة، ولم تتوقف من لحظتها.

فجأة انفتح الباب لتقول (آيات) بلوعة:

- دميانة!

وخلفها دخل (موريس) الذي عاون (آيات) على الإمساك بحب عمه  
ومساعدتها على الجلوس نصف جلسة، بينما شخص بصر (دميانة)  
نحو الصليب المتكلى من رقبة القمص (يوسف) الذي قال لها بصرامة:

- إذن فأنت من حشى رأس هذه المسكينة بالشك، وتكذِّبين رسالة  
المسيح.

أدركت أن (آيات) قد قصت عليه الأمر برمته هو و (موريس)، وأسعدتها  
ذلك بقدر ما أثار خلجها ورغبتها في أن تشرح لهم ما لم يقال بعد، لكنها  
عجزت عن ذلك وأعدمت كل الحيل، فانسلت من عينيها دموع ساخنة،  
ومدت يدها بصعوبة نحو صليبه المعلق فتخشب ذراعها فجأة، وتنفوس  
ظهورها للأعلى حتى كاد بطنها أن يلامس سقف الغرفة، فيما انقلبت  
عيناها اللتان لم يظهر منهما سوى البياض في الوقت الذي عضت فيه  
على لسانها وهي تطبق أسنانها بشدة ويسيل الزبد الأبيض من فمها.

اقترب منها القمص عاقداً حاجبيه وقد أدرك أن للأمر بُعداً روحانياً، لا  
سيما حين غمغمت (آيات) بصوت مرتبك:

- لم يصل الأمر لهذا الحد من قبل، لكنها أصبحت غريبة الأطوار  
في الآونة الأخيرة بشكل غير مفهوم يا أبونا.

ماتت يد (دميانة) على كتف (موريس) الذي عقد حاجبيه وهو يصيح  
فيها بتوتر:

- اطلبي الشفاء من الرب بقوة ويقين!



مختلفة تمامًا هذه المرة.. فقد كانت بشرته داكنة، وعينه سمراوين، ولده  
لحية وشعره مجعد وغير طويل!

اقترَب منها دون أن يشعر بوجوده أحد وقال متبسِّمًا:

- لا تخافي يا دميانة.. إنه أنا نصير الضعفاء والمقهورين.

هتفت فيه روحها:

- لكن ملامحك وشكلك..

قاطعتها:

- هذا هو شكلي الحقيقي.. فقد وُلدت في بيت لحم حيث بشرتنا  
المُسْتَرْتِبة من طين الأرض وسمار الجلد المُعْرَض لأشعة  
الشمس.. ما كنت يومًا من سكان روما وبياقي دول أوربا من  
أصحاب البشرة البيضاء والعيون الملونة، مثلما خدعوكم بصور  
زائفة في لوحات تحمل بصمات رساميهم، الذين زيفوا شكلي  
وسرقوا مني هويتي مثلما سرقوا منكم المسيحية الحقيقية، وكانهم  
أرادوا احتكار الحضارة، والفنون، والدين، لتفسير كل الأمور  
حسب أهوائهم ويصبح ما دون سواهم مجرد أشباه بشر درجة  
ثانية تابعين لهم.. لكن هذا لا ينفي أن اللون الأبيض هو لوني  
المفضل حين يكون هو لون القلوب الطاهرة، العامرة بالإيمان.

- لقد أمّنت بك حق الإيمان.

- لو كان ذلك حقًا لأخذتك معي إلى عالم الملوك، لكنك ما  
زلت بحاجة لإعادة النظر في الكثير من الأمور.. فأليك فرصة  
ثانية قبل قوات الأوان واحتفظي بكل ما مررت به سرًا حتى لا  
تفسدي على الآخرين اختباراتهم.. فلو علم الجميع حقيقي فما  
جدوى الاختبار؟

ثم مدَّ يده إليها، وما أن لامسته حتى شعرت بذاتها تتحرر، وكان حول  
عقها وجسدها آلاف الأغلال والأصفاة التي انفكت ومقطت في لحظة.

والله.

«ويس؟!»

سكت الكلمة بغتة من (دميانة) بنبرة مرتعشة يملأها الألم من فرط  
الآلام والاحتلال الروحي الذي طال في بدنها، وهي تسترد لسانها لأول  
مرة حتى تنطق به ما تمنّت أن تقوله حين رأت حبيبها أول مرة بعد كل  
هذه السنين:

جمدًا لله.. رُدّت إليّ روحي يا أعلى من روحي.. كنت أخشى أن  
أموت قبل أن ألقاك.. حينها كنت ساموت...

اطمأنها متبسِّمًا:

- ناقصة عُمر؟

- بل ناقصة حُب.

مسح شعرها وقال بحنان يفوق ألف قلب شاب:

- سَعَوْض كل ما فات يا حبيبتي.

- بعد كل هذه السنين؟

- لقد مرّت السنين في عمر البشر فحسب، لكن زماننا توقف منذ  
أن افترقنا في شبابتنا.. وها نحن استعدنا مجدداً لنبدأ من عند  
نفس الشباب كل ما فات.. نقطة ومن أول الحُب.

\*\*\*

جلس الشاب الوسيم برفقة الشيخ (خضر) على جزيرة نائية في عرض  
البحر، يُحيطُهما الظلام إلا من ضوء المصباح اليدوي الخافت، ويُخلفُهما  
الصمت الذي لم يخرق حرمة سوى صوت الموج الذي بدا وكأنه ترائيل  
تتغنى بعظمة الخالق، ومناجاة عظيمة لن يُدركها إلا من خضع قلبه،  
فيما ركن المركب الصغير في فجوة صخرية كبّلت حركته، وتركت له

فقط حرية التمايل.

تأمل الشاب الوسيم ملامح الـ (خضنر) وقد فاقت وضاعة وجهه السمسم نور المصباح الذي بدا وكأنه هو الذي يستمد منه الضياء وهو يقول شارداً في ملكوت السماء:

- ليس إنساناً من لم يتوقف يوماً ليسأل نفسه: من أين جئت؟ وإلى أين سأذهب؟

أكان لنا وجود قبل الميلاد؟

وماذا كنت قبل أن أُولد؟

وما حكمة وجودي؟

وهل أنا وحدي في هذه الغربة الوجودية؟

أم أن هناك من يراني ويرعاني ويعتني بأمري؟

وما سر القدر المكتوب فيه مصيرنا؟ وما هو دورنا لو كانت مصائرنا محسومة من قبل؟

وماذا بعد الموت؟

أينتهي كل شيء إلى تراب؟

أ يكون الأمر عبثاً وهزلًا؟

أم إنها قصة سوف تتعدد فصولاً في الآخرة التي وعد بها الأنبياء والمرسلون؟

ومن الذي سيكون على صواب حقاً في خضم كل هذا الجدل الصاخب بين البشر في الأديان والعقائد؟

هل سنرى الله هناك؟ وهل يمكن أن نراه في الدنيا؟ وما هي الحُجُب التي تحول بيننا وبين الحقائق؟ وما السبيل إلى رفعها ونحن على قيد الحياة؟ وماذا يرى الراي بعد رفع الحجاب؟

وغيرها من أسئلة كثيرة ليس إنساناً من لم يُحاول حل ألغازها وكشف أسرارها، ليستمتع بكل أشواقه إلى من يقول عندي جواب.. فالمسألة ليست ترفاً فلسفياً، وإنما هي كل شيء، وسوف يتوقف عليها كل شيء..

ثم نظر إلى عيني الشاب واستطرد:

أغلب بنو (آدم) شغلوا أنفسهم باللحمة، والنكاح، ولذة الساعة عن هذه الأسئلة العظيمة، فما أبعدهم عن الإنسانية والهدف الذي خلُقوا من أجله، حتى استحقوا أن يَؤدِّهم الساسة وأرباب رأس المال بالجوع، ويدفعوهم بالحدِّ، ويحركوهم بالأهواء، قطعاناً من البُهْم لا ترى إلا على مدى شبر أمامها.

وما أبعد هذه الصورة المشوهة، عن الصورة الأخرى للفطرة النقية التي عبَّر عنها ذلك البدوي البسيط، الذي وقف يتلفت حوله في الصحراء، ينقل بصره بين السموات والأرض، ويحدث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره على الرمل: "إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفلا تدل سموات ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، على مبدع لطيف خبير؟"، فأدركت فطرته الشفافة والحكمة والنظام من نظرة واحدة، وأنكرت العبث، وآمنت بالبعث، وهدت صاحبها إلى الحقيقة، واليوم، وفي ظل هذا الانفتاح الكوني وتلك الكشوفات التي تؤكد يوماً بعد يوم أن ثمة إلهاً واحداً مبدعاً لهذا الكون، تراجعت فطرة البشر بعد أن سؤدتها المداخن، وأصمها ضجيج المكن، وألهبها عواء الغرائز، فاستغرقها المطلب العاجل للشهوات والأمان، ونسيت أصل الأصول الكامن خلف كل شيء، فكانت أصدق مثال على قول الخالق {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا}.

زادت كلماته من شغف الشاب وأشواقه لحقيقة كلما أمسك بها انسلت من بين يديه كما ينساب الماء من الأصابع المسكة بها، فوجد نفسه يسأل:

- وهل لديك الإجابة سيدي؟

- لعلها معي بعد أن استقصيت، وفشتت في ثنايا نفسي، ورجعت إلى السادة العارفين، واستعنت بإلهامات الأقطاب الكبار الكمل من كبار الصوفيين الذين سلكوا طريقاً روحياً متقدماً، وحلّقوا بالتجربة الدينية في سموات الحضرة الإلهية بعد أن تروحت حواسهم وفارقت الحس والمنطق.

خففت دقات قلب الشاب، وسرت القشعريرة في أوصاله وهو يهمس بلا وعي:

- رياه، أيمكن للبشر أن يفعلوا ذلك؟

- نعم يا ولدي، فالقلوب كالمرايا، تنعكس عليها التجليات الإلهية في الكون، والطرائق إلى الله كثيرة ومتعددة، على عدد أنفاس الخلائق، لذا خلقنا الله شعوباً وقبائل لنسلك إليه مسالكاً مختلفة، ونكتشف في كل مسلك مظهرًا مختلفًا وجديدًا لهذا الإله الذي عجزت الكلمات والأوصاف أن تُحيط بجلاله وجماله، لكن له جوهرًا واحدًا وذاتًا واحدة خفية لا تتغير أو تتعدد، إذا وصلنا إليها وانفقنا حولها سنعود للوحدة والاتحاد تحت ظله وفي كنفه، لكن أتئ للعقول أن تفهم، وأتئ للقلوب أن تؤمن.

- وما وجه الاختلاف بين الصوفيين المسلمين والعابدين لله المتقربين له في باقي الأديان؟

- التصوف هو حركة روحية لارتقاء الإنسان عن جسده الطيني الغارق في الوحل، وقد ظهرت في كل الحضارات الإنسانية كافة.. عند الهنود القدماء كانت مرادفة لحالة الترقى الروحي، المعروفة باسم ال (نرفانا) وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، حتى يصبح

منفصلًا تمامًا بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسعادة الفصوى والقناعة وقتل الشهوات، وتجلت في التراث المصري القديم باسم (الكهانة)، وعرفها اليهود القدامى باسم (القَبَالِي)، وفي الفلسفة اليونانية معروفة باسم (الغنوص)، وفي المسيحية اسمها (الرهبنية)، والمسلمون عرفوها باسم التصوف، وكلها تسميات تدل على جوهر واحد، وهو محاولة الإنسان في الوصول من الأرض للسماء، من الفاني إلى الباقي، من الوهم إلى الحقيقة، من المحدود إلى اللانهائي، من الخلق إلى الخالق، لكن الفارق أن الدروب تختلف باختلاف الشرائع والمعتقدات، فكل أمة قدم نبي تسير على دبريه، والصوفيون ينهلون النور من الميراث النوراني المحمدي الذي تركه لنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

سكت الشاب، فقال له الشيخ متبسمًا:

- قل عليه الصلاة والسلام!

شرح الشاب قليلًا ثم شعر أنه لا يحمل أي مشاعر سلبية تجاه أي عقيدة أو ملة، كما أن تلك الأنوار المشعة من كلمات الشيخ حتى ملأت نفسه بالسكينة والطمأنينة جعلته يرتاح للمسلمين ولا يجد غضاضة في الصلاة على نبيهم قائلًا:

- عليه الصلاة والسلام.

نَسَّ ال (خضِر) يده داخل جلبابه ليمسك بسلسلة معلقة حول عنقه ويخلعها قائلًا للشاب:

- لعلك تسأل نفسك الآن، لم اخترت هذا المكان تحديدًا لأبدأ منه حديثًا.. فقد كان في الإمكان أن يُقال في جهة أخرى.

ابتسم الشاب مؤيدًا، دون أن ينبهر وكأنه اعتاد أن يقرأ ال (خضِر) ما

في نفسه، قبل أن يكشف الأخير عن صندوق معدني صغير يتكلى من  
السلسلة، عرضه أمام الشاب لتواين ثم فتحه فلأحت داخله مطوية صغيرة  
فرددها ودسها في يد الفتى قائلاً:

- اقرأ هذا!

تأمل الشاب الكلمات الباهتة في الورقة المهترئة التي يبدو أنها مكتوبة  
منذ زمن طويل، ثم بدأ القراءة بصوت خفيض..

”كنت خائفاً فأمّتك.. وشريذاً فأويناك.. ومطارداً مكشوفاً أمره للجمع  
فستربك.. فإذا ما جاءك ابن النور يوماً في نهاية الرحلة فهذا عهدنا  
إليك، أن تآمنه، وتؤويه، وتمنحه مما منحك“

لم ترو الكلمات ظمأه، فقرأها بعينيه مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة يشعر  
أنه يضع يده على شيء هلامي، يلمسه لكنه لا يستطيع الإمساك به،  
فقط للشيخ نظرة مليئة بالزيف والتشمت، قبل أن يقول له ال (خضر):

- تلقيت هذا العهد هنا على تلك الجزيرة منذ ربح من الزمن، ومن  
يومها وأنا في انتظارك بعد أن جهّزت لك مركباً مخصصة  
أعدتها لهذا المشهد الذي سيجعني بابن النور.

عقد الشاب حاجبيه وتساءل:

- ابن النور؟

- نعم يا ولدي.. ربما كان نور الإيمان، أو نور الحقيقة، أو نور  
التكوين، لكن المؤكد أنك أنت المنتظر الذي علمت أنه قادم  
لا محالة، دون أن أعرف متى وكيف أعثر عليه، وخبرت بأنه  
سيلاقيني حين تأتي الساعة الموعودة، وبها قد أنت.

لاذ الفتى بالصمت وقد عصفت به التساؤلات والحيرة، فتابع الشيخ:

- ما زلت بعيداً يا ولدي لتترك مقصدي كاملاً.. فمن يسير في

بحر الحقائق بدون مصباح الشريعة فاتته الإشارة، وأبهمت عليه  
العبارة، ومن آمن بالله حق إيمانه، التقط الإشارة، وترجم العبارة،  
فلمة حقائق لا تتركها الأسماع والأبصار وإنما تُعابنها القلوب  
وحدها.

استلهم الفتى كلام ال (خضر) حتى إنه شعر أن ريقه الذي يبلعه قد  
صار حلو المذاق، مسكر الطعم، ووجد لقوله صدى في نفسه، بعد  
أن الحائق كيانه ووجدانه، ومألقه بالراحة والاطمئنان، بخلاف كل ما  
كانه في هذا الرجل من روحانية غير عادية سبرت أغواره واطلعت  
على مكان نفسه بكل سهولة، ورغم تلك المهازل التي شاهدها بجوار  
روح (أبي العباس المُرسي)، وما سمعه سابقاً عن الإسلام من أراجيف  
والقلق والتوتر، إلا أنه استشعر على يد ال (خضر) أن للأمر جانباً  
آخر روحياً، أعظم وأعمق بكثير من مجرد كلمات تُقال من الألسن  
للإنسان، بل هي موجات روحانية تسري ما بين السماء والأرض، فتلتقطها  
قلوب صافية ذات قدرة عالية على الاستقبال وفك شفرات البث التي لا  
يلفها المؤمنون، فتضرب في جذور النفس المتخبطة، وتهدئ من روعها  
سهما كان البحر حولها هائجاً مضطرباً، يثير فزع وهول عبّاد الدنيا.

ومن جديد عادت لل (خضر) نبرته الغامضة بعد أن اطلع على ما يدور  
في نفس الشاب واستطرد:

- وستطمئن أكثر بعد أن تسمع المزيد من قول الرحمن، وتتهل من  
حكمة ووصايا نبيه.. فإنه لقول فصل، وما هو بالهزل.

\* \* \*



## مذكرات آيات 2

عُدْتُ من جديدٍ إلى القلم والأوراق، لكن شتان بين ما سطرته بالأمس، وما أكتبه بدموعي اليوم..

ها أنا أوصل البوح على نغمات ترنيمة "تغفرْ ذنبي"، بعد أن تعلمت على يديك أن لكل ما نفقده ثمناً نكسب به شيئاً بدلاً، الخبرة مقابل الدموع والدم، أحضان الأصدقاء الجدد بعد فقد الأحبة، حتى الخسارة، هي فن في حد ذاتها لا يكتشفه سوى قلة من الموهوبين يحولون به الوجع والحزن، والألم، لإبداعات خالدة من مقطوعات موسيقية، ولوحات زيتية، وأشعار مرثية، ومذكرات تحمل رائحة الفراق ولبل الدموع.

لكنك لم تعلمني كيف أعوض غيابك، ليظل استثناء للقاعدة، وخسارة لا تُعوّض أو تُحتمل.. فبكك مثل الموت، لا يأتي في العمر سوى مرة واحدة.

.....

تسجيلاتك التي تركتها على هاتك المحمول، وصورتك المزينة لخلفيته، هي آخر ما تبقى منك في ظل اختفائك الغامض، الذي لم تعد لي دعوة أرفعها للسماء سوى أن ينتهي هذا الكابوس في نفس اللحظة التي أدعو الله فيها، لأجذك أمامي قبل أن تغادر الحروف شفتي، والدموع عيني، مثلاً أسمع في قصص الدعوات المستجابة لصالحي البشر والقدسين.

لماذا يا رب لا تستجب سوى للصالحين؟.. كرمك ومعجزتك الحقيقية أن تستجب لمن هم مثلي، فالصالحون لديهم من الإيمان ما يُصير قلوبهم إذا ما تأخرت الإجابة، ومن اليقين فيك ما يغني عن سرعة الاستجابة ليتأكدوا من وجودك، أما أنا فما زلت أترجح على حبل رفيع من تحته الجحيم، فهل تتخطى عني؟!

كلا..

تيقنت أنك كبيرٌ حقاً يا إلهي حين رأيت قبساً من رحمتك بقلبي الممزق،

وأرسل الاستماع إلى يوميات حبيبي المسجلة على الهاتف المحمول الأشبه بعزف قيثارة في السماء وهو يحكي ما حدث له مع تلك (المرثيتين) وهي تراوده عن نفسه:

أريدك أن تدخل عالمي، وأعدك بأنك ستكتشف مواطن جديدة للمتعة لم يطأها بشرٌ قبلك، وبالمثل امنحني شرف دخول عالمك الذي أتق أنه مليء بالأسرار الجديرة بالاكشاف بعد أن نوقف عمل الضمائر بكذب مشروعة نقول إننا لم نكن نقصد!

هيا بنا نكذب بطريقة أكثر احترافية كرجال الدين، والمفكرين، والساسة، وكل الذين يبدون في غاية الاحترام والمهابة من ذوي اللحى ورابطات العنق الأنثيقة الذين يقولون لأنفسهم نفس المبرر.

مع كلماتها الأخيرة كنا قد وصلنا إلى شاليه فخم يطل على البحر..

سكنت بيدي واقتربت منه ولم تتركني إلا لتُخرج مفاتيحها وتفتح بابه مرة قبل أن تسحبني من يدي بابتسامة ساحرة وهي تكرر:

قلت لك من الأول لا تفكر كثيراً في كل فعل تُقدم عليه، فهناك أمورٌ تفقد الكثير من طعمها إذا ما مرّت على فلتّر العقل الذي ينقي الحياة من المتع والسعادة الخفية، فيبس من يستدمنه!

وما أن صرنا بالداخل حتى اقتربت مني، وحاصرت رأسي بين ذراعيها وهي تقول بعينين مملأهما الشيق والرغبة فيما خرج مع حروف كلماتها لك البخار الأشبه بخان سجائرها:

ما رأيك في هذا الشاليه؟ ألا يغري موقعه بقضاء ليلةٍ ساخنة تُبدد رودة الجو المحيط بنا؟

وضعت يدي على خصرها وأنا أجيب:

- بكل تأكيد، لو كان ذلك في الحال، ومع الإنسانية التي اختارها قلبي.

ثم تحولت مسكتي لخصرها إلى دفعة دفعتها إلى جسدها للوراء، وأنا أتابع:

الإنسان كبير بين من يترفع عن الخطيئة مع من لا تتوق إليها نفسه،  
ومن يابى مجرد لمس شعرة واحدة ممن أفاض في وصف جمالها  
وسحرها الطاعى حين انفردت به وقدمت له جسدها ليستلذ منه كيف  
أراد، لكن كيانه وقلبه كانا مشغولين بي وحدي رغم غيابي، ثم لفظني  
من مكان في حضرتي!

أرى علاقة بتلك الغربة الثرية بالتناقضات، تُضاف التفاصيل الصغيرة  
إلى بعضها كي تُؤلف رواية ذات نهاية ستظل مفتوحة، وقابلة لكل  
الاحتمالات، مهما حاولت أن أحسم مصائر الشخص أثناء الكتابة.

معال أن أف من تعديل نصّ يحتويني ويحتويك وأنا أفتش في القدر،  
والإنسان، والمكان، عن كل ما يأتي أبكر من اللازم، وكل ما يأتي  
مما هو أكثر من اللازم في محاولة لإعادة تجميع خط العمر المرتب  
كحل عشوائي فوضوي، وتتراص فيه السعادة والمصائب بطريقة مريكة  
المشاعر والأحاسيس، وتعدم أي أمل في الاستقرار على حالة إنسانية  
ثابتة ونحن على مائدة الحياة التي تفتقرنا بالشوكة والسكين، وقد أقسمت  
ألا نموت إلا بعد أن تأخذ العزاء فينا بالكامل.

حاولت اكتشاف حقيقة تلك الحياة فوجدتها تختبئ خلف انشغالنا عن  
أعمالنا.. لا تتعري طواعية لمن يبحث عن ماء فحشها، بل على من  
يمس القلم متلي أن يفك أزرار ثوبها على مهل، والصعب من هذه  
الأزرار عليه أن يستمتع وهو يفكه بأسنانه.. يفسخه ببديه المعروفتين،  
وحتى وهو يفعل ذلك يجب أن تكون الحياة راضية عنه كعاهرة سادية  
تؤمى له برأسها قائلة: "افعل ذلك ببطء أيها الشرير، برشاقة، بلهفة،  
بمتعة، بحكمة، لكن مع الكثير من السيطرة والعنف في بعض الأحيان"،  
وهذه الميزة الوحيدة لاحتراف الدعارة التي ساعدتني كثيرا في فهم الغهر  
الأكبر الذي نعيش فيه!

فالحياة ليست كريمة لتتوج القصص الجميلة بالنهايات السعيدة، وليست  
حكيمه بما يكفي للعثور على الحبيب أو الحبيبة في الوقت المناسب

- واسمها آيات.

ارتطم جسدها بالحائط ثم ارتدت إلى ككرة مطاطة، وهي تواصل تصوير  
أنفاسها الساخنة إلى أنفي بلا كلل أو ملل قائلة بشفتين بلون الكرز:

- لا يعنيني من تحب.. فأحيانا يسكن البشر في مساكن لا تربطهم  
بها العاطفة، لكن يفهم أن يناموا فيها لساعات يجدون فيها  
الماوى، واليوم أمحك جسدي إيجازا جديدا بلا أي مقدم أو  
تأخير.

قلت لها بإصرار على الطهر، يفوق إصرارها على الخطيئة:

- لقد سكنت بالفعل، ولا يمكن للمرء أن ينم في سكتين مختلفين  
في وقت واحد، ثم إنك مسكونة أنت الأخرى بساكن لا يمكنني  
مجاورته.

سألتني بدهشة غاضبة:

- ومن الذي يسكنني يا حكيم عصرك؟

فأجبتها:

- الشيطان.

ارتمت في حضني، وهي تقول بتوسل:

- بل ملاك الحب.. ضع يدك على قلبي لتتحسس!

دفعتها بقسوة أسقطتها أرضا وجعلتها تصيح في تأوه وأنا أقول بحسم:

- ملائكة الحب ليست سوى شياطين تجيد التتكر، والنفس هي  
معينها في رحلة السقوط.

ثم فتحت الباب وغادرت بلا رجعة.

.....

أنا هنا لا أعرف كيف يمكن أن أفهم الليل من غير الشعور بأن عينيك  
معني لتحميني وأنا متكنة معك على ظل غد أقسمنا أن نصنعه  
على مقياس الحلم مهما كانت احتمالية أن يتحول إلى كابوس.

أنا هنا أسأل الأرض والسماء: لماذا يصبح لون العالم رماديًا في غياب  
من نحب؟

لماذا يتحول إلى غرفة نفثت فيها عن النوم ولا نجده؟ إلى مقعد يجلس  
عليه الصبر وحيداً في سرادق عزاء لن تقوم أمواتها؟

واللهفة إليك أكبر من رجوع النشوة مهزومة والدموع على خديها، من  
المدن الجميلة، من المغامرات المدهشة، من الموسيقى التي لم يخلق بعد  
من يبتلع سحرها.

حين أغادر غرفتي البائسة وأمشي على البحر وحدي، يجاورني  
الآلم القادم من كل مكان، من كل زمان، من كل شيء تم حرمانه من  
قصة حضورك حتى إن الكلمات فقدت معناها.

لمنذ أن بدأ التاريخ بكتابة كلماته وهو يتحدث عن يؤس هذه الإنسانية  
وترك لنا نحن الكتابة عن الخير والجمال والحب، حتى تحولت رومانسية  
الأدياء إلى نكتة سيئة تُقال في اللحظة التي يستعد فيها العالم للانتحار،  
لكن في روايتنا فقط وجدت الكتابة عنك تمنح العالم قيمته، وتجعل من  
نكتة الأدياء مزيلاً للاكتئاب بقدر كافٍ لوقف هذا الانتحار.

أتعلم لماذا؟ لأنني أنا وأنت لا تشبه أبطال الروايات التي تُحاول أن تفهمنا  
أن الحب ثمنًا باهظًا لا يستطيع الجميع دفعه بمن فيهم حتى الأغنياء،  
وأنا جميعًا يؤساء نختر الدموع وينتهي بنا الأمر دائمًا إلى زنازلة من  
خيبة الأمل ليس لها باب، لكنني مصرة على أن أجعل النهاية السعيدة  
خيرًا جديدًا يليق بالروايات الملحمية، ولا يقتصر على الأفلام العربية  
الابيض وأسود.

كيف أكتب رواية تسلسل الكلمات فيها لا يعني سوى موتي أو موتك  
أنت بالذات دونًا عن يستحقون الموت في هذا العالم؟!

كيف يصبح الفراق والنهايات الأليمة هي القاعدة الوحيدة التي لم ينجح

والمكان المناسب، والشيء الوحيد الذي تقدمه بضمير لا متناهٍ، هو درس  
مولم مفاده أن نجاح الارتباط يطيح بهالة الحب، وتوزيع الحب يزغرد  
مجلجلة يعني الفشل في استمراره، وأن طريق النجاح في الحب يقضي  
إلى غرفة مظلمة تشتعل فيها شمعة واحدة ترحمًا على روحه المقبوضة،  
لكنني لا أكف عن تذكيرها بأن الحب كالوطن، والنصيحة بالخروج منه  
مؤلمة حتى لو كان هذا الوطن يملأه الخراب، فتصم أذنيها عن كلامي  
وتتمضي في أفعالها ببنى البشر لأنها تعتقد أن روعتها لا تكتمل إلا بهذه  
النسخ المملة للفراق، والحزن، والضياغ، والإصرار غير المبرر لإغلاق  
شباك واحد مفتوح يكفي لدخول نور الأمل إلى عالمنا الأسود الكئيب،  
لكنها تضن علينا ببصيصه، فتخطب جميعًا في الظلام!

في غيابك يا حبيبي ما زلت هنا بدونك أحاول إتلاف حياتي بشكل فظ  
ومضحك، ومع ذلك ولهي بك لا يزال أكبر من عملية الإتلاف المتعددة..  
أنا هنا بدونك أحاول تجنب نوبات غضبي من عدم قدرتي على الاعتناء  
بنفسي، والتوقف عن الحوارات الحميمة مع الشغف والرغبات المفرطة  
في كابيتها.

أنا هنا بالقرب من صوتك وهو يزداد جاذبية مع الأيام..

بالقرب من شعورك بالتأرب بعد وجبة دسمة تناولناها، وشعوري بالكسل  
بعد ممارسة حب مارسيتها مع الجميع إلا مع من أحب..

بالقرب من شعلة النار التي يطفئها لعابك برطوبة عذبة تمنع أوراق العمر  
من الذبول..

أيمكن أن أكون في أي مكان آخر غير هنا، لأطّل قريبة من الضحج  
الذي يحدثه حدي لك تفكير فيك.. هنا أقف عارية تمامًا وأنا أعدد ناز  
شعيراتي الزائدة وكلّي ثقة في عودتك، وما أكتبه عنك يصنع موجة حارة  
في قلب برودة الشتاء، تحميني من صدفة المطر، وخرافة الخير الذي  
ينتهي دائمًا بالشر في هذا العالم القبيح.

أنا هنا لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله عندما تفوح فجأة رائحتك في  
الهواء مجددًا بعد أن تحملها ريح معجزة أوقن أن الرب سيحدثها من  
أجلي..

أحد من البشر بعد في جعل قصته شذوذاً واستثناء لها؟!

كيف تكذب على أنفسنا بهذا الصدق؟!

سأكتبك يا حبيبي كما أنت، بغموضك، بماضيك الخفي، بمستقبلك المجهول، كبطل لم يخلق مثله من قبل.. لن أبحث لك عن اسم غير اسمك، ولا عن مكان آخر غير مكانك، أو جنسية أخرى غير جنسيتك، فكلها حماقات وقع فيها من كتبوا حكاياتهم ووضعوا شخص محبيهم بأسماء مغايرة في روايات دخل على أحداثها التعديل والتغيير وهم يظنون أن الأدب يعيش حذف الحقيقة من النص لأن كل شيء فيه مستعار، أما أنا فأؤمن أن الحب في الأدب يكتب نفسه ويعشق التفاصيل الحقيقية خاصة إذا كانت أروع من الخيال مع بطل أسطوري مثلك خلق ليبقى حتى بعد الفناء.

نعم كل المحبين يموتون، لكن ما لا يمكن أن يبلى في الحب هو الحكاية، هو ذلك السرد الذي يصعب تقاسمه مع الآخرين، هي تلك الكلمات التي نتجح لنا أن نغلق علينا ضفتي كتاب لننفرد بأنفسنا ونركض خلف بعضها في صفحات لا نهاية لها كعمر حبنا المفسوخ الذي إن انتظر أن يرتقه القدر، قبل أن تأخذني بين أحضانك لتقيني دموع القراءة وتأويلهم الخاطئ للأحداث، والحالة الوحيدة التي تصبح فيها الكتابة قبرا، حين نتحول أنا وأنت إلى ضمير غائب، ورمز خفي غير واضح في السطور.

فالعالم وحشي، قاس، مفرط في ابتداله، لكن بدون التفكير فيك والكتابة عنك سيكون أكثر من مجرد كارثة، فنحن نكره الجحيم لكننا لا نسعى إلى إلغائه، لأننا ببلغانه نلغي الجنة وهذا يذنب أكثر من نار الجحيم!

.....

بعيدا عن ساعات الألم الطويلة التي أقضيها يوميا في البحث عن فارسي النبيل، لم يكسر دائرة الوجد التي تحاصرني، سوى تلك اللحظات الساحرة التي أتأمل فيها ذلك العشق واليهام بين (موريس) و(دميانة)، ضاربين المثل بحب لا يموت حتى وإن كان صاحبا يقفان على بوابة الرحيل. لأول مرة في حياتي سمعت أن عرفتتها - أرى على خريطة وجهها ملامح

أخرى غير العبوس والتجهم اللذين كانا محنطين على وجهها بشكل دائم  
باس تحنيط الفراعنة.

صار ملامحها الجامدة تنفجر وتتقبض وهي تبتسم، تضحك، تغجل، تفرح، تهيم حبا كنخلة قادرة على العطاء والطرح رغم عمرها الطويل الذي شارف على المائة، وفجأة بدأ يرجع للخلف متحديا كل قوانين المون، لتصغر في كل لحظة تملئ فيها عينها برؤية حبيب الأمس الذي يسي في حضرتها مكانته الدنيوية، وعصاه التي يتكئ عليها، بعد أن أصبحت هي عكازه، وأمسب أصابعه وهي تتخلل أصابعها سر بقائها ووجودها.

مرحبا بك يا دميانة في عالم البشر بعد أن كنت مجرد حجر من بقايا سنين قديم كسره الأنبياء، ونسوا أن يسحقوا آخر ما تبقى منه!

الآن فقط عُدب حواء بعد أن عثرت على آدمك.

.....

وما زالت المعجزات تتوالى لتثبت أنها موجودة بيننا لم تنضب بعد مثلما ردد ضعيفو الإيمان بأن زمن المعجزات قد ولى وانتهى..

من يصدق أن (دميانة) هي التي تمنحني درسا في الدين؟

كان ذلك حين أنكرت كلماتها القديمة المكذبة للإله والأديان قائلة:

- طالما قلت إن كلام الإله لا يد وأن يكون مفهومًا لكل البشر، وإن الإله غير عادل لأنه خلق فئة من الأذكىء القادرين على الاستيعاب بشكل أسرع، وفئة من محدودي الفهم الذين لا يقفون على المعاني الخفية المقصودة كثيرهم من العبارة، فهل كل الأذكىء آمنوا بالله؟ وهل كل محدودي الفهم كفروا؟

قلت أيضًا أن كلام الإله كان من المفروض أن يكون بلغة واحدة يفهمها كل البشر حتى يؤمنوا، فإذا بالتوراة نزلت بالعبرية، ولم يؤمن بها حق الإيمان كل من يتحدثون العبرية.. وكتب الإنجيل باليونانية فكم مسيحي اليوم يعرف اليونانية؟ وكم مسلم في العالم لا يعرف اللغة العربية؟



أدركني أن الشهرة تتحلل اسم الحب وتتكرر في شخصه لتدفع المحبين،  
بينما هي في الحقيقة مجرد طاقة زائدة إذا ما أسرفنا فيها تتحول إلى  
وسيلة للإغواء والإعياء والبلادة مثل الخمر والمخدرات والقمار..

قال لي إن الحب علاقة بين شخصين ينظر كل منهما إلى داخل الآخر  
وما يحمله من أفكار وقيم ومبادئ وقناعات وأحلام، لذا لا يمكن أن  
تستبدل الحبيبة محبوبيها بإنسان آخر حتى ولو كان توعمه، لكن الشهوة  
سجود علاقة بين ذكر وأنثى يقتصر فيها النظر على الشكل الخارجي،  
الذي سرعان ما نمله ونضجر منه فنسارع إلى استبداله بجسد آخر تماماً  
كما نغير ملابسنا وأحذيتنا.

لاحظ شرودي وعيني الزانغتين وهو يتكلم، فسألني إن كنت ما زلت أفكر  
في تساؤلاتي التي تهجم العقيدة المسيحية، فأجبت: "حاشا لله يا أبونا..  
بل لدي أسئلة تهدم فكرة الوجود نفسه!"

كان في هذه المرة أهدأ وألطف بكثير، حتى إنه تركني أخرج كل ما في  
جعبتي:

- لماذا يُحاسبنا الله يا أبونا وكل شيء فينا وحولنا من اختياره  
وحده؟ هل يُحاسبنا أم يُحاسب نفسه؟

لقد جئنا إلى هذه الحياة في قلوب جاهزة، ووضعتنا في مسارات  
مرسومة بعناية شديدة، دون أن يكون لنا فيها أي اختيار..  
الأهل، والبيئة، واللون، والطول، وموعد الميلاد.. كلها أمور لم  
نختارها رغم أنها تلعب دوراً رئيسياً في تشكيل حياتنا.. وتقودنا  
إلى كل الاختيارات القادمة..

جميعنا يجري وراء المستقبل، لكن المستقبل لا يأتي أبداً، وحينما  
نقترب منه يصبح حاضراً بغضاً ففواصل التفتيش عن المستقبل  
المزعوم الذي يحمل سراب الراحة والسعادة، والعمر يمضي دون  
أن أعرف من أنا، ولماذا أتيت، وإلى أين أسير.

إذا كنا أحراراً حقاً فما معنى القانون والأخلاق والأديان ولوائح  
العمل والحياة المدنية؟

حتى وجودك على موقع فيس بوك يا ابنتي احتاج إلى اسم  
وصورة وهوية محددة حتى تسجلي دخولك عليه ويعرفك الناس  
بهذه الهوية.. فكيف جئنا إلى هذه الدنيا دون أن يكون هناك  
خالقٌ منحنا شكلاً وصورةً وهويةً محددةً تعرفنا بها الناس حولنا؟

فالفرقة والعذاب اللذان نمر بهما باستمرار يا ابنتي هما أكبر  
دليل على وجود الإله الذي أراد أن نعرفنا قيمة الحلو بالمر،  
وخلقتنا مثل الورقة البيضاء، لكننا ملأناها باللون الأسود حتى  
ندرك الفارق بين العباد ورب العباد.

أريد أن نذهب معاً إلى الكاتدرائية غداً!

.....

من جديد عدتُ لأحضان الكاتدرائية، ولأول مرة أحضر القداس الإلهي  
ومعي (دميانة) بعد أن طلبت أن تعترف لأبونا (يوسف)، وخرجت من  
عنده بعينين دامعتين رافضة أن تحكي تفاصيل ما قد دار بينهما، مؤكدة  
أنه سر استأمنها عليه المسيح شخصياً!

وهو نفس المبرر الذي جعلها لم تحك لي حتى الآن ما مرّت به في تلك  
الفترة العجيبة الماضية حين كانت نصف حية ونصف ميتة، مؤكدة أن  
ثمة أسراراً لو قيلت، فلن يبقى بعدها سوى الموت، وهي تريد لي ولها  
الحياة.

فقط باحت لي بمعلومة لا أعلم إن كانت مهمة أم لا.. فالأساطوانات  
والشيكات التي تخص ريمون وظننت أنها سرقت من غرفتها، هي التي  
خبأتها في خزانة سرية خلف دولابها العتيق خوفاً من أي مكروه محتمل،  
وإلى جوار الشيكات والأساطوانات المدمجة في الخزانة، توجد أموال كثيرة  
جمعتها بالمكر والحيلة على مدار سنوات طويلة من النصب واللعب  
بالبيضة والحجر، ولم تعد تخشى من الإفصاح عنها الآن، بعد أن عثرت  
على ما هو أغلى من كل أموال وكنوز الأرض.

ودعّتها لترحل مع الحاخام (موريس) الذي كان في انتظارها بالخارج بعد  
أن توترت علاقته بأبونا، بينما حان دوري لأعترف لنفس القمص الذي  
رأى بنفسه ما أريد التطهر منه على يديه..

القوانين يا أبونا تمنعنا من عمل أشياء، والأخلاق توبخنا إذا فعلنا أشياء أخرى، والأديان تخيفنا من أشياء ثلاثة ويُقيِّدنا بضوابط وأوامر ونواهٍ، والمدنية تربط البشر بعجلة الأسرة والبيت والمصنع، وتضبطهم كالساعة على مواعيد النوم والصحيان.. كلها قيود في قيود.

كيف يمكن للإنسان أن يكون مُسيِّراً ومقيَّراً ومجبراً بهذه الكيفية ثم يحاسبه الله فيعاقبه أو يجازيه؟ أين وجه العدالة الإلهية في القضية؟

أخشى أن المرء منا لا يملك إلا حرية قتل نفسه!

وحين تأكد أنني أخرجت كل ما في جعبتي من تساؤلاتٍ وهواجسٍ، أجابني بكل هدوء:

- تأملاتك مشروعة، وأسئلتك على قدر ما بها من جرأة، لكن ما أعظمها إن كانت ستصل بك إلى إجابة تزيد من إيمانك، بدلاً من أولئك الذين يدورون في حلقاتٍ مفرغةٍ من التدين الشكلي الذي ورثوه ولم يفكروا فيه.

أول دليل على حريتك يا ابنتي هو تساؤلاتك في حد ذاتها.. راجعي ما قلت وستجدين أن لديك القدرة على الاعتراض، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، وكلها أمور ليست متوافرة للحيوانات أو الجماد الذين نتحكم فيهما ولا يملكان أي خيار.. ولو نظرت إلى تأملات البشر في مثل تلك التساؤلات التي طرحتها لوجدت أن لكل منهم رأياً مستقلاً ارتاح إليه عقله وقلبه، وهذا في حد ذاته اختيار يؤكد أننا مُخَيرون، لكننا في الوقت نفسه مجبورون على الاختيار الذي حتى لو تمردنا عليه وقررنا ألا نختار فسيكون ذلك خياراً في حد ذاته، ومن هذا الجبر نكون بالتالي مُسيِّرين أيضاً.

نهض من على مكتبه ولوّح بيده بطريقةٍ مسرحية:

- سلي نفسك ما هو أنسب تعريف للحرية، وستجدي فطرتك تخبرك أن الحرية هي قدرتك على الاختيار بين متعدد، ومقاومة

القيود المفروضة.. فلا بد من قيود إذن نقاومها ونغالباها حتى تكون هناك حرية.. والا لسقط معناها بسقوط القيود والجبر.. امتلاكنا لكل شيء في أي وقت معناه انتفاء أي نقص فينا ووصلنا لمرحلة الكمال، وحينها سنبصر آلهة ليست لها مطالب ورغبات، لأن المطالب والرغبات منبعا احتياجتنا.. مشكلة الحرية دائماً إنها رغبة تتأجج في الصدر ومقاومة تقف في سبيلها، حتى تنتصر الإرادة وتحصل على مبتغاها، وبانعدام الرغبة والمقاومة يسقط معنى الحرية لأنها تكون استهدافاً فارغاً إلى لا شيء، وتكون هي ذاتها لا شيء

لهذا خلق الله القيود..

بعضها يصل إلينا بالوراثة مثل الاسم والجنس والدين والوطن والجسم، وبعضها يصل إلينا من بيئتنا، مثل حر الطبيعة وبردها وأمراضها وناسها، والبعض الثالث من صنعنا وابتكارنا، مثل القوانين والأخلاق والنظم السياسية، لكن في النهاية لدينا عصا سحرية للتغيير اسمها الإرادة.

صحبت فيه:

- لكن يا أبونا..

استوقفني بإشارةٍ من يده، وقال بحزم:

- اسمعيني للأخر، وإن لم تجدي ما يروي ظمأك للحقيقة سلي ما بدا لك بعدها!

أومأت له برأسي، فتابع:

- كل شيء في الكون حولنا يخضع لنظم وقوانين محسوبة تجعل لسلكه بدايةً ونهايةً.. حركة الشمس والنجوم والكواكب، دورات زراعة أنواع الفاكهة والخضراوات، ومواسم الحصاد، فصول السنة الأربعة، جميعها لا تملك تغيير المسارات المرسومة لها والخروج عن القوانين المنظمة لحركتها، إلا الإنسان.. وحده هو الحر المتصد، التأثير على طبيعته وظروفه، ولهذا يصطدم بالعالم ويصارع، ويستحيل في أي لحظة أن التنبؤ بمصيره..

في لحظة قد تطرأ عليه فكرة فيتحمس لتفنيدها، وفي لحظة قد يصرف النظر عنها ليلبث خلف فكرة أخرى دون سبب واضح ومحدد.. هو كده.. مجرد إرادته سبب في غير حاجة إلى سبب.. هو المخلوق الوحيد الذي يبني نفسه بنفسه، ويولد كل يوم ميلاداً جديداً، فيطور ويتكون، وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات، وبالتالي هو المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية أحواله.

لكن هذه الحرية البكر الطليقة داخله سرعان ما تصطدم بقوانين العالم وقبوده حين تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل، فيحدث الصراع بين الحلم والواقع.. بين الرغبة والإمكان.. وأول قيد يواجهها هو الجسد نفسه الذي ترتبته أرواحنا كبذلة جيس ضيقة تتخبط فيها رغباتنا، وتخلق أحلامنا وطموحاتنا خلف مطالب لا تنتهي بالطعام والشراب والملبس والجنس، فنجري خلف اللقمة، ونلهث خلف الوظيفة، ونصارع على أهداف فرعية غير التي بداخلنا.

وفي نفس الغاية الإنسانية يجري معنا باقي البشر الذين يشاركوننا المأساة نفسها، ويخوضون نفس الصراع، على نفس الأهداف والأحلام التي لا تتسع للجميع، فنضيق في صراع التكسب حتى نفقد حريتنا.

وبعد أن نصطدم بأجسادنا، ثم أجساد الآخرين، يأتي الدور بعدها على الصدام مع باقي قوانين الكون من جاذبية الأرض، وضغط الهواء، ومياه البحار والمحيطات، التي تطالبنا بالانصياع لها والوفاق معها، فكتشف أن كل هذه الصراعات لا حل لها إلا بالوفاق، وحسن الاختيار، والتفكير، الذي يجعلنا نمتطي العالم ونقوده حيثما نريد.

فحين نتوافق مع قدرات أجسادنا، نحولها من سراب إلى حقيقة تحبسنا في الجلد والعظام، إلى أياد تصنع الطائرات فنطير دون الحاجة إلى أجنحة، ونطلق قذائف ترز أطنائنا إلى القمر، ونخترق الفضاء ونغزو الكواكب.

وحين نتوافق مع الناس ونسير في اتجاه نفعهم فإننا نكسبهم ونكسب معونتهم، ولا نتصارع على الحرية بقدر ما نتبادلها معاً.. فحين نمنح جزءاً من حريتنا للعمل وأكل العيش، فيأخذ الآخرون ما قدمناه في عملنا نظير جزء من حريتنا، وفي الوقت نفسه نتقاضى نحن أيضاً ثمن الحرية التي قدموها في عملهم، فننتفع بما صنعه العامل، وما زرعه الفلاح، وما كتبه الكاتب، وما شيده المهندس.

وحين نتوافق مع قوانين الكون ونضع شراع مراكبنا في مواجهة الرياح فإننا نسطرها لخدمتنا.. وحين نضع التوربينات تحت مساقط المياه نتولد الكهرباء..

حتى الأخلاق التي اعتبرتها قيوداً على حريتنا، ما هي إلا بمثابة إشارة مرور عند مفترق الطرق، تعطي البعض إشارة حمراء ليتوقف، وتعطي البعض الآخر إشارة خضراء ليسير، حتى تنظم حركتنا وتحمينا من الصدام، وإلا لتخبط الجميع، وتوقف المرور، وفقد كل سائق حريته في فوضى لا متناهية.

فحين تضبط أخلاقك شهوتك مثلاً، تكسبين حريتك وليس العكس، لأنك تصبحين سيدة نفسك لا جارية لغريزتك التي تطيح بعقلك في لحظات وتوقدك وتحكم فيك.

باختصار، فإن الحرية تكمن دائماً في اكتشاف القانون الطبيعي والعمل في اتجاهه وليس ضده، ومن أجل هذا التحدي خلق الله الحياة وجعل الإنسان معجزة المتناقضات ليتعلم من تناقضاته كيف يسير مع التيار.. مخلوق فان ويحتوي على أفكار وإبداعات خالدة.. ميت ويشتمل على حي.. مفيد بالزمن ويتجه للكبدية.. الدنيا كلها تقفده لكن كل قيود العالم لا تمنعه من أن يضمر في نفسه شيئاً، وأن يفرض هذا الشيء على ظروفه، فيصهر الحديد، ويسوي الجبال بالأرض وهو جسم صغير هلامي من اللحم والدم، شكة دبوس كفيفة بإطلاق صرخاته.. يبدو ضعيفاً تقتله رصاصة بمليم، لكنه قادر قبل وفاته أن يطلق صيحة تهدم نظاماً بأكمله.

- وماذا عن الحب يا أبونا؟ هل نحن مُسيرون فيه أم مخيرون؟ وكيف نحصل فيه على الوفاق الذي تحدثت عنه فلا نحزن أو نفشل؟

ابتسم القمص (يوسف) ابتسامة حزينة، وأجاب:

- في الحب أنا تلميذ بليد.. لو كانت لدي أي خبرة لما أصبحت قمصا.

يا الله.. كانت أسئلتي مقدمة لأفهم منه سر الحب وكيف ننال فيه حريتنا رغم قيود الظروف والقدر، فإذا به يُجيبني عن كل شيء إلا السؤال الأهم..

فهناك إجابات، تُقال أحيانا دون الحاجة لأسئلة تُطرح، وهناك أسئلة وُلدت في ملجأ الحياة كطفل غير شرعي، يبحث طول الوقت عن أبيه (الإجابة) دون جدوى!

"لا توجد أي أخبار جديدة عن ذلك الفتى؟"

سألني القمص في نهاية حوارنا، فاجبته بأسى:

- هذا أيضًا مثل الحب.. سؤال بلا إجابة.

.....

بتُ أعشق النوم وأكرره بأقصى قدر ممكن على مدار اليوم، كشبعانة لا تكف عن الأكل حتى تتفص عن غضبها من الدنيا والآيام..

كنتُ أتسول من النعاس ومملكة الجفون المغلقة رؤية عابرة لطيفك.. كلمة يتردد فيها صدى صوتك الآتي من بعيد تُخبرني فيها عن حالك.. صورة مهزوزة لملامحك الأسطورية أروي بها ظمئي للثياك.. أي شيء يضع حدا لتلك المأساة التي أحاطت بي ولم أجد معيّنًا لكسر حصارها.

حتى الموت الذي يخشاها الجميع ويفرون منه، بتُ أفتش عنه في أقداري المجهولة، لعله نومة طويلة تتخللها رؤياك التي ستغنييني في عالم الموتى، عن حياة لا قيمة لها بدون النظر إلى عينيّك.

لكن من قال إن في النوم راحةً لبائسةٍ مثلي، لا سيما أن داخله خيازا مرقفاً اسمه الكوابيس؟

في هذه المرة كان كابوسي حريقًا ضخمًا ابتلع الجميع.. والأشبع أنه أخذ حبيبي مني في اللحظة التي عاد بها إلى أحضاني، وعلى طريقة السينما كان الحريق يلتهم الكل بطريقة الأسلو موشن "وأنا أغني تلك الأغنية التي أعشق سماعها من (نبيلة معن) بصوتها الأسطوري، ولحنها المقتبس من ألحان السماء:

حين قالت وهي ترقى.. في سماواتِ الفتور

أوتَهوى يا شقيا..؟ هكذا سحرَ العيون

وتُعاني ما تُعاني.. من ذهول من جُنُون

.....

على مائدة وضعتها في منتصف السطح، عليها فنجان قهوة ومطفاة سجانر لاستيعاب بقايا سيجارة بين إصبعي السبابة والوسطى، ومقعد متهالك يطل على السماء، ما زلت أستمع لنفس أغنية (فيروز) الخالدة، وقد صار لها وقع أجمل على القلب والحواس بعد أن تناولت على أنغامها ذات يوم قهوتي المفضلة وأنا أتطلع إلى عينيّه في يوم صعب التكرار..

هل جلستَ العصر مثلي.. بين جَنَفَاتِ العُشب

والعناقيدُ تدلّت.. كثرَيَاتِ الذهب

هل قرّشتَ العُشبَ ليلاً.. وتلَحّثتَ القُصَا

زاهداً في ما سيأتي.. ناسياً ما قد مضى

أعطني الناي وعَنّ.. وإنسِ داءً ودواء

إنما الناسُ سَطُورُ.. كُتِبَتْ، لكن بَماء

أمسكتُ بهاتفي المحمول وتأمّلت حسابي على "فيس بوك" لبرهة، ثم ألقيت به على المائدة بحقن..



منح دميانة نظرة رومانسية وتشايبك أصابعها قبل أن يتابع)  
لأدركت يا عزيزتي أنك تعيشين الآن أجمل لحظات العمر.

فدموع الحب هي متعته.. وناره هي الاختيار الذي علينا أن  
نكتوي به لنندرك ثمن جنته التي ستفهم بعد أن ندخلها أن الله  
خلفه مثل العاصفة.. تأتي فجأة ثم تمضي تاركة خلفها الخراب  
الذي تسببت فيه، فيحنني العشاق لالتقاط ما سقط منهم،  
ويعيدون ترتيب حياتهم المبعثرة دون أن يشعروا في البداية بالآلم  
الظهر جزاء الانحناء، لكن مع الوقت يشعر كل عاشق بالنقل  
الذي تشببه إضافته إلى شخصي آخر، فتكون العزلة والوحدة  
هي وسيلة الحفظ الوحيدة ليبقى الحب مجمداً بذات المشاعر  
والأحاسيس في ثلاجة الحياة التي تحمي من أن يذبل أو يصبح  
حامضاً، حتى لا يكون مصيره أقرب سلة مهملات مثلما حدث  
مع قصص حب عشاق آخرين كانوا يقسمون يوماً أن مشاعرهم  
لن تسقط كأوراق الخريف، لكنها خذلتهم وسقطت بعد أن تركوها  
مكشوفة أكثر من اللازم دون حفظ.

نسل الدمع إلى عيني (دميانة) التي كانت أكثر من يشعر بكل حرف  
يستطيقها وكأنها هي التي تتكلم، فمسح أسفل جفنيها بأربعة أصابع لم  
يكن الإبهام من بينها، ثم ضمها إليه بذراعه وهو يكمل حديثه معي:

- صدقيني يا ابنتي، من يمرون بحالة بائسة مثلك، عليهم أن  
يقولوا مرحى بالدموع التي تجعلنا نعيش على أمل العثور على  
ما ضاع منا ذات يوم، بدلاً من ضحكائنا. تنتهي بخوف من  
الفراق والفتد بعد أن عثر أصحابها على السعادة بالفعل ولم  
يعد في انتظارهم سوى الوجه الآخر للظروف المستعدة لتقلب  
الصفحة الأخيرة في أي لحظة.. فالحب الباقي حقاً هو الذي  
يؤسس على عزلة قلابين كل منهما منحه القدر فرصة ليرى  
الأمور بعد انفصاله عن حبيبته كميت يراقب الدنيا من قبره  
ويكتشف بنفسه كيف ستصبح الحياة من بعده عند من يحب،  
بفارق أنه موت مؤقت سيقوم منه يوماً ليقف أمام معشوقه من  
جديد، فإما أن تكون وقفة احتفاء، أو وقفة عتاب وتوبيخ.

العزلة تجعلنا لا نخطئ عنواناً جيلاً لكتاب يسكن الرؤى البعيد

اللغة على مواقع التواصل الاجتماعي التي جعلت من الاستماع ل  
(فيروز) وشرب القهوة موضة أدعياء العمق والفكر والثقافة، من ذوي  
العقول الخاوية الذين يصنعون حولهم هالة زائفة بصور وكلمات يرددونها  
كالبغاء، دون أن يفهموها أو يشعروا بلذتها في دواخلهم.

اللغة على مواقع التواصل الاجتماعي حين تصبح جدباء مقفرة، خالية  
من كلمات المحبين، وحالات اليم، وصور جديدة مشرقة تملأ حياتنا  
بالشغف، ويطل من خواتم رسالة قديمة تتكرر بلا هوادة: "لقد أوشتك  
رصيد الصبر على النفاذ"، دون أن أعرف كيف السبيل لإعادة شحن  
البطاقة.

اللغة على القهوة التي لم تعد تُصبرني على طعم المرار.. للغة على  
التبغ الذي لم يعد نيكوتينه كافياً للتصالح مع غضبي واضطراب أعصابي.

اللغة على اللغة، وليذهب الجحيم إلى الجحيم.

أحسست بلمسة حانية على كتفي، فلم ارتجف أو أفزع، إنها لمسة  
الحاخام (موريس) الحانية الأرق من يد (دميانة) الخشنة..

رغم أحراني التي غرقت فيها حتى أدنيتي، إلا أنني كلما شاهدته أضحك  
رغمًا عني على هذا الحاخام العجوز بدرجة (روميو) وهو يسير متبخترًا،  
متأبطاً ذراع (جوليت) الأشبه بمومياء غرب عنها جمالها وانحنى  
ظهورها، لكنهما لا يكفان عن تبادل كلمات الدلال والغزل في رومانسية  
متناقضة مع قساوة الحياة الأقسى من الموت نفسه، صانعين من حبيهما  
الذي تم استنفاذه في الوقت الضائع كوميدياً سوداء تشبه مأساة سمكة  
ملئت من الغرق!

غادرت بعدها الكيان مجدداً بعد أن تخللته ضحكة استثنائية شذت عن  
قاعدة حياتي، قبل أن تمتد يد ذلك العجوز اليهودي الحنون لتمسح  
دموعي وهو يسأل بابتسامة مليئة بالعطف الأبوي:

- أهو شعور بالعزلة والوحشة؟

أجبت به دموعي الساخنة دون أن أنبس ببنت شفة، فواصل:

- لو عانيتي ما عانيتي وأنا وحيد بدون هذا الملاك الرقيق (ثم

مؤلمة انتهت بعودتي إلى منبتي من جديد بطريقة جعلتني أغفر للحياة قسوتها بعد أن أظهرت لي رغبتها في التصالح معي.. فالإسكندرية يا ابنتي هي المدينة العريقة التي كان يأتيها الناس من كل مكان للعيش فيها، لكني أنا لم أفكر بها إلا كمدينة جميلة يمكن الموت فيها وهذا بالنسبة لي قمة الرضا.

انقبض قلبي مع كلماته.. ربما لذكر سيرة الموت، وربما لأن هذا يعني أنهما قد بتزوجان في تلك الغرفة ولا يبقى لي سوى الشارع..

"اطمئني يا فتاة.. فموريس يقوم الآن بتصفية كل ما يملك في الخارج وسنشتري شقة صغيرة نعيش فيها ما بقي لنا من العمر.. هل جال بخاطرك أنني سأفكك في الشارع بعد كل هذه العشرة؟"

قالتها (دميانة) بنبرة مشاكسة وقد قرأت نظراتي المنمقة، فسألتها بدهشة:

- وهل ستوافق الكنيسة على زواجكما؟

نظرت (دميانة) إلى (موريس) وتبادلا ابتسامة حزينة قبل أن تقول:

- ولماذا ألهت وراء إرضاء البشر والرب نفسه أخبرنا أن الله محبة.. ما الذي سيضيقه موريس للمسيحية أو أضيفه أنا لليهودية لو خدعنا الرب وغربنا عقيدتنا، لا من أجل إيمان وقناعة حقيقية بل من أجل إتمام زيجة أيامها في الدنيا معدودة.. فمئذ آلاف السنين وجيش البشر تتطاحن، كل فريق يرى أن دينه هو الصواب، ولم تتج السيوف والقذائف في حل المسألة بشكل نهائي، وبالتالي البشرية لا تنتظر عجوزين مثلياً لحل معضلة العضلات التي لم يحسمها يسوع نفسه بشكل نهائي حين كان على الأرض.. ثم إن العهد الجديد في المسيحية لا يمكننا أن نفهمه ونشعر بعظمته بدون الإيمان بالعهد القديم التوراتي.. لنكتفي بالحب ولنترك أمر الإيمان بيد الله عند ملاقاته.

شجعتني سياق الكلام على الإفراج عما يجيش في صدري تجاه مسألة الخلاف بين المسيحية واليهودية، رغم أنني لست قديسة ولا متبصرة بالدين، لكن مناقشة حاخام كانت فكرة رائعة تتبع روعتها من أنها قد لا تتاح في

في مكتبتنا المليئة بكتب لم نقرأها بعد، تجعلنا نعيد التأمل في كل اللوحات الرائعة، كل الموسيقى الخاصة بصوت الحنين، كل الأشواق والتعلق.. تجعلنا نرسل برقياتنا عبر نور القمر والنجوم قائلين فيها لنصفنا الآخر: حتى وإن كنت هناك وأنا هنا وحيد فستظل وحدك معي، بجانبتي، وكل الباقي كماليات لا مبرر لها.

متى تفهمين ذلك ستوقنين أن هذه العزلة تكشف عن تذوق للحب بمتعة أكبر، عن التناقض اللذيذ بين الحضور والغياب.. عن أهمية الصمت الذي يلهما الحكمة المناسبة في الأوقات المتأخرة من الليل بعيداً عن ضجيج النهار، وذبذب البشر والدواب، فترى الصورة بشكل أوضح، ونضع أيدينا على ما وراء الظاهر من المشاعر والغرام.

ثم صمت وهو يتأمل عيني اللتين زادت دموعهما بالاكبتان، دون أن يسمع صوت نفسي المبهورة بكلماته وهي تردد بصوتٍ مفعٍ بالأم:

- ما أعظم رجال الدين حين يكونون قديسين بدرجة عشاق، فيكون شفرة الحب بروحانية الدين وحكمة الوجد، التي لا يستقيها إلا من أحب لدرجة العشق.

حاولت ألا أبوء كنيئة إلى الحد الذي يفسد فرحتهما وقد نالا من اليأس ما يكفي، فمسحت دموعي واختبرت قدرتي على التمثيل وأنا أبذل قصارى جهدي لتخرج نبرتي مرحة حين قلت لهما:

- هيا استعدا.. أريد أن أفرح بكما قبل أن تسافرا إلى إسرائيل وتتركنا لي هذه الغرفة لعلي أقاسم فيها من أحب بعد أن يعود بعد "مئة" عام من العزلة."

فكنت كمن قال نكتةً سمجةً، قبل أن يلتفت إليّ (موريس) ويقول بجديّة شديدة:

- محال أن أغادر الإسكندرية مرةً أخرى.. فهنا شتاء قديم وجميل خبأته في عيون البلاد التي رحلت إليها مضطراً، كي لا يضيع مني وسط شعوري بالاغتراب وأنا أبحت في كل الوجوه والأشياء عن كل ما هو سكندري.. مدن وأحلام، شواطئ وسفن، رحلة

العمر سوى مرة واحدة، لذا سألت (موريس):

- سيدي، بالفعل مسيحيًا تعترف بأسفار التوراة الخمسة، وتعتبرها جزءًا لا يتجزأ من عقيدتنا، فإذا دخلت ديننا فستجد نفس الأسفار التي تؤمن بها بالفعل ومعها عهدٌ جديدٌ سيضمن لك أن تكون مع حبيبك في الجنة أيضًا.. ألا يبدو ذلك أكثر إغراء من الشدق بملاقة بعضكما في آخر أيام العمر ثم تعودان لافتراق أبدي؟

رد على سؤالي بسؤالٍ بدا لي ساذجًا حين قال:

- ولماذا لا تؤمنين أنتِ باليهودية ما دامت في صميم عقيدتك؟

أجبتُه بعقلانية:

- لو أمنت أنت بالمسيحية، فستؤمن بأسفاركم ومعها أناجيلنا التي حوّت استكمالاً لناموس الرب الذي يحمل المحبة والخير لكل البشر، بما يجعل الفوز بالجنة أمرًا مؤكدًا، في حين لو أمنت أنا باليهودية وحدها وثبت في الآخرة أن المسيح الذي صليبتومه كان على حق، فسيكون مصيري ومصيرك النار.

ابتسم وأجاب:

- هذا منطقٌ رائعٌ يُشبه ما ساقه لي أحد أصدقائي المسلمين حين قال لي ذات يوم: "حتى وإن كانت اليهودية هي الصواب، فستدخلون الجنة ونحن معكم لأننا نؤمن بموسى كليم الله ورسالته السماوية، ولو ثبت أن المسيحية هي الصواب فستدخل الجنة مع النصارى لأننا نؤمن مثلهم بتعاليم المسيح الراقية وطهارة أمه العذراء البتول التي نزلت فيها سورة قرآنية كاملة"، فهل تطيقين منطقك الخاص على نفسك وتتحولين إلى الإسلام؟

بُهِتُ من سؤاله وأنا أهرأ رأسي بالنفي دون أن أعرف ما أقول، فانتسعت ابتسامته وأردف:

- ما الذي سيضيفه تحولي للدين المسيحي لو كنت مسيحيًا استباح دم إخوانه المسيحيين مثلما حدث في مذبحة (سانت

بارتليميو) في الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٥٧٢ حين انفض الكاثوليك بمباركة البابا جريجوري الثالث عشر على البروتستانت أثناء أحد الأعياد وذبحوا منهم الآلاف وشققوا العديد على أغصان الشجر، وبلغ عدد القتلى في هذه المذبحة أكثر من ٣٠ ألف قتيل نتيجة لظهور المذهب البروتستانتي الذي لا يعترف بسلطة البابا\*

هل كان المسيح سيفتخر بي لو كنتُ واحدًا من الإنجليز الذين حاولوا إخضاع أيرلندا دينيًا بفرض المذهب البروتستانتي لتستمر الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت من بداية القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر؟

ماذا لو كنتُ مسيحيًا وشاركت في حرب الثلاثين عامًا التي اندلعت بين الكاثوليك والبروتستانت في أغلب دول أوروبا سواء ألمانيا أو فرنسا أو النمسا أو إسبانيا من عام ١٦١٨ إلى عام ١٦٤٨ فأسفرت عن إبادة ثلث الأوربيين، وهبطت بـ ٢٠ مليون نسمة من ألمانيا وحدها من ١٣.٥ مليون نسمة، وانخفض تعداد الرجال في أوروبا كلها لدرجة أن رجال الدين المسيحي قاموا بتسريع تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم، وقالوا بالنص: "لا يُقْبَل في الأديرة الرجال دون الستين، وعلى القساوسة ومساعدتهم إذا لم يكونوا قد رسموا، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا، ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين؟!\*

يمكنك أن ترجعي للتاريخ لتقربي أيضًا عن الحرب الأهلية التي اندلعت في إسبانيا بين الكاثوليك والبروتستانت بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وبلغ عدد القتلى فيها ٣٠٦ آلاف شخص، من ضمنهم ٦٨٤٥ رجل دين كاثوليكيًا تم ذبح معظمهم كالخراف، بخلاف استبعاد الرجال البيض للهنود الحمر والأفارقة في أمريكا التي انتشرت فيها المسيحية بحد السيف باعتراف بابا الفاتيكان.

\* من كتاب (معجم الحروب) للكاتب د. فريدريك جروس بريس.

\*\* من موسوعة (قصة حضارة) للمؤرخ وول ديورانت.

## الفرقة الناجية؟

وأخيراً وحتى لا أطيل عليك، فقد قرأت تقريراً تم تقديمه للأمم المتحدة يتحدث عن ٨٠ ألف مسلم تم قتلهم في سوريا خلال سنتين فقط بأيدي المسلمين سواء من النظام أم المعارضة، ورأيت مقطع فيديو لأحد مقاتلي المعارضة وهو يخرج قلب جندي ويأكله، فأني مسلم هذا الذي يأكل قلب أخيه المسلم؟

كما قرأت إحصائيات عن عدد القتلى في العراق خلال الحرب الأهلية المذهبية بين السنة والشيعية، ووصلوا لأكثر من ٢٨٠ ألف عراقي غالبيتهم العظمى مسلمون وقليل جداً بينهم مسيحيون، ونفس ما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت في حرب الثلاثين عاماً في أوروبا، ما زال شبحها يُخيم على الأجواء بين السنة والشيعية المسلمين منذ ١٤٠٠ عام، كحرب مفتوحة النهايات، ولا أحد سوف يضع خاتمة لها سوى نظام قوي يضع السني والشيعي في زنزانية واحدة لو تخصصوا يوماً على أساس ديني أو مذهبي، لتكون الدول العلمانية الديمقراطية هي السادة الملائمة التي تخلق فتحة القنينة التي تنسرب منها غازات الطائفية السامة.

استمعت (ديمانة) رغم هول كلماته المفزعة والنقطت من كلامه طرف الخيط قائلة:

مهلاً يا عزيزي، فكلما تك قد تجعل هذه المسكينة تعتقد أنك عنصرى مُجد من يزعمون أنهم شعب الله المختار.. أخبرها أن اليهود أيضاً منقسمون لقرأتين وريائيتين، بخلاف أولئك السامريين الذين وردوا في الأنجيل بوصفهم جماعة منبوذة ومحترقة وما زال احتقارهم مستمداً حتى اليوم حتى إن بعض اليهود في المجتمع الإسرائيلي ما زالوا يعتبرون السامري مصدر نجاسة، ويوقفون الحافلة أحياناً لإنزال السامري منها، بخلاف التفرقة العرقية بين اليهود الأشكناز واليهود السفارديم في إسرائيل.. عد معها أيضاً بالتاريخ والأسفار واحك لها كيف شن اليهود حروب إبادة ضد بعضهم البعض منذ آلاف السنين وخبر شاهد على ذلك إبادة بني إسرائيل لسبط بنيامين حين رجع رجال بني إسرائيل إلى بني بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها، حتى البهائم

وإذا كنت اليوم تقرئين أسفار العهد القديم ولا يكتمل إيمانك الأرثوذكسي إلا بها، فلتعلمي أنه ما كان ذلك ليحدث إلا بفعل تلك الحروب الشنيعة التي اشتعلت بين الكاثوليك والبروتستانت، ليحصل بموجبها المحتجون على كتب العهد القديم بعد ما كانت حبيسة الأديرة، ويصبح في متناول الجميع قراءتها وترجمتها، بعد أن كانت في يد رجال الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

بحجت عن كلمات أهراب بها من تحدّ تأكدت أن لساني كان يستحق أن يُقطع قبل أن ينسحب مني ويزعج بي في معركة لا قيل لي بها قبل أن يقطع (موريس) علي أي أمل في الانسحاب مستتركا:

وفي الإسلام نفسه لا يختلف الأمر كثيراً.. فما أن مات نبيه حتى قتلت المسلمون فقتلوا الصحابي والخليفة عثمان بن عفان، ثم اقتتلوا في موقعة الجمل، وموقعة صفين، وتفرقوا إلى سبعة وشيعة وفرق ومذاهب وجماعات.

وحين دعاني صديقي المسلم للتخلي عن معتقدي اليهودي ودخول الإسلام، واصفاً يهوديتي بالكفر الذي سينتهي بي إلى نار الله في الآخرة أخبرته بتلك القصة الجميلة عن النبي محمد وجاره اليهودي الذي كان يلحق به الأذى والرسول يصبر عليه، وعندما مرض اليهودي زاره النبي فخلع اليهودي من أخلاقه ودخل الإسلام، حين كانت تصرفات وأخلاق محمد كانت هي مقياس اليهودي للإعجاب بالإسلام واعتناقه قبل حتى أن يقرأ ما في القرآن، وسألت صديقي حينها: "تُرى ما الذي سيفرغ به المسلمون اليوم يهودياً مثلي لدخول الإسلام؟".

تلعث صديقي وقتها، فأخبرته أن المسلمين اليوم مذاهب متعددة والكثيرون في كل مذهب يعتبرون أبناء المذاهب الأخرى كافرين ويحلقون قتلهم، وسألته مجدداً: "هب أني أردت دخول الإسلام، فهل أدخله من باب السنة أم الشيعة أم المذاهب الأخرى؟ وفي أي منها أعيش فيه بسلام ولا يحل دمي على يد مسلم مثلي لا سيما أن المسلمين يرددون كلاماً مقدساً للنبي محمد بأن الإسلام سيتفرق إلى ٧٠ فرقة جميعهم سيذهبهم الله في النار باستثناء فرقة واحدة ستدخل الجنة، وكل فرقة تدعي أنها هي



وكل ما أُجِد، وأيضاً جميع المدن التي وُجِدَتْ أحرقوها بالنار،  
وقُتِلَ يفتاح الجلعادي من سبط أفرام 42 ألفاً وجميعهم من بني  
إسرائيل.

تتهد (موريس) بأسى، وقال:

- نعم يا حبيبتي، بخلاف تروزي التام من كل ما فعله الإسرائيليون  
تجاه الفلسطينيين من مجازر ومذابح أغلبها بدون وجه حق،  
والغريب أن كل هذه الوقائع المؤسفة حدثت بين من يزعمون أنهم  
ينتمون لأديان سماوية ووصلت أعدادهم لنصف تعداد سكان  
البشرية، وهذا يثبت أن النجاة من عذاب الرب لا يتم بالانتماء  
لدين بحد ذاته وكفى.. فالبوذي أو الهندوسي أو الزرادشتي أو  
الشنتو وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، الذين لم تنغمس أياديهم  
في دماء البشر أشرف عندي ممن يفتخر بدينه السماوي الذي  
يجعله يستحل إزهاق الأرواح من بني الإنسان بدون وجه حق.

ثم صوّب بصره نحوي وهو ينهي كلامه قائلاً:

- كل أبناء الأديان في النار ما لم يرتبطوا بآلهتهم الدينية بمحبة  
حقيقية لإخوانهم في نسل آدم وحواء، وترك أمر الحساب بيد من  
له السلطة العليا في هذا الكون فحسب.

.....

استقبلني العزيز (ألبرت) بابشامته المرحمة وروحه الشافعة في مبنى  
الخدمات، مؤكداً أنه افتقدني كثيراً، وأثنى على كلامه كل من (أندرو)  
(أمير) وعدد آخر من شباب وفتيات انضموا لفريق (تسايج) بعد أن  
قررت الكاثوليكية إحياء حفل ضخم تلقى فيه الترانيم المسيحية والأناشيد  
الإسلامية، ولم يعد باقياً سوى اختيار المنشدين المسلمين، وبدء البروفات،  
قائلين إنهم كانوا سيتصلون بي اليوم، لكنني سبقتهم وجئت بنفسى لأثني  
- يا سبحان الله - ابنة حلال.

لم أهتز للخبر السعيد الذي قام علي فكرتي التي أيدها القمص (يوسف)،  
ولم أبد أي تحمس واستعداد للمشاركة في الحفل.. فكل ما كنت أشعر  
به وقتها هو اختناق شديد وكان أحدهم جرد الهواء من الأكسجين، أو  
بمعنى أدق جرد المبنى من الشاب الوسيم.

ما أن لمحني الأطفال حتى التفوا حولي وسألوا عن صديقي الذي تعلقت  
به القلوب، فسألته بالمثل عن ذلك الصغير الذي كان لديهم رسمة رائحة  
له، فأتوا به وكانهم قبضوا على لصٍ خطير أعلنت الشرطة عن مكافأة  
مجزية لمن يقودهم إليه، ولم أتركه إلا بعد أن أخذت منه رسمته مقابل  
10 جنيهات قطار من الفرح وهو يأخذهم، وطرت أنا من السعادة وأنا  
أسك آخر ما تبقى من حبيبي، بفارق أن سعادتي كانت بطعم الدموع.

دون قصد جلدني الجميع وهم يسألون عنه، وقد نمت إلى مسامعهم أنه  
مات بشكل مفاجئ دون أن يعرفوا السر، وظنوا أنني قد أعرف التفاصيل،  
على رأسهم عم (حنا) الذي نافسني بحزنه وعينيه الباكيتين على غيابه.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟!

.. نسيت.. إنها (كريستين)..

انسلت على هاتف حبيبي في ساعة متأخرة من الليل، والغريب أنها لم  
تجيب حين قمت بالرد عليها.. قاطعت فظاظتي عندما صحت فيها:  
"إبرة بكاء" ثم طلبت مني بصوتٍ بالك متقطع الحروف أن  
تأتي في مبنى الخدمات.

لم أبحث عنها بعيني دون أن تظهر في حيز الرؤية قبل أن يباغتني  
صوتها من الخلف:

- أنا هنا.

ثم نحوها، واكتشفت أن عيني قد مرّت عليها لكنها لم تميزها.. فما  
كانت هذه ملامحها الجميلة بعد أن دب فيها الهزال والشحوب وفقدت ما  
يقال عن 25 كيلو من وزنها، ولا كان هذا اللبس المحتشم هو لبسها!

ها بقائقي كنا نجلس في أحد الكافيهات في مائدة بركن قصي، بعيد  
زحام الشباب والفتيات وضجيجهم، وبدأت تنقص عليّ مأساتها.

أنا مصابة بمرض نادر وخطير لا يقل في خطورته عن سرطان  
القولون، وهو القولون التقرحي الذي يحرق القولون ويتسبب في  
الإسهال المصاحب بنزف كتلٍ من الدم، وآلام شديدة بأسفل  
البطن، مع الإحساس بفقد الشهية والضعف العام وقلة الوزن،

## مذكرات الشاب الوسيم 2

هاتفي المحمول، لذا طلبت من الشيخ (خضر) قلمًا وأوراقًا حتى  
أبذل تسجيل كل ما أمر به وأتعلمه بالكتابة بدلًا من الصوت، بعد  
الاستشفاء أن التدوين ليس خيارًا أو رفاهية لمن يخوض رحلة عجيبة  
روحاني، لعله يعثر على نفسه بين السطور.

في ذلك بعد أن عدت معه إلى بيته القديم المكوّن من 4 أدوار، وترتبط  
بواسطه سلسلة حداثيّة ضخمة، ما أن فتحتها لندخل ثم أغلقها من الداخل  
أما نصدع إلى أعلى حتّى وجدت أن كل الشكّ مفتوحة دون أن تكون  
أبواب تغلقها، وكل شقة ملأى بمئات الكتب التي تغطي حوائطها  
وسببتها، صانعة ممرات ضيقة تكفي للمرور من بينها بالجانب إذا ما  
دلت الدخول، بخلاف ألوف الوثائق الملفوفة والمطويات المحفوظة  
على زجاج ميك.

"هنا يقع رأس مالي الوحيد الذي أخشى عليه من الضياع، والكنز  
الحقيقي الذي لا يُقدّر بثمن، ومن حسن الحظ أنه الكنز الوحيد الذي  
لا يجذب اللصوص والخطافين رغم بريقه الأخاذ وقيّمته اللامحدودة لو  
أشعروا يعلمون".

أما عم (خضر) وهو يواصل صعوده على السلم دون أن يلتفت نحوي،  
على يقين أن عيني تتأملان المشهد المبهّر بأعني علامات الدهشة  
وعجب.

هنا نفائس العلم الذي جمعته من منابعه الأولى بكل اللغات على مدار  
سنوات طويلة.. بعضها لا توجد نسخ أخرى له على وجه الأرض سوى  
هذا المكان.

عادت جملته الثانية حين وصلنا إلى السطح المفروش بالحصير، وترأصت  
أفقه مجموعة من الوسائد على غرار (القعدة العربي)، وتتوسطها صينية  
مربعة القطر، ذات لون ذهبي لامع، وعليها نقوش تشبه تلك الموجودة  
على الكؤوس النحاسية المترصّة فوقها، وعلى إحدى الوسائد كان هناك  
هزار حاسوب محمول علمت أن اسمه "لاب توب".

ولا بد من استئصال القولون في أسرع وقت وسأضطر بعدها أن  
أعيش والمصران خارج بطني.

لمعت عيناها بالدموع، ففرت من مواجهتي بالنظر للأسفل وتابعت:

- حدث ذلك بشكل سريع ومتلاحق، بعد أن حاولت إغراء ذلك  
الوسيم لأنام معه.. فطالما عشقت تعذيب كل ذكر ساقه حظه  
العائر ليمر في حياتي حتى وإن كان ذكر العنكبوت!.. لعبت  
بالجميع وجعلتهم أضحوكة ألهم بها لتمضية أوقات الممل..  
استمتعت ببكائهم وتوسلاتهم.. بعضهم قبل حداثي وبعضهم  
ركع أمامي بلا أدنى تفكير حين أخبرتهم أن هذا شرطي لأتأكد  
من صدق مشاعرهم.. وحده الذي حطم أسطورتى وأذل أنفي..  
وحين قابلته بعد أن غادر الشاليه وحكيّت له ما كان بلهجة  
متفاخرة بمألها الزهو، وأكدت له أنني لن أتركه مهما كان، قال  
لي بلهجة لن أنساها ما حييت: "طالما سقط من هم أكثر منك  
جبروتًا وقوةً بأنفه وأحفر الأسباب مثل مرض عضال لم تُجد  
معه حيلهم وأساليبهم.. أسأل الله أن يطهرك قبل فوات الأوان".

ثم بكت بحرقة وهي ترفع رأسها نحوي ببطء:

- ها هي ذي دعوتك تستجاب، ليطهرني المرض ويذل ناصيتي لأدرك  
مؤخرًا أن كل جمال مصيره إلى زوال، وكل قوة مآلها إلى ضعف،  
وكل المشاعر الجميلة يزِيلها القدر، لتبلى وتفتى مثل الرماد.

تمامًا مثلما أدركت أن رأس المال الحقيقي، ليس الأشياء التي  
يملكها المرء في يده أو في رصيده البنكي، ولكنها الأشياء التي  
يستطيع أن يستغنى عنها ويعيش بدونها مهما كانت غالية أو  
ثمينة في نظر باقي الناس.. فطوبى لأغنياء النفس.

سأترهبين يا آيات، وكنت أتمنى أن يكون فتاك موجودًا مكانًا  
اليوم لأطلب منه أن يصلي من أجلي.. فهذا الفتى موصول بال  
بشكلٍ أو بآخر رغم ماضيه الذي تجهل عنه كل شيء.

\*\*\*

الذي متمثلاً في أذان الفجر، فابسم وقال لي:

لن أدعوك للصلاة بجسدك حتى تؤمن بقلبك أولاً، فقط تعال معي إلى المسجد واسأل الله بكل كيائك أن يأتيك من لدنه رحمة، وأن يهيئ لك من أمرك رشداً.

.....

الخضر من حكاية قصة الخلق منذ أبينا آدم حتى بعثة نبي الإسلام محمد بن عبد الله، ولمست فيما حكي الكثير من الأمور المشتركة بين زواجر الأديان الإبراهيمية..

ما كنت لأفهم الصورة الكاملة للإسلام بدون الجذور القصصية والتاريخية التي وردت في العهدين القديم والجديد، والتي جعلتني أعرف أسماء الرسل تمت الإشارة إليها بأسلوب رمزي لا سيما في قصة موسى عليه السلام، إذا جاء في القرآن: {قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليه الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا} ففهمنا أنهما مؤمنين، فعلمت أنهما كالب بن يفته ويوشع بن نون الذي قاد إسرائيل في دخول الأرض المقدسة وهزيمة الكنعانيين.

قال القرآن: {ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل بعد موسى إذ قالوا لمهمبعث لنا ملكا فنقل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون} ولما لم ألا تقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا ففهمنا أن هؤلاء هم بني إسرائيل، ففهمنا أن هذا النبي اسمه صموئيل، معلما علمت أن شاول في العهد القديم سأل في القرآن، وجلبات هو جالوت، وغيرها من الأسماء والتفاصيل.

سأهل أني وجدت نفسي - للمرة الثانية - حافطاً لبعض آيات القرآن أنزلها حتى إنني كنت أرددتها في أحاديثي قبل أن أعرف أنها مأخوذة من كتاب مقدس يؤمن به ملايين البشر، تماماً مثلما حدث معي في بعض الآيات الإنجيلية!

بعض العلاقات بين التوراة والإنجيل والقرآن كانت مريكة بحق، إلى أعين عقلي عن الاستيعاب والفهم..

سأهل ذبح إسحق في التوراة والعهد القديم وقداه بكبش عظيم، وجدتها

أما في ركن السطح، فكان هناك موقد كيروسين عليه برؤ ضخم من المعدن، يكفي كمية كبيرة من الماء، وإلى جواره برطمانات من الشاي والقهوة والسكر والبنسون وغيرهم من فصيلة المشروبات الساخنة.

"هنا نقيم الحضرات مع أهل الله وأحبائه الطامعين في العروج إليه في ملكوته، والتنعيم بأنواره المتجلية حول سبحات وجهه الكريم، وكل إنسان يعرج بقدر عشقه الإلهي والإيمان الكامن في قلبه ومتغلغل في كيانه وروحه".

دفعنتي كلماته للنظر نحو السماء في تلك الليلة المقمرة التي تلالأت فيها النجوم المتناثرة في صفحة السماء فشعرت وأنا أتأملها أنني وحدي في هذا الوجود المصنيء، وأن الأرض ومن عليها قد خلقت لأجلي، غير أنني لم أفهم كيف ينفذ الإنسان عبر أقطار السماوات في الأعالي إلى عالم الملكوت وقدماء لا تزالان رابضتين هنا في الأسفل، ولم أخرج من تلك الحالة العجيبة إلا ويده تربت على كتفي وهو يردد مبتسماً بعد أن اختلس نظرة نحو السماء ثم صوب بصره نحوي وقال بلهجته المعتادة كقارئ أفكار لم أر له مثيلاً:

- سترى كل شيء بنفسك يا ولدي.. فالإيمان لا يأتي إلا بالتأمل، والتجربة، والإبحار في آيات الله حولنا، وفي أنفسنا.. وسأتولى تلخيص وشرح ما جاء في كل الكتب والوثائق التي بهرتك أكثرها بعد أن صرت حافطاً كل حرف فيها.. فقد خضت رحلة طويلة أخشى أن الوقت المتبقي لك لن يكفي لتخوضها، وليس على الإنسان أن يمر بكامل خبرات الآخرين ليصل إلى ما وصلوا إليه فافهم!

ثم أعد الرجل لنا كويين من الشاي وبدأ يحكي..

"ينتمي أنبياء اليهود والمسيحيين والمسلمين لأصل واحد وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام، وبدون تتبع الخيوط والأنسال والوصايا والتعليم التي بدأت من الجد الأكبر إبراهيم بعد أبينا آدم، سيكون من العسير علينا العثور على رابط منطقي بين تلك الجزر المنعزلة التي يعيش فيها أنبياء هذه الأديان، فتعال نبداً الحكاية من عند أبي الأنبياء..

وقبل أن يواصل خضر حديثه قاطعه هذه المرة صوت السماء ونداً،

الله لم يخلق التخطيئ.. كما لم يخلق الشر.. إنما انعدام الطيبات من حياتنا هو الذي يحيلها إلى خيائت.. فالشر في حقيقتها انعدام الخير.. والتخطيئ في حقيقتها انعدام المعرفة.. الشيطان ينفي الطيبات ليعم الخبيث يا ولدي ويسهل الإغواء.

ولماذا تركنا الله في حيرة تفوق قدراتنا ثم يحاسبنا في النهاية على حمل ما لا طاقة لنا به؟

لو لم يكن لك طاقة به لما حملته لك.. هكذا قال في كتابه العزيز: «لربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به».. فرغم كل هذه الشرور والتخطيئ.. منحك الله عقلا ليفكر، وقلبا ليستشعر.. منحك الورقة والقلم لتدوّن.. منحك صفحات التاريخ والعلوم والمعارف لتقرأ، فإذا ما أخلصت النية واجتهدت حقاً، استطعت ربط كل المتفرقات وحكمت منها ثوب الهدى والفهم ليرتديه عقلك وقلبك الحائران وتصبح من العارفين، لذا كان أول أمر إلهي في الإسلام: «اقرأ»، حتى تخرج البشرية من جهلها وضلالتها، وتصل إلى الحقائق التي زيفها الشيطان وعبث بها وشوهها لتكون معيّنًا له في رحلة الإغواء التي بدأت منذ عهد أبينا آدم.

يقول المولى عز وجل: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».. كنت أعتقد في البداية أن المشيئة المذكورة في الآية تعود على الله الذي يهدي من يريد الله له الهداية، لكنني اكتشفت فيما بعد أن كلمة (من يشاء) في الآية تعني الشخص الذي يريد الهداية ويسعى لها، لذا أعقبها بقوله: «لَوْ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»، أي الذين يريدون نور الهدى ويبحثون عن الحقيقة، وكل إنسان سيحاسب على قدر صعوبة الاختبار والابتلاءات التي مرّ بها.. فمحاسبة الله للإنسان الفقير الضعيف المقهور لن تتساوى بمحاسبته لذي الجاه والمال.. ومحاسبة الشخص السليم الصحيح لن تتساوى بمحاسبة ذي العاهة والمرض.. ومحاسبة الشخص الذكي لن تتساوى بمحاسبة مجذود الفكر.. لكن جميعهم على اختلافاتهم عليهم واجب مشترك هو عبادة الله حق عبادته، والتأمل والتفكير وعدم التقصير في الفهم والبحث والتحري ومحاولة الوصول للحقيقة.. حتى أولئك الذين على صواب لمجرد أنهم ورثوه سيحاسبهم على

في القرآن تنطبق على إسماعيل بن إبراهيم وهاجر، وكل الأنبياء الذين وردوا في الإسلام نزهتهم الآيات القرآنية والسيرة النبوية عما علق بهم من خطايا وأثام وموبقات، فلم يذكر الإسلام بأي حال واقعة زنا بنات لوط عليه السلام بابيهما، ولا كراهية يعقوب لأخيه عيسو واحتياله عليه ليأخذ البركة من أبيه إسحق بدلًا منه، ولا مصارعة يعقوب لربه يهو وابتصاره البركة من أبيه إسحق منه وتحول اسمه بعدها إلى إسرائيل، وكلها وقائع عليه حتى أخذ البركة منه وخلف زنا داود بزوجة أحد قواده، ثم تأمره على قرأتها في سفر التكوين، بخلاف زنا داود بزوجة أحد قواده، ثم تأمره على قتله بعد ذلك كما جاء في سفر صموئيل الذي ذكر أيضًا ما قام به داود وشاول (طالبات) من احتيال وسفك دماء الكهنة الصالحين والأبرياء من النساء والأطفال والرضع دون أرى لذلك مثيلاً في الإسلام.

حتى قصة موسى التي استندت من قراءتي التوراتية في فهمها في السياق القرآني جاء في سفر الخروج أن أخاه هارون هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل حين صعد موسى الجبل لميقات ربه وأخذ الألواح المقدسة التي فيها وصايا وتعاليم الرب، بينما نفى القرآن ذلك وقال إن من فعل ذلك كان شخصاً يدعى السامري.

أما مفهوم الرب نفسه بين الثلاثة أيان فكان الاختلاف فيه من أعجب ما يكون.. في العهد القديم التوراتي شعرت أن الرب يهو مثله كمثل إمبراطور أو ملك يتحدث مع البشر كمن يخطب في جنده، فهو يتعب ويستريح، وينام، ويغير، ويغضب ويتشكى في صورة بشر.

وفي العهد الجديد بأخذ طبيعة إنسانية ناسوتية فينزل في صورة يسوع لينقذ البشر من خطيئة أبيهم آدم ويصلب من أجل خلاصهم رغم أنهم لا ذنب لهم في خطيئة لم يترفوها من الأساس.

وفي الإسلام نرى الرب بقدرات لا نهائية، تجعله مع مخلوقاته طول الوقت دون أن يحتويه زمان ولا مكان، ووجود عرشه فوق سبع سموات لا يربطه بوجوده هناك دون الأرض أو أي مكان في الكون الفسيح.. صفاته غير محدودة، وأفعاله لا يحدها حد، لكنني لم أفهم بعد كيف يمكر الإله، وما جدوى وجود الجنة إن كان الله قد قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» «ما كل هذا التخطيئ الذي تركنا الله فيه يا شيخ خضر؟» قلّتها وأنا أشعر بحيرة لا نهاية لها، فأجاب:



الحق أقسم.. ما رأيت عشقاً للإله ولأحد أنبيائه مثل هذا من قبل.

هل من ماذا تعني كلمة الصوفيّين يا شيخنا؟

أنته، فأجابني:

إن بحر التصوف لا قرار له يا ولدي، به طرق ومعاريج تؤدي بسالكها إلى الله، وبه دجل وشعوذات وأساطير أقحمت عليه وتورد متبعتها مورد الهلاك.. البعض يحذر من شطحات الصوفيّين، والبعض يقول إنهم أهل شطط وضلال وانحراف، وينصح برفض التراث الصوفي كله لأنه لم يرد فيه نص قرآني أو من السنة النبوية، والبعض يؤمن بتفديس كامل لكبار الصوفيّين ويتناول أقوالهم وأفعالهم على أنهم معصومون، لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا خلفهم، والحقيقة هو بحر عميق فيه اللائكي والأصداق، وفيه أيضاً التماسيح والحيتان، وسالك طريق التصوف يشبه من ينشد الملاحة في بحار الظلمات بقارب شراعي، والنور الوحيد الهادي للسالك في هذا البحر هو نور القرآن والسنة، وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل القارئ لبر أمان. وقد ينش الباحثون والدارسون في حصر تعريف التصوف، لكن ثمة تعاريف تبدو أقرب من غيرها.. البعض قال إن التصوف مشتق من الصوف الذي كان رداء الأنبياء والزهاد، ويدل على التقشف.. والبعض رأى أنه مشتق من الصفا لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات، ويؤهلها للترقي في طريق الأحوال والمقامات..

والبعض ذهب إلى أنه مأخوذ من الكلمة اليونانية "سوفيا" وتعني الحكمة باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلهيون الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة الدنوية التي يمد بها الله قلوب من يصطفونهم من عياده.. والبعض نسبته إلى أهل الصفة وهم جماعة من فقراء الصحابة انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة.. والبعض نسبته إلى صوفة، وهي قبيلة بمنية كانت نجيز الحجاج وتخدم الكعبة، فصار الاسم علماً على الانقطاع لخدمة الله، لكن ما يعيننا إلى طريق روحي ونور يتخلل سريرة العبد، فتحمل حركاته وسكناته على جناحي المحبة والإخلاص

الاكتفاء بالوراثة.. فما جدوى الصواب لو لم يقتنعوا به ويستقر الإيمان به في قلوبهم عن حق.

ستجد يا ولدي الأمر صعباً وشائكاً، وستشعر باختلاط الأمر عليك كثيراً، لكن ثق أن تمسكك بحبل الله سيجعلك في مأمن من سهام القدر.

إن كان الله تعالى يرمينا بسهام القدر التي تُصيبنا، كيف لنا بالنجاة؟!

كن بجوار الرامي تتجو!

لي حبيب أزوره في الخلوات .. حاضر غائب عن اللحظات  
ما تراني أصغى إليه بسري .. كي أعي ما يقول من كلمات  
كلمات من غير شكل ولا نقط .. ولا مثل نغمة الأصوات  
حاضر غائب قريب بعيد .. لم تحوه رسوم الصفات\*

هزنتي تلك الأبيات الشعرية التي ردها الشيخ خضر في حضرة العبد الإلهي التي يردد فيها أشعاراً قالها سادة وأقطاب التصوف، وتحمل معاني عميقة تحتاج للتفكير والتدبر فيها مرات ومرات، ومع كل مرة يتضح بها دلالة جديدة وإشارة خفية، ويشاركه في ذلك تلك الجماعة التي تجتمع معه كل يوم بعد صلاة الفجر كل يوم، فيجلسون يذكرون الله بتسابيح ومحامد ومشاعر بكلمات شديدة الجمال والروعة، وبأصوات خلابة شديدة لا أدري متى سمعت أصواتاً تُشبهها لكنني أشعر معها بالألفة الشديدة ومع كل حرف في الأذكار والتسابيح يزداد انتفاضهم وتأثرهم حتى تغمر بهم أحوال غريبة وكأنهم ذهبوا لعالم غير العالم، يشاهدون فيه مخلوقات لا وجود لها إلا في أعينهم وينجلي أثر ذلك في ملامحهم ونظراتهم ويصلون على النبي محمد حتى تقبض أعينهم بالدمع، وهم يبذلون كل أشواقهم للقائه في الفردوس الأعلى، والشرب من يده الشريفة شربة هنيئة لا يظماون بعدها أبداً.

\* هذه الأبيات ل: أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج، أحد أعلام التصوف والتاريخ الإسلامي، نشأ في مدينة واسط جنوب بغداد والعراق، وقد ذاعت شهرته وأخباره وراج أمره عند كثير من الناس، حتى وصلت لوزير المقتدر بالله الخوارزمي، وتم اتهامه بالزندقة والكفر، وحكم عليه بالإعدام سنة ١٢٠٩هـ.

الله، وتظل ترقى به من أوهام الحياة الدنيوية إلى حقائق العيش الأبدى بقرّب الحق تعالى وكل هذا يبدأ بالالتزام بظاهر العبادات والمعاملات التي أمر بها الإسلام ولا يغني عنها أبدًا، ولا نصار السائر في هذا الطريق كحاطب الليل الذي لا يأمن الأفاعي، وربما خدعته الأمانى كما خدعت كثيرين فخرجت به عن مراده.. فطريق أهل الحقائق شائك مملوء بالمخاطر، ولولا التزود بمصاييح الشرع وظاهر الشريعة، لانغرست في القلب الأشواك.

ما أن جاء ذكر كلمة الشريعة على لسانه حتى سألته:

- لماذا أرسل الله محمدًا بشريعة جديدة بعد ما جاء في العهدين القديم والجديد من دين به الكثير من التعاليم والوصايا بشكل واضح لكافة البشر، ومن شأنه أن يوصل أتباعه أيضًا لملكوت السماء؟

ابتسم، ثم أجاب:

- لو كنت تؤمن بالكتاب المقدس بعينه القديم والجديد، لأدركت أن الله ما أرسل أنبياءه منذ بدء الخليقة بشكل عشوائي، بل كان لكل منهم أهميته سواء في عصره أو المنطقة الجغرافية التي بُعث فيها، فتعال نتحدث بشكل عقلي.. من كان لهداية شبه الجزيرة العربية وأمة العرب أبناء إبراهيم من نسل إسماعيل؟ كان هناك يهود في مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية يا ولدي فماذا فعلوا تجاه عبادة الأصنام التي تقشت في ذلك الحين بجانب انتشار الظلم والقسوة؟ فقط اكتفوا باعتزال ذلك، ولم يحاولوا استيعاب العرب حولهم وتوويرهم بتعاليم التوراة انتصارًا لوحداية الإله الذي به يؤمنون، بل ظلوا يرددون أن الوقت قد حان لميلاد نبي آخر الزمان ليوحدهم ويقودهم لاستعادة أمجاد بني إسرائيل، ويؤكد التاريخ نبوءاتهم وأقوالهم.

كان هناك مسيحيون أيضًا، وكانت هناك نبوءات كذلك بينهم بنبي كثير الحمد يأتي من بعد المسيح، فلم تفلح اليهودية ولا المسيحية في تهذيب وتوحيد ذلك المجتمع العربي البدوي بكل

ما فيه من قبائل ترتكب أشد الموبقات جرماً سواء عبادة الآلهة الوثنية، أو قطع الطرق وسبي الأحرار، بخلاف القمار وشرب الخمر وغيرهم، أليس ذلك وحده كافياً لبعث نبي جديد لهذا المكان وهؤلاء القوم؟

ففي العهد القديم كان من الممكن أن يبعث أكثر من نبي في وقت ومكان واحد ليشدوا من أزر بعضهم في إتمام الرسالة ومواجهة قومهم مثل موسى وأخيه هارون، فماذا عن مجتمع لم تقم فيه اليهودية والمسيحية بدورهما.. ألم يكن في حاجة ولو لشخص واحد يتم رسالة الله؟

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة عن بشارة الرسل والأنبياء بنبوّه محمد مثل دعوة إبراهيم حين قال: لَرَبِّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وقد توافقت تعاليم الإسلام مع تعاليم ووصايا الجد الأكبر إبراهيم أبي الأنبياء الذي كان حنيفاً عابداً لله وموحّداً به، ولن تجد في الإسلام ما يتناقض مع هذه التعاليم والمنهج الرباني المشترك بين جميع الرسل والأنبياء.

وكان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين يعلمون بمجيئه أيضاً بشكله ووصفه مثل الأب الذي يعرف ابنه تمام المعرفة ولا يمكن أن يخطئه، فأمن به البعض من اليهود مثل أبي بن كعب بن قيس الذي كان من أبحار اليهود، وكعب بن مائع الجيمري الشهير بكعب الأحبار وغيرهما، والبعض الآخر من المسيحيين مثل سليمان الفارسي وعدي حاتم الطائي وأخته سفانة، وهناك من أنكروه من كلا الفريقين لأن محمدًا لم يُبعث من قومه أو عشيرته، وهو ما قال الله تعالى عنه: {الَّذِينَ آمَنَّا مِنْهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. الحق من ربك فلا تكونن من المصترين}.

فضلاً عن آخر رسالة إلهية كان لا بد وأن تعيد تصحيح الكثير من المفاهيم والتشريعات في الأديان السابقة، مثل قضية صلب المسيح، وما الصق بأنبياء الله من تصرفات وأفعال هم منها براء.. والطبيعي أن أتباع كل دين يرون في دينهم الكمال

الوصول النهائية التي ينتظرنا فيها أعظم محبوب يستحق الحب.

هو أصل كل شيء، وصورة جميع الصور، وقد اتجه العالم كله إلى الله بالحب منذ لحظة كن، حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود، ففتطعت إليه وهامت به حباً، ولولا هذا الحب الخفي ما كانت حركة العالم وسيره نحو الكمال ولا كمال إلا وجهه.. وهو سبحانه المطلوب وإن تخفي تحت أسماء وصور عديدة.. فكل أنواع الحب ما هي إلا أقتعة وأسماء لحب الله وصفاته المتنزلة فينا.. فالطفل يحب في أمه وأبيه أوصاف المعطي الوهاب الرزاق الحافظ.. والفنان المبدع يحب ما تجسده صناعته من أسماء الخالق البارئ المصور البديع.. والمفكر والفيلسوف يحب أسماء الحق العليم اللطيف الخبير المحيط.

ومحب الله لا يخاف فراقه.. فليس عنده هذه المشاعر السوقية المبتذلة سواء اللوعة أو الضنى أو الصباية أو الهجر.. فهو يشعر أن محبوبه أقرب إليه من حبلى الوريد، وأقرب إليه من نفسه حتى إنه يراه ظاهراً له في كل شيء.. في بسمه وليده، وأوراق الشجر، ورقصة عصفور الصباح، ويزداد الشوق مع ازدياد المشاهدة والتأمل، بخلاف أشواق المحبين التي تخفت عند اللقاء.

أما ما هو دون الله من حب فهو مجرد وسيلة لها فترة صلاحية حتماً ستنتهي.. فمرة بعد مرة يكشف الإنسان أن موضوعات حبه لا تملك وجوداً حقيقياً.. الوردة تذبل، والشمس تغرب، والجديد في الفن يلى، وما رآه في المرأة جمالاً يكتشف أنها لا تملكه، وأنه يزايلها بالشيخوخة، فقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردّها صاحبها، وتبرد الشهوة، وتفتّر العاطفة، ويتجه إلى امرأة أخرى لتتجدد الخيبة، وتتجدد الملل، وتتجدد الضجر، قبل أن يكتشف أن حبه أكبر من تستوعبه ذراعان وفرج.

حبه الحقيقي يعبر به الغايات المحدودة حتى يتجرّد عنها؛ وحين يقف على عتبة المجدرات سيدرك أن الله هو الغاية الأسمى التي يجب أن نعشقها بكل ما فينا.. هو الواحد الذي تتجسد فيه كل

والنّمام الذي يُغني عن الإيمان بدين آخر جديد يُصحّح المفاهيم ويُيسر على الناس حياتها.. فلا اليهود يؤمنون بالمسيحية، ولا المسيحيون يؤمنون بالإسلام، ولا الإسلام يؤمن بالبهائية.

قلتُ له ملهوقاً:

هذه النقطة تؤرقني بشدة يا سيدي، فالخلاقات التي بين..

قاطعني بإشارة من يده قائلاً:

في آلاف الكتب الموجودة تحتنا يا ولدي هناك آلاف الأبحاث والمناظرات والتفسيرات في كل الأديان والملل سواء الإبراهيمية أو غيرها.. الإسلام، المسيحية، اليهودية، البوذية، الهندوسية، الزرادشتية، المانوية، الجانتيية، البهائية، الداوية، بخلاف وثائق وأبحاث أخرى عن علاقة الأديان بالأساطير، لكن ما قاضي للإيمان بالله على نهج نبيه الكريم كان الحب في المقام الأول قبل عقد أي مقارنة مع باقي الأديان، أو قراءة أبحاث ودراسات في هذا الصدد.

الحب؟

نعم.. الحب الصافي الذي يُعيد الإنسان لمنابعه الأولى.. فعندما تذكر كلمة (الحب) أول ما يخطر ببالك هي تلك المشاعر والأحاسيس بين رجل وامرأة، رغم أنه حب هامشي جاء فرعاً من جذور أبعد وأعمق تقود لحب الخالق الذي هو أصل كل شيء..

فالحب هو المرادف الوحيد للإيمان، لأنه ينفذ للقلب مثله ويكشف مثله عن ذاتنا العميقة، ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنا، والحب الذي هو أعرق من كل حب لا يفجره في القلب إلا التصوف والشعور الديني، لأن الدين هو الذي يأخذ الإنسان الساقط في حدود الزمان والمكان ويرفعه إلى سموات الأبدية، ولا يرفعه إلى هذه السموات إلا الحب.

فما حب الإنسان للبشر، وما حب الإنسان للفق، وما حب الإنسان للجمال إلا محطات سفر مؤقتة تقودنا إلى محطة

هذه القيم اللانهائية.. هو اللا محدود في مقابل المحدود.

إن حب الإنسان لنفسه، وحبه للمرأة، وحبه للجاء والسلطان يقوده إلى يأس بعد يأس، وملل بعد ملل، وإحباط بعد إحباط، حتى يشرق فيه حب الحق ليندله على الطريق إلى الواحد الأحد الذي تجتمع فيه كل الكمالات، فيزداد حبه عمقاً ويصبح عبادة وصلاة وهو يصعد في طريق العودة إلى منبع الأنوار.

عندها سيشعر أنه وجد نفسه حقاً، وعرف الله، وعرف هدفه وطريقه.. سيرك أن كل ما عاناه من عذاب وألم وإحباط ويأس لم يذهب عبثاً، فقد كانت كل تلك الآلام هي بوصلته وطريقه في بحر الظلمات.

أهل العزائم بالأرواح قد ساروا لم تلهيهم زينة الدنيا وآثار  
غابوا بمولاهم عنهم فقرَّ بهم لا جنة الخلد تشغلهم ولا النار  
غابوا عن الكون والأشواق تجذبهم لأنهم في سما الملكوت أنوار  
قد وجهوا الوجه لله العلي فلم يقهرهم حالهم فيه وأوطار

الآن بدأت أعرف الله أكثر من ذي قبل، حين توجهت إليه بقلب المحب لخالقه، وحاولت استجلاء سره الخفي خلف حجاب المظاهر ..

فمعرفة حقيقة الإله لا تقتصر فقط على ما أنبأنا به عن نفسه في كتبه المقدسة؛ بل يقول الصوفيون إن عدد الطرائق إلى الله كثيرة جداً بعدد أنفاس مخلوقاته، ولها مسالك أخرى مثل التأمل والتفكير حولنا وربطهما بصفاته وقدراته المتجلية لنا في الكون..

تيفت من ذلك حين وجدت الشمس تأفل، والزهر تذبل، والربيع ينتهي إلى خريف، والصحة تنتهي إلى مرض، والحياة تنتهي إلى موت، والإمبراطوريات تزدهر وتتدثر، والقارات يبتلعها المحيط، والنجوم تنفجر في فضاء الكون وتختفي، وعالم المظاهر حولنا خادع مخادع، يتلون كالأكاذيب، ويتحرك إلى زوال وفناء، وكأنه رسوم على الماء، أو نقش على رمال تذرورها الرياح، بينما الله ليس من هذا العالم، وإنما

معال عليه.

العالم باطل، والله حق.. العالم زائل، والله دائم.. العالم متغير والله ثابت.. العالم سجين في حدود الزمان والمكان، والله لا يتحيز في زمان أو مكان، فليس له حجم، ولا مواصفات مكانية، ولا يمكن أن يقال إنه فوق أو تحت، أو عن يمين أو شمال، أو داخل أو خارج، وليس له عمر، وليس له بداية أو نهاية، وليس له ماضٍ وحاضر ومستقبل، وإنما هو حضور مطلق، وإن مستمر، وديمومة أبدية ماثلة في الغيب والشهادة على الدوام.

والله منزلة عن الزمان والمكان، فهو لا يتحرك ولا ينتقل، وإنما هو ساكن مطلقاً مطلقاً.. صامد.. وكل ما حوله يضطرب، وهذا معنى "الصمد"، أي الثابت ثباتاً مطلقاً، ولهذا فهو الملجأ والأمان من خضم الاضطراب..

تدعى النفوس إليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقي بمراسيها إلى القاع الساكن، وتستمد ثباتها من ثباته.. فهو الصمد الذي يصمد إليه.

نحن في القيد (الزمان والمكان).. والله في الإطلاق (الأزل والأبد)، ليس له مبتدأ ولا منتهى ولا حدود.

هو "اللطيف"، منتهى اللطف.. ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا ثقل ولا كثافة تعوقه، ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء، في كل وقت.

هو معنا أينما كنا، قريب منا، منتهى القرب بحيث لا نراه كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه..

هو الواحد في وجوده.. الأحد في تفرده، والأحدية هي أنه لا ينقسم ولا يتجزأ، ولا يمكن أن يكون له بعض أو جزء أو ضد أو ند، ولا يجوز عليه التعدد أو التناقص أو الازدياد.. وهو لا ينحل ولا يتركب ولا ينقرط ولا يتحد ولا يتصل ولا يفصل.

الله يتجلى فينا لكنه لا يحل بنا، مثل الرقم واحد المدرج في جميع الأعداد ويسري فيها باستمرار، وباقي الأعداد تعد من مضاعفاته، فرقم اثنان أصله واحد وواحد، لكنه في النهاية اسمه اثنان، حيث يسري فيه الواحد بشكل خفي، وبالمثل تسري الأحدية الإلهية في كثرة المظاهر والعلوم،



في تفسيرها أن الله يقول لعبده:

يا عبد إذا حصلت على كل شيء فأين غناك؟!

يا فائك كل شيء، فأين فقرك؟!

يا أعدتك من النار، فأين سكينتك؟!

لما أنا سكتك، وعندى مقرك، وبين يدي موقفك.. أنا المنتهى وليس دون المنتهى راحة.

لم أعرف إلى أين أوجه بصري لله وأنا أسأله، فرددت في قلبي: "لهذا السبب يعيش أغلب البشر في بؤس وشقاء يا رب؟!"

.....

"والآن وقد عرفت الله بقلبك، وحاولت الوصول إليه بالتأمل والتدبر، تعال عرفه بطريق آخر، وسيلة مختلفة وهي العلم المادي".

قالها الشيخ خضر ونحن نجلس فوق السطح المضيء بنور القمر والنجوم، وبدأ يتحدث بلسان العلوم والمعارف:

- أنا وأنت، وكل ركاب هذه السفينة الفضائية التي اسمها الأرض، نعلم أنها تمر عبر عباب هذا الفضاء منذ ملايين السنين، في صحبة كوكبية من الفرسان من أبناء أسرة الشمس، والشمس بدورها مع مائة ألف مليون شمس أخرى تؤلف مدينة سابعة اسمها المجرة، ومثلها من المجرات مائة ألف مليون مجرة تسبح في طول الكون وعرضه على مدى اللانهاية من الرؤية.

رفع رأسه لأعلى ولَوَّح بيده مشيرًا للنجوم وتابع:

- نظرة في السماء في منتصف ليل ساج إلى هذه العمارة الكونية الهائلة سوف تثير دهولك إذا ما سألت: إلى أين نسير؟ وما النهاية؟ ومن الذي خلق؟ وكيف؟

فيأتيك العلم بالإجابة حين يقول لنا إن هذه العمارة الهائلة على

لتبقى خفية ككنز مطموس جاهز أن يكشفه كل ذي عقل راجح، وقلب مؤمن ينظر إلى ما وراء المظاهر، فإن افقتن بالمظاهر احتجب عنه الكنز وضل الطريق، ومن تجاوز الظاهر إلى الخافي المرموز، اهتدى إلى المسار السليم ونال نعمة الله.

فالنور الذي يتجلى في مصابيح النيون، قد يكون نوراً أحمر، أو أزرق، لكنه في النهاية له أصل واحد وهو النور الأبيض، ذلك مثل الله، نبع واحد، تتعدد صفاته وقدراته كتعدد ألوان الضياء النابعة من أصل نوراني واحد.. وقد يكون المصباح نفسه على شكل حلزوني، أو أنبوب أسطواني، أو شكل قلب، أو دائرة، تلك هي المخلوقات.. تأخذ أشكالاً وقوالب مختلفة تحل فيها صفات الله وعلومه وقدراته، لنعاين الخالق المحتجب خلف صفاته الدالة عليه فينا وحولنا.

تلتقي فيه الأضداد (الجبار الرحيم) و(المعز المذل) و(النافع الضار) في وحدة مطلقة لا تضاد فيها ولا تناقض ولا تصارع مثلاً تحدث الصراعات داخل البشر، ومن هنا كان اسمه "السلام" حيث لا حرب داخله، بينما تجتمع هذه الأضداد داخل البشر فتجعل أحوالهم تتبدل وأمزجتهم تتغير.

هو "القيوم" الذي يقيم كل شيء حي، ويمنح الحياة للعدم، وكل شيء يقوم بالله وشه.. النجوم في أفلاكها تمسكها قوانين الله فتقوم به، والأشجار ترفع قامتها به ويمدده، ونحن نقوم كل يوم من نومنا به ويمدده.. نرى به، ونسمع به.. بالمواهب التي بثها فينا.. والكون كله يدين بقيومته الله.. فهو قيوم كل شيء.. وهو مقيمنا من الموت يوم القيامة.

في بعض المخطوطات القديمة هنا في الدار عثرت على واحدة لمتصوف قديم اسمه النُّفَرِي، تناول تفسير اسم الله "العزیز"، فقال:

"يقول الله لعبده: ما أنا معيون للعيون، وما أنا معلوم للعلوم، وما أنا معترف للمعارف، أنا العزيز الذي لا يُنال".

أنا الملك الظاهر بالكرم، المحتجب بالعزّة، أنا الظاهر ولا ترائي العيون، وأنا الباطن ولا تطيف بي الظنون.

أعجبني كلامه، فتابعته كتاباته حتى شعرت بقشعريرة غير عادية وأنا أقرأ له تفسير الآية القرآنية القائلة: {إن إلى ربك المنتهى}، التي استشعر

سعتها وتراميتها، كلها مبنية من نسيج واحد وخامة واحدة، ومصممة كلها بأسلوب واحد وخطة واحدة، ومحكومة بقوانين واحدة.

سوف يقول لنا العقل لا بد أن الخالق واحد، والمبدع واحد، فإذا أدركنا البصر عاندين إلى الأرض وأحوالها ورحنا نتأمل ما فيها من حياة ونبات وحيوان وإنسان، وجدنا نفس الشيء.. نفس القوانين الواحدة، والخامة الواحدة، والنسيج الواحد، والأسلوب الواحد، والخطة الواحدة في الجميع..

الذي بنى السماء، هو هو الذي صنع أوراق الشجر، وهو الذي وضع السم في العقرب، والعطر في الورد، والعقل في البشر، وهو الذي صنع الجميع من خلايا متشابهة، كما تبني البيوت من لبنات واحدة، لذا فإن وحدة القوانين المعمارية تؤكد لنا وحدة الخالق الذي أنفرد وحده ببناء كل شيء قبل أن يكون هناك شيء..

صوبَ بصره إلى عينيَّ واستطرد:

- أكبر شيء في الدنيا كلها هو الواحد الصحيح.. فيمكنه أن ينقسم إلى 2 ثم إلى 4 ثم إلى 8 ثم إلى 16 إلى ما لا نهاية فيعطيك كل الأرقام التي تخطر بذهن عصفانة الحساب.

ثم التقط حاسبه الآلي الموجود إلى جواره وأشار لشاشته وبدأ يقلب صوراً عديدة قائلاً:

بدأت الحياة بخلية واحدة، انقسمت فأصبحت خليتين، ثم أربعة ثم لوفاً وملايين وملايين تنوعت بحسب البيئات والظروف، وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفراشات وديدان وقردة وأدميين.

وبدأ الكون بغاز بسيط واحد هو الأيدروجين، الذي يشتعل الآن في باطن النجوم ليُعطينا النور والدَّفء مع أشعة الشمس كل صباح، ومن الأيدروجين في باطن الأقراص النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكرونيون

والسليكون، وغيرها من عناصر ومكونات الطبيعة سواء الموجودة في صورة مواد أولية منفصلة أو متحدة على شكل مركبات.. وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليست إلا هذه التواليف التي نشأت كلها من قسمة واحد صحيح اسمه ذرة الأيدروجين.

حتى أنت في حد ذاتك واحد صحيح.. تبدو في نظر نفسك صغيراً ومحدوداً، لكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدرجات والمعارف ما لا حد له.. ورغم أنك أصغر من العالم بكثير لكنك تحتويه في داخلك وتتصوره وتتخيله وترآه.. على شبيكة عينيك ترسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات، وفي عقلك تختصر الرموز والشفرات وهنسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه.. وكما قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَتَزَعَمُ أَنَّكَ جَزْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ أَنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

.. ما في الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وإنسان هي في الحقيقة أجزاء الواحد الصحيح الذي أوجدنا في الوجود وكسانا بهيئاتنا وأشكالنا.. كل منا لحن وجملة موسيقية في سيمفونية متكاملة، والعذاب والألم لا يأتيان إلا مع الإحساس بالانفصال.. حين تنفصل في أنانية عن الكل، وتنتسى أنك حرف وسط في أية الوجود الكبرى.. أما إذا توجهت إلى الوجود في شعور حميم بالنسب والقرباة، فستشعر بأنك تستطيع أن توأخي الأسد، وتصاحب ضباغ الغاب، وتروض الثعابين والأفاعي، وألهو معك وتلهو معها، وكأنها عائلتك.. ذلك بأن الوجود كله ما هو إلا وجه مختلف للواحد الصحيح.. كلنا أقربون يا بني، وما قواصل المكان والزمان إلا وهم الأوهام، ومتاع الغرور، وما أن تخترق هذه القواصل بعين وجدانك حتى تكتشف الإخوة والنسب والقرباة بينك وبين كل شيء، وتترك أن حياتك الحقيقية في فئائك في هذا الكل الذي تعيش فيه، لأنك بهذا تسترد وحدتك وحقيقتك.. وما الحب بينك وبين الآخرين إلا الحنين إلى وحدتك الأولى، وما الحب الذي يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول إلا محاولة للعودة بها إلى الوحدة الأولى والواحد الأحد..

وما الجاذبية بين النجوم التي تؤلف الكواكب والمجرات إلا عودة بالكل

الادب وأشكال وتراكيب لا حصر لها، والأصل في النهاية واحدٌ صحيح..

والخلية الأولى التي بدأت حياتها بنشْدان درجة معينة من الحرارة والجو والعداء لانتعاشها وتكاثرها، كانت تضمّر في جوفها غايات أبعد استمدتها من الخالق، وما ملكّت ناصية حياتها في عقل الإنسان وتركيب باقي المخلوقات حتى أفصحّت عن هذه الغايات البعيدة، فبدأت تتشّد قِيَم الجمال والحق والخير والعدل والسلام.. فزهرة عباد الشمس تتطلع إلى الشمس، ونباتات الصبار تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحات فنان عاكف على ابتكار أفانين الجمال، والنحلة تبني بيتها في معمار هندسي بديع، والفراش يرسم زخارف بديعة على واجهة أجنحته.. حتى باورات الحديد والنيكل والصخور تحت الميكروسكوب لها أشكال هندسية مختلفة بديعة التصميم.

من هنا أراد الله أن يقرب تلك الدروس بشكل إشاري رمزي جميل يقول إننا جميعاً نبغ منه، فقاطبنا في التوراة والإنجيل بلغة الأبوة والبنوة على سبيل الاستعارة والتقريب في زمن لم يكن هناك فيه الميكروسكوب ولا التليسكوب، لنعرف أننا خلفاؤه ونماذج مصغرة منه، وتذكرك يا ابن الإنسان أنك أحد آحاد الأحد الأكبر، وما تعلن من حروب هي حروب نعلنها على نفسك، وما تقتل حينما تقتل إلا نفسك.

محققاً الأشياء الداخلية تبدو دائماً لنا عكس ظواهرها.. وكلما كانت الأشياء قريبة أصبحت رؤيتها بالعين أسهل وأوضح، لكن الابتعاد عنها لمسافة أبعد وقتره أطول يجعل القلب والعقل يقفان على جوهرها الحقيقي الخفي.

"يا الله.. ما كل هذا العلم يا سيدي؟"

فلنُها مبهوراً كالمشوّه، فارتسم الخجلُ على ملامح الخضر وأجاب:

- بل هو الجهل يا ولدي، لأنّ المعلوم بحر لا ينضب، وكلما ازدادت علماً كلما أدركت مدى جهلك وجهالتك، أما الآخرون من مدعي العلم وأهل التفاسيح فتطبق عليهم جملة القرآن {كل حزب بما لديهم فرحون}، فإحساس النفس بعلمها يوردها أحياناً مورد الهلاك، لا سيما المتصيّبين الذين أغلّفوا عقولهم وتصوروا أن ما عندهم من العلم هو كل العلم، فقال فيهم ربك: {قلما

وفي النهاية يعيننا الموت إلى أمان الأرض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه، ويصبح الأكل منا مأكولاً.. ففي حقل واحد يعطي نفس الطين ألف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور.. من الواحد يخرج الكل، وإلى الواحد يعود الكل.. وحين تحرقنا النار، جميعاً نتحول إلى قبح.. أشجار، وثعابين، وقردة، وبشر، وجماد، الكل ينتهي إلى نفس المصير.. فحم.. إشارة إلى أصلنا الواحد، وما الحياة على الأرض إلا تصانيف تعود بنا للواحد، والفارق فقط في النسب والعلاقات والكيفية..

ذرتان من الأكسجين تعطيانك ذلك الغاز اللطيف الذي تنتفسه، وثلاث ذرات تعطيك سناً زعافاً قاتلاً اسمه الأوزون.. الفرق بين سم الشبان وطبق شهى من البيض المقلي مجرد فرق شكلي في معمار الذرات، لكنهما في الأصل مادة واحدة هي البروتين.. والفرق بين الإنسان والحيوان والحشرة هو الفرق في النسق والترتيب والكيفية التي تصطف بها الأحماض الأمينية في الجينات الوراثية والتي تصطف بطرق مختلفة كما تصطف الحروف فتؤدي إلى مخلوقات مختلفة كما يؤدي ترتيب الحروف بطرق مختلفة إلى عدد لا نهائي من الكلمات والعبارات في مختلف العلوم والمعارف والأدب..

كل مباحج الحياة ومتعتها. والوانها النابضة يمكن اختزالها في شفرة رياضية.. فالفرق بين مقطوعة موسيقية يطرب لها قلبك وتحلق بها روحك في السماوات ومقطوعة أخرى منفرة تؤلم أذنيك، مجرد ذبابات وموجات صوتية تطرق طيلة الأذن، فاصل الموسيقى مجرد معادلات رياضية وذبذبات، لكنك تتعامل مع كل مقطوعة كما لو كانت كياناً مستقلاً، ومخلوقاً ذا شخصية.. الفرق بين الألوان الأحمر والأصفر والأخضر هو فرق في أطوال موجات الضوء.. مجرد فرق رقمي.. مشهد الغروب الذي يضيء على نيفسك السكونية والهدوء، مجرد معادلة رياضية من الأطوال الموجية.. وفي النهاية تستقبل حواسك كل هذه الأرقام فيحولها جهاز الاستقبال إلى معان مختلفة من صور وأشكال وأصوات، وهي نفس الآلية التي اقتبسناها حين صنعنا أجهزة التلفاز والراديو، كمخلوقات عاقلة خلقها الإله على صورته كما جاء في سفر التكوين، لكن المقصود بصورته هي صفاته وقدراته وأفعاله لنكون خلفاء على الأرض ونسير على دربه، والكون شيء واحد يُعاد صبه وسبكه في

جاءتهم رُسُلهم بالبينات فرجوا بما عندهم من العلم فأصلهم الله على علمهم، وكفروا رغم أنهم مستبصرون.. ولهذه الدنيا علوم كثيرة، متشعبة ومختلفة، لكن أشرف العلوم هو العلم بأشرف معلوم.. إلها العظيم، أما من أعجبتهم باقي العلوم المادية حتى شغلتهن عن العلم بربهم، فقد قيل فيهم: (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون).

عَيْتِي لَغَيْرِ جَمَالِكُمْ لَا تَنْظُرُ وَسْوَائِي فِي خَاطِرِي لَا يَخْطُرُ قَبْذًا نَطَقْتُ فِي خَدِيثِ جَمَالِكُمْ وَإِذَا سَكَتُ فَمَعَكُمْ أَتَقَكَّرُ حُبِّي لَكُمْ طَبِيعٌ مِنْ غَيْرِ تَكَلَّفِ والطَّبِيعُ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَتَغَيَّرُ صَبِرْتُ قَلْبِي عَنْكُمْ فَأَجَابَتْنِي لَا صَبِرَ لِي لَا صَبِرَ لِي لَا أَصْبِرُ لَا صَبِرَ لِي حَتَّى يَرَاكُمْ نَاطِرِي وَعَلَى مَحَبَّتِكُمْ أُمُوتُ وَأَحْسَرُ

.....

وبدأت رحلتي مع (محمد بن عبد الله)..

قرأت وتعلمت كيف كانت الحياة في شبه الجزيرة العربية قبل مولده، وذلك الموقف الغريب حين همَّ جده عبد المطلب بذبح أحد أولاده العشرة عند الكعبة حتى يفي بنذرٍ قديم كان قد قطعه على نفسه، ووقع الاختيار على ابنه عبد الله والد محمد، لكنه نجا بمعجزة بعد أن افتدته قريش بمائة من الإبل، ليتزوج بعدها من ابنة عمه أمنة بنت وهب ويسافر بعدها بأيام في رحلة تجارية مات فيها، تاركاً خلفه بذرته التي ذرعاها بين أحشائها، فحزنت عليه حزناً شديداً، وحين بلغ محمد 6 أعوام أخذته أمه وسافرت به لزيارة قبر أبيه وظلَّت تكيي عنده، قيل أن تمرض مرضاً شديداً في رحلة العودة وتموت بين ذراعي طفلها، ليعاين الطفل في سنه الصغيرة فجيعة الموت وفقد الأحبة، ويدوق مرار اليتم وفقد الأبوين، ويعيش مع جده، ثم ينتقل بعد وفاته للعيش عند عمه.

بهرتني شخصية هذا الرجل الفذ قبل حتى أن يكون نبياً..

حسن سيرته في زمنٍ سادت فيه الرذائل والنقائص حتى لقبته قريش

بصادق الأمين.. انزاله عن الملذات والشهوات التي غرقت فيها القلوب، فلم يشرب الخمر، ولم يلعب القمار، ولم يواقع الجواري والعاهرات، ولما كان يفعل كل الشباب الذين في مثل سنه.. عمله في رعي الغنم، ثم انتقل إلى مجال التجارة مع خديجة بنت خويلد، تلك المرأة الثرية السليمة، صاحبة المال والجاه التي تقدم الكثيرون بطلب الزواج منها بعد وفاة زوجها لكنها رفضتهم جميعاً حتى أعجبت بذكاء وحسن أخلاق محمد فأرسلت له لتطلب الزواج.. حكمته في التعامل مع أدق الأمور التي كادت أن تسعل حرباً بين قبائل قريش حول أحقية كل منهم في وضع الحجر الأسود.. رفضه للانسياق خلف قبائل قريش في عبادة الأصنام الموجودة حول الكعبة، وتأمله في خلق السماوات والأرض في عمار حراء، في محاولة للوصول إلى إجابة عن تساؤلاته بشأن حقيقة ما في الكون الذي كان في خياله قبل أن يكون نبياً أكبر وأرقى وأعظم من أصنام من الحجارة التي لا تتفك ولا تنصر.

قال خضر محققاً فعلاً في ضرورة بعثته.. وكانت فعلاً آلامه وأخلاقه قبل البعثة تليق بسيرة نبي..

إبراهيم، ولوط، وموسى، والمسيح، ومحمد.. جميعهم رعا الغنم، وروا الطراف، حتى شربوا وداعنها، وسكنت في قلوبهم الرافة واللطف، فإذا سئل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد ذهب أولاً.

وكان هناك من يعجني تلك اللحظات، قادتني الأقدار لدخول المعبد اليهودي، ثم الكاتدرائية، قبل دخول المسجد، وقرأت أسفار العهد القديم الجديد قبل قراءة القرآن، ثم خضت رحلة العلم وملكت مسلك الروح معاً في ظل العشق الإلهي، حتى زال لدي أي التباس، وفسرت الأشياء معها بنفسها.

لم أنزعج أو أندesh من الغزوات والفتوحات والجهاد الإسلامي، بعد أن قرأت الأسفار التاريخية التي تحكي أوامر الرب إلى بني إسرائيل بالجهاد أيضاً لإعلان عظمته التي أنكرها الوثنيون، وما سأل في حربهم من ماء، وما أزهقت فيها من أرواح، بشكل يفوق أي غزوة إسلامية بما فيها واقعة بني قريظة التي كانت من أسوأ الغزوات الإسلامية في عهد النبوة، فيما جاء في وصايا النبي محمد في الحروب: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، أغزوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من



كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا راهبًا منعزلًا بصومعة، ولا تقربوا نخلًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تدبحوا بعيرًا ولا بقرة إلا لماكل، ولا تهدموا بناءً.

بينما جاء في سفر حزقيال:

"واضربوا، لا تشفق أعينكم، ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء.. اقتلوا للهلاك... املاوا الدور قتلى".

وفي سفر يشوع:

"وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ. وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلِ وَشَيْخٍ حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْخَمِيرِ بِحَدِّ السَّيْفِ".

وفي سفر أخبار الأيام الأول:

"أَخْرَجَ (داود) الشَّعْبَ الَّذِينَ بَها (بلدة ربة) وَنَشَرَهُمْ بِمَنَابِيرٍ وَتَوَارِيحٍ حديدٍ وَفُؤُوسٍ".

لم أشمز أو أندش من فكرة تعدد الزوجات والجواري، فقد كانت شريعة إبراهيم ومن بعده موسى تجيز تعدد الزوجات، فكان لإبراهيم زوجته سارة، وأنجب من جاريته هاجر ولده إسماعيل.. ويعقوب أو إسرائيل كان متزوجًا من 4 نساء أنجب منهن 11 ولداً وبناتاً، وكان لسليمان مئات الزوجات، وحين قرأت تعدد زوجات محمد بعد أن بلغ من العمر خمسين عاماً لنساء من قبائل وبلدان مختلفة لتوطيد دولة الإسلام، واختيار عائشة ابنة صاحبه أبي بكر رغم فارق السن الكبير الذي كان شائعاً وقتها، لتبقى من بعد وفاته وتقل سيرته وتجيّب عن السائلين ممن لم يحضروا عهد النبوة، كان في عقلي صورة لما جاء في نشيد الإنشاد لسليمان من غزل وخمر وسكر وأوصاف جسدية صريحة للنساء.

سألت نفسي.. إذا كان محمد يدعي نبوة مكذوبة فما مكسبه؟ أهو المال والجاه؟ لقد عرضت قریش على عمه أبي طالب أن يجعلوا ابن أخيه ملكاً عليهم ويعطوه المال والنساء على أن يترك أمي هذا الدين الجديد الذي يساوي بين الأسياء والعبيد، فرد على عمه رداً حاسماً: "وَاللَّهِ بِأَعْمَى لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَى أَنْ أَتَرَكَ هَذَا

الدين ما تركته، حَتَّى يُطَوِّرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ"، فهذا إذن إصرار نبي الله البقین في دعوته المنزلة عليه من الله، ولا يوجد في قلبه متقال ذرة من الادعاء والكذب.

على فقيرًا زاهداً، يصحو أحياناً فلا يجد الطعام فينوي الصيام، وكان رأس الصدقة من البشر، وكان أهله فقراء، حتى إن ابنته فاطمة كانت مريضة ضعيفة في حاجة لمن يخدمها ويساعدها ويكث له من شدة حرها وضعفها، فلم يستغل مقامه كني ويأمر أحداً بخدمتها رغم أنه كان مستطيع.

عرض للتكيل والعذاب والاستهزاء من قومه أكثر من 10 أعوام في مكة دون أن تنتهي إرادته أو يلين إصراره، ولو كان هذا محض ادعاء لما الذي كان يحمله على فعل ذلك وهو من داخله يعلم أنه لا إله خله أو ملائكة تعضده؟!

لم يدع الرجل سوى لعبادة الله عز وجل حق عبادته، وجعله إلهاً وحيداً ليس كمثله شيء، وتنفذ وصاياه وتعاليمه التي تماشت مع وصايا وتعاليم باقي الأنبياء، آدم، وادريس، ونوح، وإبراهيم، وإسحق، وإسماعيل، وموسى، وهارون، الذين قال عنهم إنهم إخوته، ولم ينكر نبوة أحدهم أو حبيب فيه، بل انتصر لهم وطهر سيرتهم مما لحق بها من إضافات مليئة بالنقص والخزي الذي لا يليق أبداً بسيرة الأنبياء.

ظهر معه أنبياء كذبة مثل مسيلمة الكذاب الذي ألف كلاماً مخبولاً قال له من عند الله فجاء فيه: "الليل، وما أدراك ما الليل، له زلوم طويل"، ومن دعا لرجل أصابه رجغ في عينه، أصابه العمى وفقد بصره، وسقى وضوئه نخلة فيبيست، وحيء له بطفلين ليباركهما، فمسح على رأسيهما أفرع رأس أحدهما وزال شعره، ولثغ لسان الآخر، فما وجه المقارنة بين مسيلمة اليوم وبين دين الحق الذي نزل من السماء وصار له اليوم أكثر من مليار مسلم لم يمت نبينهم إلا بعد إتمام الرسالة كاملة، وفتح مكة التي هاجر منها مضطراً ضعيفاً، فعاد إليها قوياً مع جيش من الموحدين الذين كانوا مثله فقراء أذلاء فعزهم الإيمان، حتى تمت كلمة ربهم وانتصروا أوجدانيته وهم يكسرون ٣٦٠ صنماً حول وداخل وفوق الكعبة الشريفة، ويجعلون العبادة لله وحده، فأمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجا، ونزلت من السماء آيات مبينات قالت: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نَعْمَتِي وَرَزَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} في حجة الوداع التي ألقاها النبي محمد الآخر عام في حياته حتى ينهي حياته خير نهاية، بعد أن هيا أمته لرحيله بخطبة لا يقولها إلا نبي يضع آخر لينة في بناء دينه الذي أخذ يبني ويؤسس فيه على مدار ٢٣ عامًا، فقال للمسلمين الذين معه: «هَذَا تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فَاجَابَهُ الْمُسْلِمُونَ: «شَهِدْنَا أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَتَصَدَّقْتَ»، فَأَشَارَ بِإصْبَغِهِ السَّيَّابَةِ، وَهُوَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِثُهَا إِلَى النَّاسِ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ، اللَّهُمَّ أَشْهَدُ، اللَّهُمَّ أَشْهَدُ».

ولا أعلم لماذا أبكى الآن وأنا أردد: "يا حبيبي يا رسول الله" بينما ما زال صوت أولئك الصوفيين الأطهار يتردد في أذني وهم يتغنون في حضرته قائلين:

وأحسن منك لم تر قط عيني  
وأجمل منك لم تلد النساءُ  
خلقت مبرأ من كل عيب  
كانك قد خلقت كما تشاء

.....

يبدو أنني على موعد مع أكثر الأمور جدلاً..

فالإسلام يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأديان والرسالات، ويؤكد على وجود التوراة والإنجيل، لكنه ينفي الوهية المسيح، وينفي أيضاً واقعة صلبه الشهيرة، ويؤكد على بشريته كنبى مثل باقي الأنبياء، فكيف يستشهد القرآن بالإنجيل في بعض الآيات، وينفي في الوقت نفسه واحدة من أهم ركائز الدين المسيحي التي تم ذكرها في الإنجيل؟!

ابسم الشيخ خضر حين سألته، وأجابني:

- بين القرآن والتوراة والإنجيل خطوطٌ عريضةٌ مشتركةٌ كثلاثة كتب جاءت من نفس الإله، وتشترك في وصاياها وتعاليمها الرئيسية مع ما تعلمه آدم، ثم أخذه الله على نبيه نوح في العهد النوحى، وما تلاه من أنبياء ورسول، لكن الجدل والخلاف لم يتوقف بين أبناء أي دين منذ نزوله وحتى يومنا هذا.. على مر التاريخ كانت هناك في كل دين فرقٌ كثيرةٌ اختلفت

رواياتهم التي حكوها حول أمور جوهرية تمس صميم دينهم، لتتفرع الحقيقة الكبرى إلى حقائق صغيرة بعضها صحيح، وبعضها تم دس وتلفيقه ليثبت حجة الفريق ضعيف الحجة.. حدث ذلك في اليهودية، وفي المسيحية، ولا استثنى الإسلام من ذلك، الذي استجد داخله اليوم سنة وشيعة وفرقا أخرى، ومن يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بداية نقطة الخلاف ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيز لفريق أو مذهب، سيصل إلى حقيقة الحقائق.

وبالرجوع إلى التاريخ، والتتقيب في رواياته وأخباره عن حقيقة حادثة الصلب، ومن المصلوب فيها سند أن قداما المسيحيين كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون المسيحيون أنفسهم أسماء فرق كثيرة أنكرت الصلب في البيئة المسيحية أصلاً قبل ظهور الإسلام نفسه مثل أتباع فرقتي السيرينثيين والكرىكراتيين، الذين قالوا إن المسيح نفسه لم يُصلب ولم يُقتل، وإنما صُلب واحدٌ من تلاميذه، يُشبهه شبيهاً تاماً، وهناك أيضاً الباسيليديين الذين يعتقدون أن شخصاً آخر صُلب بدلاً من المسيح.

وثمة فرق مسيحية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسية والرمسيونية والفلسطينية، وهذه الفرق الثلاثة تعتقد بالوهية المسيح بشكل يخالف عقيدتنا، لكنهم يرون أن القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البتة والإلهية.

بخلاف فرق أخرى أنكرت صلب المسيح مثل الكورنثيين، والساثيرنوسية، والماركونية، والبارديسانية، والبارسكالونية، والبولسية، والمايسية، والتايتانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلسطينائية، والهرمسيين، وبعض هذه الفرق قريبة العهد بميلاد المسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول، وقد تم وصف كل من انكر الوهية المسيح أو صلبه بالهرطقة وتمت مطاردتهم، حتى وإن كانوا يؤمنون بوصاياه وتعاليمه، وتم وصفهم بالغنوصيين.

الغنوصيين؟

-

الغنوصية كلمة يونانية تعني المعرفة، وقد بدأت قبل المسيحية في فترة سيطرة الإمبراطورية الرومانية، وبدأت تعتمد على الفلسفة والتفكير في محاولة للوصول لأصل هذا العالم، وتذهب الغنوصية إلى أن الخلاص هو في تعلم الأسرار الخفية ومعرفة أصل الروح ومصدرها الحقيقي، وتؤمن أن الروح الخيرة دائماً ما تكون في مواجهة الجسد الشرير، وفي حالة تعارض دائم مع المادة الفاسدة، مما تسبب في كراهيتهم للعالم المادية ودعوتهم الدائمة إلى التشف. وفي العقيدة الغنوصية، فإن الإله الحقيقي هو إله يخفي عن عيون البشر ويتجلى بالله سفلي هو خالق العالم، وترفض الغنوصية إله العدم القديم التوراتي، وتعتبره خالفاً شيطانياً، شريراً وغيوراً ومسؤولاً عن كل مآل العالم. وتعتبر المسيح معلماً روحياً مكلفاً بقيادة البشرية نحو معرفة الله الحقيقي الخفي، والمسيح حسب الغنوصية ليس ابن إله العهد القديم، بل هو من شيت الابن الثالث لآدم، وهي حركة فكرية شديدة الشبه بالتصوف الإسلامي، وتعتبر من ينتمي لها عارفاً من العارفين، غير أنها تنقسم إلى فرق مختلفة بعضها بعيداً كل البعد عن أي دين سماوي.

واستمر صراع الغنوصيين مع المؤيدين لألوهية المسيح وصلبه حتى القرن الثاني، إذ يقول المؤرخ جون فنتون: "إن إحدى الطوائف الغنوصية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيروني الذي ذكر في أنجيل مرقس ومتي ولوقا، قد صلب بدلاً من يسوع". فقد أجمعت الأنجيل الثلاثة المتوازنة على أن سمعان القيروني هو الذي حمل الصليب وليس يسوع، ودون ذكر سبب يبرر ذلك، عكس ما كان سائداً وقتها وهي أن الشخص المقرر صلبه هو الذي يحمل صليبه وليس غيره، حيث كان الرومان يحرصون على أن يشعر من يُساق لعقوبة الصلب بالذل والخوف وهو يحمل الوسيلة التي سيموت عليها.

واعتبر القديس إيرينيئوس الذي جاء في القرن الثاني، أن الفرقة التي قالت عن المسيح ليس هو الذي مات بل سمعان القيروني الذي حمل الصليب وأخذ شبه يسوع وصلب مكانه بينما يسوع أخذ صورة سمعان وكان يضحك على صاليبه وهو يقف بجوارهم، أنهم هراطقة.

واستمر إنكار صلب المسيح بعد القرن الثاني، فكان من المنكرين الراهب ثيودورس الذي عاش في القرن السادس، والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص الذي عاش في القرن السابع وغيرهما.

وفي أعمال يوحنا وهو من أسفار الأبوكريفا غير القانونية يقول المسيح: "لست أنا يسوع المعلق على الصليب".

وتوجد أنجيل أخرى تحمل أسماء تلاميذ يسوع تؤكد نجاه المسيح دون أن تذكر اسم المصلوب كروية بطرس صخرة الكنيسة التي جاء فيها: "قال لي يسوع إن الذي شاهدته يضحك على الشجرة فهو يسوع الحي، أما الذي تستمر المسامير في يده وساقيه فهو الجسد البديل أخذاً شبيهي لئساق للعار".

فإلى جانب الأنجيل الأربعة المعتمدة حالياً، والتي اعتبرت وحدها قانونية، تداول المسيحيون خلال القرون الأولى الميلادية عدداً كبيراً من الأنجيل والروى والأعمال التي دُعيت منحولة فيما بعد، ومنع المسيحيون من قراءتها وتداولها، رغم أنها تتضمن روايات عن أسرة مريم العذراء، وميلادها، وحياتها، وتاريخ يوسف النجار، وميلاد المسيح، وطفولته، وبقاعته، مما يغطي الفترة التي تجاهلتها الأربعة أنجيل، حيث لم ترد فيها أي تفاصيل أو وقائع بعد ميلاد المسيح إلى أن عاد إلى بيت لحم بعد إتمامه الثلاثين عاماً، باستثناء واقعة وحيدة انفرد بها إنجيل لوقا حين كان عمره 12 سنة.. فلم نقرأ كيف عاش الإله وفقاً للعقيدة المسيحية مرحلة طفولته وصباه ومراهقته.. وهكذا أصبحت هناك أنجيل رسمية لكنها ليست ثرية، وأخرى منحولة بها الخيال الشعبي والتقوى المسيحية البسيطة ورغم منعها إلا أنها كان لها بالغ التأثير في الفن التشكيلي المسيحي، والموسيقى الكنسية، والمناسبات والأعياد الدينية، ونوع آخر من الأنجيل والمؤلفات الغنوصية أحدثت شخراً حقيقياً في الكنيسة مبكراً.

لكن يا سيدي الكنيسة لا تؤمن سوى بالأربعة أنجيل الرسمية فقط، فما الذي يُمكن قوله لمن لم يقرأ سوى هذه الأنجيل فقط؟

إذا كانت الكنيسة الرسمية لا تؤمن سوى بالأربعة أنجيل الرسمية

فقط، فعقل الإنسان وقلبه لا يمكن احتكاره.. ونهر العلم والمعرفة والاطلاع لا حراس عليه يمشون أحياناً يريد أن يشرب.. وحتى هذه الأناجيل الأربعة توضح أن اليهود الذين جاءوا للقيص على المسيح لم يكونوا على علم تام بشكله وأوصافه، ولا لماذا كانت هناك علامة بين يهوذا والجنود على تعريف المسيح. فقد ورد في إنجيل متى: "وكان الذي أسلمه قد جعل لهم علامة إذ قال: هو ذاك الذي أقبله، فامسكوه". كما يقول إنجيل يوحنا: "فجاء يهوذا بحرس الهيكل والحرس الذين أرسلهم عظماء الكهنة والفريسيون حتى بلغ ذلك المكان، ومعهم المصابيح والمشاعل والسلاح. وكان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم: أنا هو. وكان يهوذا الذي أسلمه واقفاً معهم"، كما توضح تلك الأناجيل أن المسيح كانت لديه قدرات هائلة في التخفي، وجعل العيون لا تعرفه، والدخول على تلاميذه والأبواب مغلقة، إذن عملية إلقاء الشبه على آخر كانت سهلة وميسورة وقد أرانا يسوع منها الكثير.

ثم أن الأناجيل الأربعة القانونية متسوية في كتابتها إلى أسماء 4 شخصيات من عصر الرسل الذين كانوا يبشرون الناس بالمسيحية، وهم مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، لكن يبدو أن نسبة كل إنجيل من الأناجيل الأربعة إلى واحد من هؤلاء ووضع أسماء هؤلاء الرسل على تلك الأناجيل تعاونين لها، فقد حدث بعد كتابتها بزمان طويل لإضفاء السلطة والمصادقية عليها، بدليل إن أقدم إشارة إلى متى ومرقس بوصفهما مؤلفين لإنجيليهما قد وردت لدى أوريغوس القيساري الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، ووضع في تاريخ الكنيسة كتاباً اعتمد في أخباره عن الإنجيليين على الأسقف بابياس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي. وقال الأسقف بابياس إن متى كان أول من جمع تعاليم يسوع، في كتاب دعاه بال "أقوال" باللغة الآرامية، ثم قام الآخرون بترجمته كل حسب مقدرته، ولا أحد يعرف إذا كان هذا الكتاب هو إنجيل متى المعروف حالياً أم لا، ولا أحد يعرف إذا متى نقل أقوال المسيح هو نفسه متى العشار تلميذ المسيح أم لا، لا سيما أن معظم الباحثين في العهد الجديد في

القرن التاسع عشر يشككون بنسبة إنجيل متى إلى متى العشار تلميذ المسيح، وبالنظر إلى فكرة كتاب الأقوال التي أخذها متى من المسيح ومقارنتها بإنجيل متى الحالي، سنلاحظ أن مؤلفي الأناجيل الأربعة قد اعتمدوا مجموعة أو أكثر لأقوال المسيح مما نزل عليه من الله، ثم وضعوا لها مناسبات معينة وشبكوا هذه المناسبات إلى بعضها لتعطي الانطباع وكأنها سيرة أو ملحمة عن حياة المسيح رغم أنها ملحمة ينقصها الكثير من التفاصيل عن حياته كما أخبرتك، وبشكل عام هناك شبه إجماع بين دارسي العهد الجديد أن متى ومرقس ولوقا مؤلفي الأناجيل الثلاثة لم يروا يسوع أو يسمعو منه بشكل مباشر، وإنما كتبوا أناجيلهم بعد مضي جيل أو جيلين على وفاة يسوع.

وبالمثل يقول الدكتور القس فيم عزير في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد): "هذا الأمر يختلف عما يقوله الإسلام من أن الإنجيل نزل على يسوع أو (عيسى) بلغة القرآن، فالمسئول الأول عن كتابة هذا الكتاب الذي نسميه العهد الجديد ليس يسوع؛ بل المسيحيين، سواء من الجيل الأول أو من الجيل الثاني من التلاميذ. وهذا الكتاب ليس كتاباً أزلياً كان محفوظاً في اللوح المحفوظ، ولكنه كتاب نشأ في وسط الكنيسة وبواسطتها ومن أجلها".

ألهذا السبب هناك تناقضات بين تلك الأناجيل في الكثير من النقاط الجوهرية؟

بكل تأكيد يا ولدي.. فإذا تتبعنا ميلاد يسوع في إنجيل متى وإنجيل لوقا لوجدنا العجب العجيب في قضية نسبة.. فإنجيل متى يقول إن السيدة مريم أم المسيح كانت متزوجة من يوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى أنبياء الله داود، واسحق وإبراهيم، وإن اسم والد يوسف النجار كان يعقوب فإذا كانت مريم تستهتر بأنها العذراء فكيف كانت متزوجة من يوسف؟ وما حاجتنا لمعرفة نسب يوسف النجار إلى أنبياء الله داود وإبراهيم إن لم يكن هو الوالد الحقيقي للمسيح؟ وطالما المسيح ليس ابناً ليوسف النجار الذي يمتد نسبه إلى نبي الله داود، فكيف جاء في إنجيل متى أن المسيح تبعه أعنيان يصترخان ويقولان: "ارحمنا يا ابن



الأمر الرئيسي المهمة، مثل اختلاف تاريخ ميلاده في الأنجيل، اختلاف تفاصيل واقعة الصلب، واختلاف تفاصيل قيامته من الموت ثلاثة أيام، وغيرها دون أن أمك سوى الدهشة والحيرة، مع كل حرفٍ له، لينهي كلامه قائلاً:

كل هذه التناقضات المحيرة ليني الإنسان أسهم في صنعاتها الشيطان وأعوانه من الذين أراد بعضهم الانتصار لعقيدته فزاد عليها من خياله ما يُغري الناس على اتباعها، أو حذف منها ما قد يُنفر الناس من الانضمام لها، أو أولئك الذين ينقلوا كلمات الله ليرضوا الملوك والقيصرة يبتغون عوضاً من المال والجاه، وجميعهم على اختلاف النوايا في حزبٍ واحدٍ أسهم في بؤس البشر وتشبّثت تعاليم السماء.

فقد هوّن الشيطان من قدرات المسيح وهو حي فاتهمه اليهود بالسحر.. ثم هوّل من قدراته بعد رفعه فاعتقد أتباعه بألوهيته.. وهذه فتنة من أعظم الفتن التي هزت أرجاء الأرض.

حينها تساءلت في نفسي:

لماذا لم ألاحظ ذلك حين قرأت الأنجيل الأربعة من قبل في الكاتدرائية؟ هل يقع الإنسان تحت تأثير حالة معينة حين يُحاول الانتماء لدينٍ ما تجعله لا يلاحظ أموراً قد تبدّو جليةً لغيره؟

.....

«ذيني الفضول للاطلاع على صورة من المخطوطات الغنوصية التي نشر عليها بالمصادفة في نجع حمادي عام 1945 ميلادياً، وتعود للقرن الخامس الميلادي، وتتفي واقعة صلب المسيح، لأرى وجه الشبه بين العارفين المسيحيين والمتصوفين المسلمين الذين ينشدون على اختلاف انتماءاتهم إلى العروج إلى السماء والارتقاء بالروح عن ظلام الجسد، وكان الأمر رهيباً بحق.

فقد تبحّرت أكثر وأكثر في الغنوصية وعلمت أن المسيحية السائدة اليوم على اختلاف طوائفها ترجع في أصولها إلى صيغة اتخذت ملامحها العامة في نهايات القرن الثاني الميلادي، عندما تبنّت كنيسة روما

داود؟ رغم أن المسيح هو ابن الله وليس ابن يوسف النجار؟

والآن تعالٍ نتعرف على نسب المسيح في إنجيل لوقا.. سندرج أن والد يوسف النجار كان اسمه هالي وليس يعقوب، وأن نسب يوسف النجار يمتد إلى نبي الله داود وإبراهيم ثم يكمل هذه المرة إلى نبي الله آدم أبي البشرية، وكمية التناقض بين سلسلة نسب يوسف النجار في كلا الإنجيلين رهيبية حتى لو كان كلا الإنجيلين يتحدث عن شخصين مختلفين وليس شخصاً واحداً، والسؤال هنا: ما جدوى معرفة نسب يوسف النجار ما دام ليس الأب الحقيقي للمسيح؟ ولماذا للمرة الثانية يأتي في إنجيل لوقا وصف للمسيح بأنه ابن داود رغم أن الكتاب المقدس يقول إن يوسف ليس هو الوالد الحقيقي للمسيح؟ والظريف أن الذي يقول على المسيح إنه ابن داود هذه المرة هو الملك جبرائيل نفسه حين قال لمريم: «وَيُطِيبُهُ الرَّبُّ الْإِلَهِ كَرَسِي دَاوُدَ أَبِيهِ»، فايهما والد المسيح.. الرب أم داود؟

أتعرف السر في ذلك؟

سأنتي فهزرت رأسي نائفاً، فأجاب:

لأن نبوءات اليهود كانت تقول إن المسيح المنتظر سيكون من نسل بني إسرائيل، وكان لقب ابن داود يشير إلى ملك اليهود المنتظر، لذا كان لا بد من تطبيق نسب للمسيح يمتد إلى داود ويعقوب وإبراهيم رغم أن هذا ينسف عذرية مريم من الأساس.. أما كان من الأفضل ما دام المسيح ابن مريم أن يتم تتبّع سلسلة أجداد مريم نفسها؟

وأين واقعة اتهام بني إسرائيل لمريم بالزنا في هذين الإنجيلين رغم أن التاريخ والتلمود اليهودي يقولان إن اليهود رموا مريم بتهمة الزنا؟ وحده القرآن الذي ذكر الواقعة ودافع عن طهارة وعذرية مريم وفصلها على نساء العالمين، بينما يذكر التلمود اليهودي أن يسوع - حاشا لله - هو ابن العاهرة، وأسهم إنجيلاً متى ولوقا في تعضيد ذلك دون قصد!

ثم أخذ الشيخ خضر يُعدّد لي التناقضات بين الأنجيل الأربعة في الكثير

أهم المسائل التي خفيت عليهم حول أصل الكون والإنسان والشر وبسطة الخلاص ليطمئن قلوبهم، وفي نص الأطروحة الثانية لشيت الأسرار قال لهم إنه لم يمت حقيقة على الصليب، وإن ما رأوه من موته لم يكن سوى مظهر خادع، وأنهم ما ضربوه وما أمانوه وما سقوه الخل والمرار، وإنما فعلوا ذلك باخر اتخذ شبهه.

والسؤال أن الغنوصيين يرون في يهوذا الإسخريوطي قدسًا، ضحى باسمه وبسمعته، ووافق أن يلاحقه العار بوصمة خيانة المسيح وتسليمه لليهوسيين التي اتهمته بها الأناجيل الرسمية، بينما كان في حقيقة الأمر هو الشخص الأقرب ليسوع، وهو الوحيد الذي كان يفهمه بعمق، وحين جاءت اللحظة المناسبة التي كان على المسيح فيها أن يُخادع هذا العالم، كان لا بد وأن يظهر أحدهم بمظهر الخائن حتى يطمئن إليه اليهود ويعطوه النقود الفضية مقابل تسليمهم يسوع، إذ يقول إنجيل يهوذا الموسى إن المسيح قال ليهوذا قبل واقعة الصلب بفترة: "لنبتعد عن الآخرين حتى أستطيع أن أروي لك عن أعجوبة العالم. أنت ستصل إليها، ولكنها ستقدم لك مشاكل كبيرة".

ولما بن الغنوصيون أن كل من تبع الروح وعرف مسلكتها يستطيع التواصل الإلهي دون واسطة.. "يؤمن الناس بناء على شهادة الآخرين أولاً، ثم في وقت يستمدون إيمانهم فيه من الحقيقة نفسها، وتصبح الرؤيا منبع إلهي الخاص".

سأست أيضاً أن بعض الغنوصيين يقول إن الذين يبشرون بالأناجيل الرسمية، ما زالوا تحت تأثير الفكر اليهودي لذا يرى كاتب (رؤيا بطرس) أن الأساقفة والقساوسة والشمامسة الذين يدعون تلقى سلطتهم من الله، ليسوا إلا جداول ماء جافة، ويتفخرون بامتلاكهم وحدهم أسرار الحقيقة، على الرغم من أنهم لا يفقهون الأسرار، وأسسوا كنيسة زائفة بدلاً من الأهمية المسيحية الحقيقية، لكنهم في حقيقة الأمر مجرد موظفين يسيرون، لذا فإن من حاز على العرفان فقد تخطاهم بكثير، ولم يعد يحتاجاً لسلطتهم، وهذا ما قاد إلى عدم وجود مؤسسة دينية غنوصية، لأن القيادة فيها تبقى تلقائية ومفتوحة ومتبدلة.

وفي إنجيل فيليب الغنوصي فإن ما يهم الكنيسة القومية الرسمية هو تعليم الناس في ماء العماد لزيادة الكم، وطاعة الأتباع العمياء لرجال

الأناجيل الأربعة المعروفة إضافة إلى رسائل بولس التي كانت متداولة بشكل مكتوب قبل تدوين الأناجيل الأربعة بوقت طويل، وفي نهاية القرن الرابع الميلادي تم اعتماد أسفار العهد الجديد بشكلها الحالي بأمر الكنيسة الرسمية التي انتقته من بين عشرات الأسفار المقدسة التي كانت متداولة بين المسيحيين، ووصمت بقية الأسفار بالزيف ودعتا بالمنحولة، ودعت أولئك الذين يتداولونها بالهرطقة، مما يعني أن المسيحية الرسمية لم تتشكل إلا عبر صراع طويل بين مجموعة من الفرق التي تنازعت فيما بينها بعد واقعة الصلب، وكان أول انشقاق بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم.

وفي نهاية القرن الثاني، نجحت كنيسة الأمم في صياغة الشكل المبرر من قانون الإيمان المسيحي، ونظمت الكنيسة نفسها في مؤسسة لها هيكل تنظيمي يتكون من 3 شرائح كهنوتية، هي الأساقفة، والقساوسة، والشمامسة، الذين نظروا لأنفسهم باعتبارهم حماة الإيمان الحق، والمصدر الوحيد لتفسير الكتاب المقدس.

في تلك الأثناء التي كان فيها صراعات بين كنيسة أورشليم وكنيسة الأمم، بدأ بالظهور في سوريا ومصر الحركة الغنوصية التي عارضت كلتا الكنيستين، واتخذت شكلاً كنسياً غير نمطي، ولا توجد فيه المراتب الكنسية الموجودة في الكنيسة الرسمية، وقالوا إن لديهم تعاليم ووصايا أخرى للمسيح، وعزلوا أنفسهم تماماً عن كل ما هو يهودي، بعدما رأوا في التوراة أمورا لا تليق بإله، وقالوا إن الإله الموجود في الكتب التوراتية جدير بأن يكون إلهاً للشر، ثم أنتجوا أناجيلهم الخاصة، التي قالوا باعتمادها على فهمهم الأمثل لتعاليم يسوع، بالإضافة إلى الرؤى والمكاشفات الروحية التي جعلتهم يصلون إلى الحقيقة، وحين تحداهم البعض وسخروا منهم، قالوا لهم إن بولس الرسول الذي تعمدت الكنيسة الرسمية على كتاباته قال أيضاً إنه اختطف إلى السماء الثالثة، ورأى الفردوس، وسمع كلمات لا تُلْفَظ، ولا يحل لإنسان أن يذكرها، وكما تلقى بولس تعاليم خفية من الملاك الأعلى، قال المعلمون الغنوصيون إنهم تلقوا حكمة خفية من يسوع الحي، حيث تلعب شخصية يسوع الروحاني لا يسوع الناصري دوراً مركزياً في تعاليمهم، وتبدأ بعض أناجيلهم من حيث تنتهي الأناجيل الأربعة.

وفي كتاب يوحنا السري، ظهر المسيح الروحاني لتلميذه يوحنا، وأوضح

الدين، بينما تركز الغنوصية على حرية الفرد في سلوك طريقه.

ويقول مؤلف نص بيان الحقيقة الغنوصية: "إن طاعة رجال الدين تسلّم المؤمنين إلى قيادة عمياء تستمد سلطتها من إله العهد القديم، لا من الله الحق، وترتبطهم إلى أيديولوجيا سقيمة وطقوس ساذجة، مثل طقوس المناولة ذي الطابع السحري، وطقس العماد الذي يدعي ضمان الخلاص لهم، لكن الخلاص الحقيقي أكثر مشقة من ذلك، ويقوم على معرفة النفس، ومعرفة الله في الداخل، وينتهي بالاستنارة التي تليها القيامة الروحية في هذا العالم لا بعد الموت، حين تسكن الروح إلى الساكن الأبدي.

ويقول مؤلف نص التعاليم المعتمدة الغنوصية: "إن المعرفة تكشف عن الأصل السماوي للروح، التي هي بطت مثل شرارة من الروح الأسمى، وسُخِنت في الجسد المادي، وأن أتباع الكنيسة القومية هم في غفلة عن أنفسهم لأنهم لا يبحثون عن الله؛ بل يقنعون بعدد من الإجابات المطمئنة"، ذلك أن أتباع الكنيسة القومية يعبدون إله العهد القديم على أنه الله، ويعتقدون بأن المسيح الذي قام من بين الأموات سوف ينجيهم من الخطيئة، أما الذين تلقوا العرفان فقد تعرفوا على المسيح باعتباره مرسلًا من "أبي الحقيقة".

ويأتي الخلاص عند الغنوصيين عن طريق فعالية روحانية داخلية تقود إلى معرفة النفس، ومعرفة النفس تقود إلى الطبيعة الإنسانية ومصدر الإنسان، وفي أعماق مستوياتها تقود إلى معرفة الله ذوقًا وكشفًا وإلهامًا. عند ذلك يمكن تحرير الروح الحبيسة في الجسد المادي والعالم المادي لتعود إلى العالم النوراني الذي صدرت عنه بعد أن تقوم قيامتها وهي على الأرض وتولد الميلاد الثاني.

"أترك التنقيش عن الله، والبحث في مسائل الخلق والتكوين وما إليها.. لمعرفة الله أبدا بنفسك، واهتد إلى من في داخلك يقول: إلهي، وعقلي، وأفكاري، وروحي، وجسدي. اهتد إلى مصدر الأحرار، والغبطة، والحب، والكرهية... فإذا استقصيت هذه الأمور فإنك واجد الله في ذاتك".

"حبيبتيك تنطري على طاقة جارية هائلة" و "من لم يعرف نفسه، لم يعرف شيئًا، ولكن من عرف نفسه حقق في الوقت نفسه معرفة بأعماق الكل".

473

بعظمة الروح والنفس القادرة على احتواء الكون بأكمله داخلنا رغم هذا الجسد الطيني الضيق الذي يُكِلُنَا..

في نفسك يا ابن آدم الكون بأكمله.. الله وملأته وأنبيأوه ورسله وإبليس وجنده.. أنت مسيح نفسك ومحمدها، أو شيطانها كيفما أردت.

.....

"مع كل يوم يمضي، تقترب أكثر من الحقيقة، وتتخلص من قيود الجسد وأحواله الطينية.. ألم أقل لك إن الحد الفاصل بين الإنسان والملائكة يمكن تجاوزه بسهولة."

قالها لي الشيخ خضر بابتسامة أبوية أطلت فيها من عينيه لمعة دامية لم أعرف مصدرها، لكني سألته على أي حال:

- بلى يا أبي، غير أنك لم تقل لي بعد كل شيء عن الملائكة.

- القرآن والسيرة النبوية بمثابة مادية لكل من يريد أن يغترف من العلم والمعرفة لا سيما عن عالم الملكوت.

فمنذ بدء الخليقة، وزع الله مهامه على ملائكته ليصنفهم إلى درجات ورتب وتخصصات لإدارة شؤون الكون تحت إشرافه وسطاته، وأنط بقضه منهم متابعه آدم ونسله المرتقب ما بين ملائكة لأنه يعلم أن الإنسان في جسده الطيني الضعيف لن يحتمل التواصل المباشر مع الله، ولأن ظهور الله وحديثه المباشر ينسف اختباره الأولي للبشر.. فجعل هناك ملائكة موكلين بتدوين حسنات وسيئات البشر، ليخصص لكل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه، يدون أفعاله الحسان، أو يتأمل الهالة النورانية المحيطة بالإنسان دون أن يراها البشر أو يدركوا ماهيتها، فإذا ما هم ابن آدم بفعل حسنة أو شيء محمود يضممه في نفسه تتوهج الهالة المحيطة به فتعرف الملائكة أن بداخله نوايا طيبة، فيكتب له الملك في صحيفة أعماله حسنة حتى وإن لم ينفذ الفعل الذي كان ينتوي القيام به، أما إذا نفذه فيسجل له بدلا من الحسنة (١) حسنات، مع إمكانية أن يضاعف الله الأجر لعباده الذين يُحِبُّهم ويريد إكرامهم، وجعل هناك ملكا آخر عن شمال الإنسان ليدون

ذنوبه وخطاياها فإذا ما هم الإنسان بفعل السيئة توهجت الهالة النورانية المحيطة به بما يشي بالشر المقدم عليه، فلا يكتبه الملك بسيئة إلا إذا تحولت النوايا إلى واقع نفذه الإنسان وصار أمرا مفعولا، بعد أن ينتظر مدة من الوقت قبل تدوين السيئة لعل ابن آدم يتوب أو يستغفر، فلا تكتب السيئة في صحيفة أعماله وكأنه لم يرتكبها.

هكذا تعلمت الملائكة أن تطلع على تفكير البشر من الخارج بفعل وهج نوراني يبرز تصنيف الأفكار الكامنة في النوايا ما بين خير أو شر، دون أن يبرز طبيعة الفكرة نفسها وماهيتها وأبعادها، بعد أن تعلمت الملائكة أن الرب يوقف كل جنده على باب ذات الإنسان العميقة التي تكمن فيها حقيقته الخالصة ونواياه وأحلامه، ولا يسمح لأحد بالدخول في تلك الذات بعد أن جعلها حرما نسج حوله الخصوصية الشائكة، وخلقها حرة كالطائر الغرد.

فرض الله حول ضمير الإنسان قيودا سرية تقف على أعتابها ملائكته وجميع مخلوقاته فلا يحاسبه أحد على ذلك التدفق الرهيب من الأفكار، والتساؤلات، والهواجس، والرغبات، في طوفان محموم داخله لا أول له ولا آخر، ما دام كل ذلك يسبح في الذات ولم ينفذ إلى عالم الواقع، والماديات المتجسدة.

فكم من مؤمنين ستنثي عليهم الملائكة وتصلي لهم، دون أن يكشفوا تلك اللحظات التي يتطرقون فيها لأسئلة محرمة من عبادة: كيف نشأ الله؟ ولماذا يتحكم فينا بهذا الشكل؟ وما جدوى الخلق؟ وما حقيقة الأنبياء والرسالات ويوم الدينونة؟ وبأي ذنب يدفع الإنسان ثمن خطيئة أبيه آدم حين أكل من الشجرة ليتوارث نسله المصير اليائس؟ ليحتفظ الرب وحده بالقدرة على المروق داخل الأنفس والذوات، والإطلاع على الأسرار والخبائيا والتساؤلات، فيعرف ما تنوء عن حمله القلوب والعقول، وتخشى في الوقت نفسه أن تجهز به، باعتباره الوحيد القادر على تفهم نقائص مخلوقاته والتجاوز عنها.

تعت عينا وسالت الدموع ساخنة على وجنتي وقد جاء كلامه على



جرح في أعماق النفس وكأنه يحكي عني في فترة من الفترات،  
فمد يده بحنان أبوي يسمح دموعي وتابع:

ترشدكم إلى ما ينبغي عليهم فعله، وتكون هذه الملائكة وسيطاً  
بين الله تعالى وخلقه، إذ إن جميع المخلوقات سواء أحياء أو  
جمادات لا تطيق تحلي الله تعالى لهم، حيث حجابها النور، ولو  
كُشف الحجاب عنه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره  
من خلقه، فجعل ملائكة، للجبال، والرعْد، والسحب، والرياح.

وملائكة معقبات، يتعاقبون في الأرض ليلاً ونهاراً، ويكُون  
عندهم 10 ملائكة حول كل إنسان، بخلاف ملك قرين يكون  
على يمينه لا يأمره إلا بالخير، ويقابله جنى قرين على الشمال  
يزين له سوء عمله، وهكذا يُخصص لكل ابن آدم 13 ملكاً،  
اثني لحسناته وسيناته، وملك قرين، و10 معقبات، وملائكة  
أخرى تتواجد مع الإنسان عند الحاجة.

وملائكة لزيارة المرضى ومراقبة صبرهم على الابتلاء، وملائكة  
تستغفر للمؤمنين وتدعو لهم بالرحمة، وملائكة تلعن الكفار  
والفاسقين.

وفي السماء، جعل الله أنواعاً أخرى من الملائكة، ما بين حملة  
العرش، والطائفين حوله يُسبحون الملك القدوس، ويعبدونه حتى  
يذهبوا خلف العرش ولا يعودون، دون أن يعلم أحد إلى أين ذهبوا،  
بخلاف الملائكة الصافات الذين يقفون في السماء صفوفاً في  
مواقف العبودية يسبحون الله ويحمدونه ويصلون على المؤمنين،  
لكل فريق منهم رتبة معينة، ودرجة محددة في الشرف والفضيلة،  
حتى إنه ما من موضع 4 أصابع في السماء إلا وعليها ملكٌ  
ساجد لرب العالمين.

وفوق كل هذه الدرجات والرتب، كانت هناك أكابر الملائكة  
العظام، (جبرائيل) كلمة الله وروحه القدس الموكل بالوحي،  
وله ستمائة جناح، طول كل جناح من المشرق إلى المغرب،  
(إسرافيل) صاحب البوق العظيم، الذي ينفخ فيه أشهر ثلاث  
نفخات في الكون، نفخة القيام، ونفخة صقع من في السماوات  
ومن في الأرض، ونفخة البعث، وله ستمائة جناح، كل جناح  
قدر جميع أجنحة (جبرائيل)، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة  
السفلى بخمسائة عام، والسماوات السبع إلى ركبتيه، وعنقه

بخلاف ما سبق، هناك ملائكة الأرحام، التي تنزل في رحم كل  
أم تخصب بويضتها بحيوان منوي وأصبحت داخلها نطفة في  
نواتها كل عوامل الوراثة لتكون خلية حية يسر الحياة الذي ابتدأ  
بخلق النفس الواحدة في آدم، وانتقل بعدها إلى كل فرد من ذرية  
لنتوارثه البشرية حتى قيام الساعة، وتلازم هذه الملائكة الجنس  
ملازمة تامة، ويشاهدون مراحل تصوره في الأرحام لكنهم لا  
يعلمون سر ما يشاهدون، ليسألوا الله بعد فترة من خلق النطفة  
عن هذا المخلوق القادم: أذكر أم أنثى؟ أسوي أم غير سوي؟ ما  
رزقه؟ ما خلقه؟ أشقى أم سعيد؟ لتدون الملائكة إجابات الخالق  
في صحيفة خاصة بكل مولود جديد، في سجل القيد المدني  
بوحدة إدارة الكون!

كما خلق الله ملائكة سيّارة ليسبحوا في الأرض حتى إذا وجدوا  
مجلس ذكر يتحدث المجتمعون فيه عن الله وقديساته جلسوا  
يستمعون، حتى يتوافد الملائكة على المكان ويجلسون فوق  
بعضهم البعض درجات فوق درجات حتى يصلوا إلى السماء  
من فرط عددهم، فيسأل الله أعلامهم من أين جئت؟ - وهو أعلم  
- فيحكي الملاك عن أهل الذكر وكلامهم الطيب، فيغفر الله  
ذنوب الجمع ويبذلها حسنات.

وملائكة من الحفظة، يحمون البشر من أي طارئ أو مكروه  
غير مكتوب في أقدارهم، فيبتذلون لمنعه والعمل على نجا  
الإنسان، كما يتصدون للشياطين والجان ويحمون البشر من  
فكهم وبطشهم ولولاهم لفكت المخلوقات الفارية ببني آدم.

وملائكة زاجرات، تزجر السحاب من موضع إلى موضع في  
السماء، ويزجرون قلوب بني آدم عن المعاصي، ويزجرون  
الشياطين عن التعرض للمؤمنين بالإيذاء.

وملائكة مقسمات، تقسم الأرزاق على العباد بإذن ربها..  
وأخرى مُدبرات، تُدبر أمر هذا الكون بأمر الخالق وحكمته التي

أيهما أفضل يا شيخ.. البشر أم الملائكة؟

قال الله جلّ وعلا في كتابه العزيز : {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}.. فالإنسان لم يُخلق من أجل العالم كما يظن البعض، وإنما تم خلق الكون نفسه من أجل الإنسان الذي مهد الله لخلقه في لوحه المحفوظ قبل بدء الخليقة نفسها، وجعله رمانة الميزان لصنع التوازن في الوجود كله بين باقي المخلوقات والخلائق، فإذا لم ينتج مثل هذا الإنسان لزم العيب في الخلق، وسارت الأمور على وتيرة واحدة بلا مخلوق عاقل يجمع قطع البازل ليعيد ترتيب لوحة الإله بشكل صحيح.. نعم خلق الله الإنسان بعيوب صنع متعددة وجعله ظولماً جهولاً، لكنه غرس داخله كل مقومات العلم والعدل، حتى يبحث أول ما يبحث في نفسه، ويغير ضبط المصنع ليقدّم نسخاً أعلى وأفضل مهياً لإعمار الوجود، بعد وصول قوتي الفكر العقلي والإيمان القلبي إلى أفعال، وتحول النقص إلى كمال، فلم يقل الله على أي من مخلوقاته: {إني جاعل في الأرض خليفة}.

أنت لغز ربك ورمزه.. أنت الهيكل الطيني الذي يُخفي داخله الأنوار الإلهية مثملاً تُفني الصدفة للؤلؤ.. فالخالق يقول في كتابه العزيز : {الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم}..

والمعنى العميق من وراء الآية أن الدنيا مثل تلك الفجوة المحفورة في حائط بيت قديم حيث كانوا يضعون فيها المصابيح المنيرة، لعل تلك الفجوة تجمع ضوء المصباح وتركزه ليزداد سطوعه في البيت، والمقصود بالمصباح قلبك الذي كلما عمر بالإيمان كلما سطع وأثار الطريق أمام عينيك داخل الدنيا، هذا المصباح داخل زجاجة والمقصود بالزجاجة هو جسدك الطيني، الذي إذا تشبّع بالإيمان صار مثل الكوكب الدري الساطع في الكون،

ملوي تحت عرش الله المسنود علي كاهله، واللوح المحفوظ بين عينيه، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى، والنقم الصور وشخص بصره نحو العرش وانصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالتفخ في الصور، و(ميكائيل) صاحب إنزال الأرزاق من الله تعالى إلى عباده وتوزيعها عليهم مع معاونيه وهو الذي يحمل اسم (ميكائيل) في المسيحية، و(عزرائيل) ملك الموت ورسالة من الملائكة الذين يعاونونه في قبض الأرواح، ما بين (نازعات غرقاً) ينزعون نفوس الكفار من أجسادهم، و(ناشطات نشطاً) يأخذون أرواح المؤمنين النشطة المقلبة على مغادرة الجسد بعد أن رأوا مقدمهم في الجنة عند ملك مقدر، و(رضوان) رئيس ملائكة الجنة، و(مالك) رئيس ملائكة النار.

فالعلوم السياسية الموجودة في الدنيا وتُقسّم الناس لمملوك ووزراء ورجية، مأخوذة من السماء الموجود فيها التقسيم نفسه، مع الفارق أن في الأعلى لا يوجد حاكم يظلم محكوماً.. ولا محكوم يدعو بالانتقام على الحاكم.

وهناك ما ورد عن الملاك رتائيل الذي يسلم الحزن من صدور المؤمنين، لكنه غير مؤكد ولا وجود له في السيرة النبوية، ويدعي إخواننا الشيعة وجود ملك من الملائكة اسمه فطرس، تروي قصصهم عنه أنه تأخر عن إجابة الله فغضب عليه وكس جناحه ولم يجبر كسر جناحه إلا بعد أن تمرغ بفراش الإمام الحسين يوم مولده، ومنذ ذلك الحين وهو موكل بحمل السلام للإمام الحسين، وهناك ملك آخر في كتبهم اسمه صرصاينا مكتوب على كتفه: تزويج النور من النور، أي علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء بنت النبي محمد، وملك آخر يُقال له خرقائيل له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، لكن أهل السنة لا يؤمنون بما جاء في كتب الشيعة، وأهل الشيعة لا يؤمنون بأغلب كتب أهل السنة، شار أي دين تحزب أتباعه لأكثر من فريق وجماعة، لكن كما قلنا لك سلفاً يا ولدي.. من يقرأ ويبحث ويعيد كل الفرق إلى بدا نقطة الخلاف ويربط الروايات المختلفة أو المتناقضة بالتاريخ دون أي تحيز لفرق أو مذهب، سيصل إلى حقيقة الحقائق.

ومصباح النفس الإلهي لا يأتي من اتجاه واحد، لذا قال الرب  
"يوجد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية" أي أن أنوار  
لا تأتي من الشرق فقط فتخفق وتتوارى بالغروب، ولا تأتي من  
الغرب فقط فيزليها الشروق، بل هي أنوار مطلقة لا تنقيد بالجهة  
والمكان والمقدار، يكاد زيتنها يضيء ولو لم تمشه نار، نور  
على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس  
والله بكل شيء عليم.

فنحن نرى بالنور الأشياء التي يكشف عنها حين يبدد ظلمتها،  
وكلما كان ذلك الكشف داخل ذلك إضاءة أقوى كلما أضاء  
لك أكثر وجعلك ترى وتستكشف ما لا يراه أصحاب الكشافات  
الضعيفة.

وفي الوقت نفسه أنت ظل الله الذي يلقي سراج نوره في عالم  
الامتداد والإمكان فينعكس ظله فيك، وهو ما أشار إليه في قوله  
"ألم تر إلي ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا  
الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً".

فأنت ظل الإله وهو شمسك، وحين يأتي الأجل سيقبضك قبضاً  
يسيراً، أي قصير الوقت لأن الموت مرحلة يتلوها برزخ ثم بعث،

ومثلما يجتمع فيك النور والظل، يجتمع في خالقك الأضداد، ما  
بين مقدم ومؤخر، وقابض وباسط.

فالإنسان مجمع البحرين، يلتقيان ولا يمتزجان بينهما برزخ لا  
يغيغان.. بحر الروح، وبحر المادة.. بحر هوان العبودية، وبحر  
نور الألوهية..

إننا نصبح بين عوالم متعددة، عالم الصورة وما يتضح فيه س  
مانيات لها قشور ظاهرة، وستور بارزة، ويطلق عليه عالم الملك،  
وخلف الصور أمور باطنة ومعان خافية، ومخلوقات لطيفة  
تنتمي لعالم "الملوكوت"، فالروح مجانسة للملكوت والملا الأعلى  
في صفاتها ونورانياتها، والجسد مجانس لعالم الملك والصورة  
بكثافته وظلامه وغلظته.

والإنسان ما هو إلا صورة مصغرة للعوالم والأكوان.. عالم  
الملك كعالم جسمانيته، وعالم الملكوت كعالم روحانيته، كثيف  
العالم السفلي ككثيف جسمانيته، ولطيف العالم العلوي كلطيف  
روحانيته، وكل ما في الكون له ما يناظره ويقابله فيك.. فمثلما  
جُعلت جبال الأرض أوتاداً لتثبيتها وتقويتها، كذلك جُعلت العظام  
جبال جسدك وأوتاده.

وما في الكوكب من بحار مسجورة جارية وغير جارية، عذبة  
وغير عذبة لها ما يناظرها في جسدك من دم يجري في تيار  
العروق، ويسكن في جداول الأعضاء.. فيكون الماء في جسدك  
أحياناً عذبةً مثل ماء الريق، فيطيب بعجينه المأكَل والمشرب،  
أو مالحةً، مثل ماء العين الذي ينزل في صورة دموع، أو مرّاً  
مثل ماء الأذن المتجمد فيها لحماياتها من حيوان وديبيب يصل  
إليها فيقتله.

ثم في أرض جسد الإنسان ما بنيت كالأرض الخصيبة وهو  
رحم المرأة الولودة، وما لا بنيت كالأرض البور وهو رحم المرأة  
العقيمة، ومثلما في الأرض أنهار عظيمة تتفرع منها ترع ومواق  
لنفع الناس بها، كذلك في أرض جسدك عروق غلاظ كالوتين  
الذي يبيت الدم، وتستمد العروق منه إلى سائر الجسد.

حتى عالم السماء العلوي، الذي جعل الله فيه شمساً كالسراج  
يستضيء به أهل الأرض، له ما يناظره في جسد الإنسان فجُعلت  
الروح في الجسد يستضيء بها الجسد، ولو غابت بالموت لأظلم  
الجسد كظلمة الأرض إذا غابت عنها الشمس.

ثم جُعل العقل بمنزلة القمر يستدير في فلك السماء، تارة يزيد  
وتارة ينقص، فأبدأه صغير وهو هلال كابتداء عقل الصغير  
في صغره، ثم يزيد كزيادة القمر ليلة تمامه، ثم يبدو بالنقص،  
فهو بمنزلة بلوغ الأجل إلى تمام الأربعين، ثم يعود في النقص  
في تركيبه وقوته.

وجُعل في عالم السماء عرش وكرسي، فالعرش أوجده الله وجعله  
وجهة قلوب عبادده، ومحل رفع الأيدي إليه، لا محلاً لذاته،

وأنه غير مكيف، ولا متمثل، ولا مرئي، ولا متحيز، ولا محسوب، ولا ملموس؛ بل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

ولما كان رسوله إلى خلقه اثنين: ظاهراً وباطناً، فرسوله الظاهر محمد رسول الله، ورسوله الباطن جبريل الذي كان يأتي محمداً بالوحي بين قومه ولا يحسونه ولا يعرفونه، كذلك كان للروح المدبرة لجسدك رسولان باطن وظاهر، فالرسول الباطن هو الإرادة، بمنزلة جبريل الذي يوحى إلى اللسان، واللسان هو الرسول الظاهر الذي يُعبر عن الإرادة، وهو بمنزلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لما جعل فيك دلالة على صحة نبوته، وصدق رسالته، جعل فيك أيضاً دلالة على ما جاء به من تحقيق شريعته، وإتباع سنته، فكان أصل الأيدي خمسة أصابع وهي أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام.

لذا جاء في كتاب المخاطبات للمتصوف العظيم النُّفَرى على لسان رب العزة:

سرك يرى بدون عين، ويُسمع بدون أذن..

سرك يعيش في الأبد، وجسدك يعيش في المواقيت..

سرك تُحيط به الألياب، ولا تتعلق به الأسباب.. أنت مني.. أنت تليني.. وكل شيء في الوجود يأتي بعذك.. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت ولزمت مقامك.. فأنت أقوى من الأرض والسماء.. أقوى من الجنة والنار.. أقوى من الحروف والأسماء.. أقوى من كل ما بدا.. في دنيا وأخرة.

أسعت عنياني، ووجدتني أردد بلا وعي مني: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فرقت عينا الخضر ونظر للسماء وقال باكية:

الهم اشهد أنني أدبت رسالتك، وحافظت على أمانتك

ولا مجانساً لصفاته، لأن العرش خلق من خلقه، لا متساو به، ولا ملامس له، ولا يحمل الرحمن عليه، وأما الكرسي فهو وعاء أسرار، وكثانة أنواره، ومستودع ما في دائرة توسع كرسية السموات والأرض}.

فجعل الصدر بمنزلة الكرسي، لأن فيه تحصيل العلوم، وجعل القلب بمنزلة العرش، وعرش القلوب أفضل من عرش السماء، لأن عرش السماء لا يسع الخالق، ولا يحمله، ولا يدركه، وعرش القلب يستوعبه حين ينظر إليه، ويتجلى عليه، وينزل من سماء كرمه إليه، كما جاء في حديثه القدسي (ما وسعني سمواتي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن).

ولما جعل في عالم الآخرة جنة ونارا للنعيم والعذاب، جعل مكان سويدها القلب جنة عبده المؤمن، لأنه محل المشاهدة والتجلي والمناجاة والمنازلات ومنبع الأنوار، وجعل النفس بمنزلة النار، لأنها منبع الشر، ومحل الوسواس، وزيف الشيطان، ومحل الظلمة.

ثم جعل اللوح والقلم نسخة كتاب الكون والتكوين، وما كان وما يكون إلى يوم الدين، وجعل الملائكة تستنسخ ما يؤمرون بنسخه، من محو وإثبات، وموت وحياة، ونقص وزيادة، وكذلك اللسان بمنزلة القلم، والصدر بمنزلة اللوح، فما نطق به اللسان، رقمته الأذان في ألواح الصدور، وما أرخته إرادة القلب إلى الصدر عبر عنه اللسان كالترجمان.

ثم جعل الحواس مقابلاً للأنبياء والرسول، لتعبر عن رسالة الإنسان وتوصلها لمن حوله، ثم توصل له ردود أفعال البشر.

ثم جعل في الإنسان ما هو دلالة على الروبية، وتصديق الرسالة المحمدية، فذلك الهيكل الإنساني يفتقر دائماً إلى مدبر وهو الروح غير المرئية، التي لا تتحيز في شيء من الجسد، ولا يتحرك شيء من الجسد إلا بشعورها به، وإرادتها له، ولا يحس ولا يمس إلا بها، وكان ذلك كله دلالة على أن العوالم لا بد لها من مدبر ومحرك، عالم بما يحدث في ملكه، قادر على حدوثه.



ثم وضع يده على كتفي، وتابع:

- ليس الجهل وحده هو الفتنة والخطر على قلوب البشر فاتحته.  
يا ولدي.

- مم؟

- من إيمانك.

- إيماني؟

- نعم.. فالإغواء بالإيمان كثيرًا ما يكون أخطر من الإغواء بالجهل، حين يفقد صاحبه إلى الكبر والتعالي على من هم أقل منه إيمانًا أو فهمًا للدين.. كاولئك الذين يعتقدون أن رفض القرآن لواقعة صلب المسيح والوهيته تعني أن نسب المسيحيين ليلاً ونهارًا ونقل من شأنهم ونطق عليهم النكات والمساخر، ونسوا أن الله قال في كتابه: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، و{فذكر إنما أنت مذكر.. لست عليهم بمسيطر، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر}، و{إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

الله وحده هو الذي أطلق أحكامه، ووضع قوانينه، وترك للجميع حرية الاختيار، حتى لا تكون هناك حجة لأحد عند الحساب، ووحده من سيفصل بين مخلوقاته دون أن ينزاعه أحد في ذلك، والإسلام الذي أمرنا بالمفاظ على النبات والحيوان، أجدر بنا أن نفهم منه كيف نحترم إخواننا في البشرية ولا تؤذي منهم أحدًا أو نحقر شأنه باسم الدين، لأن الله ما كان ليخلقهم وينفخ فيهم من روحه لو لم يكن لوجودهم أهمية ودليل في تلك الحياة.. وأغلب الذين تبحروا في الأديان الأخرى ليصلوا إلى الحقيقة واقتنعوا في نهاية المطاف بصحة دينهم الذي يتبعون، تبحروا في باقي الأديان بعين الشك والبحث عن النفاذ والمبهات ليثبتوا لأنفسهم أنهم على صواب ثم يتخذونه منطلقًا لإطلاق موجات العنف والكرامية، لا بحثًا عن الحقيقة المجردة، دون أن يدروا أن الصواب حين تصنعه الأهواء والانتماءات من أجل الفوز

بمكانة مقدسة أو اغتنام المغام بقر الآخرين وظلمهم، يصيح من أكبر الأكاذيب، وأن أي دين نضيف إليه البارود من السهل أن ينشر الدم ويصنع الإرهاب، وهكذا يتم اليوم هدم الإسلام من داخله، وعلى يد الكثير من أتباعه الذين أساءوا إليه أكثر من أي عدو أو كاره، ومن يردد قول الله: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} أمام غير المسلمين وكأنه يجدهم بالكلام، عليه أن يسأل نفسه ما شكل الإسلام الذي وصل إليهم حتى يقبلوا عليه؟ فالله لن يحاسب غير المسلم على عدم اختيار الإسلام لو كان الإسلام قد وصل إليه منقوصًا مشوهًا، وحينها سيتحمل الوزر المسلم الذي تسبب في تشويه سمعة دينه، ومن هنا قالها الحق جل وعلا يومًا: {لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} إذ لن يستثنى أحدًا من العقاب لمجرد انتمائه لدين أو جماعة، لأنه لا أفضلية بين المخلوقات العاقلة إلا بالإيمان والمحبة الغامرة في القلوب.

.....

لن لماذا تخلّفت الدول الإسلامية اليوم يا شيخ إذا كان الإسلام بهذه عظيمة؟

السؤال يقض مضجعي، ويشتت سكينتي التي وجدتها في هذا الدين العظيم، فأجابني المعلم:

ما هو بعظمة الإسلام وقلل من شأنه اليوم، هو نفس ما قلل من شأن اليهودية والمسيحية في حقب زمنية طويلة على مرّ العصور، وألصق بهما ما ليس فيهما من تعاليم وأفعال.. وحدهم أتباع الأديان يا ولدي الذين يهبطون بأديانهم إلى الحضيض وليس أبناء الأديان الأخرى.. هكذا يقول لنا التاريخ.

ففي قديم الزمان، كان البحارة متى أهدت بسفينتهم المتاعب، وروا اضطراب البحر وصب الأمواج والريح، هتقوا صائحين: "لا بد أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة"، ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محتهم، وبأن التخلص

ظهر فيه الدين أول ما ظهر، وظروف العصر، والمستوى الذهني والروحي والأخلاقي عند أهله، كما يوسع أن يثبت أن هذا الدخيل وهذه التراكبات والتعاليم المحلية العارضة، هي من صنع التطور التاريخي، وليست من صميم الدين ولا صلة لها بجوهره، ومثلما تدفع الغازات الكيميائية ثمن دخول العنصر الغريب لتأخذ شكلاً مادياً ملموساً في صورة الأقراص، ما كان للرسالة الدينية بحقائقها العالمية الخالدة أن تصل بشكلها المطلق دون أن تدفع ثمن وجود الدخيل المؤقت والعارض المحلي غير الجوهري.. ولو أن الرسالة الخالدة لم تراعى جهاز الاستقبال لدى من تسعى إلى مخاطبته والوصول إليه لصاعت في الأثير واستحال التقاطها.. فكانت الضرورة بتغليف الرسالة بما ليس من صلبها، وترجمة المحتوى العلمي الخالد إلى لهجة محلية تراعى غلاظة الأذهان، وضعف المستوى الثقافي والحضاري، والتثبت العنيد بالمفاهيم الموروثة والتقاليد.

والنقط الشيخ نفساً عميقاً، ثم تابع:

وبعد تكون الرسالة بلغة ولون المجتمع والعصر الذي نزلت فيه، كان عليها أن تتلون فيما بعد حسب المجتمعات الجديدة الموجودة في نفس العصر، ثم يستمر تلونها ليواكب توالي الأزمان والمجتمعات الأخرى حتى تلبي الاحتياجات الروحية لأهل هذه الاجتماعات والعصور بنفس الفاعلية التي لبث بها احتياجات أهل المجتمع والعصر اللذين جاءت الرسالة فيهما، لكن بكل أسف تملك يد الماضي من الدين وأوقفت نموه بنصوص بشرية قدسها البعض كقدس كلام الإله نفسه، حتى أصبحت الرسالة قيذاً ثقيلاً يشل قدرة المسلمين على التطور والتقدم في مضمار الحضارة والعلوم، وعائقاً خطيراً دون انتشار الدين في البقاع التي لم يصل إليها.

بخلاف ذلك الجدل الذي شُبَّ ميكراً بين المسلمين الأوائل وأبناء الأمم الجديدة التي دخلها الإسلام، ووجد المسلمون أنفسهم أمام أحوال جديدة عليهم تماماً، لم يألفوها من قبل أو يتحسّنوا بإجاباتٍ عليها، واشتعل الصراع الفكري والعقدي حين بدأ اليهود يناظرّون المسلمين ويتفاخرون بمعجزات موسى بن عمران

منها بإلقائها في البحر فكيف بأن يرفع عنهم ما حلّ بهم من بلاء ولعنة، واليوم وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح وتهددت سفينته بالغرق، بات من الجدير بالبحارة المسلمين بالتقريب عن الجثة التي تهدد سلامة السفينة بكل من فيها، حينها سيجدون الكثير من الجثث، وأخطرها هي تلك التي بلغت حدّاً من الضخامة والتعفن، وصارت المسئولة الأولى عما أصاب السفينة من نقمة وابتلاء، ألا وهي استعداد أبناء الأمة لتمكين يد الماضي الميتة من القبض على أعناقهم، وتتحكم في هذا الماضي ومعتقداته ومفاهيمه في حاضرهم ومستقبله.

- ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام اتبع ولا تتبدع؟

- هذا صحيح.. لكنه أوصى باتباع الدين، وليس تقديس أقوال البشر من المفكرين والفقهاء الذين تناسبت أقوالهم وإراءاتهم مع أزمانهم ومجتمعاتهم.. فالكثير مما نخاله من الدين اليوم، سيكتشف من يقرأ ويعود إلى أصوله وتاريخه أنه من نتائج اعتبارات تاريخية واجتماعية معينة، ومن إضافات بشر من حقبة متعاقبة، فأسدلت هذه الإضافات والاجتهادات حجاباً كثيفاً على جوهر الدين وحقائقه الأساسية الخالدة.. قل لي يا بني، هل يمكنك أن تحتفظ بالماء في ديك دون أن يكون هناك إناء يحتويه، أو الاحتفاظ بعنصر كيميائي غازي إلا بخلطه بعنصر غريب يحوله لأقراص صلبة؟

هزرت رأسي نفياً، فاستطرد:

- كذلك هو الدين.. حقيقة مطلقة وردت في إطار تاريخي، وظهرت في بيئة اجتماعية انعكست معالمها عليه، ثم مرّت عليه حقبة تاريخية متتالية، وانتشر في مجتمعات متباينة، فتراكم عليه المزيد والمزيد مما هو محلي محض وعارض مؤقت، ناهيك عما خضع له من تأثيرات أجنبية غريبة عليه، سواء تأثيرات حضارية أو من باقي أديان المجتمعات التي دخل عليها واختلط بأهلها، ويوسع العالم أو المؤرخ أن يرد كل هذه التراكبات إلى مصادرها وزمنها، ليفرق بين الأصلي والدخيل، بل ويبين ما كان في الأصلي نفسه من تعاليم راعت ظروف المجتمع الذي

أكثر من ميلهم للعلماء والفقهاء، وظلت الشواهد والأحاديث المدسوسة المنسوبة للرسول كذبًا تزيد من القيود التي علقت بأهذاب الدين ومنعت الروح من التحرر من رقة الجسد.

أهذا السبب لا يوجد للإسلام حضارة قوية مثل حضارة الغرب؟

ومن الذي قال لك إن الإسلام رغم كل ذلك لم يصنع حضارة لا تقل عظمة وروعة عن حضارة الغرب المعاصر؟.. فيعد توطيد دولة الإسلام، وتوحيد قبائل شبه الجزيرة العربية بوثيقة النبي المدنية تحت راية واحدة، تحول العرب من مجرد قبائل بدائية متناحرة إلى مارء عظيم خرج من قمقه وجاب الصحارى والقيافي حتى كسر أنوف القياصرة والأباطرة الذين استعبدوا شعوبهم، ونشر تعاليم ومبادئ الإسلام في شتى ربوع الأرض رغم قلة العدد والعتاد في الكثير من المواقف أمام الجيوش التي واجهته، ومع منتصف القرن الثامن الميلادي وحتى القرن الخامس عشر كان هناك عصر ذهبي للإسلام، من حدود الصين شرقًا وحتى حدود فرنسا وإسبانيا غربًا.

وفي عصر الدولة العثمانية توسعت الأراضي إلى أوروبا واليونان، وخلال هذه الفترات، قام مهندسو وأطباء وعلماء وتجار العالم الإسلامي بالمساهمة بشكل كبير في حقول الهندسة والطب والفن والزراعة والاقتصاد والصناعة والأدب والملاحة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا والفلك، يعد أن استوعبوا علوم الحضارات السابقة، وأضافوا إليها بصمتهم واجتهادهم، وكاف الخلفاء العلماء والمترجمين والتوابغ بغض النظر عن أديانهم وجنسياتهم، إلى حد منح وزن الكتب التي يتم تأليفها ذهبا لأصحابها، وانتشار المكتبات في كل مكان، صانعين حضارة تمزج بين العقل والروح، في الوقت الذي كان الغرب يتخبط فيه بين جدران عصور الظلام التي بدأت في نهاية القرن الرابع الميلادي بعد قرار الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول

الهائلة، وتفاخر المسيحيون بمعجزات المسيح وإحيائه للموتى فكان لا بد من الاجتهاد والتفكير بشكل مختلف، بينما لجأ بعض الأساقفة إلى إشاعة أن نبي الإسلام ما هو إلا كاردينال مسروق مارق، سرق النصوص والأسفار المقدسة وصاغها بلغته الحذف والتعديل ليصنع دينًا جديدًا يضعه فوق سلم المجد قديم المساواة مع المسيح.. وفي ظل كل هذا لجأ بعض المسلم للعقل المستنير ونقهم الفارق بين جوهر الإسلام والقشور التي لصقت به بفعل المجتمع البدوي الذي نشأ وفيه وحان والتخلص منها ليواكب البيئة الجديدة، والبعض الآخر لجأ لتزوير النصوص وافتعال الأحاديث انتصارًا لنبي الإسلام أمام الأنبياء وكان المفاضلة بين الأنبياء لا تكون إلا بمعجزات مادية ففسب، وكان الكثير من الأنبياء الأقدمين الذين لم يتركوا بمعجزات ما كانوا يستحقون التصديق والإيمان بنبوتهم.

ولو كان الملقون الذين دسوا عن الرسول أعاجيب ومعجزات ليرفعوا من شأنه، قرأوا في أديان الآخرين واجتهدوا فيها لوجوه أنبياء عظامًا كانت رسالتهم وأخلاقهم وتوقيت ظهورهم المعجزة في حد ذاتها، ولأدركوا أن معجزة إحياء الموتى التي يؤكدون أنها أكبر دليل على الوهية المسيح سبق القيام بها على يد أنبياء العهد القديم من بني إسرائيل، مثل حزقيال الذي أم جيشًا كاملًا من بعد موته كما ورد في سفر حزقيال في الإصحاح السابع والثلاثين: "فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدا جدا"، والنبي الإشع الذي أحيت عظامه وهو ميت رجلًا آخر بمجرد أن مسه، كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثاني: "وفيما كانوا يدفنون رجلًا إذا به قد رآوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر الإشع فلما نزل الرجل ومس عظام الإشع عاش وقام على رجليه".

ثم تحول النبي محمد نفسه إلى سلعة تجازبها الأمور والعاسيون في صراعاتهم على الحكم والخلافة، كل فريق ينسب إليه أحاديث تمجد في قومه وتذم في المنافسين، قيل أن تظهر جماعات من القصاصيين الذين جابوا المساجد وأخذوا يحكون قصصًا وسيرًا عجيبة متعة ومسلية في قالب ديني ما أنزل الله به من سلطان حتى أصبح العامة والبسطاء يميلون إليهم

بحرق وتجريم جميع العلوم والفلسفات، ومنع القراءة والكتابة، ونسخ العقائد المسيحية المختلفة الموجودة آنذاك لتعرضها لم عقيدته المسيحية الشخصية، وتم عقد محاكم تفتيش لحرق بحورته تلك العلوم.

والمدهش أن اختلاف وتنافس هاتين الحضارتين إضافة إلى التنافس المستمر بين الحضارات المتعاقبة منذ فجر التاريخ إلي يومنا هذا، كان سبباً في حفظ المعرفة والعلوم دوماً، وكان الدرس التاريخي الذي أراد أن يخبرنا به الخالق أنه: (ولولا ذلك الله الناس بعضهم ببعض (ولولا تنافسهم) لفسدت الأرض).

وكيف حدث السقوط للحضارة الإسلامية؟

منذ أن بدأت الروح والدين يغيبان شيئاً فشيئاً حتى صار المسلمون والعرب يتقاتلون فيما بينهم من أجل ملك زائل، إلى أن مروا بفتراتٍ مشابهة لعصر الظلامي حين قاموا بحرق كتب ومؤلفات الفلاسفة والمفكرين، وقتل وصلب البعض منهم، وانتشرت الخمر ومضاجعة الغلمان داخل قصور الخلافة نفسها حتى صار العامة يتبعون نهج ملوكهم وصارت النساء رخيصة لا تجد من يشتريهن في سوق النخاسة، وحتى يسهل بيعهن كانت الجوارى يقمن بقص شعرهن والتشبه بالغلمان في الهيئة واللبس، وتم استخدام الدين كسلاح في تكفير المخالفين بدلاً من تطوير فقهه ليلائم روح العصر ويرتقي بنفوس ووجدان المسلمين، فأصبح الدين عيباً في النفوس، غير قادر على الارتقاء باتباعه بعد أن عطلوا أحكامه وتجاهلوا تعاليمه، وفي الوقت نفسه ابتعدوا أيضاً عن الاجتهادات العلمية والبحث والاستكشاف وتشجيع النوايا والمجاهدين في شتى المجالات. كان هذا بالتزامن مع تحرر الغرب من سلطة الكنيسة، واستعادته من جديد لكل الكتب والعلوم المفقودة التي سبق حرقها، ليبدأ عصر النهضة الذي بنى حضارةً على العلم والمادة فقط، دون

أدنى اهتمام بالروح والدين بعد تجربته الأليمة مع القساوسة والباباوات.

وحين عزلت حضارة الغرب الدين عن الدولة، جعلت هذا العزل مبالغاً فيه، فجاءت تلك الحضارة قوية متماسكة في بنيانها الخارجي الشاهق، لكنها هشة ضعيفة داخل النفوس التي خلت من الإيمان والروحانيات، فزادت نسبة الإلحاد والانتحار والإيمان والأمراض النفسية في نفوس البسطاء والعامة هناك وتباعدت السعادة عن أرواحهم رغم أن أيديهم امتلكت كل مقوماتها، بينما ما زال القادة والماساة هناك يتحالفون مع الشيطان.

الشاب حاجييه بدهشة:

الشيطان؟

نعم.. فمع انهيار الدول الإسلامية ونهضة أوربا والغرب، تم الانقضاض على الأراضي العربية وتقسيم مقدراتها وخيراتنا على الدول الأوروبية، واستعباد الشعوب المسلمة ونشر الجهل والدجل مع اختيار السفهاء الخونة وتبنيهم على عروش الحكم، وكلما كادت دولة منهم تنهض من كبوتها، كانوا ينفقون المليارات ليبقي الوضع على ما هو عليه من فوضى ودمار وتشردم، ثم يمدون أيديهم للنوايا والمفكرين والعلماء وياخذونهم إلى بلادهم، ليغنموا بعقولهم الذهبية وأفكارهم الخلاقة، فتزداد دولهم ومجتمعاتهم تمدناً وتحضراً وعلماً وفكراً، بينما تتم تصفية البلدان الفقيرة المتدهورة من عقول وأفكار أبنائها الذين لديهم ما يستطيع أن ينشلها من مستنقعات الجهل والفقر والتخلف والمرض، فيجني الآخرون ثمارهم ويغنمون بها وحدهم، وبعد تحويل علومهم إلى منتجاتٍ وسلع، يأخذون منها ما هو بقاء خلق ويخصون به دولهم ومجتمعاتهم فتزداد إنتاجاً وتطوراً، أما المنتجات الاستهلاكية التي لا تنقص بالأمم، يتم تصديرها للبلدان المستهلكة ويجنون من ورائها المليارات بعد أن حولوها إلى أسواق تابعة لهم، لا تاكل ولا تشرب ولا تتسلح إلا بما يلقي إليهم من فئات.



كيف؟

سينتلعها الفم القبيح للعلم دون أن يشعروا، ليجردهم من المشاعر والإنسانيات والأخلاقيات.. ومع الوقت سينهار اقتصادهم، والسلاح الذي صنعوه ليفنوا به الآخرين سيفني كل الأطراف دون أن يميز بين الأيادي التي تحمله والصدور الموجه إليها، حينها سيعود العالم مئات السنين إلى الوراء، وتحين اللحظة لترفع حضارة أخرى لواء القيادة وسط الخراب والركام المنتشر في كل شبر على الأرض.. فالتاريخ يعيد نفسه في دورات، واليوم يعيد نفسه في أوقات متتالية من الليل والنهار.. والفصول تتعاقب من ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء، لتعاودنا بنفس الطقس ونفس المحاصيل ونفس الأمراض الموسمية في دوراتٍ مكررة من البدء والإعادة.. والإنسان نفسه ينقلب هو الآخر من نوم إلى يقظة، ونفهم من ذلك أن كل شيء في مملكة الله يجري على سنن ثابتة من البدء والإعادة، وينحرك في دورات، وكذا الأمر في الحضارات التي تولد وتزدهر وتصبح قوية ثم تضمحل في نفس الدورات التي يحكيها لنا التاريخ.

يا إلهي.. لماذا لا توصل هذا الكلام المهم عبر الميكروفونات؟

الخضر ابتسامة حزينة وأجاب بلهجة يملؤها الأسى:

في وطننا يشوهون أصحاب الفضيلة، وينزلون بهم إلى الدرك الأسفل من المهانة والاحتقار في نفوس العامة والنبطاء الذين يسهل خداعهم رغم كثرتهم.. ويرفعون أصحاب الخطيئة إلى أعلى الدرجات سواء في الوظيفة أو تسليط الأضواء عليهم في وسائل الإعلام.. وعلى من يريد الحقيقة أن يصل إليها بنفسه..

وماذا عن الأمانة التي كلفنا بها الله؟

كل منا على قدر تكليفه.

لا أفهم.

ستفهم في الوقت المناسب.

.....

يلقون ما يتبقى من محاصيلهم ومنتجاتهم في المحيط يحافظوا على أسعار سلعهم، ويتركون أطفالاً وعجائزاً ومحتاجين يموتون قفراً وجوعاً بعد أن يتحولوا إلى هياكل عظمى تمشي على قدمين.

يتصنعون أنهم يمنحوننا المساعدات والمعونات وهم في الأمر كمن يري الدجاج والخراف في مزارعه ومراعيه، يحين موعد الذبح ليأكل أسمنها ثم يعيد تسمين الباقية، معلوم فقط حتى يجعلها وجبة دسمة يفترسها بشوكة وسكين، التتحضر على مادة العولمة.

فالإرهاب والتخلف المحقق بنا جاء من الفقر والجهل والظلم فمن الذي نشر الظلم وضمن تقسيم الأمة وأخذ بترونها وخيراتها من زرع الحكام العملاء الخاضعين التابعين ليحفظ ولأههم؟ من افعل الحروب والصراعات ليضمن بيع أسلحته التي تنتجها مصانعهم؟ من اقتنص العقول النابغة وفتح الهجرة للمفكرين والنوابغ؟ ألف من ومن ستكشف إجابتها لماذا تخلفت الدول المسلمة التي ينتشر فيها الإسلام، لكن شعوب الغرب نفسها شعوب طيبة مسالمة، مضحوك عليهم مثلاً.

واليوم، لم يبق من المسيحية في الخارج سوى الكنائس العريفا الأثرية التي لا يذهبون إليها إلا في المناسبات والأعياد فقط، وحتى الأحزاب الدينية المسيحية لم يبق من مسيحياتها سوى اسمها بعد أن دخلت في تحالفات حزبية وسياسية، وحتى الديموقراطية حين انفصلت عن الروحانية وتعاليم السماء نشرت الموبقات لأنها لا ترتبط بسباق ديني يهدبها ويقودها إلى النور، ولو صوتت الأغلبية على أمر مخالف لتعاليم الخالق لصار حلاً مثل اللواط الذي سنوا له تشريعاً على سبيل المثال، والغريب أن المسلمين اليوم بعد أن ابتعدوا عن دينهم وشؤخوا تعاليمه ووصاياهم تجدهم يريدون نقل تجربة الغرب بأكملها في الوقت الذي اكتشف فيه الغرب نفسه أن سلحته معيبة ولها عيوب صنع خطيرة تحول دون تسويقها، ومثلما سقطت الحضارة الإسلامية ستسقط حضارة الغرب قريباً جداً، وسقوط هذه الحضارة سيكون بيد أبنائها وليس بيد أبناء الحضارات الأخرى.

هذه هي كلماتي الأخيرة، قبل الانتقال من الكلام إلى الأفعال.

ربما بدا موقف الخضر غامضاً وغير مفهوم في تقاعسه عن حروب المواجهة وتبليغ البشر بما فتح الله به عليه من علوم وإشراقات فانية لكن يكفي أنني تعلمت قبل أن ألقاه وبعد أن التقيته كيف حمل الأمانة من السماء، وأصبح كل من قرأ سيرته ونمي إلى علمه تعالى ووصاياهم مجبوراً على توصيل الحقيقة التي ما أن يصل إليها من تصوير أمانة في عنقه عليه توصيلها لكل من حوله من البشر، حتى في قيود العبودية من على عقولهم وقلوبهم الغافلة.

فئة تشابهات إلى حد يفوق الذهول بين بني آدم من عصر لعصر، ومن حضارة إلى حضارة..

وقائع تتشابه إلى حد التطابق، وأبطال لهم نفس السمات، وأنبياء يظهر في نفس الظروف..

في كل دين، تتجسدت قدسيات الله بنفس الطريقة ودخلت فيها الأوثان، مثلما أدخل الشعب اليهودي العبادات الوثنية إلى طقوسه، حتى إنه لجس هيكल النبي سليمان بإقامة تماثيل للألثة الوثنية، وكانت من ضمن هذه العبادات ممارسة الجنس، وتقديم الذبائح البشرية.

وفي مكة المكرمة تكرر الأمر بنفس التفاصيل بين بني وأحفاد النبي إسماعيل الذين حاوطوا بيت الرب بـ 360 صنفاً سواء حوله أو داخله أو فوقه، ومارسوا طقوساً متشابهة، وتقربوا للآلثة بذبح البشر.

تم وصف الغنوصيين والمانويين بالهرطقة، وتم وصف المتصوفين المسلمين بالزنادقة، وفي ظروف مشابهة تم صلب البعض منهم، أو قتله، ورغم الصلب والقتل ظلت أقوال القتل متشرة وبقيت رغم أنف قائلتهم.

تكررت واقعة الصلب من مكان لمكان ومن زمان لزمان.. تكررت عقيدة التثليث من حضارة لحضارة.. تكررت حكايات الميلاد المعجزة من امرأة عذراء لم يمسسها بشر من عصر لعصر ومن ملة إلى ملة.. تكررت واقعة قتل الأنبياء وتعذيبهم واتهامهم بنفس الاتهامات.. تكررت

هذه الروحانية للمتصوفين المسلمين والمسيحيين وجميعهم قالوا تشابهات رغم أنهم لم يلتقوا، وانتمى كل منهم لعصر ومكان، تكررت وقائع الصعود إلى السماء سواء بالجسد أو الروح ورؤية البشر نفس التصرفات، وردود الأفعال، في مختلف المجتمعات، ثم يسلط عليهم خصومهم بنفس الطريقة ونفس العقاب.

أو عثرنا على أرض جديدة، وقارة لم تكتشف بعد، فستجد في تراثها نفس الوقائع والأساطير، ومحنة البشر في رحلة البحث عن الحقيقة، لتتكرر الاختيارات الإلهية وقتن الشيطان بنفس الشكل، ومن المنهج، في كتاب الوجود الذي لا يقرأه البشر، ففتشابه مصائرهم من عصر لعصر، ويعيد التاريخ نفسه بطريقة مذهلة، وبأخذ التحدي بين البشر نفس أنماط الجولات المتكررة عبر كل الأزمان والعصور، في كل الأمم والبلدان والحضارات مهما كان الفاصل الجغرافي والزمني بين أي الإنسان.

هذا يدل على أن الوجود يحكمه اثنان من أبرع كتاب السيناريو الإلهي، أحدهما الله، والآخر إبليس - مع فارق المكانة بالقطع- في السلم تحد وجودي بدأ قبل حتى أن تُخلَق وسيظل حتى قيام الساعة.. لا هما له أدواته وطريقته المميزة في تعديل النص، والتدخل لتغيير سارات الشخوص، وإضافة العقدة والحبكة ليصل إلى النهاية التي نراها، وبينهما تسير الخلاق نحو مصيرها المحتوم من خير أو شر حسب ميولها للسيناريو الأقرب لنفسها، بعد أن ألهمها الله الفجور والتقوى، وترك لها حرية الاختيار.

سأعيد زمن الفتوحات والغزوات من جديد، لكن بالمحبة والحوار ومقارنة الحجة بالحجة، ومقارنة المعلومة بالمعلومة، والمصادر بالمصادر، حتى أوصول الأمانة مهما بدت ثقيلة، بعد أن تعلمت أن لكل عصر من العصور شهوداً عرفوا حقائق غير التي وصلتنا عبر كتب التاريخ، لا سيما في الأوقات الحالكة التي زاد فيها القتل والتعذيب والظلم.. منهم من تم الأمر خوفاً من مصير مشابه، ومنهم من حاز على منصب لكي يسكت، وحاشا لله أن أكون هذا أو ذاك.

«سأقول لله على سلامتك يا يحيى بك»

«سلامتك يا باشا»

«ألف مليون سلامة عليك يا فندم»

هذا أمطرت الأفواه التحيات والتنهات على مسامع العقيد (يحيى) وهو يسير في أروقة مديرية الأمن، فيما اكتفى بإشارة بسيطة من يده التي لم يرفعها إلى آخرها، متعمداً أن يظهر تعاليه وعزفته عملاً بمبدأ: «الكبر على أهل الكبر صدقة»، لا سيما أولئك المتوددين الكذبة الذين لم يسألوا عنه أو يزوره وهو يُصارح الموت الذي نجا منه بمعجزة.

ألفت ملامحه أثناء السير جامدةً متجهةً من تحت نظارته الشمسية التي ارتدّها رغم حلول الشتاء، ووجوده تحت سقف بعيداً عن أي أشعة، لكن يبدو أن هذا التغيير الذي حل على وجهه - بشكل أفزعه بعد الحادث - جعل من النظارة رفيقاً اضطرارياً سيقم في النصف الأعلى من وجهه إلى الأبد.

أبى إلى حجرة مكتبه وأخذ يتأمل جدرانها، وتلك الصور التي تُزينها، سواء لوحة عليها لفظ الجلالة، أو صورته مع مساعده الشهيد، أو صورته مع زوجته وطفليه، وبذل جهداً جهيداً ليمنع دمعاً حارقةً ألهمت مقلتيه في محاولة يائسة للخروج، قبل أن يتهاوى على مقعده الجلدي الفخم ويشعر في داخله أنه يجلس على مزبلة من الأشواك.

أضرب له العسكري مشروب القهوة، وصبّه بحرصٍ محافظاً على ال«ش» وهو يقول كلماتٍ مليئةً بالتودد والترحاب، غير أنها كانت تخرج هذه المرة من القلب.

أما عدا ذلك، كان كل شيء حوله مقلّزاً، يبعث على الاشتماز والامتعاض..

محاولات متعمدة ومفضوحة من قياداته في التستر على (ريمون)، والحريات وتحقيقات لم تسفر عن هوية الذين تسببوا في إصابته واستشهاد

ساقول لليهود: لا يوجد إنسان وُلد ليكره إنساناً آخر بسبب لون بشرته أو أصله أو دينه.. الناس تعلمت الكراهية، وإذا كان بالإمكان تعليمهم الكراهية فبإمكاننا تعليمهم الحب أيضاً، خاصة أن الحب أقرب للقلب للإنسان من الكراهية.\*

ساقول للمسيحيين: إن الله محبة، وإن المسيح قال: أجبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك. لكنكم لم تعودوا تطبقون ذلك خلف الجدران المغلقة.

ساقول للمسلمين: لو أنكم قدستم الخلاف بينكم وبين المختلفين معكم واتخذتموه سبباً للمحبة والتقارب بين القلوب بدلاً من اتخاذه ذريعة للتناحر والصراع، لذابت الفواصل بين السماء والأرض، ووجدتم أنفسكم في دولة الروح وعالم الملكوت السماوي حتى وإن كانت أجسادكم على الأرض.

ساقول للجميع: من يعلمك ألا ترى في المختلف معك في الدين سوى أنه كافر، فهو يسرق إيمانك.. ومن يعلمك أنه مباح في دمه وعرضه وماله وأرضه لمجرد أنه مختلف معك بدون جرم يرتكبه، فهو يسرق إنسانيتك.. ومن يعلمك أن الكذب لخدمة أهدافك حيلة شرعية، فهو يسرق صدقك.

ساقص عليهم خلاصة رحلتي حتى وصلت إلى الحقيقة.

لن أختبئ بعد الآن، وسأواجه بكل ما أوتيت من قوة..

فلما أن أوصل الأمانة.. أو أهلك دونها.

\*\*\*

\* هذه المقولة للزعيم الجنوب إفريقي: نيلسون مانديلا، لكنه لم يوجهها لليهود؛ بل للإنسانية كلها.

مساعدته، أما حادث المعبد اليهودي فقد..

تلك تلك تلك

قطعت الطرقات الخافتة أفكاره، قيل أن ينثني مقيض الباب وينفتح، ليظهر على عتبة الشاب الوسيم الذي وقف ثواني تأمل فيها العفيد وهم يهب واقفاً فور رؤيته، متأرجحاً في مشاعره بين الرهبة من نظرة الشاب وهيبته التي لا يعرف مصدرها، والتحفز لما هو أت من مشاكل دائماً ما ترتبط بظهوره، قيل أن يدخل الشاب المكتب بخطوات بطيئة وثقة، اقترب بها من (يحيى) وطال بينهما النظر.

\*\*\*

تراقصت الأوتار وصدحت المعازف في مبنى الخدمات التابع للكاتدرائية فيما صعد صوت (آيات) القيثاري إلى السماوات في ساعة الغروب، حاملاً كلمات ترنيمة (شق السما وانزل إلينا)، بتدرجات صوتية تلو وتختف بموهبة عبقرية وحلاوة صوت ألهتها أن تكون خليفة (فيروز) التي تعتبرها مثلها الأعلى، وينافسها في الغناء (أندرو) الذي كان حريصاً أن يغني تلك الترنيمية تحديداً، وخلفهما كورال فريق (تسايج)، بينما احتشد شباب وفتيات وأطفال الكنيسة للاستماع إلى البروفة وقد أخذ بعضهم يتمايل دون وعي، فيما ردد البعض الآخر الكلمات بشفتين صامتتين لتتوافق حركة شفاهم مع صوت (آيات) و(أندرو):

اللي بتشوفه عينينا .. مش كل الحقيقة  
في عالم روحي في السما .. وفي الله مشينة

بالإيمان صلاتنا .. تغير التاريخ  
تعالى يا رب بطلبك .. ونصرخ كل دقيقة

شق السما .. وانزل إلينا  
في أرضنا .. من حوالينا  
قول كلمتك .. شعيناً يعرفك  
ويقولك .. نتجي وتشفينا

الله، ترديد (آيات) للكلمات أغمضت عينيها باندماج وتأثر، وفجأة..  
الروح حواسها شدى عطره الذي لا مثيل له!

أغنى عن الغناء فوراً، واستعادت روحها المعلقة في السماوات، وقد  
بعت - أخيراً - على الأرض ما هو أعذب وأروع، لتفتح عينيها غير  
مصدمة أن المعجزة قد حدثت وحملت إليها الرياح رائحته من بعد طول  
غيب، بينما ما زالت أوتار الجيتار وإيقاع الدرامز تعمل في الخلفية.

من هانبه، أخذ الشاب الوسيم الميكروفون من يد (أندرو) فتوقف العزف،  
وذهبت الأنظار جميعها إليه، ثم أرفف الكل سمعه حين بدأ يردد أبيات  
العلاج التي هام بها عشقاً في الحضرات الصوفية مُثْبِتاً:

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحُبُّكَ مقرون بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثي بين جلّاسي

ولا ذكرتُك محزوناً ولا فرحاً

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممتُ بِشَرْبِ المَاءِ من عطشي

إلا رأيتُ خيالاً منك في الكاس

ولو قدرتُ على الإتيان جنتُكم

سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس

وهين انتهت من الإنشاد كانت الأعين متسعة، فيما ركض الأطفال نحو  
مصدقهم المقرب وارتموا عليه وأخذوا يتمسحون فيه كقط يرحب بصاحبه  
العائيب، وأخذ بدوره يمسح رؤوسهم ويوزع ابتساماته عليهم ثم احتضن



أصغره سناً، قبل أن يقول (أندرو) بانبهار:

- منذ متى وأنت تُجيد غناء الأغاني والأناشيد الإسلامية صابحي؟ هل تحفظ أناشيد أخرى؟

غربت ابتسامة (آيات) واحتل ملامح وجهها الوجوم والدهشة حين أجاب الشاب:

- بكل تأكيد.

فقال له (أندرو):

- نحتاجك معنا في الفرقة إذن، فلدينا حفل قريبٌ سأحكي لك في شيء عنه.

إلا أن (آيات) أزعجتها بيداها متجاهلة كل قواعد الذوق واللياقة، قائلة:

- بعدين يا أندرو.. فلديّ موضوع أكثر أهمية.

ثم أمسكت معصم الشاب وسارت به خطوات باعدهما عن الباقيين، ثم أن نظرت إلى عينيها نظرة مباشرةً وتسألته بتحضر:

- أين كنت خلال الفترة الماضية؟ وكيف تعلمت هذه الأناشيد؟

\*\*\*

"لا أصدق أنني أسير معك الآن بحرية كاملة، لا نخشى من أي مطارد، أو فراق.. الأمر حقاً يُشبه الأفلام والمسلسلات حين تضيق الدائرة على البطل وتحين لحظة تسليم نفسه، فإذا بالقدر يتدخل في اللحظة الأخيرة بحلٍ ما كان ليخطر على بال الجميع".

قالتها (آيات) بسعادة طفل في محل ألعاب، وهي تسير مع فتاتها الوميض في شارع (الحرية) متجهين إلى محل (نوتيلوبيا) لماكولات الشيكولاتة، فالتفت لها وقال بدهشة:

- ألم يلفت انتباهك في كل ما حكيته، سوى أن الشرطة عثرت على مركبي حادث المعبد اليهودي، ولم أعد متهمًا أو متورطًا؟

لفت نظري أيضًا أن العقيد يحيى أخذك إلى المستشفى ووقع عليك الكشف الطبي من جيبه الخاص ليؤكد من صحة كلامك ويخبره الأطباء بأنك فاقد لذاكرتك.

سنانا:

وماذا عن رحلتي الطويلة مع الخضر وما وصلت إليه من خلالها؟

وسنانا: إلى محل الشيكولاتة الشهير، ففتحت (آيات) بابها وهي تقول بأهمية رفيعة تُحاول تلطيف الجو:

جننا هنا للاحتفال بالخلاص، ولسنا بحاجة إلى أي غضب أو توتر.. هلمّ قطع الشيكولاتة يُنادينا.. إنها الشيء الوحيد في الوجود الذي فاقت متعته متعة الجنس.

والله هامة على سبيل الدعاية، ثم اكتشفت أنها مزحة رخيصة تؤكد أنها لم تتخلص بعد من كامل عهرها القديم، فغمغمت بصوتٍ تعمدت أن يسمعه: "إحم.. يا أرض انشقي وإبلعيني".

جلس كلاهما على كرسي عالٍ حتى يُناسب ارتفاع البار المقابل لهما، وطلبت (آيات) شاووما نوتيليا، واختارت لفتاها وأفل بالشيكولاتة البيضاء والألوان كريمة، ثم نظرت إلى عينيها بكل الحب والهيام وقالت:

الأمر أبسط من كل هذا التعقيد والعبء الثقيل الذي يتقل كاهلك.. هو اختبار ستتحمل جميعاً فيه تبعية اختيارنا، والقراءة والبحث والاطلاع متاحة لكل من يرغب.

- وماذا عن اختيارك؟

- اخترت دين المحبة.

- هذا لأنك لم تقرئي في الإسلام، أو وصلتك عنه صورة مشوهة سواء من أتباعه، أو من لفك عنه نصف الحقيقة بشكل مغلوط.. أتعلمين؟ سألت الخضر كيف استطعت أن أصل للحقيقة بهذه السرعة والسهولة فأجابني: أنت ترى الحقائق لأن عقلك لم يتلوث

بمغالطات البشر في تفسير الأديان حسب أهوائهم واحتياجاتهم  
الصواب وجنات الخلد وفقاً لعقيدتهم.. رأيت الأديان على صور  
الخالق وفهمت التعاليم في صورتها البكر وليس في تأويلات  
البشر التي تحقق المصالح وتلوي عنق النصوص.

- هذا صحيح.. لقد تفرق أبناء الأديان والمذاهب العقلية إلى  
فرق كثيرة، وكل فريق يريد جذب الله قسراً ليكون كابتن فريقه  
ويحرز لهم الأهداف، ونسوا جميعاً أن الله هو حكم الميaraة،  
(ضحكت وتابعت) لكنني قلت دين المحبة، فلماذا فهمت أنني  
أقصد المسيحية فحسب؟

عقد حاجيته قائلاً:

- لأنكم في المسيحية تقولون الله محبة.  
- نعم، وهذا جل ما يعني في الأمر.. الله محبة.. من محبة  
أستمد حبك وحب كل البشر والخلاق حولي.. أنا الآن مسيحية،  
لكنني لست أرثوذكسية ولا كاثوليكية ولا إنجيلية.. كل ما يعني  
أن لهذا الكون إلهاً عظيماً محباً لمخلوقاته وأنا أسير على  
دريه.. فقد تجد الحب في كل الأديان، لكن يبقى الحب نفسه لا  
دين له\*.. لذا عشت عمري كله أحتسب من رغبتي في الحكم  
على البشر.. أهرب من ميول بني الإنسان داخلي في الفرز  
والتصنيف.. والشخص الوحيد الذي أحاول جاهدة أن أكون  
أفضل منه، هو أنا في الأمس.

- لكن لا بد وأن تعرفي إلهك بشكل صحيح.  
- صدقتي محبة هي أعظم وأصح صورة له.. هل لي أن أسألك  
سؤالاً؟  
- تفضلي!

\* هذه المقولة للمتصوف العظيم مولانا جلال الدين الرومي.

في تاريخ كل دين شفعاؤه المقربون من الخالق، القادرون على  
إنقاذ العوام من ضعيفي الإيمان وأصحاب السيئات والخطايا  
حين يصبحون على شفا حفرة من النار.. في اليهودية حاخامات  
وأحبار، وفي المسيحية قديسون، وفي الإسلام أولياء، ولكل من  
هؤلاء معجزات وكرامات يتغنى بها الأتباع في ملاحم دينية  
عن حرب الخير والشر، ونعمة التقرب من الله التي يكافئ بها  
عباده بمنحهم معجزات وقدرات غير عادية لا تتوافر لضعيفي  
الإيمان.. فإذا كان للجميع معجزاتهم فأين دين على الباطل  
ويستحق أتباعه النار إذن؟ وكيف يُكرم الخالق مخالفين إرادته  
ودينه الصحيح بمعجزات وكرامات؟

سكت الشاب وغرق في بحر من التفكير والتساؤلات، فابتسمت وأجابته:

\* الإجابة الوحيدة التي أراحت عقلي، أن الرب يكرم في دنياه  
من يصل إليه بقلبه أيّاً ما كان المسلك والطريق، فيكفي أن  
يرى داخل العابدين بوصلة المحبة وهي تشير للخالق ورغبتهم  
الأكيدة في الوصول إليه حتى يفيض عليهم من محبته.

هذا ما تعلمته خلال الفترة الماضية من نقاشاتي مع مورييس  
وتأملاتي للسماء التي كنت أسألها أن تسرع من عودتك..  
(ضافت عيناها بابتسامة مليئة بالمحبة، وأضافت) والآن كرر  
خلفي مثل الشطار: الرب يكرم في دنياه من يصل إليه بقلبه أيّاً  
ما كان المسلك والطريق.

- وماذا عن آخرته؟

استسكت يديه بكل الحب، وأجابته:

- لنعش جنتنا هنا على الأرض أولاً.. هذا كل ما يعني الآن.

دللني إلى عينيها بحب وتأثر قائلاً:

- من يحب شخصاً يريد له الخير في الدنيا والآخرة.

ثم سحب يديه وقال بحزم:

- لا شك لديّ في أن قلبك الطبيب سيصل للحقيقة مثلي بعد أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله وأبعاده، لكنني لست أناثيًا حتى أهتم بشأني أنا وحبيبتني وأترك الباقيين للجحيم.

غزا الوجوم ملامحها بعد أن بهتتها كلماته التي أفصحت عن إصرار إن ينثني مهمًا حدث، وسألته برهبة:

- ما الذي تنوي على فعله؟

- سأشرح الأمر للعالم، الحقيقة بصورتها الكاملة بدلًا من أنصاف الحقائق التي خلقت كل هذه الكراهية والخلافات.. سأمسك الميكروفونات أمام الملايين وأناظر الجميع.

لمعت عيناها بالدموع وقرّبت آخر لمحة من ملامح السعادة التي كانت تحتل قسماتها وهي تقول:

- لماذا لا تجعل خُلُقك وتصرفاتك هي أفضل دعاية للحقيقة التي وصلت إليها؟ ألا يقول الإسلام إن الدين المعاملة؟.. ما هكذا تتجلى الحقائق، وكل ما ستجنيه هو التعجيل بنهاية مأساوية فحسب.. صدقتي ما سار أحد في هذا الطريق إلا ونال كل صنوف العذاب والهوان.. وسرعان ما ستكتشف أن تورطك في حادث المعبد اليهودي كان أهون بكثير مما أنت مُقدم عليه.

- ربما.. لكن ما أصبو إليه من توير العالم المظلم حولنا يستحق ما سألاقيه، والله المستعان أولاً وأخيراً.

نجحت دموعها اللامعة في الفرار من عينيها وهي تقول بصوت متهدج:

- افعل ذلك بأناشيدك وصوتك الخلاب الذي ما سمعت في حياتي صوتًا أجمل وأحن منه.. اغرس المحبة في نفوس السامعين وانتظر بعدها حصادًا من الوفاق والمواخاة بلا حاجة للصدام.. فالفن هو المرادف الثالث للإيمان والحب لأنه ينفذ للقلب

والوجدان مثلهما ويسيطر على الكيان والحواس.. ها هي الدنيا بدأت تبتسم لنا أخيرًا، والأشعار الصوفية التي تحفظها يهرت الجميع بطبقات صوتك التي أقسم الجميع أنهم ما رأوا لها مثيلًا، حتى إنهم ألحوا عليك أن تغني معنا في الفريق، وكلي ثقة أنك ستبهر الجمهور وتخلطف الأضواء في الحفل الذي ستعطيه قنوات عديدة، لتتهال بعدها العروض عليك ويصبح لك شأن آخر.

وبعدها فجأة مع كلماتها الأخيرة، وقال لها بنبرة استدراج:

دعيني أكثر عن عدد الحضور والقنوات التي ستعطى الحدث.

\* \* \*

ألم يدهشة شديدة، فابتسمت مجيبة:

فأنت ذلك حقاً منذ أول لحظة التقينك فيها.. تسير في مسارات  
عرجية ولا تعرف الطريق المستقيم.. قذفتك الأقدار في معبد يهودي  
وإلهانية ومسجد، وسرت في دروب الثلاثة أديان.. حتى في داخلك،  
تجول الأحوال من النقيض إلى النقيض.. تحمل شدة تذيب الجبال،  
وتسبب تطيب الجراح وتجبر القلوب الحزينة.. في كلماتك حكمة الأجداد،  
وفي نظراتك طفولة ولید ما زالت برأته بكرة لم تفضها الأيام.. لا تثبت  
على حال أبداً.

اسم رغماً عنه وقال لها:

هذه هي طبيعة البشر.. وجود الضد لديهم لن يصبح له معنى  
إلا بتواجد ضده.. فوجود الشر ما هو إلا تأكيد على وجود  
الخير، ووجود الكرب ما هو إلا تأكيد على وجود الفرح، حتى  
رسم القلب لا بد وأن يكون زجاجاً ما دام هناك نفس يتردد في  
جسد صاحبه، ولو سار في طريق مستقيم لذل ذلك على انتهاء  
الحياة، لكن على كل حال لقد أعجبني الاسم.

ألم شرد وهو يردده بعمق:

زجاج.

ومن جديد عادت (آيات) تُرثم في مبنى الخدمات وخلفها الكورال:

ملك الملوك وجلاك .. مالي الوجود حوالينا

وجبال بتدوب قدّامك .. اسمك عالي يا فادينا

دي الأنهار بتسقف لك .. كل الآلات تعزف لك

ويارب بكلمة منك .. كل الملوك تخضع لك

وأخذت الأيام تتوالى على مبنى الخدمات الذي ذابت داخله كل الفواصل  
الزمنية بين شروق الشمس وغروبها، وبين الأيام وبعضها، وقد انغمس  
كل أعضاء فريق (تسايج) في حالة أبدية علت على الزمن نفسه.. لم  
يلتفتوا سوى لأنغام الموسيقى وأهات الحناجر، وكلمات الإيمان التي  
يرددونها بكل الثقة والطمأنينة، سواء في الترانيم المسيحية التي ترثمها  
(آيات) وخلفها الكورال، أو الأناشيد الصوفية التي ينشدتها الشاب الوسيم  
على الحان وتوزيع (أندرو)، وكل منهم يسأل نفسه في غمار سكرته  
وخطفته الروحية: "كيف للعقل أن يُثمل دون خمر؟"

تغمض (آيات) عينيها وتسبح في السماء وهي تردد:

يا رب اسمع صلاتي ... اقبل واستجب

تعال وزور حياتي ... واملاها لهيب

أنا طلبي إني أشوف المجد ... أملني إني أشوفك

وحتى إن آخر باب اتسد ... هلمس هذب ثوبك

وينظر الشاب للأعلى ويحمل الهواء تدريجات صوته الجبارة إلى الأعلى  
الأعلى وهو يناجي رب الأرض والسماء:

زدني بفطر الحبّ فيك تحيراً وارحم حشا بلظي هواك تسعيراً

وإذا سالتك أن أراك حقيقة فاسمخ، ولا تجعل جوابي لن تزي

يا قلب أنت وعدتني في خبهم صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا

إن الغرام هو الحياة فمت به صنيًا، فحقك أن تموت، وتعدّرا

اقتربت (آيات) على الشاب الوسيم أن يحمل اسماً مستعاراً حتى يتم  
تقديمه إلى الجمهور به، ويكتب على لوحات الدعاية الخاصة بالحلل.

وحين سألها إذا ما كان لديها اسم تقترحه أجابت بلا تردد:



إنت عالي ... فوق كل اسم مهما يكون

عالي ... فوق السحاب ومالي الكون

عالي ... هتشوف ملكك كل العيون

بينما أخذ الشاب ينشد بصوته الذي عادل فريخاً بأكمله:

كان لي ظلٌ رسوم .. فاستوت شمسي فزال\*  
عشتُ بالمحبوب حقاً .. بعدما كنتُ خيال  
عاد مجنوني وجودي .. فتجلى و تعالى  
و تخفى عن عياني .. في عز وجلالا

\*\*\*

"كنت محقاً يا سيدي.. إنهم يجرون البروفات ليلاً ونهاراً على قدم وساق  
وسيقام الحفل خلال أيام على مسرح سيد درويش بدار أوبرا الإسكندرية  
والدخول مجاناً للجميع".

قالها (نصحي) إلى الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي نفث دخان سيجاره  
في وجهه (ريمون) وهو ينظر له نظرة ساخرة تقول فيها عيناه: "ألم أراك  
لك؟"، قبل أن يستطرد (نصحي):

- الكنيسة دعت للحفل شخصيات عامة، وحرصت على دعوة  
رئيس الطائفة اليهودية وباقي اليهود السكندريين.

ألقى الرجل سيجاره، وفركه بحذائه وهو ينزع ملامح وجهه الساخر  
ويستبدلها بوجه صارم لا يعرف الهزل قائلاً لـ (ريمون):

- حانت الآن لحظة الحسم التي انتظرتها.. فلستعد لها وتنفذ ما  
سأقوله لك حرفياً بلا نقاش.

\*\*\*

\* هذه الأبيات الصوفية التي يغنيها الشاب الوسيم، يمكن سماعها على موقعي  
يوتيوب وساوند كلاود بصوت مطرب اسمه زجراج أيضاً!

سأخاطب الديوك من جديد حول سطح ذلك المنزل العتيق، الذي جلس  
الواديم مرة أخرى على مصطبتها أمام غرفة (دميانة)، ناظرًا إلى  
مطلعًا إلى السماء التي يظهر فيها القمر في ليلة التمام، ملقياً  
بالفضي على وجهه الخلاب ليزيد من أسطوريته التي ما رأت  
العوالم، فيما أخذت (آيات) تنتظر إلى ملامحه بانهمالك شديد وهي  
بالفحم على لوحة ميثية أمامها على حامل، وفي خلفيتهما أخذت  
الرومي تشدو بكلمات (نزار قباني) التي تسألت (آيات) في  
سيف كان شكل الحب قبل أن يقول أشعاره:

يُسمعي حين يراقصني

كلمات ليست كالكلمات

ياخذني من تحت ذراعي

يزرعني في إحدى الغيمات

سأعلم أن هذه أول مرة أرسم فيها منذ 10 سنوات؟"

قالها (آيات) بنبرة مرحة خرجت من قلب يتراقص فرحاً، وهي تواصل  
رسم سنانة لوحة رائعة لوجه الفتى:

والمطر الأسود في عيني

يتساقط زخات زخات

يحملني معه يحملني

لمساء وردى الشرفات

غناء (ماجدة الرومي) واصلت (آيات) الرسم لنقول وهي تدقق في  
عينيه:

كنت مستعدة أن أدفع عمري بأكمله، وتعود لي ليلة واحدة  
نقضيتها معاً لأحقق فيها كل الأحلام المؤجلة.. أرسلك، وأغني  
معك مجدداً، ونقد نجوم السماء حتى تختفي مع لحظة الشروق

ونسوا أن يملأوا زكائهم بالذهب الحقيقي الموجود في البدر.

إلى عيني (آيات) وتابع:

علينا أن نلحق بتعبئة الذهب يا آيات.. ميعاد الزيارة محدود، ومن ينهر بلوحات المتحف وينسى تعبئة زكائيه ستنتهي الزيارة ويخرج بزكائب فارغة.. لوحات المتحف حولنا للعرض فقط ولا يمكن اصطحابها معنا للخارج بينما الكنز الحقيقي تحت الأرض.

قلبا من كلماته الغامضة، ولاح لها في الأفق شبح أحزان ودموع، فأرادت غلق باب السماء في وجوههم وهي تغير دفة الحديث

ألا تشعر بالخوف من حفل الغد، خاصة أنها أول مواجهة فعلية لك مع الجمهور؟

لا بأس، فأنأ أعشق المواجهة.

لا بأس، فأنأ أعشق المواجهة.

\*\*\*

اليوم الموعود..

مسرح (سيد درويش) بمئات البشر.. كاميرات الفضائيات الشهيرة مسبوكة في كل مكان تجري لقاءات قبل بدء الحفل مع القائمين على المسرح.. القصص (يوسف) يتحدث عن رغبة الكنيسة الأكيدة في البحث عن جوانب الاتفاق بين الأديان الإبراهيمية ونشر ثقافة التوافق بين أبناء المعتقدات المختلفة.. الحاخام (موريس) يتحدث عن الوجه الآخر الذي يعرفه المصريون عن اليهود والديانة اليهودية، ويؤكد على الفارق بين الصهيونية واليهودية.. (آيات) و (ألبرت) و (أندرو) يبدون سعادتهم في اعتماد ألفين كلغة حوار تضرب في القلوب والأرواح بشكل مباشر حتى وإن غلف الظلام بعض الأجزاء في العقول، بينما رفض (الزجاج) الحديث مع المراسلين، وطلب منهم التركيز على كلمته التي سبورها على المسرح مباشرة، مبدئاً سعادته بالتسجيل معهم بعدها، ثم

دون أن يلوح في الأفق أي خطر أو تهديد، ثم نحفل بزواجنا مثملاً نحفل الآن موريس ودميئة بعد أن قام بشراء ممتلكاته -أخيراً- واشترى شقة في الإسكندرية.. سيتركوك تلك الغرفة لتشهد قصة حبنا مثملاً شهدت قصة حبهما كانت أقوى من الزمان.

توقف الشاب عن تأمل السماء والتفت لها قائلاً لها بنبرة غامضة:

- سيتوقف كل شيء على نجاح الهدف المنشود من العمل فلندعي معي بالنجاح والتوفيق.

وقبل أن تفكر في المعنى الخفي لكلامه رسم ابتسامة رصينة على ملامحه ونهض قائلاً:

- هل انتهيت؟

صاحت فيه بشقاوة:

- عُد مكانك، لقد أوشكت..

لكنه تقدم نحوها بمرح حتى يشاهد ما أنجزته، فاحتضنت اللوحة لتخفي عنه جسدها وهي تداعبه بشقاوة طفلة في مدينة الملاهي:

- لن ترى شيئاً حتى أنتهي.

أمسكها من كتفيها وأزاحها بحب وحنان فاستسلمت لذراعيه وهي تنظر له بكل الهيام والوله، وتطرب أدنيتها وهي تسمع كلماته التي خرجت من شفتين قريبتين:

- من منتصف المشوار يظهر باقي الطريق لو كنت صادقة في نيتك.

أخذ منها اللوحة برفق وتأملها، فرأى نفسه في شكل جميل أثار إعجابه، قبل أن يتغير وجهه ويقول بخشوع:

- يا رب.. لا تجعلني من الذين دخلوا المتحف فانبهروا باللوحات

يا سَيِّدنا ساعدنا استندنا .. وانجِّدنا وكفّاية حروب\*

سواء الأوريت التمتعت الأعيُن بالدموع التي لم تفرق بين مسلم  
ويهودي، والتهيت الكفوف بالتصفيق الحار ..

(زحاج) مرتديًا بذلته المبهرة التي هبط بها من السماء، ليبر  
فور طلته الأولى بوسامته وهينته وتلك الهيبة والوقار الذي  
فور أن سلَّطت الأضواء عليه، وبدأ يغني:

سأعيتُ بنا المستضعفون وهم .. قتلى وأسرى فما يهتزُ إنسانٌ\*  
الامان التقاطع في الإسلام بينكم .. وانتُم يا عباد الله إخوان؟  
من ميتة في صرفها غير .. والذهر في صرفه حول وأطوار  
لل شيء إذا ما تم نقصان .. فلا يُغر يطيب العيش إنسان  
في الأمور كما شاهدتها بول .. من سزرة زمن ساعة أزمان

أرجاء المسرح بالتصفيق وصرخات التشجيع والتصفير بعدما أبع  
في الأداء بصوت مليء بالإحساس والشجن مع كل حرف نطقه  
وروحه قبل لسانه، وغمرته أضواء فلاشات الكاميرات الفوتوغرافية،  
يد على الميكروفون بشدة والتزم الصمت وهو يستجمع في ذهنه  
التي انتظر من أجلها مجيء هذا اليوم، وألقى نظرة خاطفة على  
المرحلة، ثم بدأ يوزع نظراته على الجماهير وكاميرات القنوات التي تسلط  
الضوء عليه وبدأ يتكلم:

أحبيكم بتحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. جئنا  
اليوم من أجل المحبة.. من أجل الخير.. من أجل أن نعيش  
جميعًا في سلام، وهي رسالة سامية لا بد وأن تصطف جميعًا  
خلفها حتى تحتلنا هذه الأرض فوقها بدلًا من أن تُدفن فيها  
جميعًا.. لكن ثمة شيء ناقص في تلك المحبة التي علينا جميعًا

\* هذه الكلمات من أوبريت بعنوان (سبيني أعيش) ويمكن الاستماع إليه عبر موقعي  
فوتيوب أو ساوندكلاود.  
\*\* هذه الكلمات من نشيد بعنوان (يا غافلاً) ويمكن الاستماع إليها عبر موقعي  
فوتيوب أو ساوندكلاود.

انزوى في الكواليس مع حاله يطلب من الله السداد والتوفيق فيما  
مقبل عليه، وفي غمار مناجاته وإبتهاله، إذا بباقة ورد بديعة، محمودة  
بذوق رفيع نادر التكرار، تحملها يد رقيقة امتدت بها إليه بينما  
شفتا صاحبتها:

- فلتحفظ بهذه الورود من إنسانة تعلمت على يدك الكثير، وإن  
بعضها إلى حبيبتيك، عاشقة الورد.

“كريستين؟”

قالها الشاب بدھشة شديدة عاقداً حاجبيه، وهو يتأمل أسطورة الأميرة  
فانتة الجمال والملاح وقد اكتست بطهارة واحتشام الراهبات، لكنه  
نظرت إلى الأرض في انكسار وحزن، ثم انصرفت في صمت دون أن  
تنبس ببنت شفة، لتظل عينا متعلقين بها بحيرة وذهول حتى اختفت

وفي المسرح، كانت الصفوف الأولى مليئة بالجمهور المسيحي الذي  
مثل النسبة الأكبر في الحضور، وفي الصفوف الخلفية جلست (دمبار)  
(موريس) كعاشقين جاءا في نزهة بعيدان فيها الأيام الخوالي، بعد  
عن فضول العيون وزحام وسائل الإعلام، وإلى جوارهما جلس (إبراهيم)  
منير) رئيس الطائفة اليهودية في الإسكندرية بجانب مجموعة من اليهود  
المصريين العجائز، قبل أن يدخل الشيخ (خضر) المسرح ويجلس في  
صحبتيهم، ثم عم الظلام وبدأ الحفل، بغناء (آيات) و(أندرو) وخلفهم  
صوت الكورال:

أم وحاضنة ضناها بحرقه .. وتبكي من نار الفرقة  
جسمه مثلج جنته زرقا .. ويبنزف ومفيش إسعاف  
قبل ما يكبر وي زيد ألمه .. كان في الفصل وماسك قلمه  
فجأة المريلة شربت دمه .. مات ولا حد سمع ولا شاف  
مش فاهمين

إحنا نناخد إيه من الدنيا غير شيرين  
دنيا ومين ها يخلد فيها .. طيب ليه يقتل بعض عليها  
حتى كفنا مالو هشي جيوب  
ياللي بتتنص ولا بتنام .. ده العمر اللي مافو هشي سلام  
عمر وضايح مش محسوب  
يا مولانا اسمع لدعانا .. فيه جوانا سواد وذنوب

- أن نتحلى بها فيما بيننا.. فمن يحب إنساناً مثله، يجب عليه يخشى عليه من الجحيم والعذاب وسوء المصير الأبدي.

تسارعت دقات قلب (آيات) وارتسم الخوف والتوتر على ملامحها وأدركت -مؤخراً- كل تفسير كلماته الغامضة التي كان يقولها ولم لمقصدها.

همت أن تصرخ فيه: "كفى".. أن تخطف الميكروفون من يده.. لكن كانت تعلم أنه ما من قوة في الأرض قادرة على منعه إذا ما أقدم أمر ما، فتركته يواصل وهي تتمنى من الله أن يلفظ به في المستقبل المقبلة حين واصل كلامه:

- هناك خلافتٌ عقائدي بين المسلم والمسيحي واليهودي، لم يزل اليوم على أيدينا، وإنما جننا إلى هذه الحياة وقد ورثناه من أبائنا وأجدادنا، ولا شك أن من يحمل تبعية الذنب الأول، أولئك الذين بدأوا في إنكار وتكذيب ما جاءهم من الحق وبيئات الهدى، وعلموا أتباعهم من بعدهم كيف يُكذبون ويُكذبون.

في تلك الأثناء كان (ريمون) و(نصحي) والرجل ذو العينين الزرقاويتين يتابعون ما يُقال من خلال شاشة التلفاز التي تعرض بثاً حياً مباشراً من الحفل، قبل أن ينظر (ريمون) إلى ساعته ويقول للرجل:

- تبقى من الزمن ثوانٍ.

وعلى خشبة المسرح استكمل الشاب كلامه:

- وإذا كنتُ اليوم أحث على احترام الآخرين في حرية اختيار عقيدتهم باسم الإنسانية، فباسم الدين أحثهم على الوصول إلى الحقيقة قبل أن ينفذ السامر وتحين لحظة حساب عسيرة أن يحترم فيها الإله حرية الاختيار حين نكتشف أن من بين كل الاختيارات، اختياراً وحيداً كان هو الأصح والأصوب، وما عدا

» مقبول.. أقسم بالذي رفع السماء بلا عمد أني أحبكم حقاً، وحتى يكتمل هذا الحب علي أن أخاف عليكم من عذاب وهول يوم عظيم، لذا فاسمعوني جيداً وليصحح لي خطئي من لديه الحجة والعلم قبل أن تتفتح أبواب الجحيم.

الأسف.. سبق السيف العذل، وانفتحت أبواب الجحيم بالفعل مع خوف نطقها الشاب..

حدث انفجارٌ ضخمٌ صمٌ صوته الأذان وارتجت معه جنبات المسرح، في اللحظة التي اندلعت فيها النيران من الصفوف الأولى لتتسبب معظم الحضور من المسيحيين، وتتجه نحو خشبة المسرح في لمح البصر.

في اللحظة التي انطلق فيها الصراخ من الحضور، وعمت الفوضى السليمة والجماهير تركض في كل اتجاه ولسان حالهم يقول: "نفسى عني"، تجاهلت (آيات) مصيرها وحياتها وتعلقت عيناها بفتاها الحبيب، أن تخشى على حياتها من الموت بقدر ما خشيت عليه، لتتطأير بها الأشلاء، والدماء، وتحيطها النيران التي لفحت وجهها، دون أن يدركها وسط كل ذلك سوى النظر إليه وهي تراقب مصيره، فإذا به الجبل الراسخ وسط أوراق الخريف التي تتساقط حولها، دون أن تنتهيه أو حتى تمسه، قبل أن يندفع نحوها وهو يد العون في محاولة لحماية، لكن قبل أن يصل إليها كان الظلام قد حل.. وانطفأ نور الوعي.

\*\*\*



«سراء نزلت على كتفه وقال صاحبها ذو الملاح الفلسطينية: «سلك يا فتى.. فهذه أوطانهم، ولن أتركهم أبداً يرحلون».

من أنت؟

من أنت؟

من أنت؟

أنا المسيح ابن مريم البتول.

سنا الشاب غير مصدق نفسه، وقيل أن يهتف بحرف واحد، إذا «دي ثياباً بيضاء، منير الوجه، ذي لحية سوداء لم يطلها الشيب، في الأفق متقدماً آلاف البشر الذين يرفعون راية مكتوباً عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، اتجه نحو المسيح قائلاً:

لست وحدك من يناصرهم أخي عيسى.. فمن قتلهم ظلماً ظناً منه أنه ينصر دعوتي سيدخل وحده الجحيم ولن تناله شفاعتي.

الشاب فاه وهو يردد بانينهار:

محمد بن عبد الله؟

قال هذه الضجة يا أبنائي؟ أهذا ما أوصيتكم به؟"

أن يُعرّف القاتل نفسه هذه المرة، أدرك الشاب الوسيم أن هذا القادم «رس» أبيض، مرتدياً ملابس خضراء تبرق وكأنها مضئنة، هو نبي (إبراهيم)، وإلى جواره خيول يمتطيها أولاده (إسماعيل) و(إسحق) و(يعقوب) و(موسى بن عمران)، قبل أن يأتي ملايين البشر من كل صوب وصوب ويختلطون بمسيرة المسيحيين، وتختفي راية المسلمين ويصهرون جميعاً في حشد واحد ملأ الصحراء الشاسعة مترامية

هذه الكلمات مأخوذةً بنصرف من مقال بعنوان (اخرجوا أيها المسيحيون من أوطاننا) للكاتب أحمد الصراف، ونشر في صحيفة القبس الكويتية.

حمل الشاب الوسيم جثمان (آيات) بفستانها الأبيض الملطخ بالدم وسار بها في الصحراء وخلفه مسيرة من آلاف المسيحيين يحملون منهم جثمان ذويه من الضحايا..

القمص (يوسف) يحمل جثمان (كريستين)، و(ألبرت) الذي تشوه وجهه يحمل جثمان (أندرو)، قيل أن يتوقف الشاب الوسيم عن المسير ويستدير نحو الجميع صائحاً فيهم:

- يا مسيحيي الشرق الأوسط.. ماذا تفعلون عندكم؟ الأوطان لم تعد أوطانكم؟

اخرجوا يا مسيحيي مصر من الإسكندرية وأسيوط.. اخرجوا يا مسيحيي سوريا من حلب وحمص ودرعا ودمشق وبيروت ومعلولا من أوطاننا، واخرجوا يا مسيحيي الموصل ونيوى وبغداد من بلداننا، واخرجوا يا مسيحيي لبنان من جبالنا وودياننا، واخرجوا يا مسيحيي فلسطين والجزيرة من شواطئنا وترابنا، اخرجوا جميعاً من تحت جلودنا، اخرجوا جميعاً فحنن نبغضكم، ولا نريدكم بيننا، فقد سنمنا التقدم والحضارة والانفتاح والتسامح والمحبة والإخاء والتعايش والعفو.

سنمنا كونكم الأصل في مصر والعراق وسوريا وفلسطين اخرجوا لكي لا نستحي منكم عندما تتلاقى أعيننا بأعينهم المتسائلة عما جرى؟

نظر إلى جسد (آيات) الذي زادت الدماء المتساقطة منه وانحدرت من عينيه دمعة ساخنة واستطرد:

- ارتحلوا عنا.. فإننا نريد العودة إلى صحارينا، واشتقنا إلى سيوفنا وأتريننا ودواننا، ولسنا بحاجة لكم ولا لحضارتكم ولا لمساهماتكم، فلدنيا ما يغنيننا عنكم من جماعات وقتلة وسفاسكي دماء.. اغربوا أيها المسيحيون عنا بثقافتكم، فقد استبدلنا بها

يسكن عقولهم، وامنحنا القوة لنبارك لاعنيا ونصلي لأجل الذين  
يموتون إلينا، ويسكن فينا السلام رغم كل ما نقاسيه حولنا.  
هلوليا هلوليا.

دموع الأب (يوسف) بدموع الشيخ (خضر) الذي قال بصوت

شديد يا رسول الله بأنك قلت من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو  
ألفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه  
يوم القيامة.

منه أحد شباب الكنيسة وقبض على عنقه وهو يقتلعه من فوق  
والأب بغضب هادر:

لا تذكر سيرة نبيكم هنا.. فكل ما حلَّ بنا من أذى وخراب بسبب  
دينه الذي نتبعون.

هزيمة عشرات الشباب المسيحي الذين يملأون المستشفى، وأخذا  
حول الشيخ والشباب الغاضب في اللحظة التي تدخل فيها القمص  
(يوسف) وأمسك بذراع الشاب، وصرخ فيه:

اصمت يا ضعيف الإيمان.. فمن يتصرف بطريقتك الحمقاء لا  
يعرف شيئًا عن المسيح.

الشيخ (خضر) يد القمص، وقيل رأس الشاب المسيحي قائلاً:

لا يهاكم الله عن الذين لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم من  
دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين..  
هكذا يقول الإسلام الحقيقي يا بني، وبخصوص ما فعلته معي  
منذ ثوان قبلي على رأسك تطبيقاً لأوصايا الرحمن التي قال فيها:  
"والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين"..  
أما ما وصلكم من دين مشوه فلا علاقة له بتعاليم الخالق التي  
أوحاها لنبيينا المظلوم على يد أتباعه قبل أن يكون مظلوماً من  
أتباع الأديان الأخرى.

الحاخام (موريس) بهز رأسه بأسى وحزن وهو يتابع ما يحدث دون

الأطراف، بينما تراض أمامهم الأنبياء والرسل، وفجأة إذا بغمامة  
تظلل الجميع لتتردد مع حلولها المهمات، وتوجه الأنظار إلى أمام  
به عرش ضخم يحمله ثمانية ملائكة تغطي أجنتهم مشارق  
ومغاريبها ومن فوقه أنوار لا تبلغها الأبصار، ليرتجف الكل بلا استثناء  
ويخروا سجدًا وبكياً، في اللحظة التي عَمَّ فيها الصراخ والعويل.

استيقظ الشاب مفزوعاً من رؤيته وما زال صراخ البشر يتردد في أذنيه  
حتى إنه ظل يرتجف لثوان على مقاعد الانتظار أمام الغرفة التي  
ترقد فيها (آيات) غائبة عن الوعي بين الحياة والموت رغم مرور  
على الحادث خضع فيها لسلسلة استجوابات مع العقيد (يحيى) مع  
وأحد وكلاء النيابة الذين سألوا الجميع، دون أن يتلقوا إجابات مفيدة  
تكشف هوية الجاني، بخلاف أمطار من كاميرات الفضائيات وعشرات  
المصورين الصحفيين والمراسلين الذين ملأوا أرجاء المستشفى لآرام  
وأجروا لقاءات مع الجميع وعلى رأسهم الشاب الذي وجهوا له  
الأسئلة بنفس الطريقة التي لم تختلف من صحفي لأصفي، ولا من  
مراسل لمراسل، وعلى رأسها: ماذا كنت تقصد بكلماتك التي قلتها في  
وقوع الانفجار؟ فأعطاهم بدوره إجابات واحدة لا تتغير كلماتها بنوع  
السائل، مؤكداً: "أردت توضيح حقيقة تنفذ البشر من جحيم خارجي  
فاكتشفت أن الجحيم صار يسكن القلوب".

احتلت تصريحاته وصورته صدر الصفحات الأولى في الصحف والمرا  
الإخبارية، ما بين من صاغها بأمانة ودقة، ومن تلاعب فيها وحرف  
عن سياقها تماماً، وصار ظهوره حديث الساعة، لكنه رفض الظهور  
في جميع برامج الـ "توك شو" حتى لا يغادر المستشفى الذي أقام فيه  
إقامة كاملة أمام غرفة الإنعاش الوحيدة التي ذاق معها طعم الحب.. ثم  
ترددت في المستشفيات دعوات وصلوات أصدق بكثير من تلك التي ترددت  
في المساجد والكنائس وباقي دور العبادة!

هز الشاب رأسه وهو يطرد عن رأسه كل ما عاناه خلال الأيام الماضية،  
ونظر يمينه فوجد الحاخام (موريس) إلى جواره، قبل أن يتسلل إلى أذنيه  
صوت القمص (يوسف) وهو يردد منتحباً بالقرب منه:

- صدقت يا يسوع حين قلت: وتأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم  
أنه يقدم خدمة لله.. يا رب اغفر لهم واحمهم من الشيطان الذي

كان ما يمرُّ به كفيلاً بإصابة فقدان الذاكرة نفسه، بفقدان في

كم عدد الدقائق والساعات التي مرَّت عليه وهو في هذه الحالة،  
أن ينجح أحد في تخليصه من معشوقته أو تخليصها منه، قبل أن  
رأسه وكأنه يستيقظ من كابوس وجد الواقع أسوأ منه.

بحو الكومودينو المجاور للسري فوجد مزهريّة بها ورود طليعية  
عينيّه تتسع في دهشة حين وجدها شديدة الشبه بتلك الباقة التي  
له المرحومة (كريستين)، ليلتقط أجمل وردة فيهم ويقربها من أنف  
()، ثم استأنفت عيناها البكاء وهو يغني بصوت باكٍ متوجع أغنية  
عاشقة (الورد)، بصوت وإحساس شديد الشبه بأداء (مايك ماسي)،  
إحساس أقوى، وألم أشد، وإيقاع أبداً:

يا عاشقة الورد.. إن كنتِ على وعدي

فحببيك منتظرٌ.. يا عاشقة الورد

أن يرى ما كان يدور في خيال حبيبته في تلك اللحظات التي جمعت  
البقطة والغيبوبة، إذ كان يقف أمام عينيها على خشبة المسرح ويمد  
نحوها بعد أن سقطت أرضاً ليعينها على التهوّض وهو يردد نفس  
الأغنية، وما أن وقفت على قدميها حتى ضمها في صدره بحنان الكون،  
وضع رأسها بين كفيه وهو يملئ عينيّه منها، لتبتاعد بعدها صورته  
في الحلم وتبثت الرؤية وهو يتنادي عليها قائلاً: «سأنتظرك في أرض  
الراح، هيا، الحقي بي».

والفعل بدأت تفتح عينيها ليقع ناظرها أول ما وقع على وجهه الجميل،  
فألت بضعب:

حمداً الله أنك بخير.. أي شيء بعدها مقدور عليه.

ضمها في صدره مجدداً، وتجمدت الدموع في عينيّه فيما تحولت ملامحه  
من الحزن والانكسار إلى غضب هادر وتحفز لا حد له قائلاً:

عديني ألا تنتظري للمرأة مرةً أخرى، حتى أعيد لك ملامحك التي  
سرقها منك الانفجار.

أن يلفظ بحرف، قيل أن يخترق الشاب الوسيم ذلك الزحام الذي  
بالقمص (يوسف) والشيخ (خضر) وقال بلهجة انكسار واعتذار:

- يبدو أنني تسرعت حين ظننت أن تبيان الحق يجب أن يبدأ  
عندكم.. فالمسلمون في حاجةٍ إلى أن يعرفوا دينهم أولاً.

قال له القمص (يوسف) وهو يُحاول أن يزن دقة الحديث:

- ما زال الأمر ميكزاً على هذا الكلام يا ولدي.. فحتى الآن  
يُثبت بعد أن مرتكبي الحادث مسلمون، حتى وإن كان هذا  
الاحتمال الأقرب للحادث.

انفتح باب غرفة (آيات)، وخرجت منه (دميانة) وهي تكيّ بنحيب  
مرتدة:

- يا خسارة شبابك وجمالك يا ابنتي.. ليتك متّ قبل أن تشاهدي  
ذلك اليوم.

اقترب منها الشاب الوسيم وأمسك بكفتيها وهو يسألها بهلع:

- ماذا حدث؟

أجابته بانجبار ودموعها تهمر كالطوفان:

- ادخل وانظر بنفسك.

تركها واقتحم الغرفة التي انتهت فيها الطبيب من نزع الشاش من علم  
وجه (آيات) التي ما زالت غارقة في غيبوبتها، ومن هول المشهد هو  
جسده رغماً عنه ليسقط على ركبتيه وهو يرتجف غير مصدق ما آثر  
عيناها.. فتلك الراقدة أمامه لم تعد تمت إلى (آيات) بأدنى صلة، بعد أن  
انمحت معالم وجهها تماماً، ولم تبقَ منها سوى عينيها.

انهمرت دموعه لأول مرة في حياته بهذه الكثرة، واقترب زاحفاً من سرير  
حبيبة الأمس، غير قادر على التحكم في عضلات قدميه اللتين شلّتهما  
الصدمة، لينكب عليها فور وصوله إليها وينهار في البكاء، وقد  
السيطرة على مشاعره وانفعالاته تماماً.

استسعت عيناها في هلع، وسألت بصوتٍ منقطع متكرر النيران:

- هل تشوّه وجهي؟

وضع يده على فمها ليمنعها من الكلام ثم احتضنها دافئاً وهدئ صدره حين تحولت كلماتها المبتورة إلى بكاءٍ شديد بينما قال بصوتٍ جمدت فيهما الدموع اللامعة:

- أقسم لك بأنك ستعودين كما كنت، حتى ولو كلفني ذلك كله.

\*\*\*

دخلت (آيات) السطح مرتديةً نقاباً يُخفي ما فعله بها القدر، لكن الشاب الوسيم التي أخذت بيدها واحتضنت كفها في رحمة ورفق كان سبباً كافياً حتى لا تكفر بجرعة الخير الباقية في أقدار الرب رغم كل عاقبته على مدار سنوات عمرها الماضي.

فور دخولهما السطح وقع بصرهما على غرفة (دميانة) المفتوحة، فسقطت (آيات) يدها من كفه واقتربت من باب الغرفة وهي تتنادي بنوتو:

- دميانة.. دميانة!

وتحوّل توترها إلى فرح حين وجدت الغرفة خاويةً على عروشها من انزاح الدولاب عن الحائط ومن خلفه كانت الخزانة السرية مفتوحة خالية الوفاض من أي شيء، لتتظر خلفها بارتياح وتقول للشاب:

- دميانة اختفت، ولا أثر لأي شيء في خزنتها.

وقبل أن يلفظ بحرف، صك سمعهما صوت خطوات أتت من خلفهما، فإذا بها (دميانة) التي حمل وجهها الحزن الشديد، فهتفت بها (آيات):

- أين كنت يا دميانة؟ وماذا حدث للخزانة؟

(دميانة) بندم:

نأسف يا ابنتي.. كنت أظن أنني لن أحتاج لأموالي فتبرعت بها الخامل للكنيسة، وخيأت شيكائك وأسطواناتك مع أبونا يوسف.. هبت له اليوم عسى أن أسترّد منه ما تبقى من أموال حتى يجري لك عملية تجميل، لكنه أخبرني أنها ذهبت بالفعل لمن يستحقونها من الفقراء والمحتاجين.

عليها الذي أخفى ملامحها، أطل اليأس والألم الذي لا حد له (آيات) وهي تقول بمرحٍ مصطنعٍ لم يخف الألم والانكسار:

الطرفة:

ولماذا كنت تعتقدين أن الحظ من الممكن أن يبتسم لأمثالي.. إنه فصل الختام هذه المرة ولا حيلة قادرة على تغيير نهايته المؤسفة.

(دميانة) كما لم تترك منذ زمن طويل نسيت فيه عيناها طعم الدمع، نظر الشاب الوسيم لفتاته قائلاً بحزم:

لا تقلقي يا حبيبتي.. فهناك خطوةٌ مؤجلةٌ حان وقت اتخاذها، وأعدك بعدها أن كل شيء سيتغير.

\*\*\*



هذه أكثر مرة أتذكر فيها زوجة أبي وما فعلته بي.. لو كانت أنصفت في تربيته ورتت الجميل إلى ذلك الرجل الطيب الذي انتشلنا من الفقر لما حدث ما حدث.. ربما كنت اليوم إنسانة صالحة تتبرع لفقراء الكنيسة مثلما فعلت دميانة.. لم أكن لأسقط في الخطيئة وأقلب بين الأسرة وأحضان الغرباء.

فلما الشاب:

ولم تكن لنلتقي.

فجسدها وهي تقول بذعر:

رباه.. مرحباً بكل ما عانيته إذن إن كان سيؤدي إلى وجهك الجميل.

سعت عيناه بالدموع رغماً عنه ورفع النقاب عن وجهها المدمر تماماً ليشاء عينها الجميلتين اللتين تفيضان بالجراح والبؤس، وتأملهما عذبات قبل أن يقول:

حان وقت الحساب يا آيات في ميراثك المسلوب ظلماً وزوراً.. سنسترد حقك وتسافرين للعلاج في ذلك المستشفى الألماني الشهير الذي حدثنا عنها الطبيب.

طارت له بخوف وقلق ثم قالت بنبرة صوت مترددة مليئة بالرهبة:

نفسى لكن خائفة.. لقد اصطدمت بها مرتين.. في الأولى دخلت الأحداث وسُرقت مني أجمل سنين عمري، وفي الثانية خسرت الإنسان الذي كنت سأزوجه.. هل تظن أننا سننجح هذه المرة؟

ملحها ابتسامة مطمئنة وأجابها بكلمات يتقاطر منها الإيمان والثقة:

لو آمنيت بذلك، فكل شيء مستحيل سيغدو ممكناً.

\*\*\*

في غرفتها تمددت (دميانة) على الأرض نائمة على بطنها وهي تنظر

غادرت (آيات) والشاب الوسيم منزل (دميانة) القديم واتجها يميناً إلى بجوار عربة كارو يجرها حمائر ثم اختفى أثرهما من الشارع..

وعلى يسار العقار في الوقت نفسه، تحركت سيارة فاخرة تسير ببطء حتى توقفت أمام باب المنزل وغادرها (ريمون) و(نصحي) والرجل ذو الأوس الزرقاوين الذي ما أن مر بجوار العربة الكارو حتى جن جنون العمل وأخذ يهز رأسه وينهق بشدة، قبل أن تحذو حذوه باقي الحمير المودعة في عربات الكارو المجاورة للمنزل، فيما دخل الثلاثة رجال في المنزل وصعدوا لأعلى.

وعلى باب حجرة (دميانة) هوت طرقات غليظة بشكل متواصل، فانتحلت لفتح الباب بملاح غاضبة وهي تقول:

- فلتهمد يا ابن الكلب الذي يقف على الباب!

وما أن انفتح الباب حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام أكثر رجل أذلة العذاب والهول على وجه الأرض حين كان يحتل جسدها..

انفضت وهي ترتد للخلف كمن سقطت عليها صاعقة من السماء، بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة لزجة وهو يتقدم نحوها قائلاً بشماعة وفراجمت الدم في عروقها:

- افتتدك جداً يا عزيزتي.

ومن خلف كتفيه اندفعت لكمة أودعها (نصحي) كل قوته، لتحل أنفها إلى كومة من اللحم المفري، ويحل بعدها الظلام وقد اسودت الدنيا تماماً.

\*\*\*

أسفل شجرة ورافة الأوراق، في حديقة عامة مليئة بالأشجار والورود، وقفت (آيات) مع الشاب وهي تتأمله بحب، وrehبة، وتوتر، في مزيج من المشاعر المتفاوتة التي يصعب اجتماعها في وقت واحد، وقد أخذ كل شعور منفصل فيهم يتنازع على احتلال ملاح ووجهها المخفي عن أعين البشر حين قالت من تحت نقابها:

من يعيش في شقاء يموت مرتاحاً، ومن يرتاح في معيشته يموت في شقاء.. لقد عشت عمري كله لا أؤمن بشيء، ويكفي أن أموت من أجل شيء آمنت به (ضحكت من جديد وتابعت) ليحكم جنتم مبكراً يا أولاد الكلب.

واصلت الضحك المجلجل بمزيد من الاستفزاز حتى ألقاها (نصحي) وأخرج مسدسه المزود بكامر الصوت، قبل أن يصيح فيها (ريمون):

إذن فما زلت مصممة ألا تخبرينا أين خبأوا الشيكات والأسطوانات. عليه بانسامةٍ وهي تنظر خلفه بنظرة رضا:

لقد حضر عزرائيل خلفك.. خلصنا بقى الرجل لسه وراه شغل!

ضحكت ضحكتها الأخيرة ليسحب (نصحي) أجزاء مسدسه ويصويه بها بعينين غاضبتين للغاية، في اللحظة التي انفتحت فيها باب الغرفة وموت (موريس) الذي يقول بمرح:

أرجو ألا أكون قد تأخرت على مولاتي.

وما أن شاهد ما يحدث حتى اتسعت عيناه في دهولٍ، وارتعدت فرائصه كما قالت له (دميانة):

دائماً تأتي في الوقت المناسب.

\*\*\*

للبلط المتسخ الذي امتلأ بخصلات شعرها بعد أن تم نزعها زوايا منتصف فروة رأسها، ليظهر جلد رأسها الأضلع، فيما أحاطتها الثلاثة رجال، قبل أن يقول (ريمون) بكل قسوة الدنيا:

- ألا تريد أن تتطقي بعد كل ما ذقته يا ابنة العاهرة؟.. ارب نفسك وأخبرينا أين الشيكات والأسطوانات.. لن نمل من تعذيبك حتى لو استمر ذلك على مدار عمرك كله.

رفعت رأسها ببطء شديد وقد تخضب بالدماء التي سالت من مواسم شتى وصبغت وجهها كاملاً باللون الأحمر، ورغم ذلك قالت ساخرة:

- عمر؟ صدق المثل القائل: "ما تخافش من الهيلة خاف خلفتها".. لم يعد في عمري ما أخشى على فقهه يا جحش.. كنت أعيش فقط لأنني كنت متمسكة بالدنيا وأريد ذلك، والآن أعد في حاجة لحياة فيها أمثالك.

قبض (نصحي) على عنقها بشدة وأجبرها على الوقوف قائلاً:

- وحياء أمك لو جاء عزرائيل نفسه، فلن يستطيع أن يأخذك منا.

نظرت لعينيها الغاضبتين ثم أخذت تضحك ببطء ازداد حتى تحول لضحكة ساخرة كبيرة، قبل أن تقول:

- لقد حضر بالفعل.. فلترتني كيف ستمنعه لو كنت رجلاً!

ثم واصلت الضحك باستفزاز حتى همّ (نصحي) بلكمها، إلا أن الرجل ذا العينين الزرقاوين استوقفه بإشارة من يده فظل (نصحي) ممسكاً بيها، بينما اقترب الرجل من خلف أذنيها وقال بلهجة ثعلبية بطيئة:

- فلتستقبليه وأنب مرتاحة إذن.. فمن يشقى طوال عمره يتمنى على الأقل أن يرتاح وهو يموت.

ضابت حذقتها وهي تلتفت نحوه بنظرة ثعلبية مماثلة قائلة:

(إيرني) قبل أن تلمس يده خد (آيات)، لترفعه عن الأرض وتحبس عنه  
الأسجين، وحين قربه الشاب الوسيم منه وهو معلق في الهواء، أخذ  
وجهه بنظرات نارية خللت من أي رحمة أو شفقة، فيما أخذ ابن زوجة  
الأم يركل الفراغ بقدميه وقد انتفضت عروق وجهه الذي امتنع وتحول  
إلى اللون الأزرق، في حين صرخت (إيرني) برعب:

أمييييييير!

ثم هدأت يدها إلى زُر في مكتبها وضغطت عليه بسرعة، قبل أن تجري  
ابنها برعب ولوعة لتتعلق بذراع الشاب الوسيم في محاولة يائسة  
لإزالته، في الوقت الذي قال فيه الشاب لابنها بلهجة تجمد الدم في  
العروق:

ما رأيك الآن في الشاب الطري الذي تعرّف عليها من الشارع  
وقد علقك مثل الذبيحة!

حاولت (إيرني) تخلص ابنها الذي حاكى وجهه وجوه الموتى بلا جدوى  
وهي تصرخ في الشاب:

انزله يا حيوان.. أقسم أنك ستموت.

فجأة، انفتح باب المكتب ودخل منه 4 من ضباط الأمن ضخام الجثة،  
لإغلاق الباب خلفهم في اللحظة التي صاحبت فيهم (إيرني) بلهجة أمرة:

أقتلوه!

درك الشاب الوسيم ابنها يسقط أرضاً وهو يحاول أن يبذل أكبر كم من  
الهواء من فمه الذي انفتح على آخره وقد جحظت عيناه، في اللحظة التي  
أخرج فيها ضباط الأمن مسدساتهم وصوبوها نحو الشاب قبل أن تقف  
(آيات) أمام مسدساتهم وهي تفرد ذراعها لتحمي بجسدها جسد حبيبها،  
لكنه أزاحها وهو يقول لهم بصرامة شديدة:

ليست هناك عداوة بيني وبينكم.. لا تجبروني على الفتك بكم!

إلا أن (إيرني) صاحبت فيهم:

هبت (إيرني) زوجة والد (آيات) في مكتبها الفخم الواسع، ذي الأثاث  
الفاخر للغاية، وقد ارتدت ملابس أنيقة على أحدث صيحات الموضة،  
لكنها لا تناسب سنها، وتحفزت ملامح ابنها (أمير) ذي الجثة الضعيفة  
الذي يقف على يسارها، لتضرب سطح مكتبها وهي تصرخ في (آيات):

- أنت مرة أخرى؟ ألم تتعلمي من كل ما حدث لك؟

نزعت (آيات) النقاب عن وجهها لتظهر من تحته ملامحها المشوهة  
فشهقت (إيرني) دون أن تقصد حتى وضعت يدها على فمها، قبل أن  
تقول الأولى باكياً:

- هذا ما حدث لي بعد كل ما قاسيته على يدك أيها الجبارة، ولم  
يعد لديّ ما أخسره.. أعطيني حقّي الذي سلبته حتى أعالِم  
وجهي، وسأسمحك على كل ما فعلته معي طوال السنين  
الماضية.. صدقيني لن تجدي عرضاً أفضل من هذا قبل أن  
نقف جميعاً أمام الرب في يوم الحساب.. فكل من ماتوا كانوا  
يعتقدون أنهم سيعيشون إلى الغد.

همت (إيرني) بالكلام لكن (أمير) ابنها استوقفها بإشارة من يده قبل أن  
يتابع بلهجة تفيض بالشر وهو يقترب من (آيات):

- في المرة الماضية كان قلبي رحيماً بك واكتفيت بقطع عيشك من  
مكتب الجرافيك فقط.. وإذا كان أحد فينا سيقدم عرضاً للآخر  
اليوم، فأنا الذي يعرض عليك أنت وهذا الشاب الطري أن تأخذا  
بعضكما وتنصرفا في سلام لتستكما قصة حبكما في الشارع  
الذي أنتمما منه، والا قسماً برحمة شرفك فسيكون مصيرك  
السجن المؤبد هذه المرة.

ثم مدّ يده نحو خدها متابِعاً وقد ضاقت حدقاته ليصبح مثل الشياطين:

- ماشي يا حلوة؟

لكن يد الشاب الوسيم كان لها رأي آخر، إذ امتدت لتقبض على عنق

الشاب الذي نهض من سقطة مصدوماً، لا يفهم ما يحدث، ليأخذ سيقاً من سياره ثم ينفضه في وجهه قائلاً في برود:

دورك انتهى إلى هذا الحد.. الحياة ليست دائمة المكسب حتى لأمثالك.

الشاب الوسيم إلى وجهه في محاولة يائسة لتبيان هويته متسائلاً: من أنت؟

اللب في عيني الرجل وهو يُجيب بمقت:

كنت أتمنى أن تكون ذاكرتك حاضرة لأذكرك بذلك القسم القديم الذي افترقنا عليه بالأمس وأنا أسقيك من كأس الهزيمة اليوم.

«كنت في ذاكرته ومضات من سنواتٍ سحيقة جاوزت الألفي سنة، دبت في السماء معركة (الرق المنشور).»

المخلوقات النارية أخذت تقذف حممها وتخلق حول نفسها جحيماً مستعزاً يحول بينها وبين الملائكة، وجنود السماء يرسلون موجبات من البرق والعواصف، وتخفق أجنحتهم بشدة لإطفاء جحيم الأرواح الجسة، قيل أن تهبط من السماء السابعة ملائكة تحمل قذائف من هبهم انطلقت معها صيحات وصرخات المخلوقات النارية، ليبدأوا في التفجير والتراجع ناكسين على أعقابهم باحثين عن خروج آمن من المعركة، لتنفذ الملائكة على قلوب الهاريين وتقبض عليهم في الوقت الذي فر فيه البعض عبر دروب الكون ليختبئوا في الكواكب والنجوم..

ووسط كل ذلك انطلق ملاك الرب النوراني نحو أحد الأرواح النارية الهائلة دون أن يدري أن هذا المخلوق لم يكن سوى ابن القائد الذي أذهه والده لانتحال دور الإله حين تتجج الخطأ!

وبسرعة فاقت سرعة الضوء فر ابن القائد مارقاً بين الكواكب والنجوم، وخلفه ملاك الرب النوراني الوسيم، الذي فرد أجنحته وهم أن يطبقها عليه، لكن ابن القائد قُلت في اللحظة الأخيرة ليخترق الغلاف الجوي للأرض وخلفه جندي الرب لتتقارب المسافة بينهما، وحين شارفت أن تدوب فوجئ ملاك الرب بصوت فحيح يأتيه من خلفه فالتفت نحوه

جميعهم سحبوا أجزاء مسدساتهم، وقيل أن يصوبوها نحو الشاب الذي قبض يده وانثنى بسرعة شديدة ليملك الأرض لكمة حملت قوة السحب وجبروت الملائكة، فاهتز الميني بأكمله، وتشققت الأرض لتمتد الشوا نحو رجال الأمن ليمسقطوا جميعاً ويفلتوا مسدساتهم في رعب وهم يتكسرون في أماكنهم كتماثيل نحت الهلع والفزع بصماته على وجوهها، وأمامهم (إيريني) و (آيات).

انتصب الشاب بقامته قائلاً لـ (إيريني) التي اتسعت عيناها غير مصدقة ما تراه وأخذت ترتعش وهي ساقطة على الأرض كخضف صغير في ليلة شاتية:

- أمامك أسبوع حتى تراجعني فيه أوراقك وحساباتك.. بعد انتهاء المهلة لن يكون هناك كلام آخر يقال.. فقط أفعال لا تخسر على بالك في أبشع كوابيسك، وما حدث كان مجرد عينة.

ثم مدّ الشاب يده إلى (آيات) التي ما زالت ساقطة على الأرض، وعاورها على النهوض بينما ما زال الباقر يتطلعون إلى الأرض المشققة، مصدقين ما حدث أمام أعينهم.

وما أن تقدم (الشاب) و (آيات) نحو باب المكتب وهما بالانصراف حتى انفتح الباب فجأة ليطل منه الرجل ذو العينين الزرقاوين ليملك الشاب الوسيم في وجهه بقوة شديدة دفعته ثلاثة أمتار للخلف قبل أن يسقط ويحتك بالأرض في عنف، ثم اقتحم (ريمون) و (نصحي) المكتب من النافذة وقد أتيا من السطح، وكل منهما يحمل مسدساً مزوداً بكاميرا للصوت، وفي لمح البصر جذب (ريمون) (آيات) إليه ووضع مسدسه على رقبته، بينما أغلق الرجل ذو البذلة الرمادية الغربية باب المكتب بإحكام شديد بعد أن ألقى نظرة ساخرة على جثة السكرتيرة في الخارج هي والساعي.

وحين النقط ضباط الأمن الأربعة مسدساتهم داخل المكتب وحاولوا السيطرة على الوضع، تعامل معهم (نصحي) وريمون بدفعة سخية من اللطائف لتسبح جثتهم خلال ثوانٍ في بحيرة صغيرة من الدم، بينما دس الرجل المريب سيجاراً بين شفتيه وأشعله وهو يتقدم بخطوات بطيئة وثقة



بسرعة البرق، وإذا بالقائد نفسه ينقض عليه لإنقاذ ابنه، فاستقبله جندي السماء وأخاطبه بأجنته ثم توجه جسده بنور ساطع، أجبر قائد الأرواح النجسة على إطلاق أعنى موجات الألم ليستسلم ويقع في الأسر، وحين عاد الملاك النوراني الوسيم ينظر حيث ترك ابنه، كان قد اختفى تماماً تاركاً خلفه رسالة مكتوبة على الأرض بالنيران، وبلغت لا تمت إلى اللغات البشرية بصلة على الإطلاق جاء فيها:

- في يوم مثل هذا، سنلتقي مجدداً يا ابن النور.. لكنك ستكون الطرف المهزوم الخاضع لسلطاني لتدرك أن النار لا يمحى هزيمتها أبداً.

عاد الرجل ذو العينين الزرقاوين من ذاكرته وقال للشاب بلهجة تعجب بالشر والغل:

- هل ستغفد أمري أم ستتسبب في إراقة المزيد من الدماء؟  
عقد الشاب حاجبيه متسائلاً:

- أي أمر؟

ضاعت عينا الرجل وهو يقول بلهجة قاسية:

- اركع!

اتسعت عينا الشاب ثم تحولت دهشته إلى زمجرة رهيبة فاقت زئير الأسود وهو يغوص في عيني الرجل المريب الذي ألقى سيجاره ثم نظر ل (نصحي) نظرة ذات مغزى، فوجه الأخير مسدسه نحو (إيريني) وابنها في اللحظة التي صرخت فيها (آيات):

- لا.. لا تقتلها!

لكن صرختها تبددت في الهواء حين سبق السيف العذل وفتح (نصحي) نيران مسدسه لتخترق جسد (أمير) الذي احتضن أمه وحاول أن يفرها فاخترقت الطلقات جسده ونفذت منه إليها وسبح كلاهما في دمانه، لتصرخ (آيات) في فرح، بينما أشار الرجل المريب لجثث الجميع المتكومة وقال للشاب:

دماؤهم في رقبتيك.. تماماً مثلما ستتحمل دم تلك المسكينة التي زادها وجودك بؤساً على بؤس حين أنهى عمرها الآن.

المسكينة الشاب الوسيم وهو ينظر ل (آيات) نظرة عجز، وقال بصوت شجاع وشبح فقد حبيبته يتراقص أمام عينيها:

الأعمار بيد الله وحده.

هرب منه الرجل المريب وتلاقت عيناها قائلاً يتحد:

ولو أخذها منك فلن يُعيدها إليك مرةً أخرى (ضاقَت حدقتاه وصرخ صرخةً هادرة) اركع!

مشى الشاب إلى (آيات) في قلقٍ وارتجاع، ورأى دموعها الساخنة تنزل حرارةً وهي تهز رأسها ببطء، وكأنها تطلب منه ألا يفعل، ثم نظر مجدداً لرجل المريب في حيرة، فصاح الأخير:

ريمون.

مع صيحته بدأت سبابه (ريمون) يسحب زناد مسدسه ببطء لتغصم (آيات) عينيها في رعب، وتدفن رأسها بين كتفيها وهي تتوقع خروج الملاقة في أي لحظة، فأشار الشاب فجأة للرجل المريب مقاطعاً:

- انتظر!

ثم نظر للأرض بخزي، وانحنى في طريقه للركوع، قبل أن تلمع عيناها فجأة وينثني ليلكم الأرض بقوة شديدة لتتهز الأرض وتتشقق من جديد، بينما يسقط الجميع أرضاً، في الوقت الذي تحرك فيه الشاب في لمح البصر نحو (ريمون) الساقط أرضاً ليترك من يده المسدس، ثم انقض على (نصحي) وركل سلاحه بالمثل، لكنه فجأة سمع ضحكة الرجل الساخر الذي يقف على باب النافذة ممسكاً ب (آيات) من رقبته، وما أن نظر له الشاب بعينين متسعيتين يطل منهما الهلع حتى قال بسخرية صريحة:

- تأخرت كثيراً.. لو كنت تحبها فلنذهب خلفها!

ثم ترك (آيات) لتسقط من ارتفاع شاهق.

\*\*\*

ما أن دخل حتى هرع نحوه المزيد من أفراد الأمن والموظفين ليكيل  
الضربات والركلات في قوة وقسوة شديدة تردد مع كل واحدة منها صوت  
السطح العظام، في حين غادرت الموظفات الشركة في فوضى وصراخ

عظيم.

في زحام المتشاجرين معه ونجحوا في صنع دائرة حوله جعلوه في  
مركزها، وحاول البعض التعلق في رقبته من الخلف غير مصدقين  
هذا واحداً قادراً على هزيمتهم أجمعين، وداخل كل منهم أمل بأنه  
يخسني عليه، فطفح به الكيل وضاعف قوة ضرباته قبل أن يفرز من  
رجال الأمن مسدسه ويبدأ في ضرب النار بشكل عشوائي في غمرة  
العمال الذي لم يبق منه إلا بعد سقوط أول قتيل، وعندها فقط توقف عن  
العمال غير مُصدق أنه قتل، وتوقفوا عن قتاله غير مصدقين إمكانياته  
وإراته الخارقة، ففروا من حوله، بينما صعد بدوره الأدوار العليا في  
المرجعة إلى مكتب (إيريني) حتى وصل إليه واقتحمه في عنف بركلة وحيدة  
مسلته تحطيمًا، ليجد جثث ضباط الأمن و(إيريني) وابنها غارقة في  
دمائهم، بينما لا وجود لـ (آيات) و(ريمون) و(نصحي) والرجل المريب،  
الصرخ بغضب هادر وهو يدور حول نفسه:

آيات.. آيات.....

بعد مرور دقائق من الصدمة والوجوم، كان الشاب يهبط سالماً الشركة  
مُسكاً الرأس، حاملاً على كتفيه عار فقد أغلى إنسانه على قلبه في  
الوجود، وعار دماء سالت على يديه، ليغادر المكان الذي خلا من البشر  
وأي أثر لحياة كانت تدب فيه منذ قليل، باستثناء بعض أجساد رجال  
الأمن والموظفين الذين فقدوا وعيهم وأصابتهم إصابات متعددة في الوجوه  
والأجساد، وجثة ذلك القاتل الذي سقط بطريفة غير مقصودة، ليتأملهم  
الشباب بحزن وحسرة، قبل أن ينظر ليدنيه غير مصدق أنهم ارتكبوا ما  
ارتكبوا في حق موظفين بسطاء لا ذنب لهم، ثم غادر الشركة بعينين  
دامعتين، غير عابئ بصوت سارينة سيارات الشرطة التي أخذت تقترب  
وتقترب.

\*\*\*

ما أن سقطت (آيات) من النافذة وبدأت في إطلاق صرخات المر  
والخطب في الهواء، حتى قفز الشاب خلفها مخترقاً النافذة، ليمسك  
من يدها ويجذبها بقوة للداخل بينما اندفع جسده للخارج ليواجه المد  
بدلاً منها، في مشهد لو كان مخزج سينمائي يريد إخراجها، لما وجدنا  
تصوراً أفضل من حركة بطيئة الإيقاع ترصد سقوط الشاب من أعلى  
وهو مخمض العينين، تتطاير خصلات شعره للخلف، بينما في الأعلى  
تنظر له (آيات) نظرة لمناعة وهي تنجّه للداخل قبل أن تدخل من النافذة  
وتختفي.

وما أن دخلت بفعل دفعة الشاب القوية، حتى سقطت أرضاً على رأسها  
لتحتك برخام الأرضية في عنف وتنفذ الوعي، فحملها الرجل المريب  
واتجه بها نحو النافذة متجاهلاً أصوات الطرق الشديدة على باب المكتب  
من الخارج بعد أن انتبه العاملون بالشركة أن ثمة أمراً مريباً يحدث،  
وصاح في (ريمون) و(نصحي) بلهجة أمرة:

- اتبعاني للسطح من هنا!

ثم غادر المكتب من النافذة وتبعه كلاهما حتى اختفوا جميعاً.

وخارج الشركة سقط الشاب فوق إحدى السيارات التي تحطمت تماماً  
بفعل سقوطه عليها، والتف الناس حوله في تزاخم شديد غير مصدقين  
نجاته بعد السقوط من هذا الارتفاع الشاهق، قبل أن يغادر الشركة 3 من  
ضباط الأمن متجهين نحوه وهم يصوبون مسدساتهم نحوه ليقول أحدهم:

- كف مكانك!

اختلط صوت رجل الأمن بههمة وجلبة الناس المحتشدة، بينما نهض  
الشاب وقفز من فوق السيارة نحو رجال الأمن الثلاثة في سرعة خاطفة  
ليركل أقرب مسدس إليه ثم يدفع صاحبه نحو الاثنين الباقيين بقوة  
هائلة أطارت بأجسادهم لمسافة 10 أمتار، قبل أن يخترق الشاب الشركة  
ويدخلها من جديد بغضب هادر لم تخلُ بعد الكلمات القادرة على وصفه.

والأربها من عينيها حتى ترى وجهها فيها قائلاً:

انظري إلى وجهك الدميم الذي لم يعد قادراً على جذب أنظار  
كلب مخلصي يصبق عليه البشر، وأخبريني بما نفكك الإيمان  
والأذهاب للكنيسة؟

ألم شديد حين رأت وجهها لأول مرة، قبل أن تخمض عينيها في  
ألم تسلك دموعها من بين جفونها المغلقة، فأشعل قداحتة وصاح  
بها وهو يقرب النار من عينيها بغضب هادر:

افتحي عينيك!

سهرت في ألم وهي تفتح عينيها بخوف شديد، قبل أن يأخذ الرجل  
السب نفساً من سيجاره قائلاً ببرود الذي نافس القطب الشمالي:

لا تقلق.. ستخبرك بكل شيء.. فمن غير المعقول بعدما مات  
بطلها الأحق، وتورطت في قضية قتل زوجة أبيها وابنها  
ودميانة وموريس أن تفكر ولو مجرد تفكير في الخروج عن  
طاعتك.

استعت عيناها وهزت رأسها في استنكار وهي تكي بلوعة وألم الكون  
كله:

لأ.. لأ.

ثم تقدم الرجل نحو (ريمون) وأردف:

كن على استعداد حتى أعود لك.

سأله (ريمون):

إلى أين ستذهب؟

شرد الرجل ببصره وتابع بغموض مليء بالشر:

مشوار مؤجل منذ آلاف السنين.

وصل الشاب إلى شارع (سعد زغلول) حيث منزل (دميانة) العليل  
وهناك تسارعت دقات قلبه وهاله المنظر حين رأى سيارة الشرطة  
أمام العقار وقد غادرها العقيد (بحي) الذي يتابع الموقف لحظة بلحظة  
والى جواره سيارة إسعاف حولها زحام كثيف من البشر الذين يبذلون  
الأمن مجهوداً مضنياً في إبعادهم، قبل أن ينقبض قلبه ويبرز رأسه في  
استنكار وهو يكذب عينية حين أطل من مدخل المنزل نقلتان محمولتان  
من رجال الإسعاف، وتحمل كل نقالة فيها جسد مغطى بملاء بيضاء  
عليها بقعة كبيرة من الدم، ليضرب بعض أهل المنطقة كفا يكف حين  
وضع رجال الإسعاف جثتي (دميانة) و(موريس) في السيارة، ثم أعلما  
بابها الخلفي لتغادر السيارة المكان، في حين سقطت دموع الشاب في  
الحرارة والهوان وهو يبتعد عن المكان حتى لا يلاحظ وجوده رجال الشرطة

\*\*\*

داخل بدروم الملهي الليلي تم تقيد (آيات) من يديها وقدميها في خشب  
بين كرسيين بحيث يتدلى رأسها للأسفل..

من زواية مقبوبة رأت كلاً من الرجل المريب و(نصحي) و(ريمون) الذي  
نظر لها بمغفٍ وشماتة شديدة قائلاً:

ترى ما الذي ستفعله أم وجه مسلوخ بعد وفاة السيد سويرمان؟

صرخت باكية:

لأ، لأ.. أنت تكذب علي.

قبض على شعرها ورفع رأسها نحوه بقسوة قائلاً:

هل تستطيعين أن تخبريني أين هو الآن إذن؟ لماذا لم يأت  
لننقذك في اللحظة الأخيرة مثلما كان يفعل..؟ لقد انتهى أمرك  
أيها العاهرة وأصبحت بمفردك مجدداً، ولن تنقذك قوة في الكون  
من قبضة يدي لو بقيت على عنادك.

ثم أخرج قداحتة الفضية ذات اللمعة العاكسة للأشياء وكأنها مرآة

فغر (ريمون) فاهه مثل طفل يتلقى التطعيم بالتطيق في الفم، وهو ما سمعه بأذنيه، بينما تركه الرجل وغادر المكان.

\*\*\*

لم يدر الشاب كم مرَّ عليه من وقت وهو على هذه الحالة من الحزن والحزن وقلة الحيلة، بعد أن غلقت في وجهه كل الأبواب، حتى الباب الذي كان ملاذه الأخير لم يجده في منزله بمنطقة (بشير) ليسير بعدها مرتدياً بذلته الرائعة على غير هدى حتى وجد نفسه في شارع (خليل حمادة) بحي (سیدی بشر)، بين كنيسة (القديسين) ومقرس الرسول والبابا بطرس خاتم الشهداء التي كانت على يساره ومسجد (شرق المدينة) الذي كان على يمينه، في وقت متأخر من الليل خلا فيه الشارع من البشر والدواب، لا سيما مع هطول المطر الشديد الذي رافقه سطوع البرق وهزيم الرعد بفعل النوة.

نظر إلى السماء بحزن وقد تلالأت عيناه بالدموع التي اختلطت بها السيول، ثم قال بخجلٍ وضعف:

كما تستأق الإبل إلى جداول المياه، هكذا تستأق نفسي إليك يا الله.. (يكي لثوانٍ ثم واصل) يا رب.. لا أعرف ماذا أقول.

"لا تقل له شيئاً لأنه غير موجود"

ترددت كلمات الرجل ذي العينين الزرقاوين من خلف الشاب، فالتفت الأخير نحو الأول بغضب هادر ليجده بنفس هينته وملامحه الساخرة، وقد ابتل شعره الذي تتساقط منه قطرات الماء، ليتقدم نحو الشاب بقلبه متابعاً:

هل صدقت أنه موجود حقاً لتدعو؟ أفق يا عزيزي إنه كذبة خلقناها؟

بُهِت الشاب من الكلمة، ومن طريقة كلام الرجل الذي يتحدث بصميمة شديدة وكأنهما اصداق منذ زمن فتساءل بدهشة عارمة:

— خلقناها؟

— بكل تأكيد.. فانا وأنت لسنا من هذا العالم البائس الذي نلهو به كيفما

منذ ملايين السنين بتوقيات الأرض، كان هذا الكوكب أرضاً خربة، ثم عليها أجدادنا أصحاب الحضارة المتطورة في كوكب ينتمي لمجرة أخرى خلف غياهب هذا الكون السحيق.. عندها قرروا أن يجعلوا من هذا الكوكب معمل اختبار لخلق حياة موازية داخل مخلوقات كثيرة ثم اختيار أشكالها وتصنيفها بغاية شديدة في معاملتنا.."

أبى الشاب في عيني الرجل أنواراً تهبط من الأعالي ثم تخرج منها أطباق دائرية هائلة الضخامة، تقترب من أرض الكوكب الصخرية وتخرج منها بانصورات والأسود والنمور وغيرها من المخلوقات التي أخذت تجري في كل مكان، حيث بدت في الأفق أنهار وأشجار وجبال وكهوف، أمامه كل مخلوق إلى البيئة التي تناسبه، فيما تواصل صوت الرجل في المكى.

"وبعد فترة من الزمن تم الاستقرار على أن هذه المخلوقات في حاجة إلى مخلوقٍ جديد بمواصفات أعلى تجعله على قمة هرم الأحياء التي يمرح في هذا الكوكب، فصنعنا آدم، ووضعناه في حديقة غناء كبيرة حتى يعيش فيها بعيداً عن المخلوقات الشرسة، لكنه ظل بائساً وحيداً فتم الانتباه إلى ضرورة خلق مخلوق آخر يُؤنس وحشته، ويُساعده

539

538



الحمل المياه مركبين ضخمتين تفصلهما مسافة جغرافية شاسعة،  
الكل كل منهما بشر ومخلوقات، والرجل يستعطر:

وقب ما تعقدت اللعبة ووصلت إلى طريق مسدود، فقررنا إغلاقها  
بها من جديد، فكان الطوفان العظيم الذي تلاعبنا من بعده يعقول  
حتى تنوه الحقيقة.. فريقي كتب السيناريو للغة الناجية التي  
سبناها من الحضارة السومرية حين خاطبنا أوتاباشيتيم ملك مدينه  
شوريك في إحدى الليالي وأخبرناه أن مجمع الآلهة اتخذ بتحريض  
إله العاصفة إنليل قرارا بإفناء الحياة على الأرض، ولكن قبل  
أن ينفذ بتنفيذ خطتهم قام الآلهة إيا بنقل الخبر إلى أوتاباشيتيم ملك  
شوريك وكلمه من وراء جدار، وأمره أن يبني سفينة عملاقة  
بمخطط خاص شرجه له، وأمره أن يحمل إليها كل ما يملك من  
فضة، وأهله وأقاربه، ونخبة من أصحاب الصناعة والحرف  
والمهنيين بها عند اندياح الطوفان، وتم تخليد ذلك باللغة السومرية في  
علمة جلجامش على الواح من الفخار، بينما كنت أنت ورفاقك من  
الذين نفذوا مخطط نوح الذي انتخبه علماؤكم ليكون نبيا..

أما الشاب الوسيم كيف كانت الأطباق الطائرة تزاور الأرض، وتخرج  
العلمة ترسم على صفحة السماء صور مخلوقات أشبه بالبشر فيجري  
بعض ويسقط البعض الآخر مغشيا عليه، بينما يثبت نوع ثالث من  
الأرض ليتحدث مع مخلوقات السماء بينما الرجل يردد:

"ولدت أزمانهم تتتابع وكل منا يسير في مخططة، ليدون نتائج التجارب  
والاختبارات التي يعمرون بها عندما يشاهدون سفننا ومخلوقاتنا.. فقبل  
أكثر من 3000 عام بتاريخ زمانهم، أمر فرعونهم تحتمس الثالث  
بوتوثيق تلك الواقعة الشهيرة في بردياتهم، حين شاهد كتبة البيت  
المقدس وجيوش الفرعون العظيم دوائر من النار تحوم في السماء،  
ثم نزل منها أناس تخرج من أنفاسهم ألوان عديدة، وقد ذهب الشعب  
لإخبار الفرعون فأمر بكتابة ما حصل على أوراق البردي.. وفي أسفار  
الكتاب المقدس قال حزقيال النبي حين رأى مخلوقاتنا: "انفتحت  
السموات فتزلت علي رؤيا من الله.. كان ذلك في السنة الخامسة من  
سبني الملك يوياكين.. وهناك في أرض البابليين، على نهر خابور،  
كلمني الرب، أنا حزقيال بن بوزي الكاهن، وكانت يده علي.. فنظرت  
إلى فوق، فرأيت عاصفة مقبلة من الشمال، وبرقا ينفجر من سحابة

على النمو والتكاثر، ومن هنا جاءت حواء، لكن جرعة الفهم  
غرسناها داخل هذا النوع المتطور من المخلوقات كانت تنمو  
مثير فاق التوقعات، فكان لا بد من خلق فزاعة تحجج قدراته وإمكاناته  
وفي الوقت نفسه تقيس مدى طاعته للأوامر التي ترد إليه، فكان  
الشیطان هو هذه الفزاعة، وشجرة المعرفة هي معيار قياس  
الطاعة، وبدانا نخاطبهم من على بُعد بصوت عميق أخبرهم أنه الآلهة

رأى الشاب الوسيم في عيني الرجل (آدم) و (حواء) وهما يغادران الحديقة  
الضخمة، ويسيران هائمين في الأرض لتطاردهم بعض المخلوقات  
الشرسة فيختبان منها، وكلمات الرجل تقول:

"ومن جديد بهرتنا قدرات آدم وحواء ونسلهما في التعايش مع البيئة  
الجديدة، بعد تمثيلية طردهما من الجنة إذ كنا نحن المتحكمين في  
إرادته حين أكل من الشجرة المحرمة، لكن ظلت المشكلة التي نراها  
بفضل التجربة أن ذكاهم كان يقترب من كشف اللعبة، وإفساد مخطط  
التجربة، وكان الحل الوحيد هو تشتيت انتباههم بلعبة تعدد الآلهة  
وخلق الصراعات بينهم، وبالفعل نجحت اللعبة بشكل مؤقت وسالت  
السماء وانتشر الخراب ونشطت الدراسات والتقارير في معاملنا، حتى  
تمرد بعض علمائنا على ما يحدث وقررنا الانفصال، وفي الخفاء صنعنا  
خطة عكسية تعتمد على اختطاف نماذج من البشر وتعرضهم لتجارب  
روحية يخبرونهم بعدها أنهم أنبياء اصطفاهم الخالق لهداية البشر  
وتفديت تعاليمه، ونشأت الصراعات في كوكبنا بين قوتين عظميين، قوة  
تقوم تجاربها على الفن والصراعات والشر تعميق الدراسات والتجارب،  
وكنتم أنا أحد جنودها، وقوة أخرى تقوم على الهداية والخير والسلام  
لدراسة التأثيرات الروحية، وكنتم أنت أحد جنودها، ثم تم عقد اتفاق  
بين القوتين أن يتلعبا ضد بعضهما من خلال البشر، دون أن يتحول  
صراعنا في التجارب إلى صراعات شخصية فيما بيننا على كوكبنا،  
ووقعنا على هذه الاتفاقية حتى تمتد لشهور.. فتمتة فارق زمني هائل  
بين مقياس زماننا ومقياس زمانهم، حتى إن يوما واحدا لدينا يُعادل  
نصف قرن من زمانهم، لذا فكل رحلة الإنسانية لا تتعدى في زماننا  
مجرد شهور.."

انفتحت أبواب السماء المعروضة في عيني الرجل أمام الشاب الوسيم،  
وانهمرت منها سيول الأمطار، فيما تشققت الأرض وتدفقت منها شلالات

عظيمة محاطة بهالة من الضوء، وفي البرق كان ما يشبه النار  
اللامع.. وفي وسط العاصفة تراءى لي شيء كأنه أربعة كانتات  
تشبه البشر.. صنعت لهم بدوري الأساطير والآلهة والفراغات  
تحكمت في مجتمعاتهم من مكان لمكان، ومن عصر لعصر، في  
أفرتهم بحكايات التناين العظيمة فانتشرت تلك الحكاوى في العالم  
المقدس، وفي الديانة الفيدية، وفي عقيدة الفيداس، وفي أساطير  
التناين اليابانية التي اندمجت مع القصص المستوردة من الصين  
وكوريا والهند.. ثم أشعت فكرة الأرواح الشريرة التي تتلبس الجوارح  
والبشر فانتشرت بين الأصلاء من الإفرقيين والأمريكيين والأوروبيين  
والأستراليين والهنود على حد سواء في شتى الأقاليم، وعاش الإنسان  
البدايى رهيناً بمشينة الأرواح.. ثم خلقت فكرة الشر والحروب بين  
الحضارات الكبرى، فجاءت في الحضارة الفرعونية، وشيخاً وزوجاً  
كالي في الحضارة الهندية، وفي الحضارة اليابانية ربة الأرض تيامات  
التي استعانت بالطوافين على حكم أقطارها وخلقت من جوفها الحيات  
والحياتن لتوطيد سلطانها، وفي الفارسية أهريمان.. حتى حين فرام  
بدوركم خلق مسار روحاني وأصطفيتم الأنبياء ورأسلتموهم في صورة  
وحي وروى، كان لا بد من إقحام الفزاعة فانتحلت شخصيات إبليس  
وعزازيل وسطنائيل وبعليزول، وانتحلت أنت وفريق شخصيات ملائكة  
أطلقت عليها جبرائيل، وميكائيل، وغبرهم من الهيئات التي اتخذتموها  
وأنتم تراسلون المصطفين في بلاد الشرق التي أنجبت الأنبياء، أما  
العللانية الغربية التي بهركم نضجها وعبقريتها في روما وأثينا وغيرها  
من بلاد الغرب، فقد أنجبت فلاسفة أغنوكم عن تكرار سيناريو الأنبياء  
معهم“.

اختفت صورة الأطباق الطائرة والمخلوقات الفضائية من عيني الرجل،  
وظهرت حدائق غطاء تجري من تحتها الأنهار، وتحيطها نخل باسقات  
لها طلع نضيد، وأشجار تتدلى منها فواكه لا مثيل لها على الأرض،  
وتتوسطها قصور من الذهب والفضة تطل منها حور عين لا مثيل  
في جمالهن بين كل النساء، ويطوف حولها ولدان مخلصون مثل اللؤلؤ  
المنثور، وفي سماء تلك الحدائق كانت هناك أطراف تشبه أجساد البشر  
لكنها كانت روحانية، ليشعر الشاب الوسيم أن هناك فاراً بين أطراف  
البشر التي في السماء وبين سكان الحدائق الغناء، في الوقت الذي قال  
فيه الرجل:

ولأننا أمددنا هذه الأرض بمخلوقاتنا من السماء، لم يتوقف نسل  
من يوماً عن محاولة بلوغ الأعالي.. حاولوا ذلك حين شرعوا في بناء  
المرح الشاهق قبللنا السنتم بلغات عديدة حتى يقشل تواصلهم  
في أرض بابل، لكنهم لم يياسوا.. صنعوا من الريش أجنحة وقفزوا  
بها من فوق الجبال.. ثم صنعوا طائرات تطير بإمكانيات ظلت تتقدم  
مع الوقت، إلى أن غزوا الفضاء بسفن وصواريخ وصاروا قريبين  
من أكثر من اللازم، ثم انتبهت فنة بالغة الذكاء منهم إلى لعبتنا  
وأوتوا العقيدة الرانيلية في فرنسا، وقالوا إن البشر خلقوا من قبل  
فائنات فضائية متقدمة علمياً وحضارياً، قدموا من كوكب آخر وخلقوهم  
بواسطة علم الجينات والهندسة الوراثية وسمى الرانيليون سكان كوكبنا  
بالأوليم، ومن يومها زاد الانشقاق بين فريقتي الطعام في كوكبنا..  
الفريق الذي أتبعه أرسلتي في مهمة استكشاف أعيش بموجبه كواحد  
منهم، لأراقب مدى تقبل مجتمعات الشرق الأوسط لهذه الفكرة وهل  
اقتربت معدلات ذكائهم من العقيدة الرانيلية أم لا، والفريق الذي تتبعه  
أنت فكر في صياغة دين جديد يجمع بين الثلاثة أدیان حتى يجذب  
الانتباه بعيداً عن كوكبنا وحقيقتنا، ومما ذاكرتك وأرسلك لتعيش بينتي  
وتجرب محنة الانتقال بين الأدیان في سيناريو محكم بقودك لذلك، حتى

اختفت صورة الأطباق الطائرة والمخلوقات الفضائية من عيني الرجل،  
وظهرت حدائق غطاء تجري من تحتها الأنهار، وتحيطها نخل باسقات  
لها طلع نضيد، وأشجار تتدلى منها فواكه لا مثيل لها على الأرض،  
وتتوسطها قصور من الذهب والفضة تطل منها حور عين لا مثيل  
في جمالهن بين كل النساء، ويطوف حولها ولدان مخلصون مثل اللؤلؤ  
المنثور، وفي سماء تلك الحدائق كانت هناك أطراف تشبه أجساد البشر  
لكنها كانت روحانية، ليشعر الشاب الوسيم أن هناك فاراً بين أطراف  
البشر التي في السماء وبين سكان الحدائق الغناء، في الوقت الذي قال  
فيه الرجل:

اختفت صورة الأطباق الطائرة والمخلوقات الفضائية من عيني الرجل،  
وظهرت حدائق غطاء تجري من تحتها الأنهار، وتحيطها نخل باسقات  
لها طلع نضيد، وأشجار تتدلى منها فواكه لا مثيل لها على الأرض،  
وتتوسطها قصور من الذهب والفضة تطل منها حور عين لا مثيل  
في جمالهن بين كل النساء، ويطوف حولها ولدان مخلصون مثل اللؤلؤ  
المنثور، وفي سماء تلك الحدائق كانت هناك أطراف تشبه أجساد البشر  
لكنها كانت روحانية، ليشعر الشاب الوسيم أن هناك فاراً بين أطراف  
البشر التي في السماء وبين سكان الحدائق الغناء، في الوقت الذي قال  
فيه الرجل:

إلى هذا الحد نسيت كل شيء؟ أنت بحاجة لعلاج عاجل في كوكبنا إذن، هيا تعال معي.. هناك ستعرف كل شيء بالتفصيل.

الشاب من جديد:

وماذا عن آيات؟ هل ستتركها هكذا؟

الرجل بدهشة شديدة وأجابه:

أعينك أمها؟ لا.. لا تقل لي إنك وقعت في غرام دمية من صنع أيدنا.. إنها لا ترقى ليّني جنسنا أيها الساذج.. هل نسيت حبيبك على كوكبنا؟

الشاب رأسه وكأنه يُحاول أن يطرد كابوساً غير حقيقي من رأسه بضييق:

فلتد وجهها إلى ما كان عليه إذن وتتذّرها من براثن أولئك الخاطفين!

سعت ابتسامة الرجل وهو يُجيب بلهجة غامضة:

ليكن ما تريد.

ثم أمسك بكفّي الشاب وسحره بعينه من جديد ليرى داخلهما (آيات) وهي تهزول خارج الملهي الليلي الذي كانت مختطفة فيه وقد نزع من وجهها النقاب وعاد إلى جماله الذي كان عليه، وما أن يقع نظرها على أول نافذة سيارة وترى وجهها الذي شفي تماماً حتى تتجمد في مكانها وتضع يديها على الزجاج لتتقرب وجهها أكثر وتطيل النظر وهي لا تُصدق عينيها اللتين انهمرت منهما دموع السعادة، قيل أن تتلاشى صورتها من عيني الرجل، في الوقت الذي التمت فيه الدموع في عيني الشاب قيل أن تنزل كحبات الماس المصهور، ويصاحبها صوت النحيب لا تائراً فقط برؤية وجهها الوضاء من جديد وقد استعاد شروقه وإشراقه، بل لأنها لن تعود له كما كان يتمنى.

كما رأيت.. مصائرهم بالنسبة لنا كن فيكون.. فطاقة تفكيرنا قادرة على تبديل أحوالهم في أقل من غمضة عين، وعندما نعود لعالمنا سترى ما

يروا من خلاك كيف يمكن تغذية هذه الأديان بشكل يتصدى للمعنة الرانيلي الذي سيكشف هويتنا، ويكل أسف كان لا بد وأن يحدث صدام بيني وبينك بعد انتهاء مهمتنا حتى لا يقطن أحدهم إلى حقيقة الأمر وينشغلوا بالتساؤل عن مصيرنا وأين اختفينا بعد عودتنا.. مؤخراً حدث اجتماع بين الفريقين اللذين أرسلانا وأخبروني بضرورة العودة وأنت معي بعد أن حاول فريقك التواصل معك ولم يتجح لخلل مفاجئ حدث في أجهزة استشعارك المزروعة داخلك..

عادت عينا الرجل إلى طبيعتهما وهو يمد يده لتمسك يد الشاب ويجذبه للسير معه قائلاً:

- والآن هيا يا صديقي نعود من حيث أتينا حيث عالمنا الحقيقي،

تجمد الشاب في مكانه ولم يتجاوب، فنظر له الرجل بدهشة وسأله:

- ماذا هناك؟

باغته الشاب بنظرة صارمة وهو يرد على سؤاله بسؤال:

- إن كنا نحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، فمن خلق سكان كوكبنا؟

ضحك الرجل ضحكةً مجلجلة، ثم أجاب:

- لا يوجد خالقٌ يا عزيزي.. فنحن من خلقنا سكان هذا الكوكب، وسكان كوكبنا وُجدوا بشكل تلقائي من غبار الكون الموجود قبل حتى أن يتكون الزمن، حيث لم تكن هناك شمسٌ وأقمارٌ لتحدد الليل والنهار.. فقط كان الظلام، ثم حدثت تفاعلات مصادفة وانفجارات قسمت الكون إلى كواكب ونجوم، بعضها مضيء وبعضها معتم، ومن تفاعل النور والظلام مع تكوينات التربة بدأت الحياة تتشكل بصور وأنماط مختلفة، صانعة ملايين التصنيفات، التي تعيش لفترة ثم تموت وتتحوّل إلى صورة أخرى في تتابع لا نهائي.

ظل الشاب جامداً في مكانه ينظر له بارتياح، فقال له الرجل:

هو أكثر .. هيا بنا".

قالها الرجل وهو يمسك بيد الشاب من جديد ويسير معه، وقد استأجر الأخير له تمامًا لتتراقف خطواتهما ويبتعدا عن المكان.

"خدعة رائعة، لكنها لن تكتمل ما دُمْتُ حيًّا".

ترددت الكلمات بصوت الشيخ (خضر) هذه المرة، ليلتفت الشاب خلفه في لهفة وسعادة، وينتزع يده من يد الرجل ليجري نحو معلمه كطفل تائه عثر على والده بعد شهر من البكاء، بينما تجمّد الرجل في مكانه وفال معطياً ظهره للشيخ لنصف دقيقة، قبل أن يلتفت ببطء، وقد أضاع عيناه الزرقاوان كعينين قط، فيما كثر عن أنيابه التي سال الزيد عنها كذئب يتأهب للانقضاض:

"ماذا تريد مني أيها الكهل العجوز؟"

قالها الرجل بلهجة رهيبة لا تشبه أبداً أصوات البشر، وإن تشابهت مع تحفز القياصرة والأباطرة حين يقفون طيول الحرب، ثم تقدم نحو الشيخ وهو يتابع بصوته المثير للرجفة حتى إن شعر الشاب تطاير إلى الخلف مع كلماته التي لازمتها الرياح، قبل أن يجيب الخضر الرجل بنبرة هادئة:

- لا أريد شيئاً.. أنت الذي تريد.. منذ بدء الخليفة وأنت وبنو جنسك تصنعون الأساطير وتتلاعبون بوئائق التاريخ لتضربوا بها مصداقية الأديان، وتغرقوا البشر في الحيرة والتخبط حتى يظنوا طوعاً لكم ولعبة في أياديكم القدرة، تماماً مثلما تُحاول الآن اللعب في دماغ هذا الشاب الطيب لتصطحبه معك إلى الجحيم.

اتسعت عينا الشاب في ذهول، بينما عقد الرجل حاجبيه وقال بغلظة:

- فلتركني أصحابه معي أو تحفظ بجثمانه.

ورغم دقة الموقف، ابتسم الخضر ساخراً وسأله بتحد:

- لماذا لا تصحبني معك بدلاً منه؟

صرخ فيه الرجل:

لا حاجة لي بمسئ مثلك.

لكمة مباغطة إلى وجه الشيخ، وفي لمح البصر مدّ الشاب يده للكمة على ساعده حتى يحمي وجه معلمه، قائلاً بكل غضب:

الآن عرفت من أنت.

أن يوجه بدوره نحو الرجل لكمة أودع فيها كل قوته..

سوية وخفة، أمسك الرجل قبضة الشاب وقبض عليها بأصابعه بقوة فتوجّع الشاب بينما مصمص الرجل شفثيه ساخراً:

تؤ تؤ تؤ تؤ.. فلتنس أيام الماضي التي ولت وانتهت أيها المسكين.. (تلتمع عيناه بالشر ويضيف بلهجة قاسية) صاحب الضربة القوية اليوم هو أنا.

لم الشاب لكمة ساحقة جعلته يطير للخلف بقوة شديدة قبل أن يسقط مسح الأرض وهو يحثك بها لأمتار طويلة، فيما قال الرجل وهو يتقدم نحوه وكل خلجة من خلجات وجه تنتفض غضباً:

هزمك قلبك وتسببت مشاعرك في سفك الدماء وإزهاق الأرواح.. والآن وقد تملكك منك الخطيئة فقدت قوتك التي كانت تميزك، وصارت كلمتي هي العليا.

سبحت قدما الرجل عند رأس الشاب الذي يُحاول الصعود بصعوبة، مذهبه من شعره قائلاً:

كل الحمقى الذين عرفوك قالوا عليك ملاك.. لكن من الذي قال إن الملائكة لا تنهزم؟!!

ثم قفز لأعلى ممسكاً برأس الشاب قبل أن يهبط بها ويدبها في الأسفل لتسيل منه الدماء وهو يتأوه بشدة، وبدأ بعدها في كحه وركله بلكمات وركلات متتالية، ليلتقي الشاب اللكمات والركلات دون أي مقاومة لتسيل منه الدماء وتغرق ملامحه تماماً، وفجأة هوت يد الشيخ (خضر) على



كفف الرجل من خلف ظهره ليحذبه نحوه، ويكيل له كلمة بدت أروع سنوات عمره بكثير، حتى إن الرجل اتسعت عيناه وهو يطير أو ويسقط أرضاً، قبل أن يقفز الخضر ويدهس وجهه بحذائه قائلاً:

- هذه من أجل آدم.

ثم هوى على وجهه بكلمة أشد:

- وهذه من أجل حواء.

ثم هوى بكلمة ثالثة:

- وهذه من أجل هابيل.

وفي الكلمة الرابعة صاح:

- وهذه من أجل هذا الفتى.

وفي مكانه بكى الشاب وهو طريق الأرض متسائلاً في نفسه:

- أهذه قوة من لم يقعو في الخطيئة؟

توقف (الخضر) عن معركته ونظر للشاب وهو ينهج قائلاً:

- بل قوة من سقطوا وتابوا يا ولدي.. يا من عدى، ثم اعتدى، ثم اقترف.. ثم استجى، ثم انتهى، ثم اعترف.. أبشر بقول الله أم آياته: إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف.

نظر الشاب للسماء مجدداً وقال بصوت لم يخل من نبرته الباكية وهو ينهض من سقطته متوجهاً بكل قلبه إلى الأعالي:

- يا رب.. أستغفرك وأتوب إليك.

ومع آخر حرف من كلمات الشاب، نهض الرجل من سقطته وترى للخلف سريعاً قبل أن يفر ويطلق ساقيه للرياح وهو يردد ضحكات ساحر مجلجلة ظل صداها في الشارع حتى بعد اختفائه من المكان تماماً.

للخضر بامتنان عجز لسانه عن تحويله إلى كلمات، فيما الخضر ابتساماً مماثلة ثم نظر إلى السماء هامساً بخشوع:

إلهي.. من توكل عليك فلن يخيب، ومن جعلك ملاذه فلن يسيع، ومن اعتصم بك فقد هُدي إلى صراط مستقيم.. فكن لنا ولياً ونصيراً.. وكُنْ لنا مُعيناً ومُجيزاً.. إنك كنت بنا بصيراً.

في الأثناء، كان هناك طيف رقيق يقترب من خلف الشاب حتى مره المشع على وجه الخضر، فلاح من الشاب نظرة للخلف، ثم على رجل يبدو وكأن النور يشع من وجهه وعينه، وقد ارتدى بهضاء فضفاضة واسعة، ليتضح من تحتها جسمه الفارع الضخم من هيئته، ليطول بينهما النظر لدقيقة كاملة، وعندها فقط.. بدأ يسترد ذاكرته المفقودة ولمعت فيها ومضات حملت أثر حديث

كيف حال أهل الأرض؟

كما ترى يا سيدي.. حتى الأماكن المقدسة يطردون منها بركات الرب بالندس والرجز.

هذه طبيعتهم التي جُبلوا عليها.

لينتي ظلت أعذبهم ولم أنعاطف معهم.

ريما أدركت في مهمتك الجديدة أموراً ما زلت لا تدركها بعد كل تلك السنين التي عشتها بينهم.. لفترة من الزمن ستعيش حياة البشر.. ريما ظلت داخلك ملامح من علومنا وقدراتنا.. لكن بما يفيد ذلك حين تُغرس داخلك الشهوة والغضب والقدرة على المعصية.. باختصار ستحيا بينهم كأنك واحد منهم.

حاشا لله أكون منهم أو مثلهم.. ترى ما موعد التنفيذ؟ ومتى سأعود؟

حين اكتملت ذاكرة الشاب ردد بانبيهار:



وحين عاد الشاب من ذكرياته الغابرة ابتسم الخضر وقال:

- يقول أهل هذه المدينة: «كله سلف ودين.. قَدَم السبب والحد»، ويبدو أن هذا المثال صار ينطبق علينا من الآن فصاعداً. تذكرت منذ هذا اليوم في هيئة البشر وساعدتني بدورك في ذلك صرْتُ واحداً من أقدم سكان الإسكندرية، وأكثرهم إيماناً بالحي الذي عاصرته بنفسى ولم أقرأه عبر الكتب، حتى جاء الذي انتظرتَه منذ آلاف السنين.

عند الشاب حاجتيهِ وسأل يدهشة:

- انتظرتَه؟

- نعم.. فقد كنتُ من أولئك الأشرار الذين كانوا يتجسسون الملأ الأعلى، وعلمتُ بأمر ما سيحدث لك من حديث بشائك.. وقيل توبتي كنتُ واحداً ممن شاركوا في مهمة يوم التي أبطلتها أنت والملائكة بعملية الرق المنشور حين قبضت عسي القائد الأكبر وفر منك ابنه الذي كاد أن يغويك الآن، إلى الأرض خصيصاً لأجلك.

- ابن عمك؟

ضحك الخضر وأجاب:

- نعم، واليوم صار عدوي الأكبر.. يبدو أن هناك مشاكل بين العمومة دائماً!

سأله الشاب:

- هل فعلاً شُفيت آيات؟

- كلا بكل أسف، لقد كان يخدعك.

التفت الشاب نحو رئيسه المهيب وقال له بتوسل:

هل انتهت مهمتي عند هذا الحد؟ لا بد أن أساعدها.

الرجل المهيب:

هل انتهت مهمة السماء عند هذا الحد.. حان الآن دور الأرض.

الشاب بتوسل:

أن أبقى علي هيتي البشرية.. لقد تعلمت ما يمكنني أن أغير حياتهم حتى أخرجهم جميعاً من هذا الظلام الذي يعيشون فيه.

الرجل وأجابه:

لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون.. عليهم أن يحلوا الحل بمفردهم.

هل تعتقد أنهم يستطيعون؟

يوجد من هو عاجز وضعيف.. لكن هناك من يجهل سر قوته.

\*\*\*

استقبل العقيد (يحيى) أمام غرفة العمليات الطبيب الذي انتهى له إجراء جراحة عاجلة لـ (إريني) وسأله باهتمام شديد:

- ما الأخبار يا دكتور؟

نزع الطبيب الكمامة من على وجهه وقال في أسى:

- لقد توفي ابنها قبل وصوله إلى المستشفى، أما هي فبمعجزة لكن حالتها خطيرة.

ثم انفتح باب جراحة العمليات لتخرج مجموعة من الممرضات يسبحن تروللي ترقد فوقه (إريني) الغارقة في غيبوبة عميقة، ليلقي نظرة عليها قبل أن يسأل الطبيب:

- ثرى متى سيمكنني أن أسألها؟

أجابه الطبيب بلهجة رتيبة روتينية:

- لا يمكنني أن أخبرك بموعد محدد الآن.. فلندع الله أن تعيد أصلاً.

\*\*\*

دخل الرجل المريب مكفهر الوجه، على (ريمون) و(نصحي) في بشروء الملهى، بينما تم حل وثاق (آيات) التي جلست سارحةً بوجه شاحب حاكى وجوه الموتى، قبل أن يقول (ريمون) بجذل:

- لن تصدق أين كانت تُخبيء الأسطوانات والشيكات.. الهانم وضعتهم..

قاطعته الرجل بلهجة غير مكتنزة وهو يشعل سيجاره معطيًا له ظهره:

- في الكنيسة.

فغر (ريمون) فاهه لثوانٍ وتبادل النظر مع (نصحي) ثم قال بدهشة:

هل كنت تعلم المكان؟

الرجل دخانه بشروء دون أن يلمح كلاهما تلك النيران التي يلمحها في عينيه قائلاً:

نعم.. لكنني كنتُ أريد أن تسقط تلك المرأة العجوز قبل موتها الذي كان حتمياً، بعد أن علمت الكثير.

(ريمون) كتفيه في حيرة وقال:

أنا لا أفهم شيئاً.

له الرجل وقال ببرود:

لا تشغل بالك، دعنا نسترد أشياءك في أسرع وقت.. فالافتتاح خلال يومين.

هلت أسارير (ريمون) وهو يشعر بأن جملاً ثقيلاً قد سقط عن كاهله باسم بتشف وهو ينظر نحو (آيات) قائلاً:

غداً سنصحب فاتنة الحي ذات الوجه البهي لتجلب لنا الأمانة، من داخل الكانديرائية.. لا تنسى أن تداري وجهك يا أميرتي حتى لا تفتتي القسيسين!

دفع الرجل دخانه من جديد قائلاً:

- سأنظركم في الخارج.

سأله (نصحي):

- لماذا؟

منحه الرجل نظرة نارية أربعته، ثم قال:

- لا بد أن يقف أحدنا خارج المكان لتأمين الموقف.. لا تغلقا..

سيمضني كل شيء كما هو مخطط له.

\*\*\*



تجددت كوابيس (آيات) في تلك الليلة الليلاء، بعد أن خسرت في  
وباءت في حكم الهالكين..

من جديد أخذت تعترف مقطوعة لحظة دخول الجنة، بينما يتعثر  
الوسيم فوق الجسر الذي تقو من تحته حمم الجحيم، لينهار الجسر  
من أسفله قبل أن يصل إلى نهايته بخطوة واحدة، لكن في هذه المرة  
(آدم) يقفز نحوه قفزة هائلة ويمد يده ليمسك به ويُنجيه من السقوط،  
نظر الشاب للأسفل وهو يتأرجح، وشاهد المصير الذي كان في انتظاره  
ليتنفس الصعداء، ثم يصعد بمعونة (آدم) ويشكره بامتنان.

ثم نظر لعينيه الباكيتين بعد أن توقفت عن العزف، وطلب منها  
تعرف من جديد!

وعند تلك اللحظة استيقظت من نومها العميق، وفي عينيهاء دموع  
لكن دقائق قلبها كانت منتظمة الإيقاع وهي تشعر بحالة غريبة  
الطمأنينة لا تعرف سرها أو مصدرها.

\*\*\*

احتجبت أشعة الشمس خلف غيوم السحب، ليبدو صباح ذلك اليوم  
لو كان غروباً، قبل أن تبدأ الأمطار في الهطول مع حلول اليوم  
في نفس لحظة انطلاق صوت أجراس الكاتدرائية الذي أعلن عن بدء  
القداس بالتزامن مع توقف سيارة (ريمون) الفاخرة أمام البوابة، ليغادرها  
مع (نصحي) و(آيات) التي تخلت عن نقابها وارتدت قستاناً محتشماً،  
وغطت شعرها وجانبي وجهها المشوه بطرحة عريضة، في حين بقي  
الرجل ذو العينين الزرقاوين على مقعد القيادة.

على أبواب الكاتدرائية دخل عدد من شعب الكنيسة حاملين مظلات  
مفتوحة لنقيهم من ماء المطر، وخلفهم دخل (ريمون) بنظرات متأهبة،  
وبيته وبين (نصحي) سارت (آيات) في ضعف واستسلام، كغزالة  
محاصرة بين أسدين.

ما أن أصبحوا داخل الكنيسة حتى نظرت (آيات) باكية لصورة المسيح،  
وبكت في القداس كما لم تبك من قبل، حتى تحول بكائها لنحيب شديد

لم تستطع نظرات (ريمون) و(نصحي) في كبح جماحها، ودون  
يديها التي وضعتها على فخميها في كنمها، وفي نهاية القداس  
(آيات) لتتناول من جسد المسيح وتشرب من دمه، وهي تنظر إلى  
بعينين دامعتين، ولم يتناول (ريمون) أو (نصحي).

أما غادر الشعب الهيكل، وصل ثلاثتهم إلى غرفة القصص (يوسف)  
فان يقف على بابها خادم عجوز، فقالت له (آيات):

أريد أبونا يوسف في موضوع ضروري لو سمحت.

الخادم:

من حضرتك؟

آيات صديقة دميانة.

لحظة واحدة.

لمرك الخادم باب الغرفة ودخل، ثم خرج بعد ثوانٍ قائلاً:

تفضل يا ابنتي.

سكنت (آيات) الغرفة، وهم الخادم بخلق الباب لكن (ريمون) و(نصحي)  
أراحا يده ودخلا في صلب، وأغلقا الباب خلفهما بينما ينظر لهما الخادم  
بهذهة.

وداخل الغرفة جلس القصص (يوسف) على مكتبه وفي المقعد المقابل  
جلست (آيات)، بينما وقف كل من (ريمون) و(نصحي)، قبل أن يقول  
رجل الكنيسة الوقور:

- الله يقدس روحك يا دميانة.. رغم أي شيء كانت امرأة حنونة  
تبرعت بكل ما تملك للفقراء والمحتاجين.. إن أنسى ما حييت  
آخر كلمة قالتها لي: لقد عرفت الرسالة التي جئت من أجلها،  
ولست في حاجة إلى البقاء أكثر من ذلك.

بكت (آيات) متأثر رغماً عنها، فنظر لها (ريمون) بقسوة وقالت لها عيناها:

"إنجزي"، فأجابته بنظرة خائفة: "حاضر"، ثم قالت للقصة بعض...

- قدس الله روحها يا أبونا.. لقد أخبرتني أنها تركت لي في الحياة حقيقة سوداء تخصني.

نظر القمص لـ (ريمون) و(نصحي) وتأمل ملامحيهما قبل أن يقرأ (آيات) بغمّة:

- تمام يا ابنتي، لكن أود أن أسألك أولاً.. هل في الحقيقة ما يفسد هذين الأخين؟

لجمها سؤاله المفاجئ، فنظرت لـ (ريمون) و(نصحي) بتساؤل، قبل أن يجيب (ريمون) وهو يتحسس مسدسه:

- ما لزم هذا السؤال يا أبونا.. ألا يجب أن تعود الأمانة لأصحابها دون تدخل من الآخرين؟

ابتسم القمص بحذر وأجاب:

- طبعاً يا بُني بلا شك.. لكن هذا إذا كانت الأمانة تخص أشخاصاً بعينهم، ولا تحوي في طياتها أسرار دولة.

نبّئت (ريمون) من إجابته وأشهر مسدسه بشكلٍ مباغتٍ وصوّبه في وجه القمص صائحاً:

- إذن فقد فتحت الأسطوانات يا أبونا.

شبهت (آيات) قبل أن يفتح الباب فجأةً ليدخل منه العقيد (يحيى) ومعه قواتٌ سيطرت على الموقف في ثوانٍ وقبضت على (ريمون) و(نصحي) قبل أن يقول العقيد:

- نحن الذين فتحناها يا أذكى إخوانك، واطلعنا على الأسرار التي حصلت عليها مومساتك من أبناء كبار المسؤولين.. كنت تتوي ببيعها للخارج بملايين، أليس كذلك؟

سقط المسدس من يد (ريمون) وهو ينظر للعقيد بصدمةٍ شديدةٍ، بينما

أحد الضباط الكلابشات في يده هو و(نصحي)، قبل أن يشق (خضر) طريقه وسط الجنود ليصبح داخل مكتب القمص قائلًا وسعادةً وهو ينظر لـ (آيات):

حمداً لله على نجاتك يا ابنتي.

استلمع أن ترد عليه وهي تتأمل ما يحدث حولها وكأنه حلم.

تسبح يقول لك حمداً لله على نجاتك يا آيات

قالت القمص (يوسف) بابتسامةٍ أبويةٍ، فالتفتت لهما (آيات) وقالت بنبرة لا تصدق ما يحدث حولها:

- الله يسلمكما من كل سوء.. (سالت من عينها الدموع وتحولت نبرةً صوتهما إلى بكاء وهي تكرر) الله يسلمكما.

دار (الخضر) إلى القمص (يوسف) قائلاً:

- حمداً لله على سلامتك يا أبونا.

ضحك القمص وهو يعانقه:

- البركة فيك فضيلتك.. فأنت الذي نبهني لمحتوى الأسطوانات وأبلغت معي الشرطة.

وبينما سحبت القوات (ريمون) و(نصحي) للخارج، قال العقيد (يحيى) لـ (آيات) في تعاطف:

- زوجة والدك نجت بمعجزة، وأخبرتني أن ريمون ونصحي هما اللذان قتل ابنها وحاولا قتلها، وينتريغ كاميرا المراقبة في مكتبها تأكيداً تماماً من براعتك أنت وفتاك المثير للمصائب من دمائها هي وابنها.. لكنه متهم في دماء أخرى.

انتهضت مع ذكر سيرة الفتى، وقبل أن تتبس ببنت شفة، تابع العقيد:

- هيا اذهبي إليها في المستشفى فوراً لأن حالتها حرجة.. لقد

طلبت رؤيتك وقالت إن لديها سرًا خطيرًا تريد أن تتقوا ..  
أن تموت .. ويعد زيارتها أريدك في مكتبي.

\*\*\*

وقف الرجل المريب خارج السيارة بالقرب من بوابة الكاتدرائية ..  
سيجاءه بترقب، قيل أن يرى فجأة القوات تصطحب (ريمون) و (نسيم)  
إلى الخارج، دون أن يعلم كيف دخلوا وأين كانوا مخبئين، ليتراجع (نسيم)  
بسرعة، في اللحظة التي غادرت فيها (آيات) الكاتدرائية وهي (الرجل)  
حتى اختفت ..

ظل الرجل المريب يتراجع للخلف لئبتعد عن المشهد قيل أن يصعد  
فجأة بشخص ما فالتفت خلفه ليلقي نظرة، وحينها فقط اكتشف أن  
اصطدم بالشاب الوسيم الذي نظر له بشماتة وثقة بالغة، في حين ارتد  
الرعب والهلع على ملامح الرجل، قيل أن يتوقف الشاب عن الانسحاب  
قبض بشكل مفاجئ على عنق الرجل المريب وقد تحولت ملامحه إلى  
الغضب والصرامة قائلاً:

- إلى هنا وانتهى دورك .. هذه هي النهاية.

حاول الرجل التصلص قائلاً بصعوبة:

- نهايتي ليست بيدك أنت .. سأظل باقياً ما داموا باقين.

ضغط الشاب على عنقه أكثر قائلاً بغلظة:

- سأعزلك عنهم على الأقل.

تشرح صوت الرجل وإن لم يخل رغم ذلك من نبرة التحدي وهو  
يقول:

- لو خيرتهم في ذلك لمنعوك .. فمن الذي سيذبحونه على مذبح  
الضمير ويحملونه كل الخطايا والذنوب حتى يريحوا ضمائرهم

ويبرئوا ساحتهم من الذنوب والخطايا .. الأمر في حاجة إلى  
استفتاء كوني لو كنت تستطيع .. سلمهم في السماء لو كانوا  
واقفون على فعلتك التي لم ترجع فيها إليهم.

الشاب ثواني تخلى فيها عن غضبه ثم ترك عنق الرجل قائلاً

سنلتقي مجدداً .. يكفي أن مخططك قد فسد هذه المرة وكان  
كيدك ضعيفاً.

الرجل قابل توعده الشاب بصوتٍ ساخر لم يخل من الشراسة مردداً:

المجد للشيطان .. معبود الرياح\*

من قال "لا" في وجه من قالوا "نعم"

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال "لا" .. فلم يمت ..

وظل روحاً أبدية الألم!

\* أخذ يقهقه قهقهات مججلة وهو يتراجع حتى اختفى.

\*\*\*

\* من قصيدة (كلمات سبارتكوس الأخيرة) للشاعر الراحل أمل دنقل

عديني أرجوك ولا تجعلينا نضيع الوقت المتبقي في توسل  
ورجاء.. فلدي سر خطير أريد أن أخبرك به.

(آيات) حاجبها بحيرة ثم قالت:

سامحتك.. ما هو السر؟

صالح بالفعل لم يكن والدك.. هذه النقطة تحديداً لم أكذب عليك  
بشأنها.

السمعت عينا (آيات) بدھشة، وهي تقول:

ماذا تقولين؟

سأصف لك مكان الخزانة التي تحوي كل أوراقتي المهمة في  
الفيلا، وكلمة السر الخاصة بها.. هناك ستجدين الوصية  
الأصلية التي كتبها لك قبل أن نغزها أنا وشوقي.

وبعد أقل من ساعة، كانت (آيات) تقف بمفردها أمام الخزانة في الفيلا،  
وهي يدها تُص الوصية الأصلية التي أصبحت مجرد وريقات قديمة  
والية، تتطلع إليهم بعينين زائغتين غير مصدقة ما تقرأ.

"آيات"

لم تصدق أنفيها حين التقطت صوت فتاها الوسيم، وتسلسل شذا عطره  
إلى أنفها، لتلتفت نحوه ببطء وهي تغالب هواجسها بأن كل ما تشعر به  
مجرد تهيؤات، فإذا به بالفعل واقف أمامها في شموخ!

تأرجحت خلجات وجهها ما بين الفرح الغامرة والرهبة والذهول قبل أن  
تسأله بنصف وجه سعيد، ونصف وجه منبهز وهي تمد يدها نحو وجهه  
ببطء:

- أما زلت حياً؟

ابتسم وأجاب:

- الآن فقط يمكنني أن أرفع من عليك النسيان.

اقتحمت (آيات) استقبال المستشفى وهي تركض نحو السلالم من  
المصعد، حتى وصلت إلى الدور الرابع حيث ترقد زوجة والدها في  
العناية المركزة.

وفي الممر، أخذت تجري بين الغرف بلهفة وسرعة شديدة حتى وصلت  
أمام غرفة (إيريني)، وقبل أن تدخل اعتراضتها إحدى الممرضات  
قائلة:

- ممنوع يا أفندم.

إلا أن (آيات) أزاحتها من طريقها بقوة وهي تصيح فيها:

- موضوع حياة أو موت، ابتعدي عن طريقي!

ثم فتحت الباب وسارت بتربق وحذر وهي تتجه نحو سرير (إيريني)  
التي زالت عنها أناقته، وغرب جمالها المصطنع حين خلا وجهها من  
المكياج، وباتت هامدة الحراك، ترقد بين يدي الخالق، تنتظر حكمه  
ومشيئته، وقد تم توصيل جسدها بجهاز رسم القلب، وتم تعليق المحاليل  
الطبية لها.

ما أن أصبحت (آيات) أمام السرير الذي ترقد عليه زوجة أبيها حتى  
اقتربت من وجهها، ونظرت إليها بعينين دامعتين قائلة:

- لم أصدق نفسي حين أخبرني العقيد يحيى أنك تريدني.

اجابتها (إيريني) بضغف:

- أنا التي لم تُصدق نفسها حين صرخت وحاولت منعهم من قتلي  
أنا وابني رغم ما فعلته بك.. (بكت بحرقة وتابعت بصعوبة)  
أمير مات وأنا في طريقي للحاق به.. اتعذرنني أن تسامحنني  
لو رددت إليك حقك؟

نظرت لها (آيات) بحيرة ووجوم، فمدت (إيريني) يدها بضغف لتمسك يد  
(آيات) قائلة بخفوت وثألك:



ثم مدّ يده ووضع رأسها بين راحتي يده، وعاد كلاهما بالزمن لسنوات.  
وخلال رحلة العودة شعرت (آيات) أن كل ما تمر به مجرد فيلم  
تخص أحداثه حياتها الماضية، حتى إنها شعرت بموسيقى تصويرية  
لأغنية "Stolen Child" التي طالما عشقت سماعها لـ Loreena McKennitt

- الطفل الصغير (أيمن) ابن صاحب السيارة الرسميس يظن  
فجأة أمام السيارة المرسيديس الخنزيرة التي يقودها والدها الحبيب  
عندما كان مسافراً معها هي ووالدتها..

- السيارة تتفادى الطفل وتنقلب..

- الشاب الوسيم يقتحم السيارة فجأة وينفذ الطفلة (آيات) ويظل  
يتدحرج معها قبل أن يغادر السيارة.

- الشاب والطفلة يتحدثان في السماء وقد تحولا إلى طيفين نورانيين.

- الشاب يضع يده على رأسها ليلقي عليها النسيان..

- عم (صالح) المزارع البسيط، يجدها وهي صغيرة فاقدة الوعي  
في قلب الزراعات فينحيها ليحملها مردداً في بؤثر لا مثيل له:  
"بسم الصليب"، قبل أن يجد في رقبته سلسلة ذهبية معلق بها  
اسم "آيات".

- في الوحدة الطبية المتواضعة الخاصة بالأرياف يفحص الطبيب  
الطفلة (آيات) وهي نائمة وعلى وجهها الكدمات والسحجات قبل  
أن يسأل عم (صالح): "هل أنت والدتها؟" فيتلعثم الفلاح البسيط  
وقد بوغت بالسؤال قبل أن يجيب: "ها؟ آيات نعم".

- عم (صالح) يعود بالطفلة (آيات) إلى داره البسيطة ويضعها  
على سريرهِ المتواضع ثم يغطيها بحنانٍ جارفٍ.

وذهبت (آيات) مع الشاب الوسيم إلى مقابر الثغر لتزور الرجل الذي  
عاشت عمرها كله وهي تظن أنه والدها، وانهارت من البكاء أمام قبره،  
ثم أخرجت من حقيبتها وصيته واستكملت التذكر..

شاخ عم (صالح) في السن، وردد على فراش الموت، ليقول لـ  
(شوقي) المحامي الذي يكتب وصيته: "اكتب لها في الوصية  
أن تسامحني.. فقد كان كل شيء أن أريها وأكبرها بعدما ضاقت  
بي الظروف ولم أجد من تتزوج بأثماً مثلي.. ما أن سميتها  
آيات على نفس الاسم الذي وجدته في سلسلتها الذهبية وشرعت  
في تربيته، حتى انفتحت لي أبواب الرزق على مصراعيها،  
لذا أوصي بأن تترك نصف ثروتي، والمكان الذي وجدتني به  
مستجده مذكوراً بالتفصيل في الوصية حتى تعود إليه وتسأل عن  
أصحاب الحادث الذي وقع في الليلة التي وجدتني فيها".

الت دموع (آيات) أكثر وأكثر أمام القبر وهي تثني ورقة الوصية بعدما  
همت الأحداث، ثم تأملت السلسلة الذهبية القديمة التي كانت ترتديها  
على وقع الحادث، واحتضنتها بتأثر شديد وكأنها تضم بذراعيها والدها  
والدتها الحقيقيين اللذين لم تعرفهما، وإلى جوارها كان يقف الشاب  
الوسيم..

نظرت له باكياً، فقال بابتسامة هادئة ونبرة يملؤها الإيمان:

- منذ نيتكم الأولى في الأرحام ونحن معكم.. نكلمكم وتكلموننا..  
نراكم وترونا.. نعرفكم أسرار الكون، ونطالعكم على مسار  
حياتكم بأكملها من البداية للنهاية، حتى تأتي ساعة لا بد فيها  
أن نسحب كل ما تعلمتموه من ذاكرتكم حتى تتعلموا كيف  
تصلون إلى الحقيقة بمفرديكم، وتعيشون على الأرض بدون  
معونة السماء، وهذه هي محنة الاختبار.

قالت له بتوتر لا حد له:

- لكنني علمت الآن كل شيء.. هل معنى ذلك أن اختبرني قد  
انتهى؟

- اختبارك لم ينته، وما علمته سيضيع من عقلك مرة أخرى حتى  
تصلي إليه بمفرديك.. أو لا تصلين إليه أبداً.

تلاًلأ الدمع في عينيها وهي تقول بلهجة من يُكذّب نفسه:

- لا.. لا تقل لي أنك ستلقي عليَّ النسيان مرةً أخرى.

نظر لها بتأثر، وقال بكلماتٍ بطيئة:

- لست أنا من يقول، ولا أنا من يقرر.

أجابته بكلماتٍ يقطر منها الحب وعينين تتزرف بالدمع:

- طوال عمري أعشق سيرتكم العطرة وأتمنى أن أصبح مثلكم ..  
أبتعد عن هذا العالم الكريه.. الآن فقط أتمنى أن أكون مثلكم ..  
فقط لأبقى إلى جوارك إلى الأبد دون أن أخشى ألم الغرائز أو الخطيئة.

لمعت عيناه هو الآخر بالدموع حين قال:

- طوال عمركم تحسدونا على عدم ارتكابنا للخطأ والذنوب، لكن بعد رحلتي معكم صدقيني صرت أحسكم على نعمة الخطيئة والإحساس بالنندم.. هذا ما قلته للتو أمام قبر آدم وأنا أسجد له للمرة الثانية بعد أن بلغت أن هذا ثمن التكفير عن ذنبي.

بكت بحرقةً وهي تقول بضعف:

- لكنك أكيد تشعر بي.. عيناك تقولان ذلك.

لانت ملامحه وتأثر صوته وهو يقول لها:

- لكن لم يعد لي قلبٌ يستطيع أن يمنحك ما تستحقينه من مشاعر البشر وعشقتهم.. ابحتي عن قلبٍ خلق من طينٍ مثلك.. أنتم أولى ببعض منا.

ازداد انهماز دموعها الساخنة التي ألهمت وجنتيها وهي تقول بصوتٍ مبجوح:

- لا أريد أن أنساك.

رد عليها بتأثر أكبر:

قلت لك ليس الأمر بيدي.

رأسها يتقهق رغم دموعها التي ما زالت تلمع في عينيها، ثم تقدمت قائلةً باستعطاف:

أتأذن لي بطلبٍ أخير قبل أن تلقى عليَّ النسيان؟

تفضلني!

يدها نحوه بالمصافحة وقالت:

أريد أن أسلم عليك.

بسم برقةٍ ومثَّ يده بدوره مصافحاً، فقبضت على يده بحُبٍّ طامحٍ وهي تده بخنجرٍ جريحٍ، ثم ألقت نفسها في حضنه بغتةً وقالت:

إذا كان الشيطان قد وسوس لي بتقبيل شفتيك يوماً، فهذا الحُسن نابع من ملاك.

\*\*\*

ومضت أيامٌ طويلةٌ بعد اختفاء الشاب الغامض..

كان آخر ما توقفت عنده ذاكرتها بعد أن ألقي عليها النسيان هو مشهد سقوطه من شركة زوجة والدها، عندما أخبرها (ريمون) والرجل ذو العينين الزرقاوين حينها بوفاته.

لكن شهود العيان أخبروها أنه لم يمِث رغم سقطته، وسار على قدميه ثم اختفى، ومن يومها لم تكف عن البحث عنه، وكذا لم يتوقف العقيد (يحيى).

حصلت من الشيخ (خضر) على مذكراته التي تركها عنده، وصار النظر إلى خطه الجميل المنمق ورائحة شذا عطره التي تملأ الصفحات هو سلواها الوحيدة التي هزنت عليها غيابه، إلى جانب تلك الصورة التي رسمتها له بالفحم.

علمت عن الإله في كتاباته ما لم تتعلمه طوال عمرها.. ورأت للإسلام

وجهاً آخر بخلاف ذلك الوجه الذي اعتادت عليه من أتباعه الذين  
صورته وخالفوا مبادئه وتعاليمه ووصاياه.

وحين حصلت على أموالها المملوكة من والدها بالتبني، أجزت عليها  
التجميل بالخارج، لتستعيد تسعين بالمائة من شكلها وجمالها القديم  
وعادت لزيارة (صالح الراعي) في قبره مجدداً وشكرته ببالغ السعادة  
والامتنان، ثم لمعت عينها بالدموع حين لاحت منها نظرة إلى  
مجاور تسكنه (دميانة)، وعلى بعد أمتار كانت هناك مقابر  
المدفون فيها (موريس)، ولم تفكر رغم أموالها الكثيرة أن تغادر  
(دميانة) التي لم تعد تليق بفتاة ثرية مثلها.

وفي مبنى الخدمات، صارت تُغني مع من تبقى من فريق (تسابيح)  
الترانيم المسيحية، والأناشيد والأشعار الصوفية التي حفظتها من الشباب،  
وخلفها يغني الأطفال الذين أحبهو ولم يكفوا عن السؤال عنه.

وقف القمص (يوسف) إلى جوارها في رحلة البحث عن أهلها الحقيقيين،  
وزاروا مكان الحادث وبدأوا يتتبعون الخيط بلا كلل أو ملل، دون جدوى.

وبعد انتهاء إحدى الحفلات، زارها القمص في الكواليس وقال لها بابتسامة  
سعيدة أن معجزة المسيح قد تحققت، وتوصل إلى هوية أهلها الحقيقيين.  
لكنه أخبرها بنبرة غامضة أنه لا يعرف سر ارتباط قدرها بالصدق  
والمفاجأت إلى هذا الحد، خاصة المفاجأة القادمة، ورفض بشدة أن  
يخبرها حتى تكتشفها بنفسها!

\*\*\*

في منزل بسيط الأثاث، جلس رجل عجوز على أريكة متواضعة وأمامه  
فتاة في نفس عمر (آيات)، إذ تناوله كوب ماء وقرص أسبرين، ليتلع  
القرص ويشرب وراءه الماء قائلاً لها في امتنان:

- جزاك الله كل خير يا ابنتي.

قبل أن تهوي على باب شفتيها طرقات سريعة، فظفر الرجل العجوز  
للساعة وقال لابنته بلهجة يشوبها القلق:

- نرى من الذي جاء في وقت متأخر كهذا.. أسألي من الطارق

قبل أن نتفحي!

سألت الفتاة نحو الباب وسألت:

من؟

هياها صوت (آيات) من الخارج:

أنا آيات ابنة عمك.

سألت عينا الرجل وهبً وافقاً بحماسة شاب متجاهلاً مرضه وضعفه  
قائلاً:

آيات؟

أبهرول نحو الباب بنفسه، وبقفزة سريعة غير مصدق أذنيه، وما أن  
فتحه حتى تبادل هو وابنة أخيه التي ظهرت بغتة من العدم نظرة طويلة.  
ليفحصها بعينه من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، وفي كل تفصيلة  
يُمكن فيها النظر كان يرى فيها آخر ما تبقى من ملامح شقيقه وزوجته  
الراجلين لا سيما تلك السلسلة الذهبية القديمة التي حملت اسمها..

نعم.. إنها هي بلا شك.. لكن.. ما هذا الصليب المعلق الذي يجاور  
كلمة (آيات) المتدلية من السلسلة؟!

بينما كانت بدورها تتطلع إلى ملامحه الطيبة، لكن ما تلك البقعة البنية  
التي تتوسط جبهته من أثر السجود؟ وما تلك الآية القرآنية المحققة خلفه  
في مدخل الشقة؟!

ناهت الكلمات على الشفاه، ولم يبق سوى السكوت..

فألصقت مقطوعة موسيقية يُنقن عزفها جميع الحزاني دون الحاجة لتعلم  
أو موهبة.

\*\*\*

علمت (آيات) أن والدها كان رجل أعمال ثرياً، وأن عمها حاول أن يُدير

أعماله من بعده لكنه لم يكن بمهارته وكفأته، لذا تلاقت الحساب الفادحة، فقرر تصفية تلك الأعمال حتى يحولها إلى رأس مال يضعه في البنك، ليكون من نصيبها لو ظهرت في يوم من الأيام، لكنه فقد الأمل في عودتها بمرور السنين، قبل أن ينهشه المرض، ويتدهور به الحال حتى اضطر أن يمد يده على أموال أخيه الراحل، فتكفلت بعد ظهورها بعلاجه ومنحته المال اللازم ليتم حلم حياته بحج بيت الله الحرام!

جهزت ابنة عمها وأسهمت في حفل زفافها.

صارت تنبزع للجامع والكنيسة، وتواصل غناء الترانيم المسيحية والأناشيد الإسلامية بنفس طريقة غناء الشاب وأدائه، ورغم كثرة من أعجبوا بها وطلبوا منها الزواج، كان ردها القاطع دائماً هو الرفض، دون أن تغدو الأمل في العثور على فتاها الوسيم بمعجزة ليست ببعيدة مثلاً عرفت على أهلها الحقيقيين بعد سنين طويلة.

جمعت تسجيلاته الصوتية ومذكراته ومذكراتها، ومزجت الواقع بالخيال حتى صنعت رواية ضخمة، جعلت من نفسها بطلتها، والغريب أنها حين حاولت تحريف الواقع وإضفاء لمسة خيالية على أحداثه التي حاكها القدر، جعلت من البطل ملاكاً ما أن أتم مهمته حتى عاد مجدداً إلى مملكة السماء!

وأحدثت الرواية فور طرحها، ضجة هائلة في الأوساط الدينية والثقافية، لا سيما بعد أن كتب على غلافها من الخارج: مستوحاة من أحداث حقيقية!

\*\*\*

وفي السماء وقف الشاب الوسيم يستمع إلى صريف الأقلام وهي تُدوّن في عالم الملكوت أفعال أهل الأرض، ليُرَهِف السمع ويتابع أبناء تلك الإنسانية التي غيرت مجرى حياته، قبل أن يستقبل رئيسه المهيب الذي أتاه وهو يتشمم ابتساماً غامضة ثم ناوله كتاباً ضخماً قائلاً:

- يبدو أن حبيبة الأمس كانت أكثر نكاء مما نتوقع.. لقد جعلتك بطل روايتها.

الشاب الكتاب وطالع غلافه، فرقع حاجبيه بانبهار وهو يقرأ ذلك العنوان المكتوب عليه مردداً بدشة:

ملكوت؟!!

وفي مكتبها، أخذت (آيات) تتصفح حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك"، لتجيب على عشرات الرسائل التي تستقبلها يومياً، وتتابع ردود الفعل على روايتها وأغنياتها، دون أن تلمس -كالمعتاد- أن تمر على حساب فتاها الوسيم المُسجَّل باسم (نور)، وتتأمل صورته التي التقطتها له بهاتفها المحمول. وكالمعتاد أيضاً سالت من عينيها الدموع، لتتقافز أصابعها على لوحة المفاتيح وتكتب:

من الممكن أن تشعر نفسك بالغبية وأنت داخل وطنك.. ومن الممكن أن تشعر روحك بالغبية وهي داخل جسدك.. هاجروا بأرواحكم إلى العالم السماوي مثلاً تريدون الهجرة من هذا الوطن الضيق.. وحينها ستجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولجأة أتاها إشعارٌ جديدٌ بمنشور تمت فيه الإشارة إليها، وكانت هذه الإشارة من حساب الشاب الوسيم، لتتسع عيناها بدشة وانبهار وتفتح منشوره الذي كُتب من ثوانٍ قائلاً:

- إن الواقفين عند حائط المبكى يبتهلون.. والذين يوقدون الشموع في الكنائس ويتلون الترانيم ويحضرزون القداس.. والذين يكبرون في المساجد ويركعون ويسجدون، ويظوفون حول بيت الله الحرام، مستحضرين عظمة الله في قلوبهم.. جميعهم يصلون لإله واحد لديهم الأمل في رحمته وخلاصه.. يحيونه بصدق ويتقنون في حبه لهم.. يعطونه القليل وينتظرون منه الكثير.. فلا حاجة لهم أن يتصارعوا عليه وقد وهب نفسه ملكية عامة للجميع..





جميعهم في غنى عن الحكم على المخالفين لهم لأن الله  
أولا وأخيرا للخالق الوحيد الذي سيفصل بينهم يوم الدينونة  
فليوقفوا آلة الحرب باسمه، وليملأوا الكون بتراتيل المحمديين  
بينهم كإخوة من نسل واحد، وأبناء عمومة للكون بكل ما فيه  
لعل في حبهم خلاصًا ومغفرة حتى وإن كان الراح في النهاية  
دينًا واحدًا.. فالمحبة بين المخلوقات بعد الدين دين.

والى جانب الإشارة إلى الحساب الشخصي لـ (آيات) في منشوره، ظهرت  
أيقونة وجه مبتسم وإلى جوارها جملة: يَشْعُرُ بالإيمان!

تمت بحمد الله

شريف عبد الهادي

29/9/2015

- القرآن الكريم

- الكتاب المقدس

- أرشيف موقع الألبا تكلهيمانوت

- موسوعة ويكيبيديا

- كتاب "الإيمان وعالم الملائكة" تأليف الدكتور أحمد شوقي إبراهيم

- كتاب "يهود مصر من الازدهار إلى الشتات" تأليف الدكتور محمد أبو الغار

- كتاب "ثلاث نوافذ تطل على السماء" تأليف الدكتور علي السمان

- كتاب "إيليس" تأليف عباس محمود العقاد

- كتاب "غفر الموت" تأليف الدكتور مصطفى محمود

- كتاب "السر الأعظم" تأليف الدكتور مصطفى محمود

- كتاب "الله" تأليف الدكتور مصطفى محمود

- كتاب "التصوف" تأليف الدكتور يوسف زيدان

- كتاب "1001 اختراع وحقيقة مذهبة عن الحضارة الإسلامية" تحقيق البروفيسور سليم الحسني

- كتاب "ليل المسلم الحزين" تأليف حسين أحمد أمين

- كتاب "الوجه الآخر للمسيح" تأليف فراس السواح

- كتاب "قصة الديانات" تأليف سليمان مطهر

- موسوعة "قصة حضارة" تأليف وول ديورانت

- كتاب "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" تأليف ابن قيم الجوزي

- خواطر للكاتب الليبي محمد الترهوني، استعنت بمقتطفات منها بتصرف في الجزء الخاص بمذكرات (آيات).

- الجزء الذي يرصد حي العطارين في جولة (موريس) و(مميانة) تم الاعتماد فيه على مقالة بعنوان "حي العطارين.. راحة تقارب الضياع" للكاتب الصحفي أحمد الفخراي، وتم نشرها في جريدة أخبار الأدب بتاريخ 23/10/2010

إلى أمي، وأبي، وإخوتي الرائعين هادي، وأحمد، وكامليا

إلى زوجتي الحبيبة التي طالما تحملتني لميا، وابنتي

الجميلة وملهمتي جنى

إلى الكاتب الليبي الرائع الذي تعلمت منه الكثير/ محمد

الترهوني

إلى أهلي وأصدقائي الأعزاء وشركاء الكفاح :

محمود زينهم - هالة البشبيشي - شريف الليبي - أحمد القرملاوي

- أحمد عبد المجيد - أمير عاطف - محمد ناجي عبد الله - عاطف

حسانين - محمد فاروق المايحي - محمد عبد القوي مصليحي - وليد

عبدالمعتم - ألبرت يعقوب - محمد نجيب ويقي - مي أشرف حمدي -

مي عادل - محمد عصمت - إبراهيم أحمد عيسى - تامر أنور - رويدا

أحمد عرابي - إيمان عبد المقصود - إيمان يوسف

هبة الله مصطفى - هايدى صقر - جون ماهر - ميرا مجدي - محمد مصطفى

# مَلَكَوْتْ

منذ بدء الخليقة، لم يتوقف بنو آدم عن التطلع إلى السماء، ومحاولة استجلاء الأسرار الكامنة فيها خلف الحُجُب والغيوم، حتى أتى هذا الغامض من هناك، وقال: «أنا أعرف الإجابة».

## شريف عبد الهادي

كاتب وإعلامي، عمل بالعديد من الصحف والمجلات والمواقع الالكترونية، إلى جانب عمله بإعداد البرامج التلفزيونية والإذاعية في مختلف القنوات الفضائية



والمحطات الإذاعية. صدر له حتى الآن: كوابيس سعيدة (أول فيلم سينمائي مقروء)، أبابيل (رواية)، تيستروجين (رواية سينمائية)، حبيبة قلب بابا (مقالات تنتمي لأدب الاعترافات).



ISBN 9789778520484

